سيرة الرسول ﷺ

صور مقتبسة من القرآن الكريم

تأليف الأستاذ
محمد عزة دروزة

الجزء الأول

عني بهذه الطبعة ونظم صورها
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الانصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

فهرس الجزء الأول

فهـــــرس
الجزء الثـــاني

بسم الله الرحمن الرحيم

موجز ترجمة حيـــاة المؤلف الأستاذ محمد عزة دروزة ، وآثاره العلمية

هويته الشخصية :

الاسم : **محمـــد عـــزة بن عبد الهـــادي دروزة .**

مكان الولادة : ولد في نابلس ـ فلسطين ـ في شوال لسنة ١٣٠٥هـ . الموافق حزيران سنة ١٨٨٨ م . ، وهو سوري الجنسية .

دراسته :

درس وتخرج في مدارس نابلس الإبتدائية والرشدية والإعدادية ، ولم يقسم له دراسة جامعية فثقف نفسه بنفسه ، وبهذه الطريقة تقوى في اللغـــة الفرنسية ، التي تلقى مبادئها في المدرسة الإعدادية .

عضويته في مجمع اللغة :

في سنة ١٩٥٦ انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغـــة العربية في القـــاهرة .

عضويته في المجلس الأعلى:

في سنة ١٩٥٨ عين عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية ، ثم مقرراً للجنة التاريخية ، وفي سنة ١٩٥٩ استقال من العملين بسبب حالته الصحية .

موجـــز أعمـــاله :

١ ـ مارس وظائف متنوعة ؛ في دائرة البرق والبريد في العهد العثماني ، من سنـــة ١٩٠٦ إلى ١٩١٨ ، وكان آخـــرها سكرتيرية مجلس المـــديرية العـــامة في بيروت .

٢ ـ تولى إدارة مدرسة النجاح الوطنية الإبتدائية والثانوية في نابلس من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٧ م .

٣ – تولى وظيفة مأمور أوقاف نابلس من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٢م .

٤ – تولى مديرية الأوقاف الإسلامية العامة في فلسطين من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٧ وأقاله الانكليز لمساهمته في الحركة الوطنية والثورية ، ولم يمارس بعد ذلك عملاً ديوانياً .

٥ – شارك في الحركة والتنظيمات القومية العربية في زمن الدولة العثمانية من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٨ .

٦ – ساهم في الحركة الوطنية وتنظيمها في فلسطين في سنتي ١٩١٨ – ١٩١٩ .

٧ – ساهم في الحركة العربية في زمن الحكم العربي في دمشق ١٩١٩ – ١٩٢٠ ، وكان عضواً في المؤتمر السوري المنعقد بدمشق وسكرتيراً له .

٨ – شارك في الحركة الوطنية والثورية وتنظيمها في فلسطين من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٧ ، ثم استمر في مساهمته وهو في سورية ١٩٣٧ – ١٩٣٩ ، وكذلك في سنة ١٩٤٦ – ١٩٤٨ .

٩ – كان يشغل مراكز بارزة في معظم أدوار مساهماته هذه .

١٠ – اعتقل أكثر من مرة وحوكم ، وحكم عليه ، وسجن من قبل الانكليز ثم الافرنسيين في كل من فلسطين ودمشق ، ونزح أثناء الحرب العالمية الثانية إلى تركيا ١٩٤١ – ١٩٤٥ ثم عاد إلى دمشق بعد إنتهاء الحرب ومازال يقيم فيها حتى الآن .

١١ – في سنة ١٩٤٨ أجريت له عملية في المرارة وأصبح بعدها غير قادر على المساهمة الفعلية في النضال الوطني ولكنه ظل يشارك بلسانه وقلمه ، مع انصرافه إلى القراءة والتأليف في الدرجة الأولى وما يزال على ذلك بفضل الله وتوفيقه ، وقد ثقل سمعه منذ سنة ١٩٣١ حتى صار صمماً ، وكان هذا مما ساعده على ذلك الانصراف .

آثاره العلمية ومؤلفاته المطبوعة حسب سني طبعها :

١ – رواية وفود النعمان على كسرى أنو شروان ، طبعت في بيروت سنة ١٩١١ . صفحاتها / ٧٠ / .

٢ — مختصر تاريخ العرب والإسلام كان مقرراً للمدارس المتوسطة ، جزآن طبعا مرتين في القاهرة في سنتي ١٩٢٥ ، ١٩٢٧ . عدد صفحاتهما / ٤١٦ / وقد طبعا في المطبعة السلفية .

٣ — القسم النظري من « كتاب دروس في فن التربية » مترجم من الافرنسية . نشر ملحقاً لمجلة التربية والتعليم في بغداد ثم صدر كتاباً مستقلاً . عدد صفحاته ٢٣٢ .

٤ — دروس التاريخ العربي كان مقرراً للمدارس الإبتدائية ، طبع ثماني مرات في فلسطين وبغداد في سنتي ١٩٣٢ — ١٩٤٠ عدد صفحاته ٢٩٢ كانت آخر طبعاته في بغـــداد .

٥ — دروس التاريخ المتوسط والحديث كان مقرراً للمدارس المتوسطة ، طبع ثلاث مرات في فلسطين ودمشق في سنتي ١٩٣٢ — ١٩٣٨ عـــدد صفحاته ٢٣٩ وطبعت آخر طبعاته في مطبعة الترقي بدمشق .

٦ — دروس التاريخ القديم كان مقرراً للمدارس الإبتدائية ، طبع مرتين في فلسطين في سنتي ١٩٣٢ ، ١٩٣٤ عدد صفحاته ٢٠٨ وطبع في مطبعة دار الأيتام الإسلامية في القدس .

٧ — تركيا الحديثة طبع في بيروت سنة ١٩٤٦ وعدد صفحاته ٣٥٥ طبع في دار الكشاف .

٨ — بواعث الحرب العالمية الأولى ، مترجم عن التركية والافرنسية ، طبع في بيروت سنة ١٩٤٦ وعدد صفحاته ١٤٩ وطبع في دار الكشاف .

٩ — عصر النبي ﷺ وبيئته من القرآن الكريم وحالتهما المعاشية والإجتماعية والثقافية والدينية طبع في دمشق لأول مرة في دار اليقظة العربية سنة ١٩٤٦ وكان عدد صفحاته ٥٠٧ ثم طبع في دمشق أيضاً طبعة ثانية موسعة (اي زيد فيه) في نفس الدار في سنة ١٩٦٠ وصارت صفحاته ٨٤٨ .

١٠ — سيرة الرسول ﷺ من القرآن الكريم ، جزآن طبعا في القاهرة لأول مرة في سنة ١٩٤٨ وجاءت صفحاتهما ٧١٨ ، ثم طبعا مرة ثانية في القاهرة في سنة ١٩٦٥

في مطبعة الاستقامة بالتزام المكتبة التجارية الكبرى وطبع في دار إحياء الكتب العربية وجاءت صفحاتهما ٨٣٢ .

١١ ــ القرآن واليهود ، أخلاقهم ومواقفهم وأحوالهم في زمن النبي ﷺ . طبع في دمشق سنة ١٩٤٩ وصفحاته ٤٦٧ .

١٢ ــ القرآن والمرأة ، رسالة طبعت في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥١ وصفحاتها ٦٤ ، ثم وسعت (أي زيد فيها) وطبعت ثانية في صيدا عـــام ١٩٦٧ بعنوان (المرأة في القرآن والسنة) وجاءت صفحاتها ٢٧٣ .

١٣ ــ القرآن والضمان الإجتماعي ، رسالة طبعت في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥١ وصفحاتها ٣٤ .

١٤ ــ القرآن المجيد ، بحوث في مختلف مواضيع القرآن ، طبع في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٥٢ وصفحاته ٣٠٥ .

١٥ ــ حول الحركة العربية الحديثة ، انبعاث هذه الحركة وآثارها والحكم العربي في دمشق وسورية ولبنان ، في عهد الانتداب الافرنسي ، وفلسطين في عهد الانتداب الانكليزي وبعده ، ستة أجزاء طبعت في المطبعة العصرية في صيدا تباعا في سنتي ١٩٥١ ، ١٩٥٢ وجاءت صفحاتها ١٣٣١ ، والسادس يبحث في قضايا العرب الرئيسية وقد أعيد طبع الأجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ في سنة ١٩٦١ وجاءت صفحاتها أكثر من الطبعة الأولى ٣٥ صفحة ، والثالث طبع لحدته والرابع والخامس طبعا معا في مجلد واحد ، وعنونت كمية من الطبعة الجديدة بعنوان (القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها) وجعل الثالث هو الجزء الأول والرابع والخامس معاً الجزء الثاني لهـــذا العنوان .

١٦ ــ مشاكل العالم العربي الاقتصادية والإجتماعية والسياسية ، طبع في دار اليقظة العربية في دمشق سنة ١٩٥٢ ونال جائزة من الجامعة العربية . وعدد صفحاته ٢٦٧ .

١٧ ــ الدستور القرآني في شؤون الحياة ، وفيه شرح لما احتواه القرآن من أحكام ومبادئ وتشريعات وقواعد وتقنينات في مختلف شؤون الحياة السياسية والاقتصادية

والإجتماعية والشخصية ، طبع لأول مرة في دار احياء الكتب العربية في القاهرة سنة ١٩٥٦ وجاءت صفحاته ٦٠٣ . ثم أعيد طبعه سنة ١٩٦٧ في القاهرة أيضاً في نفس الدار موسعاً بعنوان (الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة) وصار جزئين وصدر الأول وصفحاته ٥٨٤ في سنة ١٩٦٧ والثاني وصفحاته ٤٩٨ في سنة ١٩٦٩ .

١٨ — الوحدة العربية ، مباحث في أحوال البلاد العربية والعرب وضرورة الوحدة وتوافر عناصرها وعقباتها ومعالجاتها ، طبع في بيروت سنة ١٩٥٨ بواسطة المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر في مطابع دار الكشاف وعدد صفحاته ٧٢١ ونال الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الإجتماعية سنة ١٩٦١ .

١٩ — تاريخ بني اسرائيل ، من أسفارهم ، طبع في مطبعة نهضة مصر في القاهرة سنة ١٩٥٨ . وعدد صفحاته ٣٣٤ وطبع مرة ثانية في القاهرة طبعة شعبية في سنة ١٩٦١ من قبل اللجنة القومية للتأليف والنشر في ثلاث حلقات وهي ٨١ ، و ٨٣ ، و٨٥ . ثم طبع طبعة ثالثة بواسطة المكتبة العصرية في صيدا ألحق بها رسالة : اليهود في القرآن الكريم — احوالهم وأخلاقهم ومواقفهم من الدعوة الإسلامية والجزاء الذي تلقوه منه ﷺ .

٢٠ — تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة ، ويربط حلقات — تاريخ هذا الجنس — وموجاته من جزيرة العرب وتأثرها في مهاجرها ببعض — في سلسلة واحدة ، صدر منه ثمانية أجزاء طبعت تباعاً في صيدا في المطبعة العصرية في سني ١٩٥٨ — ١٩٦٤ وعدد صفحاتها « ٣٢٦٢ » والأجزاء الأربعة الأولى في تاريخ الجنس العربي ؛ في طور العروبة غير الصريحة في الجزيرة وبلاد الشام والعراق ووادي النيل ، والخامس في تاريخه في طور العروبة الصريحة قبل الإسلام في هذه الأقطار ، والسادس والسابع والثامن في تاريخه في طور العروبة الصريحة بعد الإسلام تحت راية النبي ﷺ ثم تحت راية الخلفاء الراشدين ثم تحت راية الدولة الأموية .

٢١ — العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي ، وهو موسوعة في تاريخ الدول والإمارات والمشيخات والاقطاعيات والقبائل العربية في مدى هذه الحقبة التي امتدت أحد عشر قرنا ، في العراق وجزيرة الفرات وسورية ولبنان والأردن وفلسطين ومصر والسودان والصومال وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى . وطبعت أجزاؤه في دار اليقظة العربية بدمشق في سنتي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ وعدد صفحاتها « ٢٠٤٢ » والأجزاء الثلاثة يصح أن تعد من حلقات تاريخ الجنس العربي . وتتمة لهذه الحلقات ، وقد اتفق على إعادة طبع أجزاء هذا الكتاب طبعة جديدة مع المكتبة العصرية في صيدا .

٢٢ — مأساة فلسطين ، رسالة طبعت في دار اليقظة العربية في دمشق ١٩٦٠ وعدد صفحاتها « ١٣٢ » .

٢٣ — جهاد الفلسطينيين ، طبع في القاهرة سنة ١٩٦١ وصفحاته « ١٠٦ » في دار الكتاب العربي .

٢٤ — عروبة مصر ، قبل الإسلام وبعده ، طبع الكتاب لأول مرة طبعة شعبية في مصر من قبل — لجنة التأليف والنشر القومية — في سنتي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ في حلقتين ، ثم طبع في كتاب مستقل طبعة جديدة في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٣ وجاءت صفحاته « ١٩٩ » .

٢٥ — التفسير الحديث ، وهو تفسير كامل للقرآن الكريم مرتب السور حسب روايات النزول وأسلوبه حديث ، يجمع بين المأثور والرأي . أجزاؤه اثنا عشر . طبعت في دار احياء الكتب العربية في القاهرة تباعاً في سنتي ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ وعدد صفحاتها « ٣٥٧٦ » . وقد تم تنقيح الأجزاء وتهيئتها لطبعة جديدة موسعة وستكون صفحاتها نحواً من ٥٠٠٠ ، كما تم الاتفاق مع المكتبة العصرية على طبع الأجزاء المنقحة بتشجيع من سماحة مدير الشؤون الدينية في دولة قطر وبوشر بالطبع فيه .

وبذلك يكون عدد الكتب المطبوعة الصادرة « ٢٥ » كتاباً ومفرداتها « ٥٣ » وصفحاتها في طبعاتها الأولى — ١٦٦٥٠ — وفي طبعاتها الثانية نحو — ١٨١٥٠ — .

وللمؤلف في المطبعة العصرية في صيدا كتاب جديد تحت الطبع عنوانه : الإسلام والإشتراكية ، ويقدر عدد صفحاته بنحو ٣٠٠ ، وفي المطبعة المذكورة تحت الطبع نسخة موسعة لكتابي تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ، والقرآن واليهود . في مجلد واحد ، ويقدر عدد صفحاته بنحو ٤٥٠ .

٢٦ — المرأة في القرآن والسنة ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٧ وعدد صفحاته ٢٦٠ .

٢٧ — الإسلام والإشتراكية نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٦٨ وعدد صفحاته ٢٥٠ .

٢٨ — الجذور القديمة لسلوك وأخلاق بني اسرائيل ، نشرته مكتبة أطلس في دمشق سنة ١٩٦٨ وعدد صفحاته ١٠٠ .

٢٩ — قصة الغزو الصهيوني ، نشرته مجلة الوعي الإسلامي في الكويت بملحق لها سنة ١٩٧٠ وعدد صفحاته ٧٠ .

٣٠ — نشأة الحركة العربية الحديثة ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٢ وعدد صفحاته ٥١٢ .

٣١ — القرآن والمبشرون ، نشره المكتب الإسلامي في دمشق في سنة ١٩٧٢ وعدد صفحاته ٤٦٨ .

٣٢ — القرآن والملحدون ، نشره المكتب الإسلامي في دمشق في سنة ١٩٧٣ وعدد صفحاته ٤٣٠ .

٣٣ — في سبيل قضية فلسطين ، مجموعة مقالات ورسائل ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٣ وعدد صفحاته ٥١٠ .

٣٤ — الجهاد في سبيل الله في الحديث والسنة ، نشرته دار اليقظة العربية في دمشق سنة ١٩٧٥ وعدد صفحاته ٤٣٢ .

٣٥ — عبرة من تاريخ فلسطين القديم ، مجموعة مقالات ، نشرته المكتبة العصرية في صيدا سنة ١٩٧٨ وعدد صفحاته ١٢٠ .

ومفردات هذه الكتب « ٦٥ » وصفحاتها نحو « ٢١٠٠٠ » .

* — وهناك مخطوطات عديدة منها ما هو تحت الطبع ومنها ما هو قيد النظر والتركيز والطبع وهي : —

١ — في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ، مجموعة مقالات ورسائل في صدد الوحدة مع ترجمة مفصلة . لصاحب الترجمة .

٢ — الجزء الأول والثاني من كتاب (العدوان الاسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث ومراحل الصراع بين أهل البلاد والمعتدين ومصير هذا الصراع) .

٣ — رسالة نقدية لكتاب أنيس الصائغ (فلسطين والقومية العربية) فيها تصحيح أغلاط وتوضيح غـــوامض في سير القضية الفلسطينية .

وهذه الكتب الثلاثة تحت الطبع .

٤ — مذكرات عنوانها (تسعون عاماً في الحياة) في نحو « ١٥٠٠٠ » ورقة .

٥ — تاريخ العروبة والإسلام تحت راية العباسيين .

٦ — تاريخ العروبة والإسلام في الأندلس .

٧ — تاريخ العروبة والإسلام في جزيرة العرب .

٨ — مجموعة مقالات في شؤون إسلامية متنوعة .

٩ — مجموعة مقالات في صدد القضية ا لفلسطينية .

١٠ — مجموعة تعليقات على كتب قرأها .

١١ — مجموعة محاضرات أخلاقية وإجتماعية ألقاها في مدرسة النجاح وأندية فلسطين .

تم بعون تعالى والحمد لله رب العالمين ،،،

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله القائل في محكم كتابه : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » نزل الكتاب بالحق على قلب محمد النبي الصادق الأمين ، ليكون هدى ونبراساً للبشرية يقودها إلى الخير والسعادة بإذن الله الحكيم الخبير ، ،

وصلاة وسلاماً على هادي الإنسانية ، وحامل لواء الحق ، صلَى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهداة الذين حملوا الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة إلى يوم الدين ، صلاة وسلاماً دائمين سرمدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . .

وبعد :

فقد شاءت إرادة الله لنا ، أن يمتد بنا العمر إلى قرب مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، وأن يكون عمرنا وجيلنا في هذا الزمان الذي صدق فيه قول النبيّ ، ﷺ : (القابض فيه على دينه ، كالقابض على الجمر) هذا العصر الذي تميز بفتن كقطع الليل المظلم « يمسي الرجل مؤمنا ، ويصبح كافراً » .

إننا كدعاة إلى الله لم يكن ، والحمد لله وحده ، ليجد الشيطان طريقه إلى قلوبنا قط ، ولم نيأس من روح الله ولا من رحمته ،

كيف لا وهو القائل جل شأنه (إنا نحن نزّلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) وقد صدق الله وعده ، وأعز جنده ، وها نحن نرى في جميع آفاق المعمورة أنواراً تتلألأ ، ونجوماً تسطع كلها تبشر بنهضة إسلامية عارمة ، ستغير مجري تاريخ البشرية إن شاء الله في المستقبل القريب ، حيث تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

إننا ونحن جادون اليوم في العمل الدائب للاستعداد لمؤتمر السيرة والسنة النبوية الثالث ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، لا يسعنا إلا أن نستعرض كل أولٰئكَ الذين كتبوا في هذه السيرة المطهرة ، من قدامى ومحدثين ، وقد تناول الكل جوانب من السيرة ، وبعضهم أجاد ، والبعض عمل على قدر جهده ، ومن الكتاب المبرزين الذين كتبوا في سيرة الرسول ، ﷺ ، الأخ الشيخ محمد عزة دروزة في كتابه القيم :

سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية

الذي نقدمه إلى القراء الأكارم هدية متواضعة من إدارة الشئون الدينية بمناسبة إنعقاد مؤتمر السيرة في الدوحة عاصمة دولة قطر

والكتاب الذي نقدمه إلى القراء ثمرة جهد كبير قام به المؤلف حفظه الله وأمده بالعون ، وقد نحا في كتابه هذا منحاً جيداً في

التاريخ ، ألا وهو ذكر الشواهد من القرآن الكريم مستعيناً في ذلك بذاكرة حافظة قوية وذهن وقاد وقد أجاد في عرض السيرة عرضاً كاملاً ، ثم جاءَ هذا العرض مدعماً بنظر ثاقب ، وفكر نير مؤمن يدل على سعة إطلاع مؤلفه وغزارة المادة ، والثقافة الدينية الكاملة التي يتمتع بها ، وما كان له أن يصل إلى هذه المرتبة ، بدون علم حباه الله إياه ، وتوفيق أمده به . ولقد كان الباعث على تأليف هذا الكتاب استكمال أبحاث بدأها عندما صدر كتابه الأول (عصر النبيّ عليه السلام وبيئته قبل البعثة) . وقد كان ذلك في أوائل عام ١٣٦٦ هـ . حيث وجد أن استكمال البحث العلمي في وضع كتاب في السيرة النبوية الشريفة مقتبساً من القرآن الكريم يعتبر عملاً ضرورياً وجديراً بالمتابعة والبحث . وذلك اقتناعاً ذاتياً ، دينياً بحتاً ، منه ومن كافة العلماءِ المسلمين المخلصين لدينهم ، بأن القرآن الكريم هو أصدق الكتب المشهودة قاطبة وهو أوعاها وأحفظها لما مر بالبشرية من أحقاب وحوادث خلدها رب السماءِ في كتابه المحفوظ ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ليكون الدليل القاطع على صدق القضية (ما فرطنا في الكتاب من شيءٌ) .

ولأن القرآن الكريم على لسان الخالق جل وعلا ، كان خير مصور لشخصية النبيّ ، ﷺ ، وليس هناك أبر ولا أصدق ، ولا أوفى بالكلام منه كما يقول المؤلف (لأنه يشف عما كان في الشخصية

النبوية الكريمة من قوي ومواهب جعلت صاحبها ، ﷺ ، موضع التكريم والعناية الربانية وأهلاً للاصطفاء بالرسالة العلوية ، ولأنه يطلعنا على الناحية الرائعة حقا من الظروف والأدوار التي تقلبت فيها الدعوة حتى انتهت إلى ذلك النصر العزيز والفتح المبين ، وحتى صارت كلمة الله هي العليا) .

على هذا الدرب سار المؤلف موفقاً في عمله القيم حتى خرّج إلى الدارسين والباحثين وطلاب المعرفة تحفةفريدة في نوعها ، خالية من المزالق ، بعيدة عن الإنحرافات والمهاوي التي يقع فيها بعض الكتاب الذين يتعرضون لسيرة النبيّ ، ﷺ، سواء عن حسن نية أو غير ذلك ، فجاء الكتاب بعيداً عن كل ذلك .

وقد كان هذا حافزاً لنا لاختياره لطبعه طبعة جيدة خاصة تقدم هدية من دولة قطر لطلاب العلم الحريصين على سيرة سيد الخلق بمناسبة إنعقاد المؤتمر الثالث للسيرة النبوية في الدوحة عام ١٤٠٠ هـ .

راجين من الله التوفيق والعون ، وآملين أن نكون بذلك قد ساهمنا في وضع لبنة في البناء الشامخ (سيرة النبيّ ،ﷺ) التي نعتز دائما بأن نكون جنداً عاملين في ميدانها ...

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه

الدوحة في ١ – ١ – ١٤٠٠ هـ

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

مدير الشئون الدينية

فصــل
في شخصية النبي عليه السلام

يتألف هذا الفصل من المباحث الآتية :

١ ــ عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته .

٢ ــ شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ونشأته وسيرته قبل البعثة .

٣ ــ أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله .

٤ ــ حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية .

٥ ــ صور من اجتهادات النبي الشخصية ومانزل في صددها من القرآن . وصلة ذلك بالعصمة النبوية .

٦ ــ صور لسلوك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم .

٧ ــ الوحي وأوّلياته .

المبحث الأول

عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته

تحويم المستشرقين حول عروبة جد النبي صلى الله عليه وسلم وخطورة دلالة القرآن على ذلك — المؤيدات القرآنية لمكية النبي صلى الله عليه وسلم وعروبته وقرشيته — موقف متشابه بين اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم والمستشرقين ورد القرآن الحاسم — دلالة قرآنية على قدم صلات القربى بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش — استدلالات على مكانة عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة ورفعة شأنها .

الصورة الأولى

إن تحويم بعض المستشرقين حول أصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم ومكيته وقرشيته — على رغم أن ذلك من الأمور اليقينية عند المسلمين — يجعل الاستدلال على ذلك من القرآن سديداً ، ويجعل له في الوقت نفسه معنى قويا وخالصاً ، لأن غير المسلمين ، والمستشرقين خاصة ، يعترفون بأن القرآن أصدق وأسلم مدوّنة وصلت إلينا من عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد ورد في بعض الروايات أن عبد المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب، نشأ وترعرع في يثرب عند أخواله ، وأن عمه المطلب حمله وأتى به إلى مكة وقال لمن سأله عنه إنه عبد له ؛ ولقد ورد في بعض الروايات كذلك أن لوالد النبي أخوالا في يثرب كما كان لأبيه عبد المطلب ، وأنه كان يقضي كثيراً من أو[illegible] في زيارتهم ، ولقد مات في طريقه إلى إحدى هذه الزيارات ، كما ورد في بعض الروايات أن والدة النبي صلى الله عليه وسلم أخذت ابنها وهو طفل إلى يثرب لتزيره أخواله أو أخوال أبيه فيها ، وأنها ماتت في طريق عودتها من هذه الزيارة ، ولقد ندرت تسمية « عبد الله » عند العرب ؛ ولقد قيل عن هذه التسمية : إن العرب يسمون بها حينما يريدون أن يبقى الاسم الأصلي مجهولا ، أو أنهم يطلقونها على

صاحب الشخصية المجهولة ، وإزاء هذه الروايات والأقوال أطلق المستشرقون(١) لخيالهم العنان يستشفون ما وراءها من معان ومَغارٍ ومجهولات ، لا سيما أن في يثرب جاليات يهودية إسرائيلية ، والنبوّات السماوية إنما عرفت في هذا القبيل من البشر خاصة ، وتساءلوا مشككين عما إذا كانت أصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وأبيه وجدّه ومكيتهم وقرشيتهم لا يصح أن تكون موضع اشتباه ، وعما إذا كان لا يصح أن يكون هناك اتصال دم وصهر واستعداد جنسي بين جدّ النبي صلى الله عليه وسلم أو أبيه وبين إسرائيلي يثرب ، ورأوا في تعدّد الروايات واختلافها وتغايرها ما جعلهم ينظرون إلى شجرة نسب النبي صلى الله عليه وسلم القريب منها والبعيد على أنها مأثورات دينية إسلامية قد صنعت بعد الإسلام ، ومن الغريب ألا يخطر ببالهم حين أثاروا هذه الشبهات أو أرادوا أن يثيروها أن العرب لو عرفوا مغمزاً في نسب النبي لوجهوه إليه ولذكره القرآن في معرض الردّ كما ذكر كل التهم والمغامز التي وجهوها إليه ، ومن الغريب كذلك ألا يخطر ببالهم أن ينعموا النظر ، أو لعلهم عجزوا عن إنعام النظر ، في الآيات القرآنية ليكفوا أنفسهم مؤونة هذه الحيرة أو هذا التشكيك والتحويم الذي يحلو لهم حول كثير مما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يساعدهم فيه — والحق يقال — ثغرات الروايات العربية الإسلامية .

الصُّورة الثانية

والآن نأتي إلى ذكر المؤيدات القرآنية :

أولا : في سورة محمد آية صريحة الدلالة على أصالة مكية النبي صلى الله عليه وسلم وهى هذه :

« وَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ... سورة محمد ١٣

(١) اقرأ مثلا المبحث الطويل في الجزء الأول من كتاب كايتاني — ترجمة تركية — في نسب النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : لقد تكرر ورود تعبير : من أنفسهم ، ومنكم ، ومنهم ، في معرض الخطاب للعرب ولأهل مكة خاصة وفي ذلك توكيد لتلك الأصالة من جهة ولصلة النبي صلى الله عليه وسلم بالعرب بوجه عام من جهة أخرى ، كما ترى فيما يلي :

١ — رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ [1] . . .
البقرة ١٢٩

٢ — لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ . . .
آل عمران ١٦٤

٣ — لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ...
التوبة ١٢٨

٤ — وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [2] . . .
النحل ١١٢ ـ ١١٣

ثالثاً : كذلك تكرر وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأمي ، وهو الوصف الذي جاء فى القرآن لغير الكتابي ، أو للعرب لأنهم غير كتابيين أيضا ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ ...
آل عمران ٢٠

---

(١) هذه الآية من دعوات إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم أثناء رفعهما قواعد الكعبة ودعاء إبراهيم صلى الله عليه وسلم بأن يجعل مكة بلداً آمناً ، والسلسلة تدل بقوة على أنها في معرض توكيد صلة الأبوة بينهما وبين العرب .

(٢) جمهور المفسرين على أن القرية هنا هى مكة وأن الآية نزلت في ظروف ابتلائها بقحط ومجاعة فكان ذلك دلالة على عذاب الله لأن أهل مكة كذبوا الرسول الذى جاءهم وهو منهم .

٢ — ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ... الأعراف ١٥٧

٣ — هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ... الجمعة ٢

وهكذا تلتحم الصلة بين العرب والنبي صلى الله عليه وسلم في الجنسية أيضاً فوق التحامها بينه وبين مكة وأهلها .

ويحسن أن نقف قليلا عند آية الجمعة لنشير إلى مايلهم مضمونها ومضمون ما بعدها من مؤيدات ، وإلى موقف لبعض اليهود فيه شيء من التشابه من ناحية مّا مع ماحام حوله بعض المستشرقين . ونورد أولا الآيات التالية التي جاءت بعدها :

« وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... الجمعة ٣ ـ ٦

فالآية السابقة وهذه الآيات تلهم بقوّة أن اليهود أنكروا نبوّة النبي لأنه من العرب الأمّيين ، وهو أمر مخالف لما كانوا يعتقدون من اختصاص بني إسرائيل بالنبوّات من دون الناس ، فأكدت الآيات من جهة أن الله قد بعث في العرب رسولا منهم ليعلمهم ويهديهم هم وآخرين منهم من بعدهم أيضا ، وردّت من جهة ثانية على اليهود بأنه لاحرج على الله فهو صاحب الفضل يؤتيه من يشاء ، ونددت من جهة ثالثة بهم بأسلوب لاذع لتكذيبهم بآيات الله ناسبة إليهم مناقضة التوراة وعدم رعايتها .

ويظهر أن هذا الموقف من اليهود قد تكرّر واستمرّ ، فتكرّر التنديد القرآني بهم بأساليب فيها وضوح أكثر ، كما ترى فيما يلي :

١ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . . . البقرة ٨٩ ــ ٩٠

٢ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... البقرة ١٠١

٣ — وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ (١) لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ... البقرة ١٠٩

والاستنتاج الذي تؤدّي إليه الآية ٨٩ هو على ماذكره الرواة زعمهم على العرب قبل البعثة وقولهم إنه سيبعث نبيّ من العرب عندهم صفاته يكونون معه حزباً عليهم .وجملة « فلما جاءهم ماعرفوا » وجملة « من بعد ماتبين لهم الحق » تتضمنان إشارات تفسيرية تؤيد الروايات ، كما أن آية الأعراف ١٥٧ التي نقلناها قبل ، تتضمن تأييداً من ناحية أخرى ، إذ لا يمكن أن يكون محلا للريب ما تؤكده هذه الآية ـ من أن اليهود والنصارى يجدون صفات النبي صلى الله عليه وسلم عندهم ـ وهي تتلى جهرة ، فليس لهذا معنى إلا أن يكون مما قالوه ، وقرّروه ؛ والآيات صريحة في تعليل موقف اليهود وتناقضهم بأن ذلك إنما هو حسد وبغي ومكابرة .

وواضح أن التوكيد القرآني تجاه إنكار اليهود هو توكيد قرآني حاسم كذلك تجاه تحويمات المستشرقين حول موقف يماثله من ناحية ما .

رابعاً : لقد تكرر ورود كلمة « قوم » مضافة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في آيات مكية كما ترى فيما يلي :

(١) سياق الآيات في حق اليهود :

١ — وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ... الأنعام ٦٦

٢ — وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ الزخرف ٤٤

وفي آية في سورة إبراهيم تقرر أن الرسل لا يرسلون إلا بلسان أقوامهم ، وفي هذا ينطوي تقرير كونه منهم كما ترى فيها :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ ... إبراهيم ٤

ولقد تكررت التقريرات القرآنية بعروبة القرآن ، وبأن الله قد يسّره بلسان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ليفهمه الذين خوطبوا لأول مرة وهم العرب ، كما ترى في الآيات التالية :

١ — إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... يوسف ٢

٢ — فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا . . .

مريم ٩٧

٣ — نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ . . . الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥

وهكذا تلتحم الصلة أيضاً من هذه الناحية بين عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وكونه جزءاً من العرب ، ثم جزءاً من عرب مكة وقريشها بنوع خاص .

خامساً : في سورة الأحزاب الآية التالية :

« إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ . . . الأحزاب ٥٠

فهذه الآية تدل بصراحة على أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة أعمام وعمات وأخوال وخالات ، وأنه قد تزوج من بناتهم اللاتي كنّ في عداد المسلمين المهاجرين إلى يثرب . والمعروف اليقيني أنه لم يكن بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هاشميات

أي من أسرته القريبة كما أنه لم يكن بينهن بنات أخوال وخالات قريبة مباشرة.وزوجاته القرشيات المهاجرات هن عائشة بنت أبي بكر . وحفصة بنت عمر وسودة بنت زمعة . وهند أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة . ورملة أم حبيبة بنت أبي سفيان . وأقرب القريبات إليه أم حبيبة لأن جدهما عبد مناف . وهو جده الثالث . أما الأربع الأخريات فإنما يلتقي بهن في أجداد أبعد . فيلتقي بعائشة التي هى من بطن التيم في جده (مرة) وبحفصة التي هى من بطن عدي في جده (كعب) وبسودة التي هى من بني عامر في جده (لؤى) ويلتقى بأم سلمة التي هى من بني مخزوم في جده (كلاب) . فهن والحالة هذه بنات عمومته من بعيد جداً إلا واحدة وهى أم حبيبة التي هى من بنات عمه من بعد غير بعيد ولقد كانت أم والده من بني مخزوم . وهم بطن أم سلمة فتكون من ناحية ما من بنات خالاته أو أخواله من بعيد غير بعيد(١) . ولعل بعض الأخريات يتصلن به من مثل هذه الناحية أيضا . لأن المصاهرة كانت واشجة بين بطون قريش .

وهكذا تبدو بنص القرآن صلة القربى بالعمومة والخؤولة غير المباشرتين ، وبالتالي صلة القربى القديمة التي قد تعود إلى عدة أجيال بين النبي صلى الله عليه وسلم ومختلف بطون قريش قائمة لا تحتمل مماراة . ولقد أشير إلى هذه الصلة إشارة قوية في إحدى آيات سورة الشورى وهى :

« قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ » الشورى ٢٣

فهى تدعو النبي إلى أن يقول لبطون قريش : إن وشائج القربى بينه وبينهم يجب أن تكون قرينة قاطعة لهم على أن دعوته إياهم إلى الدين فوق كل شبهة من مطمع أو أجر ، وإنما هى دعوة القريب قريبه إلى ما فيه الخير ، للمصلحة المشتركة والمودة المتبادلة ؛ ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه في صدر هذه الرواية . أنه لم يكن من بطن من بطون قريش إلا وله صلة قربى بالنبي صلى الله عليه وسلم(٢) .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٢١ — ٣٢٣ .

(١) نعتقد أن هذا أو مايقاربه هو التأويل الأقرب إلى الحق من ذلك التأويل الذي يجعل الآية أمراً =

سادساً : لقد ورد في سورة الشعراء الآية التالية :

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ... الشعراء ٢١٤

والآية تتضمن – كما هو ظاهر – دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له في مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، فوق ما يلتحم هذا البطن الخاص بوشائج القربى مع سائر بطون قريش . والقرائن القرآنية مضافة إلى أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة محترمة وجانب عزيز ، فقد اضطر كثير من القرشيين المسلمين إلى الهجرة من مكة إلى الحبشة بسبب ما نالهم من اضطهاد قريش وذوي قرباهم لمتابعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدم وجود من يحميهم وينصرهم ، وهو معنى أشارت إليه آية في سوة النحل هي :

« وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ... النحل ٤١

هذا في حين أن النبي صلى الله عليه وسلم ومعه غيره من رجالات المسلمين القرشيين لم يهاجروا ، وظل النبي يقوم بدعوته قوياً صريحاً عنيفاً في التنديد والتبكيت والهجوم والإنذار بلسان القرآن ؛ ومع الاعتراف بأن لتأييد الله له بروحه ، وخلقه العظيم ، واستغراقه في الدعوة دون مبالاة شيء ، أثراً كبيراً في ثباته في موقفه رغم ما كان يناله من كيد زعماء قريش ومكرهم ومؤامراتهم وأذاهم ، على ما سوف نذكره بعد – فإن مما لاريب فيه أن قوة عصبيته أيضاً كان لها أثر غير يسير في هذا ، كما كان ذلك شأن الذين تخلفوا عن الهجرة من رجالات المسلمين القرشيين .

= بمودة ذوى قربى النبي صلى الله عليه وسلم أجرا على هدايته للناس – هذا مع التسليم بواجب المسلمين باحترام آل النبي صلى الله عليه وسلم لكرامة انتسابهم إليه بقطع النظر عن الآية – ونعتقد أن ذلك التأويل إنما دعت إليه تلك الخلافات الحزبية الأولى ؛ على أنه لايلائم عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتسق مع آيات عدة ورد فيها الأمر للنبي بأن يعلن أنه لايسأل أحدا أجرا ، وإنما تذكر دعوته للناس حتى يهتدوا. اقرأ آيات الأنعام ٩٠ والمؤمنون ٧٢ والفرقان ٥٧ وسبأ ٤٨ والطور ٤٠ والقلم ٤٦ ؛ والخبر المروى عن ابن عباس مما يستأنس به على صحة تأويلنا كما أن تشابه الاستثناء في آيتي الشورى والفرقان يدعمه أيضا . وهذا هو رأى المفسر الطبري بعد أن أورد جميع الأقوال في تفسيره .

ومعلوم أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم كان يتولى سقاية الحاج، وأنه المقصود في المقايسة التي تضمنتها آية التوبة التالية :

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... التوبة ١٩

وهذه المهمة التي كان يتولاها العباس ، واحدة من المهام العليا التي كان يتولاها رؤساء بيوتات قريش الرفيعة أو نبهاؤها ووجهاؤها ، أو بتعبير آخر هي عضوية في حكومة مشيخة الأشراف المكية ، وفي هذا دلالة قرآنية من ناحية ما أيضاً على ما كان لبطن النبي صلى الله عليه وسلم الخاص من عزة ومكانة(١) .

---

(١) ومن الروايات التي تكاد تصل إلى حداليقين في صحتها أن عم النبي أبا طالب زعيم بني هاشم والذي كان شقيق أبيه كان يقف إلى جانبه وينصره ويدافع عنه . وأن معظم بني هاشم وبني عبد المطلب كانوا يتعصبون له مع أنهم لم يكونوا مؤمنين . وأن رؤساء قريش كانوا يتحاشون أذية النبي بسبب ذلك . ولم يفكر في النزوح عن مكة إلا بعد موت أبي طالب . وقد اعتدى عليه هشام بن المغيرة المعروف بأبي جهل مرة فسارع عمه حمزة شقيق أبيه إلى الانتقام منه وضربه ثم أعلن إسلامه . ومما قاله ابن هشام عزواً إلى دين إسحق (إن المصائب إنما تتابعت على رسول الله بهلك خديجة التي كانت له وزير صدق على الإسلام وبهلك عمه أبي طالب الذي كان عضداً وحرزاً ومنعة له فنالت منه قريش من الأذى مالم تكن تطمع به في حياته) . (ج ٢ ص ٢٥ ــ ٢٦) .

المبحث الثاني

شخصية النبي صلى الله عليه وسلم
ونشأته وسيرته قبل البعثة

غلو بعض المسلمين في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم غلوا لا تبرره نصوص القرآن — بواعث الغلو — كفار العرب وشخصية النبي صلى الله عليه وسلم. طبيعة النبي البشرية في القرآن — عدم علمه من أمر نبوته شيئا قبل نزول الوحي عليه — مماثلته لسائر الأنبياء — كونه عرضة للأعراض البشرية المتنوعة — تحليلات واستدلالات قرآنية حول نشأته — مدى تعبير « ووجدك ضالا فهدى » — تعليق على مايردده بعضهم من أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم قومية — حفاوة القرآن بملة إبراهيم ومداها — اتباع ملة إبرهيم قبل البعثة وترجيح كون النبي صلى الله عليه وسلم منهم — اعتكافاته الروحية قبل البعثة وأثرها — تعبداته — مشاركته في بعض تقاليد الجاهلية — تنزهه عن فاسد الأخلاق وشائبة الشرك — صلته ببعض الكتابيين — رفاقه — معارفه المكتسبة — مدى جهد بعض العلماء في نفي ذلك وعدم وجاهته وجدواه — انقباضه وعدم فضوله — مقامه ورجحان عقله وخلقه في قومه — عدم بروزه في طبقة الزعماء — عدم معرفته الكتابة والقراءة — تنبيهات في صدد ذلك.

الصورة الأولى

من العجيب أن يكون في القرآن آيات كثيرة فيها الكفاية لرسم صورة صادقة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وفيها قرائن وإشارات ودلالات عديدة تساعد على التعرف على نشأته وسيرته قبل البعثة ، ثم يعمد بعض المسلمين بل بعض علمائهم ، إلى تجاوز ذلك إلى ما لا تساعد عليه نصوص القرآن ، بل ما تتناقض معها .

فإذا كنت ممن تسنى لهم أن يسمعوا قصة من هذه القصص التي تتلى في حفلات المولد فقد سمعت ولا ريب نماذج من الغلو الذي يكاد يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم شخصية لاهوتية أو في نطاق اللاهوتية . ولقد وقع غير واحد من كتاب السيرة والشمائل وشراحها في هذا الغلو : سواء في سياق ذكر ما قبل نشأة الإنسان الأولى ، أو في سياق

ذكر نسب النبي صلى الله عليه وسلم وحمله وولادته وبشائره ، دون أن يكون لذلك أصل من قرآن أو سند من حديث صحيح ، أو دعامة من منطق معقول ؛ بل لم يرد في روايات السلف ومدونات السيرة القديمة أيضاً . ويبدو أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي صلى الله عليه وسلم الذى يتجلى في التميز في عظم الخلق ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وقوة الإيمان ، والفناء في الله والمهمة العظمى التي اضطلع بها ، ورأوا أنه لابد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون ثمة مقدمات وبشائر ، وإن كان فيها ما يخرج النبي صلى الله عليه وسلم عن النطاق الطبيعى للبشر أولا ولسائر الأنبياء ثانياً ، ويدخله في نطاق اللاهوتية أو ما في معناها ؛ وذلك حين يصفونه بأنه الأب الأكبر لجميع الموجودات ، وأنه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه لأنه هو المقصود من خلق النوع الإنسابي ، وأن جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسي وسماوات وأرضين وإنس وجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره ، وأن أحد أجداده ، إلياس ، كان يسمع تلبيته بالحج وهو في صلبه ، وأنه كان يعلم بأمر نبوته منذ كان في عالم الذر وبعد خلقته ، ويرى علائم ذلك في الشجر والحجر ، وأن أمه سمعت بشائر نبوته ورأت علائمها حين وضعته إلى آخر ذلك مما تجده في القسطلانى وشروحه ومختصراته وغيرها من كتب السيرة والدلائل والشمائل ، وغفلوا عن أن ذلك قد يذهب بحكمة الاصطفاء الرباني لبعض البشر التي انطوت في الجملة القرآنية :

« ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... الأنعام ١٢٤

الصورة الثانية

ومن الغريب والطريف معاً أن يكون مثل هذا الغلو في اعتقاد صفات النبوة هو الذي حمل طائفة من العرب على أن يجحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ويقفوا منه موقفا جموديا ، إذ تخيلوا أن النبي لا بد أن يكون فوق البشرية في القدرة على الخوارق

ومعرفة الغيب وتسخير الأكوان والخلود والصعود إلى السماء واستنزال الملائكة الخ ، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بشراً مثلهم يقرر بلسان القرآن مثليته البشرية ، ويرد عليهم حينما يطلبون منه الخوارق بأنه ليس إلا بشراً رسولا ، عجبوا وجحدوا ، وردد القرآن موقفهم وندد به في آيات كثيرة ، كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً . وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ... الإسراء ٩٠ — ٩٤

٢ — وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ . . . الأنبياء ٧ — ٨

٣ — وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً. أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ... الفرقان ٧ — ٨

والآن نأتي إلى المؤيدات القرآنية .

الصّورة الثالثة

فأولا : ما يتصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم .

إن النصوص القرآنية صريحة :

١ ـ بأن النبي صلى الله عليه وسلم بشر وأن بشريته مماثلة لبشرية الناس جميعا : كما ترى في الجملة القرآنية التالية :

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ... الكهف ١١٠ وفصلت ٦

وقد أكد هذا المعنى في معرض الرد على الذين طلبوا الخوارق من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما جاء في آيات الأسراء ٩٠ ـ ٩٤ ، وفي معرض توكيد أن الأنبياء جميعا بشر كسائر الناس كما جاء في آيات الأنبياء ٧ ـ ٨ التي نقلناها آنفاً .

٢ ـ بأنه لم يكن يعلم من أمر نبوته شيئاً قبل نزول الوحي عليه كما ترى في الآيات التالية :

« قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... يونس ١٦

٣ ـ بأنه لم يكن بدعاً من بين الرسل ولم يكن في شخصيته ورسالته ووحي الله له غير ما كان في الرسل السابقين ، كما ترى في الآيات التالية :

ا ــ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ... آل عمران ١٤٤

ب ــ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنۢ بَعْدِهِۦ . . .

النساء ١٦٢

ت ــ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ . . .

يوسف ١٠٩

ث ــ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ... الرعد ٣٨

ج ــ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ... الفرقان ٢٠

ح — قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ... الأحقاف ٩

وننبه خاصة إلى أن جل هذه الآيات إنما ورد ردًّا على الذين جحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه بشر كسائر البشر ولأن شخصيته كسائر الشخصيات البشرية ؛ وهذا مما يدعم المعنى الذي نقرره .

٤ ـ بأنه لم يكن من جنس الملائكة أو المخلوقات العلوية ولم يكن يعرف الغيب وأنه عرضة للضرر والأعراض المتنوعة الأخرى كسائر البشر كما ترى في الآيات التالية :

ا — قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ... الأنعام ٥٠

ب — قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . . .

الأعراف ١٨٨

ت — وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ . . .

الأنبياء ٣٤

ث — وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ... المؤمنون ٩٧ ـ ٩٨

ج — لاَ يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ... الأحزاب ٥٢

ح — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ . . .

التحريم ١

خ — أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَـَٔاوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ... الضحى ٦ ـ ٨

د — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . . .

الشرح ١ — ٣

إذا كان أكثر هذه الآيات قد نزل لمناسبات حدثت بعد البعثة — إذ جاء بعضها في معرض الرد على تعجيز الكفار وتحديهم ، وبعضها في صدد ظروف النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية — فإن شمول دلالتها لشخصيته قبل البعثة من باب أولى ؛ كما هو المتبادر .

الصّورة الرابعة

وثانياً : ما يتصل بنشأة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة .

فأولا : أن آيات سورة الضحى ٦ — ٨ من أقوى وأوضح النصوص القرآنية في نشأة النبي صلى الله عليه وسلم وحياته إلى مبدإ الوحي ؛ وقد نقلناها قبل قليل ؛ إذ تقرر الآيتان الأولى والثالثة :

ا — ما هو من البدائه المعروفة اليوم من أن النبي كان يتيما ، وأنه نشأ في حضانة رحيمة من جده ثم من عمه أبي طالب . وتعبير « فآوى » يتضمن تقرير هذه الحضانة بالصفة التي وصفناها والتي استمرت حتى انقلبت إلى حماية قوية من عمه كما يدل معنى « الإيواء » ولقد استعمل هذا التعبير في آيات أخرى تضمنت تقرير هذا المعنى ، كما ترى فيما يلي :

١ — وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

الأنفال ٢٦

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ...

الأنفال ٧٢

ب — أنه كان فقيراً فأغناه الله . وأخبار السيرة التي لا اختلاف في جوهرها ولا تناقض تذكر ظروف ذلك على ما هو معروف من صلة السيدة خديجة بنت خويلد رضى

الله عنها به عن طريق عمله لها في التجارة واقترانه بها نتيجة لهذه الصلة(١) .

وإذا كان ثمة شيء نذكره على هامش ذلك ؛ فهو ما نعتقده من أن هذه الصلة كانت فاتحة عهد جديد ، بل حادثاً حاسماً في حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم كان له أكبر الأثر في الاتجاه النهائي الذي اتجه إليه ، وتهيأت به نفسه وقواه الروحية لتلقي الرسالة العظمى والنهوض بها ؛ إذ أغناه الله عن الضرب في الأرض في سبيل الرزق ، فاستطاع أن يتمتع في جانب السيدة بالحياة العائلية الهنيئة المطمئنة من جهة ، وأن يتفرغ من جهة أخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر في ملكوت الله وآلائه ، والقيام برياضاته أو اعتكافاته الروحية ، فارغ القلب من هموم المعيشة وضروراتها . ولعلنا لا نتجوز إذا قلنا أن الإشارة القرآنية إلى هذا الحادث بالأسلوب الذي وردت به ، تتضمن تنويها أو بالأحرى تقريراً لاستحقاق الحادث للتنويه . وننبه على أن روايات السيرة لم تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بأي رحلة تجارية ، أو شغل نفسه بأي مشغلة دنيوية كسبية بعد اقترانه بالسيدة خديجة رضى الله عنها وكل ما ذكرته فهو أخبار رياضاته واعتكافاته ، ثم أخبار قليلة أخرى أهمها حادث التحكيم في وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة ؛ وفي هذا توكيد لصحة ما نقرره(٢) .

---

(١) هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وتجتمع هى والنبي في قصي . وكانت أرملة من زوج اسمه أبو هاله وكانت ذات مال تبعث الرجال مع القوافل ليتاجروا لها . فعرض أبو طالب عليها أن تستأجر محمدا فوافقت فخرج بمالها وربحت التجارة فتوثقت الصلة بينهما إلى أن انتهت بالزواج . وكان عمره حين تزوجها خمساً وعشرين وعمرها أربعين . وقد خطبها له عمه أبو طالب من عمها في رواية وأبيها في رواية وابن عمها في رواية .

انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

(٢) خبر هذه الاعتكافات أو الرياضات الروحية ورد في حديث رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين سنورد نصه في مناسبة آتية . وقد ورد فيه مايفيد أنه حبب إلى النبي (ص) الخلاء فكان يتزود ويذهب إلى غار حراء للتحنث أى التعبد في أوقات معينة سميت في الحديث بالليالي ذوات العدد . وحين ينفذ زاده يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فيتزود ثم يعود إلى الغار إلى أن نزل عليه الوحى . الثابت اليقيني بنص القرآن أن الوحى القرآني الأول نزل عليه في ليلة من ليالي رمضان . والأحاديث الصحيحة تذكر أنها إحدى ليالى العشر الأخير منه أو ليلة السابع والعشرين منه . والمتبادر أن هذه الليالي هى الليالى التي كان يتزود للاعتكاف فيها والتي سميت ذوات العدد . ولقد روى الطبري في تاريخه (ج ٢ ص ٤٨) أي بعض الورعين من قريش كانوا يعتكفون في هذه الليالي للتعبد . وسيأتي بعد قليل شرح عن حادث التحكيم.

وإنه ليكفي المرأة العربية فخراً أن يكون للسيدة خديجة هذا الأثر العظيم في حياة السيد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي استمر عظيما بعد بعثته أيضاً إلى أن توفاها الله وهو أثر نوهت به الأحاديث المروية وخاصة في بدأ بعثته ، وما كان من ثنائها عليه وتشجيعها له وتثبيتها إياه ، وإيمانها بكل ما أخبر به ، على ما سوف نشير إليه بعد ، ثم ما كان من تفجع السيد الرسول صلى الله عليه وسلم على وفاتها وأثرها في نفسه وفي سيرته فى أواخر العهد المكى .

أما الآية الثانية : أي « ووجدك ضالا فهدى » فإنها تقرر فيما نعتقد ، حالة ذات خطورة ودلالة كبيرتين في صدد نشأة النبي صلى الله عليه وسلم الروحية .

ولقد قال المفسرون : إن الآية تحتوي إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته أو في إحدى رحلاته ورووا في ذلك روايات ، كما قالوا : إنها تعني أنه كان غافلا عن الشريعة التي لا تتقرر إلا بالوحي الرباني ، أو أنه كان حائراً في أسلوب العبادة لله ؛ ونفوا عنه على أي حال أن يكون ضالا أي « مندمجاً » في العقائد والتقاليد الشركية . والنفس لاتطمئن إلى رواية تيهان النبي صلى الله عليه وسلم مضموناً وسنداً ، بل أنها ليست متسقة مع ماتضمنته الآية من منّ الله على النبي صلى الله عليه وسلم بأعظم أفضاله عليه ؛ وتفسير ضال « بحائر » يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة في الطريق التي يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه ، وهو المعنى الذي نراه ويعضد ذلك :

١ — جملة « مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ » الشورى ٥٢

٢ — آيات الأنعام التالية :

« قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ... ١٦١ - ١٦٣

حتى لكأن هذه الآيات بمثابة شرح وتفسير لآية الضحى .

الصورة الخامسة

ولقد ذكرت ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم في القرآن مرات عدة بحفاوة عظيمة ، في آيات مكية ومدنية ، وفي صدد الجدل والخطاب مع العرب في مكة ومع اليهود في المدينة ، وفي صدد الدعوة إليها والتنويه بها وتقرير صفتها وماهيتها لذاتها أيضاً ، كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... البقرة ١٣٥

٢ — قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... آل عمران ٩٥

٣ — إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... النحل ١٢٠ ـ ١٢٣

٤ — وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ... الحج ٧٨

فهذه الآيات وأمثالها تلهم أن ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم التوحيدية الحنيفية ، كانت مما تتداوله الألسنة قبل البعثة ، وعنوانا على الملة المثلى لمعرفة الله وعبادته .

ولقد وردت روايات عديدة عن أفراد من العرب في مكة ويثرب تخلوا قبل البعثة عن تقاليد العرب الشركية ووحدوا الله ، ومنهم من تنصر بعد ذلك ، ومنهم من عبد الله

على ملة إبراهيم أو ماظنه ملة إبراهيم ، ومنهم من خرج ينشد اليقين عنهما . على ماذكرناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » ومما ورد في تلك الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي بعضهم قبل البعثة مثل : زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل ، وأمية بن أبي الصلت ، وعبد الله بن جحش .

والذي نعتقده وهو ماوصلنا إلى استنتاجه وتقريره أيضاً في كتابنا الآنف الذكر ، ونرى أن الآيات القرآنية تلهمه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من هؤلاء الأفراد الذين أنفوا من تقاليد الآباء الشركية والجاهلية ، واعتنقوا فكرة الوحدانية وأخذوا يعبدون الله على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم أو ماظنوه كذلك أو أخذوا يبحثون عنها، ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية لما رأوا من انحراف أهلهما واختلافهم وتفرقهم شيعاً متنازعة ، وأنه كان كذلك منذ أن نضج شبابه ، وأن اقترانه بالسيدة خديجة رضى الله عنها ساعده على التفرغ لاتجاهه وحياته الروحية هذه التي كان من مظاهرها الرياضات أو الاعتكافات الروحية السنوية في رمضان وفي غار حراء خاصة على ماسوف يأتي بعد والتي كانت وسيلة من وسائل تصفية نفسه وتجلية ذهنه ، واستغراقه في آلاء الله وملكوته وعظمة كونه ووحدانيته والفناء فيه ، مع شيء من الحيرة وقلق النفس ، إلى أن خصه الله بفضله ، فاصطفاه دون غيره من أهل طبقته لما علم فيه من مواهب عظمى جعلته أهلا للرسالة ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فصار من الحيرة والقلق إلى الهدى والطمأنينة والخطة الواضحة القويمة .

الصورة السادسة

هذا ، ونريد أن نشير إلى مايردده بعض القوميين من العرب من أن الرسالة المحمدية هى رسالة قومية ، أى أنها استهدفت النهوض بالأمة العربية وإصلاحها وتقويتها وتوحيدها الخ ؛ ومع أن في القرآن آيات تذكر مسئولية العرب عن الرسالة السامية التي شرفهم الله بها مثل :

١ — وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ... الزخرف ٤٤

٢ — وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَـٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّـٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... الحج ٧٨

فإن في تلك الدعوى في الحقيقة تجوزاً كبيراً ، وإن من الحق أن يقرر أن اتجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته كان دينياً منبعثاً من شعور ذاتي ، أو إلهام ، بما كان عليه العرب من سخف في العقائد الشركية والوثنية ، وانحراف عن سبيل الهدي الديني ، وأن رياضاته الروحية ، وانصرافه عن كل شيء ، واستغراقه في آلاء الله ، في الفترة التي سبقت اتصال وحي الله به ، قد كانت بسبيل ذلك في الدرجة الأولى ، وهذا مفسر لعمومية وإنسانية الدعوة القرآنية وطابعها الديني البارز ، وخاصة في القرآن المكي . ولعل في آية سورة يونس (١٦) التي نقلناها من قبل قرينة قرآنية حاسمة ، إذ تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي كان بعيداً عن أي نشاط وفضول ، ولم تظهر منه أي بادرة من دعوة عامة قومية أو دينية .

ولا يمنع هذا بطبيعة الحال القول إن الرسالة المحمدية قد استهدفت كخطوة أولى إنهاض الأمة العربية وتخليصها من جاهليتها وتوحيدها وطبعها بالطابع الإسلامي الذي أهلها لحمل مشعل الهداية للعالم .

الصّورة السّابعة

ثانيا : ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على كيفية تعبد النبي صلى الله عليه وسلم لربه قبل البعثة .

ولقد استدللنا في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » بآيات عدّة ، مثل آيات البقرة ٤٣ و١٢٥ والأنفال ٣٥ وإبراهيم ٣٧ ومريم ٣١ والحج ٢٦ والإسراء ١٠٧ على أن أهل هـذه البيئة من العرب كانوا يعرفون أن الصـلاة مظهر من

مظاهر العبادة لله أو الآلهة ، وأنهم كانوا يقومون بصلاة تعبدية ، وأن حالات القيام والركوع والسجود كانت معروفة وممارسة ككيفيات تعبدية عند العرب والكتابيين، وعند العرب أمام الكعبة بنوع خاص ؛ وبناء على هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرف هذه الكيفيات ، وأنه كان يمارسها جهراً عند الكعبة وفي خلواته كعمليات تعبدية قبل بعثته لله وحده تبعاً لاتجاهه الديني الذي ذكرناه آنفاً[(١)]

ثالثاً : إن آية الصوم :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ... » البقرة ١٨٣

صريحة بأن الصوم كعمل تعبدي كان معروفاً وممارساً عند أهل الكتاب الذين كان منهم في الحجاز عدد كبير ؛ ونص الآية يسوغ تقرير أن العرب أيضاً كانوا يعرفون الصوم كعمل تعبدي ديني أيضاً .

أما أنهم كانوا يمارسون ذلك أو يمارسه النبي صلى الله عليه وسلم فليس في القرآن ما يدل عليه ؛ غير أن هناك روايات وأحاديث يمكن أن يستأنس بها على وقوع ذلك ، ولقد ورد في البخاري حديث عن عائشة رضى الله عنها ذكر فيه أن قريشاً كانوا يصومون يوم عاشوراء في الجاهلية وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصومه أيضاً . وهو يوم تجديد أستار الكعبة[(٢)] .

رابعاً : ليس في القرآن نص يمكن الاستدلال به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤدّي قبل البعثة شعائر الحج ومناسك الكعبة من طواف واعتكاف واستلام وسعي ووقوف بعرفة ، أو أنه كان يقوم بالمناسك ويرعى الحرمات المتنوعة الأخرى كتقريب القرابين وتحريم الصيد والأشهر الحرم الخ الخ ؛ غير أن الآيات الواردة

---

(١) كان زيد بن عمرو أحد أفراد هذه الطبقة قبل البعثة النبوية يناجي ربه فيقول (لبيك حقا حقا . تعبداً ورقاً . عذت بما عاذ به إبراهم. أنني لك راغم . مهما تجشمني فإني جاشم . ثم يسجد) انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ .

(٢) انظر تفسير آيات الصيام في تفسير الخازن وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ـ ج ٥ ص ٤٠٦

في شعائر الحج ومناسك الكعبة المتنوعة تدل دلالة لا ريب فيها على أن جل مافي الإسلام من هذه الشعائر كان يمارسه العرب قبل البعثة ، فلما جاء الإسلام طهره من شوائب الشرك والوثنية على ماقررناه في كتاب عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة ، وبناء على هذا فإن مما يسوغ الجزم به أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم بمختلف شعائر الحج ومناسك الكعبة قبل البعثة مجردة من شوائب الشرك والوثنية تبعاً لاتجاهه الديني التوحيدي أيضاً ومما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام أن العرب كانوا يعزون هذه الشعائر والمناسك إلى ملة إبراهيم . وقد أيدت النصوص القرآنية ذلك في آيات عديدة مثل آيات سورة الحج (٢٥ ـ ٢٦) وسورة البقرة ١٢٤ ـ ١٢٩ وسورة آل عمران (٩٥ ـ ٩٧) وقد كان النبي ممن ينشدون ملة إبراهيم ، ولكنه كان على يقين أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ؛ فمن المعقول أن يكون قد مارس تلك الشعائر والمناسك منزهة عن تلك الشوائب .

الصورة الثامنة

خامساً : في القرآن قضية معينة متصلة بممارسة النبي صلى الله عليه وسلم لتقليد من تقاليد الجاهلية ، وهى قضية تبنيه لزيد بن حارثة[1] ، والمجمع عليه أن هذا التبني قد كان قبل البعثة .

أما النص القرآني الذى يتضمن تبني النبي صلى الله عليه وسلم لزيد فهو هذا :

---

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي . وكان مملوكاً للسيدة خديجة رضى الله عنها فاستوهبه النبي (صلعم) منها وأعتقه . وجاء أبوه فخيره النبي بين البقاء عنده أو الذهاب مع أبيه فاختار البقاء فتبرأ أبوه منه فأعلن النبي (صلعم) على ملأ الناس تبنيه له حسب العادة المعروفة فصار يدعى زيد بن محمد . وكان ذلك قبل البعثة . وظل يسمى بهذا الاسم إلى أن أبطل القرآن تقليد التبني وتبعاته . وأمر بنسبة المتبنين إلى آبائهم في آية سورة الأحزاب الخامسة التي تقول (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) فصار يدعى زيد بن حارثة . وفي فصل التفسير في صحيح البخاري حديث عن ابن عمر جاء فيه ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) انظر أيضاً : تفسير آية الأحزاب في تفسير البغوي والطبرسي وانظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ... الأحزاب ٣٦ ـ ٣٧

وهناك آية أخرى تنفي أبوّة النبي صلى الله عليه وسلم لزيد جاءت بعد قليل من هذه الآيات وهى :

« مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ... الأحزاب ٤٠

والآيات تحتوي قرائن قوية على أن قضية زيد متصلة بالنبي صلى الله عليه وسلم وتبنيه ، وأنها بسبيل إبطال هذا التقليد وآثاره التي فصلناها في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ، والتي منها حرمة نكاح مطلقة أو أرملة المتبني أسوة بحرمة نكاح مطلقة الابن من الصلب أو أرملته .

وإذا لم يكن في القرآن ما يستدل به على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمارس قبل بعثته تقليداً آخر من التقاليد العائلية والاجتماعية التي كانت جارية في بيئته فإننا نرجح، إن لم نقل نجزم ، قياساً على ممارسته هذا التقليد وتقاليد الحج المتنوعة ، أنه كان يمارس غير هذه وذاك أيضاً .

وفي أخبار السيرة خبر اشتراك النبي صلى الله عليه وسلم في حرب الفجار حيث كان يهيىء السهام ويعطيها لبعض أعمامه وهو فتى ، وخبر اشتراكه أو شهوده عقد حلف

الفضول ، وخبر تحكيمه في أمر وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة عند تجديد بنائها الخ الخ [1] .

على أن من الواجب أن ننبه إلى أن ثناء القرآن على أخلاقه في آيات مبكرة جدا في النزول وهى آيات سورة القلم :

« نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... ١ ـ ٤

يدل دلالة حاسمة على أنه لم يكن يتورط في عادة أو تقليد جاهلى ينبو عنه الذوق السليم والخلق الكريم ولا يتسق مع انصرافه إلى الله وحده واعتكافاته ورياضاته الروحية ، من مثل أكل الميتة وشرب الخمر ومقارفة الزنا والقمار وتقريب القرابين للأوثان . والاشتراك في حفلات وطقوس عبادتها وتكريمها الخ الخ .

(١) في هذه الجملة ثلاثة أخبار . وهذا موجز فيها :

١ — حرب الفجار التي شهدها النبي كانت بسبب عدوان وقع في منطقة الحرم . والكلمة تعني ذلك . وكانت بين قريش وبعض حلفائهم من ناحية وبين بعض قبائل قيس بن عيلان من ناحية . وهناك حديث مروي عن النبي (صلعم) ذكر فيه أنه حضر هذه الحرب مع عمومته ورمى فيها بأسهم وقال وما أحب أني لم أكن فعلت . وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة . (ابن سعد ج ا ص ١٠٩ ـ ١١٠) .

وفي رواية ابن هشام عن هذا الخبر أن النبي قال : كنت أنبل على أعمامي أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها . (ج ١ ص ١٨٦) .

٢ — حلف الفضول . بعد أن انتهت حرب الفجار المذكورة اجتمع بعض زعماء بطون قريش في دار أحدهم عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه . وشهد النبي الاجتماع وروى عنه أنه قال (ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حمر النعم وإني أغدر به . وقد تحالفت هاشم وزهرة وتيم أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة . ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول . (ابن سعد ج ١ ص ١١٠ ـ ١١١) .

٣ — حادث التحكيم . تعرضت الكعبة لسيل شديد صدعها فاتفق زعماء قريش على هدمها وتجديد بنائها . ثم اختلفوا على من يضع الحجر الأسود ـ وهو حجر صواني لامع كان من تقليد العرب أنه نزل من السماء وأنه هدية سماوية مقدسة فتبركو به ووضعوه في ركن الكعبة تعظيما له وكانوا يقبلونه أو يلمسونه أو يومئون إليه كلما طافوا بالكعبة في مكانه حتى كادوا يقتتلون . ثم اقترح بعضهم تحكيم أول داخل إلى الحرم فكان محمداً فارتاحوا وهتفوا إنه الأمين وكان قد اشتهر بهذا النعت وحكموه فوضع الحجر في ثوب وطلب إلى زعماء قريش أن يمسكوا بأطرافه ويرفعوه معاً إلى أن بلغ مكانه فوضعه فيه بيده فأرضى بتدبيره الحكيم الجميع . (ابن هشام ج ١ ص ٢٠٤ ـ ٢١٤ وابن سعد ج ١ ص ١٢٦ ـ ١٢٩) .

الصورة التاسعة

سادساً : في سورة النحل آية تحكي دعوى بعض الكفار أن شخصا أجنبيا معينا كان يعلم النبي ، وترد هذه الدعوى ، وهى هذه الآية :

« وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ... ١٠٣

والآية تنفي التعليم الذي أراد ناسبوه في ادعائهم جحود نزول الوحي الرباني بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، غير أنها لا تنفي اتصالا ما بينه وبين أحد أفراد الجالية الأجنبية كما هو ظاهر ؛ والمتبادر أن الجاحدين لم يكونوا ليقولوا ماقالوه لو لم يروا أو يعرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد على شخص من أفراد هذه الجالية في مكة هو أهل علم وتعليم ديني ، وله وقوف على الكتب الدينية السماوية . ولقد أورد المفسرون في سياق هذه الآية رواية مفادها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتردد فعلا على نصراني غير عربي اسمه جبر كان يشتغل بالحدادة ، وأنه كان يستمع أحياناً إلى مايقرأ من تلك الكتب(١) . وليس من المستبعد ـ إن لم نقل من المرجح ـ أن يكون هذا الاتصال بقطع النظر عن اسم الشخص وصنعته ، قبل البعثة ، ثم امتد إلى مابعد البعثة ، وأن يكون الشخص المنسوب إليه تعليم النبي ممن آمن به وصدق برسالته واندمج في دعوته ، وكان ممن تشير إليهم الآيات المكية الكثيرة التي تستشهد على صحة الرسالة النبوية بهم وتذكر فرحهم بما أنزل الله على النبي صلى الله عليه وسلم وإيمانهم به ، مثل آيات القصص ٥٢ ـ ٥٣ ـ والأسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ التي نقلناها في مناسبة سابقة ، ومثل الآيات التالية :

---

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطبري والزمخشري . وقد ذكرت الروايات أسماء أخرى في هذا السياق منها اسم عائش أو يعيش غلام حويطب بن عبد العزى وكان صاحب كتب وعلم . ومنها اسم بلعام وكان حداداً نصرانياً وكان النبي يمر عليه ويقف عنده أو يدخل إلى محله على مرأى من المشركين .

١ — ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ . . .
الأنعام ٢٠

٢ — وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ . . .
الأنعام ١١٤

٣ — وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ... الرعد ٣٦

سابعاً : في سورة الفرقان آية تحكي كذلك دعوى بعض الكفار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعين في نظم القرآن بقوم آخرين ، كما ترى :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ... ٤

والآية إنما تنفي كذلك دعوى الاستعانة ولا تنفي اتصالا أو صحبة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من الناس ، كما أن تعبير « قوم ءاخرون » يلهم أن المنسوب إليهم أكثر من واحد والذي يتبادر إلى الذهن أن الكفار لم يكونوا ليقولوا ماقالوه مما حكته الآية لو لم يروا أو يعرفوا أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم حلقة أو رفاق يجتمعون إليه ويجتمع إليهم ويتحدثون في الأمور الدينية . وليس من المستبعد — إن لم نقل من المرجح — أن هذا كان قبل البعثة ثم امتد إلى مابعدها ، وأن يكون من هؤلاء الرفاق أفراد من الجالية الكتابية الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم واندمجوا في دعوته ، وممن كانت تعنيهم تلك الآيات المكية . وقد ذكرت الروايات أسماء عدد من هؤلاء بين المسلمين السابقين كسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي رضى الله عنهم . ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه صديق النبي صلى الله عليه وسلم الصدوق قبل البعثة ، وكان دائم الاتصال به على ما ذكرته الروايات المتعددة ، وكان أول من آمن به من الرجال ، وكان بعض كبار الصحابة مثل عثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة رضوان الله عليهم كذلك من المؤمنين السابقين ، وكانوا من فتيان قريش

النبيين الذين يـكتبون ويقرأون ، فلا يبعد أن يـكون هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر من السابقين الأولين من فتيان قريش أيضاً ـ من هذه الحلقة أو هؤلاء الرفاق .

الصورة العاشرة

ثامناً : في القرآن بعض آيات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غافلا قبل نزول القرآن عليه كما ترى في الآية التالية :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ يوسف ٣

وأن الله قد علمه ما لم يكن يعلم كما ترى في الآية التالية :

« وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ... النساء ١١٣

وأنه لم يـكن يتلو قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه ؛ وقد سيق هـذا للتدليل على عدم وجاهة ارتياب الجاحدين في صحة التنزيل والوحي الرباني كما ترى في الآية التالية :

« وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ... العنكبوت ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها قد حملت على ما يبدو بعض علماء المسلمين على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، بل على بذل الجهد في هذا النفي وتوكيده وهذا ما جعلنا نتعرض لهذا الأمر في هذه النبذة؛ لأن له صلة وثيقة بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته قبل البعثة .

ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء على نفي الاكتساب العلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبذل الجهد في هذا النفي ، كما أننا لا نرى هـذه

الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحتويه الكتب الدينية وغيرها من مبادئ وأسس وتشريعات وقصص ومما كان يدور على ألسنة الناس من مثل ذلك ، كتابيين كانوا أو غير كتابيين ، بسبب تلك الاتصالات التي تلهم وقوعها الآيات القرآنية ، وبسبب الرحلات التي أجمعت الروايات على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قام بها ، وبسبب طبيعة وجوده في بيئة تلم إلماماً غير يسير بهذه المعارف ؛ وكل ما في الأمر أن هذه الآيات هى بسبيل توكيد صحة الوحي الرباني والتنزيل القرآنى ، والتنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد فكر قبل الوحى والتنزيل بالدعوة أو أمّل بأن يكون هو الذي اصطفاه الله ورآه أهلا لوحيه وتنزيله مما يمكن أن تكون الآيات التالية قد أرادت تقريره كما ترى فيها :

١ — قُل لَّوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَىٰكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١) ... يونس ١٦

٢ — وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . .

القصص ٨٦

٣ — وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا . . .

الشورى ٥٢

ولقد أثبتنا بالاستدلالات القرآنية في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » أن أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستقرين منهم في الحجاز وعن طريق الرحلات المستمرة

---

(١) تتضمن الآية فوق ذلك إشارة إلى أنه لم يبدر منه قبل نزول القرآن بادرة دعوة أو سعى في سبيلها حتى يكون للجاحدين مسوغ لاتهامه بافتراء القرآن ونسبته الدعوة إلى الله مؤخراً .

إلى البلاد المجاورة ، وأن كثيرا من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم قد تسربت إلى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة ، وليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يبقى النبي صلى الله عليه وسلم في عزلة أو غفلة عن هذا كله ؛ وإذا كان من الحقائق التي لا يصح المماراة فيها أن الله قد علم النبي بوحيه وتنزيله أموراً متنوعة كثيرة كان غافلا عنها هو وقومه ، فإن ذلك لا يقتضي أنه كان غافلا عن كل ما حوله من أمور وما يدور في بيئته وعلى ألسنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين وعرب وغير عرب من أنباء وقصص وظروف وحالات ؛ فإن هذا يناقض طبائع الأشياء .

ولقد يقال إن في القرآن آيات قررت أن النبي صلى الله عليه وسلم وقومه لم يكونوا يعلمون ما جاءت به القصص القرآنية ، مثل الآيتين التاليتين :

١ — « تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ... هود ٤٩

٢ — « ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ... يوسف ١٠٢

غير أننا لا نرى هذا مما ينقض ما قلناه أو يتعارض معه ؛ فهناك آيات كثيرة أخرى فيها مؤيدات على أن العرب لم يكونوا غافلين أو جاهلين لكثير مما كانوا يسمعونه من قصص القرآن وأخبار الأنبياء والأمم الغابرة وأحوالهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ... الأنفال ٣١

٢ — « بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ... الأنبياء ٥

٣ — فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَ لَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ... القصص ٤٨

٤ — وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ... العنكبوت ٣٨

٥ — وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١) ...

الصافات ١٣٧ ـ ١٣٨

فآيتا هود ويوسف لا تقرران شمول نفي علم النبي وقومه بكل قصة أو خبر قرآني قبل نزول القرآن ، وإنما هما بسبيل قصتي نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم اللتين جاءت الآيتان عقبهما ، فمن الجائز أن يكون في القصتين بعض المعاني أو المواقف الدقيقة التي غفل عنها النبي صلى الله عليه وسلم والسامعون ، وأن تكون الآيتان إنما عنتا ذلك ، لاسيما أن قصتي نوح ويوسف صلى الله عليهما وسلم من القصص الواردة في سفر التكوين من أسفار التوراة بإسهاب ، وقد كانت التوراة متداولة بين أيدي الكتابيين وخاصة اليهود الذين كان منهم جاليات كبيرة مستقرة في الحجاز كما هو معروف ؛ وليس مما يصح فرضه أن تكون القصتان برمتهما مجهولتين جهلا تاماً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم دون غيرهما من القصص القرآنية الواردة في التوراة .

ومعلوم أن في القرآن إشارات إلى أمور كثيرة جدا مما كان عليه الناس في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ودائراً فيها من شؤون وظروف وحالات دينية واجتماعية وأخلاقية ومعاشية ومعارف وأنباء تناولها القرآن بالذكر جدلا وعظة وتعليما وتنديداً وإصلاحاً وتشريعاً وحظراً وإباحة ، ولا يقول أحد بطبيعة الحال إن هذه الأمور جاءت في القرآن جديدة ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أو يمكن أن يكون في غفلة أو عزلة عنها

---

(١) يعني قوم لوط وأطلالهم المدمرة في طريق القوافل التجارية الحجازية .

قبل بعثته ، وكثير منها متصل بتاريخ وأحوال وتقاليد وظروف عربية وغير عربية ، وليس هناك فرق فيما نعتقد في المدى بين الحالتين .

الصّورة الحادية عشرة

تاسعاً : أن في الفقرة الثانية من آية يونس (١٦) التي نقلناها منذ قريب تدليلا لأهل مكة أو لزعمائهم على أن الدعوة النبوية والتنزيل القرآني من أمر الله ووحيه ، إذ لو كانت الدعوة من عند النبي صلى الله عليه وسلم لبدت منها بوادر قبل بعثته أيضاً ، على حين أن شيئاً من هذا لم يبدر منه في السنين الطويلة السابقة التي قضاها بين قومه ، ففي هذا التقرير صورة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من انقباضه وعدم تدخله فيما لا يعنيه وعدم ابتداره الناس بأى شأن متصل بعقائدهم وتقاليدهم الدينية . والفقرة القرآنية تنطوي على تذكير زعماء مكة بهذه الصورة النبوية في الحقبة الطويلة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، والتي نعتقد أنه قضاها في الاعتكافات والرياضات الروحية ، وخاصة منذ نضج شبابه وسكون نفسه بالطمأنينة العائلية ، وإغناء الله له عن الضرب في الأرض ابتغاء الرزق على ما ذكرناه قبل .

ونظن أننا في غنى عن القول بأنه لا تعارض بين هذه الصورة وما ذكرناه في الفقرتين السابقتين ، من ترجيح تردده على بعض الكتابيين ، ووجود حلقة رفاق له يجتمع إليهم من الكتابيين وغيرهم ، وجريان الحديث بينه وبينهم في أمور دينية وثقافية متنوعة ؛ فهذه دائرة ضيقة وخاصة كما هو واضح ، بل قد تكون حلقة من حلقات اعتكافاته ورياضاته الروحية .

عاشراً : في سورة « المؤمنون » الآية التالية :

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ... ٦٩

وقد جاءت في سياق التنديد بكفار قريش على تكذيبهم وجحودهم وعدم

تدبرهم فيما جاءهم ورميهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنون أو مخالطة الجن له كما ترى فيما يلي :

« أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ... ٦٨ — ٧٠

والسؤال في الآية (٦٩) استنكاري ، للتنديد بالكفار على تجاهلهم للنبي صلى الله عليه وسلم مع أنهم يعرفونه حق المعرفة ، ويتضمن تعبير « يعرفوا » معاني عديدة كما تلهمه روح الآية ؛ أي أنهم يعرفونه بالعقل الراجح ، والأمانة والصدق ، وبعدم الفضول والتدخل فيما لا يعنيه ، وبحبه الخير ومكارم الأخلاق واشتهاره بهما ، وبانقباضه عن الشرور والمنكرات والفواحش ومواقف التهم ؛ لأن التنديد بالكفار لم يكن ليستحكم إلا على تجاهلهم مثل هذه الصفات السامية التي يعرفونها فيه تمام المعرفة من قبل .

وفي كل هذا صور عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته من أحوال وأخلاق معروفة ، ومكانة محترمة بسببها . ولقد روت روايات السيرة المعتبرة حادث تحكيم زعماء قريش النبيّ صلى الله عليه وسلم في الخلاف على وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة ، وأنهم كانوا يسمونه الأمين ، وإن قوة الصورة التي تتضمنها الآية لتلهم بأن هذا الحادث صحيح ، كما تلهم أن تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بهذه التسمية العظيمة صحيحة أيضاً .

الصورة الثانية عشرة

حادي عشر : في سورة الزخرف الآية التالية :

« وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ... ٣١

وقد تضمنت الآية حكاية حنق الزعماء وعجبهم لعدم نزول القرآن على عظيم من

عظماء مكة والطائف ، واختصاص النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الشرف الرباني . ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ على أنه كان معروفا غير نـكرة على ماذكرناه في الفقرة السابقة ، وعلى أنه كان من بطن ذي مكانة محترمة وعصبية عزيزة على ماذكرناه في فقرة قبلها ـ لم يكن من الزعماء البارزين في بيئته ، وأن هذا كان من أسباب وقوف زعماء قريش منه موقف الاستـكبار والأنفة ، ترفعا عن اتباع شخص ليس له زعامة توجب الطاعة وتبرر الاتباع ، فقد كان للزعامة أثر ودور قويان في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم. وعصره قبل البعثة كما ذكرنا ذلك في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيئته ، ولقد ردّدت آيات أخرى هذه الأقوال والمعاني وردّت عليها كما ترى :

١ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْـكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللهِ ٱللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... الأنعام ١٢٣ — ١٢٤

٢ — وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللهُ رَسُولاً ... الفرقان ٤١

٣ — وَأَقْسَمُواْ بِٱللهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّازَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً . ٱسْتِـكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ... فاطر ٤٢ ـ ٤٣

٤ — أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ... صٓ ٨

ونظن أننا في غنى هنا أيضا عن التنبيه إلى أن عدم بروز النبي صلى الله عليه وسلم في مجال الزعامة ، وما ورد في آية الفرقان من حكاية استهزاء الـكفار به ، لا يتناقض مع ماقلناه في الفقرات السابقة من أنه كان معروفاً برجاحة العقل ومكارم الأخلاق ، ومن أن عشيرته الأقربين كانت ذات مكانة محترمة وجانب عزيز ، فليس ضروريا أن يكون كل معروف بكرم الخلق ورجاحة العقل ، أو كل فرد من عشيرة ذات مكانة

في المجتمع ، زعيما عظيما بارزاً كما لا يخفى . ولعل هذا ما استهدفت تقريره الآية التي تلت آية الزخرف التي نقلناها وهي :

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ... ٣٢

إذ ردّت على الزعماء الذين أبدوا العجب لاختصاص النبي صلى الله عليه وسلم من دونهم بالرسالة ـ مع أنهم الزعماء النافذون المطاعون إذا أمروا ، والمستجابون إذا دعوا ـ ردا حاسما بأن هذه أعراض دنيوية ، وبأن أمر النبوة رحمة ربانية خاصة منوطة بمؤهلات عظمى لا تمت إلى تلك الزعامات والأعراض الدنيوية بسبب ، وهو ماقررته آيات الأنعام أيضاً بسبيل الردّ عليهم كما هو ظاهر .

ثاني عشر : إن آية العنكبوت ٤٨ التي نقلناها تضمنت نصاً صريحاً على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب أو يقرأ قبل بعثته ، وصيغة الآية تدل على أن هذا الأمر لم يكن يجهله قومه ، إذ تساق في معرض التدليل على صحة الوحي والتنزيل الرباني وفي سورة الفرقان آية أخرى قد تكون مؤيدة للنقطة الأخيرة خاصة وللنقطة الأولى أيضاً وهي :

« وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ... ٥

فتعبير « تملى عليه » بمعنى : تتلى عليه ، وتعبير « اكتتبها » بمعنى استكتبها[1] والقول حكاية عن الكفار ، أي أنهم كانوا يقولون : إنه كان يستكتب قصص الأمم السابقة ويستمع إلى من يتلوها عليه صبحاً ومساء حتى يحفظها ثم يقصها على أنها وحي من الله ، وهذا يؤيد أنه كان لا يقرأ ولا يكتب ، وأن زعماء مكة كانوا يعرفون ذلك .

---

(١) اقرأ تفسير الطبري والكشاف لآية الفرقان .

وننبه أولاً إلى أن هاتين الآيتين هما اللتان تفيدان أن النبي لم يكن يقرأ أو يكتب لا كلمة « الأمي » التي وصف بهـا في آيتي الأعراف ١٥٧ و ١٥٨ اللتين نقلنـاهما في مناسبـة سابقة ، إذ إن هـذه الـكلمة قد استعملت فيهما كما استعمل جمعها في الآيات القرآنية الأخرى[١] بمعنى غير كتابي وغير كتابيين ، وصفـاً للعرب الذين هم ليسوا أهل كتاب .

وثانياً إلى أن آية العنكبوت إنما تنفي معرفة القراءة والـكتابة عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثتـه ؛ ولقد وردت روايات تفيد أنه كان بعد بعثته يكتب اسمه ، وأنه محـا كتابة معينة بيده في أثناء مفاوضات صلح الحديبية وكتابة عقد الصلح[٢] . وبقطع النظر عن سند ومضمون تلك الروايات فليس من المستبعد أن يكون قد تعلم القراءة والـكتابة بعد بعثته ، كما أن الآية لا تنفي ذلك ، غير أن هذا ، إن كان وقع ، قد ظل فيما نعتقد في دائرة محدودة لا تعدو كتابة الاسم أو قراءة بعض الجمل ، لأنه لو تعدى هذه الدائرة لأثر في الروايات والأحاديث على الأقل .

وثالثاً لقد رأينا بعض المستشرقين[٣] يحاول البرهنة على أنه من غير المعقول ألا يكون النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً كاتباً على حين قد احتوى القرآن على معارف كتابيـة كثيرة ، وكان كثير من فتيان قريش من أمثاله وفي مثل سنه يقرأون ويكتبون ؛ بل قد رأينا بعضهم يزعم أنه كان يكتب ويقرأ وإنما كان يحاول كتمان ذلك عن النـاس وعن أصدقائه الذين يعرفون ذلك فيه . ومع أننا لا نرى كبير شيء في كتابة النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته وعدمهما ، كما لا نرى إلمامه بذلك أو عدمه ينقص من عظمة شأنه على

(١) يمكن استثناء آية البقرة ٧٨ لاحتمال دلالة « الأميين » فيها على معنى الضعفاء في القراءة والـكتابة أو الجهال .

(٢) روى الطبري في تاريخه ج ٢ ص ٢٨٢ أن النبي صلى الله عليـه وسلم أملى عَلَى علي رضى الله عنه عقد الصلح وهو : (هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله) فقال مفاوض قريش : لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ! فقال لعلي : امح رسول الله ، فقال : لا والله لا أمحوك أبداً ، فأخذ رسول الله الورقة وليس يحسن يكتب فـكتب مكان رسول الله : محمد .

(٣) كايتاني في بحث الخط العربي ونشأته .

ماسوف نبينه بعد قليل ، فإننا نرى ذلك الزعم غير سليم وغير مستقيم ، وخاصة بالنسبة لما قبل البعثة تجاه صراحة آية العنكبوت التي كانت تتلى على النـاس وعلى أصـدقائه الأدنين الذين يرون صدقه وأمانته وإخلاصه من المقدسات التي تعلو فوق كل مظنة والتي يقوم عليها إيمانهم برسالته ؛ فلا يعقل بأي حال أن تنطوي آية قرآنية على نفي شيء يعرفون عكسه ، كما لا يعقل بأي حال أن يحاول النبي صلى الله عليه وسلم كتمان أمر مثل هذا عن الناس وعن أصدقائه وهم يعرفون صفته ، وليس من الضروري أن يكون قارئاً كاتباً لأن أمثاله ولداته قارئون كاتبون ؛ إذ من الممكن أن يكون عدم قراءته وكتابته بسبب ظروف حياته الخاصة ، إذ تيسر لرفاقه ولداته مالم يتيسر له ، وهو اختلاف طبيعي ونعتقد أنه هو الواقع .

أما الدعوى بأن ما اكتسبه النبي صلى الله عليه وسلم من معـارف كثيرة كتابية وغير كتابية وتاريخية وجغرافية واجتماعية وكونية ودينية تتوقف على معرفته الكتابة والقراءة ، فمنشؤها في نظرنا أن الباحثين ينظرون بعين الحاضر وعقله أكثر مما ينظرون بعين زمن مضى منذ أربعة عشر قرنا وعقله في بيئة مثل بيئة الحجاز بنوع خاص . وقليل من التفكير يكفي لتبين الغلو في هذه النظرة ؛ فلا مطابع ولا مكاتب ولا وراقة ولا كتب منتشرة متيسرة ، وكل ما هنالك بعض كتب ورسائل وصحف دينية مكتوبة على الأعم الأغلب بغير اللغة العربية ، وفي نطاق محدود جداً . ومن المعقول جدا أن يكون الاعتماد في مثل هذه الظروف على الذاكرة الواعية : وليس بدعاً ولا غريباً أن يكون السماع والحفظ هما طريق اكتساب المعارف التي اكتسبها النبي صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته وبعدها — إن لم يكن اكتسابه بالوحي الرباني — ومثل هذا غير نادر الوقوع في كل زمان ومكان إلى اليوم ، ومن الأولى أن يكون هو الأكثر حـدوثاً في عصر النبي صلى الله عليـه وسلم وبيئته .

ورابعاً ما دام اكتساب المعارف ليس متوقفاً على القراءة والـكتابة لا سيما في ذلك العصر وتلك البيئة ، وما دامت المعارف الـكثيرة التي تعلمها النبي صلى الله عليه

وسلم بطريق الوحي والتنزيل الرباني لا تتعارض مع احتمال ، بل حقيقة ، اكتسابه كثيراً من المعارف المتنوعة عن غير طريق الوحي لا سيما قبل بعثته ، فإننا لا نرى في عدم كتابة النبي صلى الله عليه وسلم وقراءته مايحاول أن يراه بعض علماء المسلمين أيضا للتدليل على دعوى أنه لم يكتسب شيئاً من المعارف اكتساباً خارج نطاق الوحي ، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها ، لأن في هذا غلوا لا نرى له محلا ولا إليه ضرورة في صدد كرامة النبي صلى الله عليه وسلم وعظمة شأنه وقدره ، فوق مافيه من التناقض مع طبائع الأشياء على ماذكرناه من قبل بشيء من الإسهاب . ولقد يتوهم متوهم أن فى آية العنكبوت نفسها ما ينقض قولنا هذا ، و نحن لا نعتقد ذلك ؛ لأن الآية بسبيل التدليل على صحة الوحي الرباني بالقرآن والتنديد بجاحدي ذلك ؛ والمعارف التي يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد اكتسبها شيء ، وأسلوب الكتب السماوية التي كانت تتداولها الأيدي شيء ، والوحي القرآني فى طابعه وأسلوبه وطريقته ومداه وروحانيته المستولية النافذة شيء آخر . وكأنما تقول الآية : لو كنت تقرأ وتكتب ولم يكن القرآن وحى الله لكان في أسلوبه ومداه ونظمه وطريقته كالكتب المعروفة المتداولة ، ولكان للجاحدين المبطلين أن يجدوا سبباً للارتياب . ولا تعارض البتة فيما نعتقد بين هذا وبين ماقررناه مدى ومعنى .

المبحث الثالث

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله

في القرآن من وصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله مايغني عن التزيد ـ تجاهل المستشرقين والمبشرين لنصوص القرآن وتمسكهم بالروايات ومدى ذلك ـ العبرة في موقف النبي صلى الله عليه وسلم من هجمات كفار العرب ـ تحليلات واستدلالات في صدد أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ـ مدى ثناء القرآن على خلقه العظيم في آيات مبكرة ـ لين جانبه وعدم فظاظته وغلظته ـ رأفته وحرصه ـ حياؤه ـ حزنه لعدم اهتداء قومه ومغزاه ـ بطولته في ميادين الحرب ـ استغراقه في مهمته وتعاليه عن مباهج الحياة ـ جرأته على الزعماء ومعناها ـ صدقه وأمانته ـ معرفته لحدوده وإخلاصه ـ صلة مابين أخلاقه بعد البعثة بأخلاقه قبلها ـ أخلاقه وفضائله الأخرى ـ تفنيد مانسب إليه من الجنون والسحر والشعر والكهانة والافتراء .

الصّورة الأولى

في القرآن آيات كثيرة جداً من شأنها أن تساعد على إعطاء صورة مشرقة قوية وصادقة لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، تغني عن كثير من المبالغات التي يعمد إليها بعض المسلمين على غير ضرورة وعلى غير سند وثيق ، كما أن من شأنها أن تكون ردا حاسما وقويا على الموقف المنكر الذى يقفه سفهاء المبشرين ، ومغرضو المستشرقين من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله ، إذ يتجاهلون أو يغفلون عما في القرآن فى نصوص وتقريرات ، ويتمسكون دونها بالروايات التي كثيراً ما تكون مخترعة أو مدسوسة أوضعيفة ، أو يشوهونها أو يحملونها ما لا تحتمل فينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأخلاق والصفات والأعمال المعيبة أو المريبة أو المسفة ، أو يعزون إليه التناقض بين الأقوال والأفعال وخاصة في العهد المدنى ؛ في حين أن في القرآن من الآيات ما فيه كل المقنع لمن لم يختم الله على قلبه بما كان عليه السيد الرسول عليه السلام من

الصميمية والرحمة والصدق والبساطة والتجرد والزهد والاستغراق في الله والتزام المثل الأعلى وإعطاء القدوة الحسنى لذلك كله ، وتبليغه كل ما كان يوحى إليه من الآيات التي احتوت المؤاخذة والعتاب واللوم على ما كان يبدو منه من تصرفات اجتهادية تخالف ما في علم الله أنه الأولى ، وفيه ما يحمل كل منصف من غير المسلمين إذ يقرأ تلك الآيات ـ بل إذ يقرأ القرآن كله ـ على اليقين بعظمة النبي صلى الله عليه وسلم كل العظمة ، لا سيما حين يطلع على الصورة القرآنية الصادقة القوية التي تضمنت قصة ما كان من نضال بينه وبين الجاحدين ، وحكاية ما كانوا يتقولونه عليه ، وينسبونه إليه من مثل تلك الأقاويل والنسب ، وما كان يرد عليهم القرآن من الردود الساحقة المفحمة ؛ ثم اليقين بما يمكن أن يدل عليه ذلك النضال في أدوار الدعوة المختلفة من قوة شخصية ، وما كان له من نصاعة بيان وسلامة منطق وسطوع حجة وإخلاص وبساطة مشرقة أخاذة .

الصورة الثانية

وإنه لمما يذهل الإنسان ويثير فيه أشد العجب أن يكون القرآن في متناول كل شخص ، وفيه ما فيه من الدعوة القوية إلى الله وحده منزها عن كل شائبة ، وتوطيد الإيمان والاحترام لجميع أنبيائه وكتبه ، وفيه ما فيه من الحض على كل مكرمة أخلاقية واجتماعية وإنسانية ، والتشنيع على الظلم والإثم والباطل والفواحش ما ظهر منها وما بطن والحث على السلم والسلام . والبر بكل مسالم ، ومراعاة العدل والحق في كل موقف وجعلهما فوق كل اعتبار ، والدعوة بالموعظة والحكمة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى ، وفيه ما فيه من حكاية مواقف أهل الكتاب وخاصة النصارى وفيهم القسيسون والرهبان وما كان منهم من خشوع وخضوع وتصديق واندماج ، حينما لقوا النبي صلى الله عليه وسلم واستمعوا له وشاهدوا أعلام نبوته الصادقة ـ ثم يكون من هؤلاء الناس الذين يزعمون أنهم داعون إلى الله وهادون إلى

سبيله ومبشرون بملكوته وحاضون على المحبة والسلام ، وأنهم القيمون على الحضارة الإنسانية والآداب الإنسانية والحرية الإنسانية ـ يكون منهم هذا الجحود وهذا التجاهل وهـذا الحقد وهذا الإقذاع في النيل من شخصية من بلغ هـذا القرآن وتخلق بأخلاقه وقام بدعوته ، وتحمل في سبيل ذلك راضيا مطمئنا مالا يتحمله إلا أولو العزم الجبار والإيمان الفياض . ومهما يبلغ الحقد في الناس من العمق والشدة ، فإنه ليكون من البشاعة في أقصى درجاتها أن يكابر بعض الناس في إيمان هذه الشخصية الكريمة الطاهرة وقوة عقلها وعمق صدقها ونبل خلقها وإخلاص قلبها .

الصّوُرة الثالثة

وإنه لمن العجيب الذي يزيد في غثاثة موقف هؤلاء أن يكون كفار العرب قد وجهوا إلى صاحب الرسالة نفسه وفي حياته كل تهمة ، ورموه بكل فرية ، ونسبوا إليه كل نسبة على أوسع مدى مما يوجهه هؤلاء ويرمونه به وينسبونه إليه ، كالكذب والافتراء والاستعانة بالغير والأخذ عمن سبق والتعلم والجنون والسحر والشعر والكهانة ، مما حكاه القرآن ، وأن يصمد لهم صموداً باهراً ، وأن يرد عليهم بلسان الوحي القرآني كل ما يتهمونه به وينسبونه إليه ردا قوياً مفحما ولاذعاً ، وأن يستمر في دعوته ثابت الجنان ، قوى الإيمان ، إلى أن صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى الدنيا ، وإلى أن اندمج فيها أكثرية العرب الساحقة بما فيهم أولئك الذين كذبوا وماروا وجحدوا ونسبوا إليه ما نسبوا إذ لم يعد في إمكانهم المكابرة والمماراة وقد رأوا هُم أيضاً من أعلام النبوة ما رأى من سبقهم إلى الإيمان من عرب وكتابيين ، ولسانهم يردد ما حكاه القرآن عنهم .

« رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ (١)

١٠

---

(١) الآية ١٠ من سورة الحشر

من العجيب أن يكون ذلك شأن العرب ثم يأتي أولئك السفهاء والمغرضون اليوم ليكرروا ما قيل من حديث مملول ويعيدوا ما كان من أكاذيب ممجوجة قد هدمها القرآن هدماً ساحقاً .

« يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ »(١) ٣٢ ـ ٣٣

الصُّورة الرابعة

والآن نأتي إلى المؤيدات القرآنية :

(١) إن الآيات القرآنية الواردة في صدد أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وفضائله متنوعة الأساليب والمناسبات ، فمنها ما هو فى معرض التنويه والتخصيص في الخطاب ، ومنها ما هو في معرض أحداث السيرة النبوية في عهديها المكي والمدني . والآيات لا تفرق بين ما قبل البعثة وما بعدها كما لا تفرق بين عهدي مكة والمدينة ؛ وكثير مما هو في معرض أحداث السيرة إنما هو في صدد مواقف النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة ، وبالتالي فى صدد ما ظهر منه بعد البعثة من أخلاق وفضائل ومواقف .

غير أن هناك أولاً تنويهاً وثناء نزل مبكراً جداً في أوائل ما نزل من القرآن : وهو آية القلم .

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... » ٤

كما أن هناك آية مكية نزلت في أواسط العهد المكي تضمنت حكمة الله في اصطفائه رسله ، في معرض الرد على زعماء قريش وتخص النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الأولى ، وهي آية الأنعام :

---

(١) الآيتان ٣٢ ـ ٣٣ من سورة التوبة .

« وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ١٢٤

فهاتان الآيتان يمكن أن تكونا تعبيرين قويين لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ومواهبه واستعداداته الروحية والذهنية بوجه عام وبالنسبة إلى ما قبل البعثة في الدرجة الأولى ، كما أنهما يصح أن تكونا مسوغين قويين للقول بأن الأخلاق والفضائل النبوية التي أشارت إليها الآيات القرآنية في مناسبات أحداث السيرة راجعة في الأصل إلى هذه الأخلاق والمواهب والاستعدادات التي نضجت في النبي صلى الله عليه وسلم قبل اتصاله بوحي الله وقبل أن يتلقى رسالته وآياته .

والإطلاق في الآيتين يعني سعة الشمول من دون ريب ؛ وليس من وصف يمكن أن يكون أقوى وأصدق وأوسع مدى مما فيهما . فتعبير « الخلق العظيم » يشمل كل عمل وميزة وعادة ومظهر يتصل بخلق شخصي أو اجتماعي أو إنساني أو عائلي ، ويطبعه بطابع العظمة والسمو والتميز كما لا يخفى . ولعل فيما روى في حديث البخاري من أقوال السيدة خديجة رضى الله عنها حين عودته من غار حراء بعد نزول الوحي عليه لأول مرة : « والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1] ـ شيئاً من بيان هذا الخلق العظيم الذي وصف به النبي في أوائل آيات القرآن في معرض التثبيت وبعث الطمأنينة ، كما تدل على ذلك الآيات السابقة لآية القلم وهي :

« نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ .

(١) جاء في هذا الحديث أن النبي (صلعم) حينما عاد إلى خديجة لأول مرة بعد نزول الوحي وقص عليها مارآه وسمعه قال لها إني خشيت على نفسي فقالت له كلا والله لا يخزيك الله ... الخ) وهناك حديث رواه الطبري في تاريخه ج٢ ص ٤٧ ــ ٤٨ جاء فيه أنه قال لها (إني خشيت أن أكون شاعراً أو مجنوناً فقالت له أعيذك بالله من ذلك ياأبا القاسم . ما كان الله ليصنع بك ذلك مع ما علم منك من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك وصلة رحمك) .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . ١ – ٧

ومقام الرسالة من الرفعة والعظمة لا يسامي ويقتضي من المؤهلات الشخصية والخلقية والعقلية والروحية مالا يمكن أن يوجد إلا فيمن وصلت فيه هذه المؤهلات إلى الكمال ، والتعبير الوارد في آية الأنعام تقرير رباني بأن النبي صلى عليه وسلم قد وصل إلى الذروة من عظمة الخلق وقوة الروح وصفاء النفس وكبر القلب ورجاحة العقل ، فاستأهل بذلك أن يكون موضع اصطفاء الله ورسالته لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ولأن نقول لك إن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الذي وصلت بهأخلاقه وروحه وعقله وفضائله ومواهبه إلى ذروة الكمال الإنساني ـ أقوى وأعظم بكثير من أن نقول إنه خلق قبل الأكوان وإن الأكوان قد خلقت لأجله وإنه أبوها الأكبر الخ ؛ لأن هذه الأقوال إلى مافيها من تعارض مع طبيعة الأشياء ونصوص القرآن ، فيها إيهام بأن له صفة جزئية إلهية جعلته منذ الأزل في هذه الصفات والأخلاق ولم يكتسبها اكتساباً كما يكتسب الناس أخلاقهم وفضائلهم .

الصورة الخامسة

(٢) في سورة آل عمران الآية التالية .

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ١٥٩

فهذه الآية تقرر ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من دماثة الخلق ولين الجانب وحسن المعاشرة ، والتنزه عن فظاظة الخلق وغلظ القلب . وهذه أخلاق كريمة عظيمة كانت دون ريب من عوامل نجاحه في مهمته العظمى ، وفيما كان من تفاني أصحابه في سبيله وفنائهم فيه ، وانضواء الناس إلى دعوته ورايته في النهاية كما تلهمه الآية نفسها .

(٣) في سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ... ٦١

وهذه الآية وردت في معرض حكاية أخلاق المنافقين ومواقفهم وأقوالهم والردّ عليها، حين قالوا إنه أذن ، أي سريع الاستماع والتصديق ، فصدّقت الآية الوصف ثم فسرته ، فهو سريع الاستماع والإجابة لكل شيء أو قول فيه خير المؤمنين ، قوي الإيمان بالله والاعتماد عليه ، قويّ الركون إلى المؤمنين المخلصين والاعتماد عليهم أيضا ، قوي الاعتقاد بحسن نياتهم ، وهو بهذه الصفات رحمة لهم ؛ وهكذا احتوت الآية وصف ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من خلق رضي وقلب نقي وسريرة طيبة ورغبة شديدة في خير المؤمنين وعظم ثقته بحسن نياتهم .

(٤) في السورة نفسها الآية التالية :

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ... ١٢٨

وهذه الآية تصور أقوى تصوير ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من رحمة ورأفة وبر وحرص شديد على مصلحة قومه والمؤمنين ، وشعور بما يلم بهم من آلام وما ينالهم من مشاق ، وما يلقى من جهد وعنت في سبيل إزالة آلامهم وتخفيف مايشق عليهم . ومما لا ريب فيه أن هذه الأخلاق الكريمة كانت هي أيضا من أقوى عوامل نجاحه وتفاني أصحابه في سبيله وفنائهم فيه وانضواء الناس إلى دعوته ورايته في النهاية .

(٥) في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ (١) وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا

(١) نضجه ، أى لا تنتظروا نضجه في البيت .

مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ ٱلْحَقِّ ... ٥٣

وقد تضمنت الآية تنويها بخلق من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الحياء والصبر على مايؤذي نفسه من أصحابه ، وتجنبه كسر قلوبهم وجرح عواطفهم . وهذا من أعظم الأخلاق وأكرمها وخاصة في الدعاة الهداة .

(٦) في سورة الكهف وطه والشعراء وفاطر الآيات التالية :

١ — فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ... الكهف ٦

٢ — طه . مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ... طه ١ ـ ٢

٣ — لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ... الشعراء ٣

٤ — أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ... فاطر ٨

فهذه الآيات تشير إلى ما كان يطرأ على النبي من غم وهم وحزن وشدة من جراء مواقف قومه من الدعوة وعدم استجابتهم لها واهتدائهم بهديها . وهذا من أعظم الأخلاق وأكرمها ، وهو متصل بما قررته آية التوبة ١٢٨ من خلق الحرص الشديد على مصلحة قومه وهدايتهم ورأفته عليهم .

وهناك آيات عدة تلهم روحها أن من مقاصدها تهدئة روع النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته عما يجده ـ بسبب عناد قومه وجحودهم وعدم اهتدائهم ـ من هم وغم حرصا على خيرهم ومصلحتهم ونجاتهم وإسعادهم مما هو متصل بالخلق الذي تضمنتة الآيات السابقة ، ونكتفي من هذه الآيات بما يلي :

١ — وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ

(١) مهلك أو قاتل .

أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ... الأنعام ٣٥

٢ — وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ... يونس ٩٩

الصورة السادسة

(٧) في جملة آيات سورة آل عمران في وقعة أحد وردت هذه الآية :

« إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ . . .

١٥٣

وقد تضمنت الآية وصف الموقف حيما دارت الدائرة على المسلمين وانهزموا وثبت السيد الرسول صلى الله عليه وسلم وحيداً أو كالوحيد في ميدان المعركة غير مبال بما كان، حتى ظن أنه من جملة القتلى كما ذكرت ذلك آية أخرى في السورة نفسها : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » لولا أن بعض أصحابه سمعوا دعاءه فأسرعوا إليه والتفوا حوله ، وكان موقفه وثباته سبب استمساك المسلمين شيئاً ما . وفي الموقف صورة رائعة لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من شجاعة وثبات جنان في مواقف الشدة وميادين الكفاح والقتال .

ومن هذا الباب موقفان آخران للنبي صلى الله عليه وسلم أشارت إليهما الآيات القرآنية؛ أحدهما : موقفه يوم حنين الذى ذكر في سورة التوبة في الآيات التالية :

« وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ... ٢٥ - ٢٦

إذ تضمنت أن السيد الرسول صلى الله عليه وسلم كان على رأس الفئة القليلة التي ثبتت في الميدان عندما انهزم أكثر المسلمين وكادت تدور عليهم الدائرة ؛ وقد روت الروايات هذا كما روت أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم كان يهتف بالمنهزمين ويرتجز : أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب .

وثانيهما : موقفه في وقعة الأحزاب التي ذكرت بعض مشاهدها ونتائجها آيات من سورة الأحزاب إذ جاء أمر عظيم تزلزل منه المسلمون كما ذكرته هذه الآيات :

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالاً شَدِيداً ... ١٠ ـ ١١

وقد اغتنم المنافقون الفرصة فشمتوا ودسوا وثبطوا ، كما ذكرت ذلك هذه الآيات:

« وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلاَّ غُرُوراً . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ... ١٢ ـ ١٣

فكان النبي صلى الله عليه وسلم قطب الرحى في هذا الموقف العصيب ، إذ ثبت ثبات الجبال ، رابط الجأش مطمئن النفس ، فكان في ذلك الأسوة الحسنة التي دعا القرآن المسلمين إلى التأسي بها في هذه الآية التي جاءت في سياق وصف الوقعة ، والتي تعني في الدرجة الأولى موقفه فيها :

« لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً ... الأحزاب ٢١

على أن من الحق أن نذكر أن صورة بطولة النبي صلى الله عليه وسلم وثبات جنانه ورباطة جأشه في ميادين الجهاد ليست في القرآن مقصورة على هذه الوقعات الثلاث ، بل هي

قوية البروز في جميع المواقف الجهادية التي تضمنتها سور القرآن كما يلمس ذلك في سور البقرة والنساء والأنفال والتوبة والمجادلة والحشر والممتحنة والصف، إذا ما أنعمنا النظر في آياتها الجهادية ونفذنا إلى روحها، وسوف نستعرض هذه الآيات في فصل الجهاد فنكتفي هنا بهذه الإشارة .

الصورة السابعة

(٨) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا. وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ... ٢٨ ـ ٢٩

وهذه الآيات تعرف بآيات التخيير ، وتروى في سبب نزولها رواية مفادها أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبنه بزيادة النفقة والاستمتاع بمتع الحياة بأوسع مايستمتعن ، وألحن عليه حتى أثرن غضبه . وروح الآيات تؤيد هذا السبب لاسيما أنها قد جاءت بعد الإشارة إلى ما كان من استيلاء المسلمين على أموال يهود بني قريظة وديارهم وأرضهم، إذ يلهم ذلك أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طالبن بما طالبن ، بعد أن رأين أنّ الله قد فتح على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين هذا الفتح العظيم ، فأثار هذا في نفسه ألماً وغضباً أدى إلى أن يهجرهن شهراً وأن يعتزلهن وأخذ يعيش في مخدع وحده كما جاء في روايات السيرة أيضاً على اختلاف لا تأثير له في جوهر الموقف .

والآيات تتضمن في الحقيقة تعليما وتوجيهاً ربانيين ، غير أنها وخاصة ظروف نزولها تلهم أنها تأييد رباني لما اعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من مضاضة وألم لموقف نسائه الذي من شأنه أن يعوقه عن أداء ماعليه من واجب ، وعن حمل ماعلى كاهله من أعباء عظمى ، لتعارض ذلك مع مايطلبن . وفي القرآن أمثلة كثيرة لمثل هذا التأييد الرباني نذكر منها ماتضمنته إحدى آيات تحويل القبلة هذه :

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ... البقرة ١٤٤

وفي هذا الذى تلهمه آيات التخيير صورة رائعة جداً من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم تتجلى في عيافه عن زينة الحياة الدنيا ومباهجها، واستغراقه في مهمته العظمى وفنائه فيها، وتقديره تعارض تلك مع هـذه، وتخيير نسائه بين رضائهن معه على ماتطمئن به نفسه ولا يتعارض مع مهمته وخلقه، وبين انصرافهن عنه وتركه يتفرغ لأعباء واجبه الأكبر. وهى من أعلى ماوصلت إليه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من ذرى. وكانت دون ريب من عوامل نجاح الدعوة الإسلامية، كما أنها في الوقت نفسه أقوى ردّ على سفهاء المبشرين ومغرضي المستشرقين الذين حاولوا النيل من أخلاقه الكريمة في نسبتهم حب الدنيا ومباهجها وشهواتها إليه، مع ما كان منه من استغراق في الدعوة وابتعاد عن ذلك في مكة. وتبدو قوة الرد حينما يلاحظ أن الآيات قد نزلت في أواسط العهد المدنى وبعد أن تمكن من القضاء على أعدائه اليهود وخضد شوكة المنافقين ورد عادية الأحزاب الذين غزوا يثرب بقوى هائلة لم يجرءوا بعدها على معاودة الكرة.

الصورة الثامنة

(٩) في القرآن آيات كثيرة جدا تتضمن ردوداً عنيفة قاسية على زعماء قريش وسادتهم وكبرائهم وأغنيائهم وطغاتهم كالآيات التالية:

١ — كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ ... العلق ١٥ — ١٩

٢ — وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ . أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ... القلم ١٠ — ١٦

٣ — وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ . كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ . نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ . ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ... الهمزة ١ — ٩

٤ — تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ... المسد ١ ـ ٦

مما كان ينبعث منه الشرر ، ويوجه به إلى وجوههم لطمات داميات بالوعيد والتقريع والتحدي . وقد عبرت آية في سورة الحج عن أثر ذلك كله فيهم كما ترى :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ... ٧٢

وفي اعتقادنا أن صرخات النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات وتوجيهها إلى زعماء القوم وطغاتهم ، وعدم مبالاته بقوتهم وضعفه ، وكثرتهم وقلته ـ لاسيما أنها من أوائل مانزل حين كان المشركون في عنفوانهم وقد كان منهم ما كان من اضطهاد كثير ممن آمن به وتابعه اضطهاداً أودى بحياة بعضهم ، وأدى إلى افتتان بعضهم ـ لتمثل خلقاً عظيما من أخلاقه الشريفة ، وهو الجرأة فى الحق وعدم خشية أحد فيه .

الصّورة التاسِعَة

(١٠) وفي القرآن آيات عدة تحتوي عتابا أو لوما على ما كان يبدو منه من تصرف خلاف الأولى في علم الله ، وما كان يعتلج بنفسه من خلجات لم يكن يطلع عليها غيره ، مثل الآيات التالية :

١ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... الأنفال ٦٧ ـ ٦٨

٢ — مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ... التوبة ١١٣

٣ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ

أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ... هود ١٢

٤ — وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ...

الإسراء ٧٣ – ٧٥

٥ — آية الأحزاب ٣٧ التي نقلناها قبلاً .

٦ — عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ . أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ... عبس ١ – ١٠

ففي تبليغ هذه الآيات يتجلى في أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم الصدق والأمانة في أعلى درجاتهما ؛ ولقد روى عن عائشة رضى الله عنها حديث جاء فيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم لو كان كاتماً لشيء من وحي الله لكان كاتماً آيات الأحزاب ؛ مما يمت إلى ما نحن في صدد تقريره .

(١١) كذلك هناك آيات عدة تحتوي أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه والاعتراف بحدوده والوقوف عندها مثل الآيات التالية :

١ — آيتي الأنعام ٥٠ والأعراف ١٨٨ اللتين نقلناهما قبلا .

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٣ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ... الشورى ٢٤

٤ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . . .
الأحقاف ٨

ففي هذه الآيات وفي تبليغها يتجلى كذلك من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى درجاتها ، الإخلاص والشعور بواجب الوقوف عند مايجب الوقوف عنده من حدود فضلاً عما يتجلى فيها من قوة توكيد اتصال الوحي الرباني به وعمق الشعور واليقين به .

ولقد يقال إن مرجع ماجاء خاصة في الفقرات ٨ ـ ١١ في صدد تبليغات النبي صلى الله عليه وسلم للفصول والآيات القرآنية ، عصمة النبي التي مظهرها الرئيسي التبليغ التام للقرآن وواجب الرسل الذي لا تتحقق صفتهم إلا به ، والذي عبرت عنه آية في سورة الأحزاب وهى :

« ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللهَ ... ٣٩

ثم ذلك الإيمان العميق المستولي على كل مشاعره ، والذي جعله يفنى في الله والدعوة إليه كل الفناء ، ويرتفع إلى ذرا العظمة والقوة الروحية ، فيستوي عنده الغنى والفقر ، والشبع والجوع ، واللذة والألم ، والراحة والتعب ، وينتفي من نفسه كل خوف من غير الله ، وكل حساب لغير الله ، وكل تردد في سبيل الله ، وتتضاءل في نظره عظمة العظماء ، وهيبة الكبراء ، وعنجهية الأحساب والأنساب ، وعصبية الأنانية والذات . وهذا حق لايحتمل أى شك ، غير أن مما لاشك فيه كذلك أن تحلي النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأخلاق التي قلنا أنها تتجلى في هذه التبليغات ، أمر طبيعي حتى يصح أن يكون أهلا للاصطفاء الرباني الذى قررت سداه الجملة القرآنية : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، وموضعاً للثناء العظيم الذى عبرت عنه الجملة القرآنية هذه : «وإنك لعلى خلق عظيم » .

الصورة العاشرة

(٢) وإذا كنا قد عرضنا الآيات التي عرضناها بسبيل التنويه بما تدل عليه من أخلاق وفضائل معينة في النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس معنى هذا أن الأخلاق والفضائل النبوية محصورة في هذا النطاق ، وإنما ذكرناها لأنها وردت بسبيل التخصيص فقط . ففي القرآن آيات كثيرة جدا منبثة في مجموعاته بل في جميع سوره تقريباً انبثاثا يجعلنا في غنى عن عرض أمثلة منها ، احتوت تنويها بمتنوع الأخلاق الفاضلة الإنسانية والشخصية والاجتماعية والمعاشية ـ من صدق وعدل وبر وأمانة والتزام حق ، واعتدال وإحسان وصلة رحم ، ولين جانب ووفاء عهد ووعد ، ورحمة للضعيف ومساعدة للمحتاج ونصرة للمظلوم، وصبر وأمر بالمعروف ودعوة إلى الخير وتواص بالحق والرضاء به وعدم اللجاج فيه والكرم والإنفاق لله والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن ، والتعاون على البر والتقوى والرغبة في السلم والمسالمة الخ ـ وحثا عليها وثناء على المتصفين بها وتبشيرهم . وهناك آيات كثيره أيضاً منبثة في مجموعات القرآن بل في جميع سوره تقريباً احتوت تنديداً بمتنوّع الأخلاق السيئة والخصال المذمومة ـ من كذب وظلم وبغي وإثم ، وقتل نفس وارتكاب فاحشة ، وانتهاك عرض وإفك وزور ، وعربدة سكر وإسراف وتبذير وخيانة ونكث وعذر وخديعة ، وقطع رحم وحرمان محتاج ، وأكل أموال الناس بالباطل وجبن وشح وأمر بمنكر ، وغلظة قلب وفظاظة خلق وتناقض بين القول والعمل ، ورياء ومنّ ومكابرة وانتقام باغ الخ وتحذيراً منها وإنذاراً للمتصفين بها. ولقد أثر عن عائشة رضى الله عنها حديث فيه جواب لمن سألها عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم أنها أخلاق القرآن (١) : وهو جواب فيه كل الحق والصدق والبداهة ، فإن من الحق والمعقول أن القرآن مانوه وأثنى وحث على خلق إلا والذي أوحى إليه به أشد الناس اتصافاً به قولاً وعملاً ، وأنه ماندد ونهى عن خلق إلا والذي أوحى إليه

---

(١) روى مسلم عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام أنه سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق النبي، صلعم، فقالت : كان خلقه القرآن (انظر تفسير الكشاف ج ٤ ص١٧٦).

به أشد الناس اجتناباً له و نفرة عنه قولا وعملا ؛ والمصداق القرآني لهذا ثناء الله العظيم عليه وحث الناس على اتباعه وإطاعته والاقتداء به :

١ — قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... آل عمران ٣١

٢ — مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ... النساء ٨٠

٣ — لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ : التوبة ١٢٨

٤ — وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ... الحج ٦٧

٥ — وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... المؤمنون ٧٣

٦ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ... الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦

٧ — وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... الشورى ٥٢

٨ — وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... القلم ٤

وأي مماراة في هذا من غير المسلم مهدومة لا تمت إلى أي معنى من معاني المنطق والعقل والإنصاف ، لأن عظمة النبي الهادي ، ونجاح الرسول الداعي إنما يقومان بهذا ، وبهذا فقط ، فهو الأسوة التي يتأسى بها المهتدون به ، والقدوة التي يقتدي بها المستجيبون له ، ولا يتحقق هذا إلا إذا اتصف بأحاسن مابشر به ، واجتنب كل ماندد به ونفر عنه ، ولقد نجحت الدعوة النبوية أيما نجاح فاستجاب له عدد غير يسير من العرب والقسم الأكبر من غير العرب والكتابيين الذين كانوا في مكة أولاً ، وبكل رضاء واندفاع وفناء ، واستجاب له عدد عظيم من العرب وعدد آخر من غير العرب والكتابيين الذين كانوا في المدينة ثانياً وبكل رضاء واندفاع وفناء ؛ وليس من شك في أن هذا النجاح إنما كان لما شاهده المستجيبون من أعلام النبوة الصادقة وجماع صفات الخير والفضيلة في

شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يحتمل أي شك أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أول من قدر وأصدق من طبق آية البقرة :

« أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ... ٤٤

وأول من استجاب لأمر ربه ووحيه في آية الزخرف :

« فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ... ٤٣

ومن هذا الباب آية سورة هود هذه .

« فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... ١١٢

وآية سورة الشورى هذه .

« فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ... ١٥

وأي رواية تتضمن ماقد يتناقض مع هذا فهي دون ريب كاذبة أو مفتراة أومدسوسة أو محرفة .

الصورة الحادية عشرة

هذا ؛ وقد يكون مما يتصل بهذا البحث النظر فيما كان يوجهه كفار العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من تهم وعلل عقلية وروحية وخلقية على ماحكاه القرآن عنهم ، كالجنون والكذب والافتراء والسحر والكهانة والشعر .

والذى نعتقده أن التصدي لتفنيد هذه التهم والعلل من نافلة القول ؛ فحكايتها في القرآن – إلى مافيه من الدليل الناصع على خلق الصدق والأمانة الذى تجلى في تبليغها وتدوينها – أقوى دليل على كذبها وزيفها ، لا سيا أن القرآن لم يكتف بحكايتها بل

تولى تكذيبها وتزييفها وردها إلى وجوه قائليها ردا قويا عنيفاً في كل مناسبة حكاها عنهم وكفى بذلك تكذيبا وتزييفا . غير أن ترديد سفهاء المبشرين ومغرضي المستشرقين لبعضها وخاصة ابتلاء النبي صلى الله عليه وسلم بالصرعة يجعل قول كلمة في هذا الموضوع مفيداً ؛ فوق أنه قد خطر لنا بعض الخواطر المستلهمة من القرآن رأينا المناسبة صالحة لتسجيلها .

نحن نعلم أن ترديد هؤلاء لابتلاء النبي — صلى الله عليه وسلم بالصرعة قد استنتج استنتاجا من بعض روايات ذكرت ما كان يطرأ على النبي صلى الله عليه وسلم حينما يوحى إليه أحيانا من حالة جهد وغيبوبة وتصبب عرق ، غير أن الروايات التي حكت ذلك ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حينما تنفرج عنه أزمته يستدعي كاتبه ليملي عليه القرآن الذى أوحى إليه به ، أو يجيب على مايكون قد وجه إليه من سؤال ، كما ترى في النصوص التالية :

١ — حديث في البخاري أن صفوان بن يعلي بن أمية أخبر أن يعلي كان يقول : ليتني أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتنزل عليه ! قال : فبينما النبي صلى الله عليه وسلم بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل فيه معه ناساً من أصحابه ، إذ جاءه أعرابى عليه جبة متضمخ بطيب فقال : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد أن تضمخ بالطيب ؟ فأشار عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى يعلي بيده أن تعال ، فجاء يعلي فأدخل رأسه ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم محمر الوجه يغط كذلك ساعة ثم سرى عنه فقال : أين الذي يسألني عن العمرة آنفاً ؟ فالتمس الرجل فأتى به ، فقال : أمّا الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات ، وأما الجبة فانزعها ثم اصنع كما تصنع في حجك .

٢ — من حديث بخاري قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

٣ — من حديث بخاري عن زيد : فأنزل الله على رسوله وفخذه على فخذي ،

فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ، ثم سرى عنه فأنزل الله « غير أولي الضرر » وأمرني بكتابتها[١] .

٤ ـ في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : سألت النبي صلى الله عليه وسلم هل تحس بالوحي ؟ فقال : أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلىّ إلا ظننت أن نفسي تقبض .

وليس لمنصف متدبر أن يصل باستنتاجه إلى تلك النتيجة التى زعموا من هذه الأحاديث .

أما ما كان من نسبة الكفار الجنون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإن الآيات التي حكت ذلك عنهم تلهم أنهم لم يكونوا يقصدون بها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مريضاً مخبول العقل أو مبتلى بصرعة ، وهى الصفات التي تلازم المريض بالجنون . وهو ما لا يعقل عنهم في حد ذاته ، وهم يرونه يتلو الآيات القرآنية الرائعة في بلاغتها ونصاعتها وقوتها ؛ والتي كانت تنفذ إلى أعماقهم رغم مكابرتهم على ما ذكرته الروايات العديدة[٢] ؛ وإنما كانوا يقصدون رمي النبي صلى الله عليه وسلم بغرابة الأطوار والشذوذ فيما يدعو إليه ويبشر به وينذر ، على ما تعود الناس أن يرموا بمثل ذلك من يتصدى لدعوة جديدة أو يبدي رأياً أو يقول قولا أو يخبر خبراً غير مألوف في المجتمع الذى يعيش فيه ؛ وهذا واضح كل الوضوح فى الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ . لَّوۡمَا [٣] تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ... الحجر ٦ ـ ٧

(١) هذا الحديث في سياق رواية نزول آية «لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » حيث روى أن فقرة « غير أولي الضرر » لم تنزل أولاً وكان ابن أم مكتوم الضرير حاضراً فقال : يارسول الله أنا ضرير ! فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم الوحى ، ثم نزلت الفقرة

(٢) في الجزء الأول من ابن هشام ص ٢٨٥ حديث طويل عن استماع نفر من زعماء قريش للقرآن وتأثيره فيهم ، وكذلك في الجزء نفسه ص ٢٦٥ حديث طويل عن استماع عتبة بن ربيعة للقرآن وانبهاره به .

(٣) لوما : يعنى هلا .

٢ — أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّالَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ... المؤمنون ٦٨ ـ ٧٠

٣ — إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ... الصافات ٣٥ ـ ٣٦

٤ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ... سبأ ٧ ـ ٨

٥ — وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ... القلم ٥١ ـ ٥٢

الصورة الثانية عشرة

وأما ما كان من نسبتهم إليه الشعر والسحر والكذب والكهانة والاستعانة بالغير فالآيات التي تحكى هذا عنهم تلهم حيناً إنهم كانوا يعنون ما يقولون وحيناً أنهم كانوا يقولون ذلك على سبيل المماراة واللدد وقصد الإنكار أو الاستنكار كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... هود (١) ٧

٢ — وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ... النحل (٢) ١٠٣

---

(١) بقصد الاستنكار والمماراة .

(٢) في هذا يعنون مايقولون حقيقة وقد ردت الآية عليهم .

٣ — لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ... الأنبياء (١) ٣

٤ — بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ... الأنبياء (٢) ٥

٥ — وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ... صٓ (٣) ٤

٦ — وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ... القمر (٤) ٢

ومهما يكن من أمر فالردود القرآنية كاسحة ساحقة لا يمكن لذي عقل ومنطق وإنصاف من غير المسلمين أن يماري أو يكابر في قوة نفوذها ومداها وروحانيتها وصدقها وهدمها لما ينسبونه إليه هدماً تاماً كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ... الأنعام ٩٣

٢ — قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ... يونس (٥) ٧٧

٣ — فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ . . . يونس (٦) ٨١ ـ ٨٢

٤ — إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ... النحل ١٠٥

---

(١) في هذا يعنون السحر حقيقة ، وفي الآية رد عليهم ووصف لهم بالظلم .

(٢ و ٣) بقصد المماراة والاستنكار .

(٤) في هذا يعنون السحر حقيقة ، وفي الآية رد على مايبدو منهم من مكابرة .

(٥و٦) حملة القرآن على السحر ولو من باب الحكاية تتضمن تزييف نسبة السحر إلى النبي صلى الله عليه وسلم

٥ — هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ . وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ ... الشعراء (١) ٢٢١ — ٢٢٦

٦ — قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَابِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. قُلْ مَاسَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ . . .

سبأ (٢) ٤٦ — ٤٩

٧ — آية الشورى ٣٤ وآية الأحقاف ٨ التي نقلناهما قبل

٨ — فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . . .

الحاقة ٣٨ — ٤٨

٩ — فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ . ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ . وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ... التكوير ١٥ — ٢٦

---

(٣) تزييف نسبة الشعر جاءت هنا في صورة حملة على الشعراء ، وهذه بلاغة قرآنية .

(٤) يكلفهم أن يفكروا في الأمر منفردين بعيدين عن تهويش المهوشين وحينئذ يتضح لهم الحق ويعرفون في قرارة أنفسهم حقيقة الرسالة النبوية والانذار النبوي .

المبحث الرابع

حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية

صور القرآن لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية تصحح كثيراً من الأغلاط المستقرة ـ مدى تعدد زوجات النبي واحتفاظه بعدد أكبر من المحدد ـ تنظيم القرآن لزواج النبي وعلاقاته الزوجية ومداه ـ تعليق على موقف المبشرين والمستشرقين في هذا الموضوع ـ مدى وصف زوجات النبي بأمهات المؤمنين ـ مدى إشارة القرآن إلى هبة المؤمنات أنفسهن للنبي ـ ضنك معيشة النبي البيتية ودلالته ومداه ـ اختصاصات قرآنية بزوجات النبي ومسئولياتهن ومداه . مدى عبارة أهل البيت ـ قضية زواج النبي ... من مطلقة متبناه وتحليلات قرآنية في صددها ـ عدم التكلف في دخول بيوت النبي وتنظيم القرآن له ومداه ـ مدى حجاب بيوت النبي وزوجاته تنظيم القرآن لخروج نساء النبي والمسلمين ومداه ـ صور لمكايدات نساء النبي وغيرتهن ـ حديث الافك ومداه وأثره ـ مدى الحملة والتقريرات القرآنية فيه ـ ذرية النبي صلى الله عليه وسلم ـ حجرات النبي ـ مسجده ومجلسه ـ تعليق على خبر خوخات الصحابة عليه ـ مستلهمات قرآنية عن وقت وفاة النبي ونجاحه العظيم في مهمته السامية .

الصورة الأولى

في القرآن آيات كثيرة تتضمن صوراً عديدة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية . والذي ينعم النظر فيها يرى أن في بعض الصور المستقرة في الأذهان ، والمستندة إلى الروايات أغلاطاً لا تتسق معها .؛ وقد استغل بعض ذوي الهوى هذه الروايات التي يحتمل أن يكون كثير منها مدسوساً ومحرفاً استغلالا غير نزيه ، وكان يكفي أن تتعارض مع النصوص القرآنية ليظهر الحق واضحاً جليا .

وفيما يلي نعرض هذه الصور :

الصورة الثانية

(١) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَـكَتْ يَمِينُكَ مِمَّـآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَـكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِـكَيْلَا يَـكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَافِي قُلُوبِـكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً . لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَامَلَـكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ... ٥٠ _ ٥٢

فهذه الآيات تلهم أنها نزلت بعد آية النساء الثالثة التي اعتبرت محددة لما يجوز للمسلم جمعه في عصمته من الزوجات بأربع وهي :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَاطَابَ لَـكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَامَلَـكَتْ أَيْمَـٰنُـكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ (١) ...

وقد ذكرت روايات السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع في عصمته حين نزول الآيات تسع زوجات بعقد : خمس منهن قرشيات وهن عائشة وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وسودة . وأربع عربيات وهن زينب بنت جحش الأسدية وجويرية المصطلقية وزينب بنت خزيمة وميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة . أما ملك اليمين فكان عنده اثنتان هما صفية النضرية الإسرائيلية ومارية القبطية رضى الله عنهن جميعاً .

---

(١) بمعنى ألا تجوروا .

وهناك رواية أن آية الأحزاب (٥٢) نزلت متأخرة ، وأن الآيتين ٥٠ ـ ٥١ نزلتا على حدة ، وليس من ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطلق ولم يتزوّج بعد الآية (٥٢) . ولما كان هناك رواية تذكر أنه تزوج في أثناء عمرة القضاء وهى العمرة التي أداها في السنة التالية من صلح الحديبية أي فى السنة الهجرية الثامنة فتكون الآية (٥٢) إذا صح أنها نزلت على حدة قد نزلت بعد هذه العمرة ، أما إذا كانت الآيات الثلاث قد نزلت دفعة واحدة فتكون قد نزلت في السنة الثامنة ، وتكون آية النساء قد نزلت أيضاً في الظرف نفسه ولكن قبل هذه الآيات فاقتضت الحكمة تنزيلها لتنظيم حالة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ـ بمالها من صلة بمدى وتحديد آية النساء .

ومهما يكن من أمر فآيات الأحزاب قد استهدفت : (١) استثناء النبي صلى الله عليه وسلم من التحديد الذي ورد في آية النساء : (٢) تحريم زواج جديد عليه (٣) تنظيم علاقاته الزوجية أو صلاته الجنسية بأزواجه .

والنقطة الأخيرة مستلهمة من مضمون الآية (٥١) ، إذ تكاد توحي بأنها تتضمن تعليماً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتصل اتصالا جنسيا في وقت واحد بأربع من أزواجه ، وتخوله أن يبدل ويغير في هذا الاتصال فيرجي أي يؤجل مؤقتاً من يشاء ثم يعود إلى من يبتغي ممن عزل وأجل منهن ؛ بل نكاد نقول إن هـذا القصد ظاهر في مضمون الآية ظهوراً قويا .

وهناك مبرر قوي لهذا المعنى وهو عدم احتمال خروج النبي صلى الله عليه وسلم عن روح التشريع القرآني العام مما هو متصل بأخلاقه الشريفة التي نوهنا بها في البحث السابق . ولقد روى الزمخشري في كشافه رواية ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عاشر بعد هذه الآيات أربعاً فقط من نسائه وهن : عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب رضى الله عنهن ، وأرجأ خمساً . وفي الرواية شيء مما يتسق مع ما قررناه من ملهمات الآية (٥١) ، وإن كنا نرى الآية أوسع مدى إذ جعلت عملية الإيواء والإرجاء والعزل والمراجعة شاملة لجميع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم لتقر أعينهن ولا يحزن ويرضين

بما آتاهن كلهن ؛ ولهذا نرجح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يطبق هــذه العملية على الجميع .

والروايات مجمعة على أن المسلمين الذين كانوا يجمعون في عصمتهم أكثر من أربع نساء قد طلقوا من شاءوا من الزوائد واحتفظوا بأربع . ويبدو أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم خفن هذا المصير الذى يفوّت على المطلقات منهن كرامة الزوجية النبوية وكرامة أمومة المؤمنين التي كرمهن الله بها في آية الأحزاب هذه :

« ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ٦

والتي يرجح أنها نزلت قبل الآيات ٥٠ ـ ٥٢ من السورة ؛ فحزن وقلقن[١] ، فاقتضت الحكمة الربانية استثناءهن من التحديد مع تنظيم صلات النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية بهن تنظيما يتسق مع روحه .

والآية (٥٢) ذات مدى آخر ؛ فإنها حرمت على النبي صلى الله عليه وسلم الزواج ولم تجعل العدد الذي في عصمته أساساً ، بحيث حظرت عليه أن يطلق إحدى زوجاته ليأخذ مكانها غيرها التزاما للعدد كما هو جائز في حق سائر المسلمين الذين يحق لهم أن يحتفظوا في عصمتهم بأربع زوجات ، وليس عليهم إلا مراعاة العدد المحدد . بل حرمت عليه الزواج لو كان مات جميع نسائه بعد نزولها .

ولقد أبدأ بعض المستشرقين والمبشرين وأعادوا في زيجات النبي صلى الله عليه وسلم هذه ، وقالوا : إنه قد سنّ لنفسه قانونا ينقض القانون الذى سنه لسائر المسلمين ، كما تطاولوا عليه بسبب عدد النساء اللاتي تزوج بهن أو جمعهن في عصمته ، ولقد رد كتاب المسلمين على هذا وذاك ردوداً متنوعة وجيهة ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم في تعدد زوجاته لم يكن شاذاً عن بيئته أو عن الطبيعة البشرية ، وأن لجل زيجاته ظروفاً غير

---

(١) هناك حديث يذكر أن سودة رضى الله عنها إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أفصحت للنبي عن رضاها بالتنازل عن حقها في المعاشرة ، ورجته عدم تطليقها وتفويت مانالته من شرف الزوجية النبوية . انظر تفسير آيات سورة الأحزاب في تفسير البغوي .

دواعي الرغبة الجنسية إذ توخى في بعضها تكريم صاحبيه أبي بكر وعمر رضى الله عنهما بابنتيهما عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، وفي بعضها توثيق الرابطة بين الإسلام وبعض القبائل كزيجته بجويرية ابنة رئيس بني المصطلق ، وفي بعضها تكريم الزوجات المهاجرات اللاتي فقدن أزواجهن في هجرة الحبشة وجبر نفوسهن كزواجه من أم حبيب بنت أبي سفيان ، وأم سلمة وسودة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهن لا سيما أن نصف زوجاته كن من المتقدمات في السن وأولات أولاد ممن تقل الرغبة الجنسية عادة فيهن .

وجوهر ومدى الردود صحيحان كل الصحة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يرى أنه في حاجة إلى تشريع خاص به مناقض للقانون العام — ونحن نستعمل التعبير مساجلة — لولا أن هناك ظروفاً قاهرة ، وكان بإمكانه أن يستغني عن المتقدمات في السن وذوات البنين وغير الجميلات لو كانت دواعي المسألة هى الرغبة الجنسية فحسب ، فلا يضطر إلى تشريع خاص به ؛ وقد كان تنظيم الصلات كما جاء في الآية (٥١) حاسما في أمر هذه الرغبة ومبرراً لاستبقاء الجميع في العصمة النبوية . وفي الآية رد مفحم أخر على الغامزين .

هذا ؛ وبمناسبة وصف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بأمهات المؤمنين نقول : إن هذا الوصف تكريمي فقط ، وأنه لم يترتب عليه أن يكون لهن حقوق الأمهات الإرثية على المؤمنين ، ولا حرمة نكاحهن ؛ بدليل أن هناك نصاً آخر على حرمة نكاحهن كما ترى في هذه الآية .

« وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِن بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ... الأحزاب ٥٣

وبدليل النص على أن محارمهن الذين يجوز لهم أن يدخلوا عليهن بدون استئذان هم آباؤهن وأبناؤهن وأخواتهن وأبناء إخوانهن وأبناء أخواتهن فحسب ، كما جاء في آية أخرى من سورة الأحزاب وهى :

« لَآ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَا أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ ... ٥٥

وأخيراً نشير إلى جملة « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها » إذ تنطوي على صورة من صور زواج النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة به ، فهو فوق أنه كان يخطب نساءه ويمهرهن جرياً على العادة المعروفة ، كان بعض النساء المؤمنات يعرضن أنفسهن عليه هبة[1] . ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان قصد التشرف بالصلة به والحرص على نيل الكرامة العليا في الزوجية النبوية ، وقد أباح الله له الاستجابة لمن شاء منهن تقديراً لهذه الرغبة المخلصة في نيل شرف هذه الزوجية الكريمة . ولعل في هذا ما يؤيد ما كان من حزن نسائه وقلقهن من احتمال الفراق ، وما كان من حكمة الله ورحمته بهن بالإبقاء .

الصورة الثالثة

(٢) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً . يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً . وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً . يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي

---

(١) اختلفت الروايات في شخص المرأة التي وهبت نفسها للنبي . وأوثقها أنها ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعه . وأنها عرضت نفسها بالذات وفي رواية عرضتها أمها على النبي يوم زار الكعبة في السنة التالية لصلح الحديبية وقد أمهرها عباس عم النبي صلعم بأربعمائة درهم (انظر تفسير الطبري والبغوي) .

فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ... ٢٨ ــ ٣٤

ولقد جعلنا الآيتين الأوليين من هذه الآيات موضوعاً خاصا في بحث أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وقلنا في صدد ذلك مافيه الكفاية .

غير أن فيهما وفي الآيات التالية لهما صوراً متصلة بهذا المبحث غير تلك الصورة الأخلاقية النبوية .

فأولا : أن الآيتين الأوليين تدلان على أن معيشة النبي صلى الله عليه وسلم فى بيوته كانت ضنكا على ما أيدته الروايات الكثيرة ؟ وكان نساؤه يتحملنها على مضض فلما رأين أن الله قد أفاء عليه أموال بني قريظة على ماذكرته الآيات السابقة لهاتين الآيتين طالبنه بالتوسعة فكان هذا التخيير الذى جاء مؤيداً ومردداً لما عرا النبي صلى الله عليه وسلم من غضب وانزعاج بسبب رغبة نسائه في الاستمتاع بمباهج الدنيا وشعوره بأن هذا مما لا يتناسب مع مهمته العظمى ، ومما قد يعوقه عن حملها أو التفرغ لها وهذه الظروف تسوغ القول بأن العيشة الضنك التي كان يعيشها النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن لقلة ذات اليد والعجز عن التوسعة مطلقاً ، بدليل أنها ظلت كذلك طيلة حياته ، وإلى مابعد أن امتلأ بيت مال المسلمين بالفيء والغنائم .

وثانياً : أن الآيات التالية للآيتين الأوليين جاءت استطراداً على ماهو المتبادر ، لتنبيه نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلى مركزهن وواجباتهن ومسئولياتهن الكبيرة بسبب مانلنه من شرف الزوجية النبوية ؛ كأنما أريد بها التنبيه إلى مايجب عليهن فهمه وإدراكه ؛ فعقاب ماقد يقترفنه من ذنب بسبب ذلك الشرف وثواب ما يبدو منهن من حسنات وخضوع وطاعة مضاعفان ، وقد جعلهن هذا الشرف في مستوى خاص بهن بحيث صرن قدوة للناس ، وترتب عليهن واجبات أخلاقية وسلوكية وتعليمية كبيرة تتعلق

بما لهن من صلة بالمؤمنين والمؤمنات وبأهداف المهمة النبوية ، وخُصصن بالعناية الربانية في رفعة القدر وقصد الإبعاد عن الرجس والتطهير لأنهن صرن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولقد جعلتهن الآية الأخيرة مرجعاً من مراجع الناس في أمور الدين لأنهن ألصق الناس بمن تنزل عليه آيات الله وحكمته وأكثرهم فرصة وقرباً لسماعها وتلقيها وفهمها[1] ، ومن هنا أيضاً جاء هذا المستوى الخاص الذى جعل لهن ، وهذه المضاعفة في العقاب والثواب ، وهذا التنبيه على عدم الضعف في القول وإطماع مرضى القلوب في التساهل والغفلة في ذكر أوامر الله وحكمته وآياته التي تتلى في بيوتهن وهذا الأمر بالقرار في بيوتهن وعدم الجنوح إلى التبرج واللهو . ولقد احتوت كتب الحديث شيئاً كثيراً عنهن – وخاصة عن اللاتي عمرن منهن طويلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم – في صدد سنن النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته ، كأثر من آثار هذه التلقينات والأعباء التى قررتها الآيات . هذا ، ونص الآيات وبخاصة عبارة أهل البيت لا تدع مجالا لتردد ما في أنها قد قصد بها نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتى هنّ أهل بيته ، وفي توسيع مدى هذه العبارة إلى أبعد من ذلك شيء غير يسير من التجوز ، كما أن صرفها عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم هو في منتهى التناقض والغرابة ولقد تكرر هذا التعبير في سياق قصص الأنبياء ، وكان المقصود به الزوجة في كل مرة كما ترى في الآيات التالية :

١ — قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ... هود[2] ٧٣

---

(١) مما يساق على هذا حديث رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي موسى قال (ما أشكل علينا أصحاب رسول الله حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما) التاج : ج ٣ ص ٣٣٨ .

(٢) الخطاب لزوجة إبراهيم عليه السلام . ولقد ورد في حديث رواه البخاري ومسلم والترمذي عن النبي صلعم في صورة الوليمة التي أولمها في مناسبة زواجه من زينب أنه كان يخرج إلى حجرات زوجاته حينما ظل بعض المدعوين يسمرون في بيته فيقول لهن السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله (انظر فصل التفسير في كتاب التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

٢ — وَهَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ . إِذْ رَءَا نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً ...
طه ٩ ـ ١٠

٣ — إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْـلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ . . .
النمل ٧

٤ — قَالَ لِأَهْـلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ . . .
القصص ٢٩

الصّورة الرابعة

(٣) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلاً مُّبِيناً . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً . مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً . ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيباً . مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . . .
٣٦ ـ ٤٠

وهـذه الآيات نزلت على ما أجمعت عليه الروايات في صدد زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضى الله عنها مطلقة دعيه أو متبناه زيد بن حارثة رضى الله عنه .

ولقد روى بعض الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم مال إلى زينب بعد زواجها من زيد لما رآه من مفاتنها ، وأنها شعرت بذلك فأخذت تكايد زوجها ، وأن هذا شعر بالأمر فأراد تطليقها ليتسنى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها . وتمسك المبشرون والمستشرقون بهذه الرواية ، وأضفوا عليها معاني خيالية ، وأخذوا يبدون ويعيدون ويتطاولون بالباطل على الأخلاق النبوية .

ولقد كانت الرواية موضوع نقد ونقاش قديماً وحديثاً ، فاستبعدها بعض المفسرين القديمين واستنكروها وقالوا إنها مدسوسة ، وتناولها الكتاب الحديثون لينزهوا النبي صلى الله عليه وسلم عما قاله بعض ذوي الهوى . ولم نر أحداً فيما اطلعنا عليه أنعم النظر في نصوص الآيات نفسها إنعاما وافيا مجرداً عن الروايات وأقوال المفسرين والمؤولين مع أن فيها صراحة تساعد على فهم الموضوع فهماً صحيحاً وتضع الأمر في نصابه الحق ، ومع أن القرآن هو السند الأوثق والمستلهم الأقوى .

ففي الآيات تعليل صريح بأن تزوج النبي مطلقة متبناه هو لإبطال تقليد حرمة زواج المتبني بمطلقة المتبنى ورفع الحرج عن المؤمنين في تزوج مطلقات أدعيائهم أو أبنائهم بالتبني . ونعتقد أن هذا التعليل هو مفتاح الحادثة كلها . فقد كانت العادة قوية راسخة ، ولم يجرؤ ـ على مايبدو ـ أحد على نقضها بعد أن عابت آيات الأحزاب ٤ ـ ٦ عادةالتبني وأمرت بإبطالها ، وهي هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ . ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ[1] ... »

---

(١) في الفقرة الأخيرة هذه نسخ لتوارث المتبنين والأبناء بالتبني أيضا إذ جعل التوارث بين ذوي الأرحام فحسب .

فألهم الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم على إبطال هذه العادة بنفسه في زينب . ولعل زينب التي رضيت التزوج من زيد الذى كان يدعى زيد بن محمد ، قد انبثق في نفسها شيء من التكبر عليه وأحست معنى من معاني عدم التكافؤ بينها وبينه حينما أبطلت الآيات التبني فصار يدعى زيد بن حارثة ، ويعتبر مولى من موالي المسلمين الذين ليس لهم نسب يباهون به ، وانبتت صلتــه الأولى بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فــكان تغير نظرة زينب إلى زوجها وموقفها منه مزعجاً له ومبعثاً لشكواه ، وداعياً له للتفــكير في طلاقهــا فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر والتحمل مع ماقام في نفسه بإلهام الله أن يتزوج بهــا إذا طلقها ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة ويكون قدوة لغيره . والعتــاب الرباني في الآيات مصبوب على تردده في الإقدام على تنفيذ ما ألهم الله خشية انتقاد الناس وحياء منهم ؛ وقد تضمنت الآيات توضيح الأمر ، فليس عليه من حرج في تنفيذ ماألهمه الله إياه ، وهذه سنة الله في أنبيائه إذا اختارهم لتبليغ رسالاته وجعل لهم إبطال وإلغــاء وتعديل وإثبات ما اقتضت حكمته من عادات وتقاليد ، وأوجب عليهم الإقدام وعــدم خشية أحــد غيره في ذلك : ولعل مفهوم الآية الأولى يدل على أن نقض هذه العــادة لم يصعب على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، بل صعب على زينب أيضاً إذ كانت تعــد نفسها كأنها زوجة ابنه ، والناس يعدونها كذلك ولم يكونوا قد تأثروا بعد بما كان من معابة آيات الأحزاب الأولى ٤ ـ ٦ لهذه العادة ؛ فاحتوت الآيات ما احتوته من عبارات قوية بسبيل الحض على الرضاء بما أمر به الله ورسوله وعدم عصيانه ، وزينب وزيد رضى الله عنهما كانا يعرفان بطبيعة الحال أن التقليد لا يسمح بتزوج النبي منها ، وهذه نقطة مهمة من شأنها أن تهدم ركناً من أركان الرواية ومادار حولها هدماً ساحقاً ، وأن تجعل الجزم سائغاً بأن زيداً إنما أراد تطليقها لأسباب غير أسباب تيسير تزوج النبي صلى الله عليــه وسلم بها وبأن مايمكن أن يكون قد بدا من زينب من سلوك مزعج لم يكن إلى هــذا الأمر بسبب .

وفوق ماقلناه نقرر استيفاء لمقتضيات الجدل أن إثبات الحادث في القرآن مع ما فيــه

من عتاب شديد أكبر برهان على أنه لم يكن في سياقه شيء ما يمس كرامة النبي صلى الله عليه وسلم ونزاهته وتصرفه ؛ وكل الأمر هو ما كان من تردده في تنفيذ إلهام رباني فيه إبطال عادة جاهلية ، ولقد جاءت الآية الأخيرة مقوية للتعليل ، وانطوت على تدعيم حاسم لما قلنا إنه مفتاح الحادثة كلها ، فما كان محمد أبا أحد من الناس حتى يحرم عليه نكاح مطلقة دعيه زيد ويسبب هذا قيلا وقالا فوق مافي عمل النبي من رفع للحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً .

وقد كررنا تعبير الإلهام لأن الآيات تدل على أن الحادث قد وقع بغير وحي قرآني ، وأنها قد نزلت بعد وقوعه ، وتدل كذلك على أن الحادث سبب قيلا وقالا فوق ما كان من تردد النبي صلى الله عليه وسلم وخشيته حديث الناس ووقوع ماتوقعه من ذلك فعلا ؛ فنزلت الآيات للرد على المنتقدين وتأييد النبي صلى الله عليه وسلم في تصرفه والدفاع عنه ، إلى عتابه على ما كان من تردده . ومثل هذا تكرر في القرآن كثيرا . ومن الأمثلة عليه سورتا الأنفال والفتح اللتان نزلتا بعد حادثي بدر والحديبية ، وتضمنتا تأييداً للنبي صلى الله عليه وسلم في تصرفه . ولعل آيات الأحزاب ٤ ـ ٦ التي أبطلت عادة التبني وآثارها هي التي ألهمت النبي صلى الله عليه وسلم التفكير في إبطال حرمة نكاح مطلقة المتبنى إتماما لهدم العادة نهائيا ، وهذا يعلل فيما يتبادر لنا ماتضمنته الآيات ٣٦ ـ ٤٠ من اعتبار الفكرة إلهاما أو أمراً ربانياً ومن عتاب النبي صلى الله عليه وسلم على تردده وخشية الناس فيه .

وأخيراً نرى أن ننبه إلى أمر ، وهو ما يمكن أن يوهمه عتاب الله للنبي صلى الله عليه وسلم لإخفائه في نفسه ما الله مبديه وخشيته الناس والله أحق أن يخشاه ، من مناقضة لما استدللنا عليه ونوهنا به في المبحث السابق من خلق جرأة النبي صلى الله عليه وسلم في الحق . ولسنا نرى في هذا الموقف تناقضاً ولا مغمزاً ؛ فالأمر متصل بخصوصية من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية أولا ، وليس فيه وحي قرآني صريح ثانيا ، وكان مرجع التردد الذي بدا منه اجتهاديا لاحتمال حدوث رد فعل قد يؤثر تأثيرا ما في أوساط المسلمين

والعرب فيما نعتقد ثالثاً ، ولم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم مع ذلك أن تغلب عليه وأقدم على ما ألهمته فطرته رابعاً . وما كان العتاب إلا على لحظة التردد الاجتهادي الذي هو خلجة نفسية كانت خلاف الأولى الذي في علم الله وحسب .

الصّورة الخامسة

(٤) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا . لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ... ٥٣ ـ ٥٤

وقد روى عن سبب نزول القسم الأول من الآية الأولى أنها نزلت يوم زفاف النبي صلى الله عليه وسلم على زينب ، إذ دعا المسلمين إلى الوليمة فانتظروا نضج الطعام ولم ينصرفوا بعده وأطالوا المكث في الحديث والسمر على الرغم مما بدا من النبي صلى الله عليه وسلم من ضيق ؛ وروى عن سبب نزول قسم الحجاب من الآية أن عمر رضى الله عنه ظل يلح على النبي صلى الله عليه وسلم أن يحجب نساءه حتى نزل ، وروى عن سبب نزول الفقرة الأخيرة منها أن أحد المسلمين قال لأتزوجنّ بعائشة رضى الله عنها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم عنها !

والرواية الأولى متسقة مع روح الفقرات الأولى من الآية فإن لم تكن هذه الرواية

صحيحة بنصها فلا بدّ أن تكون قد وقعت مناسبة مماثلة لها . والرواية الثانية تذكر أن عمر رضى الله عنه كان يودّ حجب نساء النبي صلى الله عليه وسلم فلا يختلطن بالناس ولا يخرجن بارزات أو سافرات ، وفحوى النص القرآني لا يؤدي إلى هذا عند إنعام النظر فيه ، ولقد جاء في الرواية الأولى أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أخبر بانصراف الناس من بيته وعاد ، أمر حالا بضرب الستار ـ وهو الحجاب ـ على الباب ومنع خادمه أنس بن مالك رضى الله عنه من الدخول وتلا الآية ، والنفس تطمئن أكثر إلى أن حادث وضع الحجاب على الباب هو المقصود وأنه متصل بالحادث الأول ؛ وعلى كل حال فليس الحجاب هنا هو نقاب الوجه كما هو مستقر في بعض الأذهان .

ومع أن الآيات قد نزلت لأسباب خاصة فإن الممكن الاستدلال بها على أن المسلمين كانوا يدخلون إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بإذن وبلا إذن ، وبدعوة وبغير دعوة ، وينتظرون نضج الطعام إذا كانوا مدعوين إلى طعام ، ويقضون الوقت في السمر والحديث ، وأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يحضرن مجالسهم ، وأن هذا كان يؤذي النبى صلى الله عليه وسلم ويضايقه ولكنه كان يستحيي أن يجبهم بالمنع ؛ والراجح أن هذا كان شأن المسلمين عامة فيما بينهم أيضاً ، جرياً على مألوفهم ، أو بالأحرى على مألوف العرب الذى تلهمه آيات سورة النور (٢٧ ـ ٣١ و٥٨ ـ ٦٠) على ماسوف نذكره في مناسبة أخرى ، مع احتمال أنهم كانوا يكثرون منه بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم وبيوته ، لأنه صار فيهم الهادي المرشد ، والزعيم الجامع ، والمعلم الواعظ ، والقاضي والمفتي ، وصارت بيوته مثابتهم ؛ لأنها بيوت الأمة العامّة ، ولعل النبي صلى الله عليه وسلم كان في الوقت نفسه يكثر دعوة المسلمين إلى الطعام في بيته ، ولقد استفاضت الروايات بأنه كان كثيراً ما كان يطعم الذين كانوا يعتكفون في مسجده من فقراء المسلمين وغربائهم والمتعطلين عن الكسب منهم .

والذي تلهمه روح الآيات ونصوصها أن ما كان يؤذي النبيَّ صلى الله عليه وسلم هو إطالة المكث في بيوته والدخول إليها بلا إذن وفي غير الأوقات المناسبة ، لا سيما أن

البيوت فيما نرجح لم تكن تحتوي على مرافق تستطيع زوجاته فيها التمتع بحرياتهن ؛ وأن الآيات هي بسبيل تنظيم هذا الأمر ، مع استثناء محارم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم الأدنين وملك اليمين والنساء . وليس في الآيات نص صريح يحظر دخول المسلمين إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الاستئذان والإذن ولحاجة غير تناول الطعام ؛ وقد تعددت الروايات التي تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لمن شاء من المستأذنين بالدخول عليه في بيوته ؛ وليس في الآيات كذلك نص صريح يحظر اجتماع المسلمين من غير المحارم بنساء النبي صلى الله عليه وسلم على الطعام أو غيره وفي بيوته بعد الاستئذان والإذن والدعوة أو في خارجها ولو لحاجة غير تناول الطعام ، وإن كانت روح الآيات أميل إلى الحظر ، وعلى كل حال ففي الآيات صورة لما كان الأمر عليه وما صار إليه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم البيتية وصلة المسلمين بها .

الصورة السادسة

(٥) في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ... ٥٩

ورواية النزول تذكر أن النساء كنّ يخرجن لقضاء حاجتهن بزي واحد حرائر وإماء وكان بعض الرجال يتعرضون لهن بدون تفريق ؛ فأمرت الآية حرائر المسلمين بإسبال الجلباب للتفريق بينهن وبين غيرهن .

وقد جاء بعد هذه الآية ثلاث آيات يرجح أن يكون لها صلة بها وهي :

« لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟

وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلاً . سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ... ٦٠ ـ ٦٢

وقد تدل الآيات على أن المنافقين ومرضى القلوب والأخلاق لم يكونوا يتورعون عن إدارة ألسنتهم في أعراض النساء وإشاعة الشوائع عنهن ، وإسماعهن بذيء الكلام وفاسقه ، فأنذرتهم الآيات هذا الإنذار القاصم ، هذا مع احتمال أن يكون الإنذار بسبب ما كان يلقاه نساء المسلمين من الأذى الذي أشارت إليه الآية (٥٩) وما كان يبدر من هذه الفئات من بذاءات وغمزات بصورة عامة .

والآية (٥٩) عامة الشمول ، وإنما سلكناها في هذا المبحث لأنها ذكرت نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ، ولأنها تبعا لذلك أدمجتهن في الصورة التي تنطوي فيها .

وننبه إلى أن في الآية إلهاماً تشريعياً آخر ؛ وهو أن الأحكام التي احتوتها آيات الأحزاب ٢٨ ـ ٣٤ و ٥٣ ـ ٥٥ التي نقلناها من قبل ، هى خاصة بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم دون سائر نساء المسلمين ؛ فلما اقتضت الحكمة أن يكون حكم عام أو تعليم عام للجميع ذكرن مع سائر النساء . على أن الآيات المذكورة تحتوي في حد ذاتها شيئا من الصراحة في هذا المعنى أيضا :

الصورة السابعة

(٦) في سورة التحريم الآيات الآتية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ

ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ . إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ . عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ... ١ ـ ٥

وقد روى المفسرون في سياق هذه الآيات روايات عدة على اختلاف بينها في الوقائع والأسماء ، ومنها ما يجعل مناسبة آيات الأحزاب (٢٨ ـ ٣٤) التخييرية متصلة بها ، بل ومنها ما يذكر أن بعض الحديث الذى أسرّ به النبي صلى الله عليه وسلم متعلق بالخلافة من بعده .

وخلاصة الرأي الأقرب إلى الصحة من غيره من أسباب نزول الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطيل المكث عند زوجته زينب ويشرب عسلا ، فتواطأت عائشة وحفصة على الكيد لها ، واتفقتا على أن تقولا له إن رائحته رائحة مغافير ، وهو صمغ حلو الطعم غير طيب الرائحة يمتصه النحل ، فلما قالتا له ذلك أو قالته إحداهنّ قال : بل شربت عند زينب عسلا ! فقالت له : لعل العسل جنى العرفط ؛ وهو الشجر الذى يخرج منه الصمغ. فحلف أو وعد بألّا يعود إليه ، وطلب ممن حلف أمامها أن تكتم القصة ولكنها لم تكتمها ، وأخبرت بها زميلتها ، ففشا الحديث فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وحلف ألّا يقرب زوجاته شهراً ، وهجرهنّ حتى قيل إنه طلقهنّ ، ثم سكت عنه الغضب عند تمام الشهر ونزلت الآيات . وهناك رواية تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع بمارية في بيت حفصة ، فلما علمت استرضاها بيمين ألّا يقرب مارية واستكتمها الخبر ، ولكنها أفشته لعائشة[1] .

ومهما يكن من أمر الروايات فالآيات تحتوي صورة حادث بيتي وقع بين النبي صلى

(١) الرواية الأولى من مرويات البخاري ومسلم والترمذي انظر التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ٢٣٩ .

الله عليه وسلم وبعض زوجاته ، وأنه قد وقع بسبب الغيرة النسائية ، وأن اثنتين منهما كانتا متآمرتين فيه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أحب أن يتصرف في الحادث تصرفاً فيه مسايرة ومراضاة ، فاستغلت إحداهما هذا الموقف الكريم منه وأفشت ما حدثها أو ما وعدها به ، وأن هذا آلمه وحزّ في نفسه حتى هم بتطليق نسائه ثم أوحى الله إليه بالآيات التي اكتفى فيها بالتنديد والإنذار . أما ما حرمه النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه باليمين فمن الصعب الجزم به ، فمن المحتمل أن يكون العسل أو قرب مارية مدة ما أو ما كان من حلفه بهجر نسائه شهراً ؛ ونحن نرجح أن يكون أحد الأمرين الأولين أو ما يماثلهما ، لأن الآية تنص على أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم على نفسه ما يحل له ، وأنه حرّمه مرضاة لأزواجه ؛ وننبه إلى أن تحريم النبي صلى الله عليه وسلم ما أحل الله له ليس بمعنى جعل الحلال حراماً ، وإنما بمعنى حرمان نفسه ما هو حل له مما ليس غريباً في الحياة البشرية .

الصورة الثامنة

(٧) في سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَّوْلَآ(١) إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن

(١) هي وغيرها في الآيات بمعنى : هلا .

تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا
وَٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... ١١ — ١٩

وموضوع الآيات هو ما عرف في السيرة النبوية بحديث الإفك عن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها . وخلاصة القصة على ما رواه البخاري ومسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم استصحب عائشة في إحدى غزواته على عادته في استصحاب إحدى نسائه معه ، وأن الجيش في العودة نزل منزلا فذهبت عائشة لحاجتها ثم فقدت عقداً لها فتأخرت في البحث عنه فلما رجعت وجدت الجيش قد رحل بهودجها إذ حمله الموكلون به يظنون أنها فيه ، فجلست مكانها أملا أن تفتقد فيرسل في أثرها ، وكان أحد المجاهدين متأخراً ؛ فلما وقع نظره عليها أناخ بعيره فركبته ولحقت بالجيش . وقد كان تأخرها وقدومها مع المجاهد وسيلة لظن بعض المسلمين والمنافقين السوء ، وقد استغل رئيس المنافقين « أبيّ » الحادث استغلالا قبيحاً فتولى إشاعته والخوض فيه واتسعت دائرته بالتناقل حتى أثر ذلك في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفق أن مرضت عائشة فرأت من النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من الجفاء لم تعهده ، فاستأذنت وانتقلت إلى بيت أبيها ؛ ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزورها فقد ظل منقبضاً جافياً حتى أنه أخذ يشاور أخصاءه في أمرها ؛ وقد شكا على المنبر ما ناله من أذى من الخوض في الحدث ، ولقد جرى كل هذا دون أن تدري عائشة منه بشيء إلى أن عرفت ذلك اتفاقا بعد نحو شهر ، فكبر همها وبكت كثيراً لما في الحديث من إفك قبيح وما كان له من أثر وذيوع . وقد تحدث إليها النبي صلى الله عليه وسلم أخيراً في مجلس من بيت أبيها وعلى مسمع من أبويها طالبا إليها أن تقول شيئاً وأن تستغفر الله إن كانت ألمت بذنب ، فتكهرب الجو وأخذتها الأنفة أن تبرىء نفسها معلنة طمأنينتها إلى أن الله لابد أن يبرئها . وقد أخذ الوحي النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس ، فلما انفصل عنه تهلل وجهه وهتف بعائشة مبشراً ثم تلا الآيات .

ومع أن الآيات ليست بسبيل حكاية القصة ، شأنها في ذلك شأن ماورد في القرآن من أحداث السيرة ، فإنها تحتوي بعض الدلالات المتسقة مع المروي إجمالا ، كما أن فيها دلالة على ما كان للحادث وظروفه من آثار مزعجة ومؤذية ، ومستوجبة للنقد والتنديد ، لا سيما ما كان من غفلة جمهور المسلمين عما فيه من إفك ظاهر وكيد بين كان يجب أن يدركوه بداهة حينما سمعوه ، لأن الذين قيل في حقهم أرفع وأطهر من أن يتورّطوا فيه ، وما كان في سلوكهم من بواعث الألم النفساني في النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة وذويها، وفيها كذلك نقد أو عتب على من يتصل الحادث بهم شخصياً بسبب سكوتهم أو حيرتهم أو اختلاج نفوسهم باحتمال صحته ، إذ كان يجب أن يدركوا الأوّل وهلة مافيه من كذب وبهتان ، وأن يعلنوا هذا في الحال .

ولعل مايحمل عليه التنديد بالساكتين الغافلين أو الحائرين المترددين من جمهور المسلمين أو الأخصاء ، وعلى انتقاد موقفهم ، بيان مافي الحديث من إفك بديهى ، وأنه لا يمكن أن يصح في العقل ، أولا : أن تقترف زوجة النبي صلى الله عليه وسلم إثما خطيرا مثل الذى نسب إليها ، وهى ابنة أول بيت في الإسلام بعد بيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي مرتبة سامية من الكرامة عند الله والمسلمين تمنعها منه بداهة ، وهى مع ذلك زوجة النبي التي كانت تعتقد أن وحي الله متصل به وأن الله لا يخفى عليه شيء . وثانيا : أن يجرؤ مسلم على التعرض لزوجة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه ذرة من إيمان بالله ورسوله . والحق أنه من الغريب ألا تكون هذه الحجة وروح الآيات مقنعة لكل ذى عقل ببراءة عائشة وتنزهها ، وأن يكابر أحد في ذلك مكابرة ما ، ونعتقد أن إعارة الروايات كل الاهتمام ، والغفلة عن التمعن في نصوص الآيات وروحها ، والأهواء الحزبية التي كان مبعثها الفتنة الهوجاء بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه ــ من أسباب ما كان حول هذا الحادث من قيل وقال ، وروايات جعلت بعض ذوي الهوى يستغلونه استغلالا مغرضاً كما استغله المنافقون ومرضى القلوب في زمن النبي ؛ والآية الأخيرة قوية التعبير عن هذا المعنى ؛ إذ تدل على أن فئة كانت هنالك تتعمد إشاعة الفاحشة وأخبار السوء عن المسلمين المخلصين ، وهي

التي خاضت في الحديث وتولت كبره ، ولقد جاء بعد قليل من الآيات آية أخرى متصلة بذلك وهى :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ٢٣

الصورة التاسعة

(٨) إن رواة أسباب نزول سورة الكوثر .

« إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ » .

قالوا : إن بعض بغاة الكفار وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر تعييراً له ، لأنه لم يعش له أولاد ذكور ، فنزلت السورة تندد به من جهة ، وتبشر النبي صلى الله عليه وسلم بماله من قدر عظيم عند الله من جهة أخرى .

وروايات السيرة المتعددة التي بلغت مبلغ اليقين تخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رزق أولاداً ذكوراً من السيدة خديجة رضى الله عنها زوجته الأولى ، ومن أمته مارية رضى الله عنها ، ولكنهم لم يعمروا إلا قليلا . ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم التاع أشد اللوعة عند ما مات إبراهيم بن مارية في يثرب . وروح السورة تلهم أن تعيير النبي صلى الله عليه وسلم بالأبتر قد حزّ في نفسه كثيرا ، وقد يكون في هذا مايدل على أن عدم تعمير أبنائه الذكور كان شديد الأثر فيه . ولقد ذكر بعض الكتاب أن مما يمكن أن يخطر بالبال أن يكون زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة وصفية وجويرية وميمونة ومارية رضى الله عنهن وكلهن فتيات بسائق الرغبة في الأولاد الذكور ، ولا يخلو هذا من بعض الوجاهة فيما نرى .

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم تبنى قبل بعثته : زيد بن حارثة رضى الله عنه وهو فتى صغير ، وكان عبدا لخديجة رضى الله عنها فاستوهبها إياه وأعتقه وتبناه . فليس

مما يستبعد أن يكون هذا التبني بسبب من عدم تعمير أولاده الذكور من السيدة خديجة رضى الله عنها .

والقرآن ينص بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له بنات بلغن مبلغ النساء ، وذلك في آية الأحزاب (٥٩) ، والأخبار اليقينية أن بناته من السيدة خديجة أيضاً ، وأن السيدة فاطمة رضى الله عنها منهن هى التي خلفت ذرية ، وأن الثلاث الأخريات ، زينب زوجة الربيع بن العاص ، ورقية وأم كلثوم زوجتي عثمان بن عفان رضى الله عنهما بالتوالي ، قد متن بلا ذرية .

الصّورة العاشرة

(٩) في سورة الحجرات الآية التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

٤ ـ ٥

ورواية سبب النزول تذكر أن وفدا من البادية جاء ليرى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ؛ فلما لم يجده أخذ يناديه من وراء حجراته بأصوات عالية حتى أيقظه من قيلولته .

والآية الأولى مع ماروى سببا لنزولها تدل على أن بيوت النبي صلى الله عليه وسلم كانت حجرات متلاصقة في طرف مسجده ، بحيث كان المسجد منها كأنه ساحة أمامها . وهذا مؤيد بالروايات التي بلغت مبلغ اليقين .

الصّورة الحادية عشرة

والمناسبة سانحة لقول كلمة بشأن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ومجالسه فيه ، فقد كان المسجد على ماذكرته الروايات المتواترة ساحة مسوّرة بأربعة أضلاع ، وفي أحد

أركانها حجرات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هذه الساحة كانت مكان صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بالمسلمين كما كان بها مجلسه معهم للوعظ والقضاء والفتيا واستقبال الوفود وحل المشاكل والمداولة في شؤون المسلمين المتنوعة ، وكان بعضها مغطى بسعف النخل وقد أقيم السقف على أعمدة من جذوع الشجر ، وصنع له نجار في أخريات سنيه درجتين من خشب للإشراف من فوقهما على المسلمين قاعدا وقائماً وهما اللتان يسميان منبره الشريف .

ولقد جاء في سورة المائدة في صدد شهادة أوصياء من يموت غريباً ، إشارة إلى استماع شهادتهم بعد الصلاة ، وهي في هذه الآية .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ... ١٠٦

إذ احتوت الآية تعليما بعقد مجلس قضائي بعد الصلاة ، وهذا بالنسبة للظرف الذي نزلت فيه هو في الغالب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ليعقد المجلس في مسجده بعد صلاته بالناس حيث يكونون شهوداً . وفي هذا قرينة أو بالأحرى دلالة على ماذكرناه آنفاً وتواترت به الروايات .

ولقد جاء في سورة البقرة آية فيها حث على المحافظة على الصلاة الوسطى وهي .

« حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ... ٢٣٨

والجمهور على أنها صلاة العصر ، حتى أن في موطأ الإمام مالك حديثين عن عائشة وحفصة رضي الله عنهما أنهما أمرتا ناسخاً ينسخ مصحفين لهما أن يكتب جملة « صلاة العصر » بعد جملة « الصلاة الوسطى » ، ولعل ذلك من قبيل التفسير . ولقد روى أن

النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس إلى أصحابه بعد صلاة العصر ، فمن السائغ أن يقال إن إطلاق كلمة الصلاة في آية المائدة إنما كان لأن وقت مجالس النبي صلى الله عليه وسلم للقضاء والوعظ وحل المشاكل المتنوّعة كان معروفاً ، ولعل اختصاص الصلاة الوسطى التي هى صلاة العصر بالحث على المحافظة عليها هى لبعث اهتمام المسلمين لشهود هذه المجالس . والحق أن وقت العصر هو الملائم لهذا بسبب قيظ النهار ومشاغل الناس فيه .

ولقد جاء في سورة المجادلة الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ... ١١

والآية تتضمن تأديباً عاماً مستمر التلقين ، وقد قال جمهور المفسرين والرواة : إن المجالس المذكورة هى مجالس النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا وجيه من ناحية نزول الآيات لظروف ومناسبات حاضرة ثم تكون تشريعاً وتعليما مستمرين . وعلى هذا فالآية تلهم أن المسلمين قد تأثروا بالحث على شهود الصلاة الوسطى لشهود مجالس النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ، وأنهم كانو يتسابقون إليها حتى ليصعب على المتأخرين أو الشيوخ أو المرضى أو الضعفاء أن يجدوا مكاناً . فاقتضت الحكمة تأديبهم بهذا الأدب الذى ينطوي على التطييب والوعد الحسن في الوقت ذاته .

ولقد جاء في سورة المجادلة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ١٢ ـ ١٣

وقد روى أكثر من رواية في سبب نزول الآيتين ، منها : أن الناس سألوا النبي فأكثروا حتى ثقل عليه ذلك فأراد الله أن يخفف عنه فأمرهم بتقديم صدقة بين يدي أسئلتهم .

ومنها : أن الأغنياء كانوا يغلبون الفقراء على مجالس النبي صلى الله عليه وسلم فثقل ذلك عليه وعليهم فنزلت الآية الأولى فكانت فرجا لهؤلاء ومشقة على أولئك وقلت مراجعة الأغنياء للنبي فلم تلبث أن نزلت الآية الثانية بنسخ الأولى .

وصيغة الآيتين تدل على أن كلا منهما نزلت لحدثها على ماجاء في الرواية الثانية ، غير أننا غير مطمئنين لجميع ماجاء في هذه الرواية ولا الرواية الأولى ؛ لأن هذا غير منسجم مع مهمة الرسول وطبيعة أخلاقه على مانعتقد ، والذي يتبادر لنا أن المسلمين كانوا يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم في غير المجالس العامة المعينة أيضا ويستفتونه في مشاكلهم الخاصة ، ومنهم من كان يطلب منه خلوة أو مجلساً خاصاً من أجل ذلك ، وهذا هو مفهوم تعبيري « ناجيتم ، ونجوا كم » اللذين ينطويان على معنى المسارّة ، وأن هذا قد كثر فاقتضت حكمة التنزيل أن يفرض رسم على الأغنياء منهم لتصرف حصيلته في أمور المسلمين العامة كما تدل عليه تسميته بالصدقة ، فثقل ذلك على هؤلاء وقالوا: إن الزكاة كافية ،فاقتضت الحكمة العدول عنه في الآية الثانية .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين صورة لما كان يعقده النبي صلى الله عليه وسلم من مجالس أو خلوات خاصة لمن يطلب من المسلمين ، بسبيل الاستماع إلى مشاكلهم الذاتية وحلها أيضا .

الصورة الثانية عشرة

هذا ولقد ذكر المفسرون في سياق تفسير فقرة جاءت في آية سورة النساء (٤٣) وهي « إلا عابري سبيل » أنه كان لبعض أصحاب رسول الله أبواب (خوخات) مفتوحة على المسجد النبوي ، وكان ساكنو البيوت يضطرون إلى العبور منها ، فرخص لهم . ونحن

نتوقف في قبول هذا الخبر لتعارضه مع رواية بناء أسوار المسجد ، ونميل إلى القول بأن الترخيص القرآنى إنما كان لسكان بيوت النبي صلى الله عليه وسلم . نقول هـذا ونحن نعرف أن هناك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر فيه بإغلاق خوخات المسلمين عن مسجده إلا خوخة أبي بكر رضى الله عنه ، فهل أقام أصحاب رسول الله مسا كنهم من وراء سور المسجد بعد إنشائه ثم فتحوا خوخات لهم في هذا السور ، سؤال نحار في جوابه، ولا نمنع أنفسنا من استغراب الأمر لبعده عن الاحتمال ، ونخشى أن يكون لما كان من مشادة بين أهل السنة والشيعــة حول الخـلافة النبوية أثر مافي هذا الخبر ، ففى الروايات المروية أسباب لنزول بعض الآيات . وفي الأحاديث المسندة أو المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ كثير من هذا الباب[١] .

الصورة الثالثة عشرة

ليس في القرآن بطبيعة الحال شيء عن وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولـكن هناك روايات في صدد سورة النصر وغيرها تتصل بتعيين وقت هذه الوفاة .

فهناك رواية تفيد أن آخر مانزل من القرآن هو الجملة القرآنية : « اليوم أكملت لـكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لـكم الإسلام ديناً » من آية المائدة الثالثة ، وأنها نزلت في حجة الوداع النبوية في السنة الهجرية العاشرة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث بعدها ألا أشهرا قلائل .

وقد توقفنا في تفسيرنا عن قبول هذه الرواية ونبهنا إلى بعدها ، لأن الجملة بعض آية طويلة لها صلة وثيقة بمطلع السورة وبالآيات التي تليها ، ولأن كلمة « اليوم » التي اتخذت دعامة على مايبدو للرواية قد تـكررت في الآية الخامسة من السورة التي لم يقل أحد إنها نزلت مع تلك الجملة .

---

(١) هناك حديث عن زيد بن أرقم عن النبي (صلعم) أنه قال(سدوا هذه الأبواب إلاباب علي) وهذا الحديث لم يرد في مسانيد الأحاديث الصحيحة، ومن رواته ميمون الذي يضعفه بعض علماء الحديث (انظر مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٤) أما الحديث الذي يروى أمر النبي بعدم إبقاء غير باب أبي بكر فقد رواه البخاري ومسلم والترمذي . (انظر التاج . ج ٣ ص ٢٧٣) .

وهناك روايات عن آخر ما نزل من القرآن ليست وثيقة من جهة وليس معها قرينة زمنية متصلة بوقت وفاة النبي صلى الله علية وسلم من جهة أخرى . غير أن هناك رواية تذكر أن سورة النصر وهى :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

قد نزلت قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تذكر أنها آخر السور القرآنية نزولا ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الفطنة من المسلمين قد استشعروا منها انتهاء مهمته وقرب وفاته[١] . وروح آيات السورة ومدى مضمونها من جهة والقرينة الزمنية بقدوم وفود العرب ومبايعتهم النبي صلى الله عليه وسلم ودخول الناس في دين الله أفواجاً في السنتين التاسعة والعاشرة من الهجرة ـ إذ ثبت بالتواتر الذي بلغ مبلغ اليقين أن النبي مات في ربعها الأول[٢] ـ من جهة أخرى ـ تؤيد هذه الرواية أكثر من غيرها فإن السورة ـ وإن كانت تضمنت كلمة «الفتح» التي ذهب المفسرون أن المقصود بها مكة ـ قد جاءت بسبيل التذكير أولا ، واحتوت الآية الثانية من السورة إلى ذلك إشارة إلى المشاهد التي تمثلت في سيل الوفود المتدفق من أنحاء الجزيرة على المدينة ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام بعد انهدام السور الذي كان يحول بين عامة العرب وبينه بوقوف مكة موقف الجاحد المناوىء له ثانياً : وقد بدأت هذه المشاهد في العام التاسع وامتدت إلى العام العاشر ، وطبيعي أن ذكر هذه المشاهد إنما كان عقب حدوثها أو على الأقل عقب مايصح أن يكون مفهوما واقعيا للآية الثانية ، ولذلك نرجح الرواية التي تذكر أن سورة النصر هى آخر السور نزولا حتى ولو لم تكن آخر الآيات القرآنية

---

(١) في حديث رواه البخاري والترمذي وأحمد أن ابن عباس قال: إن هذه السورة علامة أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى الزمخشري في الكشاف أن هذه السورة نزلت بمنى في حجة الوداع وهى آخر ما نزل من السور .

(٢) كانت وفاته صلى الله عليه وسلم ليلة الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة على المشهور .

نزولا ؛ وأنها نزلت في أوائل السنة الهجرية العاشرة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يلبث أن توفي قرير العين بالنجاح الباهر الذي يسره الله له فيما ندبه له من رسالته الربانية ، وبانتشار كلمة التوحيد والإسلام في مختلف أنحاء الجزيرة ، وانفتاح الآفاق الأخرى أمامها ، وتوطيد سلطانها ، وفي اجتماع العرب في كيان عامّ بعد أن كانوا شيعاً ، وفي انفساح المجال أمامهم بعد الحياة الاجتماعية والاقتصادية الضيقة ، وفي إتمام دوره السياسي والاجتماعي والتشريعي العظيم إلى جانب دوره الديني والروحي ، وهو الدور الخالد على اختلاف الدهر وتعاقب الأيام والذي يفترق فيه عن أدوار النبيين والرسل من قبله ، إذ كانت أدوارهم إما دينية وروحية ،وإما قومية ومحلية تحقيقاً للدعوة التي أمره الله بها في هذه الآيات :

١ — ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ... الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨

٢ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ. يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... المائدة ١٥ ـ ١٦

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ... الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦

ومستحقا لما اختصه الله به من الصلوات والبركات :

« إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ... الأحزاب ٥٦

فيستجيب إليها أتباعه الذين يعدون بمئات الملايين مرات عدة كل يوم ومنذ ألف وثلاثمائة عام ونيف هاتفين مرات عدة في اليوم الواحد وفي مشارق الأرض ومغاربها :

اللهم صل وسلم وبارك عليه .

المبحث الخامس

صور من اجتهادات النبي الشخصية أو الملهمة

وما نزل في صددها من القرآن . وصلة ذلك بالعصمة النبوية

في القرآن آيات عديدة تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدم على أمور ويعتزم عزائم باجتهاد منه أو بإلهام رباني ثم يتنزل وحي قرآني فيه إقرار وتأييد أو عقاب وتثريب مما ينطوي فيه صور هامة في صدد السيرة النبوية الشخصية والوحي القرآني معاً .

ومن الأمثلة على النوع الأول وقعة بدر . فإن سورة الأنفال التي تضمنت بعض مشاهد وشؤون هذه الوقعة قد نزلت بعد انتهاء الوقعة على ما هو متفق عليه . والمفسرون يروون(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه (هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله تعالى أن ينفلكموها) وأن العير لما نجت وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الاشتباك بالقتال مع الجيش القرشي الذي جاء للدفاع عن العير وشجعه زعماء الأنصار على الأقدام استبشر وسر وقال (سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني احدى الطائفتين العير أو قريش . والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم) ثم نزلت سورة الأنفال بعد انتهاء الوقعة فيها تأييد لذلك حيث جاء فيها هذه الأيات فيما جاء :

« كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ . يُجَٰدِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ

---

(١) انظر تفسير سورة الأنفال في تفسير الطبري والبغوي والطبرسي وابن كثير والخازن .

لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ... ٥ ـ ٨

وهكذا يكون خروج النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى بدر والوعد الرباني الذي أخبر به إلهاماً ربانيا .. ثم تأيد بالوحى القرآني .

ومن هذا النوع كذلك خروج النبي صلى الله عليه وسلم على رأس أصحابه إلى مكة بقصد زيارة الكعبة في السنة السادسة للهجرة بناء على رؤيا رآها واعتبرها أمراً أو إلهاماً ربانياً . ولما انتهى أمر الخروج بانعقاد الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش وهو صلح الحديبية واستغرب بعض أصحاب رسول الله عدم تمام الزيارة التي أخبر النبي بها ونزلت سورة الفتح تضمنت إحدى آياتها تأييدا للرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم هكذا :

« لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا • هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ... ٢٧ ـ ٢٨

ومن النوع الثاني قرار النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الفداء من أسرى بدر فعوتب على ذلك قرآنا في آيات سوة الأنفال هذه :

« مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٦٧ ـ ٦٩

ومن ذلك استغفار النبي والمؤمنين لبعض أقاربهم من موتى المشركين فعوتبوا على ذلك قرآنا في آيات سورة التوبة هذه :

« مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ... ١١٣ ـ ١١٤ (١)

ومن ذلك إذن النبي صلى الله عليه وسلم للذين استأذنوه من المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك فعوتب على ذلك عتاباً رقيقا . . في آيات سورة التوبة هذه :

« عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَٰذِبِينَ. لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ... ٤٣ ـ ٤٥

ومن ذلك عبوسه حينما جاء إليه الأعمى مسترشداً لئلا يشغله عن حديثه مع زعيم مشرك فعوتب على ذلك قرآنا . . في آيات سورة عبس هذه :

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰٓ . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ... ١ ـ ١٠

ومن ذلك ما اختلج في نفسه من رغبة في مسايرة المشركين في بعض رغباتهم أو في التردد من تلاوة بعض ما أنزل الله عليهم في ظرف أزمات نفسية فعوتب على ذلك قرآنا في آيات سورة هود والإسراء هذه :

١ — فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ

---

(١) النص يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رأوا في استغفار إبراهيم لأبيه المشرك أسوة فقلدوه فنبههم الآية إلى الحق في ذلك .

أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . . .

هود ١٢

٢ — وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذاً لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً . . .

الإسراء ٧٣ ـ ٧٥

ومن ذلك تحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه بعض ما أحله الله له وهو أنه حلف على نسائه في ظرف من الظروف فعوتب على ذلك عتاباً رقيقاً . . في آيات سورة التحريم هذه :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ...

١ ـ ٢

ولقد ذهب بعض المفسرين[١] في مدى تفسير آيات سورة النجم هذه :

« وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ...

١ ـ ٤

إلى أنها تشمل كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل ديني ودنيوي . وإلى أنها من الدلائل القرآنية على العصمة النبوية . مع أن هذا يتعارض بنوع خاص مع النصوص القرآنية التي فيها عتاب ولوم للنبي صلى الله عليه وسلم على بعض ما صدر منه مما أوردناه آنفاً كما هو المتبادر . وآيات سورة النجم منسجمة كل الانسجام مع بقية سياقها الذي جاء فيها إلى آخر الآيات الثماني عشرة كما ترى فيها :

---

(١) انظر تفسير سورة النجم في تفسير النيسابوري والطبري والخازن .

« عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ . مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَارَأَىٰٓ . أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَايَرَىٰ . وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ . إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَايَغْشَىٰ . مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ... ٥ — ١٨

ومجموعة هذه الآيات في صدد توكيد صحة ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم من مشهد روحاني شاهده بالقوة التي اختصه الله بها كما هو واضح بقوة من نصها وروحها . بحيث يكون صرف الآيات الأربع الأولى منها إلى غير ذلك أو تشميلها لغير ذلك تجوزاً كبيراً .

ولسنا نرى مساساً بالعصمة النبوية من هذه الناحية ولا من ناحية تلك الاجتهادات التي عوتب عليها في القرآن . فالاجتهادات التي عوتب عليها ليست ذنوبا يمكن أن يكون صدورها من النبي مناقضاً للعصمة التي يجب الإيمان بها فيه . وإنما هي خلاف لما هو الأولى في علم الله المغيب عنه فيما لا وحي فيه . والعصمة الواجب الإيمان بها ليست هي التي تجعل النبي يمتنع عليه أن يصدر منه أي فعل أو قول أو اجتهاد في مختلف شؤون الحياة والناس قد يكون فيه الخطأ والصواب وخلاف الأولى الذي في علم الله والذي لا ينكشف له إلا بوحي مما لا يمكن أن ينتفي عن الطبيعة البشرية النبوية المقررة في القرآن ولكنها التي تجعله يمتنع عن أي إثم أو جريمة أو فاحشة أو مخالفة للقرآن قولا وفعلا . . وعن كتم أي شيء أوحي به إليه أو تحريفه وتبديله نتيجة لما وصل إليه بنعمة الله وفضله من كمال الخلق والروح والعقل والإيمان والاستغراق في الله الذي جعله أهلا للاصطفاء الرباني .

المبحث السادس

صور لسلوك المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم

تناول هـذا المبحث صوراً مشرقة عن مواقف المسلمين من النبي في العهد المـكي وتفانيهم في اتباعه وتعظيمه ودلالة هـذه المواقف ـ تنوع مواقف المسلمين في الاحتشام والتأدب في مجالس النبي ـ صور مشابهة أخرى ـ موقف بعض المسلمين من تشريع صدقة النجوى ـ مواقف غير مستحبة تلهمها بعض الآيات ـ توطيد القرآن لطاعة النبي ومدى ذلك ـ انعـدام المواقف السلوكية غير المستحبة إزاء النبي في العهد المـكي وكثرتها في العهد المدني وتعليل ذلك .

الصورة الأولى

في القرآن آيات تأديبية وتعليمية كثيرة في صدد سلوك وآداب المسلمين نحو النبي كما فيه آيات تنويهية فيها ثناء على ما كان يبدو من المسلمين المخلصين من تفان وإخلاص وطاعة له ، فرأينا أن نعقد لها هذا المبحث لأنها تنطوي على بعض الصور المتصلة بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية ما ، وننبه إلى أن ما نعرضه هنا هو غير ما انطوت عليه آيات أخرى من صور لسلوك المنافقين أو سلوك المسلمين من الدعوة إلى الجهاد وظروفه إذ يأتي هذا وذاك في فصليهما الخاصين .

الصورة الثانية

(١) أوردنا في نهاية المبحث السابق الآية (١٥٧) من سورة الأعراف . وقد احتوت صورة مشرقة من تفاني المسلمين في العهد المـكى في النبي صلى الله عليه وسلم ونصره توقيره واتباع وصاياه والنور الذى أنزل معه ؛ وهذه الصورة كما تلهمه الآية تشمل الـكتابيين ، بل إن الآية تـكاد تـكون فيهم لولا فقرتها الأخيرة التي احتوت تعميما للذين آمنوا .

وينطوي في هذه الصورة وصف رائع لما كان من تأثر المسلمين الأولين بالنبي صلى الله عليه وسلم ونور نبوته الساطع وأعلامها الصادقة ، ويقين الكتابيين منهم بأنها منطبقة على ما يجدونه عندهم من أوصاف وإشارات للنبي الموعود والهادي المنتظر ، انطباقا يظل خالد الشهادة على كر الدهور (١) .

(٢) في سورة الزمر الآيات التالية :

« وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ... ١٧ — ١٨

وهذه أيضا احتوت صورة مشرقة أخرى لتفاني المسلمين في العهد المكي في الإصغاء إلى تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم وإرشاده وما يتلوه من آيات قرآنية ، وبالتالي لتأثرهم بنور نبوته وأعلامها الصادقة ، وحرصهم نتيجة لهذا التأثر على تحري الأفضل والأحسن والأهدى واتباعه .

---

(١) في أسفار العهد القديم والأناجيل المتداولةاليوم إشارات عديدة يمكن أن تكون من جملة ماينطبق على صفات النبي صلعم ورسالته . وقد عقد السيد رشيد رضا في الجزء التاسع من تفسير المنار فصلا : طويلا : على ذلك أورد فيه ثماني عشرة بشارة مستمدة من أسفار العهد القديم والأناجيل وناقش الشبهات التي يوردها المبشرون . وأورد من الحجج مافيه المقنع لراغبي الحق والحقيقة بصواب استنتاجاته وقوة حججه . وليس هناك أي دليل على أن الأسفار المتداولة اليوم العهدين القديم والجديد هي كل ما كان متداولا في زمن النبي صلعم وقبله . وليس مايمنع أن يكون فيما لم يصل إلينا بشارات وأوصاف أكثر صراحة مما هو وارد في الأسفار المتداولة اليوم . وآية الأعراف قد نزلت في الذين تبعوا النبي من أهل الكتاب في مكة بناء على ماوجدوه فيه من صفات مطابقة لما كان بين أيديهم من أسفار . ومن المحال أن يكون ذلك جزافاً . وهناك إنجيل متداول منسوب إلى حواري اسمه برنابا فيه نصوص متفقة مع نصوص القرآن عن عيسى وحياته وشخصية ورسالة النبي محمد وصفاته . ومهما يكن هناك من مآخذ توجه إلى هذا الإنجيل فإن نصوص القرآن الذي لا يمكن لأحد أن يشك في أنه وثيقة تاريخية أمينة سليمة فضلا عن قدسيتها ترجع إلى أربعة عشر قرنا تحتوي الدليل القاطع على أنه كان فيما يتداوله أهل الكتاب من أسفار إشارات إلى صفات النبي محمد عليه صلوات الله ورسالته .

الصورة الثالثة

(٣) في سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ... ١ ـ ٣

والروايات عن سبب نزول الآية الأولى متعددة ، منها اختلاف أبي بكر وعمر رضى الله عنهما في أمر في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يسألهما رأيهما فيه ، ومنها صيام بعض المسلمين رمضان قبل أن يعلن النبي صلى الله عليه وسلم ثبوته ، ومنها ذبح بعض المسلمين قربان عيد الأضحى قبل ذبحه ؛ وروى في صدد الآية الثانية أنها نزلت في مسلم جهير الصوت كان إذا تكلم ارتفع صوته حتى يرتفع على صوت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولم يرو سبب لنزول الآية الثالثة .

ومهما يكن من هذه الروايات وما تحتمله من المناقشة فإن مما لا شك فيه أن الآيات نزلت بمناسبة بعض وقائع اقتضت الحكمة الربانية التنبيه على مافيها من مأخذ ، وتأديب المسلمين فيها . وعلى كل حال فالآيات تدل على أن المسلمين كانوا أصنافا مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ كان بعضهم لا يحتشم في مجلسه ومخاطبته ، كما كان بعضهم يتسرع في إبداء الرأي والبدء في العمل قبل أن يبدي رأيه أو يفعل ، في حين كان بعضهم يعرف قدره العظيم وشأنه الرفيع صلى الله عليه وسلم فيلزم الأدب والحشمة ويقف عند الحدود الواجبة عليه في حضرته .

وواضح أن هذا متسق مع اختلاف طبائع الناس من جهة ، ومع طبيعة بيئة لم تتعود أن تتقيد بمثل هذه الآداب مهما يكن الفارق بين الناس ، وكان الكبير والرئيس

يخاطبون فيها مخاطبة الند وبدون استعمال ألفاظ توقيرية من جهة ثانية ، ثم ما كان من قدم إيمان بعضهم ورسوخه في أنفسهم وتأثرهم أبلغ التأثر بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم وتفانيهم في تعظيمه وتوقيره ، وجدة الإيمان عند بعضهم وانسياق بعضهم في الإسلام بدوافع متنوعة من جهة ثالثة ، فنزلت الآيات تؤدب المسلمين وتعلمهم وتوطد مكانة النبي صلى الله عليه وسلم وحقه ، وتثني على من كان يوفيه هذا الحق ، لأن ظروف البيئة الإسلامية المدنية اقتضت ذلك .

ولقد جاء بعد الآيات الثلاث آيتان فيهما وصف موقف سلوكي آخر وهذا نصهما :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٤ ـ ٥

إذ احتوت الآية الأولى منهما إشارة تنديدية إلى صورة فيها جفاء بدرت من وفد بدوى على ماروته الروايات جاءوا إلى المدينة ليجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما لم يجدوه في المسجد أخذوا ينادونه من وراء حجراته بأصوات عالية ؛ وهو أمر يتصل بالتعليل الذى ذكرناه آنفاً ، وكانت الحادثة وسيلة إلى التأديب القرآني الذي احتوته الآية الثانية .

الصورة الرابعة

(٤) في سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٦٢ ـ ٦٣

وقد ذكرت روايات النزول أن الآيات نزلت في ظروف حفر الخندق ووقعة الأحزاب . ومهما كان من أمر ففيهـا منظر آخر مشابه للمنظر الذى احتوته آيات الحجرات السابقة كما هو واضح ؛ إذ كان بعض المسلمين ينسحبون خفية من مجلس النبي صلى الله عليـه وسلم أو من اجتماع دعا إليه لأمر هام دون استئذان ، ولم يكن بعضهم يفرق بين دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوة سائر الناس فيعتذر أو يهمل الإجابة ، في حين كان بعضهم يلتزم الأدب والواجب فيهتم لدعوته ، ويسارع إلى شهود مجالسه ، ويحرص على البقاء فيها ، ولا يتركها إلا لعذر مهم وبعد الاستئذان والإذن .

(٥) في سورة النور أيضا الآيات التالية :

« وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ... ٤٧ ـ ٥٢

ومع أن الآيات تتحمل أن تـكون بسبيل التنديد بموقف بعض المنافقين ، فإنها تتحمل أن تـكون بسبيل التنديد ببعض المسلمين من غير المنافقين أيضا ، وفي القرآن تنديدات مماثلة وجهت إلى المؤمنين دون المنافقين ؛ ولذلك يسوغ أن يقال: إن فيها صورة لمواقف بعض المسلمين الذين كانوا يتهربون من التقاضي لدي النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا كان الحق لهم خشية أن يقضي ضدهم بالحق . ومع أن الآيتين الأخريين هما بمثابة تقرير لما يجب أن يكون عليه المؤمن المخلص فإن روحهما تُلهم أنهما تنطويان على صورة واقعية لموقف المخلصين من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأحكامه أيضا .

الصّورة الخامسة

(٦) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ... ٦٩ ـ ٧١

وقد روي أن بعض العرب نسبوا إلى النبي عدم العدل في قسمة الغنائم فتأذت نفسه وقال : فمن يعدل إن لم يعدل رسول الله ؟ ثم قال : يرحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر ! فنزلت الآيات ؛ وقد وردت أحاديث عن الأذى الذي أوذي به موسى في سياق تفسير الآيات ، منها نسبة بني إسرائيل إليه قتل هارون . ومنها إغراء قارون بغياً لتتهم موسى بالفاحشة ، ومنها أنه كان يتحفظ كثيراً في التجرد حياءً فقالوا : إن في جسده آفة يخشى أن يراها بنو إسرائيل ؛ وقد ذكرت الأحاديث أنه وقع ما برأ الله به موسى من التهم .

وعلى كل حال ففي الآيات تحذير للمسلمين من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بقول أو عمل أو موقف ، وألّا يكونوا كبني إسرائيل ، وتنبيه إلى أن الله حاميه ومطهره ؛ والمرجح أنه قد وقع حادث فيه قلة أدب وذوق في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعجيز أو شك آذى نفسه فنزلت الآيات .

ومن هذا القبيل ما انطوت عليه آيات الأحزاب ٥٤ ـ ٥٦ التي نقلناها في مبحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ، إذ احتوت صورة لموقف فيه شيء من التثقيل على النبي صلى الله عليه وسلم ولقول فيه شيء من الأذى لنفسه في زوجاته .

(٧) ولقد أوردنا في المبحث السابق آيتي سورة المجادلة ١٢ ـ ١٣ ؛ وننبه هنا إلى أنهما فوق ما تضمنتا من صورة لمجالس النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة ومراجعات

الناس له في مشاكلهم الذاتية فإنهما تتضمنان كذلك صورة لما كان يظهر من بعض المسلمين من اللجاج والتلكؤ في سياق التشريعات والتكليفات المالية التي يأمر بها أو يبلغها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه . وقد تكرر هذا منهم في مناسبات توزيع غنائم بدر وفيء بني النضير ، وحكته عنهم سورتا الأنفال والحشر ؛ وسوف نعرض له في فصلي الجهاد والتشريع ، لأن الموقف ثمة أوسع شمولا من الصورة التي احتوتها آيات المجادلة .

الصّورة السّادسة

وفي القرآن آيات عدة فيها إيجاب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم وحث عليها وتوطيد لها واعتبارها ملازمة للإيمان بالله ورسوله وأثراً من آثاره ، ووسيلة إلى الله ، كما أن فيها تنديدات لاذعة بالذين لا يستشعرون هذا الواجب على الوجه الذي ينبغي ، كما تراه في الأمثلة التالية :

١ — قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ... آل عمران ٣١ — ٣٢

٢ — وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... آل عمران ١٣٢

٣ — تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ... النساء ١٣ — ١٤

٤ — وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ... النساء ٦٩

٥ — مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ...

النساء ٨٠ ـ ٨١

٦ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيماً . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ...

النساء ٦٤ ـ ٦٥

٧ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ...

الأنفال ٢٠ ـ ٢١

٨ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ...

الأنفال ٢٤

٩ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...

الأنفال ٢٧ ـ ٢٨

١٠ — وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ...

التوبة ٧١

١١ — لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ...

التوبة ١١٧

فهذه الآيات تلهم أن بعض المسلمين كانوا يقفون مواقف التلكؤ في واجب الطاعة والانقياد ، بل الأمانة للنبي ، وتلهم أن هؤلاء ليسوا من المنافقين ، وإن كانت

تلهم أن منهم المنافقين أيضاً . وقد احتوت تنويها بالذين كانوا يطيعون رسول الله وينقادون لأوامره في ظروف الشدة وغيرها ، وبتعبير آخر ، إن الآيات قد تضمنت صوراً متنوعة لمواقف المسلمين على اختلاف درجات إيمانهم وتفانيهم . ويظهر أن المواقف غير المستحبة كانت أكثر فاقتضت الحكمة تكرار الأوامر في مختلف المناسبات لتوطيد ذلك الواجب العظيم . وننبه إلى أن جميع الآيات مدنية ؛ فالتعليل الذي ذكرناه من قبل في صدد وقوع ما لا يستحب من حوادث ومواقف من المسلمين تجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، يطرد هنا ويبدو مفهوما واضحاً .

الصُّورة السَّابعة

ونريد أن نلفت النظر إلى أمر هام بهذه المناسبة في صدد الأهداف القرآنية والدعوة النبوية وواجب الطاعة . ومع أن من الطبيعي أن تكون طاعة الرسول واجباً دينياً لا حاجة فيه إلى تعليل وإقناع لأنه يصدر في تبليغاته عن الله ، فإن في الآيات التي نقلناها وخاصة آيات آل عمران ١٣٢ والنساء ١٣ ـ ١٤ والأنفال ٢٤ تعليلا لهذه الطاعة ، إنها لخير المسلمين وحياتهم ومصلحتهم . وفي آية في سورة الممتحنة ذكر أنها تطلب منهم الطاعة في المعروف ولا تطلبها منهم مطلقة كما ترى فيها :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٢

وفي هـذا ما فيه من أسلوب الخطاب الإقناعى والدعوة الحكيمة ، وهو الطابع العام لأسلوب الدعوة والخطاب القرآنى ، الذى تتفتح له نفوس من شرح الله صدورهم ولم يضلهم هواهم ، وتطمئن به قلوبهم . وفيه دليل كذلك على أن حياة النبي صلى الله

عليه وسلم وسيرته ورسالته كانت إلى جانب روحانيتها وعلويتها وصلتها بالله ، متسقة مع الاعتبارات البشرية الطبيعية التي تكون فيها المصلحة بارزة والإقناع وسيلة رئيسية .

الصورة الثامنة

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات التي احتوت صوراً سلوكية غير مستحبة نحو النبي صلى الله عليه وسلم هى مدنية ، وأن الآيات القليلة التي جاءت في السور المكية متضمنة صوراً سلوكية نحوه لم تحتو إلا ما فيه معنى التفاني في اتباعه ونصره وتأييده . وكذلك كانت الآيات التي تحث على واجب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه والاستجابة له بأساليبها المتنوعة والمتكررة ، مدنية أيضاً .

وهذا متصل بطبيعة العهدين ؛ فالعهد المكي كان عهد قلة وضعف ونضال مع أغلبية باغية قوية ، وهذ يقضي على الأقلية بالتضامن والتفاني ، ثم هو عهد آمن المؤمنون فيه عن رغبة واندفاع وبقطع النظر عن كل اعتبار خاص ، ومع عدم المبالاة بما كان من أذى الأغلبية ومناوأتها وقوتها ، بحيث يقال بحق إن جلّ الذين آمنوا فيه كانوا من الأقوياء في نفوسهم وأخلاقهم والذين رأوا في الإسلام ملاذاً ونجاة وطمأنينة قلب وضمير ، وكشف الله عن بصيرتهم فشاهدوا نور النبوة الوهاج وأعلامها الصادقة فامتلأت بذلك قلوبهم ؛ فلم يكن ثمة مجال لمواقف متنوعة إزاء النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة المواقف غير المستحبة ، في حين اتسعت دائرة الإسلام كثيرا في العهد المدني ، وانضم إليها طبقات وفئات متنوعة ومتفاوتة في أخلاقها وبواعثها وظروفها من حضر وأعراب ، كما كان من الذين انتسبوا إلى الإسلام منافقون وطامعون وانتهازيون ودساسون ودعاة فتنة ، ثم كان عهد طمأنينة واستقرار نوعاً ما ، وعهد تأسيس دولة كان النبي صلى الله عليه وسلم فيها الرئيس والقائد والقاضي والمشرع وقاسم المال الخ فكان المجال ثمة واسعا لظهور الناس على سجاياهم ، وتفرغهم لأمورهم الخاصة متعة وكسباً ونشاطاً ، وطمعاً ومغامرة الخ وطبيعى أن تكون هذه الظروف المتنوعة وهذا التفاوت باعثاً على صور سلوكية غير مستحبة .

ونستدرك أمراً في صدد صور المسلمين في العهد المكي ؛ فالذي عنيناه هنا ماله صفة سلوكية نحو النبي صلى الله عليه وسلم فقط ، وإلا ففي السور المكية ما يلهم صوراً لبعض المسلمين في العهد المكي فيها بعض مظاهر من الضعف والتزعزع سنعرضها فيما بعد . وهذا الذي جعلنا نستعمل كلمة (جل) بدلاً من (كل) . ونستدرك أمراً آخر وهو أن هذه الصور السلوكية إزاء النبي (صلعم) هي صور مواقف مسلمين مخلصين غير منافقين على الأرجح الذى تلهمه الآيات . وأن هناك صوراً أخرى لمواقف سلوكية إزاءه من المنافقين في العهد المدني سوف يأتي الكلام عنها في فصل المنافقين في الجزء الثاني .

المبحث السابع

الوحى وأولياته

متناول هذا المبحث ـ مفهوم الوحى ومداه من القرآن ـ وحى الله للنبي وأنبيائه صلوات الله عليهم ـ سنن الله في وحيه ـ تنزيل جبريل القرآن على قلب النبي ـ كنه الوحى سر متصل بسر النبوة وواجب الوجود ـ الوحى منفصل عن النبي وليس نابعاً منه ـ تعليق على خبر رؤية الناس لجبريل حينما يتمثل برجل ـ التقريرات القرآنية الحاسمة في صدق شعور النبي بصلته بالوحى ـ مؤيدات قرآنية أخرى ـ بعض الأحاديث المروية ـ مداها ودلالتها ـ مدى النهي عن تدوين غير القرآن عن النبي ـ الأحاديث القدسية ـ عدم فهم الانسان كنه الوحى والنبوة لايمنع صدقهما ـ شهادة العيان الحاسمة في صدق أعلام النبوة والوحى ـ كيفية بدء اتصال الوحى بالنبي ـ وقت بدء الوحى القرآني ـ تحليلات واستدلالات في صدد أوليات القرآن نزولا ـ أثر اتصال الوحى لأول عهده في نفس النبي ـ صورة أخرى بمناسبة فترة الوحى وتعليقات في صددها .

الصورة الأولى

إن الوحى شأن متصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم في الدرجة الأولى ، والدعوة إنما كانت بعد اتصاله الأول به ؛ وهذا ماحدا بنا إلى جعل هذا المبحث من مواضيع هذا الفصل .

وسيتناول الكلام في هذا المبحث خمس نقاط :

(١) مفهوم الوحى ومداه .

(٢) كيفية بدء اتصال الوحى بالنبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) وقت بدء نزول القرآن .

(٤) أوليات القرآن نزولا .

(٥) أثر الوحى لأول عهده في نفس النبي صلى الله عليه وسلم .

الصورة الثانية

مفهوم الوحى ومداه :

(١) يتلخص ماقاله المفسرون واللغويون في معنى كلمة « الوحى » أنه القذف في الروع ، والإلهام ، والإشارة السريعة الخاطفة التي هى أقرب إلى الإسرار منها إلى الإعلان .

(٢) وقد وردت كلمة الوحى ومشتقاتها في القرآن نحو سبعين مرة ، منها مالا يتصل بمعناه وصدوره عن الله ومنها مايتصل .

ومن النوع الأول ماجاء بمعنى الإشارة كما ترى في الآية التالية :

« فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ... مريم ١١

وبمعنى الوسوسة والتآمر الخفى كما ترى فيما يلى :

١ — « وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ . . . الأنعام ١٢١

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ... الأنعام ١١٢

أما النوع الثانى فمنه ماجاء بمعنى الإلهام الغريزي كما ترى فيما يلى :

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ... النحل ٦٨

وبمعنى الإلهام لغير الأنبياء والملائكة ، والقذف بالروع كما ترى فيما يلي .

١ — وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... القصص ٧

٢ — وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي ... المائدة ١١١

وواضح أن هذا وذاك ليس مما يدخل في مدى وحي الله لأنبيائه ، أما مايتصل بذلك فمنه ماجاء مطلقاً لا يفهم منه كنه ولا كيفية كما هو في الآيات التالية :

١ — إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّنَ مِن بَعْدِهِ . . .
النساء ١٦٣

٢ — وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِ ... الأنعام ١٩

٣ — إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ... يونس ١٥

ومنه ماجاء فيه بعض الدلالات التي يمكن استلهامها شيئاً عن مفهوم الوحي النازل على الأنبياء والنبي محمد صلى الله عليه وسلم ومداه كما في الآيات التالية :

١ — فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ . ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ . وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ . لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . .
التكوير [1] ١٥ ـ ٢٩

٢ — وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ . ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ . وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ . أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ... النجم [2] ١ ـ ١٢

٣ — وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ

---

(١) الخنس : جمع خنساء وهي النجوم التي تأتي ثم تكر راجعة . الكنس : جمع كنساء وهي المحجوبة. والرسول في الآيات يعني الملك .

(٢) ذو مرة : ذو قوة . والراجح أن الأوصاف هي أوصاف الملك ، وأن كلمة عبده تعني النبي .

رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... الشورى ٥١ ـ ٥٢

وهناك آيات عظيمة الدلالة في صدد الوحى وتنزله بالقرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد فيها لفظ الوحي ، وهي هذه :

١ — قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ... البقرة ٩٧

٢ — قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ . . .
النحل ١٠٢

٣ — نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . . .
الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٤

وقد ورد فى سورة النحل آية فيها صراحة بأن الله ينزل الملائكة على من يشاء من عباده (أي أنبيائه) ولم يرد فيها لفظ الوحي أيضاً وهي هذه :

« يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا فَٱتَّقُونِ ... ٢

وقريب من هذه آية فاطر التالية :

« ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ... ١

فجميع هذه الآيات تدل على أن لله سنناً في الاتصال بمن يختارهم من البشر لرسالته وخطابه أولا ، وعلى شيء من كيفية اتصال وحي الله بهم وبالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ثانياً ، وهذه السنن هي :

١ ـ إنزال الملائكة بأمره ووحيه .

٢ ـ اتخاذ الملائكة رسلا بينه وبين الناس .

٣ ـ قذف الله في روع من يريد أن يكلم من البشر .

٤ ـ إسماع الله من يريد من البشر كلاما دون واسطة ودون رؤية .

٥ ـ إن روح القدس والروح الأمين الذي هو جبريل هو الذي كان ينزل القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

والسنة الثالثة مستلهمة من آيات الشورى التي احتوت بيان ثلاث طرق وهي : الوحي ، والكلام من وراء حجاب ، والكلام بواسطة رسول ؛ فذكر الوحي مع ذكر الرسول الذي هو الملك يسوغ تفسير الوحي بمعنى القذف في الروع . والسنة الرابعة كذلك مستلهمة من هذه الآيات . أما تفسير جبريل بالروح القدس الأمين فإنه مستلهم من تشارك تعبير « التنزيل على القلب » في آيات البقرة والنحل والشعراء مع ذكر جبريل بصراحة في آية البقرة ، وهذا مجمع عليه تقريباً عند المفسرين .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن شيء يمكن أن يفيد بصراحة ماهية الملائكة وكنههم أو يفيد أن غير من اختصه الله يمكن أن يراهم ، أو يفيد كيفية إدراك النبي صلى الله عليه وسلم نزول جبريل على قلبه أو كيفية رؤيته إياه بالأفق أو قريبا منه قاب قوسين أو أدنى ، وسماعه صوته ، أو كيفية إدراك النبي وحي الله حينما يكون بطريق الإلهام والقذف التي هي إحدى الطرق التي ذكرتها آيات الشورى .

فهذه الأمور مما كانت وظلت في حقيقة كنهها سرا على غير النبي صلى الله عليه وسلم لأنها متصلة بسر النبوة المتصل بسر الوجود وواجب الوجود : وهي من المسائل الإيمانية التي يجب على المسلم الإيمان بها لأنها وردت نصا في القرآن . وفي الأحاديث والروايات الكثيرة أن جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويكلمه ويلقي إليه بل

يتحدثان معا والنبي جالس بين الناس فلا يرى أحد شيئا أو يسمع صوتا ، ويبقى الأمر بين النبي وجبريل صلى الله عليهما وسلم حادثا روحيا لا يدرك كنهه أحد [١] .

وننبه إلى النصوص القرآنية صريحة الدلالة على أن الوحى الرباني الذي كان يتصل بالنبي كان شيئا طارئا عليه وليس كما يقول بعض الباحثين أنه نابع من ذاته وباطنه ، لأن شخصية الملك جبريل ـ مهما تكن غير مدركة الكنه ـ هى شخصية غير شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كما هو واضح .

الصّورة الرابعة

وفي القرآن آيات فيها ردود على الكفار والممارين في صلة وحى الله بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهى ردود قوية حاسمة الدلالة على صدق شعور النبي بصلته به ؛ منها آيات التكوير والنجم التي نقلناها ؛ وآيات التكوير تلهم أن الكفار قالوا حينما أخبر النبي بأنه رأى ملك الله : إنما رآه شيطان ؛ وفقاً لعقائدهم كما فصلناه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة ؛ كما قالوا إنه مجنون ، أى مخالط في عقله ، فاحتوت الآيات التوكيد القوي النافذ ، بهذا ماجاء في سورة الشعراء ردا على زعمهم أن الذي يتصل بالنبي أو الذي يوحي إليه القرآن شيطان ، كما ترى فيما يلى :

« وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ . وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . . .

٢١٠ ـ ٢١١

وتتبع الآيات بعد قليل آيات تزيد الرد قوة وإفحاما كما ترى فيما يلي :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ... ٢٢١ ـ ٢٢٣

---

(١) أو ردنا قبل بعض الأحاديث التي فيها بعض كيفيات نزول الوحى على النبي (صلعم) . ومن ذلك أيضا مارواه البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله (صلعم) ياعائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ترى يارسول الله مالا أرى) ومن ذلك مارواه مسلم عن النبي أنه قال (وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول) انظر التاج ج ٣ ص ٣٣٦ و ٢٢٥ .

وآيات النجم احتوت فوق توكيد رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ووصف ذلك وصفا تتجلى فيه المشاهدة الواقعية التي لا تتحمل مكابرة ـ ردا مفحما آخر ؛ فرؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك هي خصوصية خاصة به لا يمكن أن يكون للمماراة محل فيها ، لأن المماراة إنما تصح في مشاهد مشتركة بين الناس .

وفي القرآن تنديد شديد بمن يقول إنه يوحى إليه ولم يوح إليه كما ترى .

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ... الأنعام ٩٣

وهي قوية الدلالة من ناحية ما على صدق شعور النبي صلى الله عليه وسلم وما يستشعره من رهبة إزاء إخباره بصلته بوحي الله ، ومثل هذا في القوة والنفوذ إلى الأعماق الآيات التالية :

١ — قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ... الأنعام ٥٠

٢ — وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . . . الأعراف ٢٠٣

٣ — قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ... الأنعام ١٩

٤ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٥ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ... ٢٤

٦ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ... الأحقاف

وفي سورتي طه والقيامة ، تأييدات لما نحن في صدد تقريره .

ففي السورة الأولى هذه الآية :

« فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ... ١١٤

وفي الثانية هذه الآيات :

« لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ . فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ... القيامة ١٦ — ١٩

فهذه الآيات احتوت تنبيها للنبي فى صورة النهي عن الاستعجال في تلاوة مايوحى إليه به أو تحريك لسانه به قبل أن يتم الوحى إلقـاء ما يوحى به إليه ، وفيها صورة قوية الدلالة لشعوره بالوحي الطارىء عليه الملقي إليه بالقرآن ، إذ كان يردد مايلقى عليه حال إلقائه وقبل انتهائه خشية أن يفلت منه شيء أو ينساه .

وفي سورة مريم هذه الآية .

« وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ... ٦٤

وقد ذكر المفسرون ورواة التنزيل أن الآية جواب ملك الله للنبي على سؤاله إياه أن يكثر من زيارته ؛ فإذا صحت الرواية ففيها تأييد من ناحية لما نقرره أيضا .

الصُّورة الخامسة

هذا ؛ ومن قبيل الاستئناس نورد فيما يلي بعض الأحاديث الواردة في صلة النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي ومظاهرها وكيفياتها :

١ – حديث بخاري عن عائشة رضى الله عنها :

« أول مابدأ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة في النوم : فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد – قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ماأنا بقاريء . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأفقلت ما أنا بقاريء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت ما أنا بقاريء . فأخذني فغطني الثالثة ثم قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله مايخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع ابن أخيك . فقال له ورقة : يابن أخي ماذا ترى ؛ فأخبره رسول الله خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى : ياليتني فيها جذع ؟ ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ! فقال رسول الله صلى الله عليهوسلم « أو مخرجي هم » ؟ قال نعم ؛ لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ... »

٢ ـ حديث رواه الطبري عن عبد الله بن الزبير :

« قال رسول الله فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ فغتني حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال اقرأ . فقلت ماذا اقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إليّ بمثل ماصنع بي . قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ...إلى قوله علم الإنسان مالم يعلم . قال فقرأته ثم انتهى ثم انصرف عني . وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتابا . قال : ولم يكن من خلق الله أبغض على من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما . قال قلت إن الأبعد يعني نفسه لشاعر أو مجنون . لا تحدث بها عني قريش أبدا . لأعمدنّ إلى حالق من الجبل فلأطرحنّ نفسي منه فلأقتلها فلأستريحنّ . قال فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه فى آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي ولا أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ؛ ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي .. »

٣ ـ حديث بخاري عن عائشة رضى الله عنها :

« إن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمني فأعي مايقول . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا ... »

٤ ـ حديث بخاري عن عائشة رضى الله عنها .

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعائشة هذا جبريل يقرئك السلام : قلت وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى مالا نرى » .

(٥) حديث في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : وحديث بخارى عن صفوان بن يعلي رضى الله عنه ، وقد نقلناهما في مبحث أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

وواضح أن هذه الأحاديث متسقة إجمالا مع ما استلهمناه من الآيات من حيث رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك ونزول الوحى عليه بين الناس دون أن يراه أو يحس به أحد . وفيها شيء غير وارد في القرآن في صدد وحي الله للنبي ، وهو تمثل الملك للنبي رجلا دون أن يراه أحد ، ثم وصف الجهد الذي كان يثقل على النبي ويكاد يقبض نفسه، ومجيئ الوحى أحيانا مثل صلصلة الجرس ، وهذا المشهد الأخير قد جاء مجرداً عن ذكر مرافقة الملك .

الصورة السادسة

ولقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن تدوين شيئ غير القرآن عنه[1] ، كما تواترت الأخبار بأنه كان يأمر أخذ كتابه بتدوين ما كان ينزل عليه من الوحي فوراً ؛ فهذا وذاك متصلان بشعوره الخاص بالفرق بين ما كان ينزل على قلبه من وحي القرآن وبين كلامه العادي ، وبحرصه على عدم الخلط بين كلامه العادي وبين ماينزل عليه وحياً قرآنياً ؛ ولعل مما يتصل بهذا ويزيده وضوحاً مايروى من الأحاديث القدسية المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله ، فليس يمكن لأحد أن يفهم منطقيا الفرق بينهما وبين مايوحى قرآناً ومحتوياتها مما يتصل بمحتويات القرآن وعظاً وإنذاراً وتبشيراً أو أخباراً أو قصة الخ ومع ذلك فقد فرّق بينهما فلم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتدوينها . ومما لا ريب فيه أن هذا التفريق يتصل بالصفة القرآنية التى كان يدركها

(١) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لاتكتبوا عني غير القرآن ومن كتب شيئا فليمحه) كتاب السنة للسباعي ص ٧٢ .

النبي صلى الله عليه وسلم فيما يوحى إليه قرآناً(١) .

ومهما يكن من أمر فإننا من الذين يرون أن عقل الإنسان الذى يقف مشدوها ذاهلا أمام مافي نفسه من قوى واستعداد وأمام مافي الكون من عظمة ونظام وقوى وسعة وعوالم ودقائق يعجز عن إدراكها والإحاطة بها ، حقيق بأن يكون أشدّ عجزاً عن إدراك ماوراء ذلك والإحاطة به ؛ ولسنا من الذين يرون ضرورة للمحاولة أو بالأحرى للتمحل في التوفيق بين المسائل الإيمانية والنواميس الكونية ، أو لزوما لتأويل ماورد في القرآن حتى لا يكون متعارضا مع هذه النواميس . فالمؤمن بعد أن يؤمن بإله أزليّ أبديّ شامل القدرة وخالق للأكوان وموجد لها من العدم ، يدبرها ويسيرها على حسب مااقتضت حكمته — وأمره بين الكاف والنون — لا يرى ولا ينبغي له أن يرى في الإيمان بالمسائل الإيمانية كالنبوة وصلة الأنبياء بالله صعوبة أو حاجة إلى تأويل وتوفيق إذا اقترنت بالنصوص القرآنية القطعية أو الأحاديث النبوية الصحيحة .

وإذا كان المسلم لا يصح إسلامه إلا بالإيمان بهذه الصلة على المدى الذي تساعد على بيانه وشموله النصوص ، فإن أى شخص متصف بحسن النية مهما كانت نحلته إذا

---

(١) هناك أحاديث عديدة توصف بهذا الوصف مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم . ومنها ما ورد في مسانيد الأحاديث الصحيحة . وعبارتها مماثلة لأحاديث النبي أى عبارة كلام خطاب عادي دون أسلوب القرآن من حيث التقطيع والتركيز والتوازن في أواخر المقاطع والآيات . وهذا نموذج منها من حديث رواه أنس ابن مالك عن النبي عن جبريل جاء فيه (يقول الله عز وجل من أهان لي ولياً فقد بارزنى بالمحاربة . وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد . وما تقرب إلى عبدي المؤمن بمثل أداءماافترضت عليه . ومايزال عبدي المؤمن يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً . إن دعاني أجبته . وإن سألني أعطيته . وماترددت في شيء أنا فاعله ترددي فى قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته . ولابد له منه . وإن من عبادي لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه أن لايدخله عجب فيفسده ذلك . وإن من عبادي المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلا بالغني ولو أفقرته لأفسده ذلك . وإن من عبادى المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك . وإن من عبادي المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلاالصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك . وإن من عبادي لمن لايصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك . إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير) وقد روى هذا الحديث الإمام البغوي في تفسيره في سياق تفسير سورة الشورى . وهو من حفاظ الحديث وهو راويه سماعاً من راو عن راو إلى أنس بن مالك رضى الله عنه .

أنعم النظر في الآيات لا يسعه إلا التصديق بصدق الشعور النبويّ بها ، وكون النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يصدر عن أمر راهن طارىء عليه وإن ظل سرا ربانياً لا يمكن المماراة فيه .

على أن في شهود النبي صلى الله عليه وسلم عيانا حقيقة حاسمة فيما نعتقد أيضا ، وتزداد هذه الحقيقة قوة أنها مما سجله القرآن بصراحة وقطعية في آياته المكية والمدنية على السواء ، وهو الوثيقة المدوّنة الصادقة التي وصلت إلينا سليمة كل السلامة من العهد النبوي مروية عن لسان النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغه مباشرة ، ولا مثيل له في المدوّنات الكتابية المقدّسة السابقة . فقد شهد حادث النبي آلاف من الناس منهم العرب ومنهم غير العرب ومنهم المشركون ومنهم الكتابيون ومنهم المستقرون في مكة والمدينة ومنهم الوافدون خصيصا للاستعلام والاطلاع على النبأ العظيم الذى بلغهم وسمعوا توكيدات النبي بلسان القرآن بنزول ملك الله عليه بالوحي وشعوره به منفصلا عن ذاتيته ، ولقد آمن بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الأمر مئات منهم في مكة ممن طابت نفوسهم وحسنت نياتهم وأنار الحق قلوبهم ، بين المعارضة الشديدة التي تولى كبرها زعماء أقوياء أعداء لأسباب عدة ذكرها القرآن ، وستكون من مواضع الفصل التالي .

وكان بين المؤمنين تلك الطبقة النيرة القوية في عقولها وشخصياتها وأروماتها ، والتي لمع أفرادها لمعانا باهراً فيه الدلالة على ذلك ، أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وطلحة والزبير وخالد وعمرو وأبي عبيدة وعبد الرحمن وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، ثم كان بينهم كثير من أهل الكتاب المستقرّين والوافدين ممن حسنت نياتهم وطابت طوياتهم ، وتجردو من الهوى والغرض ، وأنفوا من المكابرة والعناد على ما وصفت مشاهد آيات الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ والقصص ٥٢ ـ ٥٣ والرعد ٣٦ ـ ٤٣ والأحقاف ١٠ التي نقلناها سابقا ، ثم آمن بالنبوّة الرعيل الأول من أهل المدينة وكان من شأنهم ما كان من نصر وتفان في تأييد دين الله ونبيه ، وآمن فريق من علماء اليهود

بين معارضة شديدة قادها بعض زعماء العرب وزعماء اليهود لأسباب عدة ذكرها القرآن ـ وسوف تكون موضوع فصول من هذا الكتاب ـ وآمن عديد من علماء النصارى وقسيسيهم ورهبانهم ، وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة مستطلعين مستعلمين أيضاً على ما وصفت مشاهده وأخباره آيات النساء ١٦٢ وآل عمران ١٩٩ والمائدة ٨٢ ـ ٨٤ التي نقلناها سابقا أيضا .

فالرعيل الأول من المؤمنين العرب في مكة والمدينة الذين آمنوا رغبة وطوعا وفي ظروف ضعف النبي المادي الشديد ، واستهانوا بكل شيء في سبيل إيمانهم ، والكتابيون في مكة الذين آمنوا رغبة وطوعا مع أنهم أكثر تعرضا للأذى ، والكتابيون الوافدون الغرباء الذين فعلوا مثل ذلك وهم في مثل تلك الحال ، وعلماء اليهود في المدينة الذين آمنوا رغبة وطوعا ، واستهانوا بكل شيء من قومهم ، وعلماء النصارى وقسيسوهم ورهبانهم الذين جاءوا مستطلعين فآمنوا كذلك ـ ما كانوا ليؤمنوا لو لم يشهدوا من أعلام النبوة وصدق الدعوة النبوية واللهجة النبوية ، وصحة دلائل وأمارات صلة النبي بالله ووحيه مالا يسع أحداً طيب النفس واسع الأفق متجردا عن الغرض والهوى أن يماري فيه . ولعل آية سورة الشورى هذه :

« وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ... ١٦

وقد عنت فيما عنته وهي تندد بالمكابرين في الله ورسالة نبيه هذه الحقيقة الحاسمة والحجة الدامغة .

ومن مظاهر قوة هذه الحقيقة الحاسمة والحجة الدامغة أن المستجيبين إلى دعوة الله في مكة حينما نزلت هذه الآية كانوا يمثلون البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها وأقطارها وأديانها . حيث كان منهم الوثنيون والمشركون والصابئون والنصارى واليهود والمجوس وعبدة الكواكب . وكان منهم الاشراف والصعاليك . والأغنياء والفقراء . والزعماء

والضعفاء . والأحرار والعبيد . والنساء والرجال والشيوخ والكهول والشباب الفتيان وكان منهم الأسيوي والأفريقي والأوروبي . والعربي والشامي والمصري والفارسي والعراقي والحبشي والرومي . والأبيض والأسود .

الصُّورة السَّابعة

كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي صلى الله عليه وسلم .

ليس في القرآن إشارة إلى كيفية بدء اتصال الوحي بالنبي . غير أن آيات التكوير ١٥ ـ ٢٦ وآيات النجم ١ ـ ١٣ التي نقلناها سابقا احتوت توكيداً بأن النبي قد رأى الملك ذا القوة في الأفق . والحديث الذي نقلناه عن الطبري والمروي عن عبد الله بن الزبير قد احتوى وصف رؤية النبي صلى الله عليه وسلم للملك في السماء ، أي في الأفق ، وعلى صورة أذهلت النبي عن كل شيء . والذي نرجحه أن آيات السورتين المذكورة هي بسبيل وصف أولية بدء اتصال الوحي بالنبي وأولية رؤية النبي لملك الله ؛ يلهم هذا صيغة الآيات والتوكيد القوي الذي احتوته والذي يدل على أنه بسبيل الرد على من كابر وكذب أو شك وارتاب فيما أخبر به النبي ووصفه من اتصال وحي الله به ورؤيته لملك الله ؛ كما يلهمه كون السورتين مبكرتين في النزول ، لاسيما سورة التكوير التي تأتي سادسة في أربع روايات مأثورة لترتيب النزول ، وسابعة في ثلاث[1] وأسلوبها ومضامينها مما يؤكد تبكيرها في النزول أيضا .

وهذا الاتساق الإجمالي بين وصف الآيات ووصف الحديث يجعلنا نرى في الحديث وصفا صادقا لكيفية بدء الاتصال ، وقد احتوى وصفا وافيا لذلك كما يظهر من نصه

---

(١) هذه التراتيب هي ترتيب المصحف المعروف « بمصحف الملك فؤاد » والمأخوذ عن المصادر المعتبرة القديمة بواسطة لجنة علماء خاصة ، وترتيب رواه الخازن ، وترتيب مروي في تفسير مجمع البيان ، وتراتيب واردة في الإتقان للسيوطي واحد منها منسوب للحسين وعكرمة وثان لجابر بن زيد وثالث لابن عباس ورابع مغفل النسبة وقد وضعنا ثبتا للسور المكية في مطلع قسم السيرة النبوية في العهد المكي وللسور المدنية في مطلع قسم السيرة في العهد المدني .

السابق ، وفي الحديث البخاري الأول عن عائشة رضى الله عنها ما يتمم هذا الوصف من حيث ظروف الحادث ، ومحله الأول ، وما سبقه من اعتكافات ورياضات روحية وتعبدية ؛ وليس فيه ما يتناقض مع الآيات أو حديث ابن الزبير .

الصورة الثامنة

وقت بدء الوحي

في القرآن بضع آيات يمكن أن تساعد على تعيين وقت نزول أول وحي بالقرآن وهي :

١ — شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ... البقرة ١٨٥

٢ — حمٓ . وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ . إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ... الدخان ١ — ٦

٣ — إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ . سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ... القدر

وآية البقرة صريحة بأن القرآن قد أنزل في شهر رمضان . ولما كان إنزاله لم ينحصر في هذا الشهر ، فالتعبير ينصرف على ما هو المتبادر إلى أولية نزوله . وقد قال هذا كثير من العلماء والمفسرين كما أنه مؤيد ببعض الروايات الموثوق بها . ولقد قيل في صدد الآية إن القرآن إنما نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان ثم أخذ جبريل ينزل به منجما على النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا القول لا يبعث الطمأنينة إلى النفس وغير مؤيد بمأثور وثيق ، ولا تفهم له حكمة ، وغير متسق مع طبائع الأشياء ؛ ويتبادر لنا أنه متصل بما كان من جدل حول خلق القرآن وأزليته .

وفي آيات الدخان والقدر صراحة على أن الله قد أنزل القرآن في ليلة القدر وفي ليلة مباركة . وفي سورة القدر لم يذكر القرآن صراحة ولـكن المفسرين والرواة مجمعون على أن الضمير عائد إليه ، وأمّا آيات سورة الدخان فالآية الثانية ذكرت « الـكتاب المبين » والضمير في « أنزلناه » يعود إليه . وطبيعي أن القرآن كان ينزل في وقت بعد وقت ، فالتنويه ينصرف على ما هو المتبادر إلى أولية النزول أيضا . ولقد قيل فيصددهذه الآيات ما قيل في صدد آية البقرة من أن المقصود جميعالقرآن وأن الإنزال هو الإنزال إلى سماء الدنيا مما علقنا عليه آنفاً . كذلك قيل في صدد الليلة المباركة في آيات الدخان إنها ليلة النصف من شعبان وإنها ليلة تقدير الأعمار والأرزاق السنوية . وهذا القول غير موثق بمأثور صحيح وغير مفهوم الحـكمة ولا متسق مع طبائع الأمور . وسبق ورود لفظ « الـكتاب » قرينة حاسمة على أن المقصود هو نزول القرآن كما أن روح الآيات جملة تلهم ذلك . ومن العجيب أن يقول قائلون ذلك القول إزاء هذه القرينة الحاسمة .

أما ليـلة القدر فهناك أحاديث مروية بشأنها ورد في بعضها أنها في العشر الأخير من رمضان ، وفي بعضها أنها ليلة السابع والعشرين منه . والمتعارف المتواتر هو أنها ليلة السابع والعشرين

وهكذا يصح أن يقال استلهاماً من القرآن إن وقت بدء نزول الوحى بالقرآن هو إحدى ليالي شهر رمضان ، واستئناساً بالأحاديث إن هذه الليلة هى ليلة السابع والعشرين منه . أما السنة فليس هناك ما يمكن الاستدلال عليها من القرآن . غير أن المروي المتواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سن الأربعين من عمره ؛ ويوافق هذا سنة ٥٧٠ بعد الميلاد المسيحى ، والسنة الثالثة عشرة قبل الهجرة النبوية على ماحسبه الحاسبون .

على أن في سورة الأحقاف آية يمكن أن يستأنس بهـا إلى حـدّ ما على أن سن النبي صلى الله عليـه وسلم عند نزول الوحى عليـه كانت أربعين وإن لم يـكن ذلك حاسماً وهى :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي
فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ... ١٥

إذ جعلت هذه السن حدا لبلوغ الرجل أشده ونضج عقله وكمال إدراكه .

الصورة التاسعة

أوليات القرآن نزولا :

ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على أوليات القرآن نزولا ؛ وكل ماهناك روايات لأسباب وظروف نزول آيات قرآنية تعد في تاريخ القرآن من الأوليات . ومع أن أوثق الروايات وأكثرها اعتباراً وأخذاً تذكر أن أول مانزل من القرآن هو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ، فإن هناك روايات يذكر بعضها أن هذا الأول هو « الفاتحة » وبعضها يذكر أنه « الضحى » وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المدثر ، وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المزمّل .

ولعل من مرجحات أولية آيات العلق فوق وثاقة واعتبار رواياتها ، أنها لا تحتوي أمرا بدعوة ، وأنها من قبيل الإعداد للنبي صلى الله عليه وسلم وتنبيهه وتلقينه . وتراتيب السور القرآنية المأثورة جميعها تضع سورة العلق أول السور دون أي شذوذ فيما اطلعنا عليه ؛ وهذا بسبب أولية آياتها الخمس الأولى على الأرجح ؛ لأن مضمون الآيات التالية يدل على أنها تأخرت عنها وقتا ما ، إذ احتوت صورة لموقف أحد الطغاة من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعقل هذا إلا بعد أن تلقى النبي الأمر بالدعوة وسار في تنفيذ الأمر شوطا ما .

الصورة العاشرة

وتراتيب النزول تضع سورة القلم ثانية السور والمزمل ثالثتها والمدثر رابعتها بدون

خلاف ؛ ثم يبدأ الخلاف ، فهناك ترتيب يجعل الفاتحة خامسة ، وترتيب آخر يجعل الخامسة هي المسد ؛ وهناك مايضع التكوير سادسة على حين يضعها ترتيب آخر سابعة . .

وفي اعتقادنا أن الترتيب المأثور للقلم لايصح إلا إذا روعيت آياتها الأربع الأولى فقط ، وهي هذه :

« نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ... » ١ ـ ٤

إذ كانت الآيات التالية لها قد نزلت متأخرة مثل بقية آيات سورة العلق ؛ لأن فيها حكاية موقف صد وتكذيب ، وحملة شديدة على بعض الزعماء ، ونهياً للنبي عن مطاوعتهم ومداهنتهم ؛ وهذا لابد أن يكون بعد أن سار النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة شوطا ما أيضا ؛ كما أن فيها هذه الآية : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ـ ١٥ » إذ تدل على أنه قد نزل جملة مامن القرآن ، كان النبي يتلوها على الناس حتى قال المكذبون هذا القول .

وإذا صح نزول الآيات الأربع من سورة القلم لحدتها كان مايهدف إليه بث الطمأنينة في نفس النبي ونفي الخاطر الذي خطر لباله من مسه بالجنون على ماذكره حديث الطبري ، وثناء على أخلاقه العظيمة بسبيل ذلك . وليس على هذا التوجيه مأخذ إلا من حيث أن نظم آيات السورة متسق آخذ بعضه برقاب بعض ، إذ تبدأ الآية الخامسة بفاء تلهم أنهـا تعقيب على ما سبق ؛ وأن نفي الجنون عن النبي كان رداً على مانسبه إليه الذين عنتهم الآيات :

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ... ٥ ـ ٧

ومثل هـذا لا يرد على آيات العلق الأولى وما بعدها على مايظهر حين إنعام النظر

فيها ، على أنه ليس ثمة مايمنع مع ذلك أن تكون الآيات التالية للآيات الأربع الأولى من سورة القلم قد نزلت متأخرة عنها وجاء أسلوب نظمها متسقاً معها .

الصُّورَة الحَادِيَة عَشْرَة

والآيات التالية للآيات التسع الأولى من سورة المزمل تحتوى هى أيضا تثبيتا للنبي أمام تكذيب المكذبين وإنذاراً لهم ؛ وهذا لابد أن يكون بعد أن سار النبي شوطا ما في الدعوة ، ويحمل على القول بأن الآيات التسع الأولى قد نزلت لحدتها وأن مابعدها نزل متأخرا عنها أيضا . غير أن هناك مأخذين على احتمال كون الآيات التسع الأولى هى ثالثة مجموعة قرآنية ؛ الأول مضمونها ؛ وهو :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً . وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ... »

ففي الآيات أمر للنبي بترتيل القرآن . ولا ندري كيف يكون هذا ولم يكن قد نزل من القرآن إلا خمس آيات من سورة العلق وأربع من سورة القلم إن صحت الروايات ! ولقد يرد بأن الأمر بالنسبة للمستقبل ، وأن في الآية الخامسةقرينة على ذلك ؛ ومهما يكن من أمر فإن الآيات في ذاتها لا تحتوي أمرا بالدعوة وإنما تحتوي إعدادا للنبي وبثا للطمأنينة في نفسه ، وتنبيها على مافي العبادة الليلية من فوائد روحية عظيمة تصفي نفسه وتقويها على حمل المهمة العظمى التي ستلقى إليه ؛ وقد احتوى مطلعها خطابا محببا حكى أسبابه حديث البخاري حيث ذكر أن النبي لما عاد من حراء إلى بيته يرجف قلبه قال لأهله : زملوني زملوني ؛ وهذا كله يمكن أن يكون جوابا على المأخذ الأول ، ويجعل في رواية نزول الآيات لحدتها وكونها من الأوليات الأولى وجاهة ما ، أما المأخذ الثاني فهو

اتساق نظم الآيات التسع وما يليها اتساقا قويا ، والفاء التي تبدأ بها الآية العاشرة ، على أنه يصح أن يقال هنا ماقلناه فى آية سورة القلم أيضا .

الصورة الثانية عشرة

والآيات التالية للآيات السبع الأولى في سورة المدثر هى كذلك مثل الآيات التالية في السور الثلاث السابقة تحتوي حملة على زعم جاحد ، ووصفاً لموقف له من القرآن إذ قال : « إن هـذا إلا سحر يؤثر . إن هـذا إلا قول البشر ٢٤ ـ ٢٥ » وهو قول لا يمكن أن يكون إلا بعد نزول طائفة من القرآن وقطع النبي شوطاً مافي الدعوة ؛ وعلى هـذا فترتيبها إنما يصح إذا فرض أن الآيات الأولى منها قد نزلت لحدتها أيضا وهى هذه :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ... ١ ـ ٧

وليس مايمنع هذا الفرض ، بل إن صحته لأقوى من صحة فرض ذلك في سورتي القلم والمزمّل بسبب فرق النظم بين هذه الآيات وما بعـدها كما هو شأن آيات العلق الأولى وما بعدها ؛ ولعل مما يحمل على ترجيح صحة أولية هذه الآيات أنها احتوت فوق مطلعها التحببي الذي يبث الطمأنينة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، أمراً بالنشاط إلى إنذار الناس ودعوتهم إلى الله . وإذا صح نزول الآيات الأولى للسور الثلاث السابقة ـ العلق والقلم والمزمّل ـ لحدتها ، يكون الاتساق قد تم ؛ إذ احتوت مطالع السور تثبيتا وتطمينا وتنبيها وإعدادا حتى إذا ماسكن روع النبي صلى الله عليه وسلم وهدأ اضطرابه من حادث الوحي الأول ورؤية ملك الله ، نزل عليه مطلع السورة الرابعة ـ المدثر ـ بالقيام بالدعوة والإنذار ؛ وقد احتوى المطلع فوق هـذا ـ على مايتبادر لنـا ـ خطة للنبي في سيره في الدعوة ؛ فالله أكبر من كل شيء فعليه أن يذكر ذلك بقلبه ولسانه ، والصبر والثبات ومكارم الأخلاق كافلة للنجاح في المهمة العظمى التي ندب لها ، فعليه أن يصبر على ماحمله

ربه من واجب ، وعليه أن يهتم للطهارة والنظافة وأن يهجر فاحش القول والمواقف وأن يكون متواضعا غير منان .

الصورة الثالثة عشرة

وقد اختلفت الروايات في الخامسة من السور بين الفاتحة والمسد ؛ كما قلنا ، والذي نرجحه أنها الفاتحة لأن المسد احتوت حملة على موقف أبي لهب وامرأته ، ولا بد أن يكون هذا بعد شوط مامن الدعوة ، في حين أن الفاتحة احتوت تمجيداً لله وطلب هدايته وتعليما بأن تكون العبادة له وحده ؛ وبالتالي أسساً من أسس الدعوة العامة ؛ ولعل من الأدلة على أوليتها بل من دلائل سبقها في الأولية لغيرها أنها صارت مفتتح كل صلاة ، وكل ركعة من كل صلاة بالسنة النبوية اليقينية ، وأنها سميت أم الكتاب وفاتحة الكتاب (١) .

وإننا لنرجح إن لم نقل نجزم أن الفاتحة وسوراً مماثلة لها احتوت شرح مبادئ الدعوة إنذاراً وتبشيراً وخلت من العنف ومن الإشارات إلى مواقف لجاج الكفار وجحودهم وتكذيبهم ومن الحملة عليهم مثل سور الأعلى والشمس والليل والعصر والإخلاص والعاديات والتين والتكاثر والقارعة الخ هى التي نزلت قبل المسد وقبل التكوير التي ذكرت التراتيب أنها السادسة أو السابعة والتي احتوت هى أيضاً مشهداً حجاجيا ، وقبل الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى – العلق والقلم والمزمل والمدثر – إذا صح القول بأن هذه المطالع نزلت منفصلة ومبكرة عن بواقيها ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ يدعو الناس وينذرهم ويبشرهم ويخبرهم بأخبار وحى الله ويتلو عليهم الآيات القرآنية الموحاة إليه ، قوبل بالصد والتكذيب والشك والارتياب والاستنكار

---

(١) هناك حديث أخرجه البيهقي والواحدي ووصف رجاله بالثقات عن شرحبيل عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيه أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن . وهناك رواية عن مجاهد وابن عباس أن الفاتحة هى أول ما نزل من القرآن. ولما كان حديث كون الآيات الأولى من سورة العلق هى أولى القرآن نزولا أوثق وأقوى سنداً فيمكن أن يقال إن الفاتحة هى أولى السور التامة نزولا . وبذلك يتم التوفيق بين الأحاديث والله أعلم .

والتهجم والتجهم من الزعماء فأخذت آيات السور الأربع الأولى التالية لمطالعها ، وسور المسد والتكوير والهمزة وغيرها تتابع في النزول تحتوي الردود والتنديد والحملات القاصمة وتحتوي التوكيد والتثبت والمواعظ والأمثال والقصص الخ .

وأنت إذ تقرأ آيات سورة الأعلى :

« سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ . وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ . فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ . سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ . إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ . وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ . فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ . سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ . وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى . ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ . قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ » .

وآيات سورة الشمس :

« وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا . وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا . وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا . وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا . وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا . وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ . إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا . وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا » .

وآيات سورة العصر :

« وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ » .

إلى أمثالها مما ذكرناه ترى فيما نقرره وجاهة لا تتحمل التوقف والارتياب . على

أن من المفيد أن نذكر أن عدداً من هذه السور ومايدخل في مداها هو مما روت الروايات نزوله مبكرا جدا ووضع في ترتيب النزول في الدرجات الأولى ، مثل الأعلى التي وضعت ثامنة والليل تاسعة والفجر عاشرة والعصر ثالثة عشرة والعاديات رابعة عشرة . . . فهذا الترتيب المروي مما يدعم ما نقرره .

الصورة الرابعة عشرة

أثر اتصال الوحي لأول عهده بالنبي صلى الله عليه وسلم .

واضح مما ذكرناه في سياق البحث السابق أن مطالع سور القلم والمزمل والمدثر تلهم صحة الوصف الذى احتواه حديثا البخاري والطبري لأثر اتصال الوحى بالنبي لأول مرة في نفسه ؛ إذ يخاطب بالمزمل والمدثر ، وإذ ينفي خاطر الجنون الذي خطر لباله ، وتبث فيه الطمأنينة ويثني على خلقه ، ويطلب منه الصبر والاتكال على الله والاستعداد لتلقي أوامره وقرآنه ، والثبات في المهمة التي ندب لها ، والتمسك بالأخلاق الكريمة قولا وفعلا ومظهرا .

وتكرار هذا في ثلاث مجموعات صارت مطالع ثلاث سور ، يلهم أن هذا الاضطراب النفساني قد استمر وقتا ما كما هو المتبادر .

على أن أثر الوحى في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على ما كان من إحداث ذلك الاضطراب النفساني فيه ، فإن سورة الضحى تحتوي صورة عكسية أخرى وإليك آيات السورة المتصلة بذلك أولا .

« وَٱلضُّحَىٰ . وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَئَاوَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَآلاً فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ ... ١ – ٨

ولقد وردت روايات في نزول هذه السورة تفيد في جملتها أن الوحى قد فتر عن

رسول الله في مبادئه ، وبعد أن سار شوطاً في مهمة الإنذار والتبشير والدعوة وصار له أعداء ومكذبون ومتربصون . لحزّ هذا الفتور في نفسه وآلمه ، لا سيما أن السيدة خديجة كما جاء في إحدى الروايات قد أظهرت خوفها من أن يكون وحى الله قد انقطع عنه وأن ربه قد قلاه وتركه ، وقد أخذت أم جميل أخت أبي سفيان وامرأة أبي لهب في رواية تعيره وتبدي شماتتها حينما علمت بفتور الوحي عنه .

ومهما يكن من أمر ؛ فنص الآيات وروحها معاً يلهم أنها نزلت في ظرف أزمة نفسية شديدة طرأت على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب فترة الوحي عنه ، هذا مع التنبيه إلى أننا غير مطمئنين للرواية التي ذكرت السيدة خديجة ، فالرواية غير موثقة والسيدة كانت مؤمنة كل الإيمان به ومشجعة كل التشجيع له ، ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن القائل عدو استغل خبر الفترة ، إذ تبث في نفسه الطمأنينة وتؤكد له كذب ظن الناس ، وأن الله لم يقله ولم يدعه ، وقد كان الجاحدون يستغلون كل حادث يرون فيه ثغرة ضد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وسوف نعرض صورة من ذلك في الفصل التالي .

وسورة الضحى من السور المبكرة في النزول ؛ إذ يجيء ترتيبها العاشرة أو الحادية عشرة ، وهذا يعني أن فترة الوحي كانت في مبادئ الوحي ، ويعني كذلك أن النبي كان قد استأنس بالوحي استئناساً شديداً فلم يستطع أن يكتم حزنه حينما شعر بفتوره عنه ، فانتشر ذلك عنه حتى بلغ الأعداء . ونعتقد أن هذا الحادث في ظرفه وأثره على جانب عظيم من الخطورة في صدد صحة صلة النبي بالوحي الرباني وشعوره بأنه كان شيئاً منفصلا عن ذاته يتوالى ويفتر .

ورواية موقف امرأة أبي لهب من الحادث مع رواية تبكير نزول سورة المسد وتبكير نزول سورة الضحى ، تجعلنا نرى صلة بين هذا الموقف وبين الحملة عليها هي وزوجها في سورة المسد ؛ وسنعود لذلك في الفصل التالي .

والروايات متغايرة ومتعددة في مدة فترة الوحي ؛ إذ تتراوح على اختلاف الروايات

بين الأيام والأشهر والسنين ؛ إذ تصل في بعضها إلى ثلاث سنين .

على أن تعاقب السور المكية بالإنذار والتبشير والدعوة وحكاية مواقف الكفار والحملة عليهم - حتى ليكاد يكون قد نزل نصف القرآن المكي قبل أن تنزل سورة النحل التي تتضمن إشارة إلى هجرة المسلمين إلى الحبشة التي كانت في أواسط العهد المكي - يجعلنا نشك في فتور الوحى مدة طويلة تبلغ السنين ؛ وكل ما تطمئن به النفس أن تكون أياما أو أسابيع معدودة .

عَهْدُ السِّيرةِ النبوَيةِ المكيِّ

مُحْتويات هذا القسْم

تمهيد

الدعوة في العهد المكي تناولت المشركين والكتابيين – تقسيم الكلام على العهد إلى فصلين بسبب ذلك – القرآن المكي ومميزاته البارزة – طبيعة هذا العهد من أسلوب القرآن المكي ومضامينه – مظاهر التشابه في القرآن المكي ودلالتها – الطريقة التي سرنا عليها في عرض مشاهد العهد المكي – ثبت تراتيب نزول السور المكية .

الصورة الأولى

لم يكن العرب المشركون وحدهم في مكة ، بل كان إلى جانبهم كتابيون أيضاً ، وإن كانت الكثرة والقوة لأولئك دون هؤلاء الذين كانوا أقلية ضعيفة ، وكان جلهم أفراد جاليات نازحة ، وأرقاء ، على ما فصلناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » .

ولقد وجهت الدعوة الإسلامية إلى الفريقين على السواء ، وآيات الأعراف ١٥٧ – ١٥٨ التي نقلناها في أحد مباحث الفصل السابق تمثل هذه الدعوة ؛ والأعراف مما نزل مبكراً في العهد المكي على ما ذكرته الروايات وتراتيب نزول السور .

وقد كان لكل منهما موقف متميز بعض التميز من الدعوة ، متصل بطبيعة كيان وعقيدة وقوة كل منهما . ومع أن القسم الأعظم من القرآن المكي هو في صدد دعوة ومواقف الفريق الأول فإنه قد احتوى آيات عدة في صدد دعوة ومواقف الفريق الثاني أيضاً . ولهذا رأينا أن يكون العهد المكى فصلين ، فصلا خاصا بالعرب غير الكتابيين وآخر بالكتابيين .

الصورة الثانية

ويمثل القرآن المكي العهد المكي بطبيعة الحال ، وهو نحو ثلثي القرآن عدد آيات، وأقل من ثلثيه كمًّا وعدد أجزاء ، ونحو ثلاثة أرباعه عدد سور ، على اختلاف في مكية

ومدنية بعض هذه السور ؛ وله مميزات بارزة نشير إليها فيما يلي :

١ ـ إن أغلب سوره ومجموعاتـه تنحو منحى التسجيع والتوازن والاتساق في الروى أولا ، وقصر الآيات ثانياً ، كما أنهـا قوية الأداء والإيقـاع والنفوذ في تقريرهـا ووصفها وخطابهاوجدلها وتنديدهاوتنويهها ووعدها ووعيدها وتبشيرها وإنذارها.

٢ ـ إنها تتكثف فيها الدعوة إلى الله وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك وكل ما يتصل به ، بأسلوب قوي نافذ ومتنوع ، كما تتكثف فيها كذلك المبادىء الإسلاميـة الأخلاقية والاجتماعيـة والإنسانية والروحيـة بأسلوب قوي ونافذ ومتنوع أيضاً .

٣ ـ إن أسلوب الدعوة الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية أسلوب حث وحض وتشويق وتمثيل ووعد وجدل أكثر منه أسلوب تشريع وتقنين .

٤ ـ إن حكاية حال الكتابيين ومواقفهم هادئة لا عنف فيهـا ، ويوحي أسلوبها ومضمونها بأن الهدف والحزبية متحدان بينهم وبين الدعوة الإسلامية .

٥ ـ إن وصف مشاهد الحياة الأخروية وثوابها وعقابها والإنذار والتبشير بها قد كثر وتكرر وتنوع كما كثر وتكرر وتنوع إيراد قصص الأنبياء وأقوامهم وآدم وإبليس ، وذكر الملائكة والجن بإسهاب حيناً واقتضاب حيناً آخر .

٦ ـ إن حكاية أقوال ومواقف الكفار التكذيبية والجدلية والاتهامية ، والرد عليهم وتقريعهم وتكذيبهم والحملة عليهم ، قد كثرت وتنوعت أيضاً .

٧ ـ إن القرآن المكي قد خلا تقريباً من ذكر المنافقين وحكاية مواقفهم ومكايدهم

٨ ـ إن المشاهد التي احتوتها سور القرآن المكي ومجموعاته ومناسباتها تكاد تكون متشابهة دعوة وتقريراً ووصفا وحكاية وجدلا وإنذارا وتبشيراً وقصصاً .

وفي كل هذا دليل على ما كانت عليـه طبيعـة العهـد حين كان النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام ضعيفين في القوة والعـدد ، وحين كانت الدعوة قائمـة على قوتها الروحيـة والإقناعية والجدل والحجاج ، والمناظرة ، وحين كانت الزعامة العربية هى المؤثرة في

الموقف تأثيراً يجعل الجمهور تابعاً لها ، وحين لم يكن في مكة جاليات كتابية كبيرة وقوية ومتكتلة تصطدم مصالحها بالدعوة الإسلامية كما كان شأن اليهود في المدينة ، وحين كان العهد عهددعوة تشابه المخاطبون بها في العقائد والتقاليدوالمواقف . ولم يكن فيه والحالة هذه تشريع وتقنين يقوم على تنفيذهما سلطان نافذ، كما لم يكن فيه مجال لإضمار فريق من الناس الكفر وإظهار الإسلام تزلفاً للنبي والمسلمين كما كان شأن المنافقين في المدينة .

الصورة الثالثة

ومن مظاهر هذا التشابه الذي ذكرناه في مواضيع المجموعات والسور المكية أن قارئ القرآن يجد أسلوب الإنذار وضرب الأمثال والتذكير وتكرار حكاية قصص الأمم السابقة وأنبيائها وقصة آدم وإبليس والتنديد بالعرب لعدم ارعوائهم وتأثرهم واستجابتهم وحكاية جدلهم والرد عليهم وموقفهم الجدلي والإعراضي ـ هادئاً لا عنف فيه في كثير من السور والمجموعات المروي نزولها في هذا العهد ، سواء في أدواره الأولى وفي أواسطه وأواخره ، كما يجد إلى جانب هذا عنفاً وشدةفي أسلوب ذلك فيما روي نزوله في أوائل العهد وأواسطه وأواخره أيضاً مع التنبيه إلى أن أسلوب العنف والشدة أكثر بروزا وأوسع حيزا من جهة ، وإلى أن طابع الاعتدال والهدوء يضعف في السور المروي نزولها في أواخر العهد من جهة أخرى .

وهذه المظاهر تدل على طبيعة العهد المكي ، وتتسق مع طبيعة الأشياء ؛ فالعهد دام نحو ثلاث عشرة سنة ، والسيد الرسول عليه السلام كان يتصل بمختلف الفئات والطبقات والأفواج المستقرين والقادمين في ظروف متقاربة مع اختلاف المناسبات ، فيكون الموقف هادئاً مع فئة وشديدا مع أخرى ، كما يمكن أن يكون هادئا في ظرف وشديدا في آخر ؛ هذا مع احتفاظ الزعماء العنيفين بغلوائهم والمعتدلين بهدوئهم ، ومع سيطرة الأولين على الموقف طيلة العهد ، وبقاء الدعوة في نطاق ضيق محفوف بالمحن والأخطار .

وفي هذا صور متنوعة للنشاط والجهد والموقف والأحداث ، تساعد على تبين ما كان

يبذله النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وجهد ، وبالتالى على أدوار وأحداث السيرة النبوية في هذا العهـــد .

الصُّورة الرابعة

ولقد كنا نود أن نعرض هذه الصور المتنوعة دورا دورا ؛ غير أن مظاهر التشابه التي أشرنا إليها تجعل هذا غير يسير كما هو واضح ؛ هذا إلى أن من العسير معرفة تاريخ نزول السور والمجموعات القرآنية المكية معرفة صحيحة ،وإن كان مما يخفف هذه الصعوبة بعض التخفيف ما هناك من روايات مأثورة لترتيب نزول السور ، ومافي مضامين السور والمجموعات من قرائن تلهم صحة كثير من هذه الروايات أو مقاربتها للصحة . ولذلك رأينا أن نسير في دراسة هذا العهد ورسم صوره القرآنية على طريقة نلائم فيهـا بين ملاحظة الزمن ما وسعنا ذلك وبين جعل الدراسة والصور في نطاق مواضيع مستقلة .

وسنضع أمام القارئ بعد هـذا الكلام ثبتا يحتوي ترتيبات النزول المـأثورة للسور المكية مما استند في وضعه وروايته إلى روايات ودراسات مأثورة على الأرجح ؛ وسيرى القارئ فيها تقاربا كثيرا يسوغ القول باحتمال مقاربة الترتيبات المذكورة للصحة ، وإننا لنأمل أن نفيد القارئ في تتبع سير السيرة وأدوارها في عهدها المكي .

ومع أن من المحتمل أن تكون مجموعات من سورة ما ـ وخاصة من السور الطويلة ـ قد نزلت منفصلة عن مجموعاتها الأخرى ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن مضامين ونظم السور القصيرة والمسجوعة أولا ، وتلاحق الفصول في كثير من السور المتوسطة والكبرى غير المسجوعة ووحدة الموضوع فيها بوجه عام ثانيا ، يمكن أن يلهم أن جل السور المكية قد نزل جملة واحدة ، كما يمكن أن يلهم أن ما نزلت مجموعات منفصلة منها قد تلاحقت دون أن يفصل بينها نزول مجموعات من سور أخرى ؛ وهذا مما يضمن الفائدة المرجوة آنفاً إلى حد غير يسير .

وقد يرد أن وجود آيات مدنية في السور المكية مما يدعو إلى التوقف في قبول وحدة

نزول هذه السور أو تلاحق فصولها أو ترتيب آياتها منذ العهد المكي على الوجه الذي ورد في المصحف ، ولكننا لا نرى ذلك ، لأن الآيات المدنية الصحيحة الطابع والثبوت ليست كثيرة في عددها وفي عدد السور التي احتوتها وقد وضعت في مناسباتها مما يدل على أن ترتيب آيات السور المكية وتلاحق فصولها لم يطرأ عليه تعديل كبير في العهد المدني . ولقد حرصنا على التنبيه إلى هذه الأمور وملاحظتها في تفسيرنا الكامل وفي مقدمته أيضاً .

وإليك الثبت (*) :

اسم السورة	ترتيب المصحف	ترتيب مصحف [illegible]	ترتيب الخازن	ترتيب الإتقان	ترتيب السيوطي	ترتيب [illegible]	ترتيب [illegible]	ترتيب جابر
العلق	٩٦	١	١	١	١	١	١	١
القلم	٦٨	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
المزمل	٧٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣
المدّثر	٧٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤
الفاتحة	١٠٦	٥	٠	٠	٠	٠	٠	٥
المسد	١٠١	٦	٥	٥	٥	٥	٥	٦
التكوير	٨١	٧	٧	٦	٦	٦	٦	٧
الأعلى	٨٧	٨	٨	٧	٧	٧	٧	٨
الليل	٩٢	٩	٩	٨	٨	٨	٨	٩
الفجر	٨٩	١٠	١٠	٩	٩	٩	٩	١٠
الضحى	٩٣	١١	١١	١٠	١٠	١٠	١٠	١١
الشرح	٩٤	١٢	١٢	١١	١١	١١	١١	١٢

* ١ ــ الصفر في العيون إمابسبب سقوط اسم السورة من الترتيب ، أو بسبب أنها فيه مدنية .

٢ ــ العلق والناس في ترتيب الخازن مدنيتان وترتيبها ١٦ و ١٧ .
الإخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطففون والفاتحة مما ورد أنها مدنيات ؛ والجمهور على أنها مع الفلق والناس مكيات ؛ وأسلوبها وروحها يلهمان ذلك أيضا .

٣ ــ الزلزلة والإنسان والرعد والحج مدنيات في أكثر الروايات وجميع التراتيب . وهناك روايات تذكر أنها مكيات ، وأسلوبها ومضامينها وخلاصة الثلاث الأول تشبه الأسلوب المكي أكثر مما تشبه الأسلوب المدني .

٤ ــ تسمى الجاثية بالشريعة ، وفصلت بالمصابيح ، وغافر بالمؤمن ، وص بداود ، والمسد بأبي لهب ، والنبأ بالتساؤل ، والمعارج بسأل ، والقلم بنون ، والفاتحة بأم الكتاب ، وفاطر بالملائكة ، والإسراء ببني إسرائيل ، والنحل بالنعم : تسميات مشهورة ، حتى أن بعض المصاحف تسميها بهذه الأسماء بدلا من أسمائها الأكثر شهرة ؛ هذا بالإضافة إلى أن لبعض السور أسماء أخرى ولبعضها أسماء عدة أقل شهرة .

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم ترتيب [illegible]	رقم ترتيب [illegible]	رقم ترتيب [illegible]	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب [illegible]	رقم ترتيب ابن عباس [illegible]	رقم ترتيب جابر
العصر	١٠٣	١٣	١٣	١٢	١٢	١٢	١٢	١٣
العاديات	١٠٠	١٤	١٤	١٣	١٣	١٣	١٣	١٤
الكوثر	١٠٨	١٥	١٥	١٥	١٤	١٤	١٤	١٥
الماعون	١٠٧	١٧	١٧	٣١	١٦	١٦	١٦	١٧
الكافرون	١٠٩	١٨	١٨	١٤	١٤	١٧	١٧	١٨
الفيل	١٠٥	١٩	١٩	١٦	١٨	١٨	١٨	١٩
الفلق	١١٣	٢٠	٠	١٧	١٩	١٩	١٩	٢٠
الناس	١١٤	٢١	٠	١٨	٢٠	٢٠	٢٠	٢١
الإخلاص	١١٢	٢٢	٢٠	١٩	٢١	٢١	٢١	٢٢
النجم	٥٣	٢٣	٢١	٢٠	٢٢	٢٢	٢٢	٢٣
عبس	٨٠	٢٤	٢٢	٢٠	٢٣	٢٣	٢٣	٢٤
القدر	٩٧	٢٥	٢٣	٢١	٢٤	٢٤	٢٤	٢٥
الشمس	٩١	٢٦	٠	٢٢	٢٥	٢٥	٢٥	٢٦
البروج	٨٥	٢٧	٢٤	٢٣	٢٦	٢٦	٢٦	٢٧
التين	٩٥	٢٨	٢٥	٢٤	١٣	٢٦	٢٦	٢٧
قريش	١٠٦	٢٩	٢٦	٢٥	٢٨	٢٨	٢٨	٢٩
القارعة	١٠١	٣٠	٢٧	٢٦	٢٩	٢٩	٢٩	٣٠
القيامة	٧٥	٣١	٢٨	٢٧	٣٠	٣٠	٣٠	٣١
الهمزة	١٠٤	٣٢	٢٩	٢٨	٣١	٣١	٣١	٣٢
المرسلات	٧٧	٣٣	٣٠	٢٩	٣٢	٣٢	٣٢	٣٣
ق	٥٠	٣٤	٣١	٣٠	٣٣	٣٣	٣٣	٣٤
البلد	٩٠	٣٥	٣٢	٣٢	٣٤	٣٤	٣٤	٣٥

اسم السورة	ترتيب المصحف	ترتيب نزول مصحف [illegible]	ترتيب الخازن	ترتيب [illegible]	ترتيب السيوطي	ترتيب [illegible]	ترتيب [illegible]	ترتيب [illegible]
الطارق	٨٦	٣٦	٣٣	٣١	٣٥	٣٥	٣٥	٣٦
القمر	٥٤	٣٧	٣٤	٣٣	٣٦	٣٦	٣٦	٣٧
ص	٣٨	٣٨	٣٥	٣٤	٣٧	٣٧	٣٧	٣٨
الأعراف	٧	٣٩	٣٦	٣٥	٣٨	٠	٣٨	٣٩
الجن	٧٢	٤٠	٣٧	٣٦	٣٩	٣٨	٣٩	٤٠
يس	٣٦	٤١	٣٨	٣٧	٤٠	٣٩	٤٠	٤١
الفرقان	٢٥	٤٢	٣٩	٣٨	٤٣	٤٠	٤١	٤٢
فاطر	٣٥	٤٣	٤٠	٣٩	٤٢	٤١	٤٢	٤٣
مريم	١٩	٤٤	٤١	٤٠	٤١	٠	٤٣	٤٤
طه	٢٠	٤٥	٤٢	٤١	٤٤	٤٢	٤٤	٤٥
الواقعة	٥٦	٤٦	٤٣	٤٢	٤٥	٤٥	٤٥	٤٦
الشعراء	٢٦	٤٧	٤٤	٤٣	٤٦	٤٤	٤٦	٤٧
النمل	٢٧	٤٨	٤٥	٠	٤٧	٤٥	٤٧	٤٨
القصص	٢٨	٤٩	٤٦	٤٥	٤٨	٤٦	٤٨	٤٩
الإسراء	١٧	٥٠	٤٧	٤٦	٤٩	٤٧	٤٩	٥٠
يونس	١٠	٥١	٤٨	٤٧	٥٠	٤٨	٥٠	٥١
هود	١١	٥٢	٤٩	٤٨	٥١	٤٩	٥١	٥٢
يوسف	١٢	٥٣	٥٠	٤٩	٥٢	٥٠	٥٢	٥٣
الحجر	١٥	٥٤	٥١	٥٠	٥٣	٥١	٥٣	٥٤
الأنعام.	٦	٥٥	٥٢	٥١	٥٤	٥٢	٥٤	٥٥
الصافات	٣٧	٥٦	٥٣	٥٢	٥٥	٥٣	٥٥	٥٦
لقمان	٣١	٥٧	٥٤	٥٣	٥٦	٥٤	٥٦	٥٧

اسم السورة	ترتيب المصحف	[illegible]	ترتيب الخازن	[illegible]	ترتيب السيوطي	[illegible]	[illegible]	[illegible]
سبأ	٣٤	٥٨	٥٥	٥٤	٥٧	٥٥	٥٧	٥٨
الزمر	٣٩	٥٩	٥٦	٥٥	٥٨	٥٦	٥٨	٥٩
غافر	٤٠	٦٠	٥٧	٥٦	٥٩	٥٧	٥٩	٦٠
فصلت	٤١	٦١	٥٨	٥٧	٦٠	٥٨	٦٠	٦١
الشورى	٤٢	٦٢	٥٩	٥٨	٦١	٥٩	٦١	٦٩
الزخرف	٤٣	٦٣	٦٠	٥٩	٦٢	٦٠	٦٢	٦٢
الدخان	٤٤	٦٤	٦١	٦٠	٦٣	٥٨	٦٣	٦٣
الجاثية	٤٥	٦٥	٦٢	٦١	٦٤	٦١	٦٤	٦٤
الأحقاف	٤٦	٦٦	٦٣	٦٢	٦٥	٦٢	٦٥	٦٥
الذاريات	٥١	٦٧	٦٤	٦٣	٦٦	٦٣	٦٦	٦٦
الغاشية	٨٨	٦٨	٦٥	٦٥	٦٧	٦٤	٦٧	٦٧
الكهف	١٨	٦٩	٦٦	٦٦	٦٨	٦٥	٦٨	٦٨
النحل	١٦	٧٠	٦٧	٤٤	٦٩	٦٦	٦٩	٧٢
نوح	٧١	٧١	٦٨	٦٧	٧٠	٦٧	٧٠	٧٣
إبراهيم	١٤	٧٢	٦٩	٦٨	٧١	٦٨	٧١	•
الأنبياء	٢١	٧٣	٧٠	٦٩	٧٢	٦٩	٧٢	٧١
المؤمنون	٢٣	٧٤	٧١	٧٠	٧٣	٧٠	٧٣	٧٥
السجدة	٣٢	٧٥	٧٢	٧١	٧٤	٧١	٧٤	٧٠
الطور	٥٢	٧٦	٧٢	٧٢	٧٥	٧٢	٧٥	٧٤
الملك	٦٧	٧٧	٧٣	٧٣	٧٦	٧٣	٧٦	٧٦
الحاقة	٦٩	٧٨	٧٤	٧٤	٧٧	٧٤	٧٧	٧٧
المعارج	٧٠	٧٩	٧٥	٧٥	٧٨	٧٥	٧٨	٧٨

اسم السورة	رقم ترتيب المصحف	رقم ترتيب نزول مصحف فؤاد	رقم ترتيب الخازن	رقم ترتيب مقدمة المباني	رقم ترتيب السيوطي	رقم ترتيب الحسن وعكرمة	رقم ترتيب ابن عباس	رقم ترتيب جابر
النبأ	٧٨	٨٠	٧٧	٧٧	٨٠	٧٧	٨٠	٨٠
النازعات	٧٩	٨١	٧٦	٧٦	٧٩	٧٧	٧٩	٧٩
الانفطار	٨٢	٨٢	٧٨	٧٨	٨١	٧٩	٨١	٨١
الانشقاق	٨٤	٨٣	٧٩	٧٩	٨٢	٧٨	٨٢	٨٢
الروم	٣٠	٨٤	٨٠	٠	٨٣	٨٠	٨٣	٨٣
العنكبوت	٢٩	٨٥	٨١	٨٠	٨٤	٨١	٨٤	٨٤
المطففون	٨٣	٨٦	٨٢	٨١	٨٥	٠	٨٥	٨٥

فصـــل

في موقف العرب غير الـكتابيين من الدعوة

هذا الفصل يتناول أشد أدوار السيرة النبوية قدراً وخطراً ، وأعظم صورها النضالية التي تمثل قوة نضال الحق مع الباطل على قلة أنصار الأول وكثرة أنصار الثاني . ويتألف من المباحث التالية :

١ ـ دور الخطوات الأولى .

٢ ـ موقف زعماء مكة من النبي ودعوته وبواعثه .

٣ ـ مشاهد وصور متنوعة بين النبي والزعماء ؛ بين الشدّة والاعتدال .

٤ ـ مشاهد التحدي .

٥ ـ محنة الأذى والفتنة ومشاهدها ونتائجها .

٦ ـ الأزمات النفسية النبوية .

٧ ـ صور متنوعة للمسلمين في العهد المـكي .

المبحث الأول

دور الخطوات الأولى

صورة عامة لهـذا الدور ــ نهى النبي عن الصـلاة والدعوة ــ احتمالات كون المتصدي من رجال سلطات مكة ومدى هـذا ــ عدم إطاعـة النبي ودلالته ــ قوة آيات العلق ودلالتها ــ آيات سورة القلم ودلالتها على كثرة المـكذبين ــ طبقة مخادعة من الزعماء منذ البدء ــ رغبة هذه الطبقة في تبادل التساهل مع النبي ــ أول مرة ينعت فيها القرآن بأساطير الأولين ــ تلازم الأغنياء والزعماء في المعارضة وبواعثه ــ مشهد مناظرة محتمل ــ نفي المنفعة والطمع عن النبي ودلالة الآيات الواردة في ذلك ــ دهشة الجاحدين لآيات القرآن ونذره ــ مدى أمر النبي بالصبر والهجر الجميل ــ احتمال صلة الأمر بدار الأرقم ــ تعليق على رواية سرية الدعـوة ــ أول القول عن القرآن أنه سحر وقول بشر ــ مواقف أبي لهب وامرأته ــ تعليق على رواية مشهورة لنزول سورة المسد ــ أول مواقف الجاحدين في الشك في اتصال النبي بملك الله وظنهم أنه شيطان ــ ذكر المؤمنين في بعض السور الأولى ودلالتها ــ تلخيص لهذا الدور وطابعه وصور عن المسلمين فيه وبواعث إقبالهم على الدعوة ودلالاتها .

الصورة الأولى

وصلنا في الفصل السابق إلى أن مطالع سور العلق والقلم والمزمل والمدثر يصح أن تكون قد نزلت وحدها ؛ وأنه لا بد أن تـكون سور عدة قد نزلت قبل نزول بواقيها ، وأنها قد احتوت مبادىء الدعوة ، وإنذاراً وتبشيراً خاليين من العنف ، وخلت من الإشارة إلى مواقف الجاحدين والحملة عليهم .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الخطوات الأولى للدعوة كانت اتصالا بالأخصاء ومن توسم النبي صلى الله عليه وسلم فيهم القبول والحجى ، وتلاوة لهذه السور عليهم ودعوتهم .

والسور المـكية التي خلت من ذكر المـكذبين والجاحدين والتنديد بهم والحملة عليهم قليلة ، وهذا مما يسوغ القول إن الدعوة لم تلبث أن أخذت منذ خطواتها الأولى تصطدم بالإنـكار والاستنـكار والصد والتـكذيب ؛ وإن السور والمجموعات القرآنية

لم تلبث أن أخذت تنزل متلاحقة بوصف مواقف الصادّين والمكذبين والتنديد بهم والحملة عليهم .

وما دام الأمر كذلك فليس مايمنع أن تكون الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى من أول مانزل بعد السور التي نزلت بعد هذه المطالع واقتصرت على الدعوة والإنذار والتبشير كما قلنا ؛ وفي هذه الآيات صور لرد فعل الخطوة النبوية الأولى ؛ وقرائن على أنها من أوليات القرآن نزولا .

الصّورة الثانية

إن الآيات التي أعقبت مطلع سورة العلق هي هذه :

« كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ . إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ . أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ . أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ . أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ . أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ... ٦ ـ ١٩

فهذه الآيات تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ يصلي على شكل جديد ، جهرة على ملأ من الناس في فناء الكعبة على الأرجح ؛ وأنه أخذ يدعو بدعوته إلى الله وتقواه بمجانبة الشرك والآثام وعبادة الله وحده واتباع مكارم الأخلاق مما حوته سورة الأعلى ومثيلاتها ؛ وأنه أخذ يقابل بالتكذيب والانصراف من جهة ، ثم تصدى له من جهة أخرى شخص ينهاه عن صلاته ودعوته ، وتلهم الآيات أن هذا الشخص كان من الزعماء ، أبطره ما كان له من غنى وجاه وأطغاه ، ورأى لنفسه قوة على نهي النبي والتصدي لحريته في الصلاة والدعوة .

وعبارة « ناديه » تعني مجلس القوم ؛ ويمكن أن تكون قد عنت ماعرف في أخبار السيرة بدار الندوة التي كانت في فناء الكعبة ، وكانت مجتمع مشيخة مكة ورجال سلطانها

الدينية والزمنية على ماذكرناه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ وإذا صح توجيهنا هذا ساغ أن يقال إنّ السلطات الرسمية في مكة رأت في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم صلاة علنية جديدة ، وفي تلاوته قرآناً فيه دعوة إلى مايخالف التقاليد الجارية ، وفي دعوته الناس جهارا إلى دين جديد ـ بدعة يجب الوقوف أمامها بشكل ما ؛ وأنها عهدت إلى أحد أعضائها بتنفيذ ذلك ؛ أو لعل المتصدي كان أشد حماسة من سائر رجال هذه السلطات فكان هو الذى تولى النهى والصد ووقف الموقف الذي ذكرته الآيات ونددت به .

وقد قيدنا الكلام بتعبير « بشكل ما » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمتنع ، ولم يلاحق بمنع رسمى كان من الجائز أن يستمر . ولعل الحرية الدينية التي كانت مطلقة للناس في البيت الحرام عاكفين وبادين ، والتي كانت تكفلها حرمة البيت الحرام أو التي تقوم عليها هذه الحرمة لما يعود من ورائها من منافع عظمى على أهل الحرم ـ هى التي جعلت الأمر يقف عند حد الجدل والحجاج والصد والتكذيب والمناوأة والأذى الشخصي ، أو عند المحاولة التي لم تتبع بملاحقة رسمية حازمة ؛ ولعلنا لا نخطيء إذا قلنا إن هذا لم يقتصر على دور الخطوات الأولى ، بل هو الذي استمر طيلة العهد أو أكثره ، وكان من عوامل انفساح المجال لاستمرار النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، وقد قلنا طيلة أكثره ، لأن التآمر على اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم أو حبسه أو نفيه في أواخر العهد واشتراك أكثر زعماء قريش البارزين فيه هو خروج عن هذا الموقف من ناحية ما ، على ماسوف نذكره في مبحث آخر .

على أنه إذا لم يصح توجيهنا ولم يكن « ناديه » دار الندوة ، ولم يكن النهى بأمر رجال السلطات ، ولا من أحدهم ـ فإن الدلالة قائمة في الآيات ـ على كل حال ـ على أن المتصدي من زعماء القوم الأقوياء ذوي الأنصار والمكانة ، وعبارة « فليدع ناديه » أي فليتضامن مع أهل مجلسه أو أنصاره ، تحتمل كلا الاحتمالين .

وظروف الموقف تدل على أنه من أبكر مواقف الصد والنهي والتكذيب إن لم يكن أبكرها ، وروح الآيات ومضمونها يلهمان هذا ، إذ تندد بالمتصدي لنهيه عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى ، وإذ تأمر رسول الله بعدم المبالاة وبالاستمرار في عبادته . ولعل إكمال سورة العلق ـ التي كانت آياتها الأولى أول مانزل من القرآن ـ بهذه الآيات دليل على هذا التبكير .

وإذا لاحظنا هذا ولاحظنا أن النبي لم يكن بعدقد آمن به إلا أفراد يعدون على الأصابع ، تبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه ، والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه ، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاغي مما يوحي إليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق ، ثم بما كان من تثبيت القرآن له على دعوته وعبادته وثباته فيهما فعلا ، وتبين لنا ـ كما قلنا في الفصل السابق في النبي صلى الله عليه وسلم ـ العظمة الخلقية ، والإيمان العميق ، والجرأة الشديدة في الحق على كل باغ مهما كان قويا عاتياً . ولقد كان هذا دأبه في كل المواقف التالية لهذا الموقف العصيب ، سواء كانت في الخطوات الأولى أو مابعدها . وفي هذا سر من أسرار اصطفائه للرسالة العظمى من دون ريب .

والروايات تذكر أن هذا الزعيم هو المغيرة بن هشام المخزومي ، الذي عرف في تاريخ الإسلام بأبي جهل بعد أن كان أبا الحكم ؛ ونحن لا نستبعد ذلك ، فنبز عظيم من عظماء قريش بهذا اللقب لا بد أن يكون لسبب قوي ، وأولية التصدي للنبي ونهيه عن الصلاة والدعوة هي سبب قوي من دون ريب ، وازداد هذا قوة باستمرار أبي جهل فى موقفه الشديد العنيف الباغي من الدعوة إلى أن هلك في غزوة بدر الكبرى .

وهذا المشهد يدل على أن الدعوة بدأت علنية وبقوة . خلافا لما روي من أنها بدأت سرية . وهذا مؤيد بالمشاهد المماثلة التي ظلت تحكى في السور العديدة المبكرة في النزول مثل القلم والمزمل والمدثر والماعون والكافرون . وكل مايمكن أن يقال إزاء ماورد في

الرويات التي تروى أقوال بعض أصحاب رسول الله[1] مثل ماروى عن عمر في قصة إسلامه حيث سأل (أنحن على حق أم باطل فقال له رسول الله بل على حق. فقال ففيم التخفى إذن) وما روي عن ابن مسعود أنه قال (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر . ولقد رأيتنا ومانستطيع أن نصلي بالكعبة ظاهرين آمنين حتى أسلم عمر) أن النبي صلى الله عليه وسلم حماية لأصحابه كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم. غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرة . وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة وإيمان النبي بالله ورسالته .

الصُّورة الثالثة

والآيات التي أعقبت مطلع سورة القلم هى هذه :

« فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ . فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ . وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ . أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ... »[2]

٥ ـ ١٦

والآيات تحتوي مشاهد من السيرة النبوية نرجح أنها من مشاهدها الأولى . وترجيحنا قائم أولا على أن هذه الآيات وما بعدها إلى آخر السورة صارت تتمة سورة مطلعها من أوليات القرآن نزولا على الراجح ، وثانيا على سين الاستقبال التي بدئت بها الآية الأولى ، واستشهاد الله على الضال من المهتدي ، وثالثاً على ما جاء في آخر السورة من تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتصبيره ودعوته إلى عدم الضيق بتكذيب قومه كما فعل صاحب الحوت ، إذ جاء فيها :

(١) انظر مثلا السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٣٠ وبعدها .

(٢) المفتون : الضال أو المنحرف إلى دين آخر . تدهن : تلاين . هماز : عياب : عتل : جاف غليظ. زنيم : دعى . سنسمه : سنضع عليه سمة بالكي على عادة العرب بوسم إبلهم . الخرطوم : هو للفيل ، واستعير لفم الذي قال عن القرآن أساطير الأولين .

« فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ... ٤٨ ـ ٥٠

أما المشاهد التي احتوتها الآيات فهى :

١ ـ إلهامها أن المكذبين قد كثروا . وأنهم صاروا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم وينتقدونه لا نحرافه أو ضلاله عن دين آبائه محاولين رده عن ذلك .

٢ ـ إنّ المتصدين له هذه المرة لم يكونوا غلاظاً شديدين بالنهى والنقد ، بل تظاهروا بالرغبة في الملاينة ، وودوا منه اللين والوعد منه بالتفاهم على أمر وسط ؛ فيتنازل عن بعض موقفه ويتنازلون هم عن بعض موقفهم .

٣ ـ إنّ منهم من كان يقسم الأيمان للنبي على ما كان يقوله أو يعرضه حتى يتساهل ويلين .

٤ ـ إنّ الموقف لم ينته إلى تفاهم وتوافق ، وإن الحلاف الذى تظاهر بالاعتدال كان في الحقيقة يعيب النبي صلى الله عليه وسلم ويكذب عليه ويصد عنه الناس ويسعى بالنميمة بينه وبينهم ، وإنه لم يلبث أن جاهر بطويته فوصف آيات القرآن بأنها أساطير الأولين ، أي أنها قصص الأولين المتداولة أو الخرافية أو أنها مقتبسات عنها على ما تحتمله هذه الجملة . وهذه أول مرة نعت القرآن هذا النعت الذى تكرر من قبل الكفار مراراً بعد ذلك .

٥ ـ إن هذا الحلاف النمام كان غنيا قويا بأبنائه وأنصاره .

وتعبير « حلاف مهين » يمكن أن يلهم أن هذا الحلاف كان يحلف للناس بكذب النبي ، أو كان يحلف للنبي صلى الله عليه وسلم باستعداده لمجاراته على حين كان يضمر التكذيب والصد : وقد رجحنا الشق الثاني استلهاماً من جملة « فلا تطع » التي نرجح

أنها تعني « لا تصدق » أو « لا تسمع » أو « لا تقبل » ثم من الحملة الشديدة التي تبعت الآية ، والتي نعتت الحلاف بنعوت تدل على ما كان عليه من سوء النية وخبث الطوية ، ومايضمر من الكذب والخداع وتأليب الناس على النبي بالنميمة والوقيعة .

والآيات وإن دلت في أولها على كثرة المكذبين والمحاجين فإن النعوت المتتابعة فيها تدل على شخص بعينه . ولسنا نرى في هذا تناقضاً ؛ إذ من الممكن أن يكون المحاجون جمعاً وأن يكون أحدهم أشد لؤماً وكيداً ومكرا ، أو أن تكون الآيات قد احتوت حكاية مواقف متنوعة في ظرف واحد .

وهكذا تبدو في هذه المشاهد صورة غير الصورة التي تلهمها آيات العلق كما هو واضح ؛ كما يبدو أن من الذين تصدوا للنبي صلى الله عليه وسلم في أول خطواته من كان عنيفا شديدا ومن كان مداهناً مخادعاً . ولقد ظلت هاتان الصورتان تتكرران طيلة العهد المكي بأشكال متنوعة على ما أشرنا إليه من قبل . ويبدو كذلك أنّ الزعماء والأغنياء قد تلازموا في مواقف الصد والتكذيب ، وتضامنوا في قيادة حملتهما ؛ وهذا أيضاً من المشاهد التي ظلت تتكرر طيلة هذا العهد .

ولقد يخطر بالبال أن من طبيعة المجتمع العربي إذ ذاك أن يجتمع الغنى والزعامة في شخص واحد ، غير أن الحملات القرآنية تختص حيناً الأغنياء وحيناً الزعماء ، مما يحتمل أن يكونا صنفين كما يلمح في آيات سورتي العلق والقلم نفسهما وفي كثير غيرها ، وأنهما تضامنا معاً ، الأولون خشية على ثرواتهم والآخرون خشية على مراكزهم ؛ لأن الدعوة الإسلامية نددت بالأغنياء الذين يقبضون أيديهم عن مساعدة الطبقات المعوزة وحثت على الإنفاق كثيراً ، كما أنها حاربت الزعامة الطاغية الباغية المعتزة بالقوة والمتكبرة عن الحق .

وتنبه على أن طلب الكفار الملاينة من النبي صلى الله عليه وسلم مقابل وعد منهم بمثل ذلك حتى يتم التقارب والتفاهم على أمر وسط الذي تضمنت حكايته الآية (٨) قد

تكرر في ظروف أخرى وبأساليب أخرى مما سوف نعود إليه في مناسبة ثانية .

الصّورة الرابعة

وفي آيات سورة القلم الأخرى مشاهد أخرى جديرة بالتنويه أيضا .

(١) ففيها ما يلهم أنه مشهد مناظرة أو تنديد في مقام مناظرة ؛ إذ احتوت الآيات التالية :

« أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ . سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ... ٣٥ ـ ٤١

وهذا الأسلوب متكرر كثيراً في القرآن المكي . والذي يخطر بالبال في صدده أنه إمّا أن يكون تعقيباً أو تعليقاً على موقف جدل ومحاجة بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار ، وإمّا أن يكون على سبيل تلقين الحجة المفحمة في مواقف الجدل والحجاج .

تكراره كثيراً يلهم أن النبي كثيرا ما كان يشتبك مع بعض الجاحدين بالجدل والمحاجة التي تنطوي من ناحية على التنديد والتبكيت والتحدي ، وتجري من ناحية أخرى على طريقة منطقية يوجه الكلام فيها إلى العقل دون أن يكون فيها شدّة أو مهاترة ؛ وهذا مما يؤيد ما قلناه آنفاً من تنوع طبيعة الجاحدين بين الشدة واللين والغلظة والمداهنة ، ومن أن هاتين الصورتين بدأتا منذ الخطوات الأولى واستمرتا متلازمتين .

(٢) وفيها سؤال إنكاري عما يمكن أن يكون للنبي من نفع يلتمسه من وراء دعوته أو من مطمح يسعى إليه ، كما ترى في الآية التالية :

« أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ... ٤٦

وإذ كان السؤال من قبيل الإنكار أو الاستنكار فإن الآية تنفي طلب الأجر ، وتنكر على الجاحدين موقفهم ، فالنبي لا يطلب أجرا ولا جعلا حتى يروا فيما يدعوا إليه كلفة وغرامة . ولقد تكرر هذا كثيرا في القرآن المكي بأساليب متنوعة ؛ ومع أنه لم يرد في أي مرة في صدد نفي تهمة موجهة إلى النبي أو بصورة رد على تهمة ؛ فإن تكراره قد يلهم أن من الزعماء و الأغنياء من ظن أن النبي صلى الله عليه وسلم يسعى وراء مطمع خاص ، أو رأى أن في دعوته ما يهدد مراكزهم وثرواتهم ؛ ولعل هذا من أسباب التجهم للدعوة منذ بدئها ، ولعل ذكر القرآن للزكاة ودعوته إلى التصدق ومساعدة المعوزين ومراعاة حق اليتيم والبر به وفك الرقاب ، ونعيه على الناس البخل وحب المال والانهماك في الدنيا وإيثارها على ما عند الله ، في السور المبكرة جدا التي احتوت مباديء الدعوة والإنذار والتبشير بصورة عامة كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ...
الأعلى ١٦ — ١٧

٢ — كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ . وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ... الفجر ١٧ — ٢٠

٣ — فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ... البلد ١١ — ١٦

٤ — فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ . إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْأَخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ . فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ . لَا يَصْلَىٰهَآ إِلاَّ ٱلْأَشْقَىٰ . ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى . ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ . إِلاَّ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ... الليل ٥ — ٢١

. . . قد جعل زعماء الكفار وأغنياؤهم ينسبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الطمع في أموالهم أو التآمر على ثرواتهم منذ الخطوات الأولى ، ففي القرآن في آياته المبكرة ذلك عنه شخصيا ، ثم ظل ينفيه من آن لآخر أيضاً .

(٣) وفيها صورة لحالة الكفار النفسية ظاهرها وباطنها حينما كان يتلو النبي صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن وينذرهم ويبشرهم به كما ترى في الآيات التالية :

« وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ... [(١)] القلم ٥١ ـ ٥٢

ووصف هذا الموقف قد تكرر كثيرا في القرآن المكي . وروده في آيات سورة القلم يلهم أنه كان منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ وصيغة الآية (٥١) قوية الدلالة على أن الكفار لم يكونوا يقصدون نعت النبي بالجنون المرضي ، بل يقصدون بيان دهشتهم مما كان يتلوه عليهم ، حيث أرادت الآية أن تقول إنهم كانوا يحملقون في وجهه وتكاد عيونهم تأكله عجباً ودهشة لما سمعوه من آيات القرآن .

وهذا الوصف أثر من آثار الدعوة في جمهور الناس ، ويبدو أن الزعماء قد استغلوه أعظم استغلال في حملة الصد والتكذيب التي تولوا كبرها ؛ كما تدل على ذلك آيات كثيرة هذا مثال منها :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ... سبأ ٧ ـ ٨

وواضح أن جملة « الذين كفروا » تعني الزعماء إذ كانوا يقولون للناس الكلام الذي جاء بعد الجملة على سبيل الدعاية والصد . ومن هذا القبيل آية أخرى في السورة نفسها وهي هذه :

(١) « الذكر » الأول كناية عن القرآن وقد تكرر مرات بهذا المعنى ، والثاني : بمعنى التذكير والذكرى وقد تكرر مرات أيضاً.

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... ٤٣

الصّورة الخامسة

ومن الآيات التي أعقبت مطلع سورة المزمّل الآيتان التاليتان :

« وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ... ١٠ - ١١

وفي الآيتين أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على تكذيب المكذبين وأقوالهم ، وبهجرهم هجرا جميلا أي لا قطيعة فيه ولا شدة ، وبوكالة أمر هؤلاء المغرورين بما تيسر لهم من الجاه والنعمة إلى الله ، وبتوعدهم بأن نتائج موقفهم تقع عليهم في أجل قريب ؛ والآية الثانية واضحة الدلالة على أن المكذبين من الزعماء ذوي الجاه والثراء ؛ وهذا مما سبق من المشاهد ومما تكرر فيما بعد .

وقد احتوت الآيتان تثبيتاً وطمأنة للنبيَّ صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف الذي أخذ يلقاه مكررا في خطواته الأولى ؛ وهذا كذلك استمرار لما سبق من تلقينات لتثبيته وطمأنينته كانت من دون ريب من عوامل ثبات النبي صلى الله عليه وسلم في مهمته وتعبير « الهجر الجميل » ذو مغزى خطير ؛ فهو متسق مع طبيعة مهمة النبي من عدم قطع الحبل قطعا باتًّا بينه وبين الزعماء الجاحدين الذين في يدهم زمام الناس مهما كابروا وكذبوا ، وبينه وبين جمهور الناس عامة الذين لم يكونوا قد استجابوا إلى الدعوة ، ومتسق كذلك مع ماتمليه ظروف الخطوات الأولى ، إذ تملي أن يلائم صاحب الدعوة بين الظروف المتباينة ، فلا يعنف ولا يقسو من جهة ، ولا يتعرض هو وأصحابه للمكروه دون ما ضرورة من جهة أخرى .

ولقد تواترت الروايات(١) على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتخذ له مركزا سريا أو بالأحرى منعزلا ، وهو « دار الأرقم » يجتمع فيه هو وأصحابه ، يقيمون الصلاة ويتدارسون القرآن ، ويتلقون عن النبي صلى الله عليه وسلم تعاليم الدين والأخلاق ، كما أثر عنه أحاديث يدعو فيها ربه أن يعز الإسلام ببعض الأقوياء ، وأن هذا الحال دام نحو ثلاث سنين من أوائل العهد المكي إلى أن أسلم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما وغيرهما من الأقوياء المعروفين ، فليس بعيدا أن تكون هذه الآية قد لقنت النبي صلى الله عليه وسلم هذا التصرف المروي أو ما يقرب منه ، حينما أخذ يلقي التكذيب والمناوأة ، وأخذ الطغاة من الجاحدين يتعرضون لضعفاء المسلمين بالأذى على ما سوف نذكره بعد .

ولقد روي فيما روي أن الدعوة بدأت سرّية إلى أن قوي الإسلام ، ونزلت آيتا الحجر .

« فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ . . .

٩٤ ـ ٩٥

ونحن لا نسلم بهذا ؛ استلهاماً من آيات العلق التي تذكر أن زعيما نهى النبي عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى ، أي الدعوة ، ومن آيات القلم التي تذكر أن الكافرين كانوا يكادون يلتهمون النبي بعيونهم حينما سمعوا القرآن ويقولون إنه لمجنون ، ويودون لو لاينهم ليلاينوه ، ويقولون إن ما يتلوه هو أساطير الأولين ؛ ومن آيات المزمّل هذه التي تذكر المكذبين وتهددهم ، ومن آيات المدثر وغيرها وغيرها مما هو مجمع على نزوله مبكراً ، واحتوى حكاية مواقف الكفار وجدلهم وتكذيبهم . والوجه الحق فيما نرى هو أن الدعوة بدأت علنية وجهاراً ، وكل ما يمكن أن يكون مما تلهم آية المزمّل (١٠) هذه أن النبي تجنب ـ بتلقينها وبإملاء الظروف ـ المعاندين والطغاة مؤقتاً مع عدم قطع

(١) انظر تفسير الآية (٩٤) من سورة الحجر في تفسير ابن كثير والطبري .

الحبل ومجانبة الشدة في خطابهم ، وأنه قصر دعوته مؤقتاً على من كان يتوسم فيهم الخير والاستجابة ، ولا يرى فيهم الغلظة والقسوة والعنف في الصد والتكذيب ، كما أن من الممكن أن يكون قد تجنب إقامة الصلاة جماعة وتلاوة القرآن جهراً على ملأ من الناس ، وفي فناء الكعبة خاصة رعاية لأصحابه الضعفاء ، وأن يكون قد اتخذ دار الأرقم مكان اجتماع وصلاة خاصا ؛ وقد وصفنا المكان بالمنعزل لا بأنه سري ؛ لأننا لا نرى من المعقول أن يكون مكان الاجتماع والصلاة هذا سريا في بلد كمكة في ذلك العهد ، وقد كان يؤمه عدد مهما قل فإنه يبلغ العشرات ، وكان مركز اجتماع شخص أثار دهشة الزعماء والجمهور وبعث في نفوسهم الحيرة والاضطراب ـ مع أصحابه الذين تابعوه . وإذا كان قد تسنى لهم الاستمرار في أمرهم مدة غير قصيرة ـ ثلاث سنوات مثلا ـ فالراجح أن هذا عائد إلى أن فكرة مطاردة النبي صلى الله عليه وسلم ومنع حريته بالقوة لم تكن مما اتفق عليه الزعماء ، فلما اعتزلهم وتحفظ في دعوته وصلاته واجتماعاته لم يكن منهم إلا مجاراة الحالة والسكوت عليها .

الصورة السادسة

ومن الآيات التي أعقبت مطلع سورة المدثر الآيات التالية :

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيداً . سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ... ١١ ـ ٢٥

وقد احتوت الآيات مشهداً آخر من مشاهد المكذبين ومواقفهم ، اختلفت فيه الصورة شكلا عن سابقتها مع اتفاقهما في المدى . وما دامت الآيات من تتمة لسورة مطلعها من أوليات القرآن : فقد صح أن يقال إن المشهد من المشاهد المبكرة أيضاً وأنه أثر من

آثار الخطوات الأولى للدعوة في الذين اتصل بهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم وتلا عليهم القرآن ؛ وروح الآيات تلهم هذا ، كما يساعد على ترجيحه تقارب الصور والمشاهد المكية في السور السابقة .

والصورة كما هي واضحة ، صورة غني ذي بنين وجاه اتصل به النبي ودعاه وتلاعليه القرآن ؛ فكان منه الموقف الذي وصفته الآيات أقوى وصف منددة مقرّعة ، والذي انتهى به إلى القول بأن ما سمعه هو قول بشر لا وحي رباني ، وأن ما يبشر به النبي صلى الله عليه وسلم ليس إلا من نوع السحر المأثور الذي يخيل للمرء مالا حقيقة له .

وفي أواخر السورة جاءت الآيات التالية :

« فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ . بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ... ٤٩ ـ ٥٢

فاحتوت صورة طريفة وقوية لموقف من مواقف الجاحدين من الدعوة النبوية وأثرها فيهم ، فهم معرضون عن سماع الإنذار والدعوة إعراضاً كأنما يرون فيهما خطراً ، وهم في هذا أشبه بقطيع من الحمر الوحشية رأت سبعاً فامتلأت فزعاً وفرت لا تلوي على شيء . . . وقد احتوت الآية الأخيرة صورة أخرى فيها تحد تعجيزي للجاحدين، إذ كانوا يقولون : إنا لا نصدق مالم تنزل على كل منا صحف مكتوبة من السماء مؤيدة له ؛ وقد تكررت حكاية هذا التحدي أكثر من مرة مما يدل على أنه كان يتكرر من الجاحدين حيناً بعد حين . وسنعود إلى الموضوع مرة أخرى في مناسبة ثانية . لخطورته في مدى الرسالة المحمدية .

الصورة السابعة

ومن السور المجمع على تبكيرها بالنزول سورة المسد ، وقد جاءت الخامسة في أكثر التراتيب : وإذا كنا استبعدنا هذا في الفصل السابق ـ مبحث أوليات الوحي ـ فلسنا نستبعد أن تكون من السور المبكرة جدا ، وكل ماعنيناه أن يكون قد نزل قبلها وقبل

بواقي السور الأربع الأولى سور عدة في الدعوة وأهدافها . وهناك روايات معقولة تجعل احتمال نزولها مبكرة جداً ، مرجحاً .

ونص السورة هو هذا :

« تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ . وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ »

ويكاد يكون من المجمع عليه أن أبا لهب هو عم النبي صلى الله عليه وسلم وأن اسمه هو « عبد العزى » وأن امرأته هي أم جميل أخت أبي سفيان الزعيم الأموي المشهور . ولسنا ندري هل الكنية قرآنية إسلامية على سبيل التحقير ؟ أم أنها سابقة للسورة أو سابقة للبعثة ولقب نبزي ، وإن كنا نرجح الأمر الأول .

ومما يروى أن أبا لهب كان يمشي وراء النبي صلى الله عليه وسلم فكلما حدث النبي أحداً أتى إليه فقال له : لا تصدقه فإن فيه مساً ، أي جنوناً وأن أم جميل كانت تضع الأقذار في طريق النبي وأمام بيته الذي كان مجاوراً لبيت عمه ، وأنها كانت تشيع عنه الإشاعات المثيرة . وقد ذكرنا في مبحث أثر الوحي في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أنها أبدت شماتها حينما علمت بخبر فتور الوحي وأخذت تقول هازئة : إن ربه قد قلاه .

وآيات السورة شديدةقاصمة ، ولا بد أن يكون أبو لهب وامرأته قد استحقا بعمل أو موقف ماهذه اللعنة القرآنية الخالدة التي لم تسجل فيه لأحد بعينه دونهما .

ومن الغريب أن أكثر الرواة والمفسرين ، بل نكاد نقول جميعهم، رووا وقالوا : إن هذه السورة نزلت بمناسبة قول أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم « تباً لك ! ألهذا دعوتنا ؟ » وذلك حينما نزلت آية الشعراء « وأنذر عشيرتك الأقربين » وجمع النبي بني هاشم ودعاهم وأنذرهم على ماسوف نذكره بعد ؛ هذا مع أن هذه الآية من سورة غير مبكرة ، وقد قال الرواة : إنها نزلت بعد ثلاث سنين من البعثة ، ومع أنهم قالوا : إن سورة المسد من أبكر مانزل من القرآن ، ومع أن ذلك القول معزو إلى أبي لهب

والسورة قد جمعت امرأته معه ، وهذا مايحملنا نتوقف في الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة .

ولقد ذكرت الروايات أن الصلات بين النبي صلى الله عليه وسلم وعمه قبل البعثة كانت حسنة ، وأن بيتيهما كانا متجاورين ، وأن ابنتي النبي كانتا مخطوبتين لابني عمه هذا ، وأن أبا لهب وامرأته قد حملا ولديهما على فسخ الخطبة بعد قيام النبي بدعوته ، فالذي يرد على البال وينسجم مع تبكير نزول السورة ومضمونها ومع هذه الروايات هو أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل بعمه في أول من اتصل بهم بعد نبوته ، ودعاه وأهله في أول من دعا ؛ بل لعله كان أول من اتصل به ودعاه بعد السيدة خديجة ، فهو عمه وجار بيته وصهره ، ولعله كان يكثر من التردد عليه وقد انعقدت بينهما مودّة وعدم كلفة ، ومن المعقول أن يفاتحه قبل كل إنسان من غير أهل بيته وأن يفضي إليه بأمره وأن يطلب منه التصديق والتأييد وهو واثق كل الثقة بمقابلته بالحسنى والإجابة والاستبشار ، وبأنه واجد فيه العضد القوي والسند المتين ، لا سيما أنه كان طائل الثروة كما تصفه السورة ؛ ولكنه لم يلبث أن خاب أمله فقوبل أسوأ مقابلة ، وكان من عمه وامرأته أشد موقف من الأذى والعناد والتعطيل وقطيعة الرحم ، وعمومة أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم مما تزيد في أثر موقفه منه سوءاً وشدّة ، فموقف العم أشدّ من موقف الغريب البعيد في نفس النبي ، وتأثيره في سير الدعوة وعرقلتها أقوى من موقف الغريب البعيد كذلك في الناس لأنه يقوي حجتهم إذا هم انصرفوا عن إجابة الدعوة ووقفوا منها موقف المناوأة والعناد .

ونعت امرأة أبي لهب بحمالة الحطب تلهم — عندنا — أنها كانت تزيد نار المعارضة لهيباً ، ولعل هذا يعني أنها كانت تنفخ روح العداوة في زوجها كلما رأت منه جنوحاً إلى التروي والفتور ، بسبب ما كان يربطه بالنبي صلى الله عليه وسلم من روابط العصبية وتقاليدها ، وليس بعيداً أن يكون تأثيرها عاملا في شذوذ هذا العم عن سائر أفراد عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم الأقربين الذين كانوا ينصرونه ويحمونه اندفاعاً بقوة العصبية بالرغم من أن أكثرهم أو بالأحرى جلهم لم يكونوا قد استجابوا إلى دعوته ، بل ظلوا كذلك

أمداً طويلا . وإذا صحت رواية أن أم جميل هى أخت أبي سفيان ـ ولم يرد مايشكك في ذلك فيما اطلعنا عليه ـ فلا يبعد أن يكون موقفها متأثراً بموقف أخيها الذي كان من أبرز الزعماء وذوي الشأن في قريش ، والذي كان لعائلته المكانة البارزة ، وظل يناويء الدعوة طيلة العهد المكي وأكثر العهد المدني ، أي إلى فتح مكة ، مناوأة عنيفة ، ويقود أحياناً ويجهز أحيانا الجيوش التي كانت تشتبك مع المسلمين أو تغزو المدينة دار الهجرة النبوية .

وبناء على هذا التوجه الذي نرجو أن يكون وجيهاً يصح أن يقال إن سورة المسد تنطوي على الإشارة إلى مشهد من مشاهد الخطوات المبكرة الأولى ، وإلى موقف أليم شديد غير منتظر من مواقفها وكان له أثر عظيم في سيرها .

الصورة الثامنة

وسورة التكوير هى كذلك من السور المجمع على تبكيرها في النزول ؛ إذ كان ترتيبها السابعة في رواية والسادسة في أخرى . ونقول هنا ماقلناه في سورة المسد آنفاً ، فإن ترجيحنا نزول سور أخرى قبلها لا يعني عدم نزولها مبكرة ؛ على أن مضمونها يلهم بقوة أنها نزلت مبكرة جدا .

والسورة احتوت موضوعين مختلفين بعض الاختلاف : الأول الإنذار باليوم الآخر ومشاهده . والثاني وحي الله وملك الوحي وتوكيد رؤية النبي له وإلقائه القرآن إليه . وهذه هى آيات الموضوع الأول منهما ، أما آيات الموضوع الثاني فقد أوردناها في مبحث الوحي وأولياته من الفصل الأول :

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ . وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ . وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ . وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ . وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ . وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ . وَإِذَا

ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ . وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ... ١ ـ ١٤

وآيات الموضوع الأول إنذار عام لا عنف فيه ، وهذه الصفة التي رجحناها للأوليات القرآنية ؛ وآيات الموضوع الثاني هي التي تتصل بالبحث الذي نحن في صدده ، وتلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أخذ يخطو خطواته الأولى في سبيل الدعوة ، ويروي قصة رؤيته ملك الله ، ويؤكد تلقيه القرآن عنه ، قوبل بالشك والارتياب ممن اتصل بهم ودعاهم وذكر لهم أمره ، وأن بعضهم ظن الذي رآه واتصل به وألقى إليه هو شيطان من الجن على ما كان العرب يعتقدون باتصال شياطين الجن بالسحرة والكهان والشعراء وبصعودهم إلى السماء واستراق السمع منها على ماذكرناه في كتابنا الآنف الذكر ، فنزلت الآيات تؤكد صحة ما أخبر به ورواه بهذا الأسلوب القوي النافذ . أما تعبير « وما صاحبكم بمجنون » فالذي تلهمه الآيات أنه تدعيم للتوكيد ، وتنبيه للقائلين إلى حقيقة مايعرفونه عن النبي عليه السلام ورجاحة عقله .

واجتماع آيات الموضوعين في سورة قصيرة ، وما يلهمه طابع آيات الموضوع الأول من كونها من أوليات القرآن نزولا ، يدل على تبكير حدوث هذا المشهد ، لا سيما أن آيات الموضوع الثاني تلهم أنها في صدد موقف الجاحدين من أخبار النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى ملك الله في الأفق ، وهي الرؤية التي كانت عقب اتصال الوحي به في غار حراء لأول مرة . والجديد في المشهد هو ماتلهم الآيات من ظن السامعين أن الذي اتصل بالنبي شيطان ، في حين أن الصور السابقة تضمنت قولهم : إن القرآن قول بشر ، وإنه أساطير الأولين ، وإنه من نوع السحر وآثاره المأثورة ، وأشارت إلى تكذيبهم ومخادعتهم وتأليبهم ونهيهم النبي عن الصلاة والدعوة .

الصورة التاسعة

والسور التي استعرضنا بعض آياتها ـ وإن كانت على الأغلب في صدد حكاية مواقف الجاحدين والمكذبين ـ يتضمن بعضها ذكرا للمؤمنين والمتقين والمسلمين وأصحاب اليمين؛ كما ترى في الآيات التالية منها :

١ — إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ... القلم ٣٤ ـ ٣٦

٢ — وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ... المدثر ٣١

٣ — إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ . فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ... المدثر ٣٩ ـ ٤٢

وهذا يعني كما هو المتبادر أن الدعوة في هذا الدور لم تقابل بالصد البات الشامل . بل إنها استجيبت وآمن بها أناس ، وقام إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبقة من المؤمنين مقابل ماقام في وجهه من طبقة الكافرين ، وإن كان يعني أن الطبقة الثانية هي الأكثر والأقوى، إذ شغل الحديث عنها جل آيات السور في حين لم يرد عن الأولى إلا إشارات استطرادية كالتي مر نقلها . على أنه يصح أن يدخل في نطاق الإشارات أيضاً آيات أخرى في سور مبكرة جدا في التنزل مثل :

١ — يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ... الفجر ٢٧ ـ ٣٠

٢ — وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ... سورة العصر

٣ ـ آيات سورة الليل ٤ ـ ٢١ التي نقلناها في مناسبة قريبة سابقة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا مؤيد بما روته الروايات اليقينية من إيمان فريق من الناس في دور الخطوات الأولى ، فيهم طبقة من بيوتات قريش المعروفة أمثال أبي بكر وعثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وأبي عبيدة وعبد الرحمن وأبي سلمة بالإضافة إلى خديجة وعليّ وجعفر ابني عمه وزيد متبناه ، وفاطمة بنت الخطاب وعبد الله بن مسعود ، وبالإضافة إلى بعض الكتابيين أمثال سلمان وصهيب، والأرقاء أمثال ياسر وزوجته وابنه عمار وبلال وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم ، من السابقين الأولين الذين كان جلهم من عمد الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعده .

الصورة العاشرة

هذا ونرى فيما عرضناه من مشاهد هذا الدور كفاية ، كما أن الدعوة بعدها خرجت من دور الخطوات الأولى أيضاً .

وإذا كان لنا أن نلخص مشاهد هذا الدور أو نرسم له صورة عامّة فإننا نقول : إنه من ناحية ما يصح أن يطلق عليه دور الأشخاص ؛ فأول من تصدّى للنبي صلى الله عليه وسلم وحاول منعه من الصلاة والدعوة شخص معين ، كما أن آيات سورة القلم والمدثر والمسد قد حكت على الأكثر مواقف أشخاص ؛ هذا أولا ، وثانياً إنّ الأشخاص الذين حكت آيات هذه السور مواقفهم المضادة هم من ذوي الثروة والزعامة .

ويبدو من هذا وذاك ما يصح أن يكون طبيعيا من أن النبي قد بدأ اتصالاته بالأشخاص الذين توسم فيهم الإجابة بصورة عامّة ، ومن ذوي الثروة والزعامة من هذه الطبقة بصورة خاصة ، على أمل أن يضمن النجاح في ميدانهم ، النجاح في الميادين العامة أو الجمهورية .

ومن الجدير بالذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخب في هذا الميدان وإن كان نجاحه فيه ضيق المدى ، حيث استجاب له بعض أبناء البيوتات الرفيعة ، وكان من بينهم من هو غني كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم ؛ ولقد ظل هذا الضيق طابع العهد المكي بطوله ، حيث ظل أكثر الزعماء والأغنياء في جانب المعارضة والجحود .

وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر في خطواته الأولى على الاتصال بذوي الزعامة والثراء . وروايات السيرة تذكر بدون خلاف أسماء كثيرة من أرقاء وفقراء وغير ذوي عصبية ؛ غير أنه يلاحظ أن النبي قد صرف أكبر همه وجهده إلى تلك الطبقة على ذلك الأمل الذي أشرنا إليه : ولعل في آيات سورة عبس الأولى ، والسورة من السور المبكرة في النزول ، ما يمكن أن يعد دليلا على هذا كما يبدو من نصها التالي :

« عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ . أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ . أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ... ١ — ١٠

والآيات تتضمن في حد ذاتها صوراً ومبادئ متصلة بالسيرة النبوية على جانب عظيم من الدلالة والمدى .

فمن ناحية تؤيد ما قلناه من اهتمام النبي «صلعم» وجهده لجذب طبقة الزعماء والأغنياء إلى دعوته من حيث إن ذلك ليسر لها الاستجابة العامة حتى إن حرصه على ذلك جعله يعبس في وجه الأعمى الذي جاءه مسترشدا مستهدياً .

ومن ناحية تفيد أن الزعيم الغني الذي تصدى له النبي «صلعم» وانهمك معه في الحديث والإقناع لم يكن من العنيفين بمناوأتهم وتكذيبهم .

ومن ناحية تفيد أن الرغبة الشديدة في الاستفادة والاستنارة والاسترشاد والتفقه

كانت من دوافع الطبقة التي آمنت بالنبي «صلعم» إلى الاستجابة إلى دعوته والانضواء إلى لوائه .

ومن ناحية تضمنت عتاباً للنبي «صلعم» على عبوسه في وجه الأعمى ينطوي فيه تلقين سلوكي رائع تجاه الذين انضووا إليه من هذه الطبقة بذلك الدافع ، وإيجاب الاهتمام لهم والعناية بهم ، وترجيحهم على الذين يترفعون عن الحق والدعوة إليه ويظهرون الغرور والاستغناء مهما علت مراكزهم . ولقد أعقب هذه الآيات الآيتان التاليتان :

« كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ... ١١ — ١٢

اللتان تضمنتا كما هو المتبادر توكيداً لذلك التلقين بأسلوب إيعازي وتقريري بأن دعوة النبي للناس إنما هي لتذكيرهم وبأنه ليس مكلفاً بالإلحاح عليهم إلى الدرجة التي تجعله يقف من المؤمنين الطالبين للاسترشاد والتفقه موقف العبوس والإهمال .

وفي سورتي الأنعام والكهف آيات تكررت فيها هذه التلقينات والصور في مناسبة حكاية مواقف أخرى لبعض الزعماء والأغنياء مما يدل على أن شدة الاهتمام لجذب الأغنياء والزعماء ظلت تعمل في نفس النبي صلوات الله عليه . حيث جاء في السورة الأولى هذه الآيات .

« وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ... الأنعام ٥١ — ٥٣

وحيث جاء في السورة الثانية هذه الآيات :

« وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا . وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... الخ الكهف ٢٨ ـ ٢٩

ولقد روي في صدد الآيات أن بعض الزعماء طلبوا من النبي «صلعم» أن يطرد الفقراء والمساكين من مجلسه إذا دعاهم إليه أو أرادوا أن يجلسوا معه .

وفي آيات الأنعام ما يفيد صحة الرواية ويفيد بالإضافة إلى ذلك شدة استخفاف الزعماء بالمؤمنين من هذه الطبقة حيث كانوا يتساءلون تساؤل الساخر المستهزئ عما إذا كان الله اختص هؤلاء من دونهم بالهداية . . . والجملة التي تضمنت هذا التساؤل قد تدل على أن أكثر الذين استجابوا للنبي «صلعم» في هذا الدور أو كثيراً منهم كانوا من هذه الطبقة التي لم يكن لها ما يجعلها تفكر في الوقوف من الدعوة موقف المتحفظ أو المعارض أو الخائف على مركزه وثروته، وكان لها في الوقت نفسه من حسن النية والرغبة في الهدى ما جعلها تقبل على الاستجابة إليها . ولا سيما أن منها من كان مضطهداً من الزعماء والأغنياء، وأن الدعوة قد جاءت تبشر المنضوين إليها بالأمن والطمأنية والحرية والخير والبركات في الدنيا والآخرة . وفي هذا صورة من صور العهد المكي للمسلمين في دوره الأول كما هو واضح .

ولقد تضمنت آيات سورتي الأنعام والكهف من التلقين السلوكي الرائع . تجاه الفريقين ما تضمنته آيات سورة عبس . وبأسلوب أشد يفيد أن حرص النبي «صلعم» على جذب الزعماء كاد يجعله أن يستجيب إلى طلبهم ! حيث احتوت تنويهاً بهذه الطبقة وتلقيناً للنبي «صلعم» بوجوب الاهتمام لها وترضية نفسها وتطييب قلبها وعدم الاستماع للغائبين من الزعماء والأغنياء فيها .

وهكذا تبدو طبيعة الدعوة الإسلامية منذ بدئها عظيمة رائعة في حدبها على هذه الطبقة التي تتألف منها عادة أكثرية الجماهير وتحريرها ورفع مستواها . ولعل هذا

التشجيع كان من أقوى الدوافع على التحاق من تمكن من التفلت من أفرادها بالدعوة .
على أن هذا ينبغي ألا يغطى ناحية رائعة من صور السيرة في عهدها المكي وهى استجابة عدد غير قليل من الأغنياء وأبناء الأسر القرشية إلى الدعوة استطاعوا أن يتفلتوا من تأثير التقاليد ، ومنهم من وقفوا موقفاً مناوئاً لمواقف آبائهم وأعمامهم وزعماء عشائرهم حين رأوا أعلام الحق الباهرة وأنواره الساطعة ولم يبالوا بما يمكن أن يتعرضوا له أو يصيروا إليه . ولعل هذه الصورة أقوى إشراقا من أختها الأولى .

المبحث الثاني

موقف زعماء مكة من النبي عليه السلام و بواعثه

وصف موقف زعماء مكة وأثره في عهد الدعوة المكي – بواعث موقف الزعماء – أثر ما كان للزعامة من دور في عصر النبي وبيئته أثر عصبية التقاليد في المجتمع العربي – أثر خوف زعماء مكة على امتيازاتهم وامتيازات مكة وإمامتها ومنافعها – أثر البعث والحساب والحملة على الزعماء والأغنياء – أثر طبيعة النبي البشرية .

الصورة الأولى

كان موقف زعماء مكة من النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته سلبيا ، بل وعدوانيا منذ الخطوات الأولى من العهد المكي كما رأينا في المبحث السابق ، وظل الأمر كذلك باستثناءات قليلة طيلة هذا العهد . وقد كان لهذا الموقف أثر كبير ، بل نكاد نقول كل الأثر في بقاء الإسلام ضعيفا في نطاقه وعدده وقوته وفيما لاقاه النبي والمسلمون من صعوبات ومشاق وأذى طيلة العهد الذي استمر ثلاثة عشر عاماً على أرجح الأقوال . ومما هو بسبيل تأييد صورة الإسلام والمسلمين هذه تذكر آية الأنفال المدنية المسلمين بما كانوا عليه إلى نهاية العهد كما ترى فيها :

« وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

وجميع صور السيرة النبوية لهذا العهد وأحداثها – وخاصة بالنسبة للعرب غير الكتابيين – نكاد تكون متصلة بهذا الموقف أو متفرعة عنه . ويمثل هذا الموقف بصورة عامة آيات كثيرة من أصرحها وأهمها هذه الآيات :

١ — وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا

فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ... إبراهيم ٢١

٢ — وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ... النحل ٢٤ — ٢٥

٣ — يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا . وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا . . .(١)

الأحزاب ٦٦ — ٦٧

٤ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ . وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ... سبأ ٣١ — ٣٥

٥ — وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ... غافر ٤٧

(١) هاتان الآيتان مدنيتان ، ولكنهما حكاية حال جمهور الكفار الذين يدخل كفار مكة في شمولهم إن لم يكونوا هم المقصودين بالذات ، على سبيل التنديد والعظة .

الصّورة الثانية

ويبدو من إلهام الآيات القرآنية حيناً ومضامينها حيناً آخر ، أن هذا الموقف قد نشأ عن أسباب أصلية ، ثم امتزجت بأسباب أخرى متصلة بطبيعة الدعوة الإسلامية من جهة ونتيجة للتشاد الذي كان بين الزعماء والنبي صلى الله عليه وسلم وما كان من حملات متقابلة بسبيله من جهة أخرى ، وسعت الهوة ، وجعلت أكثر الزعماء يركبون رءوسهم ويعاندون في موقفهم عناداً لا هوادة فيه ، ويكابرون في المنطق والحقيقة ، ويتآمرون استكباراً وكيداً وانسياقاً بدافع الغرض والهوى واللجاج ، كما يبدو من الآيات الآتية :

١ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ... الأنعام ١١٢

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ... الحج ٧٢

٣ — وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً . وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً . وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُواً ... الكهف ٥٤ ـ ٥٦

٤ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ... الفرقان ٣١

٥ — أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً . . .

الفرقان ٤٣ ـ ٤٤

٦ — وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّازَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً . ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ ... فاطر ٤٢ ـ ٤٣

٧ — وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... يس ١٠

٨ — وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهاً وَٰحِداً إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأَخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ . أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ... صٓ ٤ ـ ٨

٩ — وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ... الزخرف ٣١

الصورة الثالثة

ولعل من أهم الأسباب الأصلية ما كان للزعامة من دور خطير في المجتمع العربي على ما نبهنا عليه في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ؛ حيث كان الزعماء وخاصة الزعماء الأغنياء ـ وكثيراً ما كان التلازم بين الغنى والزعامة في هذا المجتمع ـ يتمتعون بنفوذ السيادة : يأمرون فيطاعون ، ويدعون فيستجابون ، ويسنون فيتبعون ، وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والقضايا ، فلما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بدعوته، ويبلغ عن ربه ، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيراً ، كما لم يكن بارزاً في مجال الزعامة ، بغتوا وعظم عليهم أن يكون هذا داعية يستجاب ، ومرشداً يهتدي به الناس ، ولواء ينضوون إليه دونهم ، وقد أريد أن يكونوا هم أنفسهم من المدعوين المستجيبين المنضوين إلى هذا اللواء أسوة بسائر الناس ؛ فاستنكروا الأمر واستكبروا وقالوا إنه لو كان حقاً لكانوا هم المنتدبين للدعوة ، والمكلفين بالمهمة ؛ لأن الناس إنما يستجيبون إليهم ، وتساءلوا

كيف ينزل عليه الذكر من بينهم .كما جاء في آيات ص والزخرف وفاطر ؟ وقالوا إننا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله كما جاء في آية الأنعام ١٢٣ التي نقلناها في بحث سابق ، وهزئوا بالنبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في آيتي الأنبياء والفرقان التاليتين :

١ — وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ... الأنبياء ٣٦

٢ — وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا . . . الفرقان ٤١

ويمكن أن يدخل في الأسباب من ناحية ويمتزج بطبيعة الدعوة الإسلامية من ناحية أخرى ، ما كان من قوة رسوخ عصبية التقاليد في المجتمع العربي على ما شرحناه في كتابنا الآنف الذكر ، وما استهدفته الدعوة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية أو تعديلها كالشرك على أنواعه ، والاستشفاع بالملائكة وعقيدة كونهم بنات الله ، وما شاب الشرك من وثنية مادية ، وكالعصبية الاجتماعية الضيقة وما كانت تتشدد فيه من حزبيات عائلية وقبلية[1] ، وتنجر إليه من إسراف في الدماء والترات ، وشؤون اليتامى والمرأة والرقيق ، والتحريم والتحليل في الأطعمة والأنعام إلى آخر مافصلناه في كتابنا المذكور ، إذ كانت هذه الأهداف مما احتوته السور والفصول القرآنية الأولى ثم استمرت بدون انقطاع ولا تراخ إلى آخر العهد ،كما يتضح ذلك من تلاوة السور على حسب تنزيلها مما لا نرى حاجة إلى التمثيل له لانبثاثه في أكثر السور ، فكان ذلك كله نقاط اصطدام وتشاد ، وبواعث مناوأة ومعارضة للدعوة النبوية منذ أول عهدها . وظلت كذلك إلى نهاية العهد . ويمثل هذه المواقف منهم بوجه عام آيات عدة وردت في سور مبكرة

(١) مما رواه المفسر ابن كثير في سياق تفسير آيات سورة الأنعام ٣٣ ـ ٣٦ أن أبا جهل قال: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . أطعموا فأطعمنا . وحملوا فحملنا . وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا . والله لا نؤمن به ولا نصدقه) حيث ينطوي في هذا صورة من صور التنافس العائلي الذي كان من أسباب المناوأة للدعوة الإسلامية في العهد المكي .

ومتوسطة ومتأخرة في النزول ، مما يدل على تبكير المواقف واستمرارها ، نذكر منها الأمثلة الآتية :

١ — سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ... الأنعام ١٤٨

٢ — وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . . . الأعراف ٢٨

٣ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ... النحل ٣٥

٤ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ... لقمان ٢١

٥ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ... سبأ ٤٣

٦ ـ آيات سورة ص ٤ ـ ٨ التي نقلناها منذ قليل .

وهذه العصبية ـ وإن كانت عامّة يستوي فيها الزعماء وغيرهم ـ كان الزعماء أحرص على الاستمساك بها والدفاع عنها كما تلهم الآيات التالية :

« بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ.وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ... الزخرف ٢٢ ـ ٢٣

وفي آيات سورة ص ٤ ـ ٨ مثل هذا الإلهام ؛ إذ حكت تحريض الشرفاء « الملأ » لسائر الناس على الاستمساك بما هم عليه ، وهذا بالإضافة إلى الآيات الأخرى التي حكت استمساك الكفار بما كان عليه الآباء والدفاع عنه ، وإنما يحكي في الحقيقة أقوال الزعماء ، لأنهم هم الذين كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم ويشادّونه ؛ وحرص الزعماء

على الاستمساك بالتقاليد والدفاع عنها أكثر من غيرهم متسق مع طبائع الأشياء ، لأن كيانهم مستمد من ذلك . وخاصة في مجتمع كالمجتمع العربي في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره .

الصّورة الرابعة

ولعل من أهم الأسباب التي نشأت من طبيعة الدعوة الإسلامية والتي تتصل بالتقاليد القائمة ، خوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معاً على ما كان لهم ولمكة من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة بسبب وجود بيت الله في مكة وسدانتهم له ؛ فقد كان هذا البيت مثابة وأمناً لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم ، يؤمّونه من كل فج وصوب ، ويقيمون حوله أسواقهم . كما كانوا يعتبرون قريشاً إماماً لهم في الأمور الدينية والدنيوية ؛ وكانت هذه الإمامة تحفظ لهؤلاء عزة الجانب ووفرة الحرمة على مافصلنا في كتابنا المذكور آنفاً ؛ وكان ذلك الخوف ناشئا من أن نجاح الدعوة الجديدة سيكون سبباً لانصراف الناس عن مكة والحج ، أو تجهم العرب لمكة وأهلها، كما تلهم آية القصص التالية :

« وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ... ٥٧

ولم تبعث الفقرة الثانية في أنفسهم الطمأنينة على مايبدو ، فظلوا يرون في هذه الدعوة تهديداً لذلك المركز العظيم والمنافع الكبرى ، ويتشددون في معارضتها ومناوأتها .

ويمكن أن يدخل في الأسباب الناشئة عن طبيعة الدعوة الإسلامية ما أثاره فيهم الإنذار بالبعث والقيامة والوصف المسهب للحياة الأخروية الوارد في القرآن من عجب واستغراب ؛ لا سيما أن هذا لم يكن مما هو معروف بهذه الصراحة والإسهاب عند الأمم الكتابية التي كان لها أثر كبير في أفكار العرب ومعارفهم . ولعل هذا الموضوع من أهم مواضيع القرآن المكي الوسائلية والتدعيمية ومن أكثرها خيراً وسعة فيه ؛ وتوكيداً

وجدلا وتكذيباً ورداً وبرهنة وعظة وإنذاراً وتبشيراً ووعداً ووعيداً حوله ، حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره منه ، مما يدل من دون ريب على أنه كان من أهم المواضع التي ثار حولها الجدل واللجاج والتشادّ بين النبي صلى الله عليه وسلم والعرب . ولقد حكى القرآن كثيراً مواقف العرب منه وأقوالهم فيه بأساليب متنوعة تدل على أن موقفهم منه كان موقف المستنكر حيناً والمدهوش حيناً والمكذب حيناً والمستهزئ حيناً والمتحدي حيناً ، منذ البدء إلى النهاية . ولا نرى حاجة إلى التمثيل ؛ لأن الآيات في ذلك كثيرة جداً ومبثوثة في جل السور المكية ؛ وقد يكون أثر هذا عاماً في الزعماء وغيرهم ؛ غير أن الآيات إنما كانت تمثل جدل المجادلين الذين هم الزعماء والنابهون ، وبالتالي فإن هؤلاء هم الذين تصدّوا لتكذيب اليوم الآخر ووقفوا من الإنذار به تلك المواقف في الدرجة الأولى .

ولعله مما يتصل بهذا أن يكون ما احتواه القرآن من نعي على الأغنياء والأقوياء والزعماء لكثرة تفاخرهم وتكاثرهم بالأموال والأولاد والأنصار والأحساب ، ومن إنذاره بأن هذا كله لن يجديهم في الآخرة نفعاً وأنهم محشورون إلى ربهم فيها مجردين عنه جميعه وليس معهم إلا عملهم كسائر الناس بدون أي فرق ، مما كان يثير في هذه الطبقة قوة المقاومة والعناد والصدّ استكباراً من جهة ، ولئلا يؤثر في سائر الطبقات فتفلت من يدها قيادتها من جهة أخرى ؛ وإليك بعض الآيات في هذا الصدد :

١ — وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ … الأنعام ٩٣ ـ ٩٤

٢ — وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا . ٱلْمَالُ

وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ... الكهف ٤٥ ـ ٤٦

٣ — فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ... المؤمنون ١٠١ ـ ١٠٣

٤ — وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ . وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ... سبأ ٣٥ ـ ٣٨

« وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . ٱلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ . كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ . نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ . ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ... الهمزة

ولعل مما تكرر في القرآن من فصول المحاجة بين الزعماء والضعفاء في النار ـ مما أوردناه في الفقرة الأولى من هذا المبحث ـ ما أثار قوة العناد والصدّ في طبقة الزعماء أيضاً ؛ فما يصح أن يقال إن هذه الآيات قد استهدفت فيما استهدفته تنبيه السواد إلى أن اتباعهم الزعماء والكبراء في الكفر والتكذيب لن يغني عنهم يوم القيامة شيئاً مهما اعتذروا واحتجوا ، وأن الزعماء سيكونون في حالة عجز تام عن نصر أنفسهم فضلا عن نصرهم ؛ وفي هذا إثارة للسواد على الزعماء وتحريض على عصيانهم فيما يأمرونهم به من عدم الاستجابة إلى الدعوة ، كما فيه تهوين لشأنهم كما هو واضح . وفي سورة البقرة آيتان يتمثل فيهما هذا المعنى قويا نوردها ولو أنهما مدنيتان لاتصالها بالموضوع :

« إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ... ١٦٦ – ١٦٧

الصّورة الخامسة

وقد كانت طبيعة النبي البشرية من أسباب هذا الموقف أيضاً ، وهذا متصل بأسباب طبيعة الدعوة الإسلامية كما هو واضح ، فقد تمنى العرب أو بالأحرى نابهوهم بعثة نبيّ فيهم حقا ، ولكنهم كانوا يتخيلون أن النبي لا بد أن يكون ذا قوى خارقة يفترق بها عن طبائع البشر ، ويستطيع أن يفعل بها مالا يفعله سائر الناس من خوارق العادات والمشاهد؛ ولعل ما كان يبلغهم عن الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة وظروف نشأتهم وحياتهم مما كان يقوي صحة هذا التخيل فيهم ؛ فلما رأوا النبي مثلهم ومنهم ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ويتعرض لكل مايتعرض له الناس بطباعهم البشرية ، وسمعوه يعلن بلسان القرآن أنه لا يعلم الغيب ، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا إلا ماشاء الله ، وأنه ليس إلا بشراً مثلهم ، وليس هو جنس آخر أو ملكاً ، وأنه يتبع ماأوحاه الله إليه ويقف عنده كما جاء في آيات عدة أوردناها في فصل الكتاب الأول – جحدوا دعوى نبوّته ، وكذبوا صلته بالله وملكه ، وقالوا إن من يتصل به شيطان ، ونعتوه بالمجنون حيناً والشاعر حيناً والساحر حيناً والكاهن حيناً والكاذب والمفتري حيناً والمتعلم المقتبس من الغير حيناً ، وظلوا يكرّرون هذا في مختلف أدوار العهد المكي ، كما يفهم من الآيات العدة التي أوردنا كثيراً منها في الفصل الأول أيضاً .

والآيات – وإن كان أكثرها يحكي حكاية مواقف الكفار عامّة بحيث يصح أن يقال إنه استوى فيها الزعماء وغير الزعماء – يتبادر منها إلى الذهن أن الزعماء هم الذين كانوا يتولون كبر المشادّة والجدل ، وبالتالي أن المواقف هي مواقفهم في الدرجة الأولى ، وأنهم قد اتخذوا طبيعة النبي البشرية وسيلة لصدّ السواد عن دعوته كما كانت عاملا من

عوامل جحودهم بالذات ؛ وفي آية في سورة الأنبياء يبدو هذا واضحاً جلياً كما ترى فيها :

« لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ... ٣

إذ تصف جحود الزعماء أنفسهم وتحكي قولهم للسواد : إن النبي ليس إلا بشراً وإن ماجاء به ليس إلا سحراً .

المبحث الثالث

مشاهد وصور متنوّعة بين النبي والزعماء

ومنها صور المساومات بينهم وبينه بين الشدة والاعتدال

غرض هذا المبحث ـ إفراد مشاهد التحدي والأذى بمبحثين خاصين ـ المشاهد والصور هي مشاهد وصور الزعماء في الدرجة الأولى ـ الصور والمشاهد العنيفة ـ الإشارة إلى مشاهد وسور العلق والقلم والمدثر والمسد التي أوردناها في مبحث الخطوات الأولى ـ مشاهد من سور الهمزة ـ القمر ـ ص ـ يس ـ الفرقان ـ الأنعام ـ الصافات ـ لقمان ـ سبأ ـ الزمر ـ الزخرف ـ الجاثية ـ النحل ـ إبراهيم ـ الأنبياء ـ المؤمنون ـ الروم ـ العنكبوت ـ الحج ـ الأنفال ـ العداء الخاص الذي تشبع به بعض زعماء الكفار للنبي وأثره ـ الصور والمشاهد التي تنم عن اعتدال أصحابها : مشاهد من سور القلم ـ التكوير ـ الكافرون الفرقان ـ القصص ـ الإسراء ـ يونس ـ الأنعام ـ الزخرف ـ الكهف ـ تناقض هذه المشاهد بعد الثلث الثاني من العهد المكي وسببه ـ مواقف ومشاهد عامة متنوعة أخرى من سور النجم ـ والصافات ـ الأعراف ـ لقمان ـ المؤمنون ـ النمل ـ فاطر ـ الأنعام ـ يونس ـ فصل طويل في سورة الأنعام عن مشهد حجاجي في صدد تقاليد العرب في المحرمات ـ لفت نظر إلى التشابه بين القصص القرآنية وآيات وفصول المواقف والمشاهد بين النبي والكفار في مكة ومداه .

الصّورة الأولى

قلنا في التمهيد لهذا القسم : إن في القرآن صوراً متنوعة ومتقابلة تتراوح بين الشدّة والاعتدال ، وردت في ظروف متقاربة ومختلف أدوار العهد المكي . ونريد الآن أن نستعرض الآيات التي تتضمن هذه الصور، إذ تساعد على فهم سير أدوار وأحداث السيرة النبوية في هذا العهد .

وننبه إلى أن هنالك صوراً عدة لمشاهد التحدي ، وأخرى لمشاهد محنة الأذى والفتنة ونتائجها ، رأينا أن نفرد لها مبحثين خاصين نظراً لخطورة شأنها وبعد مداها في السيرة

والدعوة ، ولو كانت في الحقيقة مما يدخل في نطاق مشاهد وصور الجدل والمماراة والمكابرة والعنف والشدّة .

ولقد رأينا في المبحث السابق أن الزعماء كانوا هم الطرف الرئيسي المقابل في مواقف العهد المكي ـ وأنهم كانوا المتولين كبر الصد وقيادة حملة المقاومة والمعارضة والتكذيب والجدل . وسنرى في الصور التي سنستعرض آياتها مصداق ذلك بارزاً ؛ إذ هي في الحقيقة صور ومشاهد ومواقف الزعماء ؛ سواء منها العنيفة والمعتدلة ؛ إذ كان منهم العنيف البذيء القاسي الذي تبرز فيه صفات الكبر والأنانية والشدّة والمكابرة ، وكان منهم الهادئ المعتدل الذي يجنح إلى الجدل والحجاج المعتدل والذي يبدو أن تمسكه بكفره ناتج عن غفلة أو عصبية أو حياء أو خشية عدوان وفوات منفعة ... الخ .

الصّورة الثانية

وفيما يلي صور للمشاهد والمواقف العنيفة . ونلفت النظر إلى أننا رتبنا الصور على حسب ترتيب السور في النزول ، حتى يرى القارئ أن المواقف كانت تحدث في مختلف أدوار العهد المكي منذ العهد الباكر إلى النهاية ، كذلك ننبه إلى أننا أوردنا الآيات التي تبرز فيها الصور بقوة ووضوح ، وإلى أن في القرآن آيات كثيرة أخرى تمت إلى هذا الباب لم نوردها اكتفاء بما أوردناه .

(١) أوردنا في مبحث الخطوات الأولى آيات العلق ٦ ـ ١٩ والقلم ١٠ ـ ١٦ والمدثر ١١ ـ ١٩ و ٤٩ ـ ٥٢ وسورة المسد وشرحنا ملهماتها ؛ وفيها أبكر صور عنيفة لمواقف بعض الزعماء ، وأبكر حملات عنيفة قرآنية مقابلة لها . لذلك رأينا أن نشير إليها هنا لتكون الحلقات الأولى في سلسلة هذا البحث .

(٢) إن سورة الهمزة التي أوردنا نصها في المبحث السابق تتضمن حملة شديدة على الذين اعتادوا غمز الناس وعيبهم من الأغنياء ؛ والراجح أنها نزلت بمناسبة مواقف مماثلة بدت من أشخاص من أغنياء الكفار ؛ ولعلهم كانوا يلمزون النبي والمسلمين الأولين

الذين كانت أكثريتهم من الفقراء والأرقاء ، معتدّين بثرواتهم وقوّتهم ، والحملة الشديدة التي تضمنتها السورة تدل على أن هـذه المواقف كانت شديدة الأثر والوقع فاستحق أصحابها هذه الحملة بالمقابلة .

(٣) في سورة القمر الآيات الآتية :

« أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ . أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ . إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ . يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ... ٤٣ ـ ٥١

والخطاب موجه إلى كفار قريش تعقيباً على سلسلة قصص الأمم السابقة ، وما كان من تنكيل الله بها . وفي الآيات ترديد لما كان زعماء قريش يعتزون به من الكثرة ، ونعتهم بالمجرمين ؛ والحملة الإنذارية الشديدة عليهم من دلائل أن الآيات موجهة إلى أناس من الزعماء بسبب مواقف عنيفة وقفوها من الدعوة ، أضاعوا فيها صوابهم ، واعتدّوا فيها بقوّتهم وجبروتهم كما تلهم نصوص بعضها .

(٤) في مطلع سورة ص الآيات التالية :

« صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ . أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ

ٱلْوَهَّابِ. أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ. جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ... ١ – ١١

والآيات تحكي موقفاً تكذيبيا شديد العناد لزعماء الكفار ، وتحريضاً منهم للعامة على التكذيب والتمسك بدين الآباء وآلهتهم ، وترديداً لما كانوا يتبجحون به من العزة والقوة ولاستخفافهم بالنبي وتساؤلهم عن مدى صدق اختصاصه بالقرآن من دونهم. وقد تضمنت الآيات حملة شديدة عليهم وتهكماً بدعاواهم وتبجحاتهم بالمقابلة .

(٥) في سورة يسٓ الآيات التالية :

« لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلاً فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (١) . وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ٧ – ١٠

وقد تضمنت وصف شدّة العناد والمكابرة التي كان عليها الكفار بحيث لا يفيدهم إنذار ولا وعيد. والصورة مما يدخل في نطاق مواقف الكفار العنيفة الشديدة في المكابرة والإعراض كما هو واضح .

(٦) في سورة الفرقان الآيات التالية :

« وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ

(١) رافعو رءوسهم لا يستطيعون تحريكها من شدة الأغلال .

يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُوراً . ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ... ٣ ـ ٩

والآيات تتضمن حكاية مواقف تكذيب واتهام وتحدّ من الكفار متصلة بما كانوا يتخيلونه من شخصية النبي وبما كان موقفهم منه حينما رأوه على غير ماتخيلوه ذا طبيعة بشرية . والآية الأولى تمهيد ساخر لاذع منهم ، فهم يتهمون ويعترضون في حين يستخفون إلى درجة اتخاذ آلهة عاجزين كل العجز . ولا يستبعد أن تكون هذه الآيات بمثابة تعليق أو تعقيب على موقف جدل وحجاج ومكابرة بين بعض زعماء الكفار والنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ احتوت على شيء من الحوار .

(٧) في سورة الأنعام الآيات التالية :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللهِ ٱللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ... ١٢٣ ـ ١٢٤

والآيات بسبيل وصف الزعماء المجرمين وما كانوا منهمكين فيه من مؤامرات ومكر ضدّ النبي ودعوته وحمله عليهم . وفيها وصف لشدّة مكابرتهم وعنادهم واستكبارهم ، أو لعله وصف لموقف مكابرة وتحدّ تجلت فيه هذه الصفات الذميمة قالوا فيه إنهم لن يؤمنوا إلا إذا خاطبهم الله مباشرة كما يخاطب رسله ونزل عليهم آيات كما ينزلها على رسله .

(٨) في سورة الصافات الآيات التالية :

« إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ . رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ . إِنَّا

زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ . لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ . بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ . قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ . وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ . هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ . ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ . وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ . قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ . قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ . فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ . فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ . فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ . بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . . .

٤ — ٣٩

تضمنت هذه الآيات صورا لمواقف جحود وتكذيب وتحدّ وسخرية واستكبار وقفها الكفار ، واتهامات بالشعر والسحر والجنون اتهموا بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنكار للحياة الآخرية ، كما تضمنت مقابلة قرآنية وإنذارية عنيفة وساخرة ولاذعة ؛ وفيها حوار عن لسان حالهم في الآخرة وتعاتبهم وتحسرهم على ماقدمت

أيديهم في الدنيا . وهو جزء من المقابلة القرآنية .

وقد ذكرت المواقف وجاءت المقابلة بأسلوبين مختلفين : أحدهما وجاهي وثانيهما لسان حال تذكيري ، ولكنهما متصلان اتصالا وثيقاً كما يبدو منهما . والسلسلة من المجموعات المهمة التي احتوت وصف مواقف وحالات وصور متنوعة فيها عنف وشدّة .

(٩) في سورة لقمان الآيات التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٦ — ٧

والآيتان بسبيل وصف موقف عناد واستكبار وتهويش وتشويش وصد لبعض زعماء الكفار تجاه النبي والقرآن ؛ وقد تضمنت مقابلة إنذارية عنيفة تتسق مع صور الموقف .

(١٠) في سورة سبأ الآيات التالية :

١ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ... ٧ — ٨

٢ — وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ... ٢٩ — ٣١

٣ — وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَـٰداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ

وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا . . .

٣٥ ـ ٣٧

٤ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ . وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ... ٤٣ ـ ٤٩

وفي الآيات الأولى وصف موقف شديد عنيد بتكذيب الحياة الأخرى ، ودعاية تهويشية بين الناس ضد النبي صلى الله عليه وسلم بسبب إنذاره بها ؛ وواضح أنه موقف لطغاة الزعماء . وقد تضمنت ردا إنذاريا بالمقابلة ، واستمر الرد في الآيات التي تلتها أيضاً .

وفي الآيات الثانية حكاية تساؤل ساخر واستنكاري من قبل الكفار عن وقت تحقيق وعد البعث والعذاب ، وإعلانهم التصميم على الجحود بالقرآن وغيره من الكتب السماوية . والموقف موقف عناد شديد كما هو واضح ، وقد أمرت الآيات النبي صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بتوكيد مجيء ميعادهم المحتوم ، كما تضمنت بقية الآية ٣١ والآيات ٣٢ ـ ٣٣ التي نقلناها في مناسبة سابقة حكاية حالهم حينما يبعثون وكيف يعاتب بعضهم بعضاً وكيف كان الزعماء يؤلبون العامة في الليل والنهار على الجحود ، وما سيلقونه من عقاب رهيب على سبيل الرد والإنذار . والمقطع الذي أثبتناه قد يلهم أنه ترديد لموقف

حجاج مواجه كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الكفار .

وحكاية قول الكفار إنهم لن يؤمنوا بالذي بين يدي القرآن ، أي الكتب السماوية السابقة أيضاً ، في حين أنهم كانوا يثقون في الكتابيين ويطالبون النبي بمثل ماجاء به موسى والأنبياء الآخرون على ما أوردنا آياته ـ قد تلهم أن موقف الكتابيين التصديقي في مكة واستشهاد القرآن بهم وحسن شهادتهم ـ مما سوف نشرحه في فصل الكتابيين التالي ـ قد أثار غيظ الزعماء وحنقهم ؛ وفي هذا صورة لما كان من أثر إيمان الكتابيين في زعماء كفار قريش ، وبالتالي صورة من صور السيرة النبوية الطريفة ؛ ولقد جاء في آية من سورة القصص مايلهم أن زعماء الكفار كانوا يلومون الكتابيين على مواقفهم هذه وهي :

« وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَـٰهِلِينَ ... ٥٥

وهو يدعم صحة الصورة التي اقتبسناها .

والآيات الثالثة : تلهم كذلك أنها ترديد لموقف حجاج مواجه تبجح فيه بعض أغنياء الزعماء بكثرة أموالهم وأولادهم ، وبحصانتهم من العذاب بسبب ذلك ، وهو موقف عناد واستكبار وغرور كما هو واضح ؛ وقد رد عليهم القرآن مفنداً لدعواهم .

والآيات الرابعة : تصف موقف جحود شديد للزعماء ، فيه تهويش على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه اتهام بذيء . وقد توعدهم القرآن بالنكال الذي أصاب من هو أقوى منهم ، ثم أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه رد خطابي إليهم ، فيه حجة دامغة وفيه عظة وفيه تقرير قوي للحق الذي جاء به . والآية ٤٦ التي احتوت العظة عظيمة المغزى ، إذ يطلب منهم فيها أن يتفكروا منفردين أو اثنين اثنين أو مرة بعد أخرى بعيدين عن التهويش والعناد ، ويلاحظوا مايعرفونه من بعد النبي صلى الله عليه وسلم عن الجنون والخرق والغلو والمطمع الخاص ؛ وحينئذ يبين لهم الحق واضحاً ، وإذ يدل هذا الطلب على أن

تهويش المهوشين الشديدي العناد والاستكبار من الزعماء هو الذي كان يسيطر على الموقف ويجر غيرهم إليه دون أن يجدوا مجالا للمخالفة ؛ والآية في الوقت نفسه رد قوى على التهويش ؛ فالأمر يجب أن يفكر فيه مجرداً عن الهوى والعناد بعيداً عن التهويش ؛ ولعل فيها خطاباً للناس أو المعتدلين الذين يتأثرون بالمهوشين ولا يجدون مجالا للتفكير الحر المجرد . وعلى كل حال فمما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم صدع بالأمر ووجه هذا الخطاب القوى الدامغ النافذ إلى الجاحدين متكبريهم ومعتدليهم وزعمائهم وسوادهم على السواء .

(١١) في سورة الزمر الآيات التالية :

« أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنتِقَامٍ . وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ . قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . . .

٣٦ ــ ٤٠

وقد ذكر المفسرون أن الكفار كانوا يخوفون النبي من انتقام آلهتهم أو شركائهم، أو ينتظرون انتقامهم منه ، فنزلت الآيات ، ومضمونها يتسق مع هذا القول . وفيها رد لاذع على الكفار وسخرية بشركائهم الذين يخوفونه بهم وإنذار لهم بسوء المصير ،وإعلان بأن الله كافيه وكافله ، وهي بجملتها ترديد لموقف حجاج وجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الكفار العنيدين المكابرين .

(١٢) في سورة الزخرف الآيات التالية :

« وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ . وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . . .

٣٠ ـ ٣٢

والآيات تتضمن وصف حنق الزعماء المتكبرين من نبوة النبي بالذات ، لأنها لم تكن نصيب أحدهم في مكة أو الطائف ، مما ساقهم إلى الجحود والصد ، وهو تكرار للموقف الذي وصفته آيات سورة فاطر ٤٢ ـ ٤٣ وسورة الأنعام ١٢٣ ـ ١٢٤ التي تقدم شرحها ؛ ويدل هذا التكرار على أن هؤلاء الزعماء ظلوا يبدون غيظهم واستخفافهم بالنبي مرة بعد مرة. وقد سفهت الآية الأخيرة أحلامهم بقوة لاذعة ؛ فالنبوة رحمة من الله لا يؤتاها إلا مستحقها ، وليست نوعاً من التفاضل الدنيوي بين الناس والذي هو ناموس عمراني ليس غير ، واختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بها يجعله في قدره وعظمته خيراً وأسمى من زعاماتهم وأموالهم . .

(١٣) في سورة الجاثية الآيات التالية :

١ — وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْئاً ٱتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ... ٧ ـ ١١

٢ — أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ

بِئَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ... ٢٣ ـ ٢٧

وفي الآيات الأولى وصف لمواقف شديدة العناد والعنف كان يقفها الكفار ، إذ كانوا يصرون على الكفر والاستكبار ويتخذون ما يسمعونه من آيات القرآن موضوع سخرية واستهزاء ، وقد احتوت الآيات حملة إنذارية شديدة تتناسب مع أصحاب الموقف الموصوف الذين وصفوا بالأفاكين الآثمين .

والآيات الثانية بسبيل التعقيب على موقف من مواقف المكابرة والتكذيب واللجاج والتحدي ، وقفه بعض الكفار من الدعوة والإنذار بالحياة الأخروية كما يبدو من مضمونها ، وكان الغرض والهوى هو المؤثر الأقوى فيه حتى لم يعد أمل في هدايتهم ؛ والتحدي بالإتيان بالآباء إزاء الإنذار بالبعث الذي احتوته الآيات قد تكررت حكايته عنهم ، مما يدل على أنهم كانوا يكررونه في المواقف مرة بعد أخرى ، كما أن الصيغة تدل على أن هذا القول كان يوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة كلما تلا ما فيه إنذار بالحياة الأخروية .

(١٤) في سورة النحل الآيات التالية :

« إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ... ٢٢ ـ ٢٥

والآيات تتضمن وصف مواقف الزعماء المستكبرين الذين كانوا يكررون القول

عن القرآن كلما تلا النبي منه شيئاً بأنه أساطير الأولين وقصصهم ، كما تتضمن الإشارة إلى ما كان من أثرهم في إضلال الناس الغافلين والحيولولة دون استجابتهم إلى دعوة الحق .

(١٥) في سورة إبراهيم الآيات التالية :

١ — ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ... ٢ — ٣

٢ — وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ . وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ . . .

٤٤ — ٤٧

والآيات الأولى تتضمن وصفاً لشدة موقف الزعماء الجحودي وانهماكهم بالدنيا وما كانوا يبذلون من سعي في صد الناس عن الدعوة وعرقلتها .

والآيات الثانية تصف ما كان يبيته الزعماء من مكر ويحيكونه من دسائس ومكايد في سبيل عرقلة الدعوة وتنذرهم إنذاراً فاصماً . ووصف مكرهم وآثاره قوي جدا ، يدل على أنهم جعلوا الدعوة وعرقلتها وصد الناس عنها والتأليب والتهويش عليها أكبرهمهم. وهذا من دون ريب سبب بقائها في نطاقها الضيق ؛ كما أن فيه صورة لما لقيه النبي والمسلمون من شدة ومحنة وأذى .

(١٦) في سورة الأنبياء الآيات التالية :

١ — ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن

رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ . قَٰلَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ . مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ . وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ...

١ ـ ٨

٢ — وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُواً أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ . خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ...

٣٦ ـ ٤١

والآيات الأولى تتضمن وصف موقف جحود وتصام للزعماء ، وحكاية لاجتماعهم السرية بسبيل المكر والكيد للدعوة ؛ إذ كانوا يهوشون على الناس فيها مشيرين إلى بشرية النبي المماثلة لبشريتهم ، وأن ذلك غير منطبق على صفة « النبوة » كما يتخيلونها ، وأن ما يأتي به وينذر به من قبيل السحر الذي لا يليق بعقولهم أن ينخدعوا به ، أو من أضغاث الأحلام ، وأن ما يتلوه من القرآن هو من قبيل الشعر ، وإلا فليأت بالخوارق والمعجزات إن كان صادقاً كما فعل الأنبياء من قبله ؛ وقد ردت عليهم الآيات منذرة بالهلاك من جهة ومستشهدة بأهل الكتب السماوية على أن أنبياءهم كانوا رجالا

مثله يأكلون الطعام وغير خالدين . ومن المحتمل أن تكون الآيات ترديداً أو تعقيباً على موقف حجاج مواجه بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء أيضاً ، بالإضافة إلى ما فيه من إشارة إلى الاجتماعات السرية التهويشية ؛ وعلى كل حال ؛ فالآيات تتضمن صورة أو بالأحرى صوراً لشدة عناد الزعماء ومكابراتهم ومكايدهم ومساعيهم للحيلولة دون نجاح الدعوة والاستجابة إليها كما هو واضح .

والآيات الثانية تحكي كذلك موقفاً استخفافيا لزعماء الكفار ، فيه تحد للنبي وسخرية به ؛ وخاصة في أسلوب تساؤلهم عن تحقيق موعد ما ينذرهم به ؛ وقد قابلتهم الآيات بإنذار شديد بالنكال الدنيوي والأخروي متناسب مع موقف جحودهم العنيد الساخر. ويبدو من مضمون الآيات أن هذا الموقف مما كان يتكرر ومما كان يقع مواجهة .

(١٧) في سورة المؤمنون الآيات التالية :

١ — فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ... ٥٤ ـ ٥٦

٢ — بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ . حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ . لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ . قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَـٰمِراً تَهْجُرُونَ . أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ... ٦٣ ـ ٧٠

وفي الآيات الأولى تسفيه لما يظنه الأغنياء من أن ما هم فيه من نعمة دليل على عناية الله بهم ؛ ويبدوا أن هذا مما كانوا يحاجون به ويتبجحون في سبيل الزراية على المسلمين .

وفي الآيات الثانية حملة إنذارية وتسفيهية معاً على الكفار ، إذ كانوا ينكصون على أعقابهم استكباراً كلما سمعوا النبي يتلو آيات القرآن ، ويهجرونه كأنما هو قصص ؛ في حين أنهم يعرفون أن ما أتى به ليس بدعاً ، وأنه غير نكرة في عقله وأخلاقه ، ولا يصح أن يتهم بجنون .

(١٨) في سورة الروم الآيات التالية :

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ . كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ . . .

٥٨ ـ ٦٠

وفي الآيات صورة لمواقف العناد والمكابرة التي كان يقابل بها الكفار آيات القرآن مع ما احتواه من ضروب الأمثال والوعظ ، كما فيها تصبير للنبي وطمأنة له بوعد الله الحق . والآية الأخرى تدل على أن مواقف العناد والمكر قد اشتدت حتى أخذت تصل إلى الإحراج ، فأمر الله نبيه بالصبر والثبات . وسورة الروم من أواخر ما نزل من القرآن ، ومعلوم أن مكر الكفار وكيدهم قد أخذ يشتدّ في آخر العهد المكي ؛ فمن المحتمل أن يكون النبي أخذ يفكر في الخروج من مكة قبل الأوان المناسب فصبر وثبت . ولعل هـذا الظرف هو ظرف خروجه إلى الطائف ، أو ظرف اتصاله بوفود يثرب على ماسوف نذكره بعد .

(١٩) في سورة العنكبوت الآيات التالية :

« قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ

بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ من فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ... ٥٢ ـ ٥٥

وفي الآيات صورة لموقف تكرر من الكفار ، وهو تحديهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب الموعود تحدي الجاحد الساخر ، وإنذار توكيدي لهم . والإلحاح الذي حكته الآيات عنهم في استعجال العذاب يزيد الصورة قوة وعنفاً . والسورة من أواخر ما نزل من القرآن حين اشتدّ ضغط زعماء الكفار وكيدهم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يشتدّ في إنذارهم بعذاب الله ونكاله فقابلوه بهذا الإلحاح الساخر .

(٢٠) في سورة « المطففون » الآيات التالية :

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ . هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . . .

٢٩ ـ ٣٦

والآيات تضمنت وصفاً لمواقف الكفار من المسلمين ، إذ كانوا يسخرون ويضحكون منهم ويتغامزون عليهم وينعتونهم بالضالين المفتونين ؛ وقد تضمنت تسلية للمسلمين . فسينقلب الأمر يوم القيامة ويكون دور السخرية والضحك لهم على الكفار الذين سينالون جزاء عملهم .

الصورة الثالثة

(٢١) في سورة الحج بضعة مقاطع عديدة تحتوي صوراً لمواقف عناد الكفار الشديدة . وهذه السورة لم ترد في تراتيب نزول السور المكية ، لأن أكثر الروايات

على أنها مدنية . وقد أشرنا إلى الترجيح بأن أكثر فصولها مكية . وعلى كل حال فالمقاطع المذكورة تحتوي صوراً عن كفار وظروف العهد المكي فيما نعتقد . وإليك المقاطع أولا :

١ — وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ... ٣ ـ ٤

٢ — وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ... ٨ ـ ٩

٣ — وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ... ٧١ ـ ٧٤

وفي المقطع الأول وصف لفريق من الكفار دأبه الجدل في الله ، وهو جاهل ولكنه يستمع لوساوس الشياطين البغاة الذين يضلون الناس ولا يهدونهم إلا إلى النار . ويبدو من خلال الآيات دور الزعماء وأثره في إضلال الناس حتى كان منه أن انسجم بعض الناس الذين أضلوهم في رعايتهم وصاروا مثلهم يجادلون في الله .

وفي المقطع الثاني وصف لفريق آخر يجادل في الله كذلك بدون سند من علم

ولا كتاب ، وقد اعتدّ بنفسه وكان يثني عطفه خيلاء واستكباراً عن سماع كلام الله ، ويسعى في إضلال الناس وصدّهم عن الدعوة .

وفي المقطع الثالث تسفيه الكفار على عبادتهم دون الله غير مستندين في ذلك إلى علم أووحي رباني ، ووصف لمواقف بعض زعمائهم حينما كانوا يسمعون النبي يتلو من آيات القرآن ، إذ كانت تبدو على وجوههم علامات الغيظ والشر حتى ليهمون بالبطش به . وقد احتوت الآيات أولا جواباً عنيفاً قذف في وجوههم ؛ إذ هتف أن موعدهم النار وبئس المصير ؛ وثانياً تنديداً لاذعاً حيث أمر النبي بإعلانهم جهرة : أن ما يدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو ظاهر بعضهم بعضاً ، وأن الذباب الذي هو أعجز الهوام لو سلبهم شيئاً لعجزوا عن استنقاذه منه والآيات تلهم أنها ترديد أو تعقيب لموقف مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الزعماء العنيدين العنيفين .

١٢ ـ وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . .
٣٠ ـ ٣٢

وسورة الأنفال مدنية ؛ وقد قيل إن الآيات مكية ، وقد رجحنا مدنيتها وكونها بسبيل التذكير . وعلى كل حال فموضوعها من صور العهد المكي وظروفه حتماً . والآية الأولى تدل على أن حنق الكفار قد اشتدّ على النبي إلى درجة أنهم أخذوا يتآمرون على قتله أو حبسه أو نفيه ، مما سوف نتكلم عنه في مبحث محنة الأذى والفتنة ، أما الآيتان الأخريان ففيهما صورة لموقف شديد الجحود والسخرية كان يقفه بعض الكفار أو بالأحرى زعماؤهم حينما كان النبي يتلو القرآن ، إذ كانوا يستخفون ويقولون : إننا

لو أردنا أن نقول كما يقول لفعلنا وإن ما يقوله ليس إلا من قصص الأولين ومدوناتهم ، ثم يتبعون هذا بتحديهم هذا التحدّي الساخر الذي حكته الآية الثالثة ، ويعلنون به جحودهم القاطع لنبوّة النبي صلى الله عليه وسلم . ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا : إن تذكير النبي والمسلمين بهذه المواقف في العهد المدني يلهم أنها من أشدّ المواقف نكاية وشدّة ووقعاً عليهم. ولعل هذا يتضح خاصة بالنسبة للمؤامرة التي أشارت إليها الآية الأولى ؛ لأنها كانت السبب المباشر لخروج النبي من مكة مسقط رأسه ومهبط وحي الله عليه .

الصّورة الرابعة

هذا ؛ ونختم الكلام في هذا الموضوع بآيتين في سورتي الأنعام والفرقان لهما مغزى خاص ؛ وهما هاتان :

١ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً ... الأنعام ١١٢

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ... الفرقان ٣١

فهاتان الآيتان وإن كانتا بسبيل بيان طبيعة بشرية عامة تجاه الأنبياء جميعهم من جهة ، وبقصد تسلية النبي فيما كان يلقاه من الصدّ والمناوأة من جهة أخرى ، فإنهما تلهمان أن فريقاً من الزعماء قد تشبعوا بالعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ورسالته لأسباب عدة : كالأنانية والاستكبار والحنق من اختصاصه بالرسالة دونهم ، ولا يبعد أن يكون منها التنافس العائلي ؛ وأن عداءهم هذا هو الذي كان يجعلهم يصمون آذانهم عن الحق مهما كان دامغاً ويغمضون أعينهم عن الحقيقة مهما كانت ساطعة النور ، ويسكتون ضمائرهم عن الارعواء مهما كان الصوت المنبه قويا ؛ وهو الذي كان يحدوهم إلى نشاطهم العظيم في الصد والمناوأة والتعطيل وعقد الاجتماعات ووضع خطط الدعاية والإزعاج والتعجيز والتحدّي والتهويش ، فكان لذلك الأثر الأكبر فيما لقي النبي

والمسلمون من شدّة وعنت وعنف ، وفي بقاء الدعوة في العهد المكي في نطاق ضيق محفوف بالأخطار .

الصُّورة الخامسة

وهناك آيات تذكر ما ألم بأهل مكة من عذاب رباني، فرأينا أن نوردها هنا ونورد ما روي في سياقها؛ لأن ذلك نتيجة من نتائج مواقف الزعماء العنيفة . وفيه في الوقت نفسه صورة خطيرة من صور السيرة في العهد المكي .

وهذه هي الآيات حسب ترتيب نزول سورها :

١ — فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ . إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ . يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ... الدخان ١٠ — ١٦

وقد روى البخاري ومسلم والترمذي في سياق تفسير هذه الآيات حديثا عن ابن مسعود جاء فيه (إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلاّ الدخان أو يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من الجهد . فجاءوا إلى رسول الله فقالوا له : استسق الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقي لهم فسقوا فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنذرهم الله بالبطشة الكبرى وكانت يوم بدر)(١) .

٢ — وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

---

(١) انظر التاج الجامع لأصول أحاديث الرسول ج ٤ ص ٢٠٦

وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ . . .

النحل ١١٢ ـ ١١٣

والمفسرون متفقون على أن القرية هي مكة وأن في الآيتين تذكيراً بما أصاب أهلها من جوع وقحط بسبب ظلمهم وتكذيبهم لرسولهم .

٣ — وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ . وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ...

المؤمنون ٧٥ ـ ٧٧

وقد قال المفسرون : إن في الآيات إشارة إلى القحط والجوع الذي أصاب أهل مكة وما كان من عودتهم إلى الطغيان بعد أن رحمهم الله وكشف عنهم الضر وإنذاراً بعذاب أشد .

٤ — وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...

السجدة ٢١

وقد قال المفسرون: إن في الآية توكيداً للإنذار السابق بأن الله سيرسل عليهم عذابا دنيويا قبل العذاب الأخروي .

والسور الأربع مما نزل في النصف الثاني من العهد المكي : وواضح من الروايات وفيها ما هو صحيح ومن روايات البخاري ومسلم والترمذي أن النبي «صلعم» اشتد غيظه من قريش نتيجة لاستمرارهم على عنادهم ومناوأتهم العنيفة فدعا عليهم فاستجاب الله دعاءه وأصابهم القحط والجوع . فهرعوا إليه يطلبون منه الرأفة ، وظن أو رجا أن يكونوا قد ارعووا فدعا الله فكشف عنهم ولكنهم لم يلبثوا أن استمروا على موقفهم فأنذرهم الله مرة بعد مرة وكانت البطشة الكبرى في بدر حيث قتل معظم صناديدهم فكان في ذلك معجزة قرآنية .

الصّورة السّادسة

وفيما يلي صور للمشاهد والمواقف التي تنم عن اعتدال أصحابها ؛ وقد رتبنا آيات السور حسب ترتيب نزولها أيضاً ليرى القارئ أن المواقف المعتدلة كانت كتلك تحدث في مختلف أدوار العهد منذ أوله . و ننبه هنا إلى ما نبهنا إليه في القسم السابق من أننا اكتفينا بإيراد الآيات التي تبرز فيها الصور بوضوح دون غيرها مما يمت إلى الباب نفسه .

(١) في سورة القلم التي هي من أبكر السور نزولا : جاءت هاتان الآيتان :

« فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ . وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ... ٨ ـ ٩

وفيهما إشارة صريحة إلى أن بعض الجاحدين لما جاء به النبي كانوا يودون أن يساير في مبادئ الدعوة فيقابلوه بالمثل ؛ وقد أمرته الآية الأولى بعدم الاستماع لمطلبهم . وبقطع النظر عن مدى المسايرة التي كانوا يطلبونها من النبي ومدى استعدادهم للمقابلة؛ فإن المتبادر أن يكون هؤلاء من الفريق المعتدل غير العنيف في جحوده ومواقفه من النبي ؛ إذ كان يبحث عن حل وسط يقترب كل طرف من الطرفين إليه شيئاً ؛ وهكذا يصح أن يقال: إن هذا النوع من الزعماء قد أخذ يبرز منذ الخطوات الأولى للدعوة ؛ ولهذا مغزى غير يسير في صور السيرة النبوية .

(٢) ولقد نقلنا في مناسبة سابقة آيات التكوير ١٥ ـ ٢٩ ؛ والمتمعن في أسلوبها يجد فيه هدوءاً وخطاباً موجهاً إلى العقل والقلب ، وقصداً إلى الإقناع ؛ مما يلهم أن الذين وجه إليهم هم من الفريق المعتدل الذي لم يبد منه عنف في التكذيب أو الارتياب والآيات مثل تلك من أبكر ما نزل من القرآن ، وهي متصلة بما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من اتصال وحي الله به ورؤيته للملك في أفق السماء لأول مرة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

(٣) في سورة الممتحنة آيتان جاءتا بقصد تحديد موقف المسلمين من الكفار ، وهما:

« لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إنَّ الله يحبُّ المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوهم ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون ... ٨ – ٩

والآيتان تشريعيتان كما هو ظاهر . وقد ذكر رواة أسباب النزول أنهما نزلتا في مناسبة قدوم زائرة من كفار مكة من أقارب إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، فتحرجت الزوجة من قراها حتى يأذن لها النبي ، فنزلتا .

والمناسبة محتملة الوقوع ، غير أن روح الآيتين والآيات السابقة لهما منذ مطلع السورة ، تلهم بقوة أنهما أوسع شمولا من حادث الزائرة ؛ بحيث يصح أن يقال بشيء من الجزم : إنه كان في مكة طبقة من الكفار لم يعنف أفرادها في عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية ، ولم يشتركوا في الأذى والتآمر ولم يظاهروا عليهما ؛ والآيتان قد نزلتا في عهد متأخر بعد الهجرة ، وبتعبير آخر بعد صلح الحديبية وبين يدي فتح مكة ، وهذا قد يعني أن تلك الطبقة قد ظلت ثابتة في موقفها المعتدل الحيادي أو البار بشكل ما أيضا . وفي هذا كله صورة من صور مواقف الكفار من الدعوة الإسلامية متسقة مع طبائع الأشياء ، ومع الفصول القرآنية المتعددة التي أوردناها في هذا القسم .

(٤) ويتجلى في نص سورة « الكافرون » الهدوء الخطابي أيضاً كما يرى فيه :

« قل يا أيُّها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابدٌ ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين » .

وقد روى المفسرون أنها نزلت بمناسبة مراجعة الزعماء للنبي صلى الله عليه وسلم وطلبهم التبادل في عبادة الآلهة وتكريمها ، فيصلي لآلهتهم ويكرِّمها ، ويصلون هم لله ويعلنون تعظيمه . وليس في الآيات ما لا يتسق مع الرواية إجمالا . ولعل فيها ما يفسر ما أرادته آية القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » . وعلى كل حال فالمستلهم من صيغة

وأسلوب الخطاب ويستأنس من الرواية أن الذين راجعوا النبي هم من الفريق المعتدل الذي يجنح إلى المفاوضة والمناقشة والتوفيق بدون عنف .

(٥) في سورة الفرقان الآيات التالية :

« وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً . قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ... ٥٦ — ٥٧

والآية الأولى بسبيل تقرير مهمة النبي، فليس هو إلا مبشراً ونذيراً وداعياً ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ؛ وهذا مما تكرّر كثيراً في القرآن بأساليب ومناسبات متنوعة . وفيه من جهة تسلية للنبي على ما كان يلقاه من جحود الأكثرية الساحقة ، كما فيه من جهة أخرى إعلان للناس أن النبي ليس مكلفاً بإجبارهم على الاستجابة ؛ وفي هذا صورة من صور الملاينة الخطابية أو التكليف الحر كما هو المتبادر مما يمت إلى الموضوع الذي نحن فيه ببعض الصلة . والآية الثانية مما يدعم هذا المعنى ، إذ يؤمر النبي بها بأن يعلن الناس أنه لا ينتظر منهم أجراً وليس له مطمع ، وقصارى دعوته وجهده أن يرعووا فيرجعوا إلى الله ويسيروا في سبيله ؛ وأسلوبها يلهم أنها موجهة إلى أناس غير عنيفين في تكذيبهم وجحودهم وعدائهم .

ومضمون الآية الثانية أيضاً قد تكرّر مرات عديدة . ولقد ذكرت الروايات أن بعض زعماء قريش جاءوا إلى أبي طالب ، أو بعثوا إليه أحدهم وطلبوا منه التوسط إلى ابن أخيه حتى لا يستمر في تسفيههم ، وعرضوا عليه فيما عرضوا أن يغدقوا عليه المال حتى يجعلوه أغناهم إذا أراد ، وأن أبا طالب عرض الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم فأبى قائلا : إنهم لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي لما عدت عما أدعو إليه من رسالة ربي ؛ ولا نستبعد أن تكون هذه الآية بسبيل الرد على هذا العرض ، وإعلان أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتوخى جزاء ولا يضمر مطمعاً فيما حمله من رسالة ربه ، وأن الآيات ظلت تردّد هذا الرد بين حين وآخر ؛ ومن المعقول ألّا تكون هذه

المراجعات التي يمكن أن تلهم صحة وقوعها إجمالا هذه الآية وأمثالها إلا من فريق يودّ حسم الأمر بالتي هي أحسن ، دون أن يتفاقم ، وبعبارة ثانية من فريق معتدل من الزعماء أو بإلحاح هذا الفريق .

(٦) في سورة القصص آيتان ؛ أولاهما هي هذه :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ... ٥٦

ومع احتمال أن تكون الآية بسبيل تسلية النبي ـ وفي القرآن آيات كثيرة تهدف إلى ذلك ـ فإنها صريحة الإلهام أيضاً بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على اهتداء بعض الناس وانحيازهم إلى صف المسلمين بصورة خاصة ، وأنه كان يحز في نفسه ألاّ ينجح في ذلك ؛ وقد تلهم كلمة « أحببت » أن هؤلاء ممن كان بينهم وبين النبي مودة أو صداقة قبل البعثة .

وقد قال المفسرون والرواة: إنها نزلت في عم النبي صلى الله عليه وسلم أبي طالب حينما أصر على التمسك بدين آبائه عند وفاته ، والآية نزلت مبكرة نوعاً ما على الأرجح ، في حين أن أبا طالب توفي في أواخر العهد ؛ ولهذا فالنفس لا تطمئن إلى رواية نزولها عند وفاته ؛ وهذا لا يمنع أن تكون نزلت في عمه ، فمما لا شك فيه أن النبي كان يعرض عليه الإسلام من آن لآخر فيأبى ، فيحز ذلك في نفسه إذ كان شديد الحرص على هدايته شديد الحب له ؛ كما أن من الممكن أن يكون هناك غير أبي طالب أيضاً من المحببين إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين كان يتوسم فيهم الخير ، ولم يكونوا في موقف عنيف منه ، وكان يحرص على هداهم ويراجعهم من آن لآخر فيأبون خشية الرأي العام وبقوة عصبية التقليد . ولعل من الصواب أن يسلك أقارب النبي صلى الله عليه وسلم الأدنون ـ الذين كان أكثرهم ينتصرون له ويمتنع الناس عن أذاه خشية منهم ، والذين ظل أكثرهم متمسكين بدين الآباء في العهد المكي وفيهم عمه العباس وعمه أبو طالب ـ

في هذا المسلك ، ومهما يكن من أمر فالآية تدل على أنه كان بين الجاحدين زعماء وغير زعماء : أناس معتدلون محببون إلى النبي وبينه وبينهم صلات حسنة ، يتمنى بصورة خاصة أن يهتدوا ولكنهم كانوا يأبون .

أما الآية الثانية فهي هذه :

« وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... ٥٧

وقد روى المفسرون أنها نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل أحد نابهي قريش ؛ إذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن الذي تقول : الحق ، ولكنا إن تابعناك أخرجتنا العرب من مكة ، ولسنا أكثر من أكلة رأس . والرواية متسقة إجمالا مع مضمون الآية ، غير أن حكاية القول جاءت بصيغة الجمع ، الأمر الذي قد يلهم أن هذا لم يكن رأي شخص خاص وإنما هو تعبير عن رأي الكثيرين من زعماء مكة ونبهائها ، ومجيء الآية عقب الآية السابقة قد يلهم أن الآيتين متصلتان في المناسبة لا سيما أنهما ليستا مختلفتين في المدى ، فقد يكون القول الذي حكته هذه الآية هو ما كان يعتذر به أولئك الأشخاص المحببون إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذين كان يحرص على هداهم بصورة خاصة .

ومهما يكن من أمر فالآية تلهم أن أصحاب القول المحكي ، من الفريق المعتدل الذي يجنح إلى الاعتذار الهادئ ولا يعنف في الرد والتكذيب والجحود .

(٧) في سورة الإسراء الآيات التاليه :

« وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا . وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا . إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا . . .

٧٣ — ٧٥

وتتضمن الآيات مشهداً خطيراً من مشاهد العهد المكي ، ومضمونها وروحها يلهمان أن الطرف الثاني في المشهد هم زعماء معتدلون ممن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر الاتصال بهم ويتوسم الاستجابة منهم وأنهم عرضوا عليه بعض العروض حتى يتابعوه ويتخذوه صديقاً لهم وخليلا ، وأنه خطر بباله أن يتساهل بعض التساهل معهم حرصاً على هداهم ، ولكن الله عصمه؛ لأن فيما طلبوه شيئاً من الشذوذ عما أوحى الله إليه من أسس الدعوة .

وقد روى المفسرون والرواة في صدد الآيات عدّة روايات ، منها أن فريقاً من الكفار اقترح على النبي أن يسكت عن شتم آلهتهم وتحقيرها ، ومنها أن الاقتراح هو التساهل في الإبقاء على تقاليدهم مدّة من الزمن ، ومنها أن الاقتراح هو السماح لهم بتكريم آلهتهم بعض التكريم ، ومنها أن الا قتراح هو إلمام النبي بآلهتهم ـ أصنامهم ـ ولمسها كما يفعل بالحجر الأسود .

ومن هذه الروايات أنه جرى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى صلواته في فناء الكعبة مع المسلمين بقوة إلحاح المعتدلين من الزعماء الكفار ووعودهم بالاستجابة وفي أثناء تلاوته سورة النجم ـ بعض فقرات ليست منها ـ حيث قال بعد آيات « أفرءيتم اللـٰت والعزى . ومَنوٰةَ الثالثة الأخرى » هذه المقاطع : « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » ؛ فلما سجد: سجد الكفار معه وقالوا إن محمداً ذكر آلهتنا بالخير ، وأن هذا الخبر انتشر حتى وصل إلى المهاجرين في الحبشة على صورة مكبرة وهي : أن أهل مكة استجابوا للدعوة وصلوا مع النبي فعاد كثير منهم إلى مكة .

وقد فند كثير من المفسرين وكتاب السيرة الرواية الأخيرة ، وبينوا ما فيها من علل ، وقرروا أنها افتراء على النبي صلى الله عليه وسلم دسه بعض أعداء الإسلام . ومنهم من قال إن هذه المقاطع قالها الكفار رداً على النبي حينما تلا آيات النجم وذكر آلهتهم بالتسفيه والتسخيف ؛ بل منهم من قال إن الشيطان هو الذي تفوه بهذه المقاطع في معرض

الرد والدس ، أو إن الشيطان هو الذي ألقاها على لسان النبي ، وإن آيات سورة الحج ٥٢ ـ ٥٤ هي متصلة بهذا المعنى .

وروح الآيات وصيغتها وظروف نزولها تثبت من الوجهة الجدلية عدم انطباقها على أية رواية من روايات وأقوال حكاية الغرانيق ، كما أن آيات سورة الحج غير متصلة بالمرة بها كما يأتي الكلام عليها في مناسبة أخرى ؛ والرواية تشير إلى أن النبي قد قال قولا ، في حين أن الآيات تقول إنه كاد ، أي لم يقع منه قول أو فعل ؛ وسياق آيات النجم لا يمكن أن يحتمل استطراداً من هذا القبيل ، لأنه مصبوب على تسفيه الكفار ؛ وسورة الإسراء نزلت قبل منتصف العهد ولم يكن المهاجرون إلى الحبشة قد هاجروا إليها بعد ؛ هذا إلى أن النبي والمسلمين كانوا في انزعاج دائم ، وكان الضعفاء منهم في أشد أدوار محنة الأذى ، فلم يكن من الممكن أن يقيموا الصلاة جهرة في فناء الكعبة . . .

وكل ما تلهمه الآيات ما قلناه في شرحها ، وهو عرض بعض المعتدلين بعض اقتراحات تساهلية ، وميل النبي إلى الجنوح إلى شيء من التساهل حرصاً على هدايتهم ، ولكن الأمر لم يتعد الخاطر إلى الفعل ؛ ولا نستبعد أن يكون الاقتراح بعض ماذكرته الروايات التي أشرنا إليها . وهكذا يتكرر هذا المشهد الذي بدأ في أوائل البعثة فنزلت به آيات القلم : « فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » . وتكراره يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ما فتئ يبدي حرصه الشديد على كسب فريق من الزعماء لدعوته حتى ليعتلج في نفسه أن لو سايرهم شيئا ما ؛ لأن بقاء الزعماء بعيدين عنها ومعارضين لها هو الذي أبقاها في نطاقها الضيق الحرج ، كما يدل أيضا على أن الفريق المعتدل من زعماء الجاحدين كان لا يفتأ يبحث عن وسيلة إلى حل وسط يقرب بين النبي والجاحدين ؛ غير أنه لم يكن ليحصل ؛ لأن في الحل الوسط شائبة من الشرك ومساومة في دين الله الحق ، وإنما أرسل الله رسوله لمحاربة الشرك بكل أنواعه ، وليكون الدين كله لله ، وليحق الحق حتى لا يبدئ الباطل ولا يعيد : فكان أن ثبت رسوله في الموقف الذي لا يحتمل مساومة ولا تعدداً .

وجملة « لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » بنوع خاص تدل بقوة وصراحة على أن ما خطر بباله من الجنوح للتساهل قد كان شيئا غير مهم ، مما يصح أن يوصف بأنه إنما كان اجتهاداً فيه خلاف الأولى الذي في علم الله وحسب .

ولقد جاء في آخر سورة القصص الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ . وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ... (١)
٨٥ - ٨٨

وسورة القصص تأتي في الترتيب قبل سورة الإسراء مباشرة ؛ ويلمح في الآيات شيء مما جاء في آيات سورة الإسراء بصراحة أكثر ؛ إذ احتوت أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يشهد الله على المهتدي من الضال ، وتنبيهاً له بألاّ يظاهر ولا يواد الكافرين ، وبألا يدعهم يصدونه عما أنزل الله إليه ؛ وبألاّ يأتي بأي شيء فيه أي معنى من معاني إشراك أحد غير الله مع الله ؛ ويلهم هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختلج في نفسه مسايرة الزعماء شيئا ما رغبة في كسبهم إلى صفه ؛ ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء من الفئة المعتدلة التي كان لا يرى منها عنفاً في الصد والمعارضة ويتوسم فيها الارعواء .

---

(١) لقد ذكر بعض الرواة عن ابن عباس رضي الله عنه أن هذه الآيات نزلت في الجحفة في طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وأن في الآية الأولى جواباً على ما اعتلج في صدره من حرقة من جراء خروجه من مكة ، في حين روى بعض الرواة عن ابن عباس أيضاً رواية مغايرة لهذه الرواية في صدد الآيات ؛ وهذا التغاير يسوغ التوقف كما هو المتبادر . هذا بالإضافة إلى أن مضمون الآيات يسوغ ترجيح صرفها إلى موقف حجاج ومشهد مساجلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكفار وتثبيت للنبي فيه .

وتكرر الإشارات إلى هذا النوع من المشاهد؛ قد يدل على أن مفاوضات الزعماء المعتدلين ومساجلاتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتكرر من حين إلى آخر.

(٨) في سورة يونس الآيات التالية:

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ. وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ... ١٥ ـ ١٨

والآيات تتضمن حكاية موقف طلب وحجاج مواجه بين النبي وبعض الكفار، وقد روى المفسرون أن الطلب المحكي في الآية الأولى: هو قرآن لا يحتوي تسفيه أحلامهم وتسخيف عقائدهم وتقاليدهم.

ومهما يكن من أمر فأسلوب الآية هادئ يلهم بقوة أن الذين طلبوا واعتذروا وأمر النبي بمساجلتهم واعتذارهم، هم من الفريق المعتدل الذي يجنح إلى النقاش بدون عنف وقوة . . .

(٩) في سورة الأنعام الآية التالية:

« وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ١٠٩

والخطاب في « يشعركم » هو للنبي والمسلمين ويلهم أن من المسلمين من كان يتمنى

أن يستجيب الله طلب الكفار فيظهر لهم معجزة فلا يبقى لهم مجال للاعتذار فيسلموا فتنتصر الدعوة .

والذي نرجحه أن هذا لا يعقل أن يكون إلا من طرف أناس معتدلين ، كان الاتصال بينهم وبين المسلمين قائماً ، وكان موقفهم يبعث في نفوس هؤلاء أملا بارعوائهم وانضمامهم إليهم .

وفي هذا الذي تلهم الآية صورة للحالة في بعض أدوار العهد المكي ، إذ كان المسلمون على صلة مع الفريق المعتدل من الكفار ، وكان الفريقان يتحاجان ويتناظران في أمر الدعوة ، وكان المسلمون يبذلون جهدهم في إقناع الكفار ويحرصون كل الحرص على كسبهم ، وكان هؤلاء يعتذرون بالأعذار المتنوعة ، ومن جملتها أنهم كانوا يحلفون لهم بأنهم سيؤمنون إذا ما رأوا معجزة مؤيدة لنبوة النبي .

ولقد جاءت بعد قليل هذه الآية :

« وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . . .
١١١

وتلهم روحها أنها بسبيل إقناع المسلمين وبالتالي تدعم ما ذكرناه آنفاً .

وفي سورة الرعد الآية التالية كذلك :

« وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ (١) بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ

(١) في الكلام جملة مضمرة تقديرها « لما آمن الجاحدون » على اعتبار أن الإيمان إنما يكون عن انشراح صدر ورغبة ، وأن المطالب التعجيزية لا تصدر عن أصحاب النية الحسنة .

وَعْدُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ... ٣١

وتلهم روحها وصيغتها أن الجاحدين كرروا للمسلمين توكيدهم وتحديهم ، وأن هؤلاء كرروا رغبتهم وأمنيتهم .

(١٠) في سورة سبأ الآيات التالية :

١ — « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ... ٢٤ ـ ٢٦

٢ — قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ . قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ... ٤٦ ـ ٥٠

ومجموعتا الآيات تتضمن أوامر ربانية للنبي بمناقشة الكفار ومساجلتهم في الحديث. والأسلوب هادئ يلهم أن الطرف الثاني في الموقف هو من الفريق المعتدل الذي لا يعنف عند الاستماع والدعوة .

والآية (٤٦) من المجموعة الثانية لافتة للنظر . فهي موجهة إلى هذا الفريق لتدعوه إلى التفكير الهادئ الذي يكون فيما بين الواحد منهم ونفسه أو ضميره أو فيما بين اثنين فقط بعيد عن الصخب والتشويش للذين يكونان نتيجة للنقاش في الاجتماعات العامة وحينئذ يتبين له صدق دعوة النبي وكونه ليس مجنونا وإنما هو مشفق عليهم من عذاب الله ومنذر به . ولا مطمع له عندهم بأجر . ولعل في هذا صورة من صور المناوأة التي كان الزعماء العنيفون يعمدون إليها حيث كانوا على ماهو المتبادر من نص الآية وروحها

يعقدون الاجتماعات العامة للدعاية ضد النبي والتشويش على دعوته ويغلبون بذلك الفريق المعتدل على أمره فاقتضت حكمة التنزيل توجيه الخطاب إلى هـذا الفريق بهذا الأسلوب القوي النافذ إلى القلب والعقل معاً .

والصورة المذكورة قد أشير إليها بصراحة في إحدى آيات هذه السورة وهي :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَاداً وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... ٣٣

(١١) في سورة الزخرف الآيات التالية :

« أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَٰكُم بِٱلْبَنِينَ . وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ . وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰباً مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ . بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ... ١٦ — ٢٢

والآيات تتضمن تنديداً بعقائد المشركين ، وحكاية لأقوالهم واعتذاراتهم ؛ وتلهم أنها ترديد أو تعقيب على موقف حجاج مواجه بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والأسلوب هادئ وفيه حكاية أخذهم وردّهم مع النبي اعتذاراً وتقريراً ، مما يلهم أن هذا الموقف إنما كان مع الفريق المعتدل الذي يجنح إلى الأخذ والرد والاعتذار ولا يعنف ويقسو في الجحود والتكذيب .

(١٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ

وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ... ٥٧ ـ ٥٩

وقد تضمنت الآيات تعقيباً على مشهد من مشاهد الجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار . فقد سبقها آية تنفي أن يكون الله قد جعل من دونه آلهة تعبد كما ترى في هذه الآية :

« وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ... ٤٥

فقالوا ـ على ماتلهم الآيات ـ كيف هذا والنصارى أهل كتاب وأنبياء ويعبدون المسيح ؟ ثم استطردوا إلى ادّعاء أفضلية عقيدتهم بنوة الملائكة لله وعبادتهم إياهم على عقيدة النصارى بنوة المسيح لله وعبادتهم إياه ؛ والراجح أنهم بنوا هذا التفضيل على أساس أن الملائكة أقرب مماثلة لله من المسيح الذي هو إنسان له طبائع البشر ، وقد ردّت الآية عليهم بأن عقيدة بنوة المسيح وعبادته باطلتان عند الله ، ثم تبع الآيات آيات أخرى بما كان من رسالة عيسى لقومه وبأن الانحراف إنما كان من عند أنفسهم كما ترى فيها :

« وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ... ٦٣ ـ ٦٥

والمهم هنا بالنسبة لبحثنا هو أن الجدل من النوع الهادئ الذي يلهم أنه إنما كان مع الفريق المعتدل الذي يجنح إلى البحث والنقاش في حدود مايظنه المنطق .

(١٣) في سورة الكهف الآيات التالية :

« وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن

ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا . وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . . .

٢٨ ـ ٣٠

والآيات تأمر النبي بالصبر على صحبة المسلمين المخلصين مهما كان أمرهم ، وبعدم الانصراف عنهم للاهتمام لأصحاب الجاه والمال ، وعدم الاستماع لهؤلاء ، وما قد يقترحون، وبإعلان أن الحق الإلهي واضح جلي ، فمن شاء الخير لنفسه آمن ومن شاء الشر لنفسه كفر ؛ وللمؤمنين الأجر العادل من الله .

وقد ذكرت الروايات في نزول الآيات أن بعض زعماء الكفار كانوا يستطيلون على الفقراء والمساكين من المسلمين بعدم الاستجابة إلى دعوة النبي ويعيرونه بهم ، ويطلبون منه إقصاءهم عنه إذا ماجلسوا إليه أو جلس إليهم ؛ وأن النبي خطر لباله الاستجابة إلى طلبهم أملا بإسلامهم ، وأنه أخذ فعلا يتشاغل عن تلك الطبقة أحياناً وخاصة حينما يتحدث إلى الزعماء في أمر الدعوة انسياقاً وراء هذا الأمل .

وليس في الرواية مالا يتسق إجمالا مع مضمون ومدى الآية الأولى كما هو المتبادر . والمرجح أن الزعماء المحكي عنهم هم من الفريق المعتدل الذي لم تنقطع الصلة بينه وبين النبي والذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسم فيهم الاستجابة ، والمشهد من المشاهد الخطيرة في العهد المكي كما هو ظاهر .

وفي سورة الأنعام التي نزلت قبل سورة الكهف آيتان يمكن أن يكون فيهما مشهد مماثل ، وإن كانت آية الكهف أشد إيضاحا له ، وهما :

« وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ

ٱلظَّٰلِمِينَ . وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ... ٥٢ ـ ٥٣

إذ احتوت أمراً للنبي بعدم طرد أصحابه المؤمنين الذين هم على الغالب أولئك الفقراء والمساكين، وحكاية سخرية الزعماء بهم؛ وينطوي في الأمر إلهام أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هم أن يفعل ذلك ليخلي مجلسه لأولئك الزعماء.

وآيات سورة عبس ١ ـ ١٢ التي نقلناها في مناسبة سابقة احتوت مشهداً مماثلا أيضاً.

وتكرار الإشارة إلى هذا في القرآن يدل على ماهو المتبادر على تكرر المشهد بين حين وآخر، وعلى ما كان يعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من الحرص الشديد على إسلام الفريق المعتدل من الزعماء على الأقل، لأن الزعماء جميعهم على اختلافهم في الشدّة والاعتدال كانوا القدوة للناس، وكانوا المؤثر الأقوى في بقاء الدعوة في نطاقها الضيق ومركزها الحرج.

الصورة السابعة

هذا؛ ونلاحظ أولا أن الصور التي اقتبسناها للمواقف الهادئة والمعتدلة هي أقل بكثير من الصور العنيفة، وثانياً أن سورة الكهف التي كانت آخر السور مقتبساً في مشاهد هذا القسم ليست من أواخر السور نزولا، إذ يجيء بعدها سبع عشرة سورة، منها ثلاث طويلة نوعاً وثلاث متوسطة نوعاً؛ وأنه لم يبد لنا مشهد بارز طرفه معتدلون في السور التي بعد الكهف في ترتيب النزول. وقد نبهنا على هذا التمهيد إذ قلنا إن طابع الاعتدال والهدوء يضعف فيما تضمنته سور القرآن الأخيرة من مشاهد في حين أن طابع العنف والشدّة يستمر ملحوظاً في جميع السور إلى آخرها نزولا.

ويمكن أن يقال في تعليل هذا إن استمرار الزعماء الطغاة في غلوائهم الذي كان من نتيجته اضطرار عدد كبير من المسلمين إلى الجلاء عن مكة إلى الحبشة، والذي كان

من نتيجته كذلك ارتداد بعض المسلمين عن دينهم على ماسوف نذكره بعد ـ قد أثر تأثيراً شديداً في سير الدعوة أولا ، وفي الفريق المعتدل حتى انحرف في العداء والصد ، أو انكمش أكثر من ذي قبل عن الاتصال بالنبي والمسلمين ثانياً ؛ فلم تعد السور التي نزلت في الثلث الأخير من العهد المكي تردد مواقف ومشاهد طرفها الثاني معتدلون ، وانحصرت مضامين هذه السور في ترديد مشاهد الشدّة والعنف ، والتنديد بالكفار وإنذارهم بسوء المصير ، وتصبير النبي والمسلمين والتنويه بهم ووعدهم بالنصر والتأييد وحسن العاقبة ، مما يستفاد من السور المذكورة حين إنعام النظر في فصولها ؛ وقد استعرضنا أمثلة كثيرة منها في القسم الأول .

الصُّورة الثامِنة

وهناك فصول وآيات مكية عدة احتوت حملات على عقائد العرب وتقاليدهم ، ومكابراتهم ومواقفهم الجحودية بصورة مطلقة ، واصطبغ بعضها بصبغة الجدل حيناً ، والتحدي حيناً ، والتسفيه والتنديد والسخرية حيناً ؛ واستعمل فيها ضمير المخاطب كأنما كانت تلقى مواجهة ، وانطوى فيها صور ومشاهد من العهد المكي ، ومواقف مما كان يحدث بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين ـ رأينا أن نلحقها بهذا المبحث للصلة الوثيقة بينها وبين موضوعه ؛ مع التنبيه إلى أن منها ما يمكن أن يكون بين النبي والزعماء العنيفين ، ومنها ما يمكن أن يكون بينه وبين الزعماء المعتدلين وإن لم يمكن تمييز ذلك بجزم أو ترجيح .

(١) فمن ذلك آيات في سورة النجم وهي :

١ — أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ . أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ . إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ... ١٩ ـ ٢٣

٢ ـ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ . وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا ...

٢٧ ـ ٢٨

وقد وجه الخطاب في الآيات الأولى إلى المشركين بأسلوب تنديدي لاذع ؛ ومما لا شك فيه أن النبي قد خاطبهم به مواجهة في إحدى المواقف بينهم و بينه .

(٢) ومن هذا الباب آيات في سورة الصافات وهي :

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ . أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ ٱللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ . فَأْتُوا بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ... ١٤٩ ـ ١٥٧

إذ وجه الخطاب فيها إلى المشركين بأسلوب لاذع كذلك ؛ ومما لا يتحمل شكا أن النبي قد خاطبهم بها في أحد المواقف المواجهة .

(٣) ومن ذلك آيات الأعراف التالية :

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ . وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ . إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ . وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ . وَإِن

تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ...

١٩١ — ١٩٨

إذ احتوت حملة تنديدية لاذعة على شركاء العرب وأصنامهم فيها سخرية وتحدّ ، وفيها ما هو بمثابة موقف جدلي ، إذ وجه الخطاب في بعضها إلى المشركين . وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خاطبهم بهذا منددا ساخراً في موقف من المواقف المواجهة .

(٤) ومن ذلك الآيات التالية في سورة لقمان :

« أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ . .

٢٠ — ٢١

إذ احتوت تسفيهاً شديداً لما يحتج به المشركون من تفضيل اتباع الآباء ، وانطوى فيها تعقيب أو ترديد لموقف جدلي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) ومن ذلك الآيات التالية في سورة المؤمنون :

« بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ . قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ . . . ٨١ — ٨٩

إذ احتوت حكاية لموقف مكابرة للجاحدين وتعقيباً عليه وأمراً للنبي صلى الله عليه

وسلم بتوجيه الخطاب إليهم مفحماً متحدّياً . ومن الطبيعي أن النبي قد وجه إليهم الخطاب في المشاهد المواجهة بينه وبينهم .

ومن هذا القبيل آيات في سورة النمل وهي :

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَـٰلَهَآ أَنْهَـٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

٥٩ — ٦٨

والتشابه في الموقف والحوار والمكابرة كبير جداً بين الفصلين القرآنيين كما هو ظاهر ، وإن كانت حكاية إنكارهم الآخرة جاءت في آخر الفصل هنا على حين جاءت في أول الفصل هناك ، وطبيعي أنه كان في سياق توجيه الآيات مشهد من المشاهد المواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين .

(٦) ومن ذلك الآيات التالية في سورة فاطر :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ... ٣

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ... ٥ ـ ٦

٣ — ... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ... ١٣ ـ ١٧

٤ — قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ... ٤٠

ففي هذه المقاطع هتافات بالناس ، في صدد الدعوة ، احتوت تذكيراً وتسفيهاً وإنذاراً ، ولا ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجهها إلى العرب في مواقف مواجهة كانت بينه وبينهم .

(٧) ومن ذلك الآيات التالية في سورة الأنعام :

« قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ . قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ

رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٦١ ـ ١٦٥

وطبيعي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نفذ أمر ربه فوجه هذا الهتاف إلى الناس في مشهد أو مشاهد مواجهة كانت تنعقد بينه وبينهم .

ومن هذا الباب آيات سورة يونس التالية :

١ — قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . . .

١٠٤ ـ ١٠٥

٢ — قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . . .

١٠٨

إذ كانت هذه المقاطع من دون ريب توجه للناس في مشهد أو مشاهد مواجهة تنعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينهم تنفيذاً لأمر ربه .

الصورة التاسعة

(٨) ومن ذلك فصل طويل في سورة الأنعام في صدد تقاليد دينية للمشركين في الأنعام والنذور ننقله في المقطعين التاليين :

١ — وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ

أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ . وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ
وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم
بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ . وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ... ١٣٦ – ١٣٩

٢ — ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ
أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ
لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم
بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ . فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ
عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ . سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا
وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ
عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .
قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ . قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ

كَذَّبُواْ بِئَايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَاحَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... ١٤٣ ـ ١٥٣

وقد احتوت الآيات حملة تقريعية لاذعة على سخف تقاليد المشركين في الأنعام والنذور وتحليلهم وتحريمهم الكيفي ، كما احتوت تعليماً للنبي بمجادلتهم في ذلك ، وأجوبة منهم في هذه المجادلة . . . والظاهر أنهم احتجوا بما عند اليهود من محرمات وأنهم ليسوا بدعاً ، فردت عليهم أن ما حرّمه الله هو الرجس والفسق ، وأنه إذا كان حرّم على اليهود شيئاً آخر فإنما ذلك عقوبة خاصة بهم ؛ ولقد احتج المشركون بأن ما هم عليه بمشيئة الله ، فعلمت الآيات النبي الرد عليهم وتحديهم ، ثم استطردت إلى أمر النبي بإعلامهم بأن ما حرّم الله من أعمال ودعا إليه من مكارم هو وحده الذي يجب أن يتبع .

وهكذا احتوت الآيات مشهداً جدلياً أو ترديداً وتعقيباً أو تعليما لموقف جدلي مواجه قد وقع حتما تنفيذاً لأمر الله وتعليمه ، بين النبي وفريق من زعماء المشركين ، ويبدو أنه من أهم المشاهد والمواقف الجدلية الموضوعة . وأسلوب الآيات قد يلهم أن الطرف الثاني في في هذا المشهد كان فريقاً معتدلا أكثر منه عنيفاً عاتيا .

ولقد جاء بعد هذه الآيات فصل متصل بالموقف كما ترى فيما يلي :

« ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ... ١٥٤ ـ ١٥٧

إذ استمرت فيها الدعوة بقوة دامغة ، فالله آتى موسى الكتاب ثم أنزل القرآن مصدقاً لما سبقه من كتب الله بلسانهم فيه النور والهدى والرحمة والبينات ، لئلا يحتجوا بأن الكتب السابقة بغير لسانهم ولم يتيسر لهم الاطلاع عليها ودراستها ويعتذروا ويقولوا لو أنه أنزل علينا كتاب بلساننا لكنا أهدى من أصحاب الكتب السابقة .

ويتصل بالموضوع الذي احتواه القسم الأول من الآيات آيات أخرى في سورتي يونس والنحل فيها ترديد أو تعقيب أو تعليم لموقف حجاجي وتنديدي في صدد المحرمات وفي آيات سورة النحل عطف على بعض ما جاء في القسم الثاني من الآيات في صدد المحرمات اليهودية كما ترى فيما يلي :

١ — قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ . . .

يونس ٥٩ ـ ٦٠

٢ — إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . . .

النحل ١١٥ ـ ١١٨

وتكرار الكلام على الموضوع يدل على أن الحجاج في صدده ظل يتكرر ، وبالتالي على أنه من المواضيع المهمة التي كانت وسيلة للحجاج والنقاش بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين الذين كانوا على صلة ما بالنبي والمسلمين أو المشركين بوجه الإجمال .

الصورة العاشرة

ومما هو جدير بالتنبيه ومتصل بهذا الباب ، التشابه الموجود بين ما حكته القصص القرآنية عن رسالات الأنبياء السابقين لأقوامهم ومواقف أقوامهم منهم ـ سواء منها ما كان عربيا غير توراتي كقصص هود وعاد وصالح وثمود وشعيب ومدين ، أو توراتياً كقصص نوح ولوط وموسى وفرعون وبني إسرائيل وداود وسليمان ويونس الخ ـ وبين ما احتوته الآيات القرآنية من حكاية مواقف جاحدي العرب وأقوالهم ، وما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيهه إليهم من هتاف وخطاب وتنديد وإنذار ؛ ففي هذا التشابه حكمة من حكم تلك القصص ، وورودها مكررة بأساليبها المتنوعة ، إذ كانت تنزل في مناسبات مواقف الجاحدين المتكررة والمتنوعة ، لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن ما يلقاه من قومه ـ من جحود أكثريتهم الساحقة وتكذيبهم له ونسبتهم إليه السحر والافتراء والجنون ، وتحديهم إياه بالآيات والخوارق ، واتخاذه هو والمسلمين معه موضع سخرية وهزء واستخفاف ، واستكبارهم ومكابرتهم وعنادهم ومؤامراتهم ومكرهم

ومكايدهم ـ قد لقيه من قبله من الأنبياء والرسل ، وللتنديد بالجاحدين بأن ما يقع منهم قد وقع مثله ممن قبلهم أيضاً ، ولإنذارهم بأن الله محيط بهم ومنكل كما أحاط ونكل بمن سبقهم من أمثالهم ؛ وهكذا يصح أن يقال إن القصص القرآنية تحتوي بطريقة غير مباشرة صوراً لمشاهد ومواقف للجاحدين في العهد المكي الذي نزلت جميعها تقريباً فيه .

ومن هذه القصص ما جاء مسهبا ومنها ما جاء مقتضباً ، وهي منبثة في سورة الأنعام والأعراف وهود وإبراهيم والحجر ومريم وطه والأنبياء والفرقان والشعراء والنمل والقصص والعنكبوت ويس والصافات وص وغافر وفصلت والزخرف والدخان والأحقاف وق والقمر والقلم والحاقة ونوح والفجر ؛ ومن التطويل الذي لا حاجة إليه نقل نصوصها هنا ؛ وإن المتمعن فيها ثم المتمعن في الآيات والفصول التي نقلناها في هذا المبحث ، والتي سننقلها في المباحث التالية ، ليجد التماثل بينها قويا ويسلم بصحة ما نبهنا إليه في صددها .

وتنبه خاصة في هذا الصدد إلى ما ورد في القرآن ولم يرد في التوراة من قصص إبراهيم صلى الله عليه وسلم مع أبيه وقومه وأقواله ومواقفه ودعائه ، وهي مبثوثة في سور الأنعام وإبراهيم ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والزخرف ؛ في هذه القصص تنديد بالأصنام وعبادتها ، وتبرؤ إبراهيم صلى الله عليه وسلم منها ومن قومه وأبيه بسببها ، وإعلانه إسلام وجهه لله وأنه كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين ؛ وفيها تعقيبات بالدعوة إلى الاقتداء به والتنديد بجاحدي العرب بسبب شذوذهم عن الطريق الحق . وعدم ورود هذه القصص والمواقف في التوراة مما يسوغ القول أنها مما كان متداولا معروفاً في أوساط العرب كرويات ومنقولات عربية

عن الآباء إلى الأبناء استتباعاً لصلة الأبوة التي كانت متداولة معروفة بين العرب على ما ذكرناه في كتابنا عصر النبي وبيئته . وثمة حكمة من حكم التنزيل في إيرادها ، هي تذكير العرب بما كان عليه أبوهم ، والتنديد بهم لمخالفتهم إياه إلى الشرك والوثنية وبالتالى يصح أن يكون فيها مقاصد ومواقف وهتافات توجيهية للعرب السامعين كما هو المتبادر .

المبحث الرابع

الصلات بين المسلمين والكفار

بالإضافة إلى ما كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار من محاورات ومصاولات ومشادات عنيفة حيناً وهادئة أو معتدلة حيناً فقد كان يحدث مثل ذلك بين بعض المسلمين والكفار أيضاً . وإذا لم يكن هذا متصلا بالسيرة النبوية مباشرة فإن فيه صوراً من صور العهد المكي في ظل هذه السيرة وكأثر من آثارها حيث يبرر ذلك استعراض هذه الصور في مبحث خاص .

(١) في سورة يس الآية التالية :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ... ٤٧

حيث ينطوي فيها صورة لمحاورة جرت بين بعض المسلمين والكفار في صدد مبادئ الدعوة الإسلامية وبخاصة في صدد السير بالفقراء والمعوزين تنم عما كان من المسلمين من اهتمام للتبشير بهذه المبادئ والحض على إطعام الفقراء ومن الكفار من العناد والمكابرة والاحتجاج الساخر برغم ما فيه من بطلان . والصورة على كل حال من دلائل التلاقي والتساجل بين الفريقين كما هو واضح .

(٢) في سورة الأنعام الآيات التالية :

« وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . . .

٦٨ — ٦٩

والخطاب في الآية الأولى وإن كان موجهاً إلى النبي «صلعم» أو بصيغة المفرد فإن صيغة الجمع في الآية الثانية تبرر القول بأن الصورة لم تكن بين النبي «صلعم» والكفار فقط بل كان يشترك فيها غيره من المسلمين . وأنها تفيد أن المسلمين كانوا يختلطون مع الكفار ويجلسون في مجالسهم .

والآيات لا تنهي عن المخالطة . وإنما تنهي عن الجلوس مع الكفار أثناء خوضهم في آيات الله خوضا مؤذيا لنفوس المسلمين حيث يبدو من هذا أن المصالح والعلاقات كانت متشابكة بين الفريقين . ولم يكن بينهما قطيعة ولا مقاطعة . وقد توخت الآية مراعاة ذلك فلم توجب المقاطعة والقطيعة وإنما أمرت عدم الجلوس مع الكفار بدينهم حينما يخوضون في آيات الله .

(٣) وفي سورة الأنعام أيضاً هذه الآية :

« وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . . .

١٠٨

وقد روى المفسرون أن بعض زعماء قريش قالوا للنبي «صلعم» « لتكفنّ عن سب آلهتنا أو لنشتمن إلهك » فنزلت الآية . والآية في صيغة الجمع التي تلهم أنها موجهة للمسلمين حيث يتبادر أن بينها وبين الأمر الذي احتوته الآيتان السابقتان (٦٨ ـ ٦٩) اللتان أوردناهما آنفاً صلة ما . وحيث يحتمل أن يكون بعض المسلمين ردوا بسبّ شديد على الذين سمعوهم يخوضون في آيات الله خوضاً مؤذياً في مجلس من المجالس ، فقوبلوا بالمثل ، فاقتضت الحكمة تنزيل الآية على سبيل التهدئة والتنبيه .

(٤) وفي سورة الأنعام كذلك الآية التالية :

« وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ . . .
١٢١

وهذه الآية تتمة لفصل فيه إباحة بأكل ما ذكر اسم الله عليه . وقد روى المفسرون أنه كان من عادة الكفار ألاّ يأكلوا من القرابين التي تذبح لله أو لآلهتهم وأن يأكلوا ما يموت حتف أنفه بدون ذبح ومن دون أن يذكر اسم الله عليه . وأنه صار يقع جدال بينهم وبين المسلمين بسبيل ذلك فاقتضت حكمة التنزيل إيحاء الفصل . والمتصل بالموضوع هو صورة المجادلة التي كانت تقع بين المسلمين والكفار حول هذه الأمور حيث يفيد هذا ما تفيده الآيات السابقة من التعامل والتواصل والتلاقي بين المسلمين والكفار .

(٥) وفي سورة الأحقاف الآية الآتية :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ...
١١

حيث يفيد مضمون الآية أن بعض المؤمنين تحاججوا مع بعض الكفار ودعوهم إلى الإيمان كما آمن غيرهم فأجابوهم بهذا الجواب الذي فيه اعتداد ومكابرة واستخفاف بالذين آمنوا . وحيث يفيد هذا ما أفادته الآيات السابقة من التواصل والتلاقي بين المسلمين والكفار .

(٦) وفي سورة مريم الآية التالية :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ...
٧٣

حيث ينطوي في الآية صورة أخرى من صور اعتداء الكفار بما كانوا عليه من قوة ومال وحسن استمتاع وتبجحهم في ذلك على المؤمنين الذين لم يكن لأكثرهم مثل

ذلك . ومن المحتمل القوي أن يكون هذا وقع في موقف من مواقف الجدل . وأن المسلم دعا الكافر إلى الإسلام حتى ينال رضا الله وثوابه فأجابه بما حكته الآية على سبيل الزهو والاستغناء . وفي الصورة ما في الصور السابقة من دلائل التلاقي والتواصل والتحاور بين الفريقين .

(٧) وفي سورة العنكبوت هذه الآية :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَاهُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ... ١٢

وقد روى المفسرون أن أبا سفيان قال لبعض المسلمين ما حكته الآية . ومهما يكن من أمر فالآية احتوت هي الأخرى مشهداً من مشاهد الحوار والمساجلة الهادئة بين بعض المسلمين والكفار . ومن المحتمل أن المسلم ذكر الآخرة وما أعده الله للمؤمنين من نعم وثواب وللكافرين من عذاب وعقاب وطلب من الكافر أن يؤمن لينجو من العذاب والعقاب وينال النعم والثواب فأجابه بما حكته الآية من جواب فيه طرافة مع العناد والمكابرة .

(٨) ويسلك في هذا الباب ما شرحناه في البند (٨) من الفقرة (٥) من المبحث السابق من دلالة آية سورة الأنعام (١٠٨) وآية سورة الرعد (٣١) على ما كان يقع من تواصل وتحاور بين المسلمين والكفار حيث كان بعض الكفار حينما يطلب المؤمنون منهم أن يؤمنوا مثلهم يحلفون لهم إنهم مستعدون لذلك إذا ما جاءتهم آية أي معجزة تقنعهم !

المبحث الخامس
مشاهد التحدي

مدى هذه المشاهد وبواعثها ـ كثرة التحدي والموقف السلبي الذي يمثله القرآن المكي إزاءه ـ فصول قرآنية صريحة بعيدة المدى في الدلالة على الموقف السلبي من التحدي ـ ما يلهمه هذا الموقف من آثار في سير الدعوة وموقف الزعماء ـ تحديات متصلة بالقرآن خاصة ـ تحديات مقابلة لها ـ تمحل المشركين بعربية القرآن ـ القرآن ليس معجزة تحد وإنما هو معجزة بذاته ـ الموقف السلبي في صدد المعجزات . أما البراهين والخطاب والحجاج ففيها إيجابية قوية ـ ما تلهمه الآيات من حكمة الموقف السلبي ـ مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود ـ استدراك في صدد معجزات انشقاق القمر والإسراء والمعجزات المروية والتأييدات الربانية للنبي ـ المقصد من المعجزة التي كان الموقف سلبياً من تحديها ـ الإسراء والمعراج حادثان خاصان بالنبي ولا يدخلان في نطاق معجزة التحدي ـ بحث في معجزة انشقاق القمر ـ التأييدات الربانية التي تسمى معجزات لا تدخل في نطاق معجزة التحدي ـ استدراك في صدد وجوب الإيمان بقدرة الله على المعجزات ووجوب الإيمان بما أخبر به القرآن منها ـ مشهد من مشاهد العهد المدني حول الإسراء النبوي .

الصورة الأولى

من أهم مشاهد النشاد والجدل التي كانت تقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء العرب في مكة نتيجة للموقف السلبي والعدائي الذي وقفوه منذ البدء ، مشاهد التحدي المتقابلة ؛ فإن الزعماء لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم بطبيعة بشرية مثل طبيعتهم ، ورأوا في دعوته تحدياً لزعامتهم ، وتهديداً لمكانتهم ، وضربة على تقاليدهم المتنوعة ، ومبعث خوف على إمامة مكة ومركزها ومنافعها المادية والمعنوية ـ وقفوا منذ البدء موقف الإنكار والجحود والصد والتعطيل ، والتهويش والتضليل ، واستمروا في هذا الموقف الشديد العنيد ، واتخذوا نعته بالجنون والسحر والشعر والكذب والكهانة والاتصال بالشياطين والتعلم والاقتباس الخ ديدناً يكررونه في كل مناسبة ، تدعيما لذلك

الموقف ؛ وإن كان بعضهم فعل هذا مع الاعتدال وبدافع الشك والارتياب فحسب . ولم يسكت القرآن لهم على هذا الموقف بطبيعة الحال ؛ فرد عليهم منذ البدء ، ثم استمر في رده يندد بأقوالهم ويحمل عليهم حملات قارعة لاذعة ، ويكذبهم ، ويسفههم وينذرهم ويتوعدهم بمختلف الأساليب من جهة ، ويثبت النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده في موقفه ودعوته ، ويؤكد صدق دعواه وأقواله من جهة أخرى ، مما هو منتثر في مختلف السور والفصول القرآنية في مختلف أدوار التنزيل المكي ؛ وقد نقلنا منه أمثلة كثيرة فيها الكفاية .

ولقد كان من جملة ردود القرآن ، تقرير كون الأنبياء السابقين هم من البشر مثل النبي صلى الله عليه وسلم سواء بسواء ، وكون النبي ليس بدعاً في رسالته ودعوته وبشريته كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ... الفرقان ٢٠

٢ — وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ... يوسف ١٠٩

٣ — قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ... الأحقاف ٩

٤ — وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ... الأنبياء ٧ — ٨

فوقف الزعماء إزاء هذا الموقف القرآني من تحديهم ، وأخذوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات والآيات برهاناً على صدق دعواه أولا ، ثم أخذوا يدعمون مطالبهم بتحد آخر ، وهو سنة الأنبياء السابقين الذين جاءوا بالآيات والمعجزات كما ترى في الأمثلة الآتية :

١ — وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ... الإسراء ٩٠ — ٩٣

٢ — وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ... الحجر ٦ — ٧

٣ — وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً ... الفرقان ٧ — ٨

٤ — فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ . . .

القصص ٤٨

٥ — بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ... الأنبياء ٥

ولعل ماجاء في آيتي القصص والأنبياء وأمثالها من أقوالهم المحكية قد كان مع ما يحتمل أن يكونوا عرفوه من أخبار الأنبياء عن طريق الكتابيين ، بناء على ما كان يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم من قصص الأنبياء التي أخذت تنزل فصولها منذ عهد مبكر واحتوت أخبار تحدي الأمم السابقة لأنبيائها وأخبار الخوارق والآيات التي حدثت على أيديهم .

ولقد تكرر طلب الآيات من جانب الجاحدين ، أو بالأحرى زعمائهم . كثيراً حتى حكى القرآن المكي ذلك عنهم نحو خمس وعشرين مرة صريحة ، عدا ما حكى عنهم من

التحدي الضمني ومن التحدي بالإتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل عن موعده .

ولا نعدو الحق إذا قلنا إن المستفاد من الآيات القرآنية المكية أن الموقف تجاه هذا التحدي المتكرر كان سلبيا ؛ إذا ما استثنينا الإشارة إلى القرآن كآية كافية ، أو إلى احتوائه ما في الكتب السماوية كآية على صحة وحي الله به ، ثم آيات انشقاق القمر التي سنعرض لها بعد ؛ كما ترى في الأمثلة التالية :

٥ — وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ... طه ١٣٣

٦ — أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . . الشعراء ١٩٧

٧ — وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... العنكبوت ٥٠ ـ ٥١

٨ — وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ... العنكبوت ٥٣ ـ ٥٤

٩ — وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ... الملك ٢٥ ـ ٢٦

الصورة الثانية

بل هناك ماهو أبعد مدى في الدلالة على الموقف السلبي المذكور يتجلى في بعض الفصول القرآنية ، منها آيات الأنعام ١٠٩ ـ ١١١ التي نقلناها في المبحث السابق والتي استلهمنا منها أن المسلمين كانوا يتمنون استجابة الله لتحدي الكفار وإظهاره معجزة تبهتهم فيؤمنون برّاً بإيمانهم ؛ إذ اقتضت الحكمة الإيحاء بالآيات استمراراً بالموقف السلبي

ومعللا بما تأويله : «إن الله يعلم من الكفار نية العناد والمكابرة وأنه لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا إلا أن يشاء الله ، لأن الإيمان لا يتوقف على المعجزات وإنما هو منوط بحسن القصد وشرح الله صدر المرء به » .

ولعل آيات الحجر والأنعام التالية .

١ — وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ... الحجر ١٤ ـ ١٥

٢ — وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ... الأنعام ٧

من هذا الباب من ناحية توكيد نية المكابرة والعناد في الكفار ، والاستمرار في الموقف السلبي من أجل ذلك .

وفي الأنعام آية وجه الخطاب فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، تدل على أنه هو نفسه كان يتمنى أن يحدث الله على يده آية تبهت الكفار وتحملهم على الإذعان تأثراً بموقف الإعراض والصد والتحدي الذي يقفونه وهي :

« وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ... ٣٥ ـ ٣٦

والموقف والتعليل متجليان في الآيتين كما هو واضح .

وفي سورة هود آية عظيمة المغزى من ناحية شعور النبي صلى الله عليه وسلم هذا ، وهي هذه :

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟

لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
وَكِيلٌ ... ١٢

إذ تكشف عما كان يخالج نفس النبي صلى الله عليه وسلم من حيرة وضيق بسبب تحدي الكفار إياه بالمعجزات ، حتى لقد كان أحياناً يهم بتفادي تلاوة بعض مايوحى به إليه عليهم أو يكاد صدره يضيق به لتوقعه منهم التحدي .

وقد روى الرواة في صدد الآية مافيه توضيح أكثر ، إذ قالوا إن الكفار كانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى إليه الآيات القرآنية فيسخرون منه ويقولون هلا استنزلت ملكا أو كنزاً بدلا من هذه الآيات ؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحياناً !

ونعتقد أن من السائغ أن يقال إن هذا الموقف السلبي كان من عوامل تكرر التحدي من جانب الزعماء المكابرين المستكبرين وانقلاب أسلوبهم فيه إلى التعجيز حيناً كما هو ظاهر في آيات الإسراء ٩٠ ـ ٩٣ وإلى السخرية حيناً كما هو ظاهر في آيات الحجر ٦ ـ ٧ وفي آية الأنفال التالية التي وردت للتذكير .

« وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ... ٣٢

كما كان دعامة لصدهم وتعطيلهم وخبث دعايتهم ومكرهم ضد النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته أيضاً ؛ بل لعله كان من أسباب تمسك المعتدلين بجحودهم أولا ، وانجرافهم مع لمعاندين أخيراً .

الصورة الثالثة

ومن الجدير بالذكر والتنبيه في صدد هذا الموقف ومشاهده أن حجة كفاية القرآن كآية كانت سبباً لتحديات أخرى متصلة بالقرآن نفسه حكيت عن الكفار بطلب الإتيان بقرآن غيره أو تبديله أو إنزال القرآن جملة واحدة ، ثم بنعته أنه من أساطير الأولين

وأنه قول بشر وأنه مفترى ، وبقولهم إنهم لو شاءوا لقالوا مثله كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ(١) ... الأنفال ٣١

٢ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... يونس ١٥

٣ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ... الفرقان ٤ ـ ٥

٤ — وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ... الفرقان ٣٢

فكان ذلك التحدي القرآني لهم بالمقابلة بالإتيان بكتاب من عند الله أو بعشر سور مفتريات أو بسورة مثله أو بحديث منه كما ترى في الآيات التالية :

١ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... يونس ٣٨

٢ — أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... هود ١٣

٣ — قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... القصص ٤٩

---

(١) هذه الآية وإن كانت مدنية قد جاءت في جملة آيات تذكر بما كان من مواقف وأقوال الكفار في مكة .

٤ — أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ... الطور ٣٣ ـ ٣٤

ثم كان الإفحام القرآني بتقرير عجزهم أفراداً وجماعات عن ذلك ؛ كما ترى في الآيات التالية :

١ — وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ . . . (١)

البقرة ٢٣ ـ ٢٤

٢ — فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٢) ... هود ١٤

٣ — قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ... الإسراء ٨٨

٤ — فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . . . (٣)

القصص ٥٠

وهكذا تكرر التحدي من الكفار وتكرر التحدي المقابل من القرآن بحيث يصح أن يقال إنهم كلما وصفوا القرآن بوصف من تلك الأوصاف الكاذبة تحداهم القرآن تحدياً قويا مفحماً ولاذعاً يتجلى فيه الاستعلاء وتلقين الثقة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ؛ وأعلن عجزهم عن الاستجابة وكذبهم فيما يدعون ويتحدون .

---

(١) هذه الآيات مدنية وهي تسجل استمرار عجزهم عن الاستجابة للتحدي .

(٢) هذه الآية جاءت بعد التحدي الذي احتوته الآية التي قبلها .

(٣) كذلك هذه الآية فإنها جاءت بعد التحدي الذي احتوته الآية التي قبلها .

ونلفت النظر خاصة إلى آيات البقرة التي هي مدنية ، إذ تسجل وقوف الكفار موقف العاجز طيلة العهد المكي بتمامه أمام التحدي القرآني وتقرر أبدية استمرار العجز منهم بعد ذلك .

وواضح أن في هذا التحدي المتقابل مشاهد من السيرة في عهدها المكي بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين ؛ وليس من شك في أن الزعماء هم الذين كانوا الطرف الثاني لهذه المشاهد .

ومما يتصل بهذا الباب آيات في سورة فصلت يستلهم منها صورة طريفة لموقف من مواقف المشركين الحجاجية إزاء القرآن وهي :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ . لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ... ٤١ ـ ٤٤

والظاهر أن المشركين قالوا فيما قالوه في مواقف التكذيب والتحدي إن الكتب السماوية هي بغير اللغة العربية ، ورأوا في عربية القرآن شذوذاً عن ذلك فاعتبروا هذا ثغرة يمكن مهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم منها فنزلت الآيات تندد بهم لمكابرتهم وتمحلهم . وفي سورة الشعراء التي نزلت قبل سورة فصلت آيات فيها شيء من هذه الصور وهي :

« وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ . . . ١٩٨ ـ ١٩٩

مما يمكن أن يلهم أن هذا التمحل منهم وقع في أكثر من موقف واحد وظرف واحد .

هذا ؛ ونعتقد أن مما يصح قوله مع هذا كله ومع الإيجابية القوية التي تنطوي في تحدي القرآن للكفار ، أن المعجزة القرآنية إنما هي معجزة لذاتها وماهيتها وليست معجزة تحد ، أي أن القرآن لم ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم جواباً على تحدي الكفار ، بل ولم تنزل آيات منه بناء على طلب أو تحد ؛ وإن هذا كان وسيلة من وسائل المكابرة والجحود كما تلهمه آية سورة يونس ١٥ التي نقلناها وكما تلهمه هذه الآية من سورة الأعراف :

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا (١) قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... ٢٠٣

وإنما نزل عليه لاصطفائه من قبل الله بالرسالة والتنزيل ، وكان وظل تنزيله وكنه الوحي به مما هو خاص الإدراك فيه وحده ؛ وأن هذا من هذه الناحية يؤيد القول الذي قلناه استنتاجاً من نصوص القرآن عن الموقف السلبي العام تجاه تحدي القرآن .

الصورة الرابعة

وتنبه مع ذلك إلى أن الموقف السلبي الذي تمثله النصوص القرآنية لم يكن سلبيا بوجه عام إلا من ناحية الإجابة على التحدي بالإيجاب . أما من ناحية الحجاج والبرهنة والتدليل والتنبيه إلى أهداف الدعوة النبوية فإنها كانت إيجابية كل الإيجابية ؛ وهذه نقطة جديرة بالتنبيه في صدد الرسالة المحمدية وخصائصها من دون ريب .

ففي سياق الرد على جحود الكفار لوحدة الله وإشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة ، وفي سياق البرهنة على وحدة الله واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ووجوب وجوده واتصافه بصفات الكمال ، وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عقائدهم الشركية والوثنية الأخرى كعقيدة بنوة الملائكة لله ، وفي سياق إثبات حقيقة الحياة الأخرى وعذابها وثوابها وقدرة الله على إعادة الخلق الذي بدأه وما ينطوي في هذه

---

(١) يظهر أنهم كانوا يقترحون على النبي موضوعاً بعينه فإذا لم يجبهم سخروا منه قائلين: هلا اخترعتها !

الحقيقة من حكمة العدل والحق والتنزه عن البعث ، وفي سياق الدعوة إلى الأعمال الصالحة وتقبيح الأعمال السيئة على أنواعها وإثبات أن هذا إنما هو اصالح الإنسانية وخيرها وسعادتها ، وبعبارة واحدة : في سياق الدعوة إلى أهداف الرسالة المحمدية المتنوعة قد ورد في القرآن المكي آيات وفصول كثيرة جدا فيها من قوة الحجة ونصاعة البيان ، واستحكام البرهان ، وأسلوب الخطاب الموجه إلى العقل والقلب معاً ما فيه كل الإيجابية وما لا يسع أي منصف حسن النية والرغبة غير متعمد للعناد والمكابرة إلا التسليم به ، ولم نر حاجة إلى إيراد الأمثلة ؛ لأن هذه الآيات والفصول منتثرة في جميع السور المكية بل تكاد تكون نصوص القرآن المكي مقصورة عليها .

ويقال هذا كذلك فيما احتواه القرآن في سياق رده على الكفار تهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم ونعتهم إياه بالساحر والشاعر والمجنون والمفتري والكاذب وللتعلم ، ونعتهم القرآن بالمفتري وأساطير الأولين الخ ـ من الردود القوية كل القوة ، واللاذعة أنكى اللذاع ، والمفحمة أقوى الإفحام ، والدامغة أشد الدمغ ، وبأساليب تتجلى فيها صميمية النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه واستغراقه في مهمته تجلياً رائعاً مما هو منتثر في سور القرآن وقد نقلنا منه أمثلة عدة في الفصل الأول مما يصح أن يعد إيجابيا في بابه أيضاً ، كما يقال هذا بتمامه كذلك في تحدي القرآن للكفار بالقرآن نفسه أيضاً .

وهذه النواحي الإيجابية في النصوص القرآنية يصح أن تكون مفسرة لحكمة ذلك الموقف السلبي ، بحيث يصح أن يستلهم منها وأن يقال ـ وقد ألمع إلى ذلك غير واحد من الباحثين أيضاً ـ إن حكمة الله اقتضت ألّا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد عليه السلام وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوته التي جاءت بأسلوب جديد هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة ، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك

والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هـذا الأصل النقيّ البسيط ، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار أن الدعوة التي تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بهـا بالذات .

وفي هذا ما فيه من وضوح مزية الرسالة المحمدية وترشحها للخلود والتعميم . وآيات الأنبياء السابقين الخارقة حادثات وقعت وانقضت ، ولكن أسلوب الدعوة القرآنية هذا الذي اختلف كل الاختلاف عن أسلوب الكتب المنزلة على بعض أولئك الأنبياء هو أسلوب خالد حي قوي في كل زمان ومكان ببراهينه ودلائله وحيويته ونفوذه وفصاحته ومعقوليته ومنطقه وسموه ؛ ولذلك كان وظل معجزة النبوة الخالدة الكبرى من هذه النواحي .

الصّورة الخامسة

نقول ما قلناه ونحن نعرف . . .

(١) أن كثيراً من المفسرين قالوا إن آيات سورة القمر الأولى احتوت خبر معجزة انشقاق القمر فعلا فى مكة ، ورووا أحاديث عدة مؤيدة لقولهم ، وفى بعضها مايفيد أن هذه المعجزة قد وقعت جواباً على تحدي الكفار .

(٢) أن حادث الإسراء الذي ذكر بصراحة في الآية الأولى من سورة الإسراء يسلك في عداد المعجزات النبوية ، ومثله حادث المعراج الذي ذكر ضمناً على رأي بعض العلماء في بعض آيات سورة النجم .

(٣) أن في القرآن تأييدات ربانيـة للنبي صلى الله عليـه وسلم والمسلمين في بعض المواقف والأزمات وخاصة في أثناء الجهاد ، كما أن فيه مايدل على أن النبي صلى الله عليه

وسلم قد اطلع على بعض الأمور المغيبة مما عد في عداد المعجزات النبوية .

(٤) أن في كتب السيرة والحديث والشمائل روايات كثيرة عن معجزات نبوية منها ماروي أنه وقع في مكة جواباً على تحدي الكفار .

غير أننا في الحق نرى الموقف السلبي الذي تمثله آيات القرآن عاما قويا من الصعب أن ينقضه ذلك .

ونقول قبل كل شيء إننا نقصد بالموقف السلبي عدم إجابة تحدي الكفار النبي صلى الله عليه وسلم بالإتيان بمعجزة ؛ وهذا المفهوم الذي هو طابع ذلك الموقف قد صار مصطلحاً عليه في تعريف المعجزة النبوية . فإذا مااستعرضنا الآيات التي تحكي تحدي الكفار وترد عليه بصورة عامة ـ وهي كثيرة وواردة في مختلف أدوار التنزيل المكي وقد استعرضنا جملة منها ـ وجدناها تمثل ذلك الموقف تمثيلا تاماً ؛ ثم وجدنا إلى جانبها آيات كثيرة واردة في مختلف أدوار التنزيل المكي مما استعرضنا منه جملة أيضاً تؤكد أن الله لم ينزل آيات ولم يستجب إلى تحدي الكفار ؛ لأنه يعلم أن المتحدين إنما يتحدون عناداً ومكابرة وأنهم لن يؤمنوا ولو جاءتهم أقوى الآيات وأعظمها .

وإذا مادققنا في مدى آية الإسراء :

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ... ١

وجدنا أن الإسراء النبوي الذي أشارت إليه الآية لم يكن جواباً على تحد . وإنما كان حادثاً خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليريه ربه من آياته ، وأنه لم يدركه ويشعر به غيره ؛ واستطعنا بالتالي أن نقول إنه لا يدخل في مدى اصطلاح المعجزة ، ولا يصح أن يعد والحالة هذه ناقضاً للموقف السلبي العام . ونصل إلى النتيجة نفسها إذا ما دققنا في مدى آيات النجم التي قال بعض المفسرين إنها تضمنت خبر المعراج النبوي وهي :

« وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ . عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ . إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ . مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ... ١٣ ـ ١٨

وهذا بغض النظر عما هناك من أقوال وروايات مختلفة في كيفية وظروف الحادثتين ، حيث هناك روايات بأن كليهما رؤيا منامية ، أو أنهما كانا في اليقظة والجسد والروح ، أو بالروح دون الجسد ، أو بأن الإسراء كان باليقظة والروح والجسد دون المعراج الذي كان مناماً أو كان بالروح ، أو بأن حادث المعراج النبوي لم يقع وإنما الواقع الثابت هو حادث الإسراء ، أو بأن الإسراء كان في وقت والمعراج في وقت آخر ، أو بأنهما كانا في ظرف واحد ، وبأنهما وقعا في أوائل البعثة ، وفي أواسطها ، بل هناك قول بأنهما وقعا قبل البعثة بسنة .

وانشقاق القمر الذي ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآيات تشير إليه :

« ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ . وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ . حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ... ١ ـ ٥

موضوع بحث ونظر ؛ فالسورة من المبكرات في النزول أولا ، ولم يحك في السور النازلة قبلها عن الكفار تحد وطلب بإتيان معجزة ثانياً . وقد حمل بعض المفسرين تعبير « اقتربت الساعة وانشق القمر » على معنى أنه مقترب وأنه منشق على نحو « أتى أمر الله » و « اقترب للناس حسابهم » إذ المجمع عليه أن المعنى هو أن أمر الله آت لا ريب فيه وأن حساب الناس مقترب الأوان من دون شك ، وقالوا إن الآيات بسبيل ما كررت آيات كثيرة ذكره من تبدل نواميس الكون عند قيام الساعة ، مثلا :

١ — إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ . وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ . . .

التكوير ١ ـ ٣

٢ — فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ . وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ . وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ . يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ... القيامة ٧ ـ ١٠

ولم يأخذوا بالروايات المروية عن انشقاق القمر فعلا في مكة والتي فيها بعض الاختلاف (١) .

ومن الجدير بالتنبيه أن الحادث لم يشر إليه ثانية في السور والفصول القرآنية المكية التي نزلت بعد سورة القمر وهي أكثر مما نزل قبلها ، مع أنها حكت تحديات الكفار بطلب الإتيان بالآيات مرارا وتكراراً ، ومع أنها أشارت ثانية إلى أثر حادث الإسراء في آية من آيات السورة نفسها على ما ذهب إليه جمهور المفسرين وهي :

« ... وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ... الإسراء ٦٠

فهذا السكوت عن الحادث على خطورته ، وخاصة إزاء تكرار تحدي الكفار قد يلهم وجاهة توجيه الذين لم يأخذوا بالروايات وصرفوا العبارة القرآنية إلى أشراط الساعة كما هو المتبادر ، وهذا منسجم كما هو ظاهر مع الموقف السلبي العام الذي نبهنا إليه .

أما التأييدات والإلهامات الربانية للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين التي تضمنت أخبارها آيات قرآنية عدة مثل آيات سورة الأنفال هذه :

---

(١) ـ ١ في البخاري ومسلم أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين . ونقل الترمذي الحديث بزيادة . فنزلت «اقتربت الساعة . . . إلى قوله : سحر مستمر » .

٢ ـ في البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقتين فلقة فوق الجبل وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله صل الله عليه وسلم : اشهدوا .

٣ ـ في البخارى ومسلم عن ابن عباس أن القمر انشق في زمن رسول الله .

٤ ـ في مسلم عن ابن عمر قال : انشق القمر على عهد رسول الله فلقتين فستر الجبل فلقة وكانت فلقة فوق الجبال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اشهدوا .

٥ ـ فيالترمذي عن جبير بن مطعم : انشقالقمر على عهد رسولالله فصار فرقتين ، فقالت قريش: سحر محمد أعيننا ! فقال بعضهم :لئن سحرنا مايستطيع أن يسحر الناس كلهم ! وزاد غيره : فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم .

« إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ... ٩ ـ ١٣

ومثل الذي جاء في سورة الأحزاب :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ... ٩

ومثل الذي جاء في سورة التحريم :

« وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ... ٣

فإنها كما هو ظاهر من نصوصها وروحها لا تدخل في عداد معجزات التحدي ، وبالتالي فإنها ليس من شأنها نقض الموقف السلبي العام الذي تمثله الآيات القرآنية .

بقيت المعجزات المروية وخاصة التي يقال إنها وقعت في مكة بناء على تحدي الكفار ، ونعتقد أننا على صواب إذا قلنا إن سكوت القرآن عنها مع كثرة تحدي الكفار ، واقتصار الأجوبة القرآنية على السلب ـ لا يمكن أن يشجعا على التسليم بصحتها . هذا

إلى أن الروايات غير متواترة ولا وثيقة ، وكثير منها إن لم نقل أكثرها لم ترد في المدوّنات الصحيحة أو القديمة . إلى ما فيها من تخالف كبير في الوقت نفسه .

وفي سورة الإسراء آية على جانب عظيم من الدلالة والمدى في صدد ما نحن بسبيله وهي :

« وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ... ٥٩

حيث تضمنت تقريراً ربانياً صريحاً بأن الله عز وجل امتنع عن إظهار المعجزة على يد النبي صلى الله عليه وسلم إجابة على تحدي الكفار . وتعليلا صريحاً لذلك وهو أن الأمم السابقة قد كذبت بالآيات التي أظهرها الله على أيدي أنبيائه وأنها لم تحقق المقصود منها . ويلحظ أن هذه الآية نزلت بعد سورتي النجم والقمر بمدة غير قصيرة . وهي من السورة التي فيها الآية التي تذكر حادث الإسراء النبوي . وهذه الملاحظة مهمة جداً إذ أن الآية تتعارض مع معجزة انشقاق القمر إذا صحت الأحاديث الواردة في ذلك وتكون ناقضة لها . والقرآن يمنع احتمال التعارض والتناقض فيه على ما جاء في آية سورة النساء هذه :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ... ٨٢

وواضح أن تقريراتنا ليست بسبيل إنكار المعجزة واستحالة خرق العادة على الله على يد نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإنما هي بسبيل توكيد الموقف السلبي من التحدي بالمعجزة الذي تمثله الآيات القرآنية . أما ما يخرج عن نطاق اصطلاح معجزة التحدي فإنه لا يصح أن يكون ثمة أي ريب في وقوع تأييدات ربانية للنبي يصح أن تسمى معجزات ولو لم تكن من معجزات التحدي ، ومنها ما أخبر به القرآن على ما ذكرنا من أمثلته ، وفيه تأييد حاسم ؛ هذا إلى أن المعجزة الربانية على أيدي أنبياء الله

مما أخبر بوقوعه القرآن بنصوص صريحة، والإيمان به جزء لا ينفصل عن الإيمان بالقرآن ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم، مع اليقين بقدرة الله عليها وهو الذي بدأ الخلق وبيده ملكوت كل شيء في كونه الأعظم، مع التنبيه إلى أن كثيراً من الروايات المحتوية أخبار المعجزات النبوية مما يحتمل التوقف ويدعو إلى التحفظ، وإلى أن أقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه.

الصورة السادسة

هذا؛ ولقد أشرنا إشارة خاطفة إلى آية في سورة الإسراء قلنا إنها تتضمن خبر أثر حادث الإسراء النبوي، وهي الآية التالية:

«... وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ...» ٦٠

وقد رأينا أن نعود إليها لأنها تتضمن مشهداً من مشاهد العهد متصلا بالحادث المذكور الذي تناوله الكلام في هذا المبحث.

ومع أن هناك من قال إن الرؤيا المذكورة في الآية هي رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم المنامية التي رآها في المدينة بدخوله الحرم والتي ذكرت في سورة الفتح هكذا:

«لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ...» ٢٧

كما أن هناك من قال إنها رؤيا منامية رآها النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن التي تقع بعده ــ مما فيه تكلف ظاهر ــ فإن الجمهور على أنها عنت حادث الإسراء. وهذا القول متسق مع مدى الحادث من جهة ومع الروايات الواردة عن ظروفه وأثره من جهة أخرى. ولقد قال الزمخشري: إن تعبير «الرؤيا» هنا يعني رؤيا البصر والبصيرة وليس رؤيا النوم؛ وهذا هو المعقول للحادث ومدى الآيات؛ لأن رؤيا النوم ليس من شأنها أن تكون

فتنة للناس أو أن تثير شكا وجدلا ، ولأن آية الإسراء الأولى لا تساعد على القول بأن حادث الإسراء كان مناما إذا ما أنعم النظر فيها بالرغم من ذكر بعض الروايات ذلك .

وعبارة الآية (٦٠) تلهم أن حكمة الله شاءت أن يكون هذا الحادث الروحاني النبوي اختباراً وفتنة للناس ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قص مُشاهداته فيه على الناس فكان فتنة لهم . ولم يزدهم هو والإنذار بشجرة الزقوم الأخروية إلا طغيانا كبيرا .

ولقد وردت روايات في صدد هذا الموقف تتسق إجمالا مع ما تلهمه الآية ؛ وملخصها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح من ليلة الحادث جاء إلى فناء الكعبة وحدّث الناس بأنه أسرى به الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكان من المستمعين أبو جهل ، فلم يفاجئه بالتكذيب والإنكار خشية إنكاره وتراجعه ، بل سارع إلى الناس يدعوهم إلى استماع القصة من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سارع إلى دعوة أبي بكر رضي الله عنه قائلا له : إن صاحبك يزعم أنه أسري به اللية من مكة إلى بيت المقدس ثم أصبح في مكة ، وأن أبا بكر سأل : أو قال ذلك ؟ فلما أكد له قال : إنه لصادق ، ولو أنه أخبر بأنه عرج به إلى السماء لكان صادقا ؛ وإنه ليخبرنا أن خبر السماء ليأتيه في لحظة فنصدقه ! ثم جاء إلى الكعبة واستمع إلى النبي ثانية فصدقه وأيده ؛ وأن أبا جهل ورفاقه اقترحوا على النبي أن يصف لهم بيت المقدس فكشف الله عن بصره ثانية وأخذ يصفه فأذهل الناس ، ولكن أبا جهل ورفاقه المعاندين المستكبرين كذبوا واستنكروا واستغلوا قصة الحادث في الصد والتكذيب أيضا حتى استطاعوا أن يؤثروا في بعض المسلمين فافتتنوا وارتدوا عن الإسلام[1] .

---

(١) انظر ابن هشام . ج ٢ ص ١ ــ ٢٠ وتفسير سورتي الإسراء والنجم في كتب تفسير الطبري وابن كثير والخازن والبغوي .

المبحث السادس

محنـــة الأذى والفتنة ونتائجها

مدى وأثر هذه المحنة ـ أولى الإشارات القرآنية إلى الفتنة ودلالة تبكيرها ـ الطبقة الفقيرة غرض المحنة الأولى وبواعث ذلك ـ الإشارة إلى الهجرة الأولى إلى الحبشة وسببها ـ التشجيع القرآني على الهجرة ـ هجرة أبناء بيوتات قرشية ومداها ـ تعليق على هجرة جعفر بن أبي طالب ـ تعليق على اختيار الحبشة دار هجرة ـ تعليق على عدم محاولة الزعماء منع المهاجرين ـ تعليق على غمز المستشرقين للمهاجرين ـ إشارة قرآنية ثانية إلى هجرة ثانية لبعض المفتونين ومداها ـ مشهد لارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر وملابساته ـ حادث تبديل آية قرآنية بأخرى واستغلال الزعماء له وأثره ـ إشارات قرآنيـة إلى تبرم المسلمين بالمحنة ـ محنـة بعض المسلمين بآبائهم الكفار ـ أسلوب من أساليب الزعماء في الصد والفتنة ـ تشجيع قرآني على الهجرة إلى يثرب وأثرها العظيم ـ إشارة تنويهية إلى من قتل من المهاجرين ومداها وملابساتها ـ قرائن قرآنيـة عدة في صدد محنة الأذى ـ نصوص قرآنية مدنية في التعقيب والتذكير بالمحنة ودلالتها ـ نصوص خاصة بشخص النبي ـ تفكير النبي بالنزوح عن مكة في أواسط العهد المكي ـ مؤامرة الزعماء على شخص النبي وبواعثها ـ هجرته مع أبي بكر وأثرها الأعظم ـ ترجيح عدم وقوع أذى بدني على النبي في مكة ـ نصوص مدنية في استمرار المحنة على ضعفاء المسلمين في مكة بعد الهجرة ـ فرار المؤمنات من مكة ومداه ـ بحث في موضوع مقابلة المسلمين الأذى بالمثل في مكة واستعراض آيات قرآنيـة في صدده .

الصورة الأولى

لم يكتف الزعماء بمواقف الصدّ والمعارضة والتحدي النظرية ، بل إن بغاتهم تجاوزوا ذلك إلى إيقاع الأذى على المسلمين واضطهادهم وفتنتهم [1] عن الإســلام إلى الكفر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

---

(١) جاءت كلمة الفتنة ومشتقاتها في القرآن بمعنيين : معنى الابتلاء والاختبار كما هو في الأمثلة التالية :
١ ـ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا .
٢ ـ وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، ومعنى رد المسلمين عن دينهم كما هو في الأمثلة التالية :
١ ـ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا . .
٢ ـ والفتنة أكبر من القتل . . . وواضح أن البحث هنا هو فيما تناوله المعنى الثاني .

وقد كان لهذا التصرف منهم أثر خطير في سير الدعوة في العهد المكي بطوله ، بل يصح أن يقال إنه من أهم أحداث هذا العهد وأبعدها أثراً إن لم نقل إنه أهمها . ولقد احتوى القرآن آيات وفصولا فيها مشاهد وصور متعددة لهذا الموقف ونتائجه ، كما أن آيات القرآن تدل على أن هذه المحنة قد بدأت منذ الأدوار الأولى للدعوة ثم استمرت طيلة العهد المكي ، وأن بعض مستضعفي المسلمين ظل يكتوي بنارها إلى السنة الثامنة من العهد المدني . أما أهم نتائجها فهي الهجرات الأولى والثانية إلى الحبشة والثالثة إلى يثرب ، ولجوء النبي صلى الله عليه وسلم قبل هذا إلى الطائف .

الصُّورَةُ الثَّانيَة

وسورة البروج هي أول سورة احتوت إشارة إلى فتنة المؤمنين والمؤمنات ؛ وقد جاءت آياتها كتمهيد احتوى إشارة إلى حادث فتنة وتحريق وقع على بعض المؤمنين في تاريخ سابق وحملة على المعتدي كما ترى فيها :

« وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ . وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ . وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ . ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ . ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... ١ — ٩

وقد روى المفسرون في صدد هذه الآيات التمهيدية روايات[1] منها أن تلميذاً لساحر أسلم على يد راهب نصراني في اليمن ، فعذب الملك الراهب والولد وقتلهما ، وقد ظهرت لهما بعض الكرامات بعد موتهما فأسلم الناس وتركوا دينهم القديم ، فأمر الملك بحفر أخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء من لم يتب ويرجع عن دينه منهم فيه . ومنها أن بعض أحبار اليهود رحلوا من يثرب إلى اليمن وتمكنوا من تهويد ملكها

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير الطبري والبغوي والطبرسي وابن كثير وتاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ج ٣ ص ١٦٥ — ٢٠٩

المدعو بذي نواس ، وكان في اليمن نصارى فحرض الأحبار الملك على اضطهادهم ليرجعوا عن النصرانية إلى اليهودية ولكنهم امتنعوا فأمر الملك بحفر الأخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء المعاندين منهم في النار .

ومهما يكن من أمر فإن روح الآيات واكتفاءها بالإشارة الخاطفة إلى أصحاب الأخدود يلهم أن سامعي القرآن من العرب كانوا يعرفون حادث الأخدود وفتنة الناس به عن دينهم من دون ذنب إلا الإيمان بالله ، وأنه كان مما يثير في نفوسهم الامتعاض والنقمة، فأشير إليه في مطلع السورة تمهيداً تنديدياً بالذين ارتكبوا مثله من زعماء مكة في حق الذين آمنوا بالنبي في مكة .

أما الآيات التالية لهذه الآيات فالإجماع منعقد على أنها بصدد حوادث اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم ، وروح الآيات ومضمونها يؤيدان هذا الإجماع ، وهذه هي الآيات :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ . إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ . وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ... ١٠ — ١٤

وقد احتوت الآيات إنذاراً شديداً للفاتنين إن لم يتوبوا ويرتدعوا عن إثمهم ،وتنويها بالمؤمنين وطمأنة لهم، وسورة البروج من السور التي نزلت مبكرة جداً ، وهذا يدل على أن الزعماء قد أخذوا يؤذون المسلمين منذ عهد مبكر من الدعوة .

ويفهم من الروايات المروية عن هذه المحنة أنها أكثر ماوجهت إلى الأرقاء والمستضعفين من رجال المسلمين ونسائهم . ويبدو أن الزعماء لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم مستمراً في دعوته رغم مابدا منهم لها من معارضة ومناوأة وتكذيب وصد ، ورأوا أنها أخذت تستجاب من مختلف الطبقات، وخاصة الطبقات الفقيرة والضعيفة التي رأت فيها ملاذاً وفرجاً وطمأنينة

نفس ، ورأوا أن النبي يشجع هـذه الطبقة بتلقين القرآن ويدعو إلى البر بها ويهتم لأمرها وتحريرها ورفع مستواها ، في حين أن الجماهير إنما كانت تتألف منها وكانت تقاسي الاضطهاد منهم على ما ذكرناه قبل ، خشوا أن يستشري أمر الدعوة ويتسع في هذه الطبقة فتكون الثغرة التي ينفذ منها إليهم ، وينهدم بها كيانهم ، فجنحوا إلى سدها منـذ البدء باضطهاد من في حوزتهم من أرقاء ، ومن يقدرون عليه من مستضعفين ، وإجبارهم على الرجوع عن الدين الجديد ، كمناوأة عملية للدعوة ، ووسيلة لتخويف من تحدثه نفسه من عامة الناس وضعفائهم وفقرائهم بالالتحاق بها .

ولقد رويت روايات عدة عن هذه المحنة[1] يفهم منها أنها كانت من أشد ما أهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين هماً عظيما ، وأنه كان من صورها أن يعرى المسلم ويطرح فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة حرارة الشمس ، ويوضع على أجسادهم الصخور الثقيلة ، ويمنع عنهم الماء والطعام ، وتقيد أيديهم وأرجلهم بقيود الحديد ، ويجلدوا بالأسواط شديد الجلد ، وأنه كان من نتائجها إزهاق أرواح بعضهم فضربوا مثلا خالدا على التمسك بالعقيدة وتحمل أنواع الأذى والتضحية بالنفس في سبيلها ، وأن بعضهم كان يضطر إلى إعـلان براءته من الإسـلام وعودته إلى الشرك ، وأن بعض أغنياء المسلمين وخاصة أبا بكر رضي الله عنـه كانوا يشترون الأرقاء المضطهدين من مالـكيهم وينقـذونهم من الاضطهاد . وهنـاك روايات يستفاد منها أن عـدداً من الذين لهم عصبيات قرشيـة اضطهدوا أيضاً بأساليب مختلفة من قبـل ذويهم ، استياء من تبديلهم دينهم وتحولهم عن تقاليدهم ، ومنعاً لاستشراء أمرهم وعدواهم أيضاً . فكان ذلك سبباً لهجرة كثير منهم إلى الحبشة على ماسوف يأتي شرحه بعد .

ويلتفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين في الآيات ، وما في ذلك من دلالة على أن من النساء من سارعن إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم منذ البدء وبالرغم عن ضعفه وما كان يلقاه المسلمون من أذى واضطهاد ، وعلى أن منهن من تعرضن

(١) انظر كتب التفسير السابقة الذكر أيضا .

فعلا للأذى والفتنة . وفي الروايات أسماء نساء مسلمات زهقت أرواحهن في سبيل التمسك بدينهن الجديد كالرجال .

الصورة الثالثة

وسورة النحل – التي يجيء ترتيب نزولها متأخراً بعض التأخر ويدل على أنها نزلت في أواسط العهد المكي – قد احتوت إشارتين إلى هذه المحنة وإلى الهجرات كنتيجة لها : الأولى في الآيتين . التاليتين :

« وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . . .
٤١ – ٤٢

وفي الآيتين صراحة بأن الهجرة في الله إنما كانت بعد الظلم الذي وقع على المهاجرين ، كما أنهما احتوتا بشرى بعناية الله بهم وبتبوئتهم في هجرتهم مبوءاً حسناً ، وتنويها بما كان من صبرهم واعتمادهم على الله . وكل هذا يدل على ما كان يلقاه المستضعفون من المسلمين من الأذى وعلى ما كان من صبرهم وقوة إيمانهم وروحهم إجمالا .

ومن الجدير بالذكر أن سورة الزمر التي يجيء ترتيبها قبل سورة النحل بقليل ، قد احتوت آية فيها حث على تقوى الله والتمسك بدينه وتشجيع على الهجرة كما يستلهم منها وهي :

« قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ... ١٠

فكأنما جاءت هذه الآية بالإذن للمظلومين بالهجرة ، ثم جاءت آيتا النحل تحتويان إشارة إلى إقدامهم عليها فعلا[١] .

---

(١) مما يؤيد صحة استلهامنا بأن آية الزمر في صدد تشجيع الهجرة ، آية في سورة النساء ربطت الهجرة بأرض الله الواسعة وهي هذه : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . . ٩٧ »

وليس ثمة محل للشك في أن آيتي النحل قد تضمنتا الإشارة إلى الهجرة الأولى التي كانت إلى الحبشة في أواسط العهد المكي والتي تواترت الروايات فيها حتى بلغت مبلغ اليقين . وكانت على دفعتين . حيث خرج في الدفعة الأولى أحد عشر رجلا وأربع نساء وفي الثانية ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة .

ولقد ذكرت الروايات أن النبي (صلعم) قال للمسلمين لما اشتد الأذى عليهم: «لو خرجتم إلى الحبشة . فإن فيها ملكا لا يظلم عنده أحد . وهي أرض صدق . حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه». فخرجت الدفعة الأولى وكلهم من قريش عدا اثنين كانا من حلفائهم .وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله . وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو . والزبير بن العوام من بني أسد . ومصعب بن عمير من بني هاشم. وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة . وأبو سلمة من بني مخزوم وزوجته أم سلمة بنت أمية بن المغيرة . وعثمان بن مظعون من بني جمح . وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي وزوجته ليلى . وأبو سبرة بن أبي رهم العامري . وحاطب بن عمرو بن عبد شمس .وسهيل بن بيضاء من بني الحارث. وعبدالله بن مسعود حليف بني زهرة رضي الله عنهم .

وبعد شهرين من وصولهم إلى الحبشة بلغهم أن قريشا أسلمت فعادوا إلى الحجاز فوجدوا الخبر غير صحيح . وعاد ذووهم إلى أذاهم واشتد الأذى على غيرهم فخرجت الدفعة الثانية التي كانت نحو ثمانية أضعاف الأولى . وفيهم معظم الدفعة الأولى . ومعظمهم كذلك من قريش . من بني هاشم. وبني أمية. وبني أسد . وبني عبد شمس . وبني نوفل . وبني عبد بن قصي . وبني عبد الدار . وبني زهرة . وبني تيم . وبني مخزوم . وبني جمح . وبني سهم . وبني عدي . وبني عامر . وبني الحارث . ومعم نفر من حلفائهم من هذيل وبهراء ودوس وعنز وزبيد واليمن . ومن الرجال والنساء القرشيين من كان آباؤهم أو زعماء أسرهم أو أعمامهم من أشد المناوئين للنبي (صلعم) .

وهذا الشرح يزيل ما قد يكون علق في بعض الأذهان من أن المهاجرين كانوا من الفقراء والمساكين . ومن أن القرشيين كانوا ـ وظلوا ـ ممتنعين عن الإسلام في العهد المكي .

ويظهر أن زعماء الكفار استعظموا أن يكون أبناؤهم أو أبناء عشائرهم من رجال ونساء قد استجابوا إلى الدعوة الإسلامية ورأوا في ذلك إحباطا لجهودهم في مناوأتها . وإغراء لعامة الناس فاشتدوا في أذاهم واضطهادهم فاقتضت حكمة الله ورسوله الإذن لهم بالهجرة .

وباستثناء النفر من حلفاء قريش ونسائهم لا تذكر الروايات أسماء أرقاء ومساكين في جملة المهاجرين . وقد تبادر لنا تعليلا لذلك أن ضغط زعماء قريش كان أكثر شدة على أبناء أسرهم لأنهم تحسبوا من عواقب إسلامهم بالنسبة لعامة الناس وسائر شباب الأسر في حين أنه لم يكن ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والأرقاء ، والفقراء والغرباء . وهذه صورة مخالفة لما قد يكون في الأذهان .

وممن ذكرت الروايات أسماءهم في المهاجرين الأولين ، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولا ندري أكان هو أيضا مضطهداً من ذويه أو غيرهم فاضطر إلى الهجرة ، أم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ندبه ليكون وكيله في المهاجرين ورسوله إلى ملك الحبشة . ونحن نرجح هذا ، لأن بني هاشم كانوا ينصرون النبي صلى الله عليه وسلم مع احتفاظ أكثرهم بدينه ، ومن الصعب التوفيق بين موقفهم هذا واحتمال اضطهاد جعفر ، لا سيما أنه ابن رئيسهم الذي تولى قيادة النصرة والتعصب للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما لا يحتمل أن يكون غيرهم قد اضطهده واضطره إلى الهجرة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ظل في مكة ولم يضطر إلى الهجرة ، وبالتالي لم يكن ضعيف العصبية مضطهدا[١] . . .

أما اختيار بلاد الحبشة دار هجرة فمن الممكن أن يكون بالإضافة إلى الصفة التي وصف ملكها بها في الحديث المروي عن النبي (صلعم) الذي أوردناه آنفا بسبب تيسر السفر إليها ومساعدة الرياح الموسمية لهذا السفر البحري في ظروفه ؛ على أننا نعتقد على كل حال

(١) مما رواه ابن هشام أن جعفر كان الذي يتكلم بلسان المهاجرين في مجلس ملك الحبشة مما يمكن أن يكون مؤيداً لترجيحنا (انظر ج ١ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

أنه يمت إلى ما كان من ذهنية الحزبية الواحدة بين الدعوة الإسلامية ومعتنقيها وبين أهل الكتاب وخاصة النصارى ، وقد وطدتها في المسلمين آيات مكية عدة احتوتها السور التي نزلت قبل سورة النحل ، سواء ما كان في صدد استشهاد الكتابيين على صحة رسالة النبي ، أوما تضمن صوراً لمواقفهم الإيجابية والإيمانية ، وقد نقلنا جملة من ذلك في المباحث السابقة مثل آيات الأنعام (٢٠) والقصص (٥٢ ـ ٥٣) والإسراء (١٠٧ ـ ١٠٩) والشورى (١٣) والأعراف (١٥٧) ؛ بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلا بهذا الأمل ، ولعل فيما روي أكثر من مرة عن إسلام النجاشي وغيره من الأحباش ووفادة بعضهم على النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين مستطلعين ما يستأنس به على صحة هذا الخاطر ؛ إذ يرى أثر نجاح لهذه الدعوة في هاتيك الديار .

ولعل حادثة انتصار الأحباش لنصارى اليمن التي كانت حاضرة في أذهان العرب ، كانت ذات تأثير أيضا في توجيه هذه الهجرة إلى هذه البلاد ؛ فالمسلمون بهذا يكسبون حليفا قويا تجمع بينهم وبينه الحزبية الدينية ، والمشركون يقع في نفوسهم شيء من الخوف والتوجس والجنوح إلى الارعواء بسبب توثق الصلة بين المسلمين وهذا الحليف القوي . وهذه الخواطر قد تفسر لنا آيات سورة الروم الأولى التي تضمنت الإشارة إلى ما كان من غم المسلمين لانكسار الروم وما احتوته من وعد الله بالنصر وفرح المؤمنين به إذ ذاك ، وماروي في صددها من استبشار المشركين بانكسار الروم :

« الٓمٓ . غُلِبَتِ ٱلرُّومُ . فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ . وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ... ١ ـ ٦

ومن الجدير بالذكر أن روايات السيرة القديمة لم تذكر أن زعماء قريش حاولوا منع المهاجرين من الهجرة حينما أزمعوها ، كما أنها لم تذكر أن المهاجرين أجبروا عليها إجبارا وطردوا عن مكة طردا ؛ وليس مما يرد أن يكون خروجهم خلسة لم يشعر به أحد إلا بعد أن ركبوا البحر ؛ لأنهم لم يكونوا قليلي العدد ، وقد يدل هذا على أن الهجرة إنما كانت تبرما من الإزعاج والمضايقة والقطيعة والاضطهاد ، ورغبة في التخلص منه ومن نتائجه التي قد تكون أذى أشد وفتنة عن الدين، إلى حيث الأمن والحرية والطمأنينة. ولعل تعبير آية النحل « هاجروا من بعد ماظلموا » يلهم هذا أيضا . ولعل زعماء قريش ارتاحوا إلى حركة الهجرة لأنها ستضعف نشاط النبي صلى الله عليه وسلم وتقلل الناس الذين حوله من مختلف الطبقات ، والذين يمكن أن يؤثروا في غيرهم . وإذا كان ماروي من خبر إرسال قريش وفداً إلى ملك الحبشة يقنعه بخطر المهاجرين ويغريه بطردهم ، ويثيره مع رجال الدين عليهم بما احتواه القرآن من إنكار ألوهية عيسى ـ إذا كان هذا صحيحاً ونحن لا نرى مايمنع صحته جاز أن يكون هذا خاطراً عنّ على بالهم مؤخراً توجساً من النتائج التي ألمعنا إليها آنفا . وقد ذكر الخبر أن الإخفاق كان نصيب الوفد ، لأن ملك الحبشة رأى في المسلمين إخلاصاً ورأى في المبادئ الإسلامية اتساقا مع المبادئ المسيحية الجوهرية ، وأن المسلمين لقوا عناية وبراً منه ؛ وهذا مصداق مااحتوته الآية « لنبوئنهم في الدنيا حسنة ». وقد ذكر الخبر أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه هو الذي كان لسان المهاجرين الناطق والمدافع في مجلس ملك الحبشة ، ويستأنس بهذا على ماقلناه في صدده قبل قليل[١] .

ولقد حاول بعض المستشرقين[٢] غمز المهاجرين في صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم ، وفي رغبتهم في النجاة بأنفسهم وتخليهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وليس في هذا شيء من الحق من جهة ؛ وهو ملقي جزافا بعقل اليوم المجرد وآت من

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ ـ ٣٦٢ طبعة مصطفى البابي الحلبي .
٢) كايتان في فصل الهجرة إلى الحبشة .

عدم معرفة ظروف البيئة النبوية والمهاجرين وتقديرها من جهة أخرى . فالذين هاجروا كانوا بين أمرين : إما أن يظلوا يتعرضون للأذى وقد تخون بعضهم أعصابهم فيضطرون إلى الارتداد ، وإما أن يصبروا حتى يودي الصبر بحياتهم، وليس في هذا مصلحة للمسلمين: ولقد وقعت الحالتان في بعض الذين أسلموا فليس في تفادي مثل ذلك بالهجرة محل للغمز ؛ بل هي دليل على تعلق المهاجرين بدينهم ، وخوفهم من الافتتان عنه ، وتضحيتهم بوطنهم وعائلاتهم وأموالهم – ومنهم من كان ذا مال كبير – في سبيله ؛ وفي هذا مايستوجب الإكبار والثناء . وقد أثنى القرآن فعلا على صبرهم واعتمادهم على الله بعملهم ، وفيما قرره القول الفصل حتى من الناحية التاريخية ، لأنه نزل في ظروف الواقعة وبعد وقوعها . والغريب أن الغامزين يتجاهلون حالة واقعية متكررة وسائغة في كل ظرف ومكان منذ الأجيال البشرية الأولى إلى الآن وإلى ماشاء الله ، بسبيل شفاء النفس بالتعليق والغمز ...

الصُّورة الرابعة

أما إشارة سورة النحل الثانية فهي في الآية التالية التي تضمنت إشارة إلى مشهد من مشاهد الفتنة ، ومشهد من مشاهد الهجرة معاً :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١١٠

إذ يستدل منها على أن بعض المسلمين قد فتنوا عن دينهم وارتدوا ، ثم أنهم أو أن بعضهم سنحت لهم الفرصة للهجرة فهاجروا وعادوا إلى الإسلام والتحقوا بزمرة المجاهدين في سبيله والصابرين الثابتين عليه .

والراجح أن كلمة « وجاهدوا » في هذا المقام لاتعني جهاد الحرب ، وإنما تعني المجاهدة في الصبر وتحمل المشاق في سبيل الله ودينه ؛ لأن الآية مكية ، ولم يكن مجال للجهاد في هذا العهد كما لايخفى . وقد استعمل التعبير نفسه في آية مكية أخرى في نفس المعنى الذي ذكرناه كما ترى فيما يلي :

« وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ . . .
العنكبوت ٦٩

وقبل آية النحل المذكورة آيات احتوت حملة على فئة من المسلمين ارتدت عن الإسلام واندمجت في الكفر ثانية وشرحت صدراً به ، وهي :

« مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ... ١٠٦ – ١٠٩

واستلهاماً من الآيات يمكن أن يقال إننا إزاء مشهد جديد من مشاهد الفتنة ذي مظهرين . واحد كان بدون إكراه . واستحباباً للحياة الدنيا على الآخرة الذي يعني على الأغلب أنه إغراء بمنافع دنيوية . وآخر بالإكراه . والراجح أن الآية (١١٠) من سورة النحل التي يجيء ترتيبها بعد الآيتين اللتين ذكر فيهما المشهد الجديد بمظهريه قد عنت الفريق المفتون بالإكراه الذي وجد فرصة سانحة فنجا وعاد إلى دينه القويم فاستحق التنويه والغفران الربانيين .

وقد جاءت الحملة على الفريق الأول شديدة متناسبة من دون ريب مع بشاعة العمل وسوء أثره الشديد . ونعتقد أنه كان له وقع أليم جداً على النبي والمسلمين للحادث بالذات أولا ، ولما يمكن أن يحدثه أو أحدثه فعلا من أثر سلبي في سير الدعوة ثانياً ؛ لاسيا أنه قد جاء على أثر هجرة عدد كبير من المسلمين فراراً من الظلم وتفادياً من الفتنة .

ولقد روى في صدد هؤلاء المرتدين أن ارتدادهم قد وقع حينما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخبر إسرائه من مكة إلى بيت المقدس ، وقد أشرنا إلى هذا من قبل ؛ ونحن لا نستبعد أن يكون خبر افتتان بعض المسلمين في سياق خبر ذلك الحادث ، ونتيجة لتهويش

الزعماء واستغلالهم على ما ذكرناه قبل ـ صحيحاً ؛ بل إن صحة هذا راجحة استلهاماً من نص آية الإسراء (٦٠) « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » . غير أننا نرجح أن حادث الارتداد الذي أشارت إليه الآيات قد كان بسبب آخر ، وهو سبب وظروف ما حكته الآيات التي سبقت هذه الآيات من تبديل آية بآية ، وما كان من استغلال زعماء الكفار المعاندين للحادث وتهجمهم على النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبته ينسبون إليه الافتراء والتعلم من الأعجمي . وترجيحنا قائم على أن الآيات جاءت عقب آيات الحادث أولا ، وقد سبق آيات الحادث آيات فيها تشديد على الوفاء بعهد الله وميثاقه ؛ وتنديد بالناقضين وتنويه بالموفين بعهد الله والمستمسكين به . وهكذا تكون سلسلة الآيات آخذا بعضها برقاب بعض .

والحادث على ما يبدو من آياته ومما سبقها ولحقها من آيات تتضمن آثاره ونتائجه من الأحداث الخطيرة في العهد المكي ؛ سواء في ذاته أو فيما كان من استغلال زعماء الكفار له في سبيل الصد والفتنة ، أو فيما كان من آثاره ونتائجه التي ذكرناها قبل . وهذه هي الآيات التي تتضمن الإشارة إلى الحادث :

« فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ . إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ... النحل ٩٨ ـ ١٠٥

وروح الآيات ومضمونها في الجملة يلهم أنها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن ،

ويلهم أنه أوحى للنبي صلى الله عليه وسلم ببعض الآيات لتكون مكان بعض آيات أخرى؛ فلما تلا الجديدة وأهمل الأولى استغل زعماء الكفار ذلك، فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً، وينسبون إليه الافتراء والتعلم من الشخص الأجنبي المعين؛ ولعلهم قالوا إن الشيطان هو الذي يوسوس له ويلقي عليه لا الملك، وأن التبديل دليل على ذلك، فالشيطان محل خطأ والملك لا يصح أن يخطيء؛ واستغلوا الحادث في الصد والتأثير في بعض المسلمين، وتوسلوا بالإغراء إلى جانب الاستغلال والتهويش، وكان من نتيجة ذلك أن ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحباباً لمنافع الدنيا معاً؛ فجاءت الآيات تثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وتهاجم الصادين والمرتدين وتحمل عليهم الحملة الشديدة التي تمثلها الآيات؛ فليس للشيطان سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله؛ وإنما سلطانه على الذين يشركون به، وهم المشركون، وإن الله هو الأعلم بمقتضيات حكمة التنزيل، وكل تبديل وتنزيل إنما هو من وحي الله وتنزيل روح القدس ملك الله الأكبر، وليس للنبي إلا اتباع ما يوحي به إليه؛ وإن الذين لا يؤمنون بآيات الله كما تنزل وفق حكمة تنزيله هم الكاذبون المفترون، وهذا مما تنزه عنه النبي؛ والرجل الذي ينسبون إليه تعليم النبي هو أعجمي اللسان في حين أن القرآن عربي مبين؛ فحجتهم ساقطة بنفسها .. الخ. أما الآيات التي سبقت هذه الآيات فهي هذه:

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَشْتَرُوا

بِعَهْدِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ ٱللهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... النحل ٩١ ـ ٩٧

ومع أن الآيات عامة التلقين الأخلاقي والاجتماعي ، فإن روحها ، وبعض عباراتها عند إنعام النظر فيها ، ثم ورود آيات الحادث ونتائجه عقبها ـ كل ذلك يلهم أنها نزلت بمناسبته ، وجاءت كحملة تمهيدية على الصادين عن سبيل الله والناقضين لعهده ، واحتوت حثا على الصبر وعدم نقض عهد الله بالثمن الدنيوي ، لأن ما عند الله خير مما عند الناس . والمتبادر لنا من روح الآيات ومضمونها أن نقض عهد الله فيها يعني نقض عهد الإسلام .

وواضح أن نزول الآيات بمناسبة الحادث وما تضمنته من حملة وحث وتلقين في صدده لا يتعارض مع عمومية تلقينها ، بل إن هذا هو الذي جرى عليه القرآن عامة ؛ فالآيات والفصول القرآنية كانت تنزل بمناسبات أحداث ومشاهد السيرة ، مع تضمنها تلقينات وتشريعات وتعليمات عامة مستمرة المدى . . .

الصورة الخامسة

في سورة العنكبوت مقاطع عدة متصلة بمحنة الأذى والفتنة ومشاهدها :

(١) فقد جاء في مطلعها الآيات التالية :

« الٓمٓ . أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللهِ لَأٓتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللهَ

لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... ١ – ٧

وبعض الروايات يذكر أن الآيات مدنيات ؛ وطابع الآيات وأسلوبها ومضمونها يتسق مع رواية مكيتها كما هو المتبادر .

ويستلهم منها أن صبر بعض المسلمين على الإزعاج نفد أو كاد ، وأن الضيق عليهم بلغ مبلغاً شديداً حتى أخذوا يشكون ويتذمرون ؛ فقد احتوت عتاباً ممتزجاً بالتشجيع وحسن الوعد .

(٢) وقد تبع الآيات المذكورة الآيتان التاليتان .

« وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ... ٨ – ٩

وبعض الروايات يذكر كذلك أن الآيتين مدنيتان نزلتا في مسلم اضطهده والداه فعصاهما وهاجر ، كما أن بعضها يذكر مكيتهما ونزولهما في حق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه التي غضبت من إسلام ابنها وأخذت تلح عليه بالارتداد[1] ، ومكيتهما هي الراجحة استلهاماً من مضمونهما الذي يتسق مع كونهما بحق مسلم في مكة متعرض لإلحاح والديه بالكفر أكثر منهما بحق مسلم عصا والديه وهاجر من مكة ؛ إذ تستهدفان تثبيت الابن المسلم في إسلامه فتقرران أن ليس على المرء لوالديه إلا الرفق والحسنى ، وليس عليه لهما الطاعة إذا أراداه على الكفر والشرك بالله . ويبدو أن في هذا استدراكاً لوصايا الله التي وردت مطلقة بحق الوالدين في سور متقدمة على هذه السورة ، مثل ما ورد في سورة الإسراء :

« وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ... ٢٣

---

(١) مما رواه الطبري في سياق تفسير آيات سورة العنكبوت أن سعداً رضي الله عنه قال لأمه (يا أمه والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفسا ما تركت ديني)

ومثل ما ورد في سورة الأنعام :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ١٥١

إذ يحتمل أن تكون جعلت بعض المسلمين يغالون في تقدير واجبهم نحو والديهم الكافرين ، فرأوا أنفسهم في موقف حرج إزاء أمرهم إياهم بالارتداد ، فأوحى الله بالآيات لوضع الأمر في نصابه الحق . ولقد احتوت سورة لقمان آيتين مماثلتين وهما :

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ... ١٤ ــ ١٥

وهاتان الآيتان جاءتا استطراداً على الأرجح في سلسلة مواعظ لقمان ، ويدل مضمونهما على أنهما استهدفتا نفس الهدف الذي استهدفته آيتا العنكبوت ، واحتوتا إيضاحاً أكثر ، بما هو الواجب على الولد نحو والديه الكافرين ، وهو الحسنى بما يتعلق بأمور الدنيا فحسب .

وهذا التكرار يدل على أن محنة غضب الوالدين واضطهادهما وإلحاحهما لم تكن مقصورة على حادث واحد ، بل تعرض لها أكثر من واحد من المسلمين في مكة ممن كانوا يمتون إلى البيوت القرشية الوجيهة . وهذا مشهد جديد من مشاهد الأذى والفتنة كما هو المتبادر ، كما أن فيه مغزى عظيما وهو أن بعض فتيان هذه البيوت أقبلوا على الدعوة والاستجابة إليها والالتفاف حول صاحبها برغم مواقف آبائهم وذويهم من معارضتها والصد عنها حتى إذا اشتد عليهم الضغط والإلحاح هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم على ما نبهنا عليه ونوهنا به قبل قليل .

(٣) وقد تبع الآيتين الآيتان التاليتان أيضاً :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ . . .

العنكبوت ١٠ ـ ١١

والروايات تذكر أن الآيتين مدنيتان ، وبعض عباراتهما مثل « ولئن جاء نصر من ربك » ومثل « والمنافقين » يمكن أن يقويا رواية مدنيتهما ، لأنها أشبه بصور المدينة وظروفها ؛ غير أن محتويات القسم الأول من الآية الأولى هي مشاهد وظروف مكية في الغالب ، كما أن محتويات الآيتين التاليتين لها والمعطوفتين عليهما وهما :

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ... ١٢ ـ ١٣

هي مشاهد وظروف مكية أيضاً ، ولذلك فإنا نرجح مكية الآيتين ١٠ ـ ١١ ولقد احتوتا مشهداً من مشاهد الأذى والفتنة ؛ إذ تلهمان أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام الأذى والاضطهاد وعمدوا إلى النفاق للكفار ومسايرتهم .

(٤) أما الآيتان ١٢ ـ ١٣ ففيهما مشهد متمم لذلك المشهد ، وأسلوب جديد من أساليب صد الزعماء عن الإسلام وإغراء المسلمين وفتنتهم ؛ إذ تلهمان أنهم كانوا يعمدون أحياناً إلى طمأنة المسلمين الذين يستشعرون فيهم عدم العمق في الإيمان أو انهيار الأعصاب فيتعهدون لهم بحمل ذنوبهم وخطاياهم إذا هم رجعوا إلى دين آبائهم وتخلوا عن الدين الجديد . والراجح أن الزعماء كانوا يستعملون هذا الأسلوب مع الذين لا يقدرون على اضطهادهم من أهل العصبية من المسلمين . على أنه لا يبعد أنهم كانوا يقولون هذا القول للمسلمين في معرض الحجاج والجدل حينما كان هؤلاء يذكرون لهم

هول القيامة ومصير الكفار الآثمين فيها ، وإن كنا نرجح الأول بسبب مجيء الآيتين بعد آيتي الفتنة والأذى وما كان لهما من أثر في بعض الضعفاء في الأعصاب أو الإيمان :

الصورة السادسة

في سورة الحج الآيات التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ . يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ . يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ . إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ... ١١ ـ ١٥

وأكثر الروايات على أن سورة الحج مدنية ، وبعضها يذكر أنها مكية . ولقد توصلنا في درسنا لفصول هذه السورة إلى أن أكثرها مكي وأقلها مدني ، والآيات التي نقلناها الآن من الآيات التي رجحنا مكيتها استناداً إلى أسلوبها ومضمونها .

ولقد احتوت على ماتبادر لنا مشهداً أو صورة تمت إلى مشاهد وصور محنة الأذى والفتنة التي تعرض لها المسلمون في مكة ، وأن فيها بعض المماثلة للمشهد الذي تضمنته آيتا العنكبوت (١٠ ـ ١١) ؛ إذ يظهر أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام المحنة ولم يطيقوا تحمل الأذى والاضطهاد أو المقاطعة والصبر عليها ، وأنهم أبدوا شكهم في نصر الله الموعود للمسلمين ؛ فنزلت تحمل على هذا النوع من الناس بأسلوب عام حملة لاذعة ، في سياق بيان مراتب الناس من عبادة الله والاعتراف به والإخلاص له ؛ فالمخلص يجب أن يؤمل في رحمة الله ونصره وإن تأخرا ، وإذا لم ينلهما في الدنيا فهو نائلهما في الآخرة ، والإيمان

المشروط بألاّ ينال صاحبه إلا النفع لا يليق بمؤمن صادق ، لأن الإيمان مسألة مستقلة لا علاقة لها بأعراض الدنيا المتقلبة على الناس ؛ ومثل المغيظ المحنق من بطء نصر الله ، والذي يرتد ويجحد من أجل ذلك ، مثل الذي يغتاظ من أمر ما فيعمد إلى شنق نفسه بالحبل ، فهو في عمله غير مشتف من غيظه وغير ضار بأحد وغير مهلك إلا نفسه . وفي الآية الأخيرة خاصة معالجة روحية قوية نافذة من دون ريب في مثل الحالات التي جاءت بصددها ، كما أن مجموع الآيات هي في الوقت نفسه بسبيل طمأنة من تعرض للأذى والحرمان بسبب إسلامه ، والتنديد بالذين لم يصبروا عليهما فخاروا وارتدوا . . .

الصورة السابعة

في سورة العنكبوت الآيات التالية :

يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ . كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ . ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ . وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ... ٥٦ ـ ٦٠

والآية الأولى متقاربة مع آية الزمر (١٠) التي أشرنا إليها في فقرة سابقة من هذا المبحث وقلنا إنها جاءت بين يدي الهجرة إلى الحبشة مثبتة مشجعة آذنة بالهجرة . ولما كانت سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن في مكة فإن من السائغ أن يقال إن هذه الآيات قد نزلت في ظرف اشتدت فيه الأزمة على المسلمين من جهة ، وتم فيه الاتصال الأول بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء يثرب ورحب هؤلاء بمن يريد أن يهاجر من المسلمين المضطهدين إليهم من جهة أخرى ؛ فاحتوت التثبيت والتشجيع والإذن ؛ ويحتمل بل يستلهم منها أن بعض المسلمين قد تهيبوا الهجرة وخافوا ، أن يلقوا حتفهم أو يلقوا العنت والحرمان وضنك العيش في دار الغربة ، فبثت الآيات فيهم الطمأنينة ونفت عنهم المخاوف ؛ فأرض الله واسعة وعلى عباده أن يعبدوه دون مبالاة بشيء ،

والموت على رقاب الناس جميعاً أينما كانوا فليس ثمة محل للتخوف منه ، والله الذي يرزق كل دابة وفي الدواب كثير لا يكسب رزقه ـ حقيق بأن يتكفل برزقهم فليس ثمة مبرر للخوف من الجوع والحرمان . . .

ولا نشك في أن الآيات قد بثت في نفوس الخائف الطمأنينة ، وأن حركة هجرة المسلمين من مكة إلى يثرب قد بدأت وتوالت بعدها ؛ وهي الحركة التي كان فيها للمسلمين الفرج الأعظم من شدتهم ، والتي كان فيها بدء عظمة الإسلام وقوته وتعاليه بعد أن ظل في نطاق ضيق محفوف بالمحن والأخطار ؛ بل التي لو لم تكن لكان من المحتمل أن يتغير مجرى حدث من أعظم أحداث التاريخ ؛ إلى غير ذلك مما هو مندمج في هذه الآية التذكيرية من آيات الأنفال :

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .

٢٦

ولقد كان إقدام المهاجرين على الهجرة في سبيل الله وقد تخلوا عن أموالهم ووطنهم واسترسلوا في عداء وقطيعة شديدين مع قومهم عملا رائعاً عظيما عبر عنه الثناء القرآني العظيم :

« لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . . .

الحشر ٨

هذا ؛ ولقد جاء في سورة آل عمران الآية التالية :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ...

١٩٤

ويلاحظ أنه ورد فيها كلمات الهجرة والإخراج والأذى معاً ؛ ولا بد أن يكون قد قصد بجمع الكلمتين الأوليين خاصة ، الدلالة على معنيين في صدد الهجرة ، وهما فيما يتبادر لنا ؛ الهجرة الحرة والهجرة الاضطرارية ؛ ونعتقد أنه من السائغ أن يقال إن من المهاجرين من هاجر استجابة لتشجيع النبي صلى الله عليه وسلم وإذنه وتبرما بحالة المسلمين في مكة بوجه عام دون أن يكون مطارداً أو مضطهداً بالذات ، ومنهم من هاجر نتيجة للأذى والخطر اللذين كانا يناله شرهما .

الصورة الثامنة

في سورة الحج الآيات التالية :

« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ...
٥٨ ـ ٥٩

وفيها النص الصريح على أن فريقاً من المسلمين هاجروا من مكة فلاقوا حتفهم موتاً وقتلا ، وإنهم بسبيل التنويه بهم والإخبار عنهم : ولقد سبق الآيتين آيات روي أنها نزلت في طريق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم نفسه من مكة إلى المدينة ، وهي :

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . . .
٥٢ ـ ٥٤

ولقد روي أن هذه الآيات نزلت في شأن حكاية الغرانيق التي قيل فيها : إن النبي تلا أثناء تلاوته سورة النجم في فناء الكعبة آيات ليست من القرآن وهي « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » ، وإنها من إملاء الشيطان ، وإن معنى « تمنى » في الآية الأولى « قرأ » ومعنى « أمنيته : قراءته » غير أن في هذا التفسير تكلفاً ظاهراً ، منه أنه يقتضي أن يكون كل رسول ونبي قبل النبي قد وقع له مثل ما وقع للنبي وجرى على لسانه أثناء قراءته كلام الله : آيات ليست منها ، كما أن في الرواية تهافتاً من وجوه عدة وغير متسقة مع مضمون ومدى الآيات على ما فصلناه في تفسيرنا وألمعنا إليه في مناسبة سابقة . ولقد رجحنا أن يكون الوجه في تأويلها هو « أن الله لم يرسل نبيا أو رسولا وتمنى أمراً — وما يتمنونه هو نجاحهم في الدعوة — إلا وقف الشيطان في طريق تحقيق هذه الأمنية ، ولكن الله يؤيد رسوله ويحكم آياته ويحبط وساوس الشيطان وموقفه بحيث لا يغوى بها إلا مرضى القلوب وقساتها وخبثاء النية والسريرة ، أما الذين أوتوا العلم والإذعان فيدركون أن ما جاء من آيات الله هو الحق فيؤمنون به وتخشع له قلوبهم » وهذا التأويل يتسق مع رواية نزول الآيات على النبي في طريق هجرته ، ويتجلى به قصد الله في بث السكينة والطمأنينة في نفس نبيه مما ألم به من إخفاق الدعوة واضطراره أخيراً إلى هجرة وطنه خفية ، وفي بث السكينة والطمأنينة كذلك في نفوس المسلمين الذين انضووا إلى الدعوة وثبتوا عليها . وإذا كان هذا التأويل صواباً وهو ما نرجوه فمن المحتمل كثيراً أن تكون الآيات التي بعدها بما فيها الآيات ٥٧ — ٥٩ قد نزلت معها في الظرف نفسه وتكون هذه الآيات مما يتصل مباشرة بسلسلة الفتن والأذى والإزعاج التي ذاق المسلمون مرارتها في مكة ، وخاتمة لها في آخر العهد المكي وبدء العهد المدني ؛ ولعل بينها وبين آيات العنكبوت ٥٦ — ٦٠ مناسبة موضوعية ؛ إذ احتوت هذه تشجيعاً ونفياً للمخاوف من الجوع والموت ، واحتوت تلك طمأنة وتثبيتاً بمناسبة لقاء بعض المهاجرين حتفهم ؛ وقد انطوت المجموعتان على كل حال على ما كان للهجرة إلى يثرب وظروفها وحركتها من آثار نفسانية متنوعة المدى .

الصورة التاسعة

وتنبه إلى أن ماأوردناه في الفقرات السابقة هو ماذكر فيه الأذى والفتنة صراحة ، وانطوى فيه صور ومشاهد عنهما ؛ وأن هناك آيات مكية كثيرة احتوت تسلية وتصبيراً للنبي والمسلمين ، ووعداً بنصر الله وتهديداً وإنذاراً للكفار ، نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكي يصح أن تعد قرائن على ما كان يلقاه المسلمون من الكفار أو بالأحرى من زعمائهم من عنت وشدة ، وأن تلحق في باب محنة الأذى والفتنة التي امتحن بها المسلمون ، وتتم بها حلقات السلسلة التي بدأت ـ كما قلنا ـ في عهد مبكر واستمرت طيلة العهد المكي ، مما يمثله صراحة الآيات التي نقلناها ، ويمثله ضمناً وبالقرينة الآيات الأخرى التي يمكن أن تمثل لها بما يلي :

١ — وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ . . .

إبراهيم ٢ ـ ٣

٢ — وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ . . .   إبراهيم ٤٢

٣ — وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ . فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ . . .

إبراهيم ٤٦ ـ ٤٧

٤ — إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ . وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ . وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . . .   النمل ٩١ ـ ٩٣

٥ — وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ . وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . . .

الصافات ١٧١ ـ ١٧٩

٦ — إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . . .

غافر ٥١ ـ ٥٢

٧ — فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ... الزخرف ٤١ ـ ٤٢

٨ — وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ . إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ . وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ . إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا . فَمَهِّلِ الْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ... الطارق ١١ ـ ١٧

الصورة العاشرة

وإتماماً للبحث نرى من المفيد أن نستعرض بعض الآيات المدنيـة المتصلة بمواقف الأذى والفتنة المكية ؛ منها ما هو بمثابة التعقيب والتذكير ، ومنها ما فيه مشاهد من المحنة استمرت تصيب المسلمين الذين عجزوا عن الهجرة إلى المدينة .

وإليك مما هو من النوع الأول :

١ ـ في سورة الحج الآيات الآتية :

« إِنَّ اللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ

لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ . . . ٣٨ ـ ٤١

وطابع العهد المدني واضح على هذه الآيات . وفيها مما له صلة بمحنة الأذى والفتنة ، تقرير كون المسلمين مبغيا عليهم ، وأنهم اضطروا إلى الخروج من ديارهم نتيجة للأذى والاضطهاد ، لا لذنب إلا أنهم آمنوا بالله واعترفوا بربوبيته وحده ، وفيها كذلك وعد من الله بالدفاع عنهم ونصرهم وتمكينهم في الأرض وبأنه سوف يوفقهم إلى إقامة شعائر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد قال المفسرون والرواة (١) : إن هذه الآيات أولى آيات نزلت بالإذن للمسلمين بالقتال مقابلة لما يقع عليهم من ظلم وأذى ، بعد أن كانوا يؤمرون بالصبر وعدم المقابلة . وعلى هذا تكون قد نزلت قبل آيات القتال في سورة البقرة ، وأول تعقيب على الهجرة إلى يثرب وأول آيات احتوت الطمأنة والتشجيع للمسلمين في عهدهم الجديد .

ومع ذلك فهناك ملاحظتان يحسن إيرادهما في صدد هـذه الآيات . الأولى أنها لا تأذن ولا تأمر بالقتال خلافاً لما ذكرته الروايات التي رواها المفسرون . وإنما تقرر حالة الظلم الواقع على المسلمين وتعدهم بنصر الله . وقد تكون تضمنت تبرير المقابلة بالمثل . والثانية أن الآية الأولى منها صريحة بأن المسلمين كانوا يقاتلون في حين أنه ليس هناك رواية فيما اطلعنا عليـه تذكر أنه كان عدوان حربي جماعي من مشركي قريش على المسلمين حينما كانوا في مكة . أو أنهم بدأوا بحركات هجومية على المسلمين بعد خروجهم

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والخازن والطبرسي.

من مكة . فإما أن تكون الآية عنت ما كان ينال ضعفاء المسلمين في مكة من عدوان وأذى فردى يصل أحياناً إلى إزهاق الروح . وإما أن يكون المشركون قد اعتدوا على فريق من المسلمين عدواناً حربيا بعد الهجرة لم يرد ذكره في الروايات وسنعود إلى هذه النقطة في الجزء الثاني المعقود على السيرة في عهدها المدني لأنها ألصق به .

٢ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . . . ١٩٠ ـ ١٩٥

وفي الآيات ما هو متصل بمحنة الأذى والفتنة في مكة وهو تقرير لكون الفتنة أشد من القتل وتبرير قتال الكفار حيث وجدوا وإخراجهم مقابل ما كان من إلجائهم المسلمين إلى الخروج . والفتنة عن الدين والإلجاء للخروج إنما كان في العهد المكي . أما بقية نصوص الآيات فإنها تنظم شروط وظروف قتال الكفار وتحث على الإنفاق في سبيل الله لمنع الوقوع في الخطر والتهلكة . ومضامن الآيات تدل على مقدار ما كان لأذى زعماء الكفار واضطهادهم وفتنتهم المسلمين ومطاردتهم إياهم واضطرارهم إلى الهجرة من وطنهم من مرارة وأثر بعيد المدى في سير الدعوة في مكة وفي نفوس المسلمين أيضاً . وقد تلهم هي ومضامين الآيات بمجموعها أن محنة اضطهاد الكفار وأذاهم وفتنتهم

للمسلمين ما زالت قائمة ، إذ تأمر المسلمين بالجد في قتالهم والاستعداد له ، لأن الخطر عليهم وعلى دينهم لم يزل وإن هاجروا . ومما يتضمنه معنى بقاء المحنة أن مستضعفي المسلمين في مكة الذين لم يستطيعوا الإفلات لم يزالوا معرّضين للأذى . وقد ذكر هذا في آيات أخرى بصراحة .

وقد قال المفسرون والرواة : إن هذه الآيات أول آيات نزلت في الأمر بقتال الكفار ؛ وليس ثمة تناقض بين هذا وآيات الحج السابقة التي إنما احتوت تقرير كون المسلمين مبغياً عليهم ، وإذناً بالقتال والدفاع ، في حين احتوت آيات البقرة أمراً بالمباشرة وتحديداً للحدود التي يحسن أن يسار في نطاقها ...

٣ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ... » ٢١٦ ـ ٢١٧

وصلة الآيات بصورة عامة والآية الثانية بصورة خاصة بمحنة الأذى والفتنة في مكة بادية ؛ إذ تبرر قتال الكفار في أي وقت ومكان بقطع النظر عن الحرمات التقليدية ، مقابل ما بدا منهم من كفر وصد واضطهاد وإخراج أهل الحرم من موطنهم ظلما وأذى ، وفتنة المسلمين عن دينهم وهي أكبر عند الله من القتل ومن تلك الحرمات ، وإذ تنذر المسلمين بشدة الكفار وتصميمهم على الاستمرار في خطتهم الباغية في قتالهم حتى يردوهم عن دينهم . وفي كل هذا ترديد في الوقت نفسه لما كان لتلك المحنة من آثار بعيدة المدى في سير الدعوة وفي نفوس المسلمين ، وإنذار لما يمكن أن يكون لها من مثل

ذلك إذا تساهل المسلمون ولم يحزموا أمرهم ...

٤ ـ في سورة الأنفال الآية التالية :

« وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ... » ٣٩

وقد ورد قريب من هذا في آية البقرة (١٩٣) . وتكرار الأمر والمدى بعد وقعة بدر ـ لأن سورة الأنفال نزلت عقبها ـ يدل على أن خطر فتنة الكفار ما زال مستمراً فاقتضت الحكمة التكرار حتى يظل المسلمون منتبهين حذرين مستمرين في أسباب إزالة هذا الخطر ، وعدم الاكتفاء بما نزل عليهم من ضربة بدر القاصمة .

الصورة الحادية عشرة

ومما يتناسب مع البحث الإشارة إلى ما كان من صد مشركي مكة المسلمين عن زيارة الكعبة ، وواجبات الحج التي ثبّت القرآن المكي جُل تقاليدها تثبيتا تشريعيا ؛ إيغالا في الأذى والنكاية والقطيعة والعداء ، ورغم ما في ذلك من نقض لتقليد مقدس راسخ يقوم عليه في الوقت نفسه أود مكة المعاشي ومجدها ونفوذها الأدبيان .

١ ـ في سورة البقرة الآية التالية :

« وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ . . .

١٩٦

وتلهم أن من المسلمين من كان يمتنع عن الحج والعمرة فاقتضت حكمة التشريع ذلك :

٢ ـ وفي سورة الأنفال الآية التالية :

« وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... » ٣٤

٣ ـ وفي سورة الحج الآية التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَـٰهُ

لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيـهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ ... » ٢٥

وهما تنصان نصا مطلقا على صد المشركين عن المسجد الحرام .

٤ ـ وفي سورة الفتح الآية التالية :

« هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ... » ٢٥

وتشير إلى حادثة معينة وهي صد مشركي مكة النبي والمسلمين عن المسجد الحرام حينما خرجوا في أواخر السنة الهجرية السادسة للزيارة وانتهت بصلح الحديبية على ماسوف نبسطه .

٥ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... » ١٣ ـ ١٥

وسورة التوبة من آخر مانزل من القرآن ، والآيات نزلت قبيل فتح مكة ، والتحريض الذي احتوته على قتال أهل مكة متلازم كما هو ظاهر مع التذكير بما كان منهم في العهد المكي من عدوان وبغي على المسلمين وتآمر على النبي . وهذا يدل على ما كان لبغيهم وعدوانهم وتآمرهم من أثر مستمر ، وما كان قائما من خطر لم يكن ليزول إلا إذا خضدت شوكتهم نهائيا .

٦ ـ وجاء في مطلع سورة الممتحنة الآيتان التاليتان :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ... » ١ ـ ٢

والآيتان متصلتان بذكريات محنة الأذى والفتنة اتصالا وثيقا كما هو ظاهر ، إذ تذكران بما كان من معالنة زعماء مكة الرسول والمسلمين بالعداء ومبادأتهم بالبغي وإلجائهم إياهم إلى الخروج من وطنهم ، وتنبهانهم إلى الخطر المستمر عليهم منهم بحيث أنهم لن يترددوا في بسط أيديهم وألسنتهم إليهم بالسوء وقتالهم وفتنتهم عن دينهم إذا ما أمكنتهم الفرصة ، ولقد نزلتا قبل الفتح المكي كآيات التوبة . وهكذا تكونان قد تضمنتا ما تضمنته تلك الآيات من تقرير استمرار أثر بغي أهل مكة وعدوانهم على المسلمين في العهد المكي .

ولقد رددت الروايات في سياق الآيتين أنهما نزلتا في مهاجر اسمه حاطب أرسل إلى بعض زعماء مكة رسالة قبيل الفتح يخبره فيها بتأهب النبي لغزو مكة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حينما عاتب الرجل اعترف بالحقيقة ثم أكد له حسن إسلامه ، واعتذر بأن له أهلا ومالا في مكة وليس له عصبية فأراد أن يتخذ يداً عند الزعيم الذي كتب له يقي بها أهله وماله . وليس في الرواية مالا يتسق مع الآيتين إلا ما تلهمه الآية التي تلت الآيتين وهي « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » من أن للأرحام والقربى أثراً ما في هذا الموقف . وعلى كل حال فإن الآيات لا تخلو من صلة بالمحنة وأثرها .

الصورة الثانية عشرة

وهناك بضع آيات خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ومتصلة بهذا المبحث . منها آية في سورة الإسراء وهي:

« وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ... ٧٦

ولقد جاء في بعض الروايات أنها مدنية وأنها نزلت بمناسبة تحريض اليهود النبي على الخروج للشام وقولهم له : إن الأنبياء جميعهم إنما ظهروا فيها ، وإن عليه إن كان نبيا حقا أن يتأسى بهم ؛ فتأثر النبي بذلك حتى يكاد يزمع الخروج . ونحن نشك في مدنيـة الآية وفي هذه الرواية غير الموثقة ، لا سيما أن الآية متسقة مع السياق اتساقاً تاما نظماً ومضموناً إذا ما أنعم النظر ، ، وليس ممـا يعقل أن يستمع النبي صلى الله عليه وسلم لوساوس اليهود الذين جحدوا رسالته ونشب بينه وبينهم خلاف وجدل في عهد مبكر من الهجرة ، ونزل فيهم قرآن كثير احتوى حملات شديدة عليهم ، وصار العـداء بينه وبينهم قائما مستحكماً . هذا إلى عدم معقولية وضع الآية في سياقها إن كانت مدنية .

والذي نرجحه إن لم نقل نجزم به أن الآية تنطوي على مشهد من مشاهد العهـد المـكي ، وأنها بسبيل وصف شدة عناد وصد طغاة الزعماء ومواقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم التي أزعجته إزعاجاً شديداً حتى فـكر في النزوح عن مكة في أواسط العهد المـكي ، ولعل هذا كان إبان اشتداد الأزمة على المسلمين وتفـكيرهم في الهجرة إلى الحبشة ، فآية النحل (٤١) التي تضمنت الإشارة إلى هذه الهجرة إنما ذكرت حادثاً كان قد وقع قبـل نزولها ، ولا نستبعد استلهاماً من آية الإسراء أن يكون النبي قد فـكر في الخروج مع الخارجين ثم ألهمه الله البقاء وثبّته مع الذين بقوا وثبتوا في مكة ؛ كما لا يستبعد أن يكون قد فـكر في الخروج بعدهم وقد قل أصحابه من حوله قلة كبيرة وكان هـذا مما قوى ساعد المعارضين والصادين وأعلى صوتهم وزاد في إزعاجهم .

ولقد ذكر ابن هشام أن أبا بـكر رضي الله عنـه خرج من مكة مهاجراً في ظرف من ظروف الإزعاج ، وذلك بعـد هجرة المهاجرين إلى الحبشة ، فلقيه ابن الدغنة زعيم الأحابيش ، ولما عرف أنه خرج مهاجرا كبر عليه ذلك وقال له : إن مثلك لا يخرج .

وعلى كل حال فالآية صريحة بأنها انطوت على مشهد أو حادث خطير من مشاهد السيرة في العهد المكي متصل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد عنه أي إشارة في كتب السيرة فيما اطلعنا عليه . نقول هذا ونحن نعرف أنه ورد أن النبي خرج إلى الطائف قبل سنتين من الهجرة إلى يثرب ؛ ولكننا نعتقد أن الآية ليست بسبيل الإشارة إلى هذا لأنها لا تذكر خبر خروج فعلي حين أن الخروج المروي إلى الطائف كان فعليا .

٢ — وحادث خروج النبي (صلعم) إلى الطائف ذكر في روايات التفسير والسيرة في سياق تفسير آيات سورة الأحقاف هذه :

« وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ... ٢٩ — ٣٢

بحيث نرى مسوغاً لإيراد خبره في هذه السلسلة في نطاق منهج الكتاب . وقد كان من آثار محنة الأذى .

ومما ترويه الروايات المذكورة[1] أنه لما ماتت السيدة خديجة أم المؤمنين في السنة الثامنة ثم لحقها أبو طالب في نفس السنة وكان الاثنان من أقوى أنصار رسول الله ومؤيديه نالت منه قريش من الأذى مالم تكن تنال منه في حياتهما وبخاصة أبي طالب حتى لقد روى أن سفيهاً من قريش نثر التراب على رأسه فعاد إلى بيته فقامت إحدى بناته تغسله عنه وهي تبكي فقال لها: لاتبكي يابنية فإن الله مانع أباك ثم قال (مانالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨ — ٣١ وانظر تفسير آيات الأحقاف في تفسير الطبري والبغوي والخازن وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٠ — ٨٢ .

مات أبو طالب). ثم اعتزم الخروج إلى الطائف رجاء هداية زعمائها والحصول على نصرتهم ومنعتهم فذهب وتحدث إليهم فسخروا منه وكذبوه وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فسبوه وحصبوه حتى ألجأوه إلى حائط (بستان) فأخذ يناجي ربه ويقول (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي . وقلة حيلتي وهواني على الناس . ياأرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين. وأنت ربي إلى من تكلني . إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي . ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) ورق له قلب ابني ربيعة عتبة وشيبة فدعوا غلاما نصرانياً لهما اسمه عداس وأمراه بأخذ قطف من عنب وتقديمه إليه ففعل، فلما وضع رسول الله يده قال بسم الله ثم أكل فقال عداس ليس هذا مما يقوله أهل هذه البلاد فسأله وما دينك؟ فقال له أنا نصرانى من نينوي فقال له من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له ومايدريك به ؟ فقال له هو أخي كان نبياً وأنا نبي. فأكب عداس على رأس رسول الله ويديه وقدميه . فلما عاد إلى ابني ربيعة سألاه فقال لهما : مافي الأرض خير منه لقد أخبرني بأمر مايعلمه إلا نبي . ثم انصرف رسول الله راجعاً إلى مكة وفي طريق عودته أوحى الله إليه بآيات الأحقاف يخبره فيها بأن نفراً من الجن استمعوا إليه وهو يتلو القرآن فآمنوا فكان في ذلك له تعزية عظيمة . فإذا كان مشركو العرب يكذبونه ويؤذونه فالجن الذين هم أقوى منهم وأعتى يؤمنون به ويبشرون برسالته .

٣ ـ ومنها آية في سورة الروم وهي :

« فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ... ٦٠

والآية تلهم أنها نزلت في ظرف اشتداد الأزمة والمناوأة حتى فكر النبي صلى الله عليه وسلم بالقيام بحركة ما فتضمنت تثبيتاً وتوكيداً بنصر الله وتحقيق وعده ، وأمراً بعدم التأثر من موقف الكفار تأثراً يحمله على مافيه حركة غير مناسبة الأوان . وسورة الروم من آخر مانزل من القرآن المكي ؛ولا نستبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد اتصل

قبل نزول الآية بأهل يثرب ورأى منهم ترحيباً، وأن يكون قد فكر في الاستعجال بالخروج إليهم فثبته الله؛ لأن الوقت المناسب لم يكن قد حل بعد.

٤ - ومنها آية في سورة الأنفال المدنية جاءت للتذكير وهي:

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ... ٣٠

والآية صريحة بأن الحقد والعداء قد بلغا في زعماء مكة نحو النبي صلى الله عليه وسلم مبلغا جعلهم يأتمرون فيما بينهم في الوسائل التي يقضون بها عليه أو يحولون دون استمراره في الدعوة بعد أن رأوا أن كل ما كان منهم من صد ومناوأة وأذى لم يجد نفعاً: وبعد ما أملوا في موته وانقضاء أمره كما حكته عنهم بعض آيات سورة الطور:

« أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ... » ٣٠ - ٣١

فلم يتحقق أملهم؛ ولقد فكروا على ما ذكرته الآية في ثلاث وسائل وهي حبسه أو اغتياله أو نفيه. وروايات السيرة تذكر أن قرارهم قر على الاغتيال على شريطة اشتراك شبان من مختلف بيوتات قريش فيه حتى يتوزع ثأره ولا يبقى إمكان لآله أن يطالبوا به والروايات تذكر كذلك أن هذا قد كان في أخريات العهد المكي وأن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم شخصياً قد وقعت على أثر وصول خبر قرار الاغتيال إليه. ولقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل في السنة الحادية عشرة من البعثة ببعض أهل يثرب فآمنوا به وأنه جاء في السنة التالية وفد منهم وبايعوه، وأن الإسلام بعد ذلك أخذ يفشو في يثرب، وأن وفداً كبيراً آخر جاء إلى يثرب فجددوا البيعة ورحبوا بهجرة النبي والمسلمين إليهم، وعاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على نصرته والدفاع عنه، وأن الهجرة إلى يثرب قد بدأت بعد ذلك. والروايات سائغة وليس فيها ما يحمل على التوقف.

فمن المحتمل كثيراً أن زعماء مكة قد أخذوا يتوقعون العواقب الوخيمة لنجاح هذه الحركة وانتشار الدعوة وفوزها ، وسقوط هيبة مكة وإمامتها ومنافعها ، ونشوب العداء بينهم وبين أهل يثرب وهي على طريق قوافلهم التجارية ، فرأوا أن الوسيلة الوحيدة لتدارك هذه العواقب هي القضاء على شخص السيد الرسول . وعدم تفكيرهم بمثل ذلك إلا بعد اتصال النبي بأهل يثرب وبدء حركة هجرة المسلمين إليها مما يدل على أنهم لم يكونوا يشعرون بخطر عظيم للدعوة ، وأنهم كانوا يرون أن ما كان منهم من مناوأة لها وصد عنها ، وموالاتهم لأذى من يقدرون عليه من المسلمين ـ كاف لإبقائها في نطاق ضيق محفوف بالخطر من شأنه أن ينتهي بالمسلمين إلى التبرم بها والسأم منها وضيق الذرع بها وتفرقهم عنها ، كما أنهم كانوا يرون على كل حال أن هذه النتيجة حاصلة إذا مالقي النبي صلى الله عليه وسلم حتفه عاجلا أو آجلا مادامت دعوته تظل في هذا الحال من الضيق والحرج . ففضلوا تربص ريب المنون به كما حكته آية الطور ، بل إنهم رأوا أمارات ذلك حينما مات أبو طالب أقوى حماته العصبيين والسيدة خديجة رضي الله عنها أقوى أعضاده الروحيين ، واشتد عليه الحرج حتى خرج إلى الطائف ولم يستطع أن يدخل مكة بعد عودته منها مخفقاً إلا بجوار أحد الزعماء على ما ذكرته روايات السيرة . فمن الطبيعي والحالة هذه أن يهمهم أمر اتصاله بأهل يثرب وتفاهمه معهم وهجرته إليهم ، وأن يحسبوا لذلك أعظم الحساب بعد أن رأوا أن الغلبة لهم قد تمت أو كادت ، وأن دعوته قد أخفقت أو كادت ، وأن أمره لن يلبث أن يذهب بدداً .

وما ذكرته الآية من التآمر على حبسه أو إخراجه بالإضافة إلى قتله يدل على أن السلطات الرسمية في مكة قد اشتركت آخر الأمر في هذا الموقف الخطر واندمجت فيه لأنها استشعرت الخطر العظيم الذي قد يحدق بمكة ويهدد مصالحها الكبرى من نجاح هجرة النبي إلى يثرب وعواقبها . ويتبادر لنا أن القصد من فكرة الإخراج هو نفي النبي بالقوة من مكة إلى مكان يضطر إلى البقاء فيه مشلول الحركة مأمون الخطر والعاقبة ؛

فليس ثمة معنى غير هذا للتآمر على إخراج النبي في جملة ما خطر لبالهم من وسائل يتفادون بها خطره .

٥ – ومنها آية في سوة التوبة وهي :

« إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٤٠

والآية تذكر بما كان من عناية الله ونصره لنبيه حينما اضطر إلى الخروج من مكة على أثر وصول الخبر إليه بقرار اغتياله على ما ذكرناه سابقاً .

والمجمع عليه أن صاحبه هو أبو بكر رضي الله عنه الذي خرج وإياه من مكة مستخفيين . ولقد ذكرت الروايات(١) أنه قد كبر على زعماء قريش إفلات النبي من أيديهم ، وقد كانوا أدركوا الخطر العظيم الذي يحدق بهم في حالة إفلاته ووصوله إلى يثرب ؛ فأرسلوا خلفه من يبحث عنه ويقبض عليه ، ويحول دون استمراره في طريقه ؛ وشعر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فاختفى هووصاحبه في الغار الذي تذكر الرواياتأنه في جبل أبي ثور من الجبال المحيطة بمكة ريثما يخف الطلب ، وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات .

والآية تتضمن التنويه بالعناية الربانية بالنبي أولا ، وبما كان من رباطة جأشه في هذا الموقف العصيب ثانياً ، ثم بما كان من أثر إفلاته ونجاحه والتحاقه بالمدينة في قوة الإسلام وانتشاره وكبت أعدائه مما هو مندمج في الفقرة الأخيرة منها .

وبما لا ريب فيه أن هذا الحادث العظيم من أعظم حوادث السيرة النبوية شأناً

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣٨ ـ ٥٣

وأبعدها فيها مدى ، وأنه التاج الذي كلل حركة هجرة المسلمين إلى يثرب التي بدأت قبله، والتي قلنا إنها كانت بدء تعالي الإسلام وعظمته ؛ بل من الحق أن يقال : إن نجاح النبي في الإفلات هو الأصل الأقوى فيما كان من آثار هذه الحركة .

ومهما كان من أمر زعماء مكة وتآمرهم ، وظروف هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الشخصية ، فإن هناك نقطة جديرة بالذكر والتنويه في صدد عظمة أخلاق السيد الرسول ورباطة جأشه وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ؛ وهي أنه لم يستعجل بالهجرة شخصيا عقب أخذه البيعة على النصر والدفاع من زعماء يثرب ، وظل في مكة يدبر أمر هجرة أصحابه ويشجعهم عليها ويرعى سيرها ، ويخلفهم – على ما يتبادر – في قضاء ما كان حتما عليهم قضاؤه من أمور إلى أن تمت هجرة من اعتزم الهجرة أو غالبيتهم .

الصورة الثالثة عشرة

هذا وبمناسبة هذه الآيات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم في صدد محنة الأذى والفتنة ونتائجها رأينا أن نبحث عما إذا كان نال النبي شخصيا شيء من الأذى عدا ما كان من التآمر عليه ، واضطراره إلى الخروج خفية ومحاولة اللحاق به فنقول :

أولا : إنه ليس في القرآن شيء صريح من ذلك إلا ما حكته آيتان في سورتي الأنبياء والفرقان من استهزاء الكفار به وهما هاتان :

١ — وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ ... الأنبياء ٣٦

٢ — وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا . . . الفرقان ٤١

ثم النعوت المتنوعة التي كانوا ينعتونه بها من كاذب ومفتر وساحر وشاعر وكاهن ومجنون مما أوردنا الآيات التي ذكرت فيها في مناسبات سابقة .

وفي سورة الحج هذه الآية :

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ... ٧٢

وقد تضمنت ذكر ما كان من شدة وقع القرآن على الكفار حتى يكادون يسطون بالنبي . غير أن ذلك ظل في نطاق التصور .

ثانيا : إن ابن هشام يروي روايات عديدة تذكر وقوع بعض الأذى عليه . منها ما روينا آنفاً وقوعه من نثر التراب على رأسه في مكة وسبه وحصبه في الطائف . ومنها هذه الوقائع :

١ ـ مر أبو جهل برسول الله عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف من أمره فبلغ ذلك عمه حمزة ولم يكن قد أسلم فثار غضبه فأقبل على أبي جهل في فناء الكعبة فضربه بقوسه فشجه شجة منكرة ثم قال له : أتشتمه وأنا على دينه فردّ عليّ إذا استطعت . فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقال لهم دعوه فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً(١) .

٢ ـ جلس عقبة بن أبي معيط إلى النبي فاستمع له فجاء إليه أبي بن خلف فقال له وجهي من وجهك حرام إن جلست إليه واستمعت له ثانية وإن أنت لم تأته فتتفل في وجهه ففعل عدو الله ذلك(٢) .

٣ ـ اجتمع أشراف قريش يوماً في الحجر فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل وقد صبرنا منه على أمر عظيم . وبينما هم في كلامهم جاء رسول الله فاستلم الركن ثم طاف فلما مر بهم غمزوه ببعض القول فكظم غيظه ثم طاف فغمزوه ثانية فوقف عليه فقال أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبيح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر فصاروا يرفئونه بأحسن القول

---

(١) ج ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢ (٢) ص ٣٨٧

ويقولون له انصرف يا أبا القاسم فو الله ما كنت جهولا . ثم اجتمعوا في الغد فتذاكروا ما كان بالأمس وندموا على تركه فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلهتنا وديننا فقال لهم نعم أنا فتقدم واحد منهم فأخذه بمجمع ردائه فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله . وقد نالوا من أبي بكر حتى صدعوا فرق رأسه(١) .

٤ ـ كان أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط جيراناً لبيت رسول الله فكانوا يطرحون عليه رحم الشاة وهو يصلي . ومنهم من كان يطرحها في قدره إذا نصبت (٢) ولا نريد أن ننفي احتمال وقوع هذه الوقائع . غير أن عدم ذكر القرآن شيئاما يدل على ذلك مع ذكره محاولات الزعماء أو فريق منهم التقرب إليه والتفاهم معه . وما يستفاد من الآيات القرآنية الكثيرة من وقوفه دائماً موقف القوي المستعلي فيما كان يتلوه من آيات فيها عنف وصفعات وبراهين دامغات . وتنديدات لاذعات يجعلنا نميل إلى التوقف في هذه الوقائع .

ولقد بقي ذوو العصبيات من المسلمين في نجوة من الأذى ، ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم عصبية قوية ؛ فمن المعقول أن يكون قد بقي هو كذلك في نجوة من الأذى . ولقد روي أن الزعماء كانوا يتحاشونه ويخافونه ويناشدونه الرحم أحياناً حينما يبدو عليه الغضب من موقف ما حتى لا ينزل عليه قرآن فيهم يدمغهم ويسجل عليهم اللعنة الخالدة . ونعتقد أن هذا محتمل الصحة جدا حتى مع ذكر أنهم غير مؤمنين بنبوته ؛ فقد كانوا ينعتونه بالشاعر ، وكان العرب وزعماؤهم في مقدمتهم يتحاشون الشعراء لئلا يهجوهم بهجو تسير به الركبان . كذلك كان بعضهم يعتقد أنه ساحر وبعضهم يعتقد أنه كاهن ، وكانت هذه الطبقة مما يبعث في نفوس الناس الرهبة والهيبة ؛ هذا إلى ما نعتقده من أن كثيراً من

---

(١) ج ١ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ (٢) ج ٢ ص ٢٥

الزعماء كانوا يعتقدون صدق نبوته ، وكان موقفهم منه موقف المعاند المكابر المغيظ استكباراً واندفاعا بالأنانية والأغراض الذاتية كما ذكر القرآن ذلك في آيات كثيرة نقلنا فيما سبق جملة منها .

وفي سورة الحجر آيتان مهمتان في صدد تأييد ما نميل إليه وهما :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . . .
٩٤ ـ ٩٥

حيث يطمئن الله عز وجل رسوله ويبشره بأنه مانع عنه كيد الكافرين ومكرهم وأذاهم .

وهذا التطمين منطو كذلك في آية أخرى في سورة الطور التي هي من السور المتأخرة في النزول وهي :

« وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . . .
٤٨

والله سبحانه وتعالى أعلم .

الصورة الرابعة عشرة

وإليك الآن ما يتصل باستمرار المحنة على المسلمين الذين ظلوا في مكة :

١ ـ في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا من لَدُنكَ نَصِيراً . . .
٧٥

والآية صريحة بأنه كان في مكة رجال ونساء وولدان مسلمون عجزوا عن الهجرة

وبأنهم كانوا في كرب عظيم من أهل مكة أو من ذويهم ، يدعون الله بالفرج من شدتهم . ولقد جاءت الآية في سياق تحريض المسلمين على قتال أهل مكة ؛ وهذا متصل بالعداء الذي بدأ بعدوان هؤلاء على المسلمين في مكة ؛ والآية صريحة بأن التحريض يستهدف إنقاذ المستضعفين أيضاً ؛ وهذا إنما يكون بسبب استمرار محنة الأذى والفتنة عليهم بطبيعة الحال .

٢ ـ وفي سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً . إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً . وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ... ٩٧ ـ ١٠٠

والآيات صريحة بأنه كان هناك مسلمون لم يهاجروا ، وبأن منهم من كان مستضعفاً عاجزاً حقا ، كما أن منهم من ثقل عليه أمر الهجرة لسبب من الأسباب لا يبرره الإخلاص لدين الله ، ففضل البقاء ولو تعرض لمحنة الأذى والفتنة . وقد حملت الآيات على هؤلاء وأنذرتهم ، ثم حرضت على الهجرة مطلقاً وأوجبت على كل مسلم متخلف اغتنام الفرصة الممكنة لها ، لأنها تنقذه من المحنة ، وتيسر له الحرية والطمأنينة ووسائل إزعاج العدو معا . وكل هذا متصل بمحنة الأذى في مكة وآثارها كما هو المتبادر .

٣ ـ في سورة الفتح الآيات التالية :

« هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم

مِنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا . ٢٥ ـ ٢٦

والآية الأولى صريحة بأنه كان في مكة رجال ونساء مؤمنون ؛ وقد تلهم روحها بأنهم كانوا يكتمون إسلامهم خشية الأذى والفتنة ؛ كما تلهم أن بقاءهم في مكة لعذر مقبول: هو العجز أو الضعف على ماهو المتبادر .

أما الآية الثانية فالمجمع عليه أنها في صدد ما كان من مفاوضة بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش في الحديبية ؛ والروايات تذكر أن النبي خرج مع المسلمين في السنة السادسة للهجرة بقصد زيارة الكعبة ، فتصدى لهم أهل مكة ومنعوهم ، وكاد ينشب القتال بينهم ، ثم جنح إلى المفاوضة في عقد صلح ؛ وقد تمسك المفاوضون القرشيون ببعض الشروط بسائق الحمية الجاهلية ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم مسايرتهم اجتهاداً منه بأن في عقد الصلح فوائد عظيمة ، وكانت هذه المسايرة مما آلم المسلمين في بادئ الأمر ؛ وقد كان من جملة هذه الشروط أن يرد النبي من يأتي إليه مسلماً من مكة إلى المدينة برغم أهله ، وعدم تقيد أهل مكة بمثل هذا الشرط فيمن يعود من المدينة إلى مكة من المهاجرين. والروايات متسقة إجمالا مع روح الآية كما هو المتبادر(١) .

ومما روى أن ابن سهيل بن عمرو مندوب قريش في المفاوضة وكان مسلماً قد فر يرسف في أغلاله التي قيده بها أبوه وجاء إلى معسكر المسلمين في الحديبية بعد أن تم الاتفاق على الشروط ، فلم يسع النبي صلى الله عليه وسلم إلا الوفاء بالشرط ورد الابن لأبيه .

وفي كل ما ذكر مما ألهمته الآيات وأوضحته الروايات المتسقة معها مشاهد متصلة بالمحنة كما هو ظاهر .

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩ ـ ١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ ـ ٣٧١ .

٤ – في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ... ١٠ – ١١

والآيـة الأولى صريحـة بأن بعض النساء المسلمات اللاتي عجزن في أول الأمر عن اللحوق بالمهاجرين أمكنتهن الفرصة فسارعن إلى اغتنامها . ومضمون الآيات متسق مع الروايات[١] التي تذكر أن هذا الحادث وقع بعد صلح الحديبية واغتناما لفرصته . وقد جاء ذوو النساء إلى المدينة يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنهت الآية عن إعادتهن وأمرت بالتعويض على ذويهن . وفرار النساء يدل بطبيعة الحال على أنهن كن يلقين الأذى ويتعرضن للفتنة في مكة ، ويدل كذلك على قوة إيمانهن وشجاعتهن في الوقت نفسه مما يحتوي في حد ذاته مشهداً رائعاً من مشاهد السيرة ومواقف النساء فيها .

وفي الآيتين ما يدل على أن بعض زوجات المسلمين المهاجرين قد تمسكن بكفرهن طيلة العهد المكي ، ولما هاجر أزواجهن رفضن اللحوق بهم ، وفضلن البقاء ، مع أهلهن الكفار في مكة ، كما فيها ما يدل على أن بعضهن تركن أزواجهن في المدينة وعدن منها إلى مكة أيضاً . وفي هذا وذاك مشاهد من العهد المكي كما هو واضح .

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٥ – ٣٧٧ وانظر تفسير الآيات في تفسير الطبري والبغوي والخازن وابن كثير .

الصورة الخامسة عشرة

بقيت نقطة نريد أن نبحثها وهي ما إذا كان من المسلمين من كان يقابل الأذى والعدوان بمثله في مكة أو همّ بذلك، فنقول إن في بعض الآيات مايلهم الإيجاب الذي نعتقد أنه مما يتسق مع طبيعة الأمور؛ إذ لا يصح أن يفترض خضوع المسلمين كافة للأذى وصبرهم عليه. وكان فيهم الأقوياء بأشخاصهم أمثال عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما، كما كان فيهم الأقوياء بعصبياتهم أيضاً، وخاصة في بيئة مثل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره قويت فيهما العصبية الاجتماعية، وكانت ناظماً مهما في علاقات الناس بعضهم ببعض وحفظ حقوقهم وكراماتهم وأعراضهم.

١ – ففي سورة النساء جاءت هذه الآية في معرض التنديد بتقاعس بعض المسلمين عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ... ٧٧

وهي صريحة بأن بعض المسلمين أمروا بالكف عن القتال والاكتفاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في ظرف سابق، فلما فرض عليهم القتال احتج بعضهم وبدا عليه الخوف؛ وقد روى المفسرون والرواة [1] في سياقها أن فريقاً من ذوي العصبيات من المسلمين الأولين في مكة مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم استأذنوا النبي في مقابلة عدوان الكفار وأذاهم في مكة بالمثل فلم يأذن لهم وأمرهم بالصبر؛ والرواية متسقة إجمالا مع أول الآية، إذ المتبادر أن يكون الأمر بالكف وعدم الإذن في ظروف مكة، لأن القتال قد فرض في وقت مبكر من العهد المدني، ولم يكد

(١) انظر تفسير الآية في كتب التفسير السابق ذكرها

يمر على هجرة النبي صلى الله عليه وسلم بضعة أشهر حتى أخذ يرسل سراياه . ولما لم يكن في القرآن المكي صراحة بذلك فتكون الرغبة من جانب الراغبين ، وعدم الإذن من جانب النبي مما لم ينزل به قرآن ، وهذا مما وقع كثيراً في احداث السيرة . والروايات تذكر أن التنديد موجه للمذكورة اسماؤهم آنفا ورفاقهم من المهاجرين الأولين مع أن هؤلاء كانوا وظلوا من الرعيل الأول المخلصين المستغرقين في دين الله المجاهدين في سبيله . ونستبعد جداً أن يكونوا تذمروا من فرض الجهاد وطلبوا تأجيله بعد الهجرة مع أنهم كانوا يتوقون إليه ويستأذنون به في مكة . وقد محصنا هذه النقطة في تفسيرنا استلهاما من سياق الآيات السابق واللاحق ووصلنا إلى تقرير كون المتذمرين هم من فريق المنافقين ومرضى القلوب . وكل من يتمعن في آيات سورة النساء ٦٠ ـ ٨٣ يصل فيما نعتقد إلى هذه النتيجة التي وصلنا إليها .

٢ ـ وفي سورة الأنعام الآية التالية :

« وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . . .

١٠٨

وفي الآية نهي صريح للمسلمين عن شتم الكفار أو شتم آلهتهم حتى لا يقابلوا بشتم الله ، وتقرير طبيعة بشرية بأن كل أمرئ يرى ماهو عليه هو الصواب فلا يتحمل تسفيها فيه ، وفيها تلقين للمسلمين أن يتركوا أمرهم لله الذي سوف يعاملهم يوم القيامة بما يستحقون وبالتالي تلقينهم الأناة وعدم الغضب .

والآية تلهم بقوة أن بعض المسلمين كانوا أحياناً يوجهون الشتائم إلى الكفار بسبيل التنديد بهم وبعقائدهم مواجهة ؛ وهذا لا يكون إلا من أناس أقوياء الشخصية ، جرآء على الباطل مهما قوى أصحابه ؛ وبالتالى تلهم بقوة أن من المسلمين من كانوا كذلك وكانوا لا يرون أن يسكتوا لبغاة الكفار وفجارهم .

٣ ـ في سورة الجاثية الآية التالية :

« قُل لِّلَّذِينَ ءامَنُوا يَغفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ... ١٤

وقد نقل الرواة في سياقها أن بعض المشركين شتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فشتمه وكاد الأمر يتفاقم ، فنزلت الآية تلقن سعة الصدر والصبر وعدم المضي في المقابلة إلى نهاية لاتحمد عاقبتها [١] . والرواية لاتخلو من اتساق مع الآية وروحها فيما هو المتبادر ؛ وإن كان المحتمل أيضاً أن يكون المؤمن الذي أمرت الآية بنصحه قد كان يبدي تذمره من موقف الكفار ضد المسلمين بصورة عامة ويقترح عدم السكوت لهم مما يخرج عن نطاق البحث وتأييده .

٤ ـ في سورة النحل الآيات التالية :

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ . وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ . . .

١٢٥ ـ ١٢٨

ولقد ذكرت الروايات أن الآيات ١٢٦ ـ ١٢٨ مدنيات ، وأنها نزلت على أثر وقعة أحد حينما اشتد الحزن بالنبي صلى الله عليه وسلم على استشهاد عمه حمزة رضى الله عنه وبقر بطنه ، فحلف بأن يمثل بسبعين من كفار قريش انتقاماً .

ومضمون الآيات واتصالها بما سبقها يحمل على التوقف في قبول هذه الرواية في صدد

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والبغوي والخازن

الآيات ، ويساعد على تأويلها بأنها تحتوي خطة ربانية قرآنية للنبي والمسلمين في الدعوة : فعليهم أن يدعوا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلوا بالتي هي أحسن ، فإذا قوبلوا مقابلة سيئة فلهم الخيار في المقابلة بالمثل فحسب ، مع ترجيح الصبر والتسامح وترك الأمر لله . والمتبادر أن هذا التلقين إنما جاء بسبب ما كان من مواقف الكفار التي قد لاتطاق ، وما كان يعتلج في نفوس الأقوياء من المسلمين من الرغبة في الوقوف منها موقف المقابلة ، بل قد تلهم أن بعضهم قد وقف فعلا منها موقفا شديداً ومتطرفاً (١) .

٥ ـ في سورة الشورى الآيات التالية :

« فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ . وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ . وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ . . . ٣٦ ـ ٤٣

وقد قال بعض المفسرين والرواة إن هذه الآيات أو بعضها نزلت في الثناء على أخلاق الأنصار ، كما قال بعضهم إنها أو بعضها نزلت حينما أخذ المسلمون يجاهدون انتصاراً لأنفسهم من الأذى الذي لحق بهم في مكة ، وهذا يعني أنها مدنيات في حين أن المفسرين لم يذكروا ذلك . والآيات متصلة بما قبلها وما بعدها اتصالا وثيقاً أولا ، وطابع العهد المكي وأسلوبه غالبان عليها ثانيا . وهي سلسلة رائعة في بيان خير الأخلاق التي يتحلى بها المسلم

(١) إن المفسر الطبري يروي مدنية الآيات على النحو الذي أوردناه . ويروي مع ذلك رواية عن بعض التابعين أن بعض المسلمين في مكة قالوا يارسول الله لو أذن لنا الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب . فأنزل الله الآيات . وهذه الرواية مؤيدة لما أوردناه كما هو ظاهر .

المخلص ، والحدود التي يجب أن يقف عندها المسلم في مقابلة العدوان بالمثـل ، والحث مع ذلك على الصبر والمغفرة والتسامح ، وقد تكررت السلاسل المماثلة في القرآن المـكي، كسلاسل الأنعام ١٥٠ ـ ١٥٣ والأعراف ٣١ ـ ٣٣ والرعد ١٩ ـ ٢٦ والإسراء ٢٣ ـ ٤٠ الخ .

والذي يتبادر لنـا من روح الآيات ونصها أن بعض المسلمين كانوا يودون مقابلة الـكفار في مكة على أذاهم بالمثل ولا يرون الإذعان والصبر على هذا الأذى فاقتضت حكمة التنزيل إيحاءها لتكون الخطة المثلى للمسلمين في موقفهم الحاضر آنذاك وفي كل موقف مماثل .

المبحث السابع

الأزمات النبوية النفسية

بواعث الأزمات النفسية ومداها في صفحات السيرة النبوية ــ أنواع الآيات الدالة عليها ــ الآيات الدالة على حدة الأزمات وتعليقات عليها ــ الآيات الدالة على حزن النبي وضيق صدره من مواقف الكفار وتعليقات عليها ــ الآيات المتضمنة تسلية النبي ودلالتها ــ الآيات المتضمنة تصبير النبي ودلالتها ــ تأثر النبي بطلب الكفار إقصاء المساكين عنه ــ خطور التساهل مع الكفار على باله إنما هو في ظروف أزمة نفسية ــ ما كان يثيره تمتع الكفار بالمال والقوة من أزمة في النبي ومدى ذلك ــ موقف أكثر أقارب النبي الجحودى في مكة وما كان يثيره في نفسه من أزمات حادة .

الصورة الأولى

في القرآن المكي آيات كثيرة تعبر عما كان يشعر به النبي صلى الله عليه وسلم من حزن وألم ، وتدل على أنه كان يطرأ عليه من حين لآخر أزمات نفسية حادة بسبب موقف الأكثرية الساحقة من العرب عامة وأهل مكة خاصة السلبي من الدعوة ، ثم بسبب موقف أكثر زعماء مكة السلبي والعدواني منها ومن المسلمين ؛ ومما لاريب فيه أن هذا مما يتصل اتصالا وثيقاً بالسيرة النبوية في العهد المكي ، ومما ينطوي فيه بعض صوره ومشاهده ؛ وهو ماجعلنا نفرد لهذا الموضوع مبحثاً خاصا نلم به من مختلف نواحيه .

والآيات المتصلة بهذا الموضوع أنواع : منها الصريح القوي في تعبيره ودلالته ، ومنها مايمكن أن يكون بمثابة قرائن وملهمات ، كما أن منها مايتضمن صوراً من صور العهد ويلهم أنه إنما كان في ساعة أزمة نفسية ؛ وسنستعرض الآيات على حسب هذا التصنيف ، مع التنبيه أولا إلى أننا لم نحص كل مايمكن أن يدخل في هذا الباب ، اكتفاء بما اخترنا إيراده

وعرضه ؛ وثانياً أننا رتبنا آيات سور كل صنف على حسب ترتيب نزولها ، لنساعد القارىء على معرفة ظرف الأزمة التي تعبر عنها أو تشير إليها صراحة أو ضمنا .

الصُّورة الثانية

فأولا مايدل على حدة الأزمات :

١ — في سورة فاطر الآية التالية :

« أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ . . .

٨

إذ احتوت نهياً للنبي عن إهلاك نفسه حسرة على عدم إيمان الجاحدين ، وتسلية له بتقرير أن الهداية والضلال من الله ، وإذ تلهم أنها نزلت في وقت اشتد فيه الحزن والغم على النبي صلى الله عليه وسلم بسبب موقف الجحود الذي يقفه قومه من دعوته .

٢ — في سورة طه الآيات التالية :

« طه . مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ . إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ . . .

١ — ٣

إذ احتوت تنبيها للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله لم ينزل عليه القرآن ويندبه لرسالته ليشقى ويحمل نفسه فوق طاقتها ، وإنما لتذكير من حسنت سريرته واستشعر خوف الله ؛ وفي هذا تسلية وتسكين للنبي صلى الله عليه وسلم في ظرف من ظروف اشتداد حزنه وغمه على ماهو المتبادر .

٣ — في سورة الشعراء الآيات التالية .

« طسٓمٓ . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ . لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ . إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ

لَهَا خَٰضِعِينَ . وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ . . .

١ – ٦

إذ احتوت عتاباً محبباً للنبي صلى الله عليه وسلم على مايبدو منه من حزن شديد يكاد يقتل به نفسه بسبب عـدم إيمان الناس وإعراضهم ، وتسلية له وتثبيتاً ، فالله قادر على إهلاكهم ، وسوف يرون عاقبة استهزائهم بذكر الله وآياته. ومما لاريب فيه أنها نزلت في ظرف اشتد فيه حزن النبي وهمه من مواقف التـكذيب والإعراض وهـذا مما احتوته الآيات صراحة أيضاً .

ومن الجدير بالتنبيه أنه أعقب هذه الآيات سلسلة من قصص الأنبياء تضمنت ما كان من مواقف الأمم السابقة عربية وغير عربية من أنبيائهم ؛ وفيها مماثلة لما كان يبدو من كفار مكة وزعمائها من مواقف ويصدر عنهم من أقوال العناد والمـكابرة ، مما يصح معه أن يقال إنها جاءت بسبيل تسلية النبي صلى الله عليه وسلم مما ألم به ، وإعلامه أن الأنبياء من قبله قد لقوا مالقيه ، وقد سمعوا ماسمعوه ؛ هذا إلى مافيها من إنذار الـكفار بعاقبة مثل عاقبة الذين خلوا من قبلهم ، ووقفوا مثل مواقفهم أيضاً .

٤ – في سورة هود الآية التالية .

« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ...

١٢

إذ احتوت تنبيها للنبي صلى الله عليه وسلم إلى مايمكن أن يجول في خاطره من تبرم و ضيق صدر ، فيتفادى تلاوة بعض ما يوحى إليه على الـكفار بسبب مواقفهم وخشيته تحديهم بالإتيان بملك يصدقه ، أو استنزال كنز يغني به ويقوم دليلا على رعاية الله له ، وإذ احتوت تثبيتا له وطمأنة ، فليس هو إلا نذيراً ، وليس وكيلا على الناس مكلفا حملهم على الإيمان.

وقد روى الرواة أن الكفار كانوا يطالبون النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات فلا يستجيب إليهم ، ثم توحى الآيات إليه فيسخرون منه ، ويقولون : هلا استنزلت كنزاً أو أو ملكا بدلا من هذه الآيات إذا كانت من عند الله ؟ فكان يخجل ويتهرب منهم أحيانا. وليس في الرواية مالا يتسق مع الآية إجمالا .وصورة الأزمة الشديدة النفسية في الآية بارزة كل البروز

٥ ـ في سورة الكهف الآيتان التاليتان :

« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا. إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . .

٦ ـ ٧

والآية الأولى مثل آية الشعراء الثالثة ، وفي الثانية تسلية بأن الدنيا إنما هي دار اختبار لمعرفة أعمال الناس . وتكرار الخطاب المماثل في فترتين متباعدتين يدل من دون ريب على تكرار الظروف ، وبالتالي على تكرار الأزمة من جراء موقف الجاحدين .

الصورة الثالثة

وثانيا الآيات التي تشير إلى حزن النبي وضيق صدره من موقف الكفار وأقوالهم .

١ ـ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . . .

يس ٧٦

٢ ـ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . . .

النمل ٧٠

٣ ـ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . . . الحجر ٩٧

٤ ـ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ .. الأنعام ٣٣

٥ — وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . . .

يونس ٦٥

٦ — وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . . . النحل ١٢٧

وهذه الآيات متماثلة بعض التماثل ، وهي بسبيل الإشارة إلى ما كان يعتلج في نفس النبي من حزن وفي صدره من ضيق بسبب مواقف الكفار ، أو بالأحرى طغاتهم ، الجحودية والتكذيبية والتعطيلية والعدوانية ، وما كانوا يوجهون إليه من تهم وتحديات ويبدوا أن مواقف الجاحدين كانت أحيانا تشتد حتى تؤثر في نفسه تأثيراً شديداً وتثير فيها الحزن ، فكانت الآيات توحي إليه في هذه الظروف . وتكرار الآيات يدل كما هو المتبادر على تكرار المشاهد الباعثة من حين إلى آخر . . .

الصورة الرابعة

وثالثا الآيات التي تتضمن تسلية النبي لعدم اهتداء الناس :

١ — أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا . فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ... سورة الشرح

٢ — فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ . إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ . وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ . . . (١)

النمل ٧٩ ـ ٨١

(١) في سورة الروم آيات مماثلة بالنص لهذه الآيات . وسورة الروم من أواخر ما نزل ، والنمل مما نزل مبكراً .

٣ — إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ … القصص ٥٦

٤ — وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ … يونس ٩٩

٥ — وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ …

الأنعام ٣٥ ـ ٣٦

٦ — وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ … الأنعام ١٠٧

٧ — إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ … النحل ٣٧

٨ — فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . . .

الغاشية ٢١ ـ ٢٢

٩ — نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ … ق ٤٥

وهذه الآيات نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكي ، وفيها بعض التقارب في المعنى والهدف والنص كما هو ظاهر . وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من حين إلى حين ، لظروف أشد من ظروف ، ومواقف أنكى من مواقف ، بسبب عدم اهتداء الناس وموقفهم السلبي على شدة حرصه على اهتدائهم وخاصة من كان منهم محبباً إليه وكان يتوسم فيه الخير والارعواء ، فكانت الآيات تنزل

في هذا الظروف وبين حين وآخر مستهدفة في جملة ما تستهدفه تسليته وتخفيف ما يجده من لوعة ومضاضة .

الصورة الخامسة

ورابعا آيات التصبير :

١ — فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ... (١) القلم ٤٨ ـ ٥٠

٢ — فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ... قٓ ٣٩

٣ — قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ... يونس ١٠٨ ـ ١٠٩

٤ — فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ... غافر ٥٥

٥ — فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ... الأحقاف ٣٥

٦ — وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . . . الطور ٤٨

---

(١) صاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد أشارت آيات في سورة الصافات إلى قصته إشارة أوضح يستفاد منها أنه لما واجهه قومه بموقف الجحود يئس منهم وهجرهم حنقا وغيظا .

٧ — فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ . . .

الروم ٦٠

وهذه الآيات كتلك نزلت في مختلف أدوار التنزيل المكي؛ وتكرارها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشتد به الأمر من جراء مواقف الكفار الجحودية ومكايدهم من حين إلى آخر ، بسبب ظروف أشد من ظروف ، ومواقف أنكى من مواقف ، فكانت الآيات تنزل بين حين وآخر لتثبيته ، وبث الطمأنينة والهدوء في نفسه ويُلفت النظر خاصة إلى آيات القلم ، إذ تنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت الذي حدا به موقف قومه الجحودي إلى اليأس منهم وهجرهم ، مما يمكن أن يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تأثر من صدمة الجحود منذ العهد الباكر تأثراً غير يسير . كذلك يلفت النظر إلى آية الروم ، إذ توصيه بالصبر ، وألا يحمله استخفاف قومه له على الفتور أو تغيير موقفه ، أو النزوح ، مما يدل على حادث شديد الأثر أثار في نفسه شيئاً غير يسير من القلق .

الصورة السادسة

ونعتقد أن آيات سورة الأنعام ٥٢ ـ ٥٣ والكهف ٢٨ ـ ٣٠ والإسراء ٧٣ ـ ٧٥ والقصص ٨٥ ـ ٨٨ التي شرحناها في إحدى فقرات مواقف الزعماء المعتدلين في المبحث الثالث ،تنطوي على مشاهدمن أزمات النبي صلى الله عليه وسلم النفسية ؛ إذ يصح أن يقال في صدد آيات الأنعام والكهف: إن النبي إذا كان خطر على باله أن يهمل الفقراء والمساكين من المسلمين أو يصرفهم عنه حينما احتج الزعماء وطلبوا إقصاءهم عنه ليجلسوا إليه ويتحدثوا معه ، فإنما كان هذا في ساعة من ساعات أزماته النفسية ومنبعثاً عن حزنه الشديد لتمسك الزعماء بجحودهم ومعارضتهم ، ومتابعة الناس لهم ، وعن أمله في انحياز المعتدلين إلى صفه ؛ وإذ يصح أن يقال هذا كذلك في صدد آيات الإسراء والقصص ، وما يمكن أن يكون قد خطر على باله من التساهل والاستجابة لبعض مقترحات هؤلاء الزعماء .

الصُّورَةُ السَّابِعَة

ومما يصح إلحاقه بهذا الباب ما كان يثيره في نفسه ونفس المسلمين تمتع الكفار أو بالأحرى زعمائهم بزينة الحياة الدنيا من مال وبنين وجاه وقوة ، من أزمات ، إذ كان هذا في وقت كان فيه أكثر المسلمين في فقر وعوز شديدين ، وكان الأغنياء القليلون فيهم قد أنفقوا أموالهم ، وتعطلت مصالحهم بسبب مقاومة الزعماء الأقوياء لهم(١) .

وقد انطوت آيات مكية على الإشارة إلى هذا ، إذ جاء في سورة طه الآيتان التاليتان .

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ... ١٣١ ـ ١٣٢

إذ احتوتا نهياً للنبي عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وتذكيراً له على سبيل التسلية بأن هذا ليس إلا فتنة وابتلاء .

وإذ جاء في سورة الحجر أيضاً هاتان الآيتان المماثلتان بعض المماثلة للسابقتين :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . . .

٨٧ ـ ٨٨

وقد احتوتا تذكيراً للنبي صلى الله عليه وسلم بنعمة الله عليه واختصاصه بالقرآن ، ونهياً عن التأثر بما يتمتع به بعض صنوف الزعماء ، وعن الحزن على عدم ارعوائهم والفقرة الأخيرة من الآية الثانية ذات مغزى خاص فيما هو المتبادر ، متصل بآيات

---

(١) في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٠ أن أبا جهل كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف أنبه وقال له : تركت دين أبيك وهو خير منك ، فلنسفهن حلمك ولنقيلن رأيك ، ولنضعن شرفك ! وإن كان تاجراً أو ذا مال قال له : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك .

الأنعام والـكهف التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة ، إذ يستلهم منها أنها بسبيل إثارة عطف النبي على المؤمنين الذين كان أكثرهم فقراء ، واعتبارهم أفضل من الزعماء الـكافرين ونتبه أولا إلى أن من المحتمل أن يكون مما أثار هذه الأزمة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من أثر تمسك الزعماء بالجحود والعناد وتأثيرهم بقوة جاههم ومالهم في سائر الناس ، وما كان من اعتدادهم بما كانوا يتمتعون به ، واعتبارهم ذلك دليل حظوة ربانية ، ومانعاً لهم من العذاب ، وسبباً من أسباب الترفع عن الانخراط في سلك واحد مع الفقراء والصعاليك ، ومؤهلا لهم لرسالة الله ، مما رددته عنهم الآيات التالية وأمثالها :

١ — وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ... مريم ٧٣

٢ — أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ... المؤمنون ٥٥ ـ ٥٦

٣ — وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ... سبأ ٣٥

٤ — وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ... الزخرف ٣١

وثانياً إلى أن القرآن قد حكى مثل هذا الخاطر أو الأزمة النفسية النبوية عن موسى صلى الله عليه وسلم في إحدى آيات سورة يونس وهي :

« وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ... ٨٨

مما يمكن أن تـكون مما أورد على النبي صلى الله عليه وسلم خاطره وبرره له ، وأثار فيه أزمته النفسية أسوة بموسى عليه السلام .

الصورة الثامنة

وأخيراً نأتي إلى نقطة هامة نعتقد أنها كانت مما يثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أزمات نفسية حادة من آن لآخر ، ونظن أن بعض الآيات التي استعرضناها قد نزلت بسببها ، أو كانت فيما استهدفته في سياق تهدئة روع النبي ؛ ونعني بها تمسك أكثر أقارب النبي الأدنين بدين الجاهلية ، وعدم متابعتهم الدعوة مع أنهم كانوا يتعصبون لنصرته بقوة العصبية الاجتماعية ، وقد كان ذلك موضوع تنديد قرآني في آية من سورة الأنعام على ما قرره كثير من المفسرين وهي : « وهم ينهون عنه وينأون عنه ... ٢٦ » إذ قالوا في تفسيرها ما مفاده أن أقارب النبي الأدنين وخاصة عمه أبا طالب كانوا ينهون عن مس النبي صلى الله عليه وسلم بالأذى في حين يبتعدون عن دعوته .

ومن مشاهد النقطة التي نتكلم عنها ما انطوى في آيات من سورة الشعراء وهي :
« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ . وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ... ٢١٤ – ٢١٧

إذ تأمر النبي بإنذار عشيرته الأقربين بصورة خاصة ، وبإعلان البراءة مما هم عليه إذا عصوه ولم يستجيبوا إليه ، فإن من الطبيعي أن يكون هذا الأمر والاختصاص منبعثين عن وقوف أقاربه الأدنين أو أكثرهم موقف السلب والجحود من دعوته .

ولقد روى المفسرون والرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية دعا أقاربه بني عبد المطلب وكانوا نحو أربعين رجلا إلى وليمة أول مرة فتفرقوا فور انتهاء الطعام؛ لأن أبا لهب قال لهم إن محمدا سحرهم أو سيسحرهم ، وأنه دعاهم إلى وليمة ثانية ، وقال لهم يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني ؟ فأحجم القوم ، فقال عليّ رضي الله عنه : أنا يا رسول الله ،

فأخذ برقبته وقال : هـذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ، فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيعه ! ومما ذكروه كذلك أنه لما نزلت الآيات صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، وجعل الذي لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ، وأن النبي قال لهم : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ! ألهذا دعوتنا ؟ وهناك روايات أخرى تذكر أنه خاطب بني عبد المطلب والعباس عمه وصفية عمته وفاطمة ابنته وقال لهم : لا أغنى عنكم من الله شيئا .

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فالآية صريحة بأن أقارب النبي صلى الله عليه وسلم أو أكثرهم كانوا إلى حين نزول الآيات على دين الجاهلية ، فأمر النبي بإنذارهم ؛ كما أنه يستفاد من الروايات بصورة عامة أن أكثر أقاربه الأدنين قد ظلوا في موقفهم السلبي بعد هذا الإنذار ، إذ مات عمه وحاميه أبو طالب على دين الجاهلية ، وظل عمه العباس كذلك إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة بمدة طويلة ، حتى إنه كان في صف الكفار مقاتلا في غزوة بدر ومن أسراهم ، وكان في صفهم ومن أسراهم عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ابني عمي النبي أيضاً[1] ، وقد ناوأ عمه أبو لهب الدعوة أشد مناوأة إلى درجة أنه أخل بتقليد العصبية ومات على دين الجاهلية . وإذ ناوأه بعض أقاربه وإن كانوا دون أبي لهب شدة ؛ وإذ كان الذين تابعوه في العهد المكي من أقاربه الأدنين يكادون يعدّون على الأصابع ، بل إن عمه حمزة الذي أسلم في مكة قد ظل

---

(١) روى الطبري في تاريخه (ج٢ص ١٦٢) أن العباس قال للنبي (صلعم) قد كنت مسلماً فقال له الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فالله يجزيك . وأما ظاهرك فقد كان علينا . فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث .

بضع سنين متمسكا بدين الجاهلية ، ولم يسلم إلا في ظرف ثورة عصبية على ما ذكرته روايات السيرة .

وإنه لمن الطبيعي أن يثير هذا الموقف السلبي في نفس النبي صلى الله عليه وسلم أزمات حادة من حين لآخر ؛ فقد عرفت بيئة النبي وعصره بالتضامن أو العصبية العائلية ؛ ومن المعقول أن ينظر الناس فيما ينظرون إليه من أمر دعوة النبي وسيرها إلى موقف أقاربه الأدنين منها ، وأن يكون لهذا الموقف أثر فيهم ، وأن يتخذ الزعماء موقفهم إذا كان سلبيا ـ كما كان الأمر واقعاً ـ حجة للانصراف والمكابرة والتمسك بدين الآباء وتقليدهم ، ووسيلة للدعاية بين عامة الناس ضدها . هذا إلى ما كان يعتلج في نفس النبي صلى الله عليه وسلم من حزن على ضلال أقاربه وخاصة المحببين إليه منهم وما سوف يصيرون إليه من مصير رهيب ، ومن حرص شديد على هدايتهم ، مما انطوت على التعبير عنه الآيات التي استعرضناها من قبل .

المبحث الثامن

صورة متنوعة للمسلمين في العهد المكي

صلة هذه الصور بالسيرة النبوية ـ فقراء المسلمين ومساكينهم ـ أغنياء المسلمين ـ أقوياء المسلمين ـ تفاني المسلمين في تأييد النبي واتباع وصاياه ـ تفانيهم في الله وعبادته ـ أخلاقهم الكريمة ـ التفاوت بينهم في الطاعات ـ أبناء مسلمون وآباء كافرون ـ آباء مسلمون وأبناء كافرون ـ استمرار الصورتين المذكورتين إلى ما بعد الهجرة إلى يثرب ـ صور لما كان يقع بين المسلمين والكفار من جدل وأخذ ورد ـ سخرية الكفار من المسلمين ـ ارتداد بعض المسلمين وثباتهم على الكفر ـ ارتداد بعض المسلمين وتوبتهم ـ صور لمواقف صنف من بعض المسلمين .

الصورة الأولى

في القرآن آيات عدة نزلت في مناسبات متنوعة وفي مختلف أدوار التنزيل يمكن أن ترى فيها صور متنوعة للمسلمين في العهد المكي . ولما كانت هذه الصور متصلة بالسيرة والدعوة النبويتين وأثراً من آثارهما فقد رأينا أن نستعرضها في مبحث خاص تتم به الصورة العامة لهذا العهد ويختم به هذا الفصل .

وننبه إلى أن من هذه الصور ما مر الكلام عنه في المباحث السابقة ، ولما كان من المفيد أن يكون جميعها منتظما في سلك واحد فإننا سنكتفي بإشارة خاطفة إلى ما مر منها .

الصورة الثانية

وإليك سلسلة من هذه الصور :

(١) إنه كان بين المسلمين عدد غير يسير من الفقراء والمساكين ، وكانوا موضع استهزاء واحتقار من جانب الكفار وخاصة الزعماء ، ووسيلة إلى تعييرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهم ، وإلى الدعاية ضد الدعوة . وهذا منطو في آيات الأنعام (٥٢)

والكهف (٢٨) التي تكلمنا عنها في مبحث سابق، كما هو منطو في الآيات التالية:

«وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ . . . ص ٦٢ – ٦٣

(٢) إنه كان بينهم ذوو ثروة ومال أيضاً، ويمكن الاستدلال على هذا بآيات عدة امتدح فيها المسلمون الذين يؤتون الزكاة والذين ينفقون مما رزقهم الله سرا وعلانية والذين يؤدون حق الفقراء المعلوم في أموالهم مما لا يصح أن يكون إلا من مثل هذه الطبقة كما هو المتبادر. وإليك بعض هذه الآيات:

١ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ . . . فاطر ٢٩

٢ — هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . . . النمل ٢ – ٣

٣ — إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . . .

الذاريات ١٥ – ١٩

٤ — أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . . . القصص ٥٤

٥ — قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ . . .

المؤمنون ١ – ٨

٦ — إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ . وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ . وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . . .

المعارج ٢٢ ـ ٣٤

٧ — تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . . .

السجدة ١٦

٨ — وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . . .

الرعد ٢٢

ومما يلفت النظر أن الآيات التي تنوه بالمؤمنين الأغنياء وإنفاقهم ، أكثر من التي تتضمن الإشارة إلى الفقراء منهم ؛ والراجح أن هذا يستهدف التنويه بالعمل الذي هو عادة مما يصعب على النفوس من جهة ، وتعظم قيمته في ظروف مثل ظروف العهد المكي وما كان فيه من كثرة الفقراء والمحتاجين بين المسلمين الذين تقتضي تلك الظروف الاهتمام لأمرهم والبر بهم من جهة أخرى .

(٣) إنه كان بينهم الأقوياء بأشخاصهم أو عصبياتهم . وهو مضمون آيات الأنعام ١٠٨ والجاثية ١٤ والشورى ٣٦ ـ ٤١ والنحل ١٢٦ والنساء ٧٧ التي شرحناها في مبحث سابق .

(٤) إنهم كانوا متفانين في تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وتأييده ، واتباع أفضل الطرق التي يؤمرون بالسير فيها كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . . . الأعراف ١٥٧

٢ — الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ . . . الزمر ١٨

الصورة الثالثة

(٥) إنهم كانوا متفانين في عبادة الله في الليل والنهار ، والتقرب إليه بصالح الأعمال، والاستشعار لخشيته ، والخشوع للقرآن ، كما يستلهم من الآيات التالية :

١ — أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . . . يونس ٦٢ — ٦٤

٢ — اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ . . . الزمر ٢٣

٣ — إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . . . فصلت ٣٠ — ٣٣

٤ — إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ . أُولَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ . . . المؤمنون ٥٧ — ٦١

٥ — يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . . .

الإنسان ٧ ـ ١٠

٦ من هذا الباب آيات فاطر ٢٩ والأنعام ٥٢ والكهف ٢٨ والذاريات ١٥ ـ ١٩ والمؤمنون ١ ـ ١٠ والمعارج ٢٢ ـ ٢٤ وقد نقلناها سابقاً ؛ ومنه آيات الفرقان ٦٣ ـ ٧٦ التي ننقلها بعد قليل .

(٦) إنهم قد تأثروا بتعاليم الإسلام وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ووصايا القرآن تأثراً عظيماً واستغرقوا في ذلك ، وهذا يستلهم من آيات عدة أثنى الله فيها على أخلاقهم جميل الثناء ووصفها أقوى وصف كما ترى في ما يلي :

١ — وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ...

الفرقان ٦٣ ـ ٧٦

٢ — وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ . ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . . .

النحل ٤١ ـ ٤٢

٣ — أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ . ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ . وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ . وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ...   الرعد ١٩ ـ ٢٢

٤ ـ من هذا الباب آيات فصلت ٣٠ ـ ٣٣ والإنسان ٧ ـ ١٠ والشورى ٥٦ـ٤٣ والمعارج ٢٢ ـ ٣٤ والمؤمنون ١ ـ ١٠ وقد نقلناها سابقاً .

(٧) على أنه يستلهم من بعض الآيات أنه كان بينهم تفاوت في الطاعة والتفاني بحيث وصف فريق بالسابقين وفريق بأصحاب اليمين وفريق بالمقتصد وفريق بالسابق بالخيرات ، وبحيث نبه على ما هناك من تفاوت في جزائهم كما ترى في الآيات التالية :

١ — ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ . . .

فاطر ٣٢

٢ — وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً . فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ . وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ ...   الواقعة ٧ ـ ١٤

٣ — فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ ...   الواقعة ٣٦ ـ ٤٠

٤ — فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . . .

الواقعة ٨٨ ـ ٩١

الصّورة الرابعة

(٨) إنه كان منهم من أسلم وظل أبواه كافرين وبقي متمسكا رغم إلحاحهما وأذاهما المادي والمعنوي . وهذا منطو في آيات العنكبوت ٨ ولقمان ١٤ التي تكلمنا عنها في مبحث سابق .

(٩) إنه كان منهم كذلك من أسلم وظل أبناؤهم كافرين عاقين آباءهم كما يستلهم من هذه الآية :

« وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ...

الأحقاف ١٧

ولقد ظلت الصورتان المذكورتان إلى ما بعد الهجرة من مكة إلى يثرب ، وكان لهما أحيانا أثر أليم في بعض الظروف يصل إلى حد الحرج كما يستلهم من الآيات المدنية التالية:

١ — لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ...

المجادلة ٢٢

٢ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . . .

التوبة ٢٣

على أن من الحق والواجب أن ننبه على نقطة هامة . فإن تكرر التنبيه إلى عدم الالتزام بطاعة الآباء إذا ما أمروا أبناءهم بالشرك في القرآن المكي . وهو ما جاء في آيات

سورة لقمان (١٣ ـ ١٤) وآية سورة العنكبوت (٨) التي أوردنا نصها في مناسبة سابقة يسوغ القول إن صورة إيمان الأبناء في حالة احتفاظ الآباء بدينهم الجاهلي كانت أقوى وأوسع نطاقاً . وقد عرف هـذا معرفة يقينية من تراجم الرعيل الأول من مسلمي مكة وبخاصة قريش . وعرف إلى هـذا من هـذه التراجم أن معظم هذا الرعيل كانوا في سن الشباب أو في السن التي لم تتجاوز سن الشباب أي في سن النبي «صلعم» حين بعثته وهي سن الأربعين ودونها حيث يبدوا في هذا ظاهرة طبيعية ولـكنها هامة في بابها من حيث أن سن الشبـاب هي السن التي تسمح لصاحبهـا اعتناق الجـديد و نبذ القـديم دون سن الشيخوخة التي كانت من أسباب بقاء معظم زعماء قريش في صف الـكفار ـ على ماعرف من تراجمهم . ولقد تعرضوا لاضطهاد آبائهم وأعمامهم وزعماء أسرهم فاختاروا الهجرة إلى الحبشة بإذن الله ورسوله فرارا بدينهم . وكان العدد الأعظم من المهاجرين منهم نساء ورجال على ما ذكرناه قبل .

ولقد كانت الدعوة الإسلامية ثورة كبرى من مختلف نواحيها . فهي ثورة دينية . وثورة اجتماعية . وثورة أخلاقية . وثورة نفسية . وثورة فـكرية . وثورة إنسانية . وثورة سياسية . وثورة قومية . فكان أن استجاب لها شباب قريش وقاموا بأمرها بتأييد الله وإلهامه بجهادهم وتضحياتهم وتغلبهم على تقاليد آبائهم المتنوعة . فكانوا المثل الرائع الخالد.

(١٠) إن من المسلمين أناساً ارتدوا عن الإسلام وشرحوا بالـكفر صدراً وظـلوا في صفوف الـكفار ، كما أن منهم أناساً ارتدوا ثم ندموا واغتنموا فرصة ما فهاجروا وعادوا إلى حظيرة الإسلام مجاهدين صابرين ، وقد انطوت على ذلك آيات النحل ١٠٦ ـ ١٠٩ و ١١٠ التي شرحناها في مبحث محنة الأذى والفتنة .

(١١) إنه كان يبدو من بعضهم تبرم من شدة الأذى والمحنة والخوف منهما ، حتى إن منهم من كان يصل به الأمر إلى الختال والمراوغة والنفاق في دينه أو اليأس من نصر الله وتأييده مما انطوت عليه آيات العنـكبوت ١ ـ ٦ و ١٠ ـ ١١ والحج ١١ ـ ١٦ التي شرحناها في نفس المبحث أيضاً .

فصل
في الكتابيين في العهد المكي

صلة الكتابيين بالعرب الحجازيين والدعوة النبوية ـ تصنيف الآيات في أربعة مواضع ـ الأول : القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام ـ أول ذكر الكتابيين في القرآن ومداه ـ أول إشارة إلى الكتب السماوية ومداها ـ صفات النبي ودعوته الشاملة ـ تأييد القرآن لما قبله من الكتب ومداه ـ استشهاد علماء بني إسرائيل على صحة الوحي والتنزيل القرآني ومداه ـ استشهاد الكتابيين مطلقاً ومداه ـ تقرير معرفة الكتابيين للنبي والوحي القرآني ومداه ـ تنويه القرآن بأنبياء الكتابيين ومداه ـ تقرير وحدة الأسس بين الإسلام والأديان السابقة ومداه ـ تحدي الكفار باستشهاد الكتابيين ومداه ـ التقارب بين القصص القرآنية وقصص الكتب السابقة ومداه ـ هدوء الأسلوب القرآني المكي نحو الكتابيين ومغزاه ـ موقف النبي المسالم نحوهم منذ البدء ـ مايلهم الأسلوب القرآني من موقف الكتابيين موقف العطف والتأييد ـ الموضوع الثاني : صورة من سورة القصص لأيمان الكتابيين ومداها ـ صورة أخرى من سورة الإسراء ـ شهادة أحد الإسرائيليين وإيمانه ـ صورة أخرى من سورة العنكبوت لأيمان الكتابيين ـ صورة من سورة الرعد بفرحهم ومداها ـ استدراك وتعليق في صدد آية في سورة العنكبوت ـ الموضوع الثالث : الآيات التي تشير إلى اختلافات الكتابيين ومداها وأثرها ـ الموضوع الرابع : عدم ورود تفصيل عن الخلافات والانحرافات اليهودية في القرآن المكي بالنسبة لليهود المعاصرين ومغزاه ـ ماجاء في سورة مريم عن ولادة يحي وعيسى ومداه ـ ماجاء في سورة الزخرف عن عيسى ومداه ـ الفصول القرآنية عن المسيح الختوت حلا صادقاً للمشاكل والخلافات فيه ـ أثر التقريرات القرآنية في استجابة النصارى للدعوة الإسلامية

الصورة الأولى

عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد الحجاز والشام واحتكوا بهم ، وأخذوا عنهم كثيراً من الأفكار والمعارف ، ومنهم من دان باليهودية والنصرانية وتضلع باللغة العبرانية ، واطلع على ماعند اليهود والنصارى من كتب ؛ وقد عرفوا كذلك ما كان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق في الأمور الدينية والمذهبية ، وكان لكل ذلك صدى وأثر في نفوسهم وأذهانهم على مابسطناه في كتابنا عصر النبي وبيئته قبل البعثة .

وقد كان في مكة خاصة بعض الجاليات الكتابية ، يرجع تاريخ سكناها إلى ما قبل البعثة ، وشهدت أدوار الدعوة النبوية ولم تكن في عزلة عنها بطبيعة الحال .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إن بين الدعوة النبوية القرآنية والديانتين الكتابيتين جامعة تجمع بينها وهي وحدانية الله صريحة ومؤولة ، ووحدة المصدر الذي صدرت عنه الديانات الثلاث وكتبها ، وقد كان الكتابيون ممن وجهت إليهم الدعوة بصورة عامة وخاصة .

ولقد ردد القرآن المكي كل هذا في فصول وآيات كثيرة احتوت صوراً متنوعة . ومن الممكن تصنيفها في أربعة مواضع :

الأول : القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام .

الثاني : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

الثالث : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين .

الرابع : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الكتابيين العقائدية واستدراكاتها وتصويباتها .

الصُّورة الثانية

فأولا القرآن إزاء الكتابيين بوجه عام :

(١) في سورة المدثر الآية التالية .

« وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ... ٣١

ومضمونها يلهم تقرير وجود توافق بين ماجاء في القرآن وما عند أهل الكتاب ، وهذا من أسباب استهداف استيقانهم بصحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وتقرير عدم وجود محل لارتيابهم فيه .

والآية من الآيات التي نزلت مبكرة جدا بحيث يسوغ أن يقال إنها أولى الآيات التي ذكر فيها الكتابيون .

وهكذا يبدو أن مايلهم مضمونها من التقريرات قد كان منذ أوائل التنزيل ، ثم أخذ يزداد قوة ووضوحاً .

(٢) في سورة الأعلى الآيتان التاليتان :

« إِنَّ هَـٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ . . . ١٨ ـ ١٩

وفيهما كما هو ظاهر توكيد بأن بعض ماتضمنته آيات السورة من مبادئ الإسلام والسعادة الأخروية للمؤمنين الصالحين والشقاء للكافرين الفاجرين ، هو مما تضمنته الصحف المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وفيها بالتالي تقرير لوحدة الهدف والدعوة بين القرآن والكتب السماوية الأولى .

وقد ورد في سورة النجم آيات تماثل في نصها نص هذه الآيات ، وفي سياق تقرير المبادئ الإسلامية ، واتفاقها مع ما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وسورتا الأعلى والنجم ، وخاصة الأعلى . مما نزل مبكراً جدا ؛ وفيها تقرير تصديق القرآن لما تقدمه من كتب سماوية مما ظل القرآن يردده في مختلف أدوار التنزيل .

(٣) في سورة الأعراف الآيتان ١٥٦ ـ ١٥٧ اللتان نقلناهما في الفصل الأول ، ولقد جاءتا عقب انتهاء فصل من فصول قصة بني إسرائيل وعطفاً عليها بأسلوب الاستطراد الذي جرى عليه القرآن كثيرا .

والأولى تضمنت تقريراً بأن الكتابيين يجدون صفات النبي الأمي ـ العربي ـ محمد عليه السلام في التوراة والإنجيل ، وتنويها بالذين آمنوا به منهم وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ؛ والثانية تضمنت دعوة عامة إلى الناس جميعاً للإيمان بالنبي الأمي ـ العربي الذي يؤمن بالله وكتبه السماوية ـ كلماته ـ فدخل الكتابيون في شمول الدعوة أولا ، وأعلن أن النبي مؤيد ومصدق للكتب السماوية السابقة ثانياً .

وسورة الأعراف من السور المبكرة في النزول ، ولقد كانت الآيات تتلى في مكة ويسمعها الكتابيون الذين شملتهم الدعوة بطبيعة الحال ، ثم آمنوا بالنبي وصدقوا بما جاء به كما ذكرت ، وفيهم نصارى وفيهم يهود على ما سوف نذكره بعد . ولقد ذكرت آيات مدنية نقلناها في مناسبة سابقة أن اليهود كانوا يستفتحون على العرب بالنبي العربي القادم ونددت بهم لكفرهم بما عرفوا حسداً وبغياً (البقرة ٨٩ ـ ٩٠) ، فلم يبق مجال للشك في أن الكتابيين كانوا يتحدثون عن صفات النبي الأمي ـ العربي ويبشرون به قبل بعثته ، استناداً إلى بشارات ونعوت كانت في الأسفار التي بين أيديهم ، ولما بعث آمن به منهم من طابت نفسه وتجرد عن الحقد والهوى والحسد .

وهكذا تكون الآية الأولى قد تضمنت تقرير حقيقة كان يجهر بها الكتابيون قبل نزول القرآن ، وبالتالي تقرير التوافق والتساوق التامين بين التقريرات القرآنية وما عند الكتابيين وفي كتبهم من حقائق وبشارات ونعوت عرفوا أنها بشارات النبي العربي ونعوته .

الصورة الثالثة

(٤) في سورة فاطر الآيتان التاليتان :

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ . ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ . . .

٣١ ـ ٣٢

والأولى تضمنت تقريرا بتأييد القرآن لما احتوته الكتب السماوية ، وتطابقه مع ما جاء فيها من مبادئ وأهداف ؛ وفي هذا توكيد للوحدة بين الدعوة النبوية القرآنية والكتب السماوية عند الكتابيين ؛ أما الثانية فيبدوا أنها بسبيل تقرير أن القرآن قد جاء ليكون هو الكتاب المستقر بعد تلك الكتب ؛ وليكون شريعة الناس جميعاً ؛

وليكون الذين آمنوا بالقرآن والنبي الذى نزل عليه هم الذين اصطفاهم الله تعالى ليكونوا ورثة كتبه . وهذا من جوهر الدعوة النبوية المحمدية ، فهى مصدقة ووارثة لما قبلها وشريعة الناس جميعاً . وقد تكرر مضمون الآية الأولى في كل من سور الأنعام ويونس ويوسف والأحقاف كما ترى فيما يلي :

١ — وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . . . الأنعام ٩٢

٢ — وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ... يونس ٣٧

٣ — وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ... يوسف ١١١

٤ — وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ... الأحقاف ١٢

(٥) في سورة طه الآية التالية :

« وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ... ١٣٣

وقد تضمنت تقرير أن التساوق والتوافق بين القرآن ، والكتب السماوية الأولى حجة قائمة وكافية على صحة الرسالة المحمدية والتنزيل القرآني ، إلى تقرير الوحدة بين القرآن وهذه الكتب بأسلوب آخر ؛ وفي الآية دلالة على أن العرب كانوا ملمين بما تناولته واحتوته الكتب السماوية الأولى ، كما كانوا ينظرون إلى أهلها نظر الاعتماد والثقة .

(٦) في سورة الشعراء الآية التالية :

« أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ١٩٧

ولقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن الانسجام التام في السياق والنظم والمضمون

وخطاب كفار مكة يحمل على ترجيح مكيتها ، وهي بسبيل الاحتجاج باعتراف علماء بني إسرائيل بالقرآن على صحة وحي الله به ، كما أنها بسبيل تقرير التطابق والتساوق بينه وبين ما يعرفه علماء بني إسرائيل أولا ، وتقرير الاعتماد عليهم والثقة بشهادتهم شهادة إيجابية ثانية . وهي تلهم أن العرب كانوا كذلك يعتمدون عليهم ويثقون بهم ، إذ أريد إقامة الحجة عليهم باعتراف علمائهم بصحة التنزيل .

(٧) في سورة يونس الآية التالية :

« فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ... ٩٤

والخطاب وإن يكن موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم فهو في الحقيقة موجه للسامعين، وهذا مما جرى عليه الأسلوب القرآني كثيراً ، وقد تضمنت الآية استشهاد أهل الكتاب به ، والمتبادر أنه ينطوي في هذا تقرير استعداد أهل الكتاب للشهادة بصحة التنزيل القرآني ؛ كما ينطوي فيه تقرير طبيعة الوحدة والتساوق بين القرآن والكتب السماوية أولا ، والاعتماد على أهل هذه الكتب بالشهادة الإيجابية ثانيا .

(٨) في سورة الأنعام الآية التالية :

« ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ... ٢٠

وهذه الآية تضمنت تقريراً قويا وواضحا بمعرفة أهل الكتاب صحة التنزيل القرآني معرفة لا يتطرق إليها أي شك كما يعرف الأب ابنه . وطبيعي أن ينطوي في هذا تقرير الوحدة والتساوق من جهة ، والثقة والاعتماد من جهة أخرى .

وقد جاء في السورة نفسها آية أخرى تضمنت تقرير نفس المعاني بقوة أيضاً وهي هذه :

« أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ... ١١٤

الصورة الرابعة

(٩) وفي سور الأنعام أيضاً الآيات التالية :

« وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . وَإِسْمَـٰعِيلَ . وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ . أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ . . .

٨٤ ـ ٩٠

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات حكت موقفاً حجاجيا بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه . ومع أن التعقيب استهدف إقامة الحجة على المشركين العرب[1] فإن الآيات قد احتوت تنويهاً بأنبياء الكتابيين وما كانوا عليه من هدى وحق ، وأمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بجعلهم له قدوة والاهتداء بهديهم . وواضح أن هذا ينطوي أولا على تقرير احترام أنبياء الكتابيين ، وثانياً على تقرير وحدة الطريق والهدى بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته .

---

(١) جملة « فإن يكفر بها هؤلاء » عنت الكفار العرب على الأرجح .

(١٠) في سورة غافر الآيتان التاليتان :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ . هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ... ٥٣ ـ ٥٤

والآيتان تضمنتا التنويه بموسى وبني إسرائيل والتوراة ، مما هو متصل بما نحن بسبيل تقريره .

(١١) في سورة الشورى الآية التالية :

« شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ...

١٣

وفيها تقرير حاسم لوحدة الأسس فيما أوحى الله إلى الأنبياء ، وخاصة نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وماأوحى إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي تقرير لوحدة الأسس بين القرآن والكتب السماوية ، وبين المسلمين وأهل هذه الكتب وللتطابق والتساوق بين الفريقين .

(١٢) في سورة الأنبياء الآية التالية :

« وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . . . ٧

وقد احتوت تحدياً استشهادياً بالكتابيين أهل الذكر . والمتبادر أنه ينطوي فيها تقرير استعدادهم للشهادة وتقرير الثقة بهم والاعتماد عليهم فيها .

وفي سورة الأنبياء التي نزلت بعد النحل آية مماثلة لهذه الآية ، أوردت لنفس الغاية التي وردت لها آية النحل ، مما يؤكد المعنى الذي قررنا أنه ينطوي في هذه الآية ويدل على تكرر الموقف الذي احتيج فيه إلى تقرير التحدي الاستشهادي .

(١٣) في سورة الأنبياء الآية التالية :

« إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ... ٩٣

وقد جاءت عقب سلسة من قصص الأنبياء ، منها ماهو شخصي ، ومنها ماهو متصل بمواقف الكفار منهم وفيهم إبراهيم وموسى وهرون وإسحق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب ويونس – ذو النون – وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وزكريا ويحيي وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وقد نوهت الآيات بهم ، وجميعهم من أنبياء الكتابيين . أما الآية فقد احتوت تقرير وحدة طريق الأنبياء ، وأن هذه الطريق هي طريق المسلمين أيضاً ، واحتوت بالتالي تقرير الوحدة في الأسس بين الإسلام وأهل الكتاب .

وقد تكرر هذا المعنى في آية فى سورة « المؤمنون » التي نزلت بعد سورة الأنبياء مما يؤكد المعنى الذي استهدف تقريره كما هو واضح .

ويضاف إلى ماأوردناه من مفردات في كل منها صورة غير الأخرى ، مافي ماتوالى وروده في القرآن المكي من قصص أنبياء أهل الكتاب ، وأحوالهم الخاصة ، وسيرة أقوامهم معهم – في سور الفجر والقمر وق وص والأعراف ويس ومريم وطه والشعراء والنحل والقصص ويونس وهود ويوسف والحجر والأنعام والصافات وسبأ وغافر والزخرف والدخان والذاريات ونوح وإبراهيم والأنبياء والمؤمنون – مما يتطابق قليلا أو كثيراً مع ماورد في كتب أهل الكتاب ومافيها من ثناء على هؤلاء الأنبياء ودعوة للتأسي بهم واحترامهم، مما يتضمن معنى التساوق والاتحاد والتطابق بين القرآن والكتب السماوية ، وبالتالي بين الإسلام وأهل الكتاب .

الصورة الخامسة

وهكذا فإن القرآن منذ الوقت المبكر من العهد المكي أكد وظل يؤكد طيلة العهد وفي مختلف أدوار التنزيل وحدة المصدر الذي صدر عنه القرآن والكتب السماوية ،

ووحدة الأهداف والمبادئ التي تضمنها القرآن وتلك الكتب ، وتأييد القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم للأنبياء السابقين والكتب السابقة،والتنويه بهم ،وأنه استشهد وظل يستشهد بأهل الكتاب على صحة الرسالة النبوية والتنزيل القرآني بأسلوب يلهم استعدادهم للشهادة الإيجابية ،والثقة بهم والاعتماد عليهم فيها ، كما يلهم طبيعية وتوقع استجابتهم للدعوة المحمدية القرآنية واندماجهم فيها ونصرها وتأييدها .

وإذا استثنينا الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين وانحرافهم عن أصل الدين الصافي ، وأهدافه العليا ، وما فيها من تنديد خاطف غير عنيف على ماسوف نذكره بعد ، فإن الأسلوب القرآني المكي في أهل الكتاب المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم من يهود ونصارى هو أسلوب هادئ محبب ليس فيه عنف ما .

ومن الطبيعي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم الذي أوحى إليه منذ الوقت المبكر بما أوحى وظل يوحي إليه بمثله بأساليب متنوعة ، قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة المتحد معهم في الأهداف والمبادئ ، والمحترم لأنبيائهم وكتبهم والمعترف بها والمؤيد لها .

ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضا ، إذ كان بينه وبين بعض الكتابيين في مكة -على ما استلهمناه وشرحناه في فصل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم - صلة ود ومبادلة عطف وتصديق ، وأن هذا من أسباب هذا الموقف الودي المتبادل ، هذا إلى ما احتواه القرآن من تصديق وتأييد وتنويه بكتبهم وأنبيائهم ، واستشهاد بهم واعتماد عليهم ، وتلقين بالوحدة التامة بينهم .

ومضامين المفردات القرآنية التي نقلناها أولا ، والأسلوب الهادئ الذي ظل متسقاً في أدوار التنزيل واحتوى استشهاد أهل الكتاب وانطوى فيه معنى الثقة بشهادتهم الإيجابية ثانياً ، إلى ما احتواه القرآن المدني من حملات عنيفة على اليهود بسبب مواقفهم الجاحدة الماكرة في المدينة ثالثاً - كل ذلك يسوغ القول بجزم أن الكتابيين في الإجمال قد وقفوا منذ البدء من الدعوة المحمدية القرآنية موقف العطف والتأييد وظلوا كذلك إلى آخر العهد

المكي ، وأنه لم يقع بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم احتكاك وعداء كما وقع بينه وبين اليهود في المدينة .

على أنهم لم يبقوا عند هذا الحد ، بل حققوا ما كان متوقعاً من استجابتهم للدعوة واندماجهم فيها على ماسوف نذكره فيما يأتي :

الصورة السادسة

وثانيا : الكتابيون إزاء القرآن والدعوة المحمدية .

(١) في سورة الأعراف الآية التالية :

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . ١٥٧

والآية صريحة بأن فريقاً من النصارى واليهود في مكة وجدوا صفات النبي صلى الله عليه وسلم مطابقة لما في أيديهم من أسفار التوراة والإنجيل فآمنوا به واتبعوه ونصروه فاستحقوا التنويه الذي احتوته الآية .

وسورة الأعراف من السور المبكرة في النزول فتكون الصورة التي احتوتها الآية من الصور المبكرة لإيمان فريق من النصارى واليهود بالرسالة المحمدية .

(٢) في سورة القصص الآيات التالية :

« ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ . أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ .

وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ . . . ٥٢ ـ ٥٥

ومع أن بعض الروايات ذكرت أن الآيات مدنية فإنها غير موثقة ، والانسجام التام في السياق والنظم والمضمون ، والصورة التي احتوتها الآية الأخيرة خاصة ، تسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بمكيتها ؛ وقد تضمنت خبر إيمان الكتابيين بالقرآن وحكاية أقوالهم عن إيمانهم به وتصديقهم بأنه الحق من ربهم ، كما تضمنت خبر تعرضهم للوم المشركين ، وبالأحرى لزعمائهم ، وتأنيبهم فلم يأبهوا لذلك وظلوا متمسكين بموقفهم الإيماني . وهذا موقف عظيم يدل على قوة نفس ورسوخ إيمان ، بحيث لم يبالوا ما يمكن أن ينالهم من أذى أولئك الزعماء الذين لا بد من أنهم قدروا خطورة تصديق أهل الكتاب بالرسالة المحمدية والتنزيل القرآني ، ولهم ما لهم من أثر في أذهان العرب واعتماد عليهم وثقة بهم ؛ ويزداد هذا الموقف عظمة إذا ما لوحظ أنهم في محيط أكثريته الساحقة وزعماؤه الأقوياء أعداء ألداء للدعوة ، يقدمون على كل شيء في سبيل تعطيلها والصد عنها ، وهم أقلية ضئيلة أو أناس غرباء لا عصبية لهم ، وقد أوذي بعض المسلمين من عهد مبكر أشد الأذى ، وظل المسلمون عامة يتعرضون لمحنة الأذى والفتنة ؛ وسورة القصص من السور المبكرة في النزول نوعاً ما ، والآيات تحكي أمراً واقعاً قبل نزولها ؛ ومعنى هذا أن الكتابيين قد أخذوا يستجيبون للدعوة النبوية وينضمون إليها ويجهرون بتصديق النبوة والتنزيل القرآني منذ عهد مبكر .

(٢) في سورة الإسراء الآيات التالية :

« قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا . . . ١٠٧ ـ ١٠٩

وفي هذه الآيات وصف آخر لموقف الكتابيين من القرآن في خشوعهم وبكائهم

من الخشية وسجودهم حينما كان يتلى عليهم إيماناً به وتصديقاً لما جاء فيه .

ولقد جاءت الآيات في مقام التحدي للكفار والتقريع لهم ؛ معلنة أن جحودهم ومواقفهم لا قيمة ولا اعتبار لها ما دام الذين أوتوا العلم يقفون هذا الموقف التصديقي الخاشع ، ولموقفهم الاعتبار الأكبر والقيمة العظيمة . وهذا يلهم أن هذه المواقف والمشاهد كانت مما يقع على مرأى أو علم من الكفار من جهة ، وأنها كانت من عوامل طمأنينة المسلمين ووثوقهم ، وقوة صمود الدعوة واستعلائها من جهة أخرى . وسورة الإسراء هي أيضا من السور التي نزلت مبكرة نوعاً ما ، والآيات تحكي مشهداً واقعاً قبل نزولها ، وفي هذا توكيد لما قلناه من استجابة الكتابيين للدعوة منذ العهد المبكر .

(٣) في سورة الأحقاف الآية التالية :

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . . .

١٠

وقد قيل إن الآية مدنية ، ولكن سياقها ومضمونها الذي يوجه فيه الخطاب والتحدي والإنذار إلى الكفار ، يسوغ ترجيح مكيتها إن لم نقل الجزم بذلك .

وهي صريحة بأن بعض بني إسرائيل شهد بصدق التنزيل القرآني ومماثلته لتنزيل التوراة وآمن به ، وفيها شيء من المعنى الذي احتوته الآيات السابقة : من حيث الاعتداد بإيمان الكتابي الإسرائيلي واعتباره حجة دامغة على المشركين .

(٤) في سورة العنكبوت الآية التالية :

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ . . .

٤٧

وفي الآية صراحة بأن الكتابيين يؤمنون بالتنزيل القرآني . وطبيعي أن هذا لا بد أن يكون تقريراً لواقع مشاهد . وفي الآية شيء من المعاني التي تلهمها الآيات السابقة كما يظهر من إنعام النظر فيها .

(٥) في سورة الرعد الآية الآتية :

« وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ... ٣٦

وفيها صراحة بما كان يستشعره الكتابيون من فرح واستبشار بالتنزيل القرآني لما يرون فيه من مطابقة للأهداف العليا التي في كتبهم ومن وحدة المصدر .

وطبيعي أن هذا لا بد أن يكون مقترناً بتصديقه وتأييده من جهة ، ومستنداً إلى واقع مشاهد من جهة أخرى .

وفي الآية شيء من المعاني التي تلهمها الآيات السابقة أيضاً .

الصورة السابعة

والآيات باستثناء آية الأحقاف لا تذكر هوية الكتابيين حيث تذكرهم مطلقين ، أما الآية المذكورة فإنها تذكر صفة المؤمن الشاهد صراحة وهو إسرائيلي . وقد استدللنا بها وبقرائن قرآنية أخرى في كتابنا عصر النبي وبيئته ، على احتمال وجود جالية يهودية في مكة ، أو على الأقل على تردد يهود المدينة على مكة ، ووجود علاقات تجارية أو غير تجارية بينهم وبين أهلها ، والمعروف بإلهام القرآن على ما شرحناه في كتابنا الآنف الذكر ، أنه كان عدد غير يسير من جوالى النصارى مستوطنين مكة ، ولقد ذكرت روايات السيرة وكتب التراجم أسماء كثير من الكتابيين الذين اندمجوا في الدعوة في مكة تحمل طابع الأسماء النصرانية ، كما أن بعض الروايات ذكرت قدوم وفد نصراني إلى مكة بعد البعثة مستطلعاً نبأ النبي العربي ، وأعلن إيمانه به .

وهكذا يمكن أن يقال إن أهل الديانتين الكتابيتين اليهود والنصارى في مكة الذين واجهوا النبي محمداً صلى الله عليه وسلم عياناً وسمعوه قد رأوا فيه من الأعلام والصفات النبوية ما هو متطابق لما هو مكتوب عندهم في أسفار التوراة والإنجيل فقابلوا دعوته بترحاب وفرح وشهدوا بصدقها وصدق التنزيل القرآني وآمنوا بهما مع ما كانوا عليه وكان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون عليه من قلة وضعف وتعرض للأذى والمناوأة. وهذا واقع بعيد المدى والخطورة في صدد الدعوة الإسلامية بالنسبة لأهل الكتابين كما هو المتبادر .

وننبه إلى أن الصيغ القرآنية تلهم أن الكتابيين في مكة إطلاقاً وقفوا هذا الموقف ، كما أن تكرار تقرير القرآن ذلك يلهم أن هذا الموقف وهذه المقابلة كانت من كافتهم . وروايات السيرة لم تذكر فيما اطلعنا عليه أنه ظل في مكة كتابيون متمسكون بأديانهم ولم يندمجوا في الدعوة الإسلامية .

ولقد ورد في سورة العنكبوت هذه الآية :

« وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إلا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ . . . ٤٦

والآية احتوت تعليما قرآنياً للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بالخطة التي يجب عليهم أن يسيروا عليها مع أهل الكتاب . وهي خطة متسقة مع المفردات والتقريرات والأسلوب المكي القرآني ؛ ومع ذلك فإنها تلهم أنها تتضمن تقرير أمر واقعي ، وهو أنه كان في مكة كتابيون في أواخر العهد المكي ـ لأن سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن المكى ـ وأنه كان يقع جدل ديني بينهم وبين النبي والمسلمين ، وأن منهم من كان يسلك في جدله سلوك المكابرة والتجنى والظلم ؛ فإذا كان هذا الاستلهام صواباً فمن الراجح أن يكون هؤلاء ممن وقعوا تحت تأثير زعماء الكفار وصدهم وتهويشهم ،

أو كانت تربطهم بهم مصالح وروابط لم يسعهم أو لم يمكنهم التضحية بها أو التفلت منها ؛ ومهما يكن من أمر فإن الايات القرآنية تلهم أن موقف الكتابيين بالإجمال كان موقفاً إيجابيا كما قلنا ، وأن شذوذ بعضهم عن طريق الأكثرية سواء كان السبب جدليا أو تعصبيا أو عقليا أو ماديا ، من الأمور المتسقة مع طبائع الأشياء والأشخاص والبيئات ، وليس من شأنه أن ينقض ما استلهمناه وقررناه .

على أنه لما كانت هجرة المسلمين إلى يثرب بدأت في ظروف نزول سورة العنكبوت على ماشرحناه قبل ، فإن من الجائز أن تكون الآية قد تضمنت الخطة الواجب على المسلمين أن يسيروا عليها في المدينة حيث يكثر اليهود ، لاسيما وقد جاء بعدها آية تقرر أن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون بالنبي والقرآن وبالتالي تقرر موقف الكتابيين الإيجابي تقرير شيء واقعي وهي :

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ . . .

٤٧

وبهذا التوجيه ينتفي مايمكن أن يكون من وهم التناقض كما هو المتبادر وتتسق التقريرات القرآنية وملهماتها .

الصورة الثامنة

وثالثاً : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى اختلاف الكتابيين :

(١) في سورة هود وفصلت آيتان متماثلتان نصاً وهو :

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ . . .

هود ١١٠ وفصلت ٤٥

(٢) وفي سور الشورى والزخرف والجاثية والسجدة هذه الآيات :

١ — شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ . . .

الشورى ١٣ ـ ١٤

٢ — وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ...

الزخرف ٦٣ ـ ٦٥

٣ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ . وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...

الجاثية ١٦ ـ ١٧

٤ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...

السجدة ٢٣ ـ ٢٥

وقد جاءت هذه الآيات في سياق إنذار المشركين ، والتنديد بهم ، والحجاج معهم ؛ وبسبيل نفي الخلاف عن الأهداف والمبادئ السامية ، ونسبته إلى الكتابيين الذين إنما وقعوا فيه بغياً ، أي لأغراض باغية لا تمت إلى الحق والحقيقة في تلك المبادئ

والأهداف ؛ ثم بسبيل دحض حجة المشركين العرب باختلاف الكتابيين ، واتخاذهم ذلك وسيلة للتمسك بما عندهم والتبجح به أولا ؛ وبسبيل تقرير كون القرآن قد جاء بالحق ، ووضع الأمر في نصابه الحق ، وإنه لم يبق حجة لمحتج ثانياً .

غير أنه يمكن مع ذلك أن تلهم أنها استهدفت في الوقت نفسه تقرير واقع الكتابيين من الاختلاف والنزاع والانشقاق مذاهب وشيعا فيما بينهم ، ودعوتهم إلى الانضواء إلى راية القرآن الذي يمت إلى المصدر الذي تمت إليه كتبهم ، والذي يعود بدين الله إلى صفائه ومبادئه السامية التي لاتتحمل في أصلها خلافا ، واتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، ونصره وتأييده ، والتسليم بماجاء به القرآن من حلول الحق لمشاكلهم وخلافاتهم المذهبية والنفسية، لاسيما أن الآيات كانت تتلى في مكة ويسمعها الكتابيون فيها .

على أن هذا المعنى منطو في آيتي الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨ اللتين نقلناهما قبل ، ومنطو في بعض الآيات التي نقلناها آنفا ؛ وقد جاء قويا صريحاً في بعض آيات سورة النمل كما ترى فيها :

« إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ... ٧٦ ـ ٧٨

ثم في بعض آيات سورة مريم التي جاءت تعقيباً على قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم كما ترى فيها :

« ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ... ٣٤ ـ ٣٦

ولعل من الحق أن يقال إنه كان لهذه التقريرات والدعوة القرآنيـة أثر فيما كان من تنبه الـكتابيين في مكة في مبدأ الأمر إلى ماوصل إليه أمرهم من خلاف ونزاع وانقسام لايمت في أصله إلى مبادىء الدين وأهدافه السامية ، وفي إقبالهم على الإسلام ورؤيتهم فيالتقريرات القرآنية علاجاً شافياً لما هم فيه وفي الإسلام عهداً جديداً يستقبلونه برضى وطمأنينة نفس ؛ هذا إلى ما كان من مطابقة بين التقريرات القرآنية وما كان عليه بعض الفرق النصرانية من عقائد ومذاهب أو من مقاربة ؛ إذ من المحتمل كثيراً أن تكون الجاليات النصرانية في مكة من هذه الفرق ، فكان ذلك عاملا في إقبال الذين أقبلوا منهم على الإسلام بيسر وارتياح وإخلاص (١) .

الصورة التاسعة

ورابعاً : مدى وهدف الإشارات القرآنية إلى انحرافات الـكتابيين العقائدية واستدراكاتها وتصويباتها .

ليس في القرآن المكي من تفصيل عن الانحرافات والخلافات العقائدية التي كان عليها الـكتابيون في مكة إلا بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية فيه . وكل ماورد بشأن اليهود ــ عدا الإشارات الخاطفة إلى خلافاتهم التي كانوا عليها في عهد النبي ، وقد أوردناه آنفاً ــ هو مواقف اليهود السابقين في عهد موسى وبعده ، وقصصهم وانحرافهم إلى عبادة العجل ، وتمردهم من حين إلى حين على أوامر الله والأنبياء ، وترديهم الأخلاقي والاجتماعي الذي حاق فيهم بسببه الـكوارث والمصائب وأدى إلى تسلط الأقوياء عليهم كما يبدو من قصصهم في سور الأعراف وطه والإسراء بصورة خاصة ؛ هذا في حين أن القرآن المدني احتوى بالإضافة إلى الحملات العنيفة على أخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة ، إشارات إلى عقيدتهم ببنوة العـزيز لله ، وقذفهم مريم وابنهـا بأسلوب يفهم منه أن هذا من عقائد المعاصرين .

(١) في تاريخ انتشار الاسلام للمستشرق الانكليزي أرنولد تقريرات مستندة إلى وثائق ودراسات تدل على أنه كان بين الفرق النصرانية من يتطابق مذهبه مع التقريرات القرآنية في شأن عيسى عليه السلام . .

وقد يمكن أن يستلهم من هـذا أن اليهود في مكة كانوا أفراداً قلائل ، وأنهم لم يحتكوا بالنصارى أولا ثم بالنبي والمسلمين ثانيا احتكاكا عدائيا : هذا إلى أن التطابق بينهم وبين الدعوة الإسلامية الذي كان أشد مما هو بين النصارى وبينها لإيمانهم بالتوحيد الصريح غير المؤول ، لم يدع محلا للتشاد والجدل ، وأوجد بين الفريقين صلات تقاربية وحزبية وثيقة جعل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين يتوقعون أن يستجيب إليهم اليهود بسرعة أكثر من كل ملة ، وهـذا ماهو منطو في الفصول القرآنية المدنية على ماسوف نذكره في حينه .

الصورة العاشرة

أما بشأن السيد المسيح والعقيدة النصرانية فقد ورد أولا فصل طويل في سورة مريم هذا هو :

« كٓهيعٓصٓ . ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا . يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا . قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا . يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا . وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا . وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا

بَشَراً سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰماً زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا . فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَاناً قَصِيًّا . فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيًّا . فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا . فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا . يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا . وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ . . .

والقسم الأول خاص بقصة ولادة يحيى صلى الله عليه وسلم . والقسم الثاني الذي يلهم أن قصة ولادة عيسى صلى الله عليه وسلم ودحض عقيدة بنوته لله هما المقصودان الجوهريان ، يسوغ القول أن القسم الأول جاء مقدمة لقصة ولادة عيسى وتمهيداً ، فقد

كانت قصة ولادة يحيى مما وردت الإشارة إليه في بعض الأناجيل[1] ومما يؤمن به المسيحيون ويعتبرونه معجزة ربانية ؛ فأريد بإيرادها إثبات أن ولادة المسيح هي أيضاً معجزة ربانيه لا تقتضي أن تكون سبباً للاعتقاد ببنوة عيسى لله . وقصة ولادة عيسى عليه السلام متماثلة في الخطوط مع ما ورد عنها في الأناجيل ، وإن كان هناك بعض اختلافات في الجزئيات وخاصة في كلام عيسى في المهد مما لم يرد في الأناجيل ونعتقد مع ذلك أنه كان متداولا بين النصارى هو وغيره مما جاء في القرآن ولم يجيء في الأناجيل . وقد استهدفت آيات قصة عيسى عليه السلام ـ فوق تقرير حقيقة ولادة عيسى وأنها ليست إلا معجزة ـ تنزيه الله عن اتخاذه أبناء واستغناءه عن ذلك وعدم اتساقه مع المنطق الذي يفرض لله الكمال التام ، وأن الله هو وحده رب الناس جميعاً ، وله وحده تجب العبادة ، وأن ما وقع من انحراف عن هذه الحقيقة إنما نشأ عن اختلاف في الفهم ، وتشعب في الآراء بين الأحزاب من بعده .

والفصل يبدو لأول وهلة تقريراً قرآنياً مباشراً ؛ لا سيا وقد تبعه فصول عن أنبياء آخرين بنظم واحد . على أن هذا لا يمنع أن يكون قد حدثت مناسبة قبل نزوله ، كبحث في ماهية المسيح ، أو جدل في عقيدة النصارى فيه بين العرب المسلمين والكافرين ، أو سؤال من هؤلاء أو هؤلاء ، أو موقف جدلي بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى ، ونحن نرجح هذا . ولعل في الآية « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون » قرينة على هذا الترجيح ، إذ تلهم أن الفصل جاء تعقيباً على موقف جدلي اختلف فيه في أمر عيسى فاحتوى القول الحق لوضع الأمر في نصابه الحق .

وقد ورد ثانياً في سوة الزخرف الفصل الآتي :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَاضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا

---

(١) انظر الإصحاح الأول من إنجيل لوقا. وقد جاء فيه قالت : مريم للملاك: كيف أحبل وأنا لا أعرف رجلا . فقال لها إن اليصابت نسيبتك وزوجة زكريا حبلت أيضاً بابن في شيخوختها مع أنها كانت عاقراً . وأنه ليس أمر غير ممكن لدي الله .

عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ... ٥٧ ــ ٦٥

والآيات قد سيقت على سبيل الحجاج مع مشركي العرب والرد عليهم ، إذ احتجوا بإشراك النصارى المسيح عليه السلام في العبادة مع الله ، ورأوا في إشراكهم الملائكة منطقاً أكثر سلامة على ما شرحناه في مكان آخر ، غير أنها على كل حال متصلة بما هية عيسى وعقيدة النصارى فيه ، وتقرير أنه إنما هو عبد لله ، وأن دعوته إلى الله وحده وأن الانحراف عن هذا إنما كان بسبب اختلاف الأحزاب بعده وتشعب الآراء فيه ؛ كما تضمنت الإشارة إلى انحراف العقيدة فيه ، والتنديد بذلك وقررت وجه الصواب في الأمر بأسلوب آخر انتهى إلى النهاية نفسها التي انتهى إليها فصل سورة مريم .

وفي سورتي الأنبياء والمؤمنون ثالثاً إشارتان خاطفتان إلى ولادة عيسى عليه السلام كما ترى فيما يلي :

«وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ...

الأنبياء ٩١

« وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

المؤمنون ــ ٥٠

والقصد ظاهر في الآيتين اللتين وردتا عقب فصول في سيرة الأنبياء السابقين ، وهو الإشارة إلى أن ولادة عيسى عليه السلام إنما كانت معجزة وعناية ربانية خاصة ، وبالتالي

تصويب العقيدة المنحرفة فيه . ومن الجدير بالذكر أن آية سورة الأنبياء سبقت بآيتين فيهما حكاية نداء زكريا ربه واستجابة الله وهبته له يحيى .

الصُّورَة الحَادِيَة عَشْرَة

وفي الجملة فإن من الممكن أن يقال إن قصة ولادة عيسى وشخصيته كانتا موضع جدل ومناقشة وأخذ ورد وقيل وقال قبيل البعثة ، واستمر ذلك بعدها ؛ فالعرب من جهة كانوا يرون فيما عليه أهل الملل الكتابية في أمر عيسى عليه السلام ما يدعو إلى العجب ، حتى كانوا يرون أنفسهم على هدى أكثر من النصارى في تأليه الملائكة ونسبتهم بالبنوة إلى الله ، واليهود كانوا يرمون السيدة مريم بالبهتان بسبب حملها بعيسى بدون أب شرعي ظاهر ، ويصفونه بالكذاب والدجال . والنصارى كانوا في أمره أحزاباً وفرقاً ، منهم من يرى أن ماهية الله هي نفسها ماهية عيسى ، ومنهم من كان يعتقد أنه أقنوم من أقانيم الألوهية الثلاثة ، ومنهم من كان يعتقد بألوهيته ، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفتين ناسوتية ولاهوتية ، ومنهم من كان يعتقد بأن له صفة واحدة وهي اللاهوتية ، ومنهم من كان يعتقد بأن صفته هي الناسوتية ويؤمن بالله ويعتقد بأن المسيح نبي رافقت ظروف ولادته معجزة ربانية ، ومنهم من رفع السيدة مريم إلى درجة الألوهية أو اللاهوتية الخ مما حكته آيات قرآنية مدنية[1] وما نقلته الأخبار[2] فجاءت هذه الفصول والآيات القرآنية تضع الأمور في نصابها الحق فتقرر أن فيما عليه هؤلاء وهؤلاء وأولئك تفريطا وإفراطاً وغلوًّا ، وبعداً عن المنطق والحق وعقيدة التنزيه والتوحيد ، وأن هذا إنما كان بعد عيسى وناشئا عن اختلاف الآراء والتأويلات والمذاهب فيه ، فولادة عيسى تمت بمعجزة ، وقد

---

(١) اقرأ آيات النساء ١٥٦ و ١٧١ والمائدة ١٧ و ٧٣ و ١١٦ والتوبة ٣٠ والصف ٧

(٢) اقرأ تاريخ انتشار الاسلام للمستشرق الانكليزي أرنولد . واقرأ المجلد ٣ الجزء ٢ ص ٥٥٦ — ٦٣٥ و المجلد ٤ الجزء ٢ ص ٨٠ — ٩٠ و ٢٣٠ — ٢٣٩ و ٢٦١ — ٢٧٤ و ٣٧٦ — ٤١٦ و ٥٢٦ — ٥٢٨ من تاريخ سورية للمطران الدبس . وفي انجيل برنابا نصوص كثيرة جداً تتطابق مع ماجاء في القرآن عن عيسى ومحمد عليهما السلام .

سبقت بمعجزة مقاربة من حيث النوع ومعترف بها ، فلا يقتضي هذا أن ترمى مريم بالبهتان ، وأن يوصف ابنها بغير الشرعية ، وينعت بنعوت بذيئة كما فعل اليهود ، ولأن يحار في التعليل ويذهب فيه مذاهب ويجعل عيسى إلها ، أو جزءاً من الإله ، ويرى فيه لا هوتيةأولاهوتية،وناسوتية معاً، وترفعمريم إلىالألوهية أو اللاهوتية كمافعل النصارى — وتقرر أن عيسى عبد من عبادالله و نبي من أنبيائه ،أرسله ليدعو إليه وحده بالبينات والحكمة ، وليحل ماصار إليه اليهودمن خلافات، وتقرر لهالتكريم ،ولأمه التنزيه في نطاق عبوديتهما لله ، وهكذا تضع حلا للخلافات القائمة حول ماهيته وشخصيته لدي اليهود والنصارى والعرب معاً وتهيئ الطريق أمام غلاة النصارى للرجوع عن غلوائهم ، وتفتح الباب لهم وللذين تتناسب عقائدهم في المسيح مع هذه التقريرات خاصة ليدخلوا منه إلى الإسلام ، ويخلصوا مما هم فيـــه من شكوك وخلاف وريب ونزاع ، وتسد على العرب طريق الاحتجاج والماحكة ، وتلزم اليهود حدهم فيما كانوا يرسلونه من أقوال بذيئة ضد المسيح وأمه في المحيط العربي .

وطبيعي أن هذه التقريرات كانت تتلى جهرة ، ويسمعها الكتابيون الذين آمنوا بنبوة النبي والتنزيل القرآني وشهدوا على صحتهما وأظهروا فرحهم بهما ، فمن الحق أن يقال إنهم قد وجدوا في هذه التقريرات حقاً وصدقاً ، ومنطقاً سليما وحجة كافية ، وحلا لما هم عليه من خلاف وشقاق وتضاد في أمر المسيح ، فكان مما حدا بهم إلى الاستجابة لداعي الإسلام ونبي القرآن ، بالاندفاع والفرح ، والخشوع ورضى النفس على ما وصفهم القرآن .

....

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

وأوله

عهد السيرة النبوية المدني

سِيرَةُ الرَّسُول ﷺ

صور مقتبسة من القرآن الكريم

تأليف الأستاذ

محمد عزة دروزة

الجزء الثاني

عني بهذه الطبعة ونظم صورها

خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

منشورات المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

عهد السّيرة النبويّة المَدني

محتويات هذا القسم

تمهيد

عهد الإسلام في المدينة سابق للهجرة ـ ظروف نشأته ـ مواكب المهاجرين تسبق النبي ـ بدء العهد المدني من السيرة النبوية ـ ماذا يعني القرآن المدني ـ حيزه بالنسبة لمجموع القرآن وميزاته البارزة ـ أسلوبه ومغزاه ـ القرآن المكي يحتوي مبادىء الإسلام والقرآن المدني يثبتها ويوسعها ـ استعراض أحداث العهد المدني حسب مواضيعه بسبب تداخل المواضيع القرآنية ـ ثبت في أسماء وترتيب نزول السور المدنية ـ تنبيه في صدد ترتيب السور المدنية ـ فصول العهد المدني .

الصورة الأولى

إن عهد الإسلام في المدينـة قد بدأ في الحقيقة قبل الهجرة النبوية ؛ إذ ثبت من الروايات التي لا يـكاد يكون خلاف في جوهرها[1] أن النبي صلى الله عليه وسلم اتصل قبل سنتين من هجرته بجماعة من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام كما كان يفعل مع وفود العرب في موسم الحج ، وكانوا يسمعون من اليهود في المدينة بشارات عن النبي العربي الذي أظلّ وقت بعثته ، وزهواً بأنه سيكون معهم على غيرهم ؛ فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ! فأجابوه إلى ما دعاهم ، وقبلوا الإسلام . وقالوا له إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ؛ وإلى هذا انطوت الإشارة في بعض آيات سورتي آل عمران والأنفال هذه :

١ — وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا . . .

آل عمران ١٠٣

---

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣١ وبعدها وابن سعد ج ١ ص ٢٠٠ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٢ وبعدها . والمصادر الثلاثة متطابقة إجمالا فيما أوردته في صدد اتصالات النبي صلى الله عليه وسلم بأهل المدينة وهجرته وهجرة أصحابه إليها . .

٢ — وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . .

الأنفال ٦٢ ـ ٦٣

ثم انصرفوا إلى بلدهم ، وعرضوا الأمر على قومهم فارتاحوا ووافقوا ؛ فلما كان العام التالي وافى الموسم جماعة من الأوس والخزرج معاً ، فاجتمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مكان يعرف بالعقبة ، وبايعوه على الإسلام ومبادئه ؛ وقد أرسل معهم قارئاً يعلمهم القرآن وأركان الصلاة ويؤمهم فيها ، فأخذ الإسلام يفشو في المدينة ؛ وفي الموسم التالي جاء وفد كبير من الأوس والخزرج فاجتمع النبي به وطلب منه البيعة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إذا هو خرج إليهم ، فبايعوه ، وتسمى هذه البيعة بيعة العقبة الثانية الكبرى ، وطلب بعضهم منه عهداً بألا يدعهم إذا أظهره الله فيرجع إلى قومه بعد أن يكونوا قد قطعوا حبالهم مع حلفائهم ؛ فهتف بهم قائلا : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم . ثم اختار منهم اثني عشر زعيما فسماهم بالنقباء على بطون قبائلهم ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وقد أخذت مواكب المهاجرين من مكة تتحرك إلى المدينة بعد ذلك تاركين وطنهم وأموالهم في سبيل الله ـ على ما ذكرناه في مبحث محنة الأذى والفتنة في الجزء الأول ـ فاستقبلهم أهل المدينة بالترحاب العظيم . ولقد احتوت إحدى آيات سورة الحشر إشارة إلى ما كان من تقدم عهد الإسلام في المدينة على الهجرة ، وما كان من ترحاب أهلها بالمهاجرين السابقين كما ترى فيها :

« وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . . . »

إذ احتوت صراحة خبر إيمان أهل المدينة وعدهم بلدهم دار هجرة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل أن يأتوا من مكة ، مع احتوائها الثناء العظيم على ما كان من إقبالهم على الإسلام بالرضا والطمأنينة ، ومن جعلهم مدينتهم التي نورها الله بالهجرة النبوية وجعلها مشرق شمس الدعوة الإسلامية - دار هجرة للنبي والمسلمين ، ومن ترحيبهم بالمهاجرين هذا الترحيب المادي والمعنوي الرائع .

وقد سماهم الله في القرآن بالاسم المحبب الكريم وهو « الأنصار » كما جاء في الآية التالية :

« وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ . » التوبة ١٠٠

ويُلفت النظر إلى جملة « والسابقون الأولون » إذ احتوت تنويهاً بالرعيل الأول منهم الذين أقبلوا على الإسلام واندمجوا فيه ، وبايعوا النبي على نصرته والدفاع عنه في ظرف كان النبي والمسلمون فيه في حالة ضعف وضيق ، وكان أعداؤهم أقوياء ألداء ، دون أن يبالوا ما يجره عليهم عملهم من مشاكل وإحن ؛ وهو عمل يستحق كل إكبار وإجلال .

أما عهد السيرة النبوية المدني فقد بدأ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد سنتين من اتصاله بأهلها ، وفشو الإسلام فيهم ، وهجرة من تمكن من الهجرة من أصحابه إليها ، بالظروف والكيفية التي شرحناها في مبحث محنة الفتنة والأذى مما لا حاجة إلى إعادته .

الصورة الثانية

وكما يمثل القرآن المكي العهد المكي ؛ فإن القرآن المدني يمثل العهد المدني بطبيعة الحال . وننبه في هذا الصدد إلى أن هذه الصفة تشمل كل ما جرى من أحداث نبوية بعد الهجرة ولو لم تقع في نفس المدينة ، كما تشمل كل ما نزل من قرآن بعدها ؛

إذ نزلت آيات في طريق الهجرة ، وفصول وآيات في أثناء الغزوات خارج المدينة ، وفصول وآيات في مكة أو في جوارها حين خرج النبي إليها معتمراً مرة وفاتحاً مرة وحاجًّا مرة .

والقرآن المدني هو نحو ثلث القرآن عدد آيات ، وأكثر من ثلثه حيزاً وعدد أجزاء ، ونحو ربعه أو أكثر قليلا عدد سور ، على اختلاف في مكية ومدنية بعض هذه السور .

وله هو أيضا مميزات بارزة تختلف اختلافاً غير يسير عن القرآن المكي :

١ ـ فآيات القرآن المدني في الجملة أطول من آيات القرآن المكي ، كما أن السجع فيها يقل بل يندر .

٢ ـ وليس فيه ذلك الإسهاب في القصص ، ووصف الجنة والنار ، ومشاهد القيامة ، إذ اقتصر الأمر في هذا وذاك على الإشارة إليها والتذكير والوعد والوعيد بها .

٣ ـ وقد احتوى حملات شديدة على اليهود المعاصرين ، وأخلاقهم ومواقفهم الماكرة الجاحدة وحجاجهم ، كما احتوى شيئاً من الحملة على النصارى وانحرافاتهم .

٤ ـ وكذلك احتوى حملات شديدة على المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، ووقفوا من النبي والحركة الإسلامية مواقف ماكرة مزعجة .

٥ ـ وفيه فصول عدة في الدعوة إلى الجهاد ووقائعه .

٦ ـ وقد احتوى فصولا تشريعية وتقنينية وتعليمية وتأديبية في مختلف النواحي . وتبدل أسلوب الحث والتشجيع في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية الذي هو الغالب في القرآن المكي ، إلى أسلوب الأمر والفرض في الإجمال .

٧ ـ ومما احتواه القرآن المدني فصول عدة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية والبيتية ، مما لم يرد شيء عنه تقريباً في القرآن المكي .

٨ ـ ومع أنه لم يخل من فصول جدلية ، أو حملات على الكفار فإن أسلوب هذه الفصول والحملات ، وكذلك أسلوب الفصول والحملات على اليهود والمنافقين ومرضى القلوب ، يصطبغ في الإجمال بأسلوب القوي العزيز ، الذي أمكنته الفرصة من نفسها ليطهر البيئة من الأدران والانحرافات والمكر والدسائس ، وضمانة الحرية الدينية ، وإعلاء كلمة الله ، وتقرير ماينبغي أن يكون عليه الكيان الإسلامي سياسيا واجتماعيا مما هو متسق مع تطور الدعوة وانتشارها ورسوخها ، وتطور مركز النبي والمسلمين بالتبعية من الضعف إلى القوة ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن القلق إلى الاستقرار ، ومن الخوف إلى الأمن ، مصداقا لوعد الله في هذه الآية :

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... » النور ٥٥

وإلى هـذا التطور يرجع كذلك ماذكرناه من تبدل الأسلوب في البند السادس كما هو المتبادر .

وننبه إلى أمر مهم : وهو أن ما كان من تطور تشريعي وتعليمي وتأديبي فى مختلف النواحي ، وما كان من تطور في موقف النبي والمسلمين ، وما كان لهذا التطور من نتائج، ثم ما كان من تطور أسلوبي في القرآن ـ لم يكن ليخرج فى جوهره ومداه وخطوطه الأساسية عن مبادئ وأهداف الدعوة المتنوعة التي رسمت في القرآن المكي ، مما سوف نعود إليه بشيء من الإسهاب في فصل التشريع .

الصّورة الثالثة

والفصول القرآنية المدنية في المواضيع المتنوعة متداخلة بحيث يوجد شيء من كل موضوع في مختلف أدوار التنزيل المـدني ، شأنها في ذلك شأن الفصول المكية

ومواضيعها ؛ ولذلك جرينا في استعراض صور العهد المدني وأحداثه على الطريقة التي جرينا عليها في عرض صور وأحداث العهد المكي ، أي على حسب المواضيع مع ملاحظة ظروف وأدوار صور المواضيع الزمنية بقدر ما يمكن أن تلهم الآيات ويستأنس به من الروايات أولا ، ومن ترتيب نزول السور ثانياً ؛ كما فعلنا في صور ومشاهد العهد المكي .

وقد رأينا أن نضع هنا أيضاً ثبتاً بأسماء السور المدنية على حسب ترتيب نزولها في مختلف الروايات والتراتيب كما فعلنا في السور المكية ، ليستعين به القارئ على ملاحظة أدوار الصور والمشاهد ، وهذا هو الثبت :

تراتيب النزول

أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسين وعكرمة	السيوطي	مجمع البيان	الخازن	مصحف فؤاد	المصحف	أسماء السور	جابر بن زيد	ابن عباس	الحسين وعكرمة	السيوطي	مجمع البيان	الخازن	مصحف فؤاد	المصحف
البقرة	١	١	٢	١	١	١	١	٢	الحشر	؟	١٥	١٧	١٥	١٥	١٥	١٥	٥٩
الأنفال	٣	٢	٤	٢	٢	٢	٢	٨	النور	٨	١٧	١٩	١٧	١٧	١٩	١٦	٢٤
آل عمران	٢	٣	٣	٣	٣	٣	٣	٣	الحج	٩	١٨	٢٠	١٨	١٨	٢٠	١٧	٢١
الأحزاب	٤	٤	٥	٤	٤	٤	٤	٣٣	المنافقون	١٠	١٩	٢١	١٩	١٩	٢١	١٨	٦٣
الممتحنة	٦	٥	٧	٥	٥	٥	٥	٦٠	المجادلة	١١	٢٠	٢٢	٢٠	٢٠	٢٢	١٩	٥٨
النساء	؟	٦	٨	٦	٦	٦	٦	٤	الحجرات	١٢	٢١	٢٣	٢١	٢١	٢٣	٢٠	٤٩
الزلزلة	؟	٧	٩	٧	٧	٧	٧	٩٩	التحريم	١٣	٢٢	٢٤	٢٦	٢٦	٢٤	٢١	٦٦
الحديد	؟	٨	١٠	٨	٨	٨	٨	٥٧	التغابن	١٥	٢٤	٢٧	٢٤	٢٤	٢٧	٢٢	٦٤
محمد	؟	٩	١١	٩	١٠	٩	٩	٤٧	الصف	١٦	٢٥	٢٥	٢٥	٩	٢٥	٢٣	٦١
الرعد	؟	١٠	١٢	١٠	١٠	١٠	١٠	١٣	الجمعة	١٤	٢٣	٢٦	٢٣	٢٣	٢٦	٢٤	٦٢
الرحمن	؟	١١	١٣	١١	١٢	١١	١١	٥٥	الفتح	١٥	٢٦	٢٨	٢٢	٢٢	٢٤	٢٥	٤٨
الإنسان	؟	١٢	١٤	١٢	؟	١٢	١٢	٧٦	المائدة	٥	٢٧	٦	٢٧	٢٥	٣٠	٢٦	٥
الطلاق	؟	١٣	١٥	١٣	١٣	١٣	١٣	٦٥	التوبة	٦	٢٨	٢٩	٢٨	٢٧	٢٩	٢٧	٩
البينة	؟	١٤	١٦	١٤	١٤	١٤	١٤	٩٨	النصر	٧	١٦	١٨	١٦	١٦	١٨	٢٨	١١٠

١ ـ الإشارة «؟» تعني عدم ورود اسم السورة في الترتيب .

٢ ـ سورة الإنسان في مجمع البيان مكية ورقمها ٦٤ .

٣ ـ سورة المطففين في عكرمة والحسين مدنية ورقمها ١ .

٤ ـ البينة والزلزلة والإنسان والتغابن والصف والرحمن والحج والرعد والحديد مما ورد زوايات بمكيتها ، والصف والحديدلاتتحملان هذا البتة ، والزلزلة والإنسان والرحمن والحج تتحمله مع الرجحان ، والبينة والتغابن يمكن أن تتحملاه ولكن مدنيتها تبدو هي الراجحة .

الصّورة الرابعة

ونبه إلى نقطة مهمة ، وهي أن التجوز في ترتيب نزول السور المدنية أكثر منه في ترتيب نزول السور المكية ؛ والراجح أن روايات الترتيب مستمدة من روايات نزول الفصل الأول أو الفصول الأولى من السور ؛ وخاصة بالنسبة للطويلة منها . فوحدة الموضوع في السور المكية ، وتناسب فصولها ، واتساق الأكثر في النظم - يسوغ القول أن السور التي يحتمل ألّا تكون قد نزلت مرة واحدة قد تلاحقت فصولها بحيث يصح الترجيح بأنه لم ينزل فصول من سورة أخرى قبل أن تكون فصول السورة السابقة قد تلاحقت وكملت ، في حين أن هذا لا يطرد بالنسبة لكثير من السور المدنية ، فالسور الطويلة منها قد تعددت فيها المواضيع وتنوعت ، وفي بعضها دلالات على أن بعض فصول وآيات سورة متقدمة في ترتيب النزول قد نزلت بعد فصول وآيات سورة متأخرة ، وبالعكس ؛ ومع أن هذا يبرز في السور الطويلة أكثر فإنه يلاحظ في بعض السور المتوسطة ، بل القصيرة أيضاً .

ومع ذلك فإنه ليس من العسير تمييز ذلك ، كما أن هذا لا يعطل إمكان الانتفاع من تراتيب نزول السور المدنية بالمرة ، ولا يجرحها بالمرة من حيث الإجمال .

الصّورة الخامسة

أما فصول العهد المدني فهي هذه :

١ ـ سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية .

٢ ـ اليهود في العهد المدني .

٣ ـ النصارى في العهد المدني .

٤ ـ المنافقون في العهد المدني .

٥ ـ الجهاد وسيره ونتائجه .

٦ ـ التشريع القرآني المدني ومداه .

وواضح من هذا أن هذه الفصول هي أبرز موضوعية من فصول العهدالمكي ؛ مماهو متسق مع طبيعة هذا العهدالتي أشرنا إليهاقبل ،والتي سنزيدها إيضاحا في سياق كل فصل.

فصل

في أدوار وسير انتشار الدعوة الإسلامية
في العهد المـــدني

تمهيد

قد لا يكون في القرآن المدني ـ باستثناء سورة النصر التي نزلت بعد الفتح ونصت بصراحة على دخول الناس في دين الله أفواجا ـ ما فيه صراحة تساعد على تجلية سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية في العهد المدني ، غير أن من الممكن تبين ذلك إلى درجة غير يسيرة من الآيات والفصول القرآنية التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل المدني ، في صدد أحداث ذلك العهد ووقائعه التي سوف نستعرضها في فصولها الخاصة . أما حالة المسلمين الخاصة والعامة في هذا العهد ، ففي القرآن المدني من الآيات ما يمكن اقتباس جملة صالحة من الصور لها .

وستكون مباحث هذا الفصل مقصورة من ناحية على سير وأدوار انتشار الدعوة الإسلامية بين العرب دون الكتابيين ، ومن ناحية على صور المسلمين دون المنافقين أولا ، وعلى الصور التي لاتتصل بحركة الجهاد وسير التشريع ثانياً ؛ لأن كل هذا سيأتي في فصوله الخاصة . وهكذا تكون مباحث الفصل كما يلي :

١ — سير وأدوار انتشار الدعوة في منطقة مكة وما وراءها .

٢ — » » » » » منطقة المدينة

٣ — » » » » » المناطق الأخرى .

٤ — صور متنوعة للمسلمين في العهد المدني .

....

المبحث الأول

سير انتشار الدعوة في منطقة مكة وما وراءها

استمرار موقف الجحود في منطقة مكة بوجه عام إلى صلح الحديبية ـ احتمال انضمام بعض قبائل هذه المنطقة للاسلام نتيجة لهذا الصلح ـ حوادث التحاق وإسلام فردية قبل هذا الصلح ـ انضمام الأشعريين إلى الإسلام بعد هذا الصلح ومغزاه ـ فتح مكة وتدين أهلها بالإسلام ونتائجه الحاسمة في انتشار الدعوة في منطقتها وما وراءها .

الصورة الأولى

يمكن أن يقال استدلالا من أحداث العهد المدني وما كان من عداء ونضال مستمرين بين النبي والمسلمين من جهة وأهل مكة من جهة أخرى مما احتوى القرآن المدني إشارات عدة إليه ، إن أهل مكة ومن ظل متأثراً بموقفهم الجحودي والعدائي ـ وخاصة من كان في منطقتهم من قرى وقبائل ـ قد ظلت أكثريتهم الساحقة جاحدة منقبضة عن الاستجابة إلى الدعوة إلى أن فتحت مكة ودانت للإسلام ، أي إلى السنة الثامنة بعد الهجرة .

يدل على هذا ما كان من تجمع قريش وحلفائها من القبائل العربية ، وزحفهم على المدينة في السنة الهجرية الخامسة ، وهو الزحف العظيم الذي عرف بوقعة الخندق أو الأحزاب ، والذي كان امتداداً لحالة الحرب القائمة بين أهل مكة والنبي صلى الله عليه وسلم ، والتي وقع بسببها اشتباكات يسيرة وكبيرة أهمها وقعتا بدر وأحد . ولقد كان المكيون في وقعة أحد في موقف المنتصر ، فرأوا على ما يبدو أن يدعوا إلى حركة زحف كبرى يشترك فيها معهم كل من والاهم وتآمر معهم من حلفاء وأحزاب ليضربوا الضربة القاضية ؛ ودخل في المؤامرة يهود المدينة أيضاً ؛ وقد كان عدد الجيوش الزاحفة نحو عشرة آلاف في حين كان عدد المدافعين عن المدينة نحو ثلاثة آلاف ، فيهم عدد غير قليل من المنافقين الذين اشتركوا في الدفاع والتهيؤ له بسائق العصبية والمصلحة الوطنية والقبلية المشتركة .

ولم يتبدل الموقف إجمالا بعد ارتداد الأحزاب عن المدينة بغيظهم دون أن ينالوا خيراً كما ذكرت ذلك إحدى آيات الأحزاب ؛ لأن حالة الحرب والعداء ظلت قائمة إلى مابعد سنتين تقريبا ، أي إلى أن انعقدصلح الحديبية في أواخر السنة السادسة ؛ وهو الصلح الذي نزلت فيه سورة الفتح .

ومما يجدر التنبيه إليه أنه لم يرد في الروايات مايفيد أن جماعة من الناس ممن كان وراء مكة من أهل المناطق الساحلية والجنوبية والشرقية في الجزيرة قد التحقت بالإسلام وبدار الهجرة قبل هذا الصلح ، غير أن الروايات ذكرت أن هذا الصلح انتهى ـ فوق وقف حالة الحرب ـ إلى تخيير بعض القبائل الساكنة في منطقة مكة في الانضمام إلى الفريق الذي يرغبون ، وقد انضمت خزاعة إلى النبي ودخلت في عهده وصلحه ، في حين انضم بنو بكر إلى أهل مكة لما كان بين القبيلتين من عداء . وليس من المستبعد إن لم نقل إنه من المرجح أن تكون قبيلة خزاعة قد انضمت إلى النبي عهداً وإسلاماً .

الصّورة الثانية

إذا كان هذا هو حال الغالبية إلى وقت ذلك الصلح ، والذي استمر على الأرجح إلى فتح مكة ، فإن هناك آيات تدل على أنه كان يلتحق بعض الأفراد بالمدينة ؛ وينضم إلى الإسلام ، في سورة الأنفال مثلا الآية التالية :

« وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ
ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ . . . » ٧٥

إذ تضمنت صراحة أن بعض العرب ـ والفقرة الأخيرة تلهم أنهم مكّيون يمتّون بالقربى إلى المهاجرين السابقين ـ قد التحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم مهاجرين مؤمنين ، وأخذوا يشتركون في الجهاد تحت لوائه . وسورة الأنفال قد نزلت عقب غزوة بدر التي وقعت في

أواخر النصف الأول من السنة الهجرية الثانية ، مما يسوغ القول إن هذه الحركة الفردية قد بدأت مبكرة من العهد المدني .

وفي سورة الحشر التي نزلت عقب جلاء بني النضير الذي كان في أواخر السنة الثالثة وبعد قليل من وقعة أحد ، الآية التالية :

« وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . . . »

١٠

وهذه الآية جاءت بعد آيتين ذكر في أولاهما مهاجرو قريش السابقون ، وفي ثانيتهما مسلمو المدينة السابقون أيضاً ؛ وهي وإن كانت مطلقة فإنها تحتمل أن يكون المقصود فيها أناسا من أهل المدينة وأناسا من أهل مكة أيضاً .

الصورة الثالثة

ولقد أعقب صلح الحديبية زحف النبي على خيبر ، وهو الزحف الذي أشير إليه إشارة غامضة في سورة الفتح ، أجمع المفسرون على أنه هو المقصود بها في هذه الآيات :

١ — سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ...

١٥

٢ — وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . . .

٢٠ — ٢١

وقد ذكرت روايات معتبرة[1] أن وفداً من الأشعريين اليمانيين جاء إلى المدينة بطريق

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١١١

البحر وأسلم في ظروف هذا الزحف ؛ وهذا يدل على أن صلح الحديبية قد يسر لهـذه الجماعـة من أبناء الأنحاء القاصية طريق السير والالتحاق بالإسلام ، وليس من المستبعد إذا لم نقل إنه من المرجح أن تـكون جماعات أخرى من منطقة مكة وما وراءها قد اغتنمت الفرصة وحذت هذا الحذو . وفي الروايات(١) أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما قد التحقا بالمدينة وأسلما عقب هذا الصلح . والروايات تذكر كذلك أن وفداً من بني عبيد بن عدي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة فقالوا له (نحن أهل الحرم وساكنه . وأعز من به . ولا نريد قتالك . ونحبك . ونريد أن نقاتل معك غير قريش . ولـكنا لا نقاتل قريشاً . فقبل منهم شرطهم فأسلموا)(٢) والراجح أن وفادة هذا الوفد كانت بعد صلح الحديبية . وبعد سنتين من هذا الصلح غزا النبي صلى الله عليه وسلم مكة وفتحها . ودان أهلها بالإسلام مما سوف نشرح خبره في سلسة الوقائع الجهادية فـكان هذا خاتمة سعيدة لموقف الجحود والعداء الشديد المديد الذي وقفه أهل مكة . وانهـدم بها السور الـكثيف الذي كان يتمثل بذلك الموقف ويحول دون انضمام العرب من منطقة مكة وماوراءها إلى الراية الإسلامية . فلم يلبث أهل هذه المنطقة من قرى وقبائل أن تابعوهم ودانوا بالإسلام . منهم من فعل ذلك بيسر . ومنهم من فعله بعد تلـكؤ بل وبعد مصاولات حربية مثل ثقيف وهوازن على ماسوف نشرح خبره في فصل آخر . ولم يلبث الجنوب العربي من وراء مكة أن تحرك استجابة لداعي الإسلام فأخذت وفوده تفد على النبي صلى الله عليه وسلم وتبايعه على الإسلام في العامين التاسع والعاشر . ويمثل هذه الحركة قرآناً مافي سورة النصر من شمول كما ترى فيها .

« إِذَا جَـآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . »

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣١٩ . (٢) ابن سعد ج ٢ ص ٧٠ .

المبحث الثاني

انتشار الدعوة في منطقة المدينة

مدى انتشار الإسلام في المدينة قبل الهجرة النبوية ــ المنافقون منضمون إلى الإسلام من الوجهة النظرية والمظهرية ــ موقف قبائل منطقة المدينة الجحودي والعدائي إلى مابعد وقعة الخندق ــ انضمام بعض القبائل بعدها إلى الإسلام ــ تكاثر المنضمين من القبائل قبل الفتح المكي ــ تزايد الانضمام بعد الفتح وشمول الإسلام

الصورة الأولى

لقد ذكرت الروايات المعتبرة(١) أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يهاجر إلى المدينة إلاّ والإسلام قد فشا فيها حتى ما يكاد يخلو بيت منه ، نتيجة لمبايعة فريق كبير من زعماء الأوس والخزرج معاً للنبي ، وإرسال النبي معلّماً وقارئاً وداعياً قبله ، وهجرة أكثر المسلمين قبل كذلك .

ولعل آية سورة الحشر (٩) التي أوردناها في التمهيد تدعم تلك الروايات بوجه الإجمال .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن نطاق انتشار الإسلام بين عرب المدينة الذين كانت كثرتهم العظمى من الأوس والخزرج قد اتسع بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى شملتهم في زمن يسير . وهو ما عرف يقيناً من وقائع السيرة ورواياتها .

وإذا كان حقاً أنه كان في المدينة فئة من المنافقين وأنه كان مندمجاً فيها فريق غير قليل من الخزرج والأوس بل وفيها بعض الزعماء الأقوياء أيضاً منهم . وأن حركة النفاق فيها كانت قوية مزعجة في مبادئ العهد المدني وظلت كذلك إلى أوائل النصف الثاني منه . وأن القرآن كثيراً ماوصفهم بالكفر وحكى مواقفهم الكيدية والساخرة والكافرة مما سوف نشرحه في فصلهم الخاص ؛ فإن هذه الفئة من الوجهة النظرية والمظهرية تعتبر

(١) ابن هشام ج ٢ ج ٣١ وبعدها .

منضوية إلى الإسلام أيضاً . لأنها كانت تعلن الإسلام . وتؤكد إيمانها بالله والرسول وتنكر كفرها وتصلي وتصوم وتؤدي الزكاة وتشترك في الحركات الجهادية على ما حكاه القرآن عنها ولو في معرض التنديد والتكذيب .

ولقد كان في المدينة جماعات كبيرة من اليهود على اليقين . ونفر من النصارى على الاحتمال . وموقف هؤلاء من الدعوة الإسلامية سيكون موضوع فصل خاص .

الصورة الثانية

أما من حول المدينة من القبائل فإن عدم ذكر الروايات خبر اشتراك أحد منهم في الوقائع الحربية التي وقعت في السنوات الخمس الأولى من الهجرة النبوية إلى جانب المسلمين ، يدل على أنه لم يكن قد انضوى إلى الإسلام منهم أحد إلى السنة المذكورة . وإذا لاحظنا أن وقعة الخندق خاصه كانت زحفا عظيما متحالفاً ، وأن خبره قد وصل قبل قدومه بمدة ما تمكن المسلمون فيها من حفر الخندق حول المدينة ، لم يعد ثمة محل لورود أي احتمال آخر ، لأنه لو كان هناك مسلمون بمقياس واسع في القبائل المجاورة لكان النبي صلى الله عليه وسلم استنفرهم إلى شد أزر المدينة في دفع الكارثة التي كادت تعصف بها وبالإسلام ، والتي وصفتها ووصفت أثرها الشديد بعض آيات الأحزاب وصفاً قوياً كما ترى فيما يلي :

« إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا . » ١٠ — ١١

هذا إلى ما احتوته روايات السيرة المعتبرة من أخبار عدد غير يسير من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه ضد قبائل العرب النازلة حول المدينة أو في منطقة حدودها ، مما يدل على وقوف هذه القبائل موقف البغي والعداء من المسلمين والحركة الإسلامية .

وكلامنا منصب على الالتحاق الجمعي بالإسلام ، ولا ننفي الالتحاق الفردي به من القبائل والقرى المجاورة للمدينة ، بل نحن نرجح أن مثل هذا الالتحاق قد أخذ يقع منذ الهجرة النبوية ، أما بعد وقعة الخندق فالقرآن يلهمنا أن الحال قد تبدل ؛ ففي سورة الفتح التي نزلت كما قلنا عقب صلح الحديبية واحتوت بعض وقائع الرحلة والصلح ، وردت الآيات التالية :

١ — سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ١١ — ١٢

٢ — سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . . .

١٥ — ١٦

فهذه الآيات تدل بصراحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا أعراباً لمرافقته في زيارة الكعبة التي اعتزمها والتي انتهت بعقد صلح الحديبية ، وأنهم تخوفوا أن تكون مشاكل واشتباكات بينه وبين أهل مكة ، وأن تدور الدائرة على المسلمين ، فتهربوا وتخلفوا ثم جاؤوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته موفقاً وقد اعترف به أهل مكة وتفادوا الاشتباك معه .

وقد قال بعض كتاب السيرة الحديثين (١) إن هؤلاء الأعراب المتخلفين لم يكونوا مسلمين ، وإنما كانوا مسالمين أو موالين ، دعاهم النبي ليشهد على براءة قصده في الزيارة ، وعدم تبييته أي نية للقتال ، وقدومه في زيارة دينية موسمية عامة يشترك فيها عادة جميع العرب على اختلاف أديانهم ومنازلهم .. ولكن الكاتب لم ينتبه على ما يبدو إلى القرائن الحاسمة في الآيات ؛ إذ تضمنت الآية (١١) طلب الأعراب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، مما لا يمكن أن يكون إلا من مسلمين ، وإذ تضمنت الآية (١٦) أن الله يريد أن يختبرهم في موقف آخر يقاتلون فيه أعداء أقوياء حتى يدينوا بالإسلام ، ولا يمكن أن يدعى إلى مثل ذلك الموقف الا مسلمون (٢) .

وقد قلنا إن رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى زيارة الكعبة قد كانت في أواخر السنة السادسة للهجرة . ومعنى هذا أن هؤلاء الأعراب الذين ذكرتهم آيات سورة الفتح قد دانوا بالإسلام قبل صلح الحديبية .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن مايمكن استلهامه عن الحالة في المدة بين صلح الحديبية والفتح المكي

---

(١) الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » .

(٢) في روايات السيرة المعتبرة بيانات مؤيدة لذلك نوجزها فيما يلي :

١ ـ في السنة الخامسة الهجرية قدم إلى المدينة وفد كبير من مزينة فبايعوا النبي ﷺ على الإسلام . وأمرهم بالعودة إلى منازلهم إلى أن يدعوهم . ابن سعد ج ٢ ص ٧٠

٢ ـ وفد رهط من بني عبس في وقت مبكر بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة فأسلموا . وأرسلهم النبي ﷺ يعترضون عيراً لقريش أقبلت من بلاد الشام . نفس المصدر ص ٥٧

٣ ـ وفد ضمام بن ثعلبة بن سعد بن بكر على النبي ﷺ في السنة الخامسة فسأله مسائل كثيرة ثم أسلم وعاد إلى قومه فدعاهم فأسلموا وبنوا المساجد . نفس المصدر ص ٦٤

٤ ـ وفد وفد كبير من أشجع على النبي صلى الله عليه وسلم عام الخندق رأس السنة الخامسة ـ فقالوا له لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك منا ولا أقل عدداً . وقد ضقنا بحربك وحرب قومك فجئنا نوادعك فوادعهم ثم لم يلبثوا أن أسلموا . نفس المصدر ص ٧١

٥ ـ غزا النبي صلى الله عليه وسلم بني المصطلق في المريسيع في السنة الخامسة وانتصر عليهم وأسر وغنم منهم . ثم تزوج بنت زعيمهم جويرية بنت الحارث رضي الله عنها فأدى ذلك إلى إسلامهم . ابن سعد ج ٣ ص ١٠٤ ـ ١٠٧ وابن هشام ج ٣ ص ٣٣٩

الذي كان في أواخر السنة الثامنة للهجرة . غير أن فيه آيات ذات مغزى كبير . وهي الآيات التي جاءت في سورة التوبة في صدد وقعة حنين على سبيل التذكير وهي هذه :

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ... » ٢٥ ـ ٢٦

وواضح من النص أن عدد المسلمين كان كبيراً في ذلك اليوم حتى اغتروا بكثرتهم. ويوم حنين كان عقب الفتح المكي بين المسلمين من ناحية وهوازن من ناحية ثانية والروايات المعتبرة(١) تذكر أن جيش الفتح الذي زحف النبي ﷺ على رأسه نحو مكة وشهد بعد فتحها يوم حنين قد بلغ نحو عشرة آلاف . والمتبادر أن هذه الكثرة إنما كانت نتيجة انضمام كثير من القبائل العربية في منطقة المدينة إلى الإسلام في المدة الواقعة التي مرت بين صلح الحديبية والفتح المكي ويوم حنين(٢) بحيث يمكن أن يقال إن كثيراً من القبائل

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٣ وبعدها وابن سعد ج ٣ ص ١٨١ وبعدها .

(٢) في روايات السيرة بيانات مؤيدة نوجزها فيما يلي :

١ ـ قدم عميرة بن أفصى في عصابة من أسلم فقالوا قد آمنا بالله والرسول واتبعنا منهجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنا أخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء فقال رسول الله ﷺ (أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وكتب لأسلم ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف أي ساحل الوادي والسهل كتابا : فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي .

ابن سعد ج ٢ ص ١١٦ ـ ١١ .

وابن سعد ذكر أن كتائب من أسلم وغفار اشتركت في جيش الفتح المكي (ج ٣) حيث يفيد هذا أن إسلامهم كان سابقاً للفتح .

٢ ـ قدم وفد من جهينة على النبي ﷺ قبل الفتح وأسلموا وأقاموا في ضواحي المدينة وأرسلوا إلى قومهم فتابعوهم على الإسلام . ابن سعد ج ٢

والمؤلف . روى أن جهينة اشتركت كذلك في جيش الفتح .

٣ ـ وفد من بني سليم على النبي ﷺ وافد واسمه قيس قبل الفتح فاسلم ثم عاد إلى قومه فأخبرهم بأثر النبي في نفسه وصدقه وحضهم على الإسلام فلما كان عام الفتح خرجوا إلى رسول الله فأدركوه في قديد في طريقه إلى مكة فأسلموا وشهدوا فتح مكة ويوم حنين . ابن سعد =

التي كانت في منطقة المدينة قد دانت بالإسلام قبل الفتح المكي . وقد احتطنا في التعميم لأن هناك آيات تلهم أنه كان بين النبي ﷺ وبعض القبائل مواثيق صلح مما لا يكون إلا مع غير المسلمين ، وأنه كان منهم أناس حياديون ، إلى آخرين كانوا أعداء محاربين ولأننا لم نستطع أن نجزم بوقت معين لهذا الموقف الذي ذكرته الآيات ؛ وهذه هي :

« إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ... » النساء ٩٠ ـ ٩١

وقد قال الرواة إن المعنيين في الآية الأولى هم بنو أسلم وفريق من بني مدلج ، وفي الآية الثانية هم أسد وغطفان أو فريق منهم ؛ كذلك ذكرت الروايات أن غطفان كانوا غير مسلمين ، وأنهم حاولوا أن ينصروا أهل خيبر حلفاءهم حينما زحف النبي صلى الله عليه وسلم على خيبر .

وفي سورة التوبة آيات قد تلهم ما تلهم آيات النساء هذه مع إيضاح للوقت أكثر ، وهذه هي :

= ٤ ـ كان ممن أعطاهم النبي ﷺ من غنائم هوازن يوم حنين تألفاً لقلوبهم: نوفل بن عبد مناة من زعماء بني بكر بن عبد مناة من كنانة . وعلقمة بن علاثة ولبيد بن رفاعة من زعماء بني عامر بن صعصعة . وخالد بن هوذة وحرملة بن هوذة من زعماء بني عامر بن ربيعة . وعيينة بن حصن بن حذيفة زعيم بني فزارة والأقرع بن زعيم بني تميم (انظر ابن هشام ج ٤ ص ١٣٨ وبعدها) والمتبادر أن هؤلاء الزعماء كانوا على رأس جماعات من قبائلهم وأنهم مع جماعاتهم كانوا قد دانوا بالإسلام قبل الزحف على مكة . وفي سياق ابن هشام ما يؤيد ذلك .

« بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَـٰفِرِينَ . وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ... » ١ — ٤

إذ تلهم بصراحة أنه كان هناك مشركون معاهدون إلى ما بعد الفتح المكي ، منهم من ظل وفيا لعهده ، ومنهم من بدا منه الغدر فاستحق إعلان البراءة منه مع إعطائه مهلة أربعة أشهر هي الأشهر الحرم ؛ لأن البراءة قد أعلنت من قبل أمير الحج أو رسول النبي الخاص — على اختلاف الروايات — يوم الحج الأكبر ، وهو ما تلهمه الآيات نفسها ، والاستثناء تابع للكلام السابق كما هو ظاهر ، وكل ما في الأمر أنه ليس من الممكن بالإلهام القرآني تعيين هوية هؤلاء المعاهدين الغادرين والموفين ، وإن كنا نرجح أنهم من قبائل منطقة المدينة ، لأن القبيلة المشركة التي دخلت في عهد أهل مكة في صلح الحديبية وهي بنو بكر قد نقضت العهد مع بني خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم مما كان سبباً مباشرا لغزو مكة وفتحها ؛ فلا يحتمل أن تدخل في شمول الآيات ، كما أنه لم يرو فيما نعرف أنه كان بين النبي ومشركي مكة ومنطقتها وقبائلها عهد غير عهد الحديبية .

الصورة الرابعة

وفي سورة التوبة آيات مما نزل في ظروف غزوة تبوك — التي كانت بعد الفتح المكي بنحو سنة — تذكر الأعراب المسلمين الذين هم في منطقة المدينة في صيغة التعميم كما ترى فيها :

١ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . ٩٠

٢ — وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ٩٨ — ٩٩

٣ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ . . . ١٠١

٤ — مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ... ١٢٠

وأسلوب الآيات يلهم أن الإسلام قبيل هذه الغزوة كان قد عم جميع الأعراب في منطقة المدينة ، بغض النظر عن نفاق بعضهم في إسلامه .

المبحث الثالث

مدى انتشار الدعوة الإسلامية في المناطق الأخرى

إن سورة النصر هذه :

« إِذَا جَـآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً . »

التي نزلت في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن من دون ريب دلالة على ما كان من إقبال الناس على اعتناق الإسلام بمقياس واسع مما يمكن أن يدخل فيه سكان المناطق الأخرى بطبيعة الحال .

ولقد سجلت روايات السيرة وقائع كثيرة مؤيدة لهذا الشمول . منها ما كان قبل الفتح المكي . ومنها ما كان بعده . نوجزها كما يلي :

١ ـ أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء البلاد العربية والمجاورة لجزيرة العرب في السنة السادسة للهجرة كتباً ورسلا . ومن جملة من أرسل إليهم من العرب غير الكتابيين جيفر وعبد ابنا الجلندي ملكا عُمان . والمنذر بن ساوي ملك البحرين . وثمامة بن أثال ملك اليمامة . وقد أسلم الثلاثة الأولون حالا . وأسلم الرابع بعد مدة . وتابعهم معظم أهل بلادهم[١] .

٢ ـ أرسل النبي ﷺ عمرو بن العاص في السنة الثامنة إلى ذات السلاسل الواقعة على بعد عشر ليال من المدنية نحو الشام سرية لما بلغه من تجمع جماعة من قضاعة للهجوم على المدينة وقال له استعن بمن تمر به من بُلَيّ وعذرة وبلقين[٢] والمتبادر أنه لا بد من أن تكون هذه القبائل قد دانت بالإسلام قبل ذلك حتى يصح أن يأمره بالاستعانة بها .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨ وابن هشام ج ٤ ص ٣١٥ .
(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

٣ ـ ولقد تدفقت وفود القبائل العربية من مختلف أنحاء الجزيرة على النبي ﷺ تبايعه على الإسلام وتتلقى نصحه وأمره في العام التاسع الذي تلا عام الفتح وبعده . وممن ذكرت أسماؤهم وفود بني تميم وفزارة ومرة وثعلبة ومحارب وكلاب وعقيل وجعدة وقشير والبكاء وكنانة وباهلة وعامر وثقيف وربيعة وبكر بن وائل وتغلب وحنيفة وشيبان وطيئ وتجيب وخولان وجعفي وصداء ومراد وزبيد وكندة والصدق وخشين وسعدهذيم وبلي وبهراء وعذرة وسلامات وكلب وجرم والأزد وعنان وبنو الحارث وهمدان وسعد العشيرة وعنس والداريين والمذحجيين وغامدوالنخع وجبيلة وخثعم وحضرموت وأزد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان ومهرة وحمير وجيشان والسباع(١) .

٤ ـ وفي كتاب ابن سعد نصوص كتب كثيرة كتبها النبي ﷺ إلى عدد كبير من الزعماء اليمنيين وغير اليمنيين دون ذكر تاريخ إرسالها . منها ما يفيد يقيناً أنه كتب بعد الفتح ومنها ما لا يفيد شيئاً غير أننا نرجح من أسلوبها . أنها هي الأخرى كتبت بعد الفتح . وبعضها يدل على أنه مرسل إلى أناس كانوا أسلموا قبل ذلك حيث يعطيهم النبي ﷺ ذمته وجواره ويقرهم على ما في أيديهم وعلى ما لهم من رسوم وعوائد وأمارات ومراكز وأرض (ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) ويعلنهم براءة ذمتــه ممن يرجع عن دينه . وذكر ابن سعد الذي يروي النصوص في سياق رواياته خبر إسلام بعض من أرسلت إليه الــكتب مع قومهم أو جماعة من قومهم وخبر إرسال النبي ﷺ إليهم من يعلمهم القرآن ويجبي منهم الزكاة . وفي بعضها تعليمات وأوامر نبوية في شؤون متنوعة بحيث يسوغ القول إن النبي ﷺ اعتبرهم داخلين في حكمه وسلطانه وعاملهم على هذا الاعتبار(٢) .

وممن ذكر ابن سعد أسماءهم : الحارث بن عبد كلال وشريح بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال . ونعمان قيل ذي يزن . وقيل همدان . وقيل معافر . وزرعة ذو رعين .

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٥٩ ـ ١٢١ وابن هشام ج ٤ س ٢٢١ ـ ٢٧١ .
(٢) ج ٢ ص ٣٠ ـ ٥٦ .

وبنو معاوية من كندة . وبنو عمرو من حمير . وذو الكلاع التبعي . ومعدي كرب ابن أبرهة . وربيعة بن ذي مرحب الحضرمي وإخوته وأعمامه . ومن أسلم من حدس ومن لخم . وخالد بن ضمار الأزدي . وبنو قرة بن عبد الله التيهانيون . وبنو الضباب من بني الحارث. ويزيد بن الطفيل الحارثي . وبنو قنان بن ثعلبة . وبنو زياد الحارثيون . ويزيد بن المحجل. وقيس بن الحصين ذو القصة . وبنو قنان بن يزيد الحارثيون . وعاصم بن الحارث . وبنو معاوية بن جرول الطائيون . وعامر بن الأسود الطائي وقومه . وبنو جوين الطائيون . وبنو معن الطائيون . وبنو أسد . وجفاده الأزدي وقومه . وقبيلة سعد هذيم من قضاعة . وجذام . وبنو زرعة . وبنو الربعة من جهينة . وبنو جعيل من بلي . وخزاعة . وعوسجة بن حرملة الجهني . وبنو شنج من جهينة . وبنو الجرمز بن ربيعة من جهينة . وبنو الحرقة من جهينة . وبلال بن الحارث المازني . وبديل وبسر وسروات بني عمرو . والعداء بن خالد بن هوذة . وسلمة بن مالك السلمي وحرام بن عبد عوف من بني سليم والعباس بن مرداس السلمي . ونعيم بن مسعود الأشجعي . وجميل بن رزام العدوي . وحسين بن فضلة الأسدي . وبنو غفار . وبنو صخرة . وأهل هجر . وقبيلة جماح في تهامة . وبنو زهير بن أقيش من عكل . وأبو ظبيان الأزدي وقومه . والحبيب بن عمرو وقومه . وبنو بحتر من طي . وسمعان بن عمرو العرني . والسعير بن عداء . والحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير وبنو عبد القيس في عمان . وأقيال حضرموت وعظماؤهم زرعة وفهد والبسي والبحيري وعبد كلال وربيعة . والمطرف بن الكاهن الباهلي . ونهشل بن مالك الوائلي وبنو جناب من كلب . ومهري بن الأبيض وقومه . وقبيلة خثعم . وبطن بارق من الأزد . ووائل بن حجر قيل حضرموت (١) .

وهكذا يمكن أن يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت إلا وقد وصل الإسلام إلى كل ناحية من أنحاء جزيرة العرب ووجد فيها جماعات دانت به . وهذا غير الذين

---

(١) المصدر نفسه

دانوا به من أهل الكتاب في الجزيرة وخارجها مما سوف يكون موضوع فصل خاص .

بل وإنه ليمكن أن يستدل من آية سورة التوبة هذه :

« وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . » ٣

ثم من هذه الآية في السورة نفسها :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . » ٢٨

على أن الإسلام صار هو الدين العام في جزيرة العرب بوجه عام . وأن الشرك أصبح محصور النطاق مشدود الخناق . وأن المشركين أصبحوا منبوذين تعلن نجاستهم ويحظر عليهم دخول المسجد الحرام بعد العام التاسع للهجرة بإعلان يعلن على ملأ الناس يوم الحج الأكبر .

ولقد كان حج هذا العام بإشراف وأمارة مندوب رسمي من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبو بكر رضي الله عنه على ماروته الروايات بدون خلاف . وهذا مظهر سلطاني يعني أن السلطان كان قد استتب للنبي ﷺ . وهذا المعنى منطو بقوة أكثر في إعلان البراءة من المشركين على ملأ الناس وحظر دخول المسجد الحرام عليهم (١) . وهذا وذاك

(١) اختلفت الروايات في أمر الممثل النبوي الذي أعلن البراءة . حيث ذكر بعضها أن الآيات نزلت بعد سفر أبي بكر منتدبا من قبل النبي صلى الله عليه وسلم لأمارة الحج فقيل له لو بعثت بها لأبي بكر فقال لا يبلغ عني إلا واحد من أهل بيتي ثم بعث عليا بن أبي طالب رضي الله عنه لإعلانها على أن يكون في غير ذلك مأموراً لأبي بكر . وحيث ذكر بعضها أن أبا بكر هو الذي أمر بإعلان ذلك يوم الحج الأكبر (انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٢١ — ٢٢٢ و ابن هشام ج ٤ ص ٢٠١ وبعدها) والرواية الأولى تثير العجب والشبهة . فليس في الإعلان مايخص النبي صلى الله عليه وسلم شخصياً أو أسروياً . وحاشاه ثم حاشاه أن يكون اعتبر النبوة وتبليغات الله تعالى للناس بطريقها مسألة أسروية . ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم رسلا وكتباً كثيرة إلى الملوك والأمراء والزعماء والقبائل ليبلغوا عنه رسالة ربه ولم يرو شيء من ذلك قط في مناسباته .

في بيئة كبيئة الجزيرة لا يمكن أن يكون إلا بالاستناد على القوة والعصبية المؤيدة بالغالبية العظمى .

وفي سورة التوبة آية فيها دلالة قوية أخرى على ذلك وهي :

«وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ... » ٦

حيث تفيد أنه لم يعد للمشركين أمان ولا طمأنينة ، وسط المسلمين وبيئاتهم إلا بجوار النبي صلى الله عليه وسلم وحمايته . وإذا لاحظنا أن الإسلام قد صار منتشراً بمقياس واسع في جميع مناطق الجزيرة ازدادت الدلالة التي انطوت في الآية قوة .

ولقد حج النبي صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة حجته الشريفة التي عرفت بحجة الوداع فكانت حجة إسلامية خالصة برئت من الشرك والمشركين . وقد هتف صلوات الله عليه بجموع المسلمين الغفيرة التي شهدت معه الحج بلسان الله عز وجل القرآني .

« ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . . »

٣

فكان في هذا إيذان آخر بعموم الدين الإسلامي لمختلف أنحاء الجزيرة العربية .

ولقد كان الذين استجابوا للدعوة في العهد المكي يمثلون البشرية من حيث الأقطار والأجناس والألوان والأديان والطبقات على ما شرحناه في الجزء الأول . ولقد استمر هذا المظهر في العهد المدني بالمقياس الواسع المتناسب مع ظروف هذا العهد . وكان من المضافات إليه استجابة ملوك وأمراء وأقيال العرب في مختلف أنحاء الجزيرة وأطرافها ثم بدء استجابة غيرهم متمثلا في إسلام نجاشي الحبشة على ما سوف نشرحه بعد .

المبحث الرابع

صور متنوعة للمسلمين في العهد المدني

تفاوت صور المسلمين في العهد المدني وتعليله – تصنيف القرآن للمسلمين وطبقاتهم – تقسيمهم إلى صنفين – صور للصنف الأول : من صور البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والأحزاب والفتح والحديد والمزمل – صور للصنف الثاني : من سور البقرة وآل عمران والنساء والتوبة ومحمد والحجرات والحديد والمجادلة والممتحنة والجمعة والتغابن – غنى المسلمين وفقرهم في العهد المدني – إشارات تذكيرية إلى صور متنوعة أخرى في المباحث الأخرى .

الصورة الأولى

إن الصور التي يمكن اقتباسها من الآيات المدنية للمسلمين في العهد المدني متفاوتة أيضا كالصور المقتبسة لهم في العهد المكي ، وهو تفاوت متسق مع طبائع البشر ، غير أن الصور المدنية أكثر عدداً وتفاوتاً وتنوعاً ، وهذا متصل بطبيعة العهد المدني الذي اتسع فيه نطاق الإسلام مساحة وعدداً ، وتنوعت فيه الفئات والطبقات من جهة ، والأحداث والمشاكل والرغبات من جهة أخرى .

ولقد صنف القرآن المسلمين في آيات من سورة التوبة نزلت في سياق غزوة تبوك ، أي في السنة الهجرية التاسعة ، تصنيفاً يعبر من دون ريب عن حالة المسلمين وتفاوتهم في الإيمان والأخلاق في أواخر العهد النبوي ؛ وهذه هي :

١ — وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . . . ١٠٠

٢ — وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى

ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ...
١٠١

٣ — وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ١٠٢

٤ — وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... ١٠٦

٥ — وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ...

١٠٧ — ١١٠

إذ يستفاد منها أن المسلمين كانوا مؤلفين من هذه الطبقات :

١ ـ المهاجرين الأولين .

٢ ـ الأنصار الأولين .

وهاتان الطبقتان كانتا وظلتا مخلصتين كل الإخلاص لله والرسول والإسلام ، وفانية فيهم كل الفناء ، وقائمة بواجباتها كل القيام ، فاستحقوا الوصف العظيم المندمج في جملة « رضي الله عنهم ورضوا عنه » .

٣ ـ الذين أسلموا بعد الهجرة النبوية ، وحسن إسلامهم وساروا على قدم السابقين

المهاجرين والأنصار في الإخلاص والفناء والقيام بالواجب ، ودخلوا في شمول ذلك الوصف العظيم أيضاً .

٤ ـ منافقين من أهل المدينة والأعراب متكتمين غير ظاهري الأمر كما هو شأن المنافقين المشهور أمرهم . والآية تلهم أن النبي لم يكن يجهل سيرة هذا الفريق وسريرته ، ولعل آيات سورة محمد هذه :

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ . وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ . . . » ٢٩ ـ ٣٠

مما يمكن أن يكون وصفاً لهذه الفئة وقرينة على أن النبي كان يعرفهم من أقوالهم وتصرفهم .

٥ ـ فريق كانوا يخلطون عملا صالحاً وآخر سيئاً مع إخلاصهم للإسلام .

٦ ـ فريق كان أمرهم غامضا في نظر الجمهور ، ولعل أعمالهم وأقوالهم ومظاهرهم كانت متناقضة تدعو إلى الحيرة والتساهل ، ويبدو أنهم كانوا يتظاهرون بالإخلاص ، كما يبدو أن أمرهم لم يكن خافيا على النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه كان يؤمل غلبة النية الحسنة على السيئة عندهم أو كان لا يريد أن يجبههم لأنه لم يكن يرى فيهم ضرراً وبأساً وأذى كبيرا .

٧ ـ فريق منافق صريح غير خاف أمرهم على رسول الله والمخلصين . يحلفون على أن نواياهم حسنة . ولكنهم لا يتورعون عن الكيد والتآمر ضد دين الله ورسوله والمؤمنين . وقد سلكنا الفريق الأخير في السلك لأنه كان على كل حال يتسم بالإسلام ويقوم بمظاهره وواجباته . ويكرر الإيمان في كل مناسبة على صدق إيمانه بالله ورسوله وعلى إخلاصه . غير أن مواقفه المتنوعة كانت تكذبه وتفضحه .

وسنعرض في هذا المبحث مجموعتين من الآيات . واحدة تحتوي صوراً للصنف الأول أو الطبقات الثلاث الأولى وثانية تحتوي صوراً للصنف الثاني أو الطبقات الثلاث الأخرى أما الطبقة السابعة أي المنافقون الصرحاء فسنعرض ما ورد فيها من آيات ونشرح ما كان لها من مواقف وأدوار في مبحث خاص .

الصّورة الثانية

فأولا صور عن الصنف الأول .

١ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ١ ـ ٥

فقد احتوت صورة مشرقة للمؤمنين المخلصين ، وعمق إيمانهم ، وشعورهم بواجباتهم ؛ وهذه الصورة من الصور الواردة في القرآن المكي ، ومع أنها وصف عام محبب لمن يتصف بهذه الصفات فإننا نعتقد أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في العهد النبوي المدني .

٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ... »

١٥٥ ـ ١٥٧

وقد تضمنت وصفاً محبباً وثناء عظيما على الفئة المؤمنة المخلصة التي تلقى ما يحل بها في سبيل الله بالرضاء والصبر والتسليم ؛ ومع أنها وصف عام فإننا نعتقد كذلك أنها صورة واقعية للصنف الأول من المسلمين في ذلك العهد .

٣ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ... » ٢٠٧

وقد تضمنت صورة واقعية لفئة مخلصة تبيع نفسها في سبيل مرضاة الله ؛ وهي كذلك بطبيعة الحال من الصنف الأول للمسلمين في ذلك العهد .

٤ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . . » .

٢٧٣ ـ ٢٧٤

٥ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ... » ١٥ ـ ١٧

والآيات وإن تكن في مقام البشرى للمتقين الذين يقولون ويفعلون ما ذكرته والتنويه بهم فإن روحها مما يلهم بقوة أنها في صدد وصف فريق من المؤمنين والتنويه

بهم وتبشيرهم . وهــذه الأوصاف هي أوصاف الصنف الأول من المسلمين . كما هو المتبـادر .

ولقد جاءت هذه الآيات بعد هذه الآية :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ... » ١٤

حيث يلهم هذا أن الآيات جاءت في الوقت نفسه بسبيل تسلية ذلك الفريق من المسلمين الذين كانوا على الأغلب فقراء ومنصرفين عن زينة الحياة الدنيا ومباهجها ومستغرقين في الله ودينه وعبادته .

وقد احتوت الآية الأولى صورة لفريق من المسلمين وهبوا كل أوقاتهم وأنفسهم لله : عبادة وجهاداً ومرابطة ، وشغلهم هذا عن طلب الرزق والسعي إليه ، ومع فقرهم وشدة حاجتهم لم يطلبوا من أحد معونة ، وتعففوا حتى ليظنهم الجاهل أغنياء ؛ واحتوت الآية الثانية صورة أخرى لفريق من المسلمين أغنياء ينفقون أموالهم في الليل والنهار ، في السر والعلانية .

وكلتا الصورتين مشرقتان باهرتا السناء ، تدلان على قوة إيمان وشدة ورغبة فيما عند الله ؛ فهما من صور الصنف الأول في ذلك العهد .

٦ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ . أُوْلَـٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ... » ١٣٣ ـ ١٣٦

٧ ـ وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ... » ١٧٢ ـ ١٧٤

وفي الآيات وصف لموقف متفانٍ رائع وقفته الفئة المخلصة عقب وقعة أحد رغم ما كان ألمّ بها من تعب وجروح وحزن ومضض . وما رواه المفسرون من صور في سياق هذه الآية أن رجلين من الأنصار كانا جريحين فلما دعا داعي النبي صلى الله عليه وسلم للخروج إلى العدو الذي قيل : إنه يريد أن يكر على المسلمين قالا لبعضهما : أتفوتنا غزوة مع رسول الله . ولم يكن لهما دابة يركبانها فخرجا مع ذلك . وكان أحدهما أشد جراحاً من الآخر فكان أخوه يحمله من حين إلى آخر حتى بلغا ركب النبي صلى الله عليه وسلم .

ومع أن الآيات بسبيل بيان أجر المتقين وصفاتهم وأخلاقهم فإن روحها تلهم أنها تنطوي على صورة واقعية للفئة المخلصة ؛ وقد احتوت وصفاً باهراً لأخلاقهم وصفاتهم وتفانيهم في الله رغبة ورهبة .

٨ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ . ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . رَّبَّنَآ إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِياً

يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَاوَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ . فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ... » ١٩٠ ـ ١٩٥

والآية الآخيرة قرينة حاسمة على أن هــذه المناجاة الخاشعة الدالة على عمق الإيمان والخشية من الله ، مما كان يصدر مثله من الفئة المخلصة التي تحملت عظيم التضحيات ، وصبرت أجمل الصبر على ما نالهـا من أذى ، وقاتلت في سبيل الله ؛ والصورة مشرقة كل الإشراق ، سنية كل السناء كما هو واضح . وفي الآية في الوقت نفسه قرينة حاسمة على أن المرأة المسلمة كانت تشارك الرجل في هذه الصورة المشرقة .

٩ ـ وفي سورة المـائده الآيات التالية :

« إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ... » ٥٥ ـ ٥٦

والآيتان في صدد فريقين من المسلمين . فريق شديد الإخلاص والاستغراق في الله ودينه ورسوله وواجباته . وهذه صفات الصنف الأول من المسلمين كما هو واضح . وقد نبهت الآيتان الفريق الثاني إلى أن هــذا الفريق هو الذي يجب أن يتولوه دون غـيره ووصفتاه بأنه حزب الله المضمون له الغلبة والتأييد من الله . وفي هــذا مافيه من تنويه عظيم. وفي الآيتين تدعيم للتصنيف الذي صنفناه . ويتضح هذا أكثر بالآيات التي سبقت الآيتين حيث احتوت نهياً للمؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء أي نصراء وحلفاء

ونددت بمرضى القلوب الذين يسعون فيهم متذرعين بالخوف من العواقب وأنذرتهم كما ترى فيها:

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ . وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ... » ٥١ ـ ٥٤

١٠ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية:

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... » ٨٧ ـ ٨٩

وقد جاءت هـذه الآيات ٨٢ ـ ٨٦ التي نقلناها في مناسبة سابقة والتي فيها وصف أخاذ لخشوع فريق من النصارى وإيمانهم وتصديقهم وثناء عليهم ومنهم القسيسون والرهبان.

١١ ـ في سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ . أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ... » ٢ ـ ٤

والآيات وإن تكن في مقام التقرير والتنويه والبشرى فإن روحها تلهم أنها بسبيل وصف الصنف الأول من المسلمين كما هو المتبادر .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآيات نزلت بمناسبة اتفاق فريق من كبار الصحابة على الزهد والتنسك وتحريم الاستمتاع بطيب المآكل والمشارب واللذائذ الأخرى ، والسياحة في الأرض والانقطاع للعبادة ، وأن النبيّ قد بلغه ذلك فكرهه ولم تلبث أن نزلت الآيات . وورود الآيات عقب الآيات التي فيها وصف مشهد القسيسين والرهبان والثناء عليهم يدعم صحة الرواية ؛ إذ يتبادر أن الذين عزموا العزيمة التي ذكرتها الرواية قد تأثروا بذلك الثناء على تلك الطبقة التي كان أفرادها أو كثيرون منهم منقطعين للعبادة في الصوامع والأديار المنعزلة ، زاهدين في لذائذ الحياة ، وأطايب المتع ؛ ولما لم يكن مما استهدفه الإسلام إيجاد طبقة مثلها في مجتمعه الذي أحلت له الطيبات وحرمت عليه الخبائث ورفع عنه الإصر والتكاليف السابقة اتساقاً مع طبيعة الحياة ونواميسها ـ حظرت الآيات ذلك .

وعلى كل حال فالصورة التي تضمنتها الآيات والرواية الواردة في سبب نزولها طريفة حقا ، وتدل على ما كان من استعداد الفئة المخلصة للانصراف عن الطيبات واللذائذ ابتغاء مرضاة الله ، وبالتالي تدل على تفانيها في الله ومرضاته ودينه .

١٢ ـ في سورة التوبة الآية التالية :

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٧١

وقد جاءت مقابلة لوصف ما كان من تعاون المنافقين والمنافقات على الإثم والعدوان ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان عليه المؤمنون المخلصون من أخلاق حميدة ، وتضامن قوي ، وقيام بالواجبات الإسلامية من تعبدية ومالية واجتماعية . ويُلفت النظر خاصة إلى ذكر المؤمنات إلى جانب المؤمنين في الآية ، فإن ذلك يلهم قصد التنويه بالمؤمنات خاصة ، وما كان لهن من أثر ودور إيجابيين في الدعوة والسيرة النبويتين في العهد المدني كما كان الحال في العهد المكي أيضاً وهذا فضلاً عن قصد تقرير التكافؤ بين رجال المسلمين ونسائهم في التعاون والتناصر .

١٣ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ٨٨

وهذه الآية جاءت كتلك : مقابلة لوصف ما كان من تخلف المنافقين عن الجهاد وختالهم وتثبيطهم ؛ وفيها على كل حال صورة قوية لما كان من إقبال المؤمنين المخلصين على الجهاد بالمال والنفس .

١٤ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية .

« وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ . . . » ٩٢

وفي الآية مشهد رائع لفريق من فقراء الأعراب المخلصين الذين كانوا شديدي الرغبة في الاشتراك في غزوة تبوك فبكوا وحزنوا لأنهم لم يكونوا يملكون وسائل الاشتراك ولم يكن لدي النبي مايساعده على مساعدتهم .

١٥ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . . . » ١١٨

وفي الآية مشهد رائع آخر لفريق من المخلصين تخلفوا بدون عذر عن غزوة تبوك فداخلهم الندم والجزع من الله حتى لم تعد الدنيا تسعهم فلجأوا إلى الله يسألونه العفو والتوبة .

١٦ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . » ١١١ ـ ١١٢

والآيات وإن تكن في مقام التقرير والتبشير فإن روحها بل ونصها يلهمان أنها في صدد وصف فريق من المؤمنين كانوا متفانين في دين الله والجهاد في سبيله والتقرب إليه بالعبادة والتزام أوامره ونواهيه .

١٧ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ . . . »

١١٩

وقد وردت في سلسلة تعقيبية على وقائع غزوة تبوك احتوت إشارات إلى ما كان

من صعوبة الحال حيث كاد يزيغ قلوب فريق من المؤمنين ، وجاء بعدها آيات تنبه المسلمين من أهل المدينة والأعراب إلى أنه لا يصح أن يتخلف أحد منهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهذا وذاك يلهمان أن الآية موجهة إلى عامة المسلمين ، وأن القصد من الصادقين هو السابقون الأولون من الأنصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان ؛ وهكذا تصف الآية الصنف الأول بهذا الوصف الذي يندمج فيه معان عدة كالصدق والإخلاص والتفاني في الواجب من جهة ؛ وتدعو عامة المسلمين ، وبالأحرى الصنف الثاني ، إلى اتخاذهم أسوة وقدوة ؛ وفي ذلك إقرار لمكانتهم عند الله ورسوله ، وتوكيد لمعنى التصنيف الذي احتوته الآيات التي نقلناها في مطلع المبحث .

١٨ ـ في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا . مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا . . . »

٢٢ ـ ٢٣

وفي الآيات صورة رائعة لموقف المؤمنين المخلصين إزاء زحف الأحزاب على المدينة وما كان لذلك من أثر في ازدياد تمسكهم بدين الله وتفانيهم في سبيله وتنويه بهم على قوة عقيدتهم وثباتهم سواء منهم الذين استشهدوا وقضوا نحبهم أم الذين بقوا .

ونص الآية الثانية قد يدعم صحة التصنيف من حيث أن المؤمنين كانوا طبقات منهم الفريق المخلص الثابت الموصوف فيها .

ولقد روى الترمذي حديثا عن أبي عبد الله بن مغفل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي . لا تتخذوهم غرضاً بعدي . فمن أحبهم فبحبي أحبهم . ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم من آذاهم فقد آذاني . ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه) وقد روى البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود

حديثا : عن أبي سعيد قال (كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبّه خالد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه) والخطاب موجه إلى المسلمين السامعين . وهذا يعني أن المقصود من أصحاب رسول الله في الأحاديث هو المقصود من الصادقين في الآية . وهم الصنف الأول أو بتدقيق أكثرهم الرعيل الأول السابقون من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم .

١٩ ـ وفي سورة الأحزاب الآية التالية :

« إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً . . . »

٣٥

وقد احتوت تنويهاً عظيما بالمخلصين من المسلمين رجالا ونساء ؛ وهي وإن كانت تنوه بكل من يتصف بهذه الصفات فما لاشك فيه أنها تنطوي على تنويه بطبقة كانت متصفة بها من المسلمين فعلا حين نزولها ، وهي الصنف الأول منهم على ماهو المتبادر .

ويلفت النظر خاصة إلى ذكر النساء إلى جانب الرجال في جميع الصفات ، وما في ذلك من قصد تنويهي صريح بالمسلمات المخلصات ، ثم مافي هذا من دلالة على أن من المسلمات من كن من الصنف الأول ، وعلى ما كان للمرأة المسلمة المخلصة من دور إيجابي استحق هذا التنويه الصريح أيضاً .

٢٠ ـ وفي سورة الفتح الآية التالية :

« مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ

ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . . . »

٢٩

وقوة الثناء والتنويه ملموسة في الآية ، كما أن الصفات التي وصف بها النبي والذين معه قوية في صدد تفانيهم في الله ورضائه وطاعته ، وفي صدد رأفتهم ورحمتهم بالمؤمنين وشدتهم على الكفار ؛ ونعتقد أن المقصود منهم الصنف الأول من المسلمين ، وقد احتوت الآية صورة وضاءة لهم كما هو ظاهر .

٢١ – وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ . . . » ١٨ – ١٩

والآيات وإن كانت بسبيل التنويه بالمتصفين بالصفات المذكورة فيها ، فإن روحها تلهم أن فيها صورة مشرقة لفئة كانت متصفة فعلا بها استحقت بسبب ذلك هذه المرتبة العالية ، وهي من الصنف الأول على ماهو المتبادر . وفي عبارة (المصدقات) هنا تنويه بالمرأة المسلمة وتقرير لدورها الإيجابي في الإسلام وفي الدور الأول منه كما هو شأن دلالة ذكرها في المقامات الأخرى .

٢٢ – في سورة المزمل الآية التالية :

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟

مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ . . . » ٢٠

والآية مدنية على ماعليه جمهور الرواة والمفسرين ، وطابعها المدني بارز ؛ وقد احتوت صورة مشرقة لما كان من استغراق النبي صلى الله عليه وسلم والطبقة الملازمة له الفانية فيه ـ في عبادتهم وتهجدهم مهما نالهم في ذلك من المشقة ، حتى لقد شاءت حكمة الله أن يخفف عنهم بهذا الأسلوب المحبب الذي انطوى على تنويه عظيم أيضاً

الصّورة الثالثة

وثانياً : صور للصنف الثاني .

١ ـ في سورة البقرة الآيات التالية :

« أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ . . . » ١٠٨ ـ ١٠٩

وتلهم أن بعض المسلمين كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً أسئلة تعجيز ، أو نامّة على شيء من التشكيك في بعض الأمور الغيبية ؛ والآيات من سلسلة في حق اليهود ودسائسهم ، وفي هذا دلالة على أن هذه الدسائس كانت تجد أذناً في بعض المسلمين فتدفعهم إلى بعض المواقف التي تستوجب العتاب ؛ وطبيعي أن هـذا إنما يكون من الصنف الثاني من المسلمين ؛ لأن الصنف الأول قد وصف بصفات تدل على إيمانهم القوي التام بالغيب ، وخشيتهم الشديدة من الله ، وتوقيرهم العظيم للنبي ، ومعرفتهم حدودهم ..

٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ... ﴾ ٢٦٤

٢ — ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ... ﴾

٢٦٧ ـ ٢٦٨

فهذه الآيات وإن كانت في معرض وعظ وتعليم عامين فإن روحها تلهم أن بعض المسلمين كانوا يمنون على الذين يتصدقون عليهم ويسمعونهم مايؤذي ، كما أن بعضهم كان يتصدق بالرديء من الغلة الذي لايكاد ينفع أحداً ؛ وقد ذكرت الروايات في سياقها مايدل على صحة هذا الاستلهام .

٣ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

٣ — ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ... ﴾ ٢٧٨ ـ ٢٧٩

وهذه مثل تلك بسبيل الوعظ والتعليم ، وتلهم في الوقت نفسه بقوة ووضوح أكثر، أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا وكانوا متمسكين به إلى درجة أن اقتضت الحكمة إنذارهم هذا الإنذار القاصم .

وإذا لوحظ أنه قد تقدم هذه الآيات آيات حمل فيها على الربا حملة شديدة ، وسفه

فيها قول القائلين إنه كالبيع ، وضحت الصورة أكثر ، ودلت على أن بعض المسلمين ظلوا مستمسكين بربام على رغم الحملة التي يرجح أنها جاءت متقدمة فترة ما على هذه الآيات :

ولقد جاء في سورة آل عمران نهي مشدد آخر عن الربا كما ترى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ . وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... » ١٣٠ ـ ١٣٢

وأكثر الروايات على أن هذه الآيات سبقت آيات البقرة في النزول وأن آيات البقرة كانت من أواخر ما نزل من القرآن . وهذا يفيد أن الذين كانوا يتعاطون الربا من المسلمين لم يقلعوا عن العادة كما يدل على شدة رسوخها فاقتضت حكمة التنزيل إنذارهم الإنذار القاصم في آية البقرة . وهذا الموقف لا يمكن أن يكون من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٤ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ . قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ . قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٢٨ ـ ٣١

في الآيات نهي للمؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ونصراء دون المؤمنين . وإنذار

شديد لمن يفعل ذلك . وحض على اتباع رسول الله لنيل رضوان الله . وهي وإن كانت تعليمية وتشريعية عامة فإن نصها وروحها يلهمان بقوة أنها موجهة إلى فريق من المسلمين كانوا يتخذون بعض الكفار أولياء ونصراء . وهو ماروته روايات التفسير حيث ذكرت خبر استمرار الموالاة بين بعض المسلمين واليهود في المدينة . وهذا لايمكن أن يكون من الصنف الأول .

٥ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ... » ١١٨ ـ ١٢٠

وفي الآيات نهي آخر عن اتخاذ اليهود أولياء وبطانة واطلاعهم على أسرار المسلمين، مما يلهم أن من المسلمين من كان شديد الصلة والاندماج فيهم ؛ وتفصيل ماعليه اليهود من عداء كامن للمسلمين وبغضاء شديدة وتربص سوء بهم ، يدل على تلك الشدة في الصلة والاندماج ؛ إذ توخى به حملهم على الارعواء عما هم متورطون فيه من خطة ضارة كل الضرر ، مناقضة لواجب كرامة النفس وحفظ الكيان . والراجح أن اليهود كانوا يستغلون هذا الاندماج والصلة في الدس والتشكيك . وتكرار النهي بهذا الأسلوب يدل على عدم الارعواء والاستجابة للنهي الأول؛ ولايمكن أن يصدر كل هذا من الصنف الأول كما هو المتبادر .

٦ ـ في السورة نفسها هذه الآيات :

« ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ... » ١٥٤

وهذه الآية من جملة ما نزل من آيات السورة تعقيباً على حوادث وقعة أحد التي دارت الدائرة فيها على المسلمين . وبعض المفسرين قالوا إن الكلام الذي حكته الآية هو كلام المنافقين . وهذا القول محل توقف لأن المنافقين لم يشهدوا الوقعة على ما جاء صراحة في آية أخرى من السورة وهي :

« وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ... » ١٦٧

فيكون الكلام صادراً في ظرف حزن وألم من فريق من المسلمين غير منافق والمتبادر أنه لابد من أن يكون من الصنف الثاني دون الأول .

٧ – وفي سورة النساء الآية التالية أيضا :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰناً مُّبِيناً ... » ١٤٤

والآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين باسمهم الصريح لاتخاذهم الكافرين أولياء ، وروح السلسلة تلهم أن المقصود مباشرة هم اليهود ؛ وروح الآية تلهم أنه كان من المسلمين غير المنافقين من ظل يتمسك بولائه لليهود مع ما كان من نهي متكرر ،

وهـذا مما يدعم ماقلناه آنفا . وفي ذلك صورة من الصـور الممثـلة للصنف الثاني دون الأول .

٨ — وفي سورة النساء الآية التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً ... » ٩٧

وتدل على أنه كان هناك فريق من المسلمين استكانوا وبقوا في مكة ولم يهاجروا وانتحلوا الأعذار الواهية : وننبه إلى أن الآية التي تلت هذه الآية أشارت إلى فريق آخر مستضعف حقا ، وعذرته ، وفي سورة الأنفال آية أخرى تذكر طبقة المتخلفين عن الهجرة بأسلوب فيه شيء من الملامة ، وإن لم يبلغ من القوة في ذلك مبلغ آية النساء ؛ وهي هذه :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... » ٧٢

وسورة الأنفال نزلت قبل النساء ؛ وعلى هذا تكون آية الأنفال إنذارا أوليا للمتخلفين ، فلما ظل بعضهم متخلفا استحق اللوم والإنذار العنيفين . وفي صورة ممثلة للصنف الثاني دون الأول .

٩ — وفي سورة النساء الآيات التالية :

١ — إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً . وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً . وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً . يَسْتَخْفُونَ مِنَ

ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ... ١٠٥ ـ ١٠٩

٢ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ... ١١٢ ـ ١١٣

وهذه الآيات تضمنت إشارة إلى حادثة أكملت الروايات صورتها ؛ إذ روي أنها نزلت في قصة درع لمسلم سرقها مسلم آخر اسمه طعمة وأودعها عند يهودي ، وأن أصحاب الدرع تعقبوا الأثر وسألوا طعمة فأنكرها ، ثم وجدوها عند اليهودي فأخبرهم أنها وديعة طعمة ، فرفعوا الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء طعمة مع أهله يؤكدون بسائق العصبية العائلية عدم سرقة صاحبهم وأن اليهودي هو السارق حتى كادوا يقنعون النبي ﷺ ويجعلونه يحكم بقطع يد اليهودي ، ثم لم تلبث أن ظهرت براءة اليهودي وذنب طعمة وتضليل أهله . وهكذا تكون الآيات مع الروايات قد انطوت على شيء مما كان يقع من بعض المسلمين الذين لا شك في أنهم من الصنف الثاني .

١٠ — وفي سورة النساء أيضا الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ... » ١٤٠

والآية تلهم أن بعض المسلمين كانوا يترددون على مجالس وحلقات المنافقين ، ويغضون عما يسمعونه من هزء بآيات الله ونقد لها ؛ ويبدو أن صلة المسلمين غير المنافقين بالمنافقين كانت مما لا مناص منه ، لأنها ناشئة عن أوشاج القربى وضرورات المصلحة ،

بدليل أن الآية إنما نبهت على عدم الاندماج في جلسة فيها هزؤ وكفر ، وطبيعي أن هذا الاتصال ظل مستمرا طيلة العهد المدني ، وذلك ماتلهمه الآيات القرآنية العدة في مختلف أدوار التنزيل ، وفي هذا وذاك صور لما كانت عليه الحال ولبعض المسلمين كما هو واضح وكل هذا لا يمكن أن يقع من الصنف الأول

١١ — وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ . يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . . . »

٥ — ٦

حيث تضمنت إشارة إلى كراهية فريق من المؤمنين لخروج النبي صلى الله عليه وسلم للجهاد ومجادلته في ذلك مع ما كان من الحق والمصلحة في الخروج كراهية الموت

وواضح أن هذه الصورة تمثل فريقاً من الصنف الثاني .

١٢ — وفي نفس السورة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ . وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ

أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ... » ٢٠ ـ ٢٩

والآيات وإن تكن في مقام التعليم والتأديب والتنبيه والتحذير فإن روحها بل ونصها يلهمان أنها موجهة إلى فريق من المؤمنين كانوا يترددون في إطاعة أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ويقفون مواقف غير مستحبة فيها ضرر بمصلحة المسلمين العامة وإثارة للفتنة متأثرين في ذلك بحرصهم على مصالحهم الخاصة أو شدة تعلقهم بأموالهم وأولادهم حيث ينطوي في كل هذا صور لفريق من المؤمنين من الصنف الثاني دون الأول .

١٣ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ. قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ... » ٢٣ ـ ٢٤

وروح الآيات تلهم أن أثر العصبية العائلية ظل قوياً في نفوس بعض المسلمين إزاء ذوي قرباهم من الكفار حتى وقت متأخر من العهد المدني ، لأن هذه الآيات نزلت على الراجح بين يدي الفتح المكي ، وأن هذا كان يؤثر أثراً سلبياً وضارًّا في مواقف المسلمين والحركة الإسلامية ؛ وفي هذا صورة لما كانت عليه حال بعض المسلمين . وهذا التحذير مسبوق بتحذير آخر بأسلوب آخر في آية في سورة المجادلة التي نزلت قبل هذه الآيات ، مما يدل على أن الأثر السلبي الضار المذكور كان محسوساً منذ العهد الباكر ؛ وهذه آية المجادلة :

« لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ٢٢

والآية إلى ما قلناه تدل على أن النهي الوارد في آيات التوبة موجه إلى الصنف الثاني من المسلمين كما هو واضح ؛ إذ تنكر أن يواد المخلصون الكفار بأي حال ؛ هذا إلى ما فيها من صورة مشرقة للصنف الأول في موضوع كان راسخاً عميق الجذور في نفسية المجتمع العربي وحياته ، إذ استطاعت هذه الفئة أن تتفلت من أثر ذلك وأن تفنى في الله ورسوله ودينه فناء تاما .

ولقد كانت صلات القربى وعصبيتها القائمة بين المسلمين والكفار والمنافقين مما يثير أزمات نفسية شديدة في كثير من المسلمين الذين كان يتألف منهم الصنف الثاني ، وخاصة في ظروف الحرب ، مما تلهمه آيات عدة سنشرحها في فصل الجهاد .

١٤ — في سورة التوبة الآيات التالية :

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . » ٣٨ — ٣٩

والمتبادر أن الذين يوجه إليهم الخطاب والتنديد في الآيات إنما يمثلون فريقاً من الصنف الثاني .

١٥ — في سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ . إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ .

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم . . . » ٣٦ ـ ٣٨

وفي الآيات صورة لما كان عليه بعض المسلمين من شح حينما يدعون للإنفاق في سبيل الله ، وقد احتوت حكمة سامية في عدم تكليف المسلمين تكاليف مالية عظيمة لئلا يبدو منهم مالا يتفق مع خلق الإسلام الصحيح من الطاعة والسخاء . والصورة لا تقع كما هو ظاهر إلا من الصنف الثاني .

١٦ ـ في سورة الحجرات الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ . . . » ١١ ـ ١٢

وهذه الآيات وإن كانت في معرض التعليم والتأديب فالمتبادر أن ما نهت عنه مما كان يصدر من بعض فئات المسلمين تجاه بعض ، وفي الفقرة الأخيرة من الآية الأولى قرينة على ذلك ، ولقد روي أن الآية نزلت بسبب سخرية بعض الأغنياء من بعض الفقراء ، وبسبب غمز بعض زوجات النبي بعضا ، وبسبب نبذ بعض المسلمين مسلمي اليهود والنصارى بالنصراني واليهودى بعد إسلامهم ، وأن الآية الثانية نزلت بمناسبة إساءة الظن بخازن للنبي صلى الله عليه وسلم وتجسس بعض المسلمين عليه ، وواضح أن كل هذا إنما يحتمل صدوره من الصنف الثاني في الأغلب .

١٧ ـ في سورة الحجرات أيضاً الآيات التالية :

١ — قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . ١٤

٢ — يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... ١٧

وفي الآيات صورة لإيمان بعض الأعراب وزهوهم ، بل منّهم به ، مع أنه إسلام ظاهري أكثر مما هو إيمان قلبي ، ولعلهم كانوا يرمون بذلك إلى الحصول على مساعدات ومنافع ؛ ويبدو من روح الآيات أن قبول إسلام الأعراب على هذا الوجه أيضاً مما كانت تسوغه الظروف مع شرط الانقياد والطاعة للرسول على اعتبار أن الأعراب لايستطيعون أن يبلغوا أكثر من ذلك في باديء الأمر ، وأن الاستمرار كفيل ببلوغه إلى مداه . على أن في سورة التوبة بعد آيات فيها حملة على الأعراب المنافقين والمتخلفين عن الجهاد جاءت هذه الآية :

« وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ . . » ٩٩

وقد احتوت مصداق الحكمة التي ألمعنا إليها ، وصورة مشرقة لبعض الأعراب الذين نفد الإسلام إلى أعماقهم واستشعروا واجبهم ، وإذا لاحظنا أن آية التوبة من أواخر ما نزل بدت لنا الحكمة السامية لذلك ، كما بدت لنا صورة تطورية لإسلام الأعراب في مدى العهد المدني أيضاً .

١٨ — في سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ (١) وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ

(١) الراجح المستلهم من روح الآية أن القصد من « تؤمنون ، ولتؤمنوا » التصديق بما يؤمرون به والانقياد له.

لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِن بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ . وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . . . » ٨ — ١٠

والآيات موجهة للمسلمين ،وروحها تلهم أن بعضهم لم يكن عميق الإيمان والتصديق والطاعة لله ورسوله ، كما أن بعضهم لم يكن يقابل الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله مقابلة حسنة ؛ فهل كان يظن أن قليل الإنفاق يجزي كما كان الأمر قبل الفتح وفي أيام الشدة ؟ وفي ذلك على كل حال صورة ممثلة للصنف الثاني .

١٩ — وفي السورة نفسها الآية التالية :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ . . . » ١٦

الآية احتوت كما تلهمه روحها تنديداً بأولئك الذين لم يكونوا مندمجين كل الاندماج في الإسلام وواجباته — وخاصة الإنفاق في سبيل الله — من المسلمين ، والذين كانوا موضوع الآيتين السابقتين . وقد حذرتهم من أن تقسو قلوبهم كما قست قلوب الكتابيين .

ومن الجدير بالتنبيه أن الآيات١٨ — ١٩ وقد نقلناهافي القسم الأول من هذا المبحث — قد احتوت تنويهاً بالمتصدقين والمتصدقات والمخلصين في الإيمان ، كما أن الآيات التالية لهذه أيضاً احتوت تهويناً لشأن الحياة والاستغراق فيها ، ودعوة إلى التسابق إلى ما عند الله من عظيم الأجر والمغفرة ، وتنديداً بالبخلاء الذين يأمرون الناس بالبخل كما ترى :

« ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا

ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ . سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ...»

٢٠ – ٢٤

مما يدل على أن موقف بعض المسلمين السلبي من الإنفاق في سبيل الله كان موقفاً استحق ذلك . وفي ذلك صورة ممثلة للصنف الثاني كما هو المتبادر .

٢٠ – في سورة المجادلة الآية التالية .

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ...»

٩

وقد سبقها آية فيها تنديد بالمنافقين الذين كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ولم ينتهوا عن ذلك على رغم نهيهم عنه ؛ غير أنها تلهم أن من المسلمين من كان يعقد أيضاً مجالس خاصة يتسارون فيها في الأمور العامة ، وكانت أخبارها تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أنه كان يجري فيها من الأحاديث مايضر الخوض فيه ، فجاءت الآية محذرة منبهة . وقد روي أن هذه المجالس كانت تعقد على الأكثر في أزمات الحروب ؛ فلعله كان يجري فيها من الحديث مايفت في أعضاد المسلمين ويثير هواجسهم

٢١ – في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَـآءَ تلقون إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَـآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَـآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ . لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . . »

١ ـ ٣

وقد روى المفسرون أن الآيات نزلت في رجل من المهاجرين اسمه حاطب في مناسبة إرساله رسالة إلى أهل مكة يخبرهم فيها بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم . والرواية تذكر أن الرجل اعترف وتذرع بأن له في مكة عشيرة ليس لها عصبية تحميها لأنها غريبة عن مكة فأراد أن يتخذ عندهم يداً وهو موقن بأنه لن يضر مصلحة المسلمين لأن الله سوف ينصرهم على كل حال وأقسم أنه لم يكن كافراً ولا منافقاً . وكان ممن شهد بدراً . فصدقه النبي وعفا عنه . وقال لعمر بن الخطاب الذي استأذنه بقتله (وما يدريك ياعمر . لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم)[1] .

وعلى كل حال ففي ماانطوى في الآيات صورة مما يحدثه تأثير المصالح الشخصية أو الأسروية في نفوس بعض المسلمين فيجعلهم يحرصون على اصطناع اليد واستبقاء الروابط بينهم وبين الكفار على رغم ما كان واستمر من هؤلاء من مواقف العداء والكيد والأذى ضد المسلمين .

٢٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ

---

(١) انظر تفسير الآيات في تفسير الطبري والبغوي والطبرسي والزمخشري .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ...»

٧ ـ ٩

وروح الآية الأولى تلهم صورة لما كان يعتلج في نفوس بعض المسلمين ، وبتعبير أدق : المهاجرين ؛ من أمنية ملحة أن تنتهي حالة العداء والتشاد القائمة بين المسلمين ومشركي مكة ، كما أن الآية الثانية تبيح لهم أن يبروا ويقسطوا إلى ذوي النيات الحسنة والمواقف السلمية من غير المسلمين ، والآية الثالثة تشدد الحظر على الولاء لذوي النيات السيئة والمواقف العدوانية ، وتصف من يخالف ذلك بالظلم ، مما يمكن أن يستلهم منه ومما قبله أن ذلك الحكم كان الصورة السابقة في أن هذه الفتوى كانت نتيجة لاستفتاء واقعي، وأمنية ملحة أيضاً؛ ولقد روي في صدد الآيات أن إحدى قريبات زوجة من زوجات النبي جاءت لزيارتها فلم تشأ البر بها قبل استئذان النبي وإذنه ؛ غير أننا نرى الآيات أبعد مدى من هذه الحادثة الفردية في روحها ومضمونها ، وخاصة بسبب مجيئها بعد آيات السورة الأولى التي احتوت الصورة التي ذكرناها . وعلى كل حال ففي الآيات صور لما كان يشعر به بعض المهاجرين نحو أقاربهم وأصدقائهم في مكة من شعور أليم بسبب حالة العداء ، وما كانت تدفعهم رابطتهم وعاطفتهم إليه من مواقف محرجة تستوجب العتاب والتحذير .

٢٣ ـ في سورة الصف الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ...»

٢ ـ ٤

والخطاب كما هو واضح موجه للمؤمنين . حيث يفيد هذا أن فريقاً منهم كان يتخاذل عن الجهادأو في أثناء القتال . ويدعى أو يقولأو يعد شيئاً ثم ينكل عنه ولا يفعله. وهذا لا يمكن أن يكون من صفات الصنف الأول كما هو المتبادر .

٢٤ - في سورة الجمعة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ...» ٩ - ١١

وفي هذه الآيات صورة لفريق من المسلمين كانوا لا يبالون أن يتركوا المسجد وقت صلاة الجمعة والنبي قائم فيهم ، ليسارعوا إلى تجارة وصل إليهم خبرها ، أو لهو بدت لهم أسبابه ؛ وقد روي أنهم كانوا يفعلون ذلك حينما ترد قوافل التجارة من الخارج ، أو حينما تسير مواكب الغناء والزمر ؛ وظاهر أن هذا إنما يكون من الصنف الثاني .

٢٥ - في سورة التغابن الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... » ١٤ - ١٦

وقد روي أن الآيات نزلت في مسلم كان أولاده وزوجته يثبطونه عن الغزو والإنفاق خشية الموت والفقر ، كما روي أنها نزلت في جماعة أخرتهم أموالهم وعيالهم

عن الهجرة ، فلما وجدوا إخوانهم السابقين قد سبقوهم فقهاً في الدين وبلاء في الجهاد هموا بمعاقبة أولادهم وأزواجهم ؛ ومما يلاحظ أن الآية الأخيرة تحث على الإنفاق ، ويستلهم من ذلك أن للإمساك عن الإنفاق دخلا في هذا الموقف متصلا بتثبيط الأولاد والزوجات، وعلى كل حال ففي الآيات صورة لما كان يقع أحياناً من تقاعس بعض المسلمين وتقصيرهم في واجباتهم بسبب الأزواج والأولاد وحب المال .

ولقد ورد في سورة الأنفال آية تنبيهية في هذا المعنى وهي :

« وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ . . . »
٢٨

وقد جاءت بعد آية فيها نهي للمسلمين عن خيانة الله ورسوله والأمانات ، مما يدل على حدوث واقعة اقترف فيها بعض المسلمين خيانة ما بسبب الأموال والأولاد . ولقد كانت الأموال والأولاد مدار اعتذار حتى عن الجهاد في بعض الأحيان كما جاء في آية سورة الفتح (١١) التي شرحناها في المبحث الأول .

صور متنوعة أخرى لا تقوم على مظاهر التفاوت في الإخلاص

الصورة الرابعة

بالإضافة إلى تلك الصور التي تتضمن مواقف وحالات المسلمين حسب تفاوتهم في الإخلاص فإن هناك صورا عديدة أخرى عامة وخاصة لا تقوم على مظاهر التفاوت في الإخلاص نعرضها فيما يلي :

١ ـ في سورة آل عمران الآيات التالية .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ

ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . . . »
١٠٢ – ١٠٣

وفي سورة الأنفال هذه الآيات :

« وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . ٦٢ – ٦٣

حيث انطوى في المجموعتين إشارة إلى ما كان من حالة العداء بين طوائف العرب المسلمين قبل إسلامهم وكيف انقلبت هذه الحالة بفضل الله تعالى ودينه إلى أخوة قوية متينة .

ورواة التفسير والمؤرخون يذكرون أن ذلك كان حالة قبيلتي الخزرج والأوس اللتين تتألف منهما غالبية حرب المدينة حيث كانت حالة الحروب والعداء قائمة بينهما قبل الإسلام .

وفي سورة الأنفال آية تقرر التناصر التام بين طوائف المهاجرين والأنصار أيضاً وهي :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ... » ٧٢

وفي سورة التوبة آية تقرر التناصر التام بين المؤمنين على اختلاف طوائفهم وهي هذه :

« وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٧١

وبذلك تمت مظاهر فضل الله ودينه ونعمته بالأخوة الإسلامية المتينة التي كانت تشمل الجمهور الإسلامي في العهد المدني .

وما كان من بعض المظاهر التي فيها شذوذ عن ذلك إنما كان في نطاق ضيق ثم تضاءل مع تقدم العهد .

٢ ـ في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ... » ٧٥

حيث ينطوي فيها صورة لفريق من المسلمين من رجال ونساء وولدان ظلوا في مكة على الأرجح مستضعفين مغلوبين على أمرهم يسألون الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً .

وإلى هذه الصورة ففي هذه السورة آيات تفيد أنه كان هناك فريق آخر رضوا بالبقاء في أرض الكفر والظلم ولم يحاولوا النجاة منها مع أنهم لم يكونوا فاقدين كل حيلة ووسيلة إلى ذلك فاستحقوا التثريب والإنذار كما ترى فيها :

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً . فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً ... » ٩٧ ـ ٩٩

٣ ـ في سورة النساء الآية التالية :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ... » ٩٢

وفي الآية ما يفيد أنه كان من المؤمنين من كان أهله وعصبته القريبة أعداء كافرين ومنهم من كان بين أهله وعصبته القريبة وبين المؤمنين عهد وميثاق أيضاً .

٤ ـ في هذه السورة كذلك الآيات التالية :

« لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ... ٩٥ ـ ٩٦

وفي الآيات ما يفيد أنه كان من المؤمنين من يقعد عن الاشتراك في الجهاد وأن ذلك لم يكن أمراً ملزماً لجميع المسلمين . (ولعل ذلك كان في ظرف من ظروف العهد المدني) .

٥ ـ في سورة الأنفال الآية التالية :

« وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... »

٢٦

وقد انطوى في الآية تذكير للمؤمنين بما كانوا عليه في العهد المكي من قلة وضعف وخوف . وصورة لما صاروا إليه في العهد المدني من قوة ونصر ورخاء رزق .

٦ ـ في سورة الممتحنة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ

وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ... » ١٠ ـ ١١

وقد احتوت الآيات صوراً متنوعة عن العهد المدني . منها :

(١) أن بعض المؤمنات لم يستطعن الهجرة من المدينة في مراحلها الأولى فظللن في مكة تحت حفظ ومراقبة ذويهن وكن يترقبن الفرصة للنجاة ولما واتتهن فررن من مكة مهاجرات إلى المدينة فضربن بذلك مثلا رائعاً للمرأة المسلمة في الصدر الإسلامي الأول على الجرأة والإقدام على التضحية والخطر في سبيل الدين الحق والحرية .

(٢) إن نساء بعض المهاجرين ظللن في مكة متمسكات بدين الآباء وظللن مع ذلك في عصمة أزواجهن المؤمنين المهاجرين .

(٣) إن نساء بعض المهاجرين هربن من المدينة أو أغرين على الهروب منها وعدن إلى حيث ذويهن الكفار .

٧ ـ وهناك آيات عديدة بعضها يفيد أن من المسلمين من كان غنياً واسع الرزق . ومنهم من كان فقيراً معوزاً . كما ترى في ما يلي :

(١) لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ... ٢٧٣ البقرة

(٢) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ... ٢٧٤ البقرة

(٣) وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ... ٢٠ النساء

(٤) وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّامَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ... ٢٥ النساء

(٥) وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... ٢٢ النور

(٦) وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ٣٢ النور

(٧) مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ . . .
٧ الحشر

٨ — وهناك آيات تفيد أن الله عز وجل منّ على المؤمنين فبدل عسرهم يسراً وفقرهم غنى وضيقهم سعة فمنهم من شكر ومنهم جحد كما ترى في الأمثلة التالية :

(١) وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . . .
٢٦ الأنفال

(٢) يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَاقَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . . .
٧٤ ـ ٧٦ التوبة

(٣) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ... ٢٧ الأحزاب

٩ ـ ولقد احتوى القرآن حكاية أسئلة واستفتاءات كثيرة كان المسلمون يوردونها على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل الله جواباً عليها للتشريع والتأديب . مما فيه صور متنوعة للمسلمين وشؤونهم ومشاكلهم في هذا العهد . وما كان من شعورهم بالطمأنينة والاستقرار وبالحاجة إلى التفقه في الدين وإقامة أمورهم وحل مشاكلهم على أسس مستلهمة من أوامر الله تعالى وإرشاد من رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذه جملة من ذلك :

(١) يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ... البقرة ١٨٩

(٢) يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ...

البقرة ٢١٥

(٣) يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

البقرة ٢١٧ ـ ٢١٨

(٤) يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ

قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... البقرة ٢١٩ ـ ٢٢٠

(٥) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ... ٢٢٢ البقرة

(٦) وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ
فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِهِ عَلِيمًا ... النساء ١٢٧

(٧) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ
أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا
الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ... ١٧٦ النساء

(٨) يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ
مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ... المائدة ٤

(٩) « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ
أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا
وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . » ١ ـ ٤ المجادلة

والصورة التي انطوت في آيات المجادلة بخاصة خطيرة ورائعة معاً حيث تضمنت حكاية جدال امرأة مسلمة في أمر زوجها الذي ظاهرها (أي قال لها أنت عليّ محرمة كظهر أمّي) وكان الظهار يجعل الزوجة محرمة فعلاً على زوجها . فلما رفعت أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاكية قال لهـا ما أراك إلا حرمت عليـه فجأرت بالشكوى إلى الله مما سوف ينالها من مصيبة من جراء ذلك فلم تلبث الآيات أن نزلت مندّدة بتقليد الظهار الجاهلي ومشرعة تشريعاً لتفادي أثره في الإسلام .

١٠ ـ وهناك صورة طريفة تستفاد من آيات سورة المائدة هذه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ . . . » ١٠١ – ١٠٢

وقد تعددت الروايات المروية في صدد هذه الآيات . ومنها أن بعضهم سأل عما إذا كان الحج سنوياً . وأن النبي صلى الله عليه وسلم سكت فألح السائل فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فاتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه .

ومنها أن بعضهم سأل عن صحة ما كان عليه العرب في الجاهلية من عقائدهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي[1] وهي التي ذكرت بعد الآيات وهذه تقاليد جاهلية كان العرب

---

(١) البحيرة : هي المشقوقة الأذن . والسائبة : هي التي يتركونها دون تحميل ولا تشغيل . والوصيلة : هي أنثى الغنم التي تأتي بعد ذكر فيقال لها وصلت أخاها . والحامي : هو الفحل الذي ينتج عشرة فيحمي ظهره من التحميل والركوب .

يسيرون عليها في حق الأنعام في بعض الظروف على ما شرحناه في كتابنا عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة . وعلى كل حال فالآيات تفيد أن بعض المسلمين كانوا يلحون في الأسئلة عما هو ضروري وعما هو غير ضروري وكان في بعض أسئلتهم إحراج أو إثارة للحرج فاقتضت الحكمة الإيحاء بالآيات .

١١ ـ وهناك صورة طريقة أخرى تستفاد من آيات سورة المجادلة هذه :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . . .

١٢ ـ ١٣

وعبارة (ناجيتم الرسول) بمعنى ساررتموه في مجلس خاص والمقصود من ذلك على ما هو المتبادر الاجتماعات الخاصة التي كان بعض المسلمين يرغبون في عقدها مع النبي صلى الله عليه وسلم لاستشارته أو استفتائه في بعض أمورهم . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وسيلة إلى أخذ رسم من الأغنياء منهم لينفق على مصلحة المسلمين . وفكر في أن يكون ديناراً فاستشار علياً بن أبي طالب رضي الله عنه فاستكثر ذلك واقترح أن يكون حبة أو شعيرة أي جزءاً صغيراً من الدينار . غير أن بعض المسلمين استثقلوا ذلك وقالوا إن مايدفعونه باسم الزكاة كاف فاقتضت حكمة الله إلغاءه في الآية الثانية .

١٢ ـ وفي سورة المتحنة هذه الآية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . »

١٢

والآية صريحة بأن النساء المؤمنات جئن إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبايعنه أسوة بالرجال فأمر بأخذ البيعة منهن بالنص الوارد فيها . وينطوي في هذه الواقعة صورة خطرة من صور المسلمين في العهد المدني تتمثل في طموح المرأة المسلمة إلى تقرير شخصيتها المستقلة في دولة الإسلام إزاء السلطان الإسلامي الذي كان يمثله النبي صلى الله عليه وسلم . وفي أمر القرآن للنبي بمبايعة المؤمنات إقرار لذلك الطموح وتقرير لتلك الشخصية إقراراً وتقريراً خالدين عظيمي المدى كما هو المتبادر .

وهذه الصور ليست كل ما كان من المسلمين في صدد مشاكلهم وأسئلتهم واستفتاءاتهم. فإن كثيراً من التشريعات القرآنية المتصلة بشؤون الزواج والطلاق والرضاع والعدة والدين والوصية والارث ودخول الناس على بيوت بعضهم ومكاتبة الرقيق . والحج والقتال والجهاد والزكاة والصدقات الخ وإن كانت تبدو في أسلوبها تنزيلات مباشرة فإن روحها والروايات الواردة في صددها تلهم أنها نزلت في مناسبات ووقائع واستفتاءات ومنازعات بين بعض المسلمين مما ينطوي فيه صور كثيرة متنوعة عن المسلمين في العهد المدني كذلك . ويصح أن يشار هنا إلى ماأوردناه في المبحث السادس من فصل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول من صور سلوكية للمسلمين نحو النبي التي احتوتها آيات مدنية مثل آيات سورة الحجر ١ ـ ٣ و ٤ ـ ٥ وآيات سورة النور ٤٧ ـ ٥٢ و ٦٢ ـ ٦٣ وآيات سورة الأحزاب ٦٩ ـ ٧١ لأن لها صلة بهذا المبحث من حيث هي صور للمسلمين في العهد المدني كما هو المتبادر .

وهناك صور متنوعة أخرى أرجأنا عرضها إلى فصول المنافقين والجهاد والكتابيين لأنها أكثر ارتباطاً بها .

فصل
في المنافقين في العهد المدني
تمهيد

علة ظهور الحركة في المدينة دون مكة – مدى نفاق المنافقين في العهد المدني أثر مواقفهم وخطورتها – أثر اليهود في حركتهم – مباحث الفصل على حسب تصنيف الآيات – مدى ما في القرآن من ملهمات بأن المنافقين طبقات – عدم اعتبار النبي المنافقين أعداء محاربين وقتلهم أو قتالهم ومدى ذلك – ملهمات القرآن بأن معظم المنافقين أفراد بارزون .

الصورة الأولى

في سورة العنكبوت آيات احتوت كلمة (المنافقين) ونددت بهم وهي هذه :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ . . . »

١٠ – ١١

ولقد روى المفسرون أن هذه الآيات مدنية . غير أننا شككنا في ذلك استلهاماً مما سبقها وما لحق بها من الآيات . وسواء أصح استلهامنا أم لم يصح فإن حركة النفاق التي نجحت لمناوأة النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والإسلام هي في الحقيقة من حركات العهد المدني وأحداثه .

وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام ؛ ولقد كان أهل مكة وزعماؤها خاصة

يناوئون النبي جهاراً ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ماتحرز أو تحفظ ، وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم إلى الحبشة ، أولا ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب ، كما مر تفصيله في مباحث العهد المكي .

أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جدا . فالنبي صلى الله عليه وسلم استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ، ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريبا بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام [1] ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به ـ إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد لأنهم رأوا في قدوم النبي حدا لنفوذهم وسلطانهم ـ [2] موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصبية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون في النبي رسول الله وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ؛ فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ويحملهم ذلك على مناوأة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ونفوذه ـ أن يظهروا علنا في نزعتهم وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم ، وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والمواربة والخداع والتمويه ؛ وإذا كانوا وقفوا أحياناً مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع من النفاق

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣١ .

(٢) في سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٣٥ أن الخزرج كانوا مزمعين المناداة بعبد الله بن أبي زعيم المنافقين ملكا عليهم قبيل الهجرة ، وأنه حقد على النبي لأن قدومه حال دون ذلك .

بارز ؛ فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادّة التي كانت تحدق بالنبي والمسلمين ، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ، ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو بالنفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن تلك المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتاً ؛ وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدل عليهم بما يفعلون أو يمكرون ، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكايدهم ، وتحذر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

الصّورة الثانية

ولقد كانت مواقف المنافقين ومكايدهم بعيدة المدى والأثر على ماتلهم الآيات المدنية، حتى لكأنه نضال قوي يذكر بما كان من نضال بين النبي صلى الله عليه وسلم وزعماء مكة وإن اختلفت الأدوار والنتائج ؛ إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد ، وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ؛ وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي صلى الله عليه وسلم واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون ، وخاصة في أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخاً كافيا ؛ وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب ؛ وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة ، يتربصون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود في المدينة

وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطيروا به ، ثم جاهروه بالكفر والعداء والمكر والكيد ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى ، والتضامن في موقف المعارضة والكيد ، حتى ليمكن القول إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ؛ ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم وكفاه شرهم .

الصّورة الثالثة

والآيات التي تتضمن أوصاف وأخبار ومواقف المنافقين والحملات عليهم كثيرة جدا، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها وخاصة الطويلة والمتوسطة ؛ وهذا يعني أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأول ، وهي متنوعة المدى والدلالات ، ويمكن تصنيفها كما يلي :

١ ـ ما جاء في صفاتهم وأحوالهم .

٢ ـ « « مواقفهم الكيدية والساخرة وتآمرهم ضد المسلمين والإسلام .

٣ ـ « « مواقفهم من الجهاد ووقائعه .

الصّورة الرابعة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى ثلاث نقط في صدد هذا الفصل :

أولاها ما جاء في الآيات التي سنوردها من وصف «الذين في قلوبهم مرض» بدل وصف « المنافقين » ومن اجتماع الوصفين معاً في آية واحدة ، ومن تفاوت الشدة في الحملات وتنوع الصور ؛ مما يسوغ القول إن هذه الفئة كانت فريقين أو طبقتين ، واحدة كافرة كل الكفر ، عدوة كل العداوة ، ماكرة كل المكر ؛ وأخرى ضعيفة النفس ، مريضة القلب ، تميل مع المنفعة ، وترغب بنفسها عن ما تسميه مخاطر ومجازفات ومشاكل ، ويأخذها شيء من الشك والتردد في طاعة الله ورسوله طاعة تامة ، وتنجرّ أحياناً إلى الفئة الأولى فتحذو حذوها ، أو تقع في شباكها وتندمج معها .

ومما يجدر التنبيه إليه مع ذلك أن الحملات القرآنية العنيفة ، ووصف الكفر والنفاق، والأمر بالمجاهدة والشدة ، قد تناول هذه الطبقة في آيات عدة كما تناول تلك مما يمكن الاستدلال به على أن القرآن وإن تضمن إلهام كونهم طبقتين أو طبقات ـ إذا أردنا أن نصنفهم على حسب تنوع مواقفهم ـ فإنه تضمن إلهام أنهم فئة واحدة ، وتضمن بالتالي إلهام أن أي ختل أو شك أو تردد أو تهرب أو سخرية أو تقصير في الواجبات العظمى كالإيمان التام بما يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن أو يأمر به من أوامر أو يحكم به من أحكام ، وكالطاعة التامة له ، وكاحترامه كل الاحترام ، وكالقيام بواجب الجهاد بالنفس والمال لتوطيد حرية الإسلام ، ودفع الخطر والبغي والكيد عن الإسلام والمسلمين ومصالحهم ، والتضامن القوي التام في كل هذا مع سائر المسلمين باطناً وظاهراً ؛ أو الاندماج مع أعداء الإسلام والمسلمين في مؤامرة أو مكايدة ، أو مسايرتهم في أي موقف أو قول مهما كان نوعه ومهما كان ناتجاً عن أوشاج الرحم والقربى والعصبية والمصلحة نفاقاً ـ يعتبر داخلا في شمول صفات النفاق التي وردت في الآيات القرآنية وفي شمول ماورد بحق المتصفين بها من تنديد قارع ، وإنذار قاصم ، وإن كان فريق أقل شدة أو أكثر تحفظا من فريق آخر ، وننبه إلى ما في هذا من تلقين قرآني جليل مستمر المدى .

والثانية ولها أهمية عظمى فيما نعتقد من ناحية السيرة النبوية : هي عدم ورود روايات موثقة تتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك ، أو أمر بقتلهم ، أو قتل بارزيهم ، بسبب صفة النفاق ، أو بسبب موقف منبعث عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل عنهم ، والتي احتوت صوراً كثيرة من الأذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته ، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، والتثبيط عن الجهاد والختل فيه ، ودس الدسائس وإثارة الفتن والأحقاد ، وإشاعة الفاحشة والإرجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم ، والتعرض لنساء المسلمين ، بل لنساء النبي بالأذى والكيد ، والتضامن

مع أعداء الإسلام وموالاتهم وتقرير كونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إيمانهم الخ ، وفي حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين ، والإغلاظ لهم واعتبارهم أعداء ، وأمر بقتل من لم ينته منهم عن مواقف الأذى والإرجاف ، وبنفيه ، وبتقتيله أينما ثقف ، فضلا عما أنذروا به من عذاب دنيوي وأخروي شديدين ، وفي حين أن القرآن حكى مواقف لهم مثل هذه المواقف ، وبعد هذه الأوامر والإنذارات والتقريرات الحاسمة ؛ كما أن القرآن لم يتضمن إشارة ما إلى ذلك .

فإزاء هذا لا نعدو الصواب إذا قلنا :

(١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعتبر المنافقين أعداء محاربين ، فلم يقاتلهم فعلا كما كان شأنه مع الكفار ، لاسيما أن حرب النبي لهؤلاء إنما كان لبدئهم بالعدوان واستقرارهم فيه ، وحربه لليهود إنما كان لمثل ذلك ، وغزوته لتبوك بسبيل التنكيل بسكان المشارف الذين كان غالبهم نصارى ، وتسييره السرايا على هذه المشارف واشتباكها بحرب مع النصارى فيها إنما كان كذلك لعدوان سابق ؛ ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال كفار العرب أو اليهود أو النصارى المحاربين .

(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتبر ماجاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك إليه أمر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الإسلام والمسلمين ؛ لاسيما أن بعض الآيات الواردة في هذا الصدد قد تخللتها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل جمل « فإن يتوبوا يك خيراً لهم » و « لئن لم ينته المنافقون » و « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم » و « إن نعف عن طائفة منهم نعذب طائفة » إلخ كما تخلل الآيات الواردة في شأنهم إشارات إلى أنهم كانوا يصلون مع الجماعة وكان يؤدون الزكاة ــ مع وصف ذلك بأنه وقع كرها ورياء ــ وكانوا يحلفون الأيمان على حسن نيتهم وصدق إسلامهم ؛ فرأى أن يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر إلى النهاية ، لما كان بينهم وبين كثير من المخلصين من روابط القربى والرحم ، ورأى أن خلاف هذه الخطة قد يفتح في صفوف الإسلام

ثغرات واسعة ، ويثير أزمات داخلية حادة [1] ؛ لاسيما أنه كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائي ، وإظهار دينه على الدين كله ؛ وقد أخذ يرى منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني وبعد ما خضدت شوكة اليهود – وهو الوقت الذي صار في إمكانه من جهة مادية شن حرب عملية عليهم مأمونة عواقبها بعض الأمان – أن صوتهم بدأ يخفت ، ونشاطهم يخمد ، وعددهم يقل ، وتزلفهم يشتد ، ومداراتهم تزداد ، وخوفهم يبدو واضحاً ؛ وربما ندم منهم كثيرون فعادوا إلى حظيرة الحق والإسلام الصحيح ، فكانت هذه الظواهر مما ثبته في خطته ورأى فيها الصواب والمصلحة .

أما الثالثة فهي أن الآيات الواردة في حق المنافقين ومرضى القلوب ، تلهم روحاً أو مضمونا ، أو روحا ومضمونا في آن واحد ، أن حركة النفاق إنما قام بها وتولى كبرها أفراد من البارزين في قومهم وعشائرهم قليلا أو كثيرا ، بل إننا لنكاد نقول استلهاما من روح الآيات ومضمونها إن معظم أفراد هذه الفئة من تلك الطبقة ، وإنه إذا كان اندمج فيها أناس من طبقة السواد أو العامة فإنهم لم يكونوا كثيرين وإنما انساقوا فيها بتأثير أولئك ، من ناحية زعامتهم وعصبية الأرحام التي تربط بينهم ، أو من ناحية الإغراء والمنفعة .

وهذا طبيعي كما هو المتبادر ؛ لأنه ليس لأفراد من السواد مصلحة في مناوأة حركة اندمج فيها غالب قومهم ، إيمانا وتصديقا وإخلاصا وجهادا ثم مصلحة وكيانا ، كما أنه قلما يكون في هؤلاء من يظن أنه أعقل من أن يندمج في حركة اندمجت فيها الكثرة

---

(١) في روايات السيرة أن عبد الله بن أبي هو الذي قال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » و « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فأبى قائلا ما مفاده : لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، وأن كعب بن عبد الله رضي الله – وكان مخلصاً – جاء إلى النبي صلى الله وسلم فقال له يارسول الله إن كنت قاتل أبي فأمرني أنا أقتله ولا تأمر غيري لأني لا أطيق أن أرى قاتلا لأبي ، فأقتله فأكفر ! فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا بل نعفو ونصبر عنه .. وفي هذا مصداق ماقررناه آنفا .

الـكبرى ؛ وإن الذين اندفعوا في مناوأتها واغتاظوا منها وحقدوا عليها لايمكن أن يـكونوا إلا أفرادا من البارزين الذين يمكن أن يتوهموا فيها ضررا وخطرا على مركزهم ومصلحتهم ، وأن يأنفوا لـكرامتهم ولما يتوهمونه في أنفسهم من عقل من الاندماج فيها ؛ ولقد كان لليهود يد قوية في هذه الحركة كما ذكرنا ؛ فالذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغذية هذه الحركة وتنميتها لايمكن أن يتصلوا بشأنها إلا مع أمثال هؤلاء كما لايخفى .

الصُّورَة الخَامِسَة

كذلك نريد أن نشير إلى ما كان من انقسام المسلمين في الرأى فيهم ؛ فقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً . وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرا . . »

٨٨ ـ ٨٩

إذ تلهم الآية الأولى أن المسلمين كانوا منقسمين في الرأى في المنافقين ، منهم من يحسن الظن بهم ويعتذر عنهم ويأمل في ارعوائهم ، ومنهم من لا يرى ذلك . ولقد ذكرت الروايات أنها بحق منافقي المدينة الذين خذلوا المسلمين في وقعة أحد ؛ كما ذكرت أنها بحق فريق من البدو أعلنوا إسلامهم ولـكنهم لم يتضامنوا مع المسلمين في الجهاد والهجرة ؛ وبعض الروايات قال إنها بحق الفريق الذي تخلف في مكة ولم يهاجر ؛ والرواية الأولى قد تصح إذا دلت كلمة « يهاجروا » بمعنى يجاهدوا أو يخلصوا ، وقد أولها غير واحد من المفسرين هذا التأويل .

ومع احتمال وجاهة الروايتين الأخريين فإننا نرى الرواية الأولى ـ بقطع النظر عن

ظرف وقعة أحد ـ بهذا التأويل أوجه ، لأن اختلاف المسلمين في الرأى في المنافقين أكثر احتمالا بالنسبة لمنافقي المدينة ؛ وقد يكون في الآية الثانية تدعيم لهذا أيضاً ، إذ تذكر كفرهم، وتذكر تمنيهم أن يكفر المسلمون مثلهم ؛ وهذه صفات وصف بها منافقو المدينة على ما ورد في آيات التوبة وغيرها مما سنورده في هذا الفصل ؛ لاسيما أن الروايتين الأخريين لا تذكران بصراحة اتصاف البدو أو المتخلفين عن الهجرة في مكة بصفة النفاق والكفر ، ولا تتحمل حالتهم المروية هذه الصفة .

والأمر بقتلهم حيث وجدوا إذا تولوا ولم يخلصوا ليس من شأنه أن يضعف توجيهنا بأن المقصودين هم منافقو المدينة ، فقد ورد في آيتي الأحزاب ٦٠ ـ ٦١ اللتين سنوردهما في أحد مباحث هذا الفصل صراحة أن المقصودين هم منافقو المدينة إذا لم ينتهوا .

وقد احتوت الآية الثانية حكم الله في هذا الخلاف ، وفيه تأييد للمتشددين في أمرهم وبيان لمواقع حالهم من الارتكاس في الفتنة والكفر والضلال .

والذي نرجحه أنه كان للعصبية الاجتماعية والمصالح المشتركة الوثيقة أثر فيما كان من رأى التسامح الذي أبداه الفريق الأول ، كما نرجح أن المنافقين كانوا يستغلون هذه الروابط القوية المؤثرة فيما كان منهم من مواقف دس وكيد وتشكيك وسخرية وعدم تضامن إلخ مما احتوت صوره آيات كثيرة سنوردها في مباحث الفصل ، ثم في الاطمئنان من عدم الوقوف منهم موقف الشدة والغلظة رغم ما كان منهم من مواقف شديدة الأذى والكيد ، فاقتضت الحكمة نزول الآيات بالحكم الحاسم والأمر الشديد حتى يسد الباب أمام هذا الاستغلال ويقف المسلمون موقفاً واحداً ورأيا واحداً منهم ، وهو موقف الشدة والتكفير إذا لم يتوبوا ويخلصوا .

ولقد احتوت إحدى آيات سورة النساء وهي هذه :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا

وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا . . .»

١٤٠

شيئاً من التدعيم لما قررناه من هذا الأثر ، إذ تلهم أن بعض المسلمين لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من التردد على مجالس الزعماء المنافقين ، والإغضاء عما يدور فيها من كفر وهزء بآيات الله ونبيه ، فأمروا بعدم مجالستهم أثناء الخوض في مثل ذلك على الأقل ؛ كأنما رأت الحكمة حرجاً في منعهم بالمرة .

ومن هنا تبدو لنا ناحية من حكمة الخطة النبوية في المنافقين التي شرحناها في الفقرة السابقة . ولما كانت الخطة المذكورة قد استمرت إلى آخر العهد النبوي أو أواخره ، فإن هذا يسوغ القول إن فريقاً من المسلمين ظل على رأيه في العطف على ذوي قرباه منهم ، والاعتذار عنهم وأمله في ارعوائهم ، وظل متأثراً بالعصبية والقرابة والمصلحة ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى من الحكمة أن يستمر في خطته تلك .

ولقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في آية التوبة هذه :

«وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ... »

٨٤

التي نزلت في أواخر العهد المدني ، أي في ظروف غزوة تبوك ، بعدم الصلاة على من يموت منهم وهو ثابت على نفاقه وكفره ، مما يلهم أن النبي كان يستجيب إلى طلب ذوي قربى المنافق فيصلي عليهم إذا ماتوا ويدعو لهم ، وأن هذا قد استمر إلى أواخر العهد المدني ؛ وفي هذا تدعيم لما نحن بسبيل تقريره .

المبحث الأول

في صفات المنافقين وأحوالهم

وصف شامل للمنافقين في سورة البقرة ومداه ـ وصف آخر لهم في نفس السورة ـ صور وأوصاف وحالات متنوعة لهم من سورة النساء ـ من سورة التوبة ـ ما تلهم آيات التوبة من تبدل حالهم إلى القلة والضعف ـ النفاق في الأعراب ـ منافقون متكتمون ـ صور وحالات من سورة الحديد ـ من سورة محمد ـ من سورة « المنافقون » .

الصورة الأولى

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ . يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ . . . » ٨ ـ ١٦

وقد احتوت الآيات وصفا قويا شاملاً للمنافقين ، فهم يدعون الإسلام كذبا ، ويدسون ويفسدون ثم يزعمون أن فيما يبدو منهم إصلاحا ومصلحة ، ويأنفون أن يكونوا كالمخلصين فناء في الإسلام وواجباته وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعتبرون ذلك سفها ، وقد عقدوا الصلات الوثيقة باليهود فكلما خلوا إليهم أكدوا لهم أنهم معهم ،

وأنهم إذا تظاهروا بالإسلام فليس إلا خداعا واستهزاء ؛ وكل هذا منبعث عن مرض قلبي ونية خبيثة فيهم .

والآيات لا تحتوي كلمة « المنافقين » ولـكنها لا تدع أي شك في أنها تعنيهم . والآية (١٣) التي تحـكي وصفهم المؤمنين المخلصين بالسفهاء ، تلهم أن القائلين من الزعماء البارزين الذين تدفعهم عنجهيتهم إلى الترفع ، والذين كانوا يرون في التفاني في النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته غلوا لا محل له والراجح مع هذا أن ما حكي عنهم إنما كان يصدر منهم حينما يكون مخاطبهم أو معاتبهم من طبقتهم ، أو من ذوي رحمهم ، بحيث يأمنون النميمة والعصبية ؛ ومثل هذا ما حكته عنهم الآية (١٢) أيضا إذ نرجح أن الذين كانوا يعاتبونهم على دسهم وإفسادهم هم من طبقتهم أو ذوي رحمهم ؛ ولعل في جملة « وإذا قيل لهم » في كلتا الآيتين قرينة ما على ذلك . ويبدو أن تفاني المخلصين في النبي والإسلام مما كان يزيد في لهيب حقد هذه الفئة ، لأن ذلك كان مما يحبط مكايدهم ، ويبعدعنهم ذوي أرحامهم ولعل فيما حكي عنهم في الآيتين من الاعتذار الواهي المـكابر قرينة ما على ذلك أيضا .

ومهما كان احتمال ألّا تـكون هذه الآيات من أول ما نزل من القرآن المدني . فإننا لا نشك في أنها مما نزل في عهد مبكر ، ويستلهم هذا من أنها إنما تحتوي وصفا عاما . وتبكير نزولها يلهم أن هذه الحركة قد ظهرت مبكرة جدا ،(١) وأن التواثق بين القائمين بها واليهود قد توطد كذلك في عهد مبكر جدا .

٢ ـ وفي سورة البقرة الآيات التالية أيضاً :

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ... » ٢٠٤ ـ ٢٠٦

---

(١) ورد في روايات السيرة أن غيظ بعض زعماء المدينة الذين صاروا زعماء المنافقين قد بدأ قبل الهجرة النبوية ، وفي عهد القارئ أو الإمام الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع وفود المدينة ليعلمهم القرآن ويؤمهم في الصلاة .

وفي هذه الآيات صورة أخرى للمنافقين ، وإن لم يرد فيها كذلك كلمة «المنافقين» وهي صورة قوية الملامح للناس الذين يستثيرون الإعجاب بأقوالهم المنمقة ، وأيمانهم المغلظة ، ولكنهم لا يتورعون عن أفظع الآثام ؛ ثم يغضبون إذا ما عوتبوا وطولبوا بتقوى الله وخوفه مما يقترفونه ، ويعتبرون ذلك إهانة لكرامتهم ، ووسيلة للإيغال في الشر والفساد والفتنة . والصورة وإن كانت مطلقة تعبر عن فئة من الناس قد توجد في كل زمن ومكان لأنها متصلة بطبائع البشر المختلفة ، فلا شك في أن الآيات قد نزلت في صدد أناس من المتظاهرين بالإسلام كانوا يبطنون الكفر ، ويوغلون في الإثم والعداء والفتنة ؛ ولقد ذكرت الروايات أنها نزلت في زعيم بدوي اسمه شريق بن الأخنس ، غدر وأثم بعد توكيد الإيمان ، وعهده على عدم الخيانة والغدر .

الصورة الثانية

٣ ـ في سورة النساء الآيات التالية :

١ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ...

١٣٧ ـ ١٣٨

٢ — إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا . . .

١٤٢ ـ ١٤٣

وقد ذكر المنافقون في الآيات بصراحة ، وفي الآيات الأولى صورة نفاق وتذبذب عجيبة لهم ، إذ كانوا يعلنون إيمانهم ثم يكفرون ثم يعلنون إيمانهم ثانية ثم يكفرون ، على حسب ما توحيه إليهم ظروف الأمن والخوف والمصلحة ؛ وفي الآيات الأخرى صورة ثانية ، فقد كانوا يظنون أنهم ناجحون في دور خداعهم مع أنهم مفضوحون فيه ، وقد كانوا إذا حضرت الصلاة قاموا إليها كسالى مراءاة للناس فحسب ،

وقلما ذكروا الله ذكر المؤمل في رحمته الخائف من نقمته ؛ وهكذا كانوا مذبذبين في حالتهم ، تبعاً للظروف ، غير صادرين على أي حال عن نية حسنة ، ورغبة صالحة ؛ وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد معدودون وغير مجهولين كما هو واضح فيها ؛ ولقد تقرر التنديد بهم لقيامهم إلى الصلاة كسالى في الآية ٥٤ مما يلهم :

(١) أنهم كانوا يمارسون الصلاة مع الجماعة و (٢) أن حالتهم هذه كانت من الأمارات العامة على نفاقهم وعدم إخلاصهم في إسلامهم .

٤ ـ وفي السورة نفسها هذه الآيات أيضاً :

« إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً . . . » ١٤٥ ـ ١٤٦

فالمنزلة التي يتوعد الله بها المنافقين في النار تلهم كما هو المتبادر شدة نكايتهم ، وسوء أثر مواقفهم حتى لكأنهم من شر الكفار الصريحين ـ أما الآية الثانية فإنها بسبيل بث الأمل فيهم بعد بيان تلك المنزلة الرهيبة ، ودعوة لهم إلى الكف والارعواء حتى لا يتحقق وعيد الله فيهم . ومع أن فتح باب الإنابة والتوبة للجاحدين والآثمين هو مما تكرر في القرآن تقريره من المبادئ العامة ، فإن الآية مما يمكن أن تلهم أن المنافقين أو أن فريقاً منهم ، وخاصة المخدوعين بزعمائهم ، لم ينقطع الرجاء من ارعوائهم وإخلاصهم ؛ ولقد احتوت سورة التوبة آيات فيها ما يدل على تناقص عددهم وضعف شأنهم سوف نوردها بعد ؛ فلعل في هذا التطور ما يدعم ما يمكن أن تلهمه الآية ونذبه إلى أن في الآية وما تلهمه تأييداً لما استنتجناه من حكمة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم على ما قررناه في الفقرة الأخيرة من التمهيد .

الصّورة الثالثة

٥ ـ في سورة التوبة الآيات التالية :

١ — وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ...

٥٦ ـ ٥٧

٢ — يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ... ٦٢ ـ ٦٣

٣ — ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ . وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ... ٦٧ ـ ٦٨

٤ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ... ٧٣ ـ ٧٧

وسورة التوبة من أواخر ما نزل من القرآن، وهذه المقاطع قد نزلت ـ على مايستلهم

من سياقها ومضامين المقاطع الأخرى المتصلة بها ـ في ظروف الاستنفار إلى غزوة تبوك ، وبسبب ما كان من مواقف المنافقين يومئذ ؛ مع التنبيه إلى أنها قد جاءت بقصد التنديد والتذكير بمواقفهم وأخلاقهم وحالتهم بصورة عامة .

والمقطع الأول احتوى صورة لما وصل إليه شأنهم من خوف وضعف وقلة وتزلف؛ وهذه الصورة تمثلهم في أواخر العهد المدني ، لأنهم كانوا يستشعرون القوة والعزة شيئا ما قبل ذلك ، كما تلهمه آيات أخرى سوف نوردها بعد .

والمقطع الثاني احتوى صورة من صور تزلفهم للمخلصين وحلفهم الأيمان على إخلاصهم بقصد إرضائهم ؛ وينطوي في هذا صورة الضعف والخوف والتزلف أيضا كما هو واضح ؛ وبهذا يمكن أن ينسحب عليها ما قلناه آنفا من تمثيلها لهم في أواخر العهد المدني .

والمقطع الثالث يحتوي وصفا لسوء أخلاقهم وتضامنهم في النهي عن المعروف والخير، والأمر بالمنكر والشر ؛ ويسوي في ذلك الرجال والنساء منهم ، والراجح أن هذا التضامن إنما كان منهم في صدد الدعوة الإسلامية ، وتعليمات النبي صلى الله عليه وسلم وتبليغاته إذ كانوا يأمرون بمخالفة أوامر النبي ومبادئ الإسلام ، وينهون عن الانقياد للنبي والتزام تلك المبادئ التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أما المقطع الرابع فقد احتوى أمراً بمجاهدتهم هم والكفار سواء وبالإغلاظ عليهم ، وتتبع الأمر ببيان عن بعض حالاتهم وأخلاقهم ، فهم ينكرون أنهم كفروا بعد إيمانهم ويحلفون على ذلك مع أنهم كاذبون ، لأن الكفر صدر منهم قولا وعملا ، وحاولوا تقويض الإسلام جهدهم فخابوا وفشلوا ؛ ولم يكن لموقفهم هذا من سبب إلا الحقد والغيظ من النبي واشتداد أمره ، مع أنه قد عاد عليهم من ذلك بسطة العيش والغنى ، ولقد كان منهم من ينذر بأن يتصدق في سبيل الله ويخلص له إذا أنعم عليه ، فلما آتاه الله من فضله بخل وتولى ، فنم عن خبث نيته وسوء طويته ، ودمغ إلى الأبد دمغة النفاق .

وفي المقطع مايدل على ماعاد على أهل المدينة ، من الهجرة النبوية والحركة

الإسـلامية ، من الخـيرات والبركات ، وفي هـذا مشهد من مشاهد هـذا العهد كما هو واضح .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية (٧٣) التي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بمجاهدة المنافقين والكفار ، ومايتضمنه هذا من اعتبار الفريقين في موقف واحد من العداء للإسلام والكيد له ؛ ومما لاريب فيه أن هذا قد كان بسبب مابدا منهم من بغي ودس وكيد ، وينطوي فيه الإشارة إلى خطورة مواقفهم وشدة نكاية حركتهم ، كذلك يلفت النظر إلى الفقرة الأخيرة من الآية (٧٤) ففيها إنذار لهم بالتوبة ، وتنبيه إلى أن في ذلك خيرهم ، وبالتالي إبقاء باب التوبة مفتوحا أمامهم ، مما هو متسق مع التقريرات القرآنية ، وماعللنا به صبر النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وعدم معاملتهم معاملة الأعداء المحاربين ؛ ومما ينطوي فيه أمل ارعوائهم . على أن فيهـا صورة أخرى لما وصلوا إليـه من ضعف وازورار عن المسلمين وفيهم ذوو رحمهم ، وذلك في جملة « ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير » ، كما يتبادر لنا .

والمقاطع الأول والثاني والرابع تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون كما هو واضح ، وفي ذلك مصداق لما ذكرناه في التمهيد .

(٦) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ . وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ . . . »

٨٤ ـ ٨٥

وهي من سلسلة تضمنت حملة على المنافقين لتخلفهم عن غزوة تبوك بأنفسهم وتثبيطهم غيرهم مما سوف نورده في مبحث آخر ؛ والمتصل بهذا المبحث منها هو ماتدل عليه (١) من افتضاح أمرهم أو أمر بعضهم بأعيانهم ، وتقرير كفرهم ونفاقهم بأسلوب حاسم ؛ بحيث

نهت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على من يموت منهم والدعاء له والقيام على قبره .

(٢) من غناهم أو غنى بعضهم وكثرة أولادهم ، واعتدادهم بذلك ؛ وقد تلهم الآية الثانية إلى هذا ما كان لهم من تأثير بسبب ذلك، وما كان يعتلج في نفس النبي والمسلمين من رغبة في ارعوائهم ، وغيظ مما حازوه من ذلك لما كان لهم بسببه من قوة التأثير في غيرهم ؛ وواضح من هذا أن موضوع الكلام أفراد بارزون أيضا. ولقد ورد في السورة نفسها آية مقاربة النص لهذه الآية وهي الآية ٥٥ ؛ وتكرار ذلك في سلسلة واحدة تقريباً ، قد يدل على صحة مااستلهمناه ، واستهداف القرآن إضعاف ماقام في نفوس المسلمين من رغبة أوثار من عاطفة .

الصورة الرابعة

(٧) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . . »

٩٧ — ٩٨

وقد جاءت هذه الآيات في سياق التنديد بالمتخلفين من الأعراب عن غزوة تبوك ، وهي صريحة الدلالة على أن النفاق لم ينحصر في منافقي المدينة ، بل كان في الأعراب منافقون أيضا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ويتملقون المسلمين حينا مع تربصهم الدوائر بهم ، ولايرون فيما يدفعون من زكاة ونفقات جهاد إلا مغرما ، لأنهم لايؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولايرجون وجه الله وثوابه فيما يفعلون .

ولعل من الجائز أن يقال إن منافقي الأعراب لم يكن منهم ذلك الدور الخطير المؤذي الذي كان من منافقي المدينة ، وإن مواقفهم النفاقية إنما كانت تظهر في

المناسبات وعند الاختبار ، وخاصة في ظروف الاستنفار إلى الجهاد ، واستيفاء زكاة الأموال ، كما كان أحيانا يظهر من أعراب لم ينعتوا بنعت النفاق كاجرى في الاستنفار إلى زيارة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية على ماجاء في آيات سورة الفتح ١١ ـ ١٢ التي نقلناها في مناسبة سابقة . ولعل عدم الإشارة إليهم إلا في هذه السورة وبمناسبة غزوة تبوك قرينة ما على ذلك ؛ وقد يكون هذا طبيعيا ، لأن منافقي المدينة في حالة مواجهة واتصال واحتكاك دائمة مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وذوي قرباهم واليهود ؛ هذا إلى مافي الآية الأولى من تعليل متصل بطبيعة البدو والبادية ومايلهم هذا التعليل من الفرق بين منافقي الأعراب ومنافقي المدينة .

٨ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ... »

١٠١

وهي تقرر أنه كان هناك طبقة من المنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب استطاعت أن تتقن كتم نفاقها عن المسلمين أو جهلهم ؛ ويبدو أنه كان لهؤلاء أذى بليغ ، لأن الآية توعدتهم بالعذاب مرتين في الدنيا فوق ما ينتظرهم من عذاب الآخرة ، وفي هذا صورة جديدة من صور حركة النفاق في العهد المدني كما هو واضح .

٩ ـ وفي سورة محمد الآيات التالية :

« أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ... »

٢٩ ـ ٣٠

وفي الآيات إنذار لمرضى القلوب بالفضيحة . وبأن الله لا يخفى عليه أمرهم . ولو شاء

لدل النبي عليهم فرداً فرداً . ومع ذلك فقد أكدت أن النبي صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يعرفهم من أسلوب أقوالهم . ويبدو أن الآيات قد عنت الفريق الذي أتقن كتم نفاقه عن سواد المسلمين والذي أشارت إليه آية التوبة . (١١٠) التي أوردناها قبل هذه الآيات غير أن أحواله وأقواله ومواقفه كانت تفضحه أحياناً . أو على الأقل كانت تكشف للنبي صلى الله عليه وسلم عما في قلبه من مرض . وهذا الإنذار بهذا الأسلوب قد يلهم أن من هذا الفريق من كان يرجى ارعواؤه وعودته إلى حظيرة الإخلاص خشية الفضيحة التامة على الأقل وروح الآيات تلهم أن موضوع الكلام أفراد بارزون .

الصُّورة الخامسة

١٠ — وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . . . » ١٣ ـ ١٤

وهي وإن كانت وصف حال مشهد أخروي ، فإن الآية الثانية قد احتوت بيان ما كان من واقع حالهم الدنيوي من انحراف وريبة وغرور وتربص ، إلى سائر صفات النفاق التي كانوا متصفين بها . وقد ذكر المنافقات إلى جانب المنافقين كما ورد أكثر من مرة واستدللنا به على أنه كان للمرأة دور في حركة النفاق كما كان لها دور في الحركة الإسلامية والحركة الجحودية معاً .

١١ ـ وفي سورة المنافقون الآيات التالية :

« إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ . ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ . هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ١ — ٨

وفي الآيات صورة قوية صريحة للمنافقين ؛ فهم يظهرون الإسلام ويحلفون كذباً أنهم مصدقون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم وفى حين أنهم لا يتورعون عن الكفر ، ويعطلون الناس عن تأييد النبي ويصدون عن سبيل الله ، ويأنفون أن يطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر الله لهم على ما اقترفوه من آثام ؛ وإن مظاهرهم لتعجب الرائي ، وأقوالهم لتحمل المخاطب على الاستماع لما فيها من تنميق وتزويق ، في حين أنها عاطلة من الإخلاص ، وصادرة عن نية خبيثة ، وطوية مريبة ؛ وهم إلى هذا كله دائمو الخوف والقلق النفسي ، كلما هتف امرؤ ظنوا أنه يهتف ضدهم ، وكلما أشار امرؤ إلى أحد توهموا أنه يشير إليهم ويحاول أن يفضحهم ؛ فهم العدو الذي يجب الحذر منه وعدم الركون إليه في حال . والآيتان الأخيرتان في صدد مواقف كيدية للنبي والمسلمين دعا إليها بعض زعماء المنافقين في بعض المناسبات ،

وسنشرحها في مبحث آخر ؛ غير أنهما تحتويان بالنسبة لحالتهم مايلهم أنهم كانوا على شيء من القوة ونفوذ الكلمة حينما نزلت الآيات ، أو أنهم كانوا يشعرون بذلك في أنفسهم ؛ إذ جهروا بالدعوة إلى مقاطعة المهاجرين وعدم مساعدتهم ، وإلى نذر إخراجهم مع النبي من المدينة .

وروح الآيات تلهم أن الصورة هي بنوع خاص لزعماء المنافقين وبارزيهم ؛ وهذا ينسحب فيما نعتقد على ماجاء في الآيات الأخرى من صورة ووصف حال .

المبحث الثاني

في مواقفهم الكيدية والساخرة والتآمرية

صور لمواقفهم الكيدية من سور النساء والتوبة والأحزاب والمجادلة والمنافقون ـ إشارة تذكيرية إلى صور كيدية سابقة ـ صور لمواقفهم الساخرة من سور النساء والتوبة ومحمد ـ صور لمواقفهم التآمرية من سور النساء والتوبة ومحمد والمجادلة تذكير بصور تآمرية سابقة إتماماً للسلسلة .

الصّورة الأولى

إن هذا المبحث يتناول كما هو واضح من عنوانه ثلاثة أنواع من المواقف ؛ ولهذا رأينا أن نقتبس صور كل منها لحدتها .

فأولا مواقفهم الكيدية :

١ ـ في سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ... » ٦٠ ـ ٦١

وقد احتوت صورة لما كان من تعطيل المنافقين وصدهم عن التقاضي لدى رسول الله، وتفضيلهم التقاضي لدى زعيم من زعماء اليهود عرف بشدة حقده وعدائه للنبي والإسلام ؛ والصورة من صور الكيد الواضحة كما هو المتبادر .

٢ ـ وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ... »

وقد احتوت صورة كيدية للنبي صلى الله عليه وسلم باتهامهم إياه بالمحاباة في توزيع أموال الزكاة ، وتقريراً لواقع حالهم في هذا الاتهام ، فهم يتوسلون بالافتراء والكيد للحصول على نصيب منها قد لا يرى النبي لهم حقا فيه .

٣ ـ وفي سورة الأحزاب الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا . وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ... » ٥٧ ـ ٦١

وقد تضمنت إشارات إلى مواقف كيدية للمنافقين فيها أذى وسوء أدب إزاء النبي والمؤمنين والمؤمنات ، وإلى ما كانوا يسعون فيه من نشر إشاعات السوء عنهم والإرجاف في حقهم بما هم براء منه ؛ والآية ٥٩ قد تلهم أنه كان من جملة مواقف هذه الفئة ما يتنافى مع الرجولة والمروءة من التعرض للحرائر من نساء المسلمين أثناء خروجهن إلى حاجاتهن ، وأذيتهن بفاحش القول وبذيئه . والإنذار الذي احتوته الآيتان الأخريان قاصم وحاسم ومتناسب مع ما أشارت إليه الآيات من مواقف الأذى والكيد والإرجاف . وعدم ورود ما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد طردهم أو طرد بعضهم عن المدينة ، أو أمر بقتلهم أو قتل بعضهم بعد هذا التوجيه القرآني الحاسم ، قد يلهم أن الذين كانوا يقفون هذه المواقف الكيدية والمؤذية قد ارتدعوا عنها .

ولقد نقلنا في بحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية آيات عدة من سورة

النور احتوت إشارات إلى ما كان من بعض زعماء المنافقين من موقف شديد الأذى للنبي صلى الله عليه وسلم وآله في ظروف ماعرف في تاريخ السيرة بحديث الإفك ؛ وهذا الموقف من حيث الشكل والأسلوب يتصل بما أشارت إليه آيات الأحزاب من مواقف ، كما أن آيات النور قد احتوت إنذاراً شديداً لهم وقررت أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وحذرت من خطتهم القائمة على اتباع الشيطان الذي يأمرهم بالفحشاء والمنكر ؛ وهذا مقارب لما احتوته آيات الأحزاب من إنذار ، ومن بابه أيضاً .

الصورة الثانية

٤ – وفي سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ... » ٨

وقد احتوت صورة لموقف شديد الأذى والكيد مما كان يقفه المنافقون ؛ فقد كانوا يعقدون المجالس والحلقات الخفية ليضعوا خطط الكيد والعصيان والتمرد على النبي؛ فعاتبهم النبي صلى الله عليه وسلم ونهاهم عن ذلك فلم يأبهوا للعتاب وظلوا في خطتهم الآثمة؛ ومما روي أن هذه الحلقات كانت تعقد أكثر ماتعقد في ظروف الأزمات الحادة التي كان يضطرب لها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وهذه الرواية متسقة مع منطق الأمور ، حيث تكون الفرصة سانحة لهم لوضع خطط الدس والتثبيط والكيد ، استغلالا للظروف الحرجة ؛ وفي هذا ماهو ظاهر من شدة الكيد والأذى ؛ وقد يدعم هذه الرواية آية جاءت بعد قليل وهي :

« إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ... » ١٠

إذ احتوت طمأنة للمسلمين بأن هـذه الحلقات السرية هي من وساوس الشياطين بقصد إدخال الحزن على نفوسهم مع أنها ليست بضارتهم شيئاً ؛ لأن الضرر والنفع إنما هو من الله ، وعليهم أن يتوكلوا عليه .

وفي الآيات إلى صور مواقف الأذى والكيد صور تصف سخرية المنافقين من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ إذ تضمنت الإشارة إلى أنهم كانوا حينما يأتون إليه لا يسلمون عليه بالسلام المعتاد ؛ وإنما بسلام فيـه غمز أو سخرية ثم يتساءلون ساخرين جاحـدين متى يقع عليهم عـذاب الله الذي أنذرهم به النبي صلى الله عليـه وسلم جزاء ما يصدر منهم من أقوال وأفعال !؟

ولما كان من المرجح أن هـذا التساؤل إنما كان يقع فيما بينهم ، كما أنهم كانوا يعقدون تلك الحلقات متكتمين ، فإن من المحتمل أن يكون النبي صلى الله عليـه وسلم قد جعل عليهم عيوناً يأتونه بأخبارهم وما يبيتونه من خطط الكيد والأذى ، كما تلهمه روح الآيات ، لاسيما أنه ليس فيها ما يفيد أن الله هو الذي أطلع النبي بالوحي على ما يعقدونه من حلقات ويصدر منهم من أقوال جحودية ساخرة ، وهـذا مما قد ينسحب على كثير من خطط المنافقين الكيدية على ما هو المتبادر ، وفيه إن صح مشهد من مشاهد السيرة النبوية .

٥ ــ وفي سورة المنافقين آية نقلناها في المبحث السابق وهي الآية ٧ ؛ وقد تضمنت حكاية توصية كيدية من زعماء المنافقين للناس بعـدم الإنفاق على المحتـاجين ممن هم حول النبي حتى تضيق بهم الحال وينفضوا عنه وتضعف حركته وشأنه ، والراجح أن المقصودين هم المهـاجرون من قريش الذي أصبح كثيرون منهم أو بالأحرى

أكثرهم فقراء محتاجين بتركهم أموالهم في مكة على ماأشارت إليه إحدى آيات الحشر هذه :

« لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللهِ وَرِضْوَٰناً وَيَنصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ... » ٨

وفي السورة نفسها آية أخرى نقلناها كذلك في المبحث السابق وهي الآية ٨ ؛ وقد تضمنت حكاية نذر شديد الخطورة والكيد من زعماء المنافقين بأنهم سيخرجون النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه القرشيين من المدينة ؛ وهذا النذر يدل على ما كان يستشعره هؤلاء الزعماء من الثورة والعزة والقدرة على النكاية والكيد ، على ماذكرناه في المبحث السابق .

الصورة الثالثة

وثانيا مواقفهم الساخرة :

(١) في آيات سورة البقرة التي نقلناها قبل هذه الآيات :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ... » ١١ ـ ١٤

حيث تتضمن الآيات صوراً من سخريتهم وانتقاصهم للمسلمين .

(٢) في سورة النساء الآية التالية :

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ... » ١٤٠

وقد جاءت الآية في معرض التنديد بالمنافقين ؛ واحتوت صورة لما كان يعقده المنافقون من مجالس يستهزئون فيها بالنبي والقرآن ، وينكرون أن يكون متصلا بالله . وفي الآية صورة لبعض المسلمين هم المقصودون بالنهي في الآية ، إذ تلهم أن فريقا منهم لم يكن يرى بأساً في التردد على مجلس المنافقين والسمر معهم ، والإغضاء عما يدور فيها من استهزاء وكفر ؛ وكما كان للعصبية والقرابة والمصالح المشتركة أثر فيما كان من مواقف دس المنافقين، فإن لها أيضا أثراً في هذا الموقف كما هو المتبادر ، ويبدو أن هذا الأثر كان قويا بحيث أن الآية اكتفت بالنهي عن الاشتراك في مجالس فيها كفر وهزء بآيات الله فقط ، إلى أن ينتقل الكلام إلى مالا حرج فيه .

(٣) وفي سورة الأنفال الآية التالية :

« إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٤٩

وهذه الآية نزلت في جملة السياق الوارد في سورة الأنفال تعقيباً على ما أحرزه المسلمون من نصر على قريش في وقعة بدر . ولقد أثار هذا النصر دهشة المنافقين ولكنهم كظموا غيظهم وعبروا عنه بالعبارة الساخرة التي حكتها عنهم الآية .

(٤) وفي سورة التوبة الآية التالية :

« وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ٦١

وقد احتوت حكاية قول ساخر لهم إزاء النبي في نقدهم له ، وقولهم عنه إنه سماع لكل ماينقل له ، كما أن فيها تنبيها إلى أن هذا القول كان مما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد روي في صدرها أن بعضهم كان يقدح في النبي فإذا حذر بعضهم بعضا من وصول الخبر إليه قالوا إنه أذن سهل الاقتناع فنحلف له فيصدق ؛ والتنبيه على أن قولهم

كان مما يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم مما يجعل الرواية سائغة كما هو المتبادر .

(٥) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ... » ٦٤ – ٦٥

ولقد روى أن الآيات نزلت في فريق من المنافقين كمنوا للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق عودته من تبوك ليوقعوه عن دابته ، فعلم بالمؤامرة وعاتبهم فأنكروا واعتذروا ؛ كما روي أن بعضهم كان يقدح أثناء الغزوة فيه ويستهزئ بما يقول ويعد من نصر الله على الروم ، فعلم بأقوالهم فأوقف الركب وعاتبهم فأنكروا واعتذروا ، ومنهم من تاب وحسن إسلامه .

والروايتان لاتتسقان مع روح الآيات ومضمونها وسياقها إذا ما أنعم النظر فيها ، ولعلها متصلة بموقفهم الذي حكته عنهم الآية السابقة مباشرة لها من أنهم كانوا يغتابون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون إنه أذن ، ثم يقولون على سبيل الهزء أيضاً إنه سينزل فيهم سورة تفضحهم ؛ بل إن مضمون الآيات وروحها تدعم هـذا أكثر كما هو المتبادر منها . وعلى كل حال فإن فيها صورة واقعية لموقف كيد وسخرية وسوء أدب وقفه فريق من المنافقين .

الصورة الرابعة

(٦) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ٧٩

وقد روي أنها نزلت في مناسبة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى التصدق ،

فأقبل أغنياؤهم وفقراؤهم على السواء ، كل يتصدق بحسب قدرته ، فأخذ المنافقون يلمزون الفريقين ، فيقولون عن الأغنياء إنهم إنما يعطون رياء ، وعن الفقراء إن ما أتوا به تافه لا قيمة له ، وإنهم إنما أعطوه ليذكروا بأنفسهم به ، وليكون لهم وسيلة إلى نيلهم نصيبا من مال الصدقة ، وقد عينت الرواية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الأغنياء حين تصدق بنصف ماله ، وأبا عقيل من الفقراء حين جاء بصاع من تمر ؛ ومع احتمال صحة الرواية واتساقها مع الآية فإنه يتبادر لنا أنها أوسع شمولا ؛ والراجح أن الدعوة النبوية كانت بسبيل تجهيز حملة تبوك، لأن الآية قد نزلت في ظروفها ، وموقف السخرية والكيد بارز في الآية كما هو واضح ؛ ولقد جاء عقبها آية شديدة حاسمة في دمغ المنافقين بالكفر وعدم إمكان غفران الله لهم كما ترى فيها :

« ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .. » ٨٠

ومع أن المروي أن هذه الآية نزلت في صدد مراجعة أحد أقرباء زعيم من زعماء المنافقين كان في حالة الاحتضار وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله خيرني واستغفر له تطييبا لقلب المؤمن المخلص الذي طلب منه ذلك ، فإننا نرجح أنها أسلوبية استهدفت كما قلنا دمغ المنافقين بالكفر والفسق ، وعدم احتمال غفران الله لهم بسبب ما حكته هذه الآيات وما قبلها من مواقفهم الكيدية والساخرة ؛ ولا نعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم خالف روح الآية واستغفر لأحد ممن كان مصراً على نفاقه وكفره ومواقفه الكيدية والساخرة .

(٧) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ . أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ... » ١٢٤ - ١٢٧

وقد احتوت صوراً عن سخرية المنافقين واستخفافهم بما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبلغه من آيات القرآن وسوره حينما تنزل عليه ، واستخفافهم كذلك بمجالسه، وانصرافهم عنها خلسة .

(٨) وفي سورة النور الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ٦٢ - ٦٣

والآيات تذكر موقف فريقين من المسلمين مخلص ومخامر . وتذكر كيف كان المخامرون يتسللون من مجالس رسول الله بدون استئذان وتندد بهم وتنذرهم . والمفسرون يذكرون أن هـذا كان شأن المنافقين في وقت حفر الخندق حينما زحفت قريش وأحزابها على المدينة .

(٩) في سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا

سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً . . . » ٦٩ ـ ٧١

ويروي المفسرون أن الآية الأولى نزلت في مناسبة قول أحد المنافقين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة قسمها إنها قسمة لم يرد بها وجه الله فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فتأذى أذى شديداً .

(١٠) وفي سورة محمد الآية التالية :

« وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفاً أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ . . »

١٦

وقد احتوت صورة مقاربة للصورة التي احتوتها آية التوبة (١٢٤) ؛ إذ تلهم أنهم كانوا يتلهون عن سماع الآيات القرآنية والمواعظ النبوية ، وحينما ينصرفون يتساءلون تساؤل المستخف عما تلاه وقاله .

الصورة الخامسة

وثالثاً مواقفهم التآمرية :

(١) في آيات سورة البقرة التي أوردناها في مطلع الفصل هذه الآية :

« وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . . . » ١٤

والمفسرون متفقون على أن (شياطينهم) تعني اليهود وفي الآية والحالة هذه صورة من صور التآمر بين المنافقين واليهود ضد المسلمين والإسلام .

(٢) في سورة النساء الآية التالية :

١ ــ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ

أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . .

١٣٨ ـ ١٣٩

٢ ـ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا .

١٤١

وقد احتوت الآية (١٣٩) تقريراً بأن المنافقين كانوا يتمسكون بولائهم ، للكفار دون المؤمنين ابتغاء الاعتزاز بذلك ، واحتوت الآية (١٤١) صورة أخرى عن نفاقهم وذبذبتهم ، إذ كانوا يقفون موقف المتربص المتنهز للفرصة متى جاءت وكانت ؛ وقد قال المفسرون إن المقصود من الكافرين هم اليهود ، وقد جاء بعد الآيات بقليل سلسلة فيها حملة شديدة على اليهود مما يمكن أن يوجه ذلك القول ؛ وعلى هذا فالآيات بسبيل الإشارة إلى موقف تآمري بين المنافقين واليهود ؛ والأرجح إن هذا الموقف كان قبل التنكيل باليهود جميعهم ، وبالتالى في وقت كان اليهود فيه أقوياء بعض القوة ، وكان المنافقون فيه كذلك أقوياء بعض القوة ؛ والآيات تلهم هذا وتلهم أنها في صدد اليهود ؛ فاحتمال اعتزاز المنافقين بالولاء للكفار ، واحتمال قولهم لهم إنهم نصروهم بموقفهم السلبي فتم لهم النصر على المسلمين ، لا يمكن أن يكون إلا مع المنافقين واليهود ، وفي وقت كان الفريقان فيه على شيء من القوة .

(٣) في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ

نَدِمِينَ . وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ . . . » ٥٠ ـ ٥٣

والمفسرون متفقون على أن (الذين في قلوبهم مرض) هم فريق المنافقين الذين كانوا متحالفين مع اليهود رغم تحذير القرآن بذريعة الخوف من العواقب . وفي الآيات والحالة هذه صورة من صور التآمر بين المنافقين واليهود وتأييد لما احتوته الآيات السابقة من استمرار موالاتهم وإصرارهم على ذلك .

(٤) وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . » ١٠٧ ـ ١١٠

والجمهور على أن الذين بنوا هذا المسجد الذي عرف في تاريخ السيرة بمسجد الضرار اتساقا مع الوصف القرآني ، فريق من المنافقين كانوا يقطنون محلة قباء ، وكان في المحلة مخلصون أيضاً استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في بناء مسجد حيث كانت صلاته حينما جاء مهاجراً من مكة ، وحيث أقام بعض الوقت ، ليصلوا فيه في أيام الشتاء والبرد والليل بسبب بعد المحلة عن مسجده ، فأذن لهم ؛ وكان راهب عربي اسمه أبو عامر قد تلاحى مع النبي صلى الله عليه وسلم وأقسم أن يحاربه أينما وجد محاربا له ، فلما انتصر المسلمون في فتح مكة ويوم حنين ، تآمر مع المنافقين على أن يبنوا مسجداً في قباء ليكون مركز اجتماعاتهم ، وينتظروا عودته من بلاد الروم حيث أزمع أن يذهب ليدبر المكايد للنبي

والمسلمين ؛ فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم ببناء مسجد مثل رفاقهم ، فأذن لهم ، ورجوه أن يصلي لهم فيه فوعدهم بذلك بعد عودته من غزوة تبوك .

والصورة التآمرية واضحة في الآيات وليس فيها مالا يتسق مع الرواية ؛ والمروي أيضا أن الآيات قد نزلت أثناء غزوة تبوك ، وأن النبي علم وهو في الرحلة بخبث نية بناة المسجد ؛ وقد أرسل فور عودته إلى المدينة من هدمه وحرقه . ومضمون الآيات يلهم أنها نزلت في وقت كان المنافقون فيه في ضعف وضآلة شأن ، إذ جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم يؤكدون له حسن نياتهم .

الصورة السادسة

(٥) وفي سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... » ٢٥ ـ ٢٦

وقد احتوت الآية الثانية منها إشارة إلى ما كان من وعد المنافقين ، للذين كرهوا ما نزل الله ـ وهم اليهود على الأرجح ـ بطاعتهم والاندماج في مكايدهم ؛ وفي هذا صورة تآمرية واضحة كما هو المتبادر ؛ وتعبير « إسرارهم » قد يلهم أن المنافقين واليهود كانوا يعقدون جلسات خفية يتآمرون فيها على النبي والإسلام .

(٦) وفي سورة المجادلة الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . . . »

١٤ ـ ١٦

ومع أن ذكر المنافقين لم يرد في الآيات إلا أن صفاتهم التي جاءت في آيات أخرى

قد وردت فيها ، كما أن الجمهور على أنهم هم موضوع التنديد وما تبع الآيات من حملة شديدة ؛ وتعبير « ماهم منكم ولا منهم » يدل بقوة على أن المقصود من القوم الذين غضب الله عليهم وليسوا من العرب ، هم اليهود على الغالب ؛ وفي الآيات صورة لما كان بين اليهود والمنافقين من تواثق وتآمر كما هو ظاهر .

ويظهر أن المنافقين كانوا يعاتبون على مواقفهم التآمرية فينكرونها ، ويحلفون على ذلك الأيمان الكاذبة ، شأنهم في كل موقف من مواقفهم الأخرى على ما احتوته الآيات التي نقلناها .

هذا ؛ وإتماماً للسلسلة نذكر هنا بالصور التآمرية التي احتوتها آيات الحشر (١١ ـ ١٤) والبقرة (١٤) والمائدة (٥١ ـ ٥٣) التي أوردناها في فصل اليهود ، لاتصالها بهذا المبحث أيضاً بقدر اتصالها بالفصل المذكور .

المبحث الثالث

مواقفهم من الجهاد ووقائعه

هذه المواقف نوعان ـ الأول إزاء الدعوة ـ صور له من سور آل عمران والنساء والتوبة ومحمد ـ الثاني إزاء الوقائع الجهادية ـ صور له من سور آل عمران والأنفال والأحزاب ـ إشارة تذكيرية بما كان من موقفهم إزاء وقعتي بني النضير وغزوة تبوك ـ صور أخرى للنوع الثاني من سورتي التوبة والمنافقون ـ تعليق على شدة نكاية مواقف النوع الثاني ـ إشارة إلى ما كانوا عليه من قوة في ظروفها .

الصّورة الأولى

إن هـذه المواقف على ما يستفاد من الآيات نوعان : نوع إزاء الدعوة إلى الجهاد والاستنفار إليه ، وآخر إزاء الوقائع الجهادية .

(١) في سورة آل عمران الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . . »

١٥٦

وقد جاءت الآية في سياق الإشارة إلى مشاهد وقعة أحـد ، وما كان للمنافقين وبعض فئات المسلمين المخلصين من مواقف فيها ؛ والآية مطلقة تلهم أنها بسبيل تقرير موقف متكرر منهم ؛ وهو أنهم كانوا يعمدون إلى إثارة شجون أهل الشهداء والموتى من المسلمين الذين يستشهدون في الجهاد أو يموتون في السفر فيقولون إنهم لو لم يخرجوا إلى ماخرجوا إليه لما ماتوا وماقتلوا ؛ وواضح أن في هـذا دسا خبيثا وتثبيطا عن الاستجابة إلى الجهاد ؛ وقد تلهم الآية أن المقصودين بالذين

يضربون في الأرض هم الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يندبهم لمهمة ما فيلقون حتفهم ؛ لأن الدس والتثبيط إنما يجدان سبيلهما في ذلك دون الأسفار المطلقة الخاصة التي لاغنى للناس عنها ولا سبيل إلى إثارة الشجون والدس فيها .

(٢) وفي سورة النساء الآيات التالية :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً . وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً ... ٧١ — ٧٣

٢ — أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ...

٧٧

٣ — وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ...

٨١

وقد احتوت الآيات الأولى إشارة إلى ما كان من تثبيط المنافقين الناس عن الاستجابة إلى دعوة الجهاد فضلاً عن تربصهم وانكماشهم . وفيها صورة مؤكدة لنفاقهم وكون مايصدر عنهم لايصدر عن إيمان وإخلاص . وكون كل ما كان هدفهم هو الكسب والفوز مع العافيه والسلامة . واحتوت الآية (٧٧) صورة من تذمرهم حينما فرض الجهاد ودعوا إليه . واحتوت الآية (٨١) صورة من مواقفهم من الدعوة إلى

الجهاد حيث كانوا أحيانا : يعلنون السمع والطاعة في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لا يلبثون إذا مافارقوه أن ينقضوا ماأبرموا ويجنحوا إلى الخلاف والتخلف .

(٣) في سورة التوبة المقاطع التالية :

١ — لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ . عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَـٰذِبِينَ . لَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَـٰعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّازَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ . لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَـٰفِرِينَ ... ٤٢ ـ ٤٩

٢ — فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَـٰهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَئْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَـٰتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَـٰلِفِينَ ... ٨١ ـ ٨٣

٣ — وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَـٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُولُوا

ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ . رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ... ٨٦ ـ ٨٧

٤ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ٩٠

٥ — إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ... ٩٣ ـ ٩٦

ففي هذه الآيات التي نزلت في معرض التنديد بالمنافقين والحملة عليهم وذكر مواقفهم المنكرة، صور عدة ولكنها متقاربة لتلك المواقف ؛ فهم إذا اتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فإنما يتبعونه حينما يكون السفر سهلا والخطر مأمونًا ؛ فإذا ماانعكس الحال اعتذروا بعدم الاستطاعة وأقسموا الأيمان وهم كاذبون ، فيستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم بالتخلف من جهة ، ويثبطون الناس عن النفرة من جهة أخرى ؛ وكلما دعا الله ورسوله إلى الجهاد سارع أولو الطول والقدرة إلى النبي يطلبون منه أن يتركهم في المدينة ـ ويبدو من روح بعض الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأذن لهم تفاديًا لما يعلمه من دسهم وشغبهم وتثبيطهم وأثر ذلك في المخلصين الذين كان منهم من تربطه بهم الروابط الوثيقة المتنوعة .

ولقد سبق القول أنه كان من الأعراب منافقون . وفى المقطعين الأخيرين من مقاطع سورة التوبة صورة لموقف هؤلاء من حركة الجهاد والدعوة إليه مماثلة لموقف زملائهم من أهل المدينة .

(٤) وفي سورة محمد الآيات التالية :

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ... » ٢٠ – ٢٣

وقد احتوت الآية الأولى وصفاً بديعاً وقويا لجبن المنافقين حينما كانت تنزل سورة فيها أمر حازم بالجهاد توافق رغبة المخلصين من المسلمين . وفي الآيات الأخرى حملة عليهم لجبنهم ، وتنبيه إلى ما في ذلك من تقطيع الأرحام ، وتدمير البلاد ، لأن فيه تشجيعاً للعدو وإغراء له .

الصورة الثانية

وثانيا : مواقفهم في وقائع الجهاد :

(١) وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... » ١٦٦ – ١٦٨

والآيات مما نزل عقب وقعة أحد التي دارت الدائرة فيها على المسلمين ، والتي أثارت فيهم آلاما مرة ؛ وقد احتوت الأولى صورة لموقف المنافقين في هذه الوقعة ، إذ يستفاد منها أنهم دعوا إلى الاشتراك في الجهاد في سبيل الله ، أو التضامن على الأقل في الدفاع عن وطنهم وقومهم ، فأبوا وتخلفوا قائلين إنهم لايظنون أن يقع اشتباك ، ولو تيقنوا من ذلك لخرجوا معهم ؛ وكان قولهم كذبا لأنهم تخلفوا بقصد الخذلان ، واجتناب الحرب ، وتربص السوء بالمسلمين ؛ وقد احتوت الثانية صورة لموقف آخر لهم بعد المعركة ، فإنهم عمدوا إلى الدس الخبيث ، وإثارة شجون أهل الشهداء ، فقالوا إنهم أطاعونا وتخلفوا كما تخلفنا لما قتلوا ؛ وفي جملة « لو أطاعونا » صورة لموقف ثالث قبل المعركة ، إذ تلهم أنهم لم يكتفوا بالتخلف بل حاولوا حمل غيرهم من المخلصين الذين تربطهم بهم روابط القربى والعصبية على التخلف أيضا ولكن هؤلاء لم يسمعوا لهم .

الصورة الثالثة

(٢) وفي سورة الأحزاب الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً . يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلاً ... » ٩ ـ ٢٠

وهـذه الآيات مما نزل عقب وقعة الخندق أو الأحزاب ، وفي صدد وقائعها ومشاهدها ؛ وقد احتوت صوراً لمواقف المنافقين ودسائسهم في ظروف الوقعة ؛ وإذا لاحظنا أن هـذه الآيات هي معظم ما نزل في صدد الوقعة بدا لنا أنها إنما نزلت للتنديد بهم وفضيحتهم خاصة .

والآيات الثـلاث الأولى تصور مقدار ما كان من شدة اضطراب المسلمين لقـدوم جيوش الأحزاب ووفرتها ؛ ودسائس المنافقين وتثبيطهم في هذه الحالة يكون بطبيعة الحال شديد الأذى بعيد المدى بحيث يتناسب مع تلك الشدة ؛ يضاف إلى هذا أن هـذه الغزوة كانت أشد ما تعرضت له المدينـة والمسلمون من خطر ، بل كان من شأنها أن تعصف بالإسلام لولا تأييد الله وثبات رسوله ، لاسيما أنها جاءت بعد وقعة أحـد التي كانت الدائرة فيها على المسلمين وكاد النبي يقتل فيها ؛ وهذا مما يجعل مواقف الدس والتثبيط التي وقفها المنافقون أشد خطرا وأبعد نكاية وأذى .

وفي الآية الرابعة تبـدو صورة للمنافقين في جرأتهم على الله ورسوله جهرة وقولهم إن ما وعدوا به من نصر ليس إلا غرورا أو تغريرا بالناس ؛ ومما لاريب فيه أن خطورة الظرف هي التي جرأتهم على هذا القول .

وفي الآية الخامسة تبدو صورة أخرى لهم في تثبيطهم أهل المدينـة وتخويفهم إيام ودعوتهم إلى الرجوع إلى المدينة ، وصورة ثانية أيضاً في استئذانهم النبي صلى الله عليـه وسلم بالعودة إلى بيوتهم لحمايتهاوزعمهم كذبا أنها مكشوفة للعدو ،وقد قررت الآية والآية التالية لها واقع أمرهم في الحقيقة ، فهم لايبغون إلا الفرار ، وإذا قدر للعدو أن يدخل إلى المدينة منصوراً وطلب منهم أن يجهروا بالـكفر وأن يثيروا الفتنة لما توقفوا في الإجابةإلى ذلك ؛ ويبدو من الآية السابعة أن المنافقين عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشهدوا الله عليهم على عدم الفرار بعد ما كان منهم ما كان في وقعة أحد فذكرتهم الآية بهذا العهد تذكير تأنيب وتنديد .

وفي الآية التـاسعة صورة أخرى لهم في ظروف الوقعـة ؛ إذ تلهم أنه كان منهم من يشون فـكرة الالتحاق بمعسكر النبي لتعويق الناس عنه ، ويدعون بني قومهم وذوي قرباهم إلى الانضمام إليهم بحجة الرغبـة في القتال فريقاً خاصاً ، في حـين أنهم كانوا لايقصـدون إلا التفريق ، ولم يبيتوا النيـة على الاشتباك في الحرب إذا نشبت بصورة فعالة .

وفي الآية العاشرة تقرير آخر لواقع حالهم ؛ فهم بخلاء ، وحينما يحـدق الخطر بهم يظهرون جبنا شديدا صورته الآية أبلغ تصوير ، وحينما يذهب الخوف يطلقون ألسنتهم بالنقد الشديد والتبجح العريض ، وهم بعيدون عن كل خـير . وفي الآية الحادية عشرة وهي الأخـيرة صورة أخرى لهم ، إذ يبدو أنهـم حينما قيل لهم إن الأحزاب قد ارتدوا خائبين عن المدينة لم يكادوا يصدقون ، وقد احتوت تقريرا لحالة فرضية لهم متصلة بموقف الجبن وعدم التورط الذيوقفوه ، فقررت عنهم أنه لو عاد الأحزاب ثانية لتمنوا أن يكونوا في البادية بعيدين عن المدينة ، فلا يشهدوا الوقعة ، ولا يتورطوا فيها ، ويكتفوا بالسؤال عن الأخبـار ؛ وقد استدركت الآية فقررت أنهم لو كانوا مع المسلمين لما قاتلوا قتال جد فيه غناء .

والصور القرآنية واضحة كل الوضوح ؛ وهي تؤيد ماقلناه من شدة نكاية مواقف المنافقين وبعد مداها في ظروف هذه الوقعة التي هي أشد ماتعرض له الإسلام من خطر .

الصورة الرابعة

(٣) وفي سورة الحشر الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . . »

١١ ـ ١٢

وهذه الآيات من جملة مانزل من آيات سورة الحشر تعقيباً على وقعة إجلاء يهود بني النضير عن المدينة . وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي وعشيرته حلفاء لهم . فلما استحقوا نكال الله ورسوله وحاصرهم النبي أرسل المنافقون إليهم يشجعونهم على الصمود ويعدونهم بالتضامن معهم في الحرب والخروج حيث انطوى في الآيات صورة من صور تآمر المنافقين من ناحية وموقفهم في حالة الحرب التي قامت بين المسلمين واليهود من ناحية أخرى .

(٤) وفي آيات سورة التوبة ٤٢ و ٤٧ ـ ٤٨ و ٨٣ التي أوردناها في النبذة السابقة لهذه النبذة من هذا المبحث صور لمواقف المنافقين من وقائع الجهاد نفسها مما يدخل في باب هذا القسم أيضاً . وتحسن الإشارة إليه لتتم السلسلة . فالآية (٤٢) تذكر أن المنافقين كانوا أحياناً يستجيبون للدعوة ويشتركون في حملات الجهاد حينما تكون الرحلة قريبة والغزوة سهلة مأمونة . والآية (٨٣) احتوت أمراً للنبي بإعلانهم أنه لن يسمح لهم بالخروج

معـه إلى غزوة ما أو بمقاتلة عـدو ، بسبب ما كان من تخلفهم وتهربهم وتثبيطهم ؛ والآيتان ٤٧ ـ ٤٨ تصفان واقع حال المنافقين في الوقائع الجهادية . فهم لايألون جهـدهم في بث الفتنة وإثارة القلق وتثبيط الهمم ودس الدسائس إذا ماخرجوا مع الحملات الجهادية ؛ ولمساعيهم هـذه أثر في بعض المسلمين الذين يستمعون إليهم بسبب الروابط التي تربط بينهم ؛ وفي الآية الثانية إشارة إلى موقف واقعي منطبق على ماذكرته الآية الأولى من واقع حالهم ، إذ لم يألوا جهـدهم في فتح الثغرات ، وخلق المشاكل ، وظلوا كذلك إلى أن صارت كلمة الله هي العليـا ، وتوطدت قوة الإسـلام رغم أنوفهم وعلى كره منهم .

الصورة الخامسة

(٥) وفي سورة التوبة آيات لم ننقلها قبل وهي متصلة بمواقف المنافقين في ظروف الوقائع الجهادية ، منها الآيات التالية :

« إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ . قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ . . »

٥٠ ـ ٥٣

وهي صور متصلة بوقائع الجهاد من بعض النواحي أيضاً ، إذ حكت الأولى تربص المنـافقين الدوائر بالمسلمين حتى إنهم ليستاءون من فتح يفتح عليهم ، وليتمنون أن تدور الدائرة عليهم . وهذه المساجلة التي تأمر بها الآيات تدل على ما كان من شدة أثر مواقف المنـافقين في نفوس المسلمين في ظروف الوقـائع الجهـادية كما هو المتبادر .

والآية (٥٣) مع ماورد في صددها من روايات ، تلهم أن المنافقين حاولوا أن يفتدوا أنفسهم بالاشتراك ماليا في غزوة تبوك ، فألهم الله نبيه رفض ذلك مع تعليل الرفض في الآية ، وهو تعليل بليغ يلهم أن قبول المال منهم قد يتخذ دليلا على تصديقهم فيما يدعونه من نيات حسنة ويقدمونه من أعذار كاذبة .

ومنها الآية التالية :

« وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ... » ٩٨

وقد تضمنت صورة لمنافقي الأعراب ؛ فقد كانوا يعتبرون مايؤخذ منهم من مساعدات وصدقات ، تكاليف إجبارية ، وكانوا يدفعونها تفادياً لا إيماناً واحتساباً ، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر حتى يخلصوا من هذه التكاليف .

(٦) ولقد نقلنا سابقاً الآية (٨) من سورة « المنافقون » ، ولها اتصال وثيق بموقف للمنافقين أثناء إحدى الغزوات النبوية ؛ إذ روي في صددها أن أنصاريا خزرجيا تلاحى مع قرشي فاستغاث كل منهما بقومه على عادة العصبية القبلية الجاهلية ، وكادت تكون فتنة هوجاء ، فأخذ عبد الله بن أبي كبير المنافقين الغضب والحمية وأقسم : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، كأنما كان واثقا من أنه هو الأعز ؛ ففي الآية من جهة صراحة بأن المنافقين كانوا أحيانا يخرجون في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها من جهة أخرى صورة لما كان من استعدادهم لإثارة الفتنة بين صفوف المسلمين أثناءها .

ومما لاريب فيه أنهم إنما كانوا يخرجون في الغزوات الهينة المضمونة العاقبة على ماوصفت إحدى آيات التوبة وهي (٤٢) من واقع حالهم في ذلك .

الصُّورة السَّادسة

ولابد أن القارئ قد لاحظ أن المنافقين قد وقفوا من الوقائع الجهادية الخطيرة في تاريخ السيرة مثل أحد وبني النضير والخندق وتبوك موقف الخذلان والتثبيط ، وأن موقفهم خاصة من وقعتي أحد والخندق ـ اللتين دارت في أولاهما الدائرة على المسلمين وكادت ثانيتهما تعصف بالإسلام والمسلمين أشد العصف ـ من أشد مواقفهم نكاية وخبثا وأبعدها مدى .

وهذا يفسر الحكمة التي اقتضت إنزال الحملات القرآنية العنيفة في حقهم كما هو المتبادر.

ويلاحظ من ناحية أخرى أنهم كانوا في ظروف الوقائع الثلاث الأولى على شيء من القوة ، فلم يعبأوا بما يمكن أن يكون لمواقفهم منها من رد فعل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

فصل
في اليهود في العهد المدني

تمهيد

الصورة الأولى

لليهود في العهد المدني شأن كبير متعدد النواحي ، يجعل لهذا الفصل قيمة خاصة ، هذا إلى أنهم من أول من اصطدم مع النبي صلى الله عليه وسلم إن لم نقل أولهم ، ولقد شغلوا في القرآن المدني حيزاً واسعاً منذ بدء تنزيله ، وفي سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة بنوع خاص ، عدا غيرها من السور الثانوية . ولعل من الدلائل على أنهم أول من اصطدموا مع النبي ما جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أول السور المدنية في ترتيب النزول ، والتي يحتمل جدا أن تكون هذه الأولية لها بسبب فصلها الأول الذي منه آيات المنافقين والتي جاء فيها :

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ... » ١٤

فقد قال جمهور المفسرين إن شياطينهم هم اليهود ، ويدل هذا على أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق أو شجعوهم في مواقف الخداع ، وعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين لم يغب عنهم ذلك .

كما جاء في فصول السورة المذكورة الأولى ، وفي مطلع الفصول الطويلة في مواقف اليهود وأخلاقهم خطاب موجه إليهم في هذه الآيات :

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا

تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . . . » ٤٠ ـ ٤٢

وقد أنذرت اليهود وحذرتهم من أن يكونوا أول الكافرين بالقرآن الذي هو مصدق لما معهم ، ومن أن يلبسوا الحق الذي يعرفونه بالباطل ويكتموه ويصدوا عنه ، ويدل هذا الخطاب صراحة على الأولية التي ذكرناها .

الصورة الثانية

ولقد اتخذ اليهود يثرب والمناطق الواقعة على طريق الشام دار هجرة ومقام منذ أمد بعيد ، وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ما كانوا عليه من كثرة العدد ، وسعة الثروة ، والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية ؛ ثم بسبب ما كان لهم من مكانة دينية وعلمية مستمدة من أنهم أصحاب كتاب سماوي ، وذوو صلة بالأنبياء والأمم الغابرة وأخبارها على ما فصلناه في كتابنا عصر النبي وبيئته .

وكان السبب الأخير قد جعلهم في مركز المعلم والمرشد والمرجع ، بل القاضي لسكان يثرب ، على ما تلهمه آيات قرآنية عدة شرحناها في كتابنا المذكور ، فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة ، والقوة النافذة والأثر في حل المشكلات ، وتعليل الحوادث والقضاء في الخصومات ، والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز ، وقد اندمجوا في الحياة العربية ، وارتبطوا بمواثيق الحلف مع جيرانهم العرب ، فكان هذا مما زاد مركزهم ورسوخ قدمهم قوة وشدة ، حتى لقد احتاج الأمر إلى تكرار النهي عن موالاتهم مراراً على رغم مابدا منهم من المواقف الجحودية والمريبة والعدائية الضارة .

ومع أنهم ـ على ما أشرنا إليه في فصل سابق استدلالا من بعض الآيات ـ كانوا يبشرون بمبعث النبي العربي ويستفتحون به على العرب ، ومع أن النبي صلى الله عليه وسلم منذ حل في المدينة كتب بينه وبينهم عهداً على ما ذكرته الروايات المعتبرة وما تدعمه الآيات ، أمنهم فيه على حريتهم الدينية وطقوسهم ومعابدهم وأموالهم وحقوقهم ، وأبقاهم

على محالفاتهم مع بطون الأوس والخزرج ، وأوجب لهم النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يمدوا يداً بأذى[١] ـ مع هذا فإنهم ما لبثوا أن تطيروا من قدومه إلى المدينة ، وأخذوا ينظرون بعين التوجس والخوف إلى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته ؛ واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه بعد ذلك العداء الدموي الطويل الذي كانوا من دون ريب يستغلونه في تقوية مركزهم ،وخشوا على المركز الذي هم فيه ، والامتيازات الكبيرة التي كانوا يتمتعون بها ويجنون منها أعظم الثمرات .

الصّورة الثالثة

ولقد كان ظنهم على ما يبدو أن يجعلهم النبي صلى الله عليه وسلم خارج نطاق دعوته ، معتبرين أنفسهم أهدى من أن تشملهم ، وأمنع من أن يأمل النبي دخولهم في دينه ، وانضواءهم إلى رايته ؛ بل لقد كانوا يرون أن من حقهم أن ينتظروا انضمامه إليهم كما يمكن أن تلهمه هذه الآيات :

١ — وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ . . .[٢]

البقرة ١١١

---

(١) قال ابن هشام عزواً إلى ابن إسحق (كتب رسول الله «ﷺ» كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم) وفي صدد ما اشترط عليهم وشرط لهم ورد في نص كتاب رسول الله الذي أورده ابن هشام (إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ـ وإن يهود بني عوف ـ الأغلب تعني الجملة اليهود المتحالفين مع بني عوف وهم من قبيلة الخزرج ـ أمة مع المؤمنين لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ـ أي لا يهلك أو يفسد ـ وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف . وليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف . وليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف . وليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف . وليهود بني الاوس مثل ما ليهود بني عوف . وليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف . وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد . وإنه لا ينحجز على ثأر جرح . وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم . وإن الله على أمر هذا . وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم . وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه . وإن النصر للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) انظر ج ٢ ص ١١٩ ـ ١٢٢ .

(٢) هذه الآية والآيتان الأخريان هي من سلسلة في اليهود وذكر النصارى استطرادي على ما يتبادر .

٢ — وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . . .

البقرة ١٢٠

٣ — وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ . . . البقرة ١٣٥

لا سيا حينما رأوه يصلي إلى قبلتهم ، ويعلن إيمانه بأنبيائهم وكتبهم بلسان القرآن ، ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته ، ويتلو فيما يتلوه :

١ — أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ . . .(١) الأنعام ٩٠

٢ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ...

السجدة ٢٣ ـ ٢٤

٣ — شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . .

الشورى ١٣

٤ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . . الجاثية ١٦

٥ — ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ . . .

البقرة ٢٨٥

نخاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس ، بل يختصهم بلسان القرآن أحياناً بالدعوة ويندّد بهم لعدم إسراعهم إلى استجابتها ، ولموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف التعطيل والتناقض ، كما جاء في آيات البقرة ٤٠ ـ ٤٢ التي نقلناها وكثيراً غيرها مما سوف نورده وخاصة هذه الآية التي تندّد بتناقضهم .

---

(١) هذه الفقرة من سلسلة ذكر فيها عدد كبير من أنبياء بني إسرائيل ونوه بهم .

٦ — أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... البقرة ٤٤

فكان هذا على ما هو المتبادر باعثا على تنكرهم للدعوة وحقدهم على صاحبها منذ الخطوات الأولى من العهد المدني ؛ ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ، ويتخذون النبي مرجعهم الأعلى ، ومرشدهم الأعظم ، وقائدهم المطاع ، فاستشعروا حقا أو باطلا الخطر العظيم يحدق بمركزهم وامتيازاتهم ومصالحهم إذا هم أرادوا أن يستمسكوا بكيانهم الخاص ، ويظلوا على يهوديتهم ، ولا يندمجوا في الدعوة الإسلامية ، فكان هذا عاملا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والتآمر والصدّ والتعطيل إلى نهايتها .

الصّورة الرابعة

ولقد كان من المتوقع على تلهمه الآيات المكية والمدنية أن يجد النبي صلى الله عليه وسلم في اليهود سنداً وعضداً ، وأن يكونوا أول من يؤمن به ويصدقه ويلتف حوله ، لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ، ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ، وبأنه محتو حل المشاكل والخلافات التي يتعثر فيها اليهود ، وباستشهادهم خاصة والكتابيين عامة على صحة رسالته استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم ، وتقرير وحدة الحزبية بينهم ؛ ولما رآه من حسن استجابة الكتابيين وفيهم أناس من بني إسرائيل إلى دعوته ، واندماجهم فيها ووقوفهم منها موقف المصدق المؤيد على ما ذكرناه وأوردنا آياته الملهمة في فصل الكتابيين من العهد المكي ؛ فلما رأى منهم ما رآه من الانقباض أولا والتنكر والصد وكتم الحق وإلباسه بالباطل عن علم ثانياً ، تأثر تأثراً عميقاً من خيبة أمله فيهم ردّدته آيات القرآن على ما سوف نورده بعد .

الصورة الخامسة

وقوة الدور الذي قام به اليهود ، وشدة نكايته وبعد أثره ، تبدو من خلال الفصول والحلات القرآنية المدنية ؛ سواء أكان ذلك في مؤامراتهم مع المنافقين وتشجيعهم – حتى ليمكن أن يقال إنهم هم الذين أوجدوهم بما بثوا ونموا فيهم من الريب والشكوك ، وبما أيقظوا فيهم من روح التمرّد والكيد وغذوها ؛ وإن المنافقين لولاهم لما نموا وقووا وثبتوا وكان منهم ذلك الأذى البالغ والكيد الشديد – أو في تحالفهم مع القرشيين أعداء النبي والمسلمين الأشداء الأصليين ، وتألبهم معهم ومظاهرتهم لهم حربيا ، وتثبيتهم إياهم في كفرهم ؛ أو في اضطلاعهم بأذى النبي والمسلمين مباشرة ، وإقامة العثرات في طريقهم ، والكيد والمكر والدس لهم ، والجحود والحجاج والسخرية بهم ؛ فلم يكن ثمة بد للنبي صلى الله عليه وسلم من التنكيل بهم ذلك التنكيل الحازم الذي كان فيه نهايتهم والذي نستعرض صوره القرآنية بعد .

ومما يجدر أن ننوه به للدلالة على ما كان لموقف اليهود وعدائهم من تأثير سلبي في سير الدعوة وانتشارها ، وفي مركز النبي والمسلمين ، ومن تأثير إيجابي في قوة أعداء النبي والإسلام – أنهم لم يكادوا يتوارون عن مسرح المدينة نتيجة لذلك التنكيل حتى ضعف أولا أمر المنافقين وصار أمرهم إلى ما وصفتهم بعض آيات التوبة :

« وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » . . .

٥٦ – ٥٧

بعد أن بلغ من شعورهم بعزتهم وقوتهم وكثرتهم أن حرضوا الناس على النبي وصحبه وقالوا كما حكته آية فى سورة المنافقون : « لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ » وأن أقسموا ليخرجن الأعز الأذل من المدينة ، مستشعرين أنهم الأعز

كما حكته آية أخرى في السورة المذكورة : « يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ » . . .

وخفت ثانياً غلواء زعماء قريش ولم يعودوا يفكرون في قتال المسلمين وغزوهم وتزايد ثالثاً عدد المستجيبين للدعوة والمنضوين إلى لواء النبي صلى الله عليه وسلم تزايدا عظيما .

وبلغ الأمر رابعاً إلى أن يرى النبي أن لا بأس في الرحلة إلى مكة للزيارة ومعه جمع كبير من المسلمين ، وإلى أن يجنح زعماء قريش إلى مهادنته والسماح له بالزيارة في العام القابل ، وإلى أن يصبح النبي من القوة بحيث يغزو مكة بعشرة آلاف مقاتل ويفتحها ويوطد بذلك الوحدة الإسلامية العربية . كل هـذا لأن العدو الذي كان بين ظهراني المسلمين ، وكان شديد المكر والكيد قد زال من الطريق ، ولم يعد المنافقون يجدون من يشجعهم أو يزيد لهيبهم إذا خبا ، كما لم يعد العرب يجدون من يشككهم في الحق ويصدهم عن الهدى ، ولم يعد أهل مكة يجدون في يثرب الأعوان والعيون والطاعنين من الوراء طعن الغدر والخيانة .

الصورة السادسة

ومن العجيب المعجز أن يقرأ المرء اليوم آيات القرآن المدنية في أخلاق اليهود بوجه عام ، وعاداتهم ومكايدهم ودسائسهم وأنانيتهم ، وزهوهم وتبجحهم ، واستحلالهم لكل مافي أيدى الغير ، وضنهم بأي شيء مفيد للغير ، وعدم إخلاصهم في محبة أو موقف ولاء للغير ، وحسدهم لأي نعمة ينالها الغير ، وتدبيرهم لكل وسيلة مهما دنأت وفجرت وكان فيها كفر وفسق ، ونقضهم لمبادئ الدين والعهد في سبيل مكايدة الغير وتهديمه وسلب مانالة من نعمة وخير ، وتشجيعهم لكل حائد وحاسد ومنافق ودساس ومتآمر... الخ ماسنورده في مباحث هـذا الفصل مما قرر القرآن أنه جبلة فيهم يتوارثه الأبناء عن الآباء فاستحقوا عليه يمين الله :

«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...»(1)

الأعراف ١٦٧

وجازاهم عليه بتشريدهم في مشارق الأرض ومغاربها :

« وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا . . . » الأعراف ١٦٨

وتحقق ذلك القسم البار بما وصفه القرآن من واقع حالهم في عهد النبي وقبله :

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ . . . »

آل عمران ١١٢

... ثم ينظر المرء إليهم اليوم فيكاد يرى إجمالا صورة طبق الأصل : جبلة خاصة ، وترفع عن الاندماج الصادق مع من يعيشون معهم من الأمم وأهل الأوطان ، ودس ومكر وكيد ، وجحود وحجاج ولجاج ، وندب وعويل بدون مبرر ، ، وشرهٌ شديد إلى مافي أيدي الغير ، ومحاولة للاستيلاء على الكل ، والتأثير في الكل ، واللعب في وقت واحد على كل حبل وفوق كل مسرح ، والتوسل بكل وسيلة إلى الغاية التي يريدون ، وعداء لكل الناس وخداع لهم وسخرية منهم ، وتهديم لكل بنيان وكيان ، ونظام في كل مكان وزمان ، وتسخير لكل قوة في سبيل مأربهم وأنانيتهم وكيدهم وعدائهم ، وقسوة متناهية في أعدائهم حين يتمكنون منهم؛ هذا إلى استمرار مصداق آيتي الأعراف والنساء في كافة أنحاء الأرض التي تقطعوا فيها ، فلا تجدهم في أرض إلا والعين مزورّة منهم ، والسخط فائر عليهم ، والنفوس متبرمة بهم ، والناس مستثقلون ظلهم ، راغبون في التخلص بأية وسيلة منهم ، وجاعلون الحذر منهم أساس صلاتهم بهم ، بسبب تلك الأخلاق المتوارثة فيهم جيلا عن جيل ، والتي يلمسها الناس فيهم بكل شناعتها وسوآتها؛ وليس هذا اليوم فحسب ، فإنه لكذلك منذ عهد النبي وعلى امتداد القرون المتطاولة ومن

---

(١) هذه الآية من سلسلة آيات مدنية .

قبل الناس جميعاً ، بل من قبل عهد النبي على مادمغتهم به أسفار العهد القديم وحوادث التاريخ ، مما لايمكن تعليله إلا بتلك الجبلة الخاصة التي جلبت عليهم ما جلبت منذ أقدم الأزمنة إلى الآن ...

الصّورة السّابعة

هذا ؛ والفصول القرآنية المدنية في اليهود كثيرة ومتنوعة كما قلنا ؛ وقد رأينا أن نستعرضها في مجموعات موضوعية أو مباحث مستقلة كما يلي :

١ ـ موقفهم إزاء الدعوة بالذات .

٢ ـ مواقفهم الحجاجية .

٣ ـ دسائسهم بين المسلمين وتآمرهم مع المنافقين والمشركين .

٤ ـ وقائع التنكيل بهم وبواعثها ونتائجها .

٥ ـ الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين المعتدلين منهم ومغزاها .

المبحث الأول

مواقف اليهود إزاء الدعوة

صراحة الآيات عن عدم مقابلة اليهود للدعوة مقابلة حسنة ـ فصول سورة البقرة في تذكيرهم والتنديد بهم بسبب ذلك ـ دلالات أسلوب هذه الفصول ومضامينها ـ أسلوب آخر هادىء في القرآن المدني في دعوة أهل الكتاب إطلاقا .

الصورة الأولى

١ ـ إن آيات البقرة ٤٠ ـ ٤٤ التي نقلناها من قبل ، والتي هي أول مانزل بشأن اليهود ومن أوائل مانزل من القرآن المدني على الأرجح ـ صريحة الدلالة على أن اليهود لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة . ويلفت النظر خاصة إلى مافيها من نهي لهم عن أن يكونوا أول كافر بالقرآن ، وعن إلباس الحق بالباطل وكتم الحق وهم يعرفونه ، ثم إلى السؤال الاستنكاري عن أمرهم الناس بالبر وعدم سيرهم فيه ؛ ففي كل هذا دلالات على تلك المقابلة أولا ، ثم على بدوّ أمارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

٢ ـ ولقد تبع هذه الآيات سلسلة طويلة تضمنت تذكيرهم بما كان من نعمة الله السابقة على آبائهم ، ثم بما كان من عناد هؤلاء الآباء ومواقفهم المتمرّدة والحجاجية والتعجيزية من أنبياء الله وأوامره ووصاياه ، وما كان من نكال الله بهم الخ ؛ ثم تضمنت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن عدم ارعواء الأبناء وصلاحهم وتبديل الجبلة الخلقيـة التي ورثوها من أولئك الآباء الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ، والذين مالبثوا أن كفروا وارتدوا إلى عبادة العجل ، ثم انتقلت إلى اليهود المعاصرين ثانية تندّد بهم لما بدا منهم من نفاق وتحريف ، وكيد ودس ، وغرور وحسد وجحود وتناقض الخ . . . نقتطف منها الآيات التالية :

١ — يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ . وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِن بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . . .

٥٣ ـ ٤٧

٢ — وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . . . ٥٥

٣ — وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ . فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ...

٥٩ ـ ٥٨

٤ — وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ... ٦١

٥ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ

وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ . فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ... ٦٣ — ٦٦

٦ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْـَٰٔنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . . . ٦٧ — ٧٤

٧ — أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ

بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . .

٨٠ — ٧٥

٨ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ...

٨٥ — ٨٣

٩ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ . بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ

بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . .

٨٧ ـ ٩٣

١٠ — وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ . أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . . . ٩٩ ـ ١٠١

ونكتفي بهذه المقتطفات من فصول سورة البقرة في صدد موقف اليهود إزاء الدعوة بذاتها ، لأن فيها الدلالة الكافية على الموقف الجحودي الذي وقفوه من جهة ، ولأن مواقفهم الأخرى متفرعة عن هذا الموقف واستمرار له من جهة أخرى مع التنبيه إلى أن في غير هذه السورة آيات في صدد هذا الموقف فيها تنديد وتقريع لليهود أيضاً .

الصورة الثانية

ويلفت النظر في صدد هذه المقتطفات :

أولا : إلى أسلوبها ؛ فقد يكون فيها كثير مما جاء في القرآن المكي من قصص بني إسرائيل ، غير أنه جاء بأسلوب حملات تنديدية على اليهود ، في حين جاء هناك بأسلوب قصصي وحسب . ولاريب في أن هذا متصل بالموقف الذي وقفه اليهود المعاصرون في العهد المدني .

ثانياً : إلى شدة اللحمة التي تبدو في الآيات ، إذ تستهدف تقرير وحدة الجبلة والأخلاق

والأساليب بين اليهود على اختلاف أجيالهم ، وأن الأبناء قد توارثوها عن الآباء جيلا بعد جيل ؛ وإذ يشعر القارئ أن الحديث يدور عن جماعة واحدة متصلة العهد والسبب اتصالا وثيقا . وهذا واضح في كثرة الانتقال والالتفات في الآيات وتبادل الضمائر بين الغائب والمخاطب . ويتضح ذلك خاصة في الآيات ٦٧ ـ ٧٤ و ٧٥ ـ ٨٠ و ٨٣ ـ ٨٥ .

ثالثاً : إلى وصف موقف الجحود الذي تضمنته الآيات ٨٧ ـ ٩٣ خاصة ، إذ تقرر صراحة السبب الذي جعلهم يقفون موقفاً جحوديا مناقضاً لمواقفهم السابقة للبعثة التي كانوا يستفتحون بها على العرب ، فيجحدون شيئاً عرفوه حق المعرفة وبشروا به ؛ فاستحقوا من أجله هذه الحملات الشديدة ، واللعنات القاسية ؛ وهو البغي والحقد والحسد .

رابعاً : إلى ماتدل عليه الآيات دلالة كافية وخاصة الآيات ٧٥ ـ ٨٠ من أن موقفهم الجحودي من الدعوة منذ أوائل العهد المدني كان حاسماً ، بحيث لم يبق أي أمل في ارعوائهم فيه وتراجعهم عنه .ولقد كان هذا هو الواقع ، إذ ظلت كثرتهم الساحقة عليه ، وما كان من أحداث ومواقف متنوعة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين إنما تفرع عنه .

خامساً : إلى صيغة الآيات ، سواء في إطلاقها الكلام عن اليهود عامة أو في حكايتها لأقوالهم ومواقفهم ومكايداتهم وتاريخ آبائهم ؛ أو في ربطها بين الآباء والأبناء في ذلك ، إذ تلهم أن موقف الجحود كان موقف جميعهم بوجه الإجمال ، وهذا بارز كذلك في كل أو جل الفصول القرآنية المدنية التي تحكي مواقفهم المتنوعة الأخرى ؛ مع التنبيه إلى أن هناك آيات في مناسبات أخرى تضمنت استثناء لفئة قليلة منهم ، وسوف نعرض لها في مبحث خاص .

الصّورة الثالثة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطة مهمة ، وهي أن أسلوب الآيات التي نقلناها ، والذي هو أسلوب تنديدي ، ليس هو كل شيء في صدد دعوة اليهود إلى الدين الإسلامي ، فقد احتوى القرآن المدني كما احتوى المكي آيات تضمنت دعوتهم بأسلوب هادئ لاتنديد فيه ، وأن ذلك الأسلوب إنما كان كذلك لما كان من مقابلة اليهود السريعة للهجرة النبوية وانتشار الدعوة ، ودعوتهم إلى الانضواء إليها مقابلة غير حسنة .

وإليك بعض الآيات المدنية التي تضمنت دعوة أهل الكتاب ـ الذين يدخل اليهود فيهم بطبيعة الحال ـ دعوة هادئة على سبيل المثال :

١ — فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . . . آل عمران ٢٠

٢ — قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ... آل عمران ٦٤

٣ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... المائدة ١٥ ـ ١٦

٤ — يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... المائدة ١٩

ونلفت النظر خاصة إلى آيات المائدة ١٥ ـ ١٦ وبنوع خاص إلى الأولى منها ، إذ تضمنت إيذاناً بأن من الخطة التي سوف يسير عليها الرسول العفو عن كثير مما يمكن أن يكون صدر أو يصدر من المدعوين ؛ والتجاوز عن هفواتهم ، وتوسعة الصدر لهم ؛ وفي هذه الخطة ترغيب محبب لأهل الكتاب متسق مع الخطة القرآنية بصورة عامة ، ومع الخطة القرآنية المكية نحوهم بصورة خاصة ، كما أنها تتضمن نفي كل مايمكن أن يرد من قول مغرض عن نية مبيتة من النبي صلى الله عليه وسلم نحو أهل الكتاب أو فريق منهم .

المبحث الثاني

مواقف اليهود الحجاجية

حجاج اليهود حول إبراهيم وملته وزعمهم بأنهم على الهدى ـ الحجاج حول نبوة النبي بسبب عروبته ـ مواقف حجاج وتحد وسخرية من النبي حجاجهم حول جبريل ـ حجاجهم حول القبلة والكعبة ـ استطراد إلى بحث تبديل سمت الكعبة وظروفه وخطورته في الشخصية الإسلامية ـ غرور اليهود وتبجحاتهم المتصلة بمواقفهم الحجاجية .

الصورة الأولى

(١) من هذه المواقف ما كان حول إبراهيم صلى الله عليه وسلم وملته ، وفي صدد تبجحهم بأنهم على الهدى وأن ملتهم هي خير الملل ؛ ففي سورة البقرة الفصول التالية :

١ — وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ...

١١١ ـ ١١٣

٢ — وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ . يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ... ١٢٠ ـ ١٢٢

٣ — وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ . قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ... ١٣٠ ـ ١٤٠

الصورة الثانية

والآيات قد جاءت ـ على ما يدل عليه سياقها وبعض مضامينها ـ في معرض مواقف اليهود وحجاجهم ، وهذا ما يجعلنا نرجح أن إدماج النصارى في الآيتين (١١٠ و ١٣٥) منها إنما كان من قبيل التعميم أو الاستطراد ؛ ومهما يكن من أمر هذه النقطة فالآيات على كل حال تتضمن حكاية أقوال اليهود ومواقفهم والحجاج معهم .

ويبدو من روحها ومضامينها أن اليهود قابلوا الدعوة الإسلامية بقولهم إن الهدى إنما هو

في اليهودية ، واحتجوا على دعوى النبي صلى الله عليه وسلم بأنه على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم وإن دعوته إليها ، فقالوا إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم هو أبوهم وأبو الأنبياء، وإن أبناءه قد ساروا على ملته ، وإن اليهودية التي هي دين هؤلاء الأنبياء والأبناء هي ملته . فردت عليهم الآيات قائلة إن إبراهيم كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين ، وهذه هي ملته التي يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قررت العقيدة الإسلامية الواجبة على الجميع ومنهم اليهود ، وهي الإيمان بالله وبما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين صلوات الله عليهم جميعا بدون تفريق بين أحد منهم ، وإسلام النفس لله وحده ، ودعتهم إلى هذه العقيدة ، وطمأنت النبي صلى الله عليه وسلم في حال عدم استجابتهم ـ وهو المتوقع ـ مقررة أنهم في شقاق وخلاف ، وأن الله كافيه شرهم ومكرهم .

وقد نصت الآية (١١٣) خاصة من قبيل الإفحام ودحض الحجة التي يحتجون بها ، على أن شقاقهم ليس فيما بينهم فقط بل بين الكتابيين عامة ، إذ يقرر اليهود أنهم وحدهم على الحق وأن النصارى ليسوا على شيء منه ، ويقرر النصارى هذا عن اليهود ، في حين أن الفريقين يتلون الكتاب (التوراة على الغالب لأنها مشتركة بينهما) ويؤمنون به ؛ وهكذا يشهد كل فريق على ضلال الفريق الثاني ؛ فتصدق الشهادة على الفريقين وتدمغهم حجة القرآن ودعوته ، ويصبح لزاماً عليهم اتباع العقيدة التي قررها والتي بها وحدها يتحد الجميع في الطريق القويم ويتخلص اليهود والنصارى من شقاقهم ومشاكلهم .

الصّورة الثالثة

هذا ؛ ولعله أريد بتقرير أن إبراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين جواباً على قولهم « كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » الإشارة إلى عقيدة النصارى ببنوة عيسى وألوهيته ، وإشراكهم إياه مع الله في الربوبية والعبادة ، وإلى ما كان من عبادة اليهود العجل ، ثم إلى عقيدتهم في بنوة العزير لله التي أشارت إليها إحدى آيات التوبة هذه :

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ... » ٣٠

وهي عقيدة لابد أن يكون اليهود المعاصرون في المدينة أو فريق منهم على الأقل يدينون بها ؛ ولعله أريد بها كذلك الإشارة إلى اتخاذهم وأحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله كما نددت بذلك آية التوبة التالية لهذه الآية وهي :

« ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ . . . » ٣١

والإشارة إلى ما تلهمه بعض آيات سورة آل عمران وهي هذه :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ... »(١) ٧٩ — ٨٠

فثمة دلالة على أن الكتابيين أو بعضهم كان يتخذ الملائكة والأنبياء أرباباً ، أو يستشفع بهم مع الاعتقاد بتأثيرهم ، مما هو من جملة الشرك .

الصورة الرابعة

(٢) وقد جاء في سورة آل عمران في صدد الحجاج حول إبراهيم وملته الفصل التالي :

« يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ

(١) قال بعض المفسرين والرواة : إن الآيات نزلت بمناسبة سؤال اليهود للنبي عما إذا كان يريد منهم أن يسجدوا له . والآيات وسياقها تجعل ما استلهمناه أوجه وتلهم أن الآيات بسبيل التنديد باليهود .

إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ... » ٦٥ ـ ٦٨

وفي الآيات شيء مما تضمنته آيات البقرة ، وتلهم وقوع حجاج مماثل لما استلهمناه من تلك الآيات مرة أخرى بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود ، فنزلت معقبة مندِّدة وموضحة دامغة الحجة ؛ وقد جاءت عقب سلسلة أشير فيها إلى مشهد حجاجي بين النبي وبعض النصارى حول ماهية المسيح ، غير أن الآيات التي تلتها احتوت حكاية موقف كيد ودس لليهود ، مما يسوغ أن القول بأن الخطاب الموجه فيها إلى « أهل الكتاب » قد قصد به اليهود . ومهما يكن من أمر هذه النقطة فإن اليهود داخلون في هذا التعبير على كل حال .

وفي الآيات حجة جديدة ، وهي أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم إنما عاش قبل التوراة ، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد التوراة ، وأن ملة إبراهيم والحالة هذه لا يمكن أن تكون اليهودية ، وأن دعوى اليهود ذلك باطلة من أساسها ؛ وأن أبوة إبراهيم لليهود ليس من شأنها أن تجعلهم على ملته ، وأن تدعم أولويتهم به ؛ فأولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته حقا ، والنبي صلى الله عليه وسلم الذي اتبعها ، ويدعو إليها بصراحة لا التواء فيها ، والذين تابعوه في دعوته من المؤمنين . وهكذا يكون القرآن قد دمغ اليهود في موقفهم الحجاجي الثاني أيضا ، وزيف دعوى أولويتهم به بسبب أبوته لهم وحسب ، وجعل هذه الأولوية للنبي صلى الله عليه وسلم ومن تابعه من المسلمين . ومما لا شك فيه أن الحجاج استؤنف وأن النبي صلى الله عليه وسلم واجههم بهذه الحجة القرآنية في مشهد مواجه .

الصورة الخامسة

(٣) ومن هذه المواقف ما كان حول نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بسبب عروبته. فقد جاء في سورة الجمعة الآيات التالية :

« هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... » ٢ ـ ٦

ويستلهم من روح الآيات أن اليهود ادعوا أن الله قد اختص بالنبوة بني إسرائيل دون سائر الأجناس ، وأنكروا نبوة النبي لأنه ليس من بني إسرائيل ؛ فردت الآيات عليهم مثبتة أولا نبوة النبي الأمي العربي ، ومقررة ثانيا أنه لاحرج على فضل الله ، وأنه مطلق الإرادة يختص بفضله من يشاء ؛ وهاجمت ثالثاً اليهود لأنهم مكابرون في موقفهم ، يعرفون الحق ويكتمونه ، وأن مثلهم في موقفهم كمثل الحمار الذي لاينتفع بما يحمله من أسفار العلم ؛ ومما لاشك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم واجه اليهود بهذه الآيات في مشهد استؤنف فيه الحجاج مواجهة .

ولقد سجل القرآن المكي موقفين فيهما اعتراف بعض اليهود بمطابقة صفات النبي صلى الله عليه وسلم لما هو مكتوب عندهم في التوراة واتباعهم له وإيمانهم به في آية سورة الأعراف (١٥٧) وآية سورة الأحقاف (١٠) على ماشرحناه وفي الجزء الأول فاستحكمت بذلك الحجة القرآنية عليهم .

الصّورة السّادسة

(٤) ومنها مواقف حجاج وتحد وسخرية نحو شخص النبي ونبوته :

١ ـ فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . . . »

١٨٠ ـ ١٨٣

والآيات لاتحتوى دلالة صريحة على أنها في حق اليهود ؛ ولكن في الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قرينة حاسمة على أنها في حقهم .

وقد ذكر المفسرون والرواة في صدد القسم الأول من الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استعان باليهود ماليا في ظرف من الظروف ـ تمشياً مع عادة الحلف العربي وتبعاته ـ بواسطة أبي بكر رضى الله عنه ، فذهب إلى محلتهم فردوه رداً قبيحاً ، كما رووا أن أبا بكر ذهب ليدعوهم إلى الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإقراض الله قرضاً حسناً ، فقابلوا الدعوة بالجحود ، والجملة الأخيرة بالسخرية ، وقالوا إذا كان الله يستقرضنا فهو إذن فقير ونحن أغنياء ؛ ولم يرو في صدد القسم الثاني مناسبة خاصة فيما اطلعنا عليه . ولعل ماحكى عنهم فيه قد صدر منهم في الظرف نفسه الذي صدر عنهم فيه ماحكاه القسم الأول ، جواباً على دعوتهم إلى الإسلام . والآية الأخيرة تلهم أن هذا الموقف قد كان

بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة فيما يتبادر لنا .

ومهما يكن من أمر فالآيات صريحة بأنها قد تضمنت حكاية موقف يهودي بذيء ساخر في حق الله ، وموقف تحد وتعجيز وحجاج من النبي صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ . وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيراً . مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ... »
٤٤ ـ ٤٦

وقد تضمنت صورة موقف ساخر لليهود من النبي فكانوا يلوون ألسنتهم بكلمة « راعنا » حتى تؤدي إلى نعت النبي بالرعونة ، ويجهرون بعصيانه فيما يأمر ويدعو ، فيستعملون كلمة « عصينا » بعد « سمعنا » استخفافاً به بدلا من الجملة العربية المعتادة « سمعنا وأطعنا » أو « سمعاً وطاعة » ، ويدعون عليه بالسوء فيقولون اسمع لا سمعت ، أو اسمع غير مستجاب ، ويقصدون في كل ذلك الانتقاص من الدعوة النبوية والشخصية النبوية والطعن فيهما . ومما يروى أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه انتبه إلى خبثهم في ليهم كلمة « راعنا » فقال لهم : يا أعداء الله عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنّ عنقه ...

وقد يبدو من هذا أن اليهود بعد أن كانوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقفون موقف الجحود دون أن يخرجوا ـ ولو في مواجهته على الأقل ـ عن حدود الأدب ، رأوا في أنفسهم القوة فتجاوزوا هذا النطاق إلى الهجوم وبدأوه بالسخرية والبذاءة ؛

ولعل هذا كان منهم في ظرف أزمة من الأزمات مرت بالنبي والمسلمين كواقعة « أحد » فاغتنمها اليهود فرصة لإظهار ما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد.

٣ ـ وقد جاء في سورة النساء أيضاً الآيات التالية :

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا . وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا . فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا . فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا . وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا . إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ

قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا . إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا . . . » ١٥٣ ــ ١٦٧

والآية الأولى تضمنت حكاية موقف تحد يهودي للنبي إزاء دعوتهم إلى التصديق بنبوته ؛ ومن المتبادر أن هذا التحدي قد كان في مشهد دعوة وحجاج مواجه ؛ أما الآيات الأخرى فقد جاءت تعقيباً على هذا الموقف ، واحتوت ربط موقفهم هذا بموقف آبائهم ، وحملت عليهم حملة شديدة بسبب تحديهم لموسى عليه السلام وانحرافاتهم عن مبادىء دينهم وعقيدة التوحيد ، وافتراءاتهم على مريم والمسيح ؛ وقد استهدفت الآية التي ذكرت إيمان الراسخين في العلم منهم ، دمغهم بحجة قاطعة كما هو المتبادر ، كما استهدفت الآيتان التي تلتها بتقرير أن وحي الله بالقرآن لنبيه كوحيه للأنبياء الذين يؤمن بهم اليهود ــ بيان تناقضهم في تحديهم وتعجيزاتهم ؛ ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أسمعهم هذا الفصل التعقيبي القوي في مشهد مواجه وأفحمهم بالحجة القرآنية الدامغة ، والتقريع القرآني اللاذع .

٤ ــ وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . . . »

٤١ ـ ٤٣

وقد روى جمهور المفسرين والرواة أنها نزلت في حادث زنا اقترفه يهودي فطلب اليهود قضاء النبي فيها آملين أن يقضي بغير الرجم الذي هو قصاص ذلك في شريعتهم ؛ كما أن بعضهم روى أنها نزلت في حادث دم ؛ وهذه الرواية أكثر اتساقا مع سياق الآيات التي أتت بعدها ، لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء .

ومهما يكن من أمر ففي الآيات صورة صريحة لموقف حجاج وتعجيز وتهويش وقفه اليهود من النبي يطلبون التقاضي عنده ؛ ويبدو منها أن المنافقين اندمجوا في هذا الموقف وأنه كان له أثر أليم في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لما بدا منهم من تمحل وتضليل وكذب وتحريف .

ومن قبيل الاستطراد نلفت النظر إلى ما احتوته الآيات من جعل الخيرة لليهود في التقاضي لدى النبي وعدمه ، وفي إيجاب القضاء بالقسط إذا ما تقاضوا لديه ، إذ حفظت لهم حريتهم القضائية وأقرت لهم القضاء بأحكام التوراة ؛ ولقد نوهت الآيات التالية لها بما في التوراة من نور وهدى توكيداً لهذا الإقرار ؛ ففي هذا شاهد على ما جنح إليه الإسلام من احترام حرية اليهود القضائية واحترام أحكام التوراة القضائية وإقرارهم عليها مع التوصية بالقسط إذا ماأرادوا التقاضي لديه ورأى أن يقضي بينهم دون أن يكون لمواقفهم الجحودية أي تأثير في ذلك .

٥ — وقد جاء في سورة المائدة الآية الآتية :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا

ٱللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ... » ٦٤

وقد روي في نزولها أن النبي صلى الله عليه وسلم استعان بعض اليهود على بعض الديات تمشياً مع عصبية الحلف فشكوا له ضيق الرزق ، وقالوا إن يد الله مغلولة عنهم فيه .

وعلى كل حال ففي الآية صورة لموقف محاجة يهودي أساء اليهود فيه أدبهم في حق الله؛ وقد سبق منهم موقف مماثل حكته آيات آل عمران ١٨٠ ـ ١٨٤ على ما شرحناه قبل ؛ مع فارق واحد هو أنهم في ذلك الموقف كانوا يزهون بغناهم ، في حين أنهم في هذا الموقف كانوا يشكون إذ بدل الله حالهم بالعسر بعد اليسر وبالضيق والفقر بعد السعة والغنى !

ويبدو من مضمون الآية أن هذا الموقف الذي وقفوه كان منبعثا مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ في قدم النبي وانتشار دعوته ؛ ولعل مما يصح أن يضاف إلى هذا احتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد والجحود التي ما فتئوا يقفونها ، واستجابة لأمر القرآن ونهيه وتحذيره ، فأثر ذلك في حالتهم الاقتصادية تأثيراً سيئاً زاد غيظهم وسخطهم وتبرمهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حق الله ومن رد غير جميل لرسوله . ولقد جاء بعد هذه الآية آيتان في ثانيتهما قرينة على صحة ما ضمناه وهما هاتان :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ . . . »

٦٥ ـ ٦٦

إذ يلمح فيهما أنهم في حالة ضيق ، وأن سبب هذا هو ما كان من موقفهم الجحودي. وواضح أن في هذا فوق الصورة التي نبهنا عليها مشهداً من مشاهد الحال التي صار إليها

اليهود ؛ وننبه إلى أن الآيات وسياقها في حق اليهود ،وأنها تحتوي مشاهد وأقوالا واقعية لهم ، ولو أن الآيتين الأخيرتين جاءتا مطلقتين وشملتا أصحاب الإنجيل أيضاً ، ونرجح أن ذلك من قبيل التعميم والاستطراد :

٦ ـ وقد جاء في سورة البقرة الآيتان التاليتان :

« قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . مَن كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ... » ٩٧ ـ ٩٨

وليس لليهود ذكر في الآيتين ؛ غير أنهما جاءتا في سلسلة في حق اليهود متصلة بهما من قبل ومن بعد ، كما أن روايات الرواة والمفسرين تذكر أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض اليهود حول جبريل عليه السلام ، إذ سألوه عمن ينزل عليه بالوحي ، فلما قال لهم إنه جبريل قالوا هذا عدونا ، وذكرت كذلك أنهما نزلتا بمناسبة حوار وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنها وبعض اليهود قالوا فيه إن جبريل وميكال عدوان لليهود .

ومهما يكن من أمر ففي الآيتين موقف من مواقف اليهود التمحلية والجحودية متصل بوحي الله وملائكته ، وصلتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر .

الصورة السابعة

(٥) ومنها مواقفهم الحجاجية حول القبلة والكعبة والحج . فقد جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن

كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ . وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ . فَٱذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ... » ١٤٢ ـ ١٥٢

ولقد قال جمهور المفسرين والرواة : إن المقصود من السفهاء هم اليهود ؛ وفي الآيات قرينة على ذلك في ذكر أهل الكتاب وكتمانهم الحق مع علمهم به ، مما وصف به اليهود أكثر من مرة في القرآن ، هذا إلى أن الآيات مسبوقة بسلسلة طويلة في حق اليهود . وهكذا تكون الآيات قد تضمنت فيما تضمنته صورة لموقف من مواقف اليهود

الحجاجية والكيدية في ظروف تبديل سمت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الحرام .

وروح الآيات تلهم أنه كان لهذا التبديل وقع شديدعلى اليهود ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة يتجه في صلاته ـ على ما جاء في الروايات ـ إلى الكعبة ، ثم اتجه إلى المسجد الأقصى عزوفاً عما كان فيها من أصنام ، وتفادياً من اشتراكه في الاتجاه إليها مع المشركين ، أو لعله فعل هذا عند هجرته من مكة من أجل هذين السببين من جهة ، وتأثرا من موقف أهل مكة الجحودي والمؤذي الذي اضطره إلى مفارقة مكة من جهة ، وتألفاً لليهود وتسهيلا لإجابتهم لدعوته من جهة ثالثة ، وقد عددنا العلل لأننا لم نطلع على تعليل قديم وثيق، ولا على توقيت وثيق لاتجاهه إلى المسجد الأقصى ؛ ولكن اليهود وقفوا منه موقف الإنكار والجحود والدس من جهة ، وأخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم إلى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى ، وبأن النبي والمسلمين إنما يقتبسون الهدى منهم ، وبأنهم أولى أن يتبعوهم ويندمجوا فيهم لا العكس ؛ فحزّ هذا في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وانبثقت فيها أمنية التحول عن سمت المسجد الأقصى ، لا سيا وقد ظهر من اليهود ما أيأسه منهم .

ونص مطلع الآية (١٤٤) بنوع خاص « قد نرى تقلب وجهك في السماء » قرينة قوية على ما اعتلج في نفس النبي من أزمة بسبب الاتجاه نحو المسجد الأقصى وزهو اليهود وموقفهم من ذلك ، وعلى ماقام فيها من رغبة في التحول عنها ؛ وجملة « فلنولينك قبلة ترضاها » في الآية المذكورة يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صار يائساً أو كاليائس من اليهود وثارت في نفسه تلك الأزمة وقامت فيها هذه الرغبة ، تراءى له أن اتجاهه إلى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته ، وأن عودته إلى قبلته الأولى مما يؤلف قلوب العرب ، كما أن ذلك هو الأولى ، لأنها بيت الله العربي القديم الذي يعرفه العرب ويرتبطون به ، والذي هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعاً في حجه ، فكان يتمنى أن يتحول إليها في صلاته وتكون قبلته ثانية ؛ ولعله كان يسمع تألما

أو انتقاداً أو يرى حيرة من العرب مسلمين وغير مسلمين من الاتجاه إلى المسجد الأقصى وإهمال الكعبة وهي بيت الله العربي المقدس منذ قديم الأحقاب ، فكان هذا مما قوى ما في نفسه من الرغبة والأمنية[١]

ولعل جملة « لئلا يكون للناس عليكم حجة » تتضمن قرينة على هذا .

ولقد رأى اليهود في هذا التحول ضربة شديدة توجه إلى مكانتهم الدينية ووسيلتهم إلى الزهو على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فنشطوا على ما تلهمه الآيات إلى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين ، فقالوا إذا كان سمت المسجد الأقصى غير حق فقد أضاع النبي عبادة الذين صلوا إليه ، وإذا كان حقا فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة إلى الكعبة ضائعة ؛ وقالوا إن أفعال النبي لو كانت مستندة إلى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله بالأمس ، ولما قال اليوم قولا ثم نقضه في الغد ، لاسيا في الأمور التعبدية[٢] .

ويبدو من روح الآيات ومضامينها أن هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد أثرت بعض الأثر في بعض المسلمين ، فاحتوت الآيات أسباب طمأنينة متنوعة لهم ، وحملة على اليهود ، وتثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه به ، مثل تقرير أن المسألة ليست في الشرق والغرب[٣] ، وإنما هي في الاتجاه الخالص إلى الله ، وأن تبديل القبلة الأولى بالثانية هو اختبار رباني لقوة إيمان المسلمين واتباعهم الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأن من نعمة الله عليهم أن بعث فيهم رسولا منهم ، يعلمهم ويزكيهم ، فحق عليهم شكره وذكره ، والثبات على ما فرضه ، وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع

---

(١) روى المفسر الطبرسي في سياق تفسير الآيات عن الحسن وأبي العالية وعكرمة من التابعين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر الدعاء والابتهال بأن يوجهه الله إلى الكعبة فاستجاب الله دعاءه . وروى البخاري والترمذي عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله الآيات (قد نرى تقلب وجهك في السماء . . . الخ) .

(٢) هذا الدس اليهودي تتضمنه آيات سابقة لهذه السلسلة سنعرضها بعد .

(٣) هذا التقرير في آيات أخرى سابقة سنعرضها بعد .

مايأمر به ، وكون الله لايمكن أن يضيع إيمانهم وصلاتهم فعليهم أن يطمئنوا ، ولا يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون أن ماوقع حق وإن كتموه، وأن يستيقنوا أن انتقادهم سفه فلا يعبأ به ، وأنه لاأمل في اتباعهم دعوة النبي وقبلته ، فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم وأهواءهم .

وهذه السلسلة مسبوقة بسلسلة أخرى نعتقد أن لها صلة بالموقف وأنها نزلت هي أيضاً في مناسبة نقتطف منها مايلي :

١ — مَّايَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَانَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَالَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . . .

١٠٥ ـ ١٠٩

٢ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ...

١١٤ ـ ١١٥

٣ — وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ . وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا

وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . .

١٢٤ ــ ١٣١

ولقد روي في صدد الآية ١٠٦ أن اليهود كانوا يغمزون النبي ويثيرون الشك في المسلمين بقولهم إنه يأمر بالشيء ثم ينهى عنه ، وإن هذا ليس شأن الأنبياء ، ويلقنونهم طلب البراهين منه على نبوته بسبيل ذلك ؛ فاحتوت الآيات طمأنة للمسلمين ، فالله إذا نسخ أمراً فلحكمة رآها ،ولعل الناسخ يأتي خيراً من المنسوخ ، وأن الكتابيين ــ والمقصود هنا اليهود للقرينة القائمة ــ لايريدون لهم أي خير كالمشركين ، وأن كثيراً منهم يودون أن يرتدوا كفاراً حسدا وحقدا ، وأنه لاينبغي للمسلمين أن يقفوا من النبي موقف اليهود من موسى : يحاجونه ويرادونه ويسألونه البراهين ، فإن مغبة هذا تبدل إيمانهم بالكفر . والذي يتبادر لنا أن اليهود قد غمزوا النبي صلى الله عليه وسلم بما غمزوه من النسخ بمناسبة تبديل القبلة قصد الدس والتشكيك ، فاحتوت الآيات مااحتوته من الطمأنة والتحذير .

وفي الآيتين ١١٤ ــ ١١٥ مايمكن أن يكون قرينة على هذا التوجيه ، إذ احتوت

الأولى تنديدا بمن يعطل مساجد الله ويسعى في خرابها ، والثانية إعلاناً بأن المشرق لله والمغرب لله ، وأن الله موجود أينما يولي المسلمون وجوههم ؛ والأولى تلهم أنها تنديد باليهود ، لأنهم دسوا وشككوا في ظروف تبديل القبلة ، وفي هذا سعي لخراب بيت الله وإهماله ، وينطوي في الثانية معنى سعة أفق الدعوة الإسلامية ، واهتمامها بالجوهر دون العرض ، تلقيناً للمسلمين حتى لا يعبأوا بما يبثه اليهود فيهم .

أما السلسلة الثالثة (١٢٤ ـ ١٣٠) ففيها توكيد :

(١) لقدسية الكعبة ، وتقرير أنها بيت الله ومعبده المطهر ، ومثابة للناس منذ طويل الأحقاب . و (٢) لصلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بها وبأمن منطقتها ومناسك حجها. و (٣) لصلة العرب بإبراهيم وإسماعيل بالبنوة ، وتوكيد أن بعثة نبي منهم فيهم هي أمنية من أمانيهما ، ودعوة من دعواتهما لإنقاذ العرب وتطهيرهم وإرشادهم . و (٤) لأساس ومفهوم ملة إبراهيم عليه السلام وهي إسلام النفس لله وحده ، وأن المنحرف عن ذلك ضال خاسر نفسه .

والذي يستلهم من روحها ومضامينها ومن ورود الآيات المنددة باليهود بسبب موقف الدس الذي وقفوه في ظرف تبديل القبلة بعدها بقليل ، وهي الآيات ١٤٢ ـ ١٥٣ أن هذه الآيات هي من جهة مقدمة للآيات التي تليها مباشرة والتي احتوت الرد على اليهود في أمر ملة إبراهيم ومجادلتهم وهي ١٣١ ـ ١٣٤ التي نقلناها في فقرة سابقة ، ومن جهة ثانية مقدمة أيضاً للآيات ١٤٢ ـ ١٥٣ التي احتوت الرد عليهم في نقدهم تبديل القبلة ؛ فوق ما احتوته من تدعيم لصحة النبوة المحمدية وأهدافها إزاء أهل الكتاب معاً . ولعل مما يتصل بالموضوع الذي نحن في صدده استهدافها في تقرير صلة إبراهيم وإسماعيل بالكعبة واتصال فضلها وطهارتها ـ تقرير سبقها في القدم والوجود للمسجد الأقصى ، وأولويتها عليه في الاتجاه والتعظيم ، وبالتالي تقرير أن الناسخ وهو الكعبة جاء خيراً من المنسوخ وهو المسجد الأقصى .

ونبه إلى ما يمكن أن تلهمه فقرة « وإن الذين أوتوا الـكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم » في الآية ١١٤ من اعتراف اليهود في موقف ما قبل البعثة أو بعدها بفضل الـكعبة وصلتها بإبراهيم عليه السـلام وسبقها المسجد الأقصى ، إذ جبهتهم الحجة القرآنية بما كان من اعترافهم بذلك ثم إنـكارهم له وسعيهم ضده بالدس والتشكيك ؛ وإذ أريد في آيات من السلسلة تقوية للحجة الدامغة عليهم ، تقرير واقع موقفهم وبواعثه ، وهو الغرض والهوى والحقد والمماراة . ولقد كانت هذه الفصول القرآنية تتلى جهرة ، ولا بد أن يكون اليهود قد سمعوها أو وجهت إليهم في مشهد من المشاهد ، كما سمعها العرب على اختلاف سرائرهم ، وقد احتوت هذه التقريرات القوية الصريحة عن فضل الـكعبة وقدمها وصلتها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وصلة العرب بهما ، ومعرفة اليهود أن هذا حق ، والتنديد بهم لـكتمهم إياه ومماراتهم فيه ؛ وكل هذا لا يبقي أيّ محل للمماراة فيما استلهمنا من أن اليهود كانوا اعترفوا للعرب في موقف من المواقف بذلك كله .

ومع كل ذلك يظهر أن اليهود لم يقبلوا الهزيمـة ، فقد جاء في سورة آل عمران الآيات التالية :

« كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ . فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن

سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ . » ٩٣ ـ ١٠٠

وقد روى الرواة والمفسرون في صدد القسم الأول من الآيات أنه نزل في سياق موقف حجاجي بين النبي واليهود حول تحليل النبي صلى الله عليه وسلم لحوم الإبل وألبانها ؛ إذ انتقدوا ذلك لمخالفته للتوراة وملة إبراهيم ؛ ورووا في صدد القسم الثاني أنه نزل في سياق موقف حجاجي آخر بينه وبينهم أيضاً ادعى اليهود فيه أفضلية معبدهم وأفضلية الاتجاه إليه على الكعبة ؛ وكل رواية متسقة مع مضمون القسم الخاص بها من الآيات ؛ غير أنه يتبادر لنا أن الآيات نزلت دفعة واحدة في سياق موقف حجاجي واحد اتصل الموضوعان فيه بعضهما ببعض ، إذ أنكر اليهود ما قررته آيات البقرة من صلة الكعبة وحجها بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وقالوا إن التوراة لا تذكر شيئا من ذلك ، فردّت عليهم الآيات بأن التوراة لا تذكر أشياء كثيرة مما كان قبلها ، وضربت مثلا لهم بالمحرمات من الأطعمة التي ذكرتها التوراة مع أن كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل قبلها ، وتحدتهم بتلاوة التوراة وإثبات عكس ذلك .

ومهما يكن من أمر هذا التوجيه فإن القسم الثاني متصل بموقف حجاجي لليهود في شأن الكعبة وفضلها ؛ وقد احتوى تثبيتاً لما قررته آيات البقرة من صلة إبراهيم عليه السلام بها ، وقدمها على كل بيت عبادة آخر ، وبالتالي على المسجد الأقصى ، وإن من علائم فضلها أن كل من دخلها أمن ، وأن الله قد فرض حجها على كل من استطاع إلى ذلك سبيلا من الناس ، وأن فيها مقام إبراهيم ذا العلامات الواضحة المعروفة ؛ ثم حمل على اليهود حملة قوية ، وحذر المسلمين منهم ؛ فالله غني عن الكافرين وإن اليهود ليكفرون بآيات الله ويصدون من آمن عنها ، وعلى المسلمين أن يحذروهم فإنهم إذا أصغوا إليهم ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان . وفي الفقرة الأخيرة من الآية (١٠٩)

نقطة خطيرة المغزى نريد أن ننبه إليها ؛ فقد أمرت المسلمين بالعفو والصفح إزاء ما يبدو من اليهود من مواقف الدس والكيد والأذى والتشكيك والحسد ومحاولة رد المسلمين إلى الكفر . . . إلخ ، إلى أن يأتي الله بأمره ؛ مما يلهم أن الغضب استفز فريقاً من المسلمين عليهم فاقترح التنكيل بهم ، فاقتضت الحكمة تهدئته وتسكينه إلى وقت تكون الحجة عليهم أشد قوة وتبديل الموقف معهم أكثر تبريراً .

الصورة الثامنة

هذا ؛ وقد رأينا المناسبة سانحة للتنبيه إلى بعض الأمور في صدد تبديل سمت القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة في العهد المدني ؛ فقد أكسب الدعوة الإسلامية شخصية مستقلة بعد أن كان في شخصيتها شيء من التموج أو التمازج في أفق ومدار شخصية أهل الكتاب وقبلتهم ، وقد خلد قدسية الكعبة ومركزيتها ، إذ لم تلبث أن صارت متجه العرب في حياتهم الدينية الجديدة في جميع أنحاء الجزيرة ، أشد وأقوى وألزم مما كانت لهم قبل هذه الحياة أولا ، ومتجه المسلمين في جميع أنحاء العالم ، وناظماً لوحدتهم الروحية ثانياً ؛ وقد كان كذلك عنواناً على الإبقاء على مناسك الحج والكعبة ، إذ صارت ركنا مفروضا من أركان الإسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها .

وهناك نقطة تستحق التوقف من ناحية ظروف حادث تبديل القبلة : فالآيتان ١٤٢ ـ ١٤٣ تقدمتا على الآيات التالية لها في السلسلة ١٤٢ ـ ١٥٣ والتي فيها صراحة تبديل القبلة . والسؤال الذي يخطر بالبال هو هل نزلت هذه السلسلة جميعها معا ، أو أن الآيات ١٤٤ وما بعدها نزلت على حدة ونزلت الآيتان الأوليان على حدة ، وأي المجموعتين نزلت قبل الأخرى ؟ فإذا كانت السلسلة نزلت جميعها معا فمعناه أن حادث التبديل كان بدءا بإلهام رباني غير قرآني ، وأن السلسلة وما قبلها إنما نزلت للردّ على انتقاد اليهود ، وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم على ما ألهمه من التحوّل ، وتبريره

وطمأنة قلوب المسلمين . ولعل حكاية تساؤل اليهود بصيغة « ماولاهم » قرينة على هذا . وفي القرآن شواهد عدة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلهم العمل ثم ينزل القرآن بتثبيته وتبريره ومن الأمثلة على ذلك غزوة بدر ، وعزيمة زيارة الكعبة التي انتهت بصلح الحديبية ، فقد نزلت سورتا الأنفال والفتح فيهما بعد وقوعهما ، وفيهما تثبيت لما فعل النبي ، كما في الأنفال وعتاب بشأن الأسرى لأن ما فعله كان خلاف الأولى الذي في علم الله . أما إذا كان التبديل قد وقع بأمر قرآني ، وبعبارة أخرى : بالآية ١٤٥ وما بعدها فالمتبادر أن تكون هذه الآية هي التي نزلت أولا ثم وقف اليهود موقفهم فنزلت الآيتان ١٤٢ ـ ١٤٤ ثم بقية السلسلة وما قبلها من فصول متصلة بالموقف على ما ذكرنا قبل ؛ ونحن نميل إلى ترجيح الفرض الأول ، لأن الآية ١٤٥ نفسها قد احتوت ردا على أهل الكتاب ، وبيانا لواقع موقفهم وباعثه .

أما تاريخ الحادث فقد كان ـ فيما يروى ـ بعد ستة عشر شهرا من الهجرة النبوية ، في أثناء صلاة ظهر يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا حيث صلى النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين إلى المسجد الأقصى ثم تحوّل إلى الكعبة[1] ، وبقطع النظر عن التعيين الحاسم في الرواية فإن من المحتمل جدا أن تكون آيات القبلة من الفصول المبكرة في النزول تبعا لتبكير اليهود في موقفهم الجحودي ؛ وقد يكون في هذا ما يدعم صحة التاريخ المروي أو مقاربته للصحة .

الصّورة التاسعة

ومما يصح أن يلحق بهذا المبحث ما حكته آيات عدة عن غرور اليهود وتبجحهم

---

(١) روى البخاري والترمذي عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله آيات القبلة فوجه نحو الكعبة فصلى رجل معه العصر ثم مر على قوم من الأنصار وهم ركوع في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال لهم إنه يشهد أنه صلى مع رسول الله وأنه وجه إلى الكعبة فانحرفوا نحوها وهم ركوع . انظر أيضاً تفسير الآيات في تفسير الطبري والخازن وابن كثير .

الذين كانا يبدوان منهم حينما كانت توجه إليهم الدعوة أو يحدث بينهم وبين النبي والمسلمين حجاج وجدل ، إذ ورد في القرآن غير ما مر نقله مما اتصل بالأبحاث السابقة آيات عدة أخرى .

١ ـ ففي سورة البقرة الآيات التالية :

« فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ . وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . . »

٧٩ ـ ٨٠

وقد تضمنت (١) حكاية موقف تدليس لهم على العرب بما كانوا يظهرونه من تعاليم ، وينسبون ما يقولونه ويكتبونه إلى الله افتراء عليه ، لاستبقاء ما لهم عندهم من ثقة ومكانة . و (٢) حكاية موقف تبجح إزاء ما كانوا يسمعونه من الإنذار القرآني فيقولون: إن المذنب منهم لن تمسه النار إلا أياماً معدودة ثم يناله عفو الله لما لهم من حظوة خاصة عنده . والمتبادر أن هذا الموقف خاصة هو من باب المواقف الحجاجية فوق ما فيه من تبجح زائف .

٢ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . . »

٩١

وقد تضمنت حكاية موقف غرور واستخفاف لهم؛ إذ كانوا يقولون إن ما عندهم كاف لهم ولا حاجة لهم بغيره حينما كانوا يدعون إلى الإيمان بالقرآن والنبوة المحمدية ،

والفقرة الثانية من الآية تلهم أن هذا القول منهم كان في مشهد حجاج ودعوة مواجه كما هو المتبادر .

٣ ـ وفي السورة نفسها أيضا الآيات التالية :

« قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ... » ٩٤ ـ ٩٥

والمتبادر أن تحدي اليهود في الآية الأولى قد كان جواباً على موقف حجاج وتبجح قالوا فيه إنهم وحدهم على الهدى ، وإنهم من أجل ذلك هم وحدهم أصحاب الحظوة عند الله في الآخرة . ولقد جاء في سورة الجمعة تحد مقارب لهذا التحدي ردا على تبجحهم بأنهم أولياء لله من دون الناس ، كما ترى فيما يلي :

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ... » ٦ ـ ٧

مما يدل على أن هذا التبجح منهم في المشاهد الحجاجية كان يتكرر آنا بعد آخر .

٤ ـ وفي سورة البقرة كذلك الآية التالية :

« وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... » ١١١

وهذه الآية متصلة فيما هو المتبادر بالموقف التبجحي الذي ذكرناه في الفقرة السابقة ، لأنها مع سلسلة واحدة من الآيات السابقة لها ؛ وقد لاحظنا في مكان سابق أن ذكر النصارى هو من قبيل التعميم لكل من يتمسك بما هو عليه ويزعم أنه على حق . ومع ذلك فاليهود على كل حال ممن حكى القول عنهم .

٥ ـ وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ...» ١٣٥

وهذه أيضا متصلة بالموضوع نفسه ، وهي من سلسلة واحدة ، إذ قالوا متبجحين إن الهدى إنما هو في اليهودية ؛ وما قلناه آنفًا فى صدد ذكر النصارى يصح هنا بطبيعة الحال.

٦ ـ وفي سورة آل عمران الآية التالية :

« وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . . . » ٧٥

وجمهور المفسرين والرواة على أن قائلي « ليس علينا في الأميين سبيل » هم اليهود ، وهذا متصل بفكرة أنهم شعب الله المختار ، وأنهم ليس عليهم تبعة أي عمل يصدر منهم ضد أي شخص من الأميين ، أي غير الكتابيين ، وبكلمة ثانية من غيرهم[1] ؛ لأنهم لا يعترفون بالنصرانية وإنجيلها . وواضح أن قولهم هذا من باب الزهو والغرور والترفع عن الغير ، كما أن فيه فتوى لأنفسهم باستحلال ما في أيدي الغير دون ما حرج .

ولقد جاء في سورة النساء آيات تمت إلى هذا الخلق الذي لا يتورعون عن التبجح به وهي :

« أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ...» ٥٣ ـ ٥٤

---

(١) صار المقصود من الأميين في القرآن « العرب » أيضا ، لأن اليهود حينما كانوا يقولون الأميين لم يكن أمامهم غير عرب الحجاز تقريبا . وقد وصف النبي بالأمي في آيات سورة الأعراف ١٥٧ ـ ١٥٨ بمعنى العربي ، كما وصف العرب بالأميين في آيات سورة الجمعة الأولى وغيرها .

إذ وصفتهم بأنهم إذا صار لهم ملك شيء أو سلطان ما فإنهم يحتكرون كل منفعة لأنفسهم ، ولا يدعون للغير أي مجال للانتفاع بأي شيء مهما كان تافهاً ؛ كما أن من خلقهم حسد غيرهم على أي نعمة تصيبهم أو فضل ينالهم من الله ، مع أن الله قد آتاهم نعماً عظيمة تمتعوا بها من فضله .

٧ – وفي سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

«لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ...» ١٨٨

وجمهور المفسرين والرواة على أن المقصود في الآية علماء اليهود . ومما روي في صددها أن النبي صلى الله عليه وسلم سألهم عن أمر فأجابوه إجابة غير صحيحة ثم أخذوا يزهون بعلمهم ، مع أن كذبهم لم يلبث أن انفضح ؛ فنزلت الآية تندد بهم وتتوعدهم ؛ ومهما يكن من أمر فالموقف التبجحي واضح في الآية .

٨ – وفي سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا . . .»

٤٩ – ٥٠

وقد روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة تبجح صدر من اليهود بأن الله يكفر عنهم في النهار ما يقترفونه من ذنوب في الليل ، ويكفر عنهم في الليل ما يقترفونه في النهار ؛ وعلى كل حال فالتبجح واضح في الآية ، وهو متصل بدعوى الحظوة عند الله .

٩ – وفي سورة المائدة الآية التالية :

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ...» ١٨

وقد تضمنت حكاية تبجح صريح وتجيب ورداً عليه ، والقسم الثاني من الآية يدل على أنه صادر في موقف حجاجي . وقد استهدفت الآية دحض دعوى الحظوة والشعب المختار ؛ كما استهدفت الآيات الأخرى ذلك أيضاً . ومما يجدر التنبيه إليه أن القرآن المكي والمدني قد احتوى تقرير تفضيل الله اليهود على العالمين [1] مما يمكن أن يوهم تناقضاً في التقريرات القرآنية ؛ ولسنا نرى ذلك ؛ إذ الأولى صرف التفضيل إلى بعثة موسى عليه السلام ، وعدم ضرورة أن يكون ذلك مستمراً كما هو المتبادر ؛ لا سيما أن القرآن مكيه ومدنيه قد ذكر ما كان من انحراف اليهود واستحقاقهم لغضب الله ونكاله في السابق واللاحق ، وفسق كثير منهم ، وجواب الله لإبراهيم عليه السلام بأن عهده لا ينال الظالمين من ذريته[2] .

هذا بقطع النظر عما إذا كان القول المحكي في الآية قد صدر عن اليهود والنصارى في مجلس أو مجالس ، أو أنه تعبير عن لسان حالهم ؛ فإنها تحتوي صراحة أن اليهود ممن صدر عنهم القول كما هو ظاهر .

---

(١) الجاثية ١٦ والبقرة ٤٧ مثلا .

(٢) الأعراف ١٢٨ — ١٥٦ و ١٦١ — ١٦٩ والبقرة ١٢٤ والحديد ٢٦ وكثير من الآيات التي نقلناها في هذا المبحث وخاصة آيات البقرة وآل عمران والنساء .

المبحث الثالث

دسائس اليهود بين المسلمين وتآمرهم عليهم

مع المنافقين والمشركين

مدى دسائس اليهود ومؤامرتهم ـ أولا دسائسهم : تظاهر اليهود بالإيمان وتواصيهم بعكسه ـ تدليسهم باسم التوراة ـ محاولتهم تشكيك المسلمين في صحة أفعال النبي وخاصة في أمر تحويل القبلة ـ كتمهم مافي التوراة من المحرمات بقصد التشكيك ـ تآمرهم على التظاهر بالإيمان ثم الرجوع عنه لتشكيك المسلمين ـ تدليسهم بحلف الإيمان ـ دسهم بقصد إثارة الفتن والشكوك ـ صورة بليغة عن بغض اليهود للمسلمين وتربصهم بهم ـ محاولات علماء اليهود في التدليس والإضلال ـ سخرية اليهود بالإسلام والصلاة والأذان ـ دور أحبار اليهود في الموقف الجحودي اليهودي العام . ثانيا تآمرهم مع المنافقين : تمازج المنافقين واليهود وأثر هؤلاء في نمو أولئك ـ مدى وصف اليهود بشياطين المنافقين ـ موالاة المنافقين لليهود ـ وعدهم لهم بالطاعة ـ موقف تآمر صريح بين المنافقين واليهود في ظروف إجلاء بني النضير ـ موقف إعلان صريح من المنافقين بتمسكهم بولائهم لليهود ـ تعليق في صدد تولي المنافقين لليهود . ثالثاً تآمرهم مع المشركين : خطورة الصور القرآنية لهذا التآمر على قلتها ـ تشجيع المشركين على الثبات على الشرك وإيمانهم بآلهتهم بسبيل التحالف معهم للقضاء على الكيان الإسلامي ـ بعد مدى ماساقهم إليه الحقد من بشاعة الموقف ـ مظاهرة اليهود لجيوش الأحزاب التي غزت المدينة كنتيجة للتحالف ـ موالاة اليهود للكفار بالرغم من تظاهرهم بالإيمان ـ صورة بليغة من عدائهم للمسلمين .

الصورة الأولى

في القرآن صور عدة لدسائس اليهود بين المسلمين وكيدهم لهم وللدعوة الإسلامية ، وتآمرهم عليهم مع المنافقين من جهة والمشركين من جهة أخرى ، تدل على بعد مدى ما كان من سوء نيات اليهود ضد المسلمين وشدة نكايتهم فيهم ، وتوسلهم بكل وسيلة إلى محاربة الإسلام وتقويض أركانه كما ترى فيما يلي :

الصورة الثانية

أولا : دسائس بين المسلمين :

١ - في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ... » ٤١ - ٤٢

وقد تضمنت نهي اليهود عن كتم الحق وإلباسه بالباطل عن قصد ؛ والمتبادر أن هذا إنما كان منهم تجاه الغير ، وبقصد الدس والتشكيك والصد ، والراجح إن لم نقل المحقق أن هذا كان منهم إزاء المسلمين ، لاسيما أن آيات أخرى كثيرة قد أكدته بصراحة . ويلاحظ أن الآيات من أبكر ما نزل في المدينة ، ومعنى هذا أن الدس بين المسلمين قد أخذ يقع من اليهود مبكراً جدا ...

٢ - وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ... » ٧٥ - ٧٦

والآيات تخاطب المسلمين وتقرر لهم من جهة فقدان الأمل بارعواء اليهود وإيمانهم بالنبي ، وتتضمن من جهة أخرى صورة من صور تدليسهم على المسلمين ونفاقهم ، وصورة أخرى لتـآمرهم عليهم بالتواصي بألّا يصدر منهم أي اعتراف بحقيقـة قد يكون فيها متمسك أو حجة عليهم ...

٣ - وفي السورة نفسها الآية الآتية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ١٤٠

يضاف إليها الآيات ١٠٥ ـ ١٠٩ التي نقلناها في بحث تبديل القبلة . ولهذه الآيات مع الآية ١٠٤ صلة بالمبحث الذي نحن في صدده ، إذ احتوت تحذيرات متنوعة للمسلمين من حسد اليهود ودسائسهم والجري على أساليبهم ؛ فاليهود كانوا يتخذون خطاب المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم بكلمة « راعنا » وسيلة لأذاه ، فيلوون ألسنتهم بالكلمة ليكون معناها وصف النبي بالرعونة سخرية به ، فنهوا عن ذلك ؛ وقد حذروا من تعجيز النبي صلى الله عليه وسلم بالأسئلة والمطالب تقليداً لأسلافهم الذين عجزوا موسى بمثل ذلك . مما يلهم أن اليهود قد نجحوا في دسهم وتشكيكهم بين المسلمين حتى صار بعضهم يجادل ويسأل ويبدو منه بعض الشك ، وقد رجحنا أن هذا قد كان في ظروف تبديل القبلة . وقد حذروا تحذيرين آخرين : فاليهود لا يريدون أن ينالهم خير من ربهم ، ويودون أن يرتدوا عن دينهم كفاراً ، حسدا للمسلمين وغيظاً من إسلامهم والتفافهم حول النبي صلى الله عليه وسلم . وخلال كل هذا تبدو أصابع اليهود الدساسة بين المسلمين واضحة كما ترى .

٤ ـ ويسلك في هذه السلسلة آيات القبلة ١٤٢ ـ ١٥٢ التي نقلناها سابقاً ، إذ احتوت الإشارة إلى مواقف الدس والتشكيك اليهودية ، مما شرحناه في مناسبته .

٥ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ

أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ...» ١٧٢ ـ ١٧٦

والمقصود من الحملة في الآيات ١٧٤ ـ ١٧٦ هم علماء اليهود على ماقاله جمهور المفسرين . وورود آية المحرمات مع الحملة عليهم أن هؤلاء العلماء قد وقفوا موقف دس وتشكيك من المسلمين بشأنها ، كاتمين أنها مما حرمته التوراة ، فاستحقوا هذا التقريع والإنذار ، وتنبيه المسلمين إلى الحق في الأمر ، وإلى أن علماء اليهود إنما يكتمون مافي كتابهم من الحق المتسق مع التقرير القرآني بقصد بث الشك فيهم وإضلالهم عن الهدى .

الصورة الثالثة

٦ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ..»

٦٩ ـ ٧٣

والجمهور على أن أهل الكتاب هنا أيضاً هم اليهود ؛ وفي الآيات قرائن عدة على ذلك ؛ فالصفات والأفعال المنسوبة إليهم مما نسب في غيرها لليهود صراحة كما مر في آيات البقرة . ويبدو أن الآيتين الأوليين تضمنتا تمهيدا تنديدياً لما حكته الآيات التالية لها ؛ أما الآيات التالية فقد تضمنت صورة دس وتشكيك بشعة جدا ،

إذ حكت تآمر اليهود فيما بينهم على التظاهر بتصديق القرآن والإيمان به ، حتى إذا اطمأن المسلمون لهم أعلنوا شكوكهم وارتيابهم في بعض المسائل ؛ فأحدثوا بلبالا وريباً في المسلمين وثغرة في صفوفهم ؛ وقد حكت كذلك تواصيهم فيما بينهم بعدم الاعتراف بحقيقة مواقفهم ومقاصدهم ومعارفهم إلا بعضهم لبعض ، وبعدم الاطمئنان إلا لمن دان بدينهم ؛ لئلا ينتفع بذلك غيرهم ويكون لهم عليهم الحجة ، أو ينفذون إليهم من ثغرة ما .

٧ ـ وبعد قليل من هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... » ٧٧ ـ ٧٨

والآيتان من سلسله وسياق واحد ، والجمهور على أن المقصود في الآية الثانية هم علماء اليهود ؛ وقد تضمنت صورة من صور التدليس على المسلمين بقصد التعالم وكسب الثقة وضمانة المنفعة الخاصة ؛ ويبدو من فحوى الآية الأولى أنهم كانوا يحلفون الأيمان على صحة مايقولون من الأكاذيب والافتراءات على الله ليضمنوا الأهداف الدنيوية التي يهدفون إليها ...

ومن المحتمل أن تكون الحملة المنطوية في الآية الأولى ، والتقرير الذي احتوته الآية الثانية ، متصلين بالمؤامرة التي حكتها الآية ٦٩ ـ ٧٤ ، وأن يكون فريق من علماء اليهود قد نفذوها ، وأنهم أخذوا يقسمون الأيمان على صدق ما قرروه من مناقضات النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن لما عندهم ، تحقيقاً لهدفهم

وهو تشكيك المسلمين ، وردهم إلى الكفر ، وتفريقهم عن النبي أو إيجاد ثغرة في صفوفهم .

ولقد جاء بعد قليل الآيات التالية :

« أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ . وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ . كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٨٣ – ٨٩

ومن المحتمل أن تكون الآيات الأولى قد استهدفت رد دعوى المناقضة التي ادعاها اليهود تحقيقاً لمؤامرتهم ،وتوكيد إيمان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بكل ما جاء به الأنبياء السابقون بالإضافة إلى ما أنزل عليهم ، دون تفريق بين أحد ، ودون تردد ما ، وبكل إسلام وانقياد مما هو متصل بالرد عليهم أيضا على ما هو المتبادر . والآية ٨٦ تلهم أكثر من الآيات السابقة أن فريقاً من اليهود قد نفذ المؤامرة ، فأعلن إيمانه بالرسالة النبوية والتنزيل القرآني ، وشهد أنهما حق ، ثم ما لبث أن أعلن ارتداده لإثارة الشك في المسلمين ، فاستحق هذه الحملة الشديد المتناسبة مع بشاعة المؤامرة ، واحتمالات آثارها الوخيمة .

ونحب أن نلفت النظر إلى مدى الآية الأخيرة ، إذ يتسق مع مبادئ القرآن العامة من إبقاء الباب مفتوحاً لكل إنسان جاحداً كان أم مذنبا ليصلح أمره ، ويتوب عن

موقف الإثم والجحود فيقبل منه ذلك؛ وإذ يدل على أن هذا لليهود كما هو لغيرهم على السواء، وعلى أن فكرة التعصب ضد اليهود دينا وعنصراً لم يكن لها أساس أو محل في الدعوة النبوية والسيرة النبوية خلافاً لما يزعمه المغرضون .

الصورة الرابعة

٨ — وفي سورة آل عمران أيضا الآيات التالية :

« قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ...» ٩٨ — ١٠٠

والفريق المقصود هنا هو اليهود أيضا على ما قاله الجمهور ، والاستنكارات التي احتوتها الآيتان الأوليان مماثلة لاستنكارات آيات البقرة الموجهة لليهود بصراحة ، مما يقوم قرينة على ذلك . ولقد روي أنها نزلت بسبب محاولة بعض اليهود إثارة الفتنة بين الأوس والخزرج مدفوعين بالغيظ من اجتماع شملهم والتفافهم حول النبي ، وعدم نجاحهم فيما حاولوه من دس وتشكيك . ولقد جاء بعد هذه الآيات آيات فيها أمر للمسلمين بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، وتذكير لهم بما كان بينهم من عداء انقلب بنعمة الله إلى أخوّة ، وبما كانوا عليه من ضلال تبدل إلى هداية ، مما يمكن أن يدعم تلك الرواية كما ترى فيها :

« وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا

وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ...» ١٠١ ـ ١٠٣

على أنه مما يحتمل أن تكون الآيات ٩٨ ـ ١٠٠ قد نزلت لمناسبة موقف دس وتضليل ديني أيضاً ، لأنها تندد باليهود لمحاولتهم صد المؤمنين عن سبيل الله وإقامة العثرات في طريقهم ، مع يقينهم صدق النبوة والتنزيل ، كما أن من المحتمل أن يكون هذا الموقف قد أثر في بعض المسلمين أيضاً .

ومهما يكن من أمر فالآيات تضمنت صورا لمواقف دس وتضليل وإفساد وفتنة وقفها اليهود من المسلمين والدعوة الإسلامية ، واستهدفوا بها إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين ؛ ويبدو من صيغة الآيات وقوة تحذيرها للمسلمين وتنديدها باليهود أنه كاد يكون لهذه المواقف أثر غير محمود لولا أن تدارك الله المسلمين بتثبيته وهدايته .

الصورة الخامسة

٩ ـ وبعد هذه الآيات جاء الآيات التالية :

١ ـ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... ١٠٤ ـ ١٠٥

٢ ـ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ . لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . . .

١١٠ ـ ١١٢

والمتبادر أن الآيات استمرار لسابقاتها في تحذير المسلمين وتنبيههم إلى ما هو الأولى بهم ؛ وقد احتوت الآيات الأخيرة تهويناً لشأن اليهود وقوتهم ومدى أذاهم ، وإشارة إلى الطابع العام الدائم الذي دمغوا به من الذلة والمسكنة وغضب الله ، بسبب كفرهم وتمردهم وبغيهم وسوء نياتهم . والتقريرات التي احتوتها متصلة بما كان من الدسائس اليهودية بين المسلمين ، ومنبهة للمسلمين إلى واجبهم من التضامن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنهم بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وقد ربطت بين مواقفهم ومواقف آبائهم ، وحالتهم وحالة آبائهم ، فقررت أن هذا الواقع الذي فيه اليهود المعاصرون هو متصل بما كان عليه أسلافهم جيلا بعد جيل . ويبدو من الآية (١١١) أن بعض المسلمين كانوا يخشون ما لليهود من قوة مال وعدد وحصون وسلاح ، وأن هذه الخشية كانت منفذا ينفذ اليهود منهم إليهم في الدس والكيد مطمئنين إلى عدم جرأة المسلمين على التنكيل بهم التنكيل الذي يستحقونه ، فقد استهدفت هي والآية التالية لها تهوين قوتهم وشأنهم ، ولفت نظر المسلمين إلى واقع أمرهم من الذلة والمسكنة والجبن ؛ ويلمح من هذا بدء تطور إزاء بغاة اليهود الذين لم يتورعوا عن أي موقف من مواقف الأذى والكيد والدس وإثارة الفتنة ؛ ولقد أشرنا في فقرة سابقة إلى ما تضمنته الفقرة الأخيرة من آية البقرة ١٠٩ من معنى خطير ؛ ويبدو من الآية ١١١ هذه أن الوقت الذي هدأ فيه المسلمون الساخطون على اليهود إلى أن يحين ؛ قد أخذ يحين بما ازداد اليهود فيه من بغي وكيد وأذى وإثارة فتنة ؛ فاحتوت الآية هذا التهوين الذي احتوته ، تسكينا لروع الخائفين ، ولعل التنكيلات باليهود قد أخذت طريقها التنفيذي بعد ذلك .

١٠ ــ وفي سورة آل عمران أيضاً الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ

مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ...» ١١٨ ـ ١٢٠

والجمهور على أن الآيات تعني اليهود ، ومضامينها تدعم هذا إذا ما أنعم النظر فيها ، وفيها الصفات نفسها التي وصف بها اليهود بصراحة في آيات أخرى .

ولقد تضمنت صورة قوية وبليغة لعداء اليهود الشديد ومكرهم ، ونية الشر والكيد والبغض فيهم ضد المسلمين ،والغيظ مما بلغ أمر هؤلاء إليه من القوة والتعالي ، وقد حذرت المسلمين من أجل ذلك من موالاتهم واختلاطهم بهم ، واطلاعهم على أمورهم وأسرارهم مما تتضمنه كلمة « بطانة » وليس من شك في أن هذا قد كان مستندا إلى المواقف المتنوعة والكثيرة ، العانية والسرية ، القولية والفعلية ، التي وقفها اليهود من النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والدعوة الإسلامية . والآيات تلهم ما كان من قوة الروابط التي كانت تربط بعض العرب باليهود ، وقوة أثر هؤلاء فيهم ؛ مما يفسر حكمة تفصيل نيات اليهود وحقيقة أمرهم ومواقفهم تجاه المسلمين للتأثير في الذين يميلون إلى التمسك بولائهم لليهود وحملهم على الانسحاب منه .

ولقد جاء في سورة النساء نهي آخر فيه شيء من العتاب كما ترى في الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ...» ١٤٤

وهذه الآية من سلسلة فيها حملة على المنافقين تلهم أن الكافرين المعنيين مباشرة فيها هم اليهود ؛ وقد استهدفت الآية ما استهدفته الآيات السابقة ، كما أن فيها نفس الدلالة التي ذكرناها آنفا كما هو المتبادر .

ولعل مما يصح أن يقال إن هذه الآيات تمت إلى ذلك التطور الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة ، وتمهد له السبيل في نفوس بعض المسلمين الذين غفلوا عما يبيته اليهود لهم .

١١ — في سورة آل عمران أيضاً الآية التالية :

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ... » ١٨٦

وهذه الآية جاءت بعد آيات قوية الصراحة بأنها في حق اليهود بحيث يمكن القول إنهم هم المقصودون من جملة (الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) في الدرجة الأولى . وفي الآية إشارة إلى ما كان المسلمون وظلوا يتعرضون له من أذى اليهود ومكائدهم .

الصورة السادسة

١٢ — وفي سورة النساء الآيات ٤٤ — ٤٦ التي نقلناها في مبحث مواقف اليهود الحجاجية ، فإن لها صلة بهذا المبحث أيضا ؛ إذ تضمنت صورة للعداء والدسائس اليهودية، من عدم تورع اليهود عن المكابرة والارتكاس في الضلال ومناقضة وصايا كتابهم وتعاليمه ، وتحريفهم له ، وتأويلهم إياه تأويلا باطلا بقصد إضلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم وشق صفوفهم . والصورة هنا أقوى منها في الآيات السابقة التي تضمنت صوراً مماثلة كما يبدو منها ؛ وتكرار التنديد بهذه الصورة يدل على توالي صدورها منهم بطبيعة الحال . ويلاحظ هنا أن اليهود قد وصفوا بأنهم أعداء للمسلمين ؛ ولعل هذا الوصف يأتي في القرآن لأول مرة . ومما لا ريب فيه أن هذا إنما كان بسبب استمرارهم في المواقف الكيدية والمؤذية السرية والعلنية ، والقولية والفعلية التي وقفوها .

١٣ — وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ

وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ . وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ . وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ...» ٥٧ ـ ٦٣

ومضامين الآيات وخاصة الآية ٦٠ تدل على أن المقصود من أهل الكتاب فيها هم اليهود ، إذ وصفوا بالصفات التي تضمنتها أكثر من مرة : والربانيون والأحبار هم علماء اليهود خاصة أيضاً .

وفي الآيات تحذير للمسلمين من موالاة اليهود ، وتعليل بأنهم اتخذوا دينهم ونداءهم إلى الصلاة ، أي أذانهم ، هزواً ولعباً . وفي هذا صورة لمواقف المكر والاستخفاف اليهودية من المسلمين ودينهم وصلاتهم ، وقد يكونون استهدفوا بها ـ فوق دلالتها على غيظهم وجبلتهم الخلقية ـ إلقاء الريب في قلوب المسلمين فيما هم عليه .

وفي الآيات صورة أخرى لمكرهم ، إذ كانوا يأتون إلى المسلمين فيعلنون إيمانهم وهم كاذبون ، وإنما يفعلون ذلك من قبيل التدليس والمكر والتضليل ؛ ولعلهم كانوا يستهدفون بذلك كسب ثقة المسلمين وطمأنينتهم حتى يكون مكرهم ودسهم وتضليلهم أنفذ .

وفيها إلى ذلك استطراد لذكر ما كانت عليه أخلاقهم من قول الإثم وأكل السحت ، ومن سكوت ربانييهم وأحبارهم عن ذلك ، مما يرجح أن يكون لهذا الاستطراد

صلة بمواقف المكر والأذى ، وقصد لتقرير اندماج الربانيين والأحبار في تلك المواقف وهذه الأخلاق .

ولقد جاء في سورة التوبة : بضع آيات في حق أهل الكتاب وقتالهم ومنها هذه الآيات :

« يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ... » ٣٢ ـ ٣٤

والآيات صريحة الدلالة على ما كان للأحبار اليهود من موقف الصد والتعطيل ، وما كان لهذا الموقف من أثر في جحود جمهور اليهود للنبوة المحمدية ، وعدم استجابتهم للدعوة الإسلامية ؛ ويبدو منها أن هؤلاء الأحبار كانوا شديدي التعلق بأعراض الدنيا ، وكانوا يصدون عن سبيل الله قصد إطفاء نوره وتعطيل دعوة نبيه لتبقى لهم الرياسة والمكانة والطاعة ، مهما كانت الوسيلة مناقضة للحق . ولعل من الصواب أن يقال استلهاماً من هذه الآيات وغيرها إن أحبار اليهود وربانييهم بالتضامن مع زعماء اليهود قد تولوا كبر المعارضة والمحاجة ، والمشاقة والدسائس والتآمر والكيد والتشويش .

الصورة السابعة

ثانياً تآمر اليهود مع المنافقين .

١ ـ لعل أول آية ذكرت فيها صلات اليهود بالمنافقين هي آية البقرة هذه :

« وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ... »

وقد قلنا في مناسبة سابقة إن الجمهور على أن « شياطينهم » تعني اليهود ؛ والكلام في الآية حكاية قول المنافقين ، وهي من سلسلة وصفية لهؤلاء حمل عليهم فيها حملة شديدة ؛ ووصف اليهود بأنهم شياطين المنافقين أي الذين يوسوسون إليهم ويغوونهم من جهة ، وذكر اختلاء المنافقين بهم من جهة أخرى ، يدلان بصراحة على الأثر الكبير لليهود في حركة النفاق والمنافقين ، كما يدلان على التضامن الوثيق الموطد بين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية .

والآية من أبكر ما نزل من القرآن المدني على الأرجح ، وهذا التبكير يدل على ما كان من جدّ اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق ، وعلى نجاحهم في سعيهم وقيام حالة تواثق وتآمر بينهم وبين المنافقين منذ وقت مبكر من العهد المدني .

وإذا لاحظنا الدور الباغي الذي قام به المنافقون على ما سبق شرحه ، وما كان له من آثار ضارة ، ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الأوس والخزرج من أوشاج القربى ، وما كان لعصبية القربى من قوة فى المجتمع العربي ، وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوي القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذية في الوقت نفسه للكيان الإسلامي وحركة الدعوة الإسلامية ؛ بدت لنا شدة النكاية وبعد مدى الأذى فيما كان من جد اليهود في تغذية وتقوية جبهة النفاق ، ونجاحهم في سعيهم ، وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر على ما تلهمه الآية .

٢ ـ في سورة النساء الآيات التالية :

« بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... »

١٣٨ ـ ١٣٩

وجمهور المفسرين على أن الكافرين هنا هم اليهود ؛ وفي الآية قرينة على صحة ذلك ،

كما أن فيما بعدها قرينة ثانية أيضا . وواضح أن اتخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنما هما أثر من آثار التآمر الموطد بين اليهود والمنافقين تجاه الدعوة والقوة الإسلامية .

٣ ـ في سورة محمد الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ... » ٢٥ ـ ٢٦

والجمهور على أن الآية الأولى عنت المنافقين ، وأن الذين كرهوا ما نزل الله هم اليهود ؛ وهكذا تبدو في الآية الثانية صورة من صور التآمر بين الفريقين ضد الإسلام والمسلمين . ونلفت النظر إلى ماحكته الآية الثانية من وعد المنافقين لليهود بطاعتهم والسير على الخطة التي يضعونها ، ففي هذا كما هو ظاهر صورة لبعض ما كان لليهود من التوجيه والتأثير والنفوذ في المنافقين وحركتهم وأعمالهم .

٤ ـ في سورة المجادلة الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ... » ١٤

والجمهور كذلك على أن الآية في صدد تولي المنافقين لليهود ؛ وفيها والحالة هذه صورة من صور ذلك التآمر .

٥ ـ في سورة الحشر الآية التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . . . » ١١

والذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود ، لأن الآيات السابقة هي في صدد حادث تنكيل بهم ؛ وفي الآية صورة قوية للتضامن والتحالف الوثيقين بين اليهود والمنافقين ؛ كأثر من آثار التآمر الموطد بينهما .

٦ ـ في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . . . » ٥١ ـ ٥٢

والآية الأولى وإن كانت شملت اليهود والنصارى فإن الموضوع المباشر للنهي على ما تلهمه الآية الثانية ورواية نزولها ، هو اليهود ؛ لاسيما أن المدينة لم يكن فيها من يسارع المنافقون إلى توليهم خشية الدوائر إلا اليهود ، إذ لم يكن فيها كتلة نصرانية عدو .

وقد روى المفسرون والرواة أن الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ وأحد زعماء المسلمين ، إذ قال هذا إني بريء من اليهود ، فقال الأول أما أنا فلا أتبرأ منهم لأني أخشى الدوائر ؛ وعلى كل حال ففي الآية الثانية صورة للتواثق الشديد بين المنافقين واليهود وأثر من آثار التآمر بينهما .

الصورة الثامنة

ولقد يرد ـ في صدد الحملة على المنافقين لتوليهم اليهود في آيات هذه الفقرة وغيرها مما نقلناه قبل ـ أنه كان بين الأوس والخزرج وبين اليهود عهود ومواثيق ، وأن النبي قد أبقى عليها وجددها ، وأن تمسك فريق من العرب بها أو اعتبار أنفسهم مقيدين بها مما لا غبار عليه ، لأنه مما توجبه واجبات الوفاء .

وجواباً على هذا نقول أولا : إن المنعي عليهم هم فريق المنافقين فقط الذين وقفوا منذ بدء الهجرة النبوية من النبي ودعوته موقف الـكيد والمـكر والتآمر ، في حين أن تلك العهود والمواثيق قد كانت بين اليهود وسائر بطون الأوس والخزرج ؛ ومعنى هذا أن المسلمين المخلصين استجابوا لتحذير القرآن والنبي الذي كان معللا بمواقف كيد اليهود ومكرهم ودسهم وتآمرهم ؛ وإذا كان بعض المسلمين تردد أو تأخر في نفض يده من الولاء للحلف بينه وبين اليهود ، فإن الذين جاهروا بالتمسك به ولم يعبأوا بالتحذير والنهي بوقاحة وإصرار وتمرد هم المنافقون فقط ، وهـذا يدل بصراحة وقوة على أن الباعث لهم على هذا الموقف ليس الإخلاص للحلف ، وإنما ماجمع بين اليهود وبينهم من وحدة البغض والـكيد للإسلام ونبيه ، وما توطد بين الفريقين من تواثق وتضامن وتآمر على النكاية بهما ، ولا يصح أن يعـد من قبيل الوفاء بالعهود ، ولو أن المنافقين كانوا يعتذرون بذلك .

ونقول ثانياً : إن تلك المواقف التي حكاها القرآن عن اليهود من شأنها أن تـكون نقضاً من جانبهم لتلك العهود والمواثيق ؛ ولقد اعتبرت كذلك بنص القرآن كما تلهمه الآيات التالية :

١ — أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . . .

البقرة ١٠٠

٢ — إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . . .

الأنفال ٥٥ ـ ٥٦

والآيات ممانزل مبكراً ، وهو أمر يدل على أن تلك المواقف قد اعتبرت نقضا منذ وقت مبكرٍ ؛ فدعوة القرآن إلى عدم موالاتهم واتخاذهم بطانةوإطاعتهم وتحذيره ؛ هي شيء طبيعي لا يتمحل فيه إلا مكابر أو مغرض .

وثالثا : تآمر اليهود مع المشركين :

إن الآيات الواردة عن تآمر اليهود مع الكفار والمشركين أقل مما ورد عن تآمرهم مع المنافقين ؛ وهذا طبيعي فيما يبدو ، لأن اليهود في المدينة ، والصلات بينهم وبين أهلها أوثق ، والشقة بعيدة عن مكة التي كان زعماؤها قادة حركة العداء للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ؛ ومع ذلك ففي الآيات القليلة الواردة صور ذات خطورة كبيرة المغزى والأثر .

(١) ـ فمنها الآيات التالية من سورة النساء :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا . أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا . . .

٥١ ـ ٥٢

ولقد روي في صدد الآيتين روايات مفادها أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد واقعة أحد ليبحث في أمر النبي والمسلمين مع زعمائها ، ويعرض عليهم حلفاً يهدف إلى القضاء عليهم بعد الضربة التي نزلت بهم نتيجة لتلك الواقعة ، وأنه لما تم الاتفاق على الحلف ذهب الوفد والزعماء إلى فناء الكعبة وألصقوا أكبادهم بها ، وأقسموا عند الأصنام التي حولها على البر في الحلف ، والجهد في تنفيذه ؛ ومما روي أن زعماء مكة استشهدوهم على من هو الأفضل دينا وسبيلا فشهدوا لهم أنهم الأهدى والأفضل . وليس في الروايات مالا يتسق مع الآيات إلا كون الآيات أكثر صراحة إذ تذكر إيمانهم بآلهة الكفار .

ولعل أبشع ما في الصورة ، بل أشنع ما كان من اليهود ، أن يدفعهم الحقد والحسد والعداء للنبي ودعوته إلى عدم التورع في الشهادة الفاجرة بأن الشرك خير من التوحيد ، وأن آلهة المشركين وأصنامهم خير من إله محمد رب العالمين ، وأن ماعليه

المشركون من عادات وتقاليد أهدى مما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم إلى عدم التورع في إعلانهم وإيمانهم بآلهة المشركين وتكريمهم لأصنامهم ؛ وهكذا ينكرون أساس دينهم الذي هو الإيمان بالله وحده ، في سبيل محاربة النبي الداعي إلى ذلك ، والناهي عن الشرك والإثم والفواحش ؛ وليس من ريب في أن موقف هذا الفريق يدمغه بطابع من العار لا يمكن أن ينسى .

ولقد كان من نتيجة رحلة الوفد اليهودي وعقده الحلف مع زعماء مكة أن استنفر هؤلاء أهــل مكة وأحزابهم وحلفاءهم ، وأن زحفوا بجيوش جرارة على المدينة ـ وهو ماعرف بواقعة الخندق ـ وأن زلزل هذا الزحف أعصاب المسلمين وأدخل في قلوبهم الرعب ، وأن كاد يعصف فعــلا بالإســلام والمسلمين لولا أن تداركهم الله بنعمته على ماسوف نذكره في فصل الجهاد ؛ وقد وفي اليهود بالحلف ، فظاهروا الجيوش الزاحفة على المسلمين ، مما زاد في حرج الموقف وشدة خطورته ؛ وهذا وذاك مما أشارت إليه الآيات في سورة الأحزاب ؛

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً . إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُوراً ...

٩ ـ ١٢

٢ — وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً . وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ

أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ...

٢٥ _ ٢٧

(٢) _ ومنها الآيات التالية فى سورة المائدة :

« لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ . وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ . لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ . . . »

٧٨ _ ٨٢

وقد ذكرت صراحة أن كثيراً من اليهود كانوا يتولون الكافرين ويتواثقون معهم ، ومما لاريب فيه أن هذا قد كان بسائق البغضاء التي كانت تجمع بين الفريقين للإسلام والمسلمين ، وبقصد التآمر على تقويض أركانهم وهدم بنيانهم ، وإذا لوحظ أن الكفار كانوا في حالة حرب مستمرة مع اليهود ، بدا لنا أن ذلك التولي قد كان نوعا من المظاهرة الحربية وكان بالنتيجة شديد الخطورة بعيد المدى والأثر . ويبدو من الآية الأخيرة أن هذه المواقف منهم كانت مكشوفة ، وكانت آثارها ملموسة ، إذ وصفت اليهود بأنهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، وقرنتهم في هذه العداوة الشديدة بالمشركين الذين كان منهم ما كان من شديد الصد والأذى وكانوا في حالة حرب مستمرة مع المسلمين .

ويستلهم من الآية ٨١ أن من اليهود من كان يتظاهر كذبا بالإيمان وتصديق النبي ، ففضحتهم وأقامت عليهم الحجة في موقفهم الذي لايمكن أن يحدث لو كانوا صادقين في إيمانهم ؛ وهذه الصورة من الدس والمكر مما تكرر وروده

في آيات أخرى شرحناها سابقا ، غير أنها هنا مقترنة بما كان من تناقضهم واتخاذهم الكفار أولياء .

ولقد ربطت الآيات بين اليهود المعاصرين والسالفين في الأخلاق والمكر وعدم التناهي عن الإثم والمنكر ، واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جريا على الأسلوب القرآني الذي يستهدف تقرير أن ماعليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هو جبلة متوارثة عن الآباء ...

المبحث الرابع

وقائع التنكيل باليهود وبواعثها ونتائجها

عداء اليهود وغدرهم منذ وقت مبكر ، تعدد فصول التنكيل - لكل فصل سببه - التنكيل جرى بمقدار الضرورة ، عدم خروج اليهود جميعهم من نطاق الكلام إلى الغدر والأذى في وقت واحد - أثر عدم تكتلهم سياسيا وحربيا في ذلك - إشارة إلى ماغمز به المغرضون النبي بسبب التنكيل وتفنيده - إجلاء بني قينقاع وظروفه وتحليل الإشارات القرآنية إليه - تكملة الصورة بالروايات - إجلاء بنى النضير وتحليل مافي القرآن عنه - تكملة الصورة القرآنية بالروايات - التنكيل ببني قريظة وتحليل مافي القرآن عنه - تكملة الصورة بالروايات - الإشارات القرآنية إلى فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى وظروفه - تكملة الصورة بالروايات - الأسباب المحتملة للحملة - دلالة تساهل النبي مع أهل القرى .

الصورة الأولى

إن اليهود لم يبقوا في نطاق جحود نبوة النبي وتنزيل القرآن ، وفي نطاق المكايدات والمكابرات والمماحكات الكلامية طويلا ، بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلي الصريح منذ عهد مبكر على ما استدللنا عليه في المبحث السابق من آيات البقرة ١٠٠ والأنفال ٥٥ - ٥٦ المبكرة في النزول ؛ فكانت مواقفهم هذه سببا مباشراً لدور التنكيل الذي بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني ، ثم استمرت إلى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخضد شوكتهم وإجلاء بعضهم عن أرباضها في ظرف الربع الثاني والثالث منه .

ولقد تعددت فصول هذا الدور ، وكان لكل فصل أسبابه الخاصة ، كما كان موضوع كل فصل فريقاً دون آخر من اليهود ، وهذا يدل على أن التنكيل إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق من الفريق الذي حق عليه التنكيل فحسب ؛ كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام

إلى الغدر والعداء العملي في وقت واحد ، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك كيان سياسي وحربي واحد ومتواثق ؛ بل كانوا ـ والكلام في صدد يهود المدينة خاصة؛لأنهم كانوا الأكثر والأقوى والأغنى، والمحتكين بالنبي والمسلمين والمنافقين والمصطدمين بالنبي والمسلمين ـ كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة لحدتها وتسكن في محلة خاصة بها ؛ ولعله كان بينهم خصومات أيضاً ، بدليل أن كتلهم كانت متوزعة في التحالف والولاء بين قبيلتي الأوس والخزرج اللتين كانتا في خصومة قديمة على ما ذكرنا في مناسبات سابقة . وفي آيات البقرة ٨٤ ـ ٨٥ التي نقلناها من قبل دليل على ذلك ، إذ يستفاد منها أن كتل اليهود كانت تدخل في الحرب بعضها ضد بعض . كل واحدة متضامنة مع فريق عربي يخاصم آخر ، وأن اليهودي كان يقتل اليهودي ويأسره ويجليه عن أرضه فيما كان ينشب بين الكتلتين المزدوجتين(١) .

ونحن نعرف أن بعض الكتاب من يهود ومبشرين ومستشرقين رأوا في توالي فصول التنكيل باليهود ماجعلهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت نية التنكيل بهم ، وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم من البدء ، وأنه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً ؛ وقد غمزوه بالنكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وبالميل إلى سفك الدم ، وبالطمع في أموالهم وإغداقها على المسلمين إلخ ، مما صدر منهم بسائق الغرض والتعصب وعدم التروي في فهم آيات القرآن التي احتوت ما فيه الحجة القاطعة والبينة الحاسمة على زيف ما زعموا وسفه ما غمزوا .

فالقرآن قد ذكر (آيات البقرة ٨٤ ـ ٨٥) عدم تكتلهم وما كانوا يقعون فيه

---

(١) بالإضافة إلى الدلالة الحاسمة التي تضمنتها آيات بسورة البقرة المذكورة فإن الكتاب الذي كتبه النبي صلى الله عليه وسلم حين وصل إلى المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود والذي أوردنا خبره ونصوصاً منه في مطلع هذا الفصل ذكر كل فريق من اليهود مع الفريق المتحالف معه من بطون الأوس والخزرج مما فيه بيان وتوضيح . وكان بين بطون الأوس والخزرج قبل الإسلام أحقاد وحروب على ماذكرته الروايات العديدة. وقد أشرنا إلى ذلك في سياق هجرة النبي صلى الله عليه وسلم . انظر أيضاً طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٦٨ و ٩٩ و ١١٨ وتاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ج ٤ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥

من جراء ذلك من مخالفات دينية في قتل بعضهم بعضا وأسر وإخراج بعضهم بعضا في معرض الذم والتنديد ، فلم يبق أي محل للارتياب في أن ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة ـ فضلا عن الهجرة ـ هي العامل في عدم تكتلهم ، مما يسوغ الترجيح إن لم نقل الجزم بصحة ما قلناه من أنهم لم يخرجوا جميعهم في وقت واحد من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملي ، ومن أن التنكيل إنما كان يقع في نطاق إزالة الضرر المتحقق من الفريق المبادر إلى الخروج من ذلك النطاق ، ولقد احتوت الآيات القرآنية في مختلف أدوار التنزيل المدني ـ وقد أردنا منها جملة صالحة فيما سبق ـ حكاية مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد ومكابرة ومجادلة وسخرية ، بل دسائس ومؤامرات في صدد الجحود بالنبوة ، وتعطيل الدعوة ، وتشكيك المسلمين فيهما ، كما احتوت مساجلات متنوعة معهم في الجدل حينا ، والتنديد حينا ، والإفحام حينا ، والوعظ والتذكير والإنذار والتبشير حينا ، والدعوة إلى تخفيف الغلواء والانسجام والتوبة حينا ؛ وبكلمة أخرى : لقد اتسع صدر النبي صلى الله عليه وسلم لهم سعة كبيرة ، وتمتعوا بحريتهم في التمسك بدينهم ، ومباشرة شؤونهم الاقتصادية ، والاستمرار في محالفتهم واتصالاتهم الاجتماعية والسياسية والشخصية ، دون انتقال من طور المساجلة إلى طور التنكيل ، ولم ينتقل إلى هذا الطور مع أي فريق منهم إلا بعد أن يطفح الكيل من دسائسه ومكائده وأذاه ، وبعد أن يكون قد انتقل هذا الفريق إلى موقف النكث بالعهد والأذى والغدر والتآمر والإضرار بكيان المسلمين ، مما تلهم أو تدل عليه الآيات والفصول العدة التي مرت ، والتي سترد بعد عند الكلام على كل واقعة من وقائع التنكيل أيضا .

ونقول من قبيل المساجلة إنه لم يكن في وقت نزول القرآن وتدوين الروايات قضية من نوع ما يثيره المغرضون من المستشرقين حتى يصح أن يقال إن الدلائل والمبررات التي انطوت فيهما قد اخترعت اختراعاً للدفاع عما فعله النبي والمسلمون في اليهود وهذا وحده كاف لإسكات كل أفاك مغرض وأخذ ما ورد على حقيقته وصدقه . هذا فضلا عن أن جبلة

اليهود وأخلاقهم تجاه الأمم الأخرى المشهورة منذ تاريخ خروجهم من مصر إلى اليوم في غنى عن اختراع المبررات للتنكيل بهم في كل ظرف ومكان .

وإليك الآن تفصيل الوقائع .

الصورة الثانية

أولا : إجلاء بني قينقاع (١) :

ليس في القرآن ذكر صريح لهؤلاء ولا لواقعة إجلائهم ، وكل ما هنالك إشارات فسرتها الروايات ؛ ولقد ذكرت الروايات التي ليس بينها خلاف جوهري ؛ أن هذه الواقعة كانت أولى وقائع التنكيل باليهود ، وأنها كانت بين واقعتي بدر وأحد . ومما ذكره ابن هشام أن يهود بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، وحاربوا فيما بين بدر وأحد ؛ وأن بدء واقعتهم كان أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته في سوقهم ، وجلست إلى صائغ منهم ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده بظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهله المسلمين ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ، وانتهى الأمر إلى أن حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، ومما جاء في طبقات ابن سعد أن النبي أجلاهم عن المدينة إلى أذرعات ، وسمح لهم بأخذ أموالهم وأثقالهم وسلاحهم الخفيف ؛ ومما ورد في ابن سعد وابن هشام معا أن النبي صلى الله عليه وسلم استشعر من بني قينقاع الغيظ مما كان من نصر المسلمين في بدر ، ولعلهم أخذوا يكشفون عن غيظهم ويغمزون المسلمين ، فجمعهم وحذرهم ، فكان جوابهم وقحا ، إذ قالوا له : لا يغرنك ما نلت ،

---

(١) روايات السيرة تذكر أن أولى وقائع التنكيل باليهود كانت قتل يهودي اسمه أبو عفك كان شاعراً يهجو النبي ويحرض قومه عليه فنذر سالم بن عمير من الأنصار أن يقتله أو يموت دونه وتربص به حتى واتته فرصة فدخل عليه وهو في بيته وقتله . (ابن سعد ج ٣ ص ٦٧) .

فإنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ؛ وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ، وأن آيات آل عمران هذه :

« قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ... » ١٢ – ١٣

إنما نزلت فيهم . وظروف نزول الآيات تجعل هذا سائغا ، لأنها نزلت بعد وقعة بدر ، واحتوت إشارة إليها على سبيل الإنذار ، ولا سبيل للتوهم بأن ذلك كان لكفار مكة الذين كانوا في حالة حرب مع المسلمين ؛ والتحذير إنما يكون لأناس ما يزال بينهم وبين النبي والمسلمين صلات سلم .

وإذا كان ثمة شيء يلاحظ على ما قاله ابن سعد وابن هشام في صدد نزول الآيتين ، فهو أنهما أبعد مدى مما قالاه ، وإنهما لتلهمان أنه قد بدا من اليهود ما يصح أن يعد نقضا أو تحرشا بحرب وقتال ، فأمر النبي فيهما بإنذارهم ، ودعوتهم إلى الاعتبار بما حل بكفار مكة في بدر ، وهم أكثر عدداً من المسلمين . وعلى هذا فإنه يصح أن يضاف إلى ما ذكره المؤلفان أن تكون حادثة المرأة أو حادثة مماثلة لها قد وقعت ، وأن الإنذار وجه إليهم بعدها فلم يعبأوا فكان الحصار والجلاء .

ولقد احتوت آية من آيات البقرة إشارة صريحة إلى نبذ فريق من اليهود العهد كما ترى فيها :

« أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . . . » ١٠٠

وهذه الآية من السلسلة الطويلة في حق اليهود التي نقلناها في المبحث الأول ، وهي

مما نزل مبكراً كما قلنا قبل ، فيسوغ القول إن الإشارة التي تضمنتها هي إلى أول نقض بدا من فريق من اليهود ، وهو على الأرجح نقض بني قينقاع الذين كانوا أول من وقع عليهم التنكيل بسببه .

وفي سورة الأنفال آيات فيها إشارة أخرى إلى نقض يهودي ، وهي هذه :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ... »(١) ٥٥ ـ ٥٨

وسورة الأنفال نزلت عقب وقعة بدر ، ولقد روى المفسرون أن الآيات نزلت في بني قريظة ، مع أن التنكيل بهؤلاء قد كان من أواخر الفصول التنكيلية ، ونزل به قرآن خاص في سورة الأحزاب ؛ والمتسق مع ظروف وتاريخ واقعة بني قينقاع التي لا يختلف في أنها الأولى ، وفي وقوعها بعد بدر وقبل أحد ، أن تكون نزلت فيهم . ولقد جاء في طبقات ابن سعد أنه لما كانت وقعة بدر ، أظهر بنو قينقاع البغي والحسد ونبذوا العهد ، وكانوا أشجع اليهود ؛ فأنزل الله « وإمّا تخافن من قوم خيانة ... إلى آخر الآية » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخاف بني قينقاع ، فسار إليهم بهذه الآية . والآية إنما نزلت مع ما سبقها ولحقها من آيات ، فيكون سير النبي إليهم بسبب نقضهم العهد المرة بعد المرة ، وتكون الرواية متسقة مع ظروف واقعتهم ، ومؤيدة لرجحان أن الآيات فيهم ، مع التنبيه إلى أن الآية أبعد مدى من الرواية أيضاً في ذكرها نقض اليهود العهد مرة بعد مرة .

ونلفت النظر إلى ما ينطوي في الآيات التي نقلناها والروايات التي استأنسنا بها والتي

---

(١) أعلنهم أنك تقف منهم نفس الموقف الذي وقفوه ، وهو حل العهد القائم ، وفي الآية مغزى رائع ، وهو تلقين عدم المبادرة إلى القتال بدون إعلان مادام هناك عهد قائم .

تتسق إجمالا مع الآيات ، مع ما في الآيات من بعد مدى وقوة أكثر من معنى كون التنكيل الذي وقع على بني قينقاع ، بل الحروب النبوية كلها إنما كانت ردا على عدوان أو غدر أو خيانة ، ودفاعاً عن الكيان ؛ ومما لا يصح أن يماري فيه أحد مهما كانت نحلته أن النبي قد اتبع بدقة لا مزيد عليها ما تضمنته هذه الآيات وغيرها من تعليم في هـذا الصدد .

ولقد جاء بعد آيات الأنفال هذه الآيات التالية :

« وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . . »

٦٠ ـ ٦٣

وقد تضمنت حثا المسلمين على الاستعداد بجميع الوسائل لإرهاب عدوهم حتى يكفوا شره ؛ كما تضمنت تعليما بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح الخصم إليها ؛ وهذا متصل ومؤيد لما قررناه ، ودحض للأقوال والمزاعم المغرضة كما هو واضح .

كذلك نلفت النظر إلى الإنذار الذي احتوته آيات آل عمران ١٢ ـ ١٣ إذ ينطوي فيه كما تلهم صيغة الآيات معنى التنبيه والنصح حتى للذين بادءوا بالشر والنقض ، كما يعني هـذا الرغبة في تفادي القتال والتنكيل بقدر ما يمكن . وآيات الأنفال ٥٧ ـ ٥٨ جديرة بالتفات النظر أيضا ، إذ انطوى في الأولى معنى التنبيه والعظة لليهود الآخرين والأمل في أن يكون التنكيل بمن نكل بهم رادعا لهم ، وفي هـذا

ينطوي رغبة تفادي القتال والتنكيل بقدر ما يمكن ؛ وانطوى في الثانية مغزى رائع جليل وهو تلقين عدم المبادرة إلى قتال من يبيتون الغدر والخيانة بدون إعلان ما دام هناك عهد قائم ، ووجوب إنذارهم بالوقوف منهم نفس الموقف الذي يقفونه وهو حل العهد القائم . وهذا وذاك متصلان بما قررناه ومؤيدان له بما لا يدع محلا للمماراة كما هو واضح أيضا[1] .

وفي مناسبة الآية (٨١) التي تأمر بالجنوح إلى السلم إذا ما جنح إليها العدو وقوة احتمال كون الآية في صدد اليهود نرى أن نستدرك أمراً هاماً . وهو أن الآية في صدد اليهود الذين كانوا في المدينة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الناحية الموضوعية وأنها من الناحية المبدئية يمكن أن تنطبق على العدو الذي يكون له دار أو دولة خاصة به منذ الأصل ويظهر الرغبة في السلم والمسالمة . أما اليهود في فلسطين اليوم فهم أعداء معتدون على دار المسلمين والعرب . ومغتصبون لما احتلوه من هذه الدار اغتصاباً باغياً بعد أن حاربوهم فيها أشد حرب وأذوهم أشد أذى وطردوهم من مدنهم وقراهم . واستولوا على بيوتهم ومخازنهم ومصانعهم ومزارعهم وبساتينهم وكرومهم وثرواتهم المنقولة وغير المنقولة . وهتكوا حرماتهم . ودنسوا مقدساتهم . وأزالوا معالم الإسلام والعروبة في وطنهم . فلا يصح عليهم معنى الجنوح إلى السلم إذا أعلنوا أنهم يريدون الصلح مع العرب والمسلمين ليحتفظوا بما اغتصبوه من ديارهم وأموالهم وبالدولة الباغية التي أقاموها فيها . ولا يجوز للمسلمين والعرب إجابتهم إلى ذلك حتى لو تركوا بعض ما اغتصبوه وقبلوا بالقسم الذي قررته لهم هيئة الأمم . لأنه دار المسلمين والعرب . وليس لهذه الهيئة أن تمنحهم جزءا مهما كان صغيراً من هذه الدار . وعلى المسلمين والعرب واجب مقاتلتهم وتضييق الخناق والحصار عليهم بكل وسيلة وطريقة ووقت وبدون هوادة ولا كلل إلى

---

(١) انظر تفصيل وقعة جلاء بني قينقاع في ابن سعد ج ٣ ص ٦٧ — ٦٨ وابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦ — ٤٢٩ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٢ .

أن يخرجوهم من دارهم ويطهروا كل بقعة منها من رجسهم . وتعود هذه الدار إلى السلطان العربي الإسلامي كما كانت .

الصورة الثالثة

وثانياً : إجلاء بني النضير (١) :

وهذه الواقعة كذلك ليس لها ذكر صريح في القرآن ؛ إلا أن فيه بياناً أوفى عنها اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم هم المقصودون به . أما البيان فهو في سورة الحشر التي كان ابن عباس عليه السلام يسميها سورة بني النضير على ما ورد في كتب التفسير وفي كتاب تفسير منسوب إليه ؛ وهذه آيات السورة في صدد هذه الواقعة :

١ — « هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ . وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ . وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ

---

(١) ذكرت روايات السيرة خبر قتل شاعر يهودي فاجر اسمه كعب بن الأشرف بين واقعتي بني قينقاع وبني النضير . فقد نظم هذا الشاعر قصائد في هجو النبي والمسلمين وذهب إلى مكة فرثى قتلى بدر وحرض قريشاً فقال النبي من لي بابن الأشرف فقد آذاني فانتدب له محمد بن مسلمة في نفر من الأوس حتى تمكنوا من قتله (ابن سعد ج ٣ ص ٧٠ — ٧٢) .

ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْـهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ... »

٢ ـ ٧

٢ ـ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ . فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ...

١١ ـ ١٧

والمجموعة الأولى جاءت في صدد تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم ونصره رسوله في هذه الواقعة دون اشتراك عملي وحربي منهم ، وجعل هـذا مبرراً لتشريع أيلولة ما عاد منها من الغنائم فيئا لرسـول الله يقسمه على المصارف المذكورة دون الأغنياء ، لا على أساس قسمة غنائم الحرب التي يشترك فيها المسلمون أغنياء وفقراء ، والتي يوزع عليهم منها الأخماس الأربعة وينال كل فرد منها نصيبا متساويا . ومع ذلك ففيها بعض الصور عن الواقعة ، إذ يستفاد منها :

١ ـ إنه كان لبني النضير حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون التغلب عليها ، كما كان اليهود يحسبون أنها مانعتهم .

٢ ـ إن اليهود قد وقع في قلوبهم خوف شديد ويأس بحيث استسلموا من جهة وخربوا بيوتهم بأيديهم من جهة أخرى .

٣ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أجلاهم ووضع يده على مزارعهم وأملاكهم .

٤ ـ إنه لم يقع اشتباك حربي بينهم وبين المسلمين ؛ وهـذا يعني أن الحصار وحده كان كافيا للنصر الذي تم .

٥ — إنه كان منهم مواقف كيد ومشاقة مزعجة ، وإنها هي السبب في التنكيل بهم .

٦ — إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع بعض نخيلهم ، فبررت إحدى الآيات العمل ، وقررت أنه بإلهام رباني لإرغام العدو الفاسق وخزيه ، مما يلهم أنه جرى ـ قيل وقال ـ حول تقطيع النخل .

أما المجموعة الثانية فقد تضمنت صورا لما كان من المنافقين في هذا الموقف ، إذ وعدوا اليهود بالتضامن معهم تضامناً وثيقا حتى أكدوا لهم أنهم سيحاربون معهم إذا حوربوا ، وسيخرجون معهم إذا غلبوا وأخرجوا ، ولـكنهم كذبوا بما وعدوا ، وقد وصفت الآيات مبلغ خوف اليهود أو المنافقين أو كليهما من المسلمين ، وعدم جرأتهم على مواجهتهم في الميدان ، وقررت أن كل أمرهم القتال من وراء الحصون والجدران ، كما قررت واقع حالتهم الداخلية والنفسية ، من عدم التضامن ، وشدة التنازع والتشاد فيما بينهم ، وتفرقهم شيعاً على رغم مايبدو من اتحادهم ؛ وشبهت المنافقين بالشيطان الذي يغوي المرء بالـكفر ثم لا يلبث أن يتبرأ منه بعده .

ويرجح أن الآية ١٥ تضمنت الإشارة إلى ما كان من التنكيل ببني قينقاع ، والتنديد ببني النضير الذين لم يعتبروا بهم حتى ذاقوا وبال أمرهم مثلهم .

والروايات الواردة في كتب السيرة والتفسير تـكمل هذه الصور ، إذ يستفاد منهـا أن الواقعة كانت بعد واقعة أحد وقبل واقعة الخندق ، وأن سببها المباشر هو أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب مع بعض أصحابه إلى محلة بني النضير يستعينهم على دية بعض القتلى فتآمروا على اغتياله ، وشعر هو بذلك فنجا بنفسه ، ثم أرسل إليهم في اليوم التالي إنذارا بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم ، وأن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض ، ويعدونهم بالنصر ، فتشجعوا وعصوا ، فحاصرهم

النبي صلى الله عليه وسلم وضيق عليهم الحصار ، وأمر بقطع بعض نخيلهم إرغاماً وإرهاباً ، ولم يف المنافقون بما وعدوا ، فاستولى عليهم الرعب واليأس ، ورضوا بالجلاء بشروط أشد من الأولى بسبب تمردهم ، وهي تسليم سلاحهم ، وتنازلهم عن بساتينهم وقراهم الزراعية ، وأخذ منقولاتهم فحسب ، وقد ذهب بعض زعمائهم إلى خيبر وجلا بعضهم إلى بلاد الشام .

والروايات منسجمة مع ما احتوته الآيات من صور . وإن كان ثمة شيء يزاد فهو المدى الواسع الذي ينطوي في الآية ٤ إذ يصح أن يقال إن محاولة بني النضير اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت سببا مباشرا ، وإنه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجلها التنكيل .

ولقد كان قبل هذا الحادث أن أمر النبي بقتل أحد شعرائهم وزعمائهم وطواغيتهم . كعب بن الأشرف ، لما كان منه هجو فاحش وكيد شديد للنبي والمسلمين كما جاء في كتب السيرة ، ولقد روي فيما روي أن كعبا ورهطا من بني النضير اتصوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي والمسلمين على رغم ما كان بينهم وبين بني النضير من عهد وسلام . وهذا وذاك مما يتسق مع مدى الآية ، ويدعم ماقلناه من أن محاولة الاغتيال إنما كانت النقطة التي ملأت الكأس .

وهكذا يبدو أن هذا التنكيل أيضاً إنما كان ردًّا على غدر وخيانة ومشاقة تجاوز فيها اليهود نطاق الكلام إلى التآمر على المسلمين وكيانهم ، ثم على حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في محلتهم (١) ..

الصورة الرابعة

وثالثاً : القضاء على بني قريظة :

واسم هؤلاء أيضاً لم يرد في القرآن بصراحة ، وإنما أشير إلى موقفهم والتنكيل بهم

(١) انظر تفصيل وقعة بني النضير في ابن سعد ج ٣ ص ٩٨ — ١٠٠ وابن هشام ج ٣ ص ١٩٩ — ٢١٣ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .

إشارة اتفق جمهور المفسرين والرواة على أنهم المقصودون بها وذلك في آيات الأحزاب هذه :

« وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ... » ٢٦ ـ ٢٧

وهاتان الآيتان هما من سلسلة احتوت بعض مشاهد وأحداث واقعة الخندق والأحزاب . وهي صريحة الدلالة بأن اليهود قد ظاهروا الكفار الغزاة جهرة على المسلمين، فاستحقوا التنكيل الشديد الذي نالهم .

ولقد نقلنا في مناسبة قريبة من هذا الفصل أيضاً آيات الأحزاب ١٠ ـ ١٢ التي احتوت وصفاً للحالة الخطيرة التي واجهها المسلمون من زحف جيش أحزاب الكفار الجرار على المدينة وإحداقه بها ، وما كان من جرأة المنافقين على المجاهرة بتكذيب وعد الله ورسوله بهذه الوسيلة ، وفيما يلي تتمة لهذه الآيات فيها تتمة لموقف المنافقين الجريء المثبط الذي يكاد ينم عن مؤامرة خفية محبوكة الأطراف بين اليهود وأحزاب الكفار والمنافقين للقضاء على الكيان الإسلامي قضاء ساحقاً كما ترى فيها :

« وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيراً . وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولاً . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً . قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ...» ١٣ ـ ٢٠

مما يجعل التنكيل عملا لا معدى عنه ، على أن يكون متناسباً مع شدّة الخطورة التي أحدقت بالمسلمين ؛ و إذا لاحظنا أن مظاهرة اليهود للغزاة كانت نتيجة للحلف الذي وفد اليهود إلى مكة لعقده بقصد القضاء المبرم على النبي والمسلمين ، واغتناماً لفرصة ماحل بهم من ضعف بعد وقعة أحد على ماذكرناه في المبحث السابق ـ بدا بعد مدى الموقف اليهودي وخطورته ، وشدة نكاية نيتهم المبيتة ، ووضح الحق في صحة تبرير التنكيل الواقع ، وسفه المغرضين في غمز النبي به لأنه جاء قاسياً لا هوادة فيه .

هذا ؛ وفي الروايات الواردة في كتب السيرة والتفسير مايكمل الصورة ويتسق مع مدى الآيات اتساقا غير يسير ، إذ يستفاد منها[1] :

(١) أن وفداً من زعماء اليهود ذهب إلى مكة بعد وقعة بني النضير فحرضوا زعماءها على غزو المدينة واستئصال شأفة النبي والمسلمين قبل أن يتفاقم أمرهم ، وأعلنوا تضامنهم معهم ، وأقسموا على ذلك عند أصنام المشركين في فناء الكعبة ، وهو ماتضمنت الإشارة إليه آية النساء ٥١ التي نقلناها قبل .

و (٢) أن الوفد ذهب كذلك إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضها على مثل ذلك ، ومناها بخيرات المدينة ، وأعلن تضامن اليهود معها ، وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة ، فأجابوهم كذلك وتحالفوا معهم .

---

(١) انظر تفصيل وقعة بني قريظة في ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ ـ ١٢١ وابن هشام ج ٣ ص ٢٣٥ ـ ٣١٢ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٤ .

(٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه تغير نية بني قريظة وتبييتهم الغدر حال وصول جيش الأحزاب، فأرسل زعيمي الأوس والخزرج إلى محلتهم — وكانت وراء بيوت عرب المدينة — لينظر: أحق مابلغهم عنهم، وطلب منهما ألا يجهرا به إن كان حقا، وأن يلحنا إليه لئلا يفتا في أعضاد الناس، وأنهما أتياهم فوجداهم على أخبث مابلغهم، ونالوا من رسول الله، وقالوا من هو رسول الله، وإنه لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، وأن سعد بن معاذ زعيم الأوس شاتمهم — وكان حليفهم — فشاتموه، وأن سعد ابن عبادة زعيم الخزرج قال له: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة.

(٤) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر مؤذنا فأذن في الناس في صبيحة اليوم الذي ارتد الأحزاب في ليله عن المدينة بناء على وحي من الله: أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة! وأن النبي حاصرهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله الرعب في قلوبهم، فنزلوا على حكم النبي صلى الله عليه وسلم؛ وأن جماعة من الأوس تشفعوا فيهم عند النبي لأنهم حلفاؤهم وطلبوا الاكتفاء بإجلائهم كما فعل بمن سبقهم، فجعل الحكم في أمرهم لزعيم الأوس سعد بن معاذ، وأن هذا حكم بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وتقسيم الأموال، قائلا لمن طلب الرفق بهم من جماعته: آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم! فأمر النبي بتنفيذ الحكم.

وننبه إلى أن عبارة « ظاهروهم » تلهم أنه بدا من اليهود في أثناء حصار الأحزاب للمدينة أعمال مؤذية للمسلمين، أو بالأحرى أعمال تمتّ إلى الحرب، تضرر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر على ما أشرنا إليه قبل قليل؛ وليس من ريب في أن التنكيل الشديد يمتّ بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها؛ لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بني قينقاع وبني النضير أولا، وبسعي وجد في إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانياً؛ فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم، لأن جريمتهم أشد أثراً، وأبعد مدى.

أما عبارة « وأرضاً لم تطـؤوها » الواردة في الآية ٢٧ فقد قال المفسرون إنها أرض خيبر ، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها ، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على مايتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم ، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار ، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها .

الصّورة الخامسة

ورابعا : فتح خيبر والقرى اليهودية الأخرى :

وهذه الوقائع أيضاً لم تذكر في القرآن بصراحة ، بل لم يرد عنها بيان شاف وإنمـا أشير إليها إشارات خاطفة فسرتها الروايات ؛ فمن (١) هذه الإشارة آية في سورة الفتح وهي هذه :

« سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً ... » ١٥

إذ قال جمهور المفسرين والرواة إن هـذه المغانم هي مغـانم خيبر ؛ وقـد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستصحب أحدا معه إلى خيبر ممن تخلف عن صحبته في رحلة زيارة الـكعبة التي انتهت إلى صلح الحديبية ، بناء على هذه الآية التي نزلت قبيل الوقعة التي كانت بعد قليل من رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية . وصيغة حكاية حال المتخلفين وأقوالهم تدل على أن النصر في رحلة خيبر مما لم يكن يتحمل ريبا ، كما أن الآية تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بيت القيام بهذه الرحلة عقب إبرام صلح

(١) تفصيل وقائع خيبر وما وراءها في ابن سعد ج ٣ ص ١٥١ – ١٦٣ وابن هشام ج ٣ ص ٣٧٨ – ٤١٢ وروايات السيرة تذكر خبر قتل أبي رافع بن أبي الحقيق النضري أحد زعماء اليهود في خيبر قبـل غزوة خيبر لأنه كان يتآمر مع غطفان وغيرهم من مشركي العرب على غزو المدينة . فندب النبي له عبد الله بن عقيل مع نفر من المسلمين فذهبوا إليه وتمـكنوا من قتله انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٣٤ .

الحديبية ، وبشر المسلمين الذين معه بها ؛ ومن هذه الإشارات آيات أخرى في سورة الفتح أيضا ، وهي هذه :

« لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا . وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا . . . »

١٨ — ٢١

وقد فسر جمهور المفسرين « الفتح القريب » بفتح خيبر والمغانم الكثيرة بمغانمها ؛ وهذا متسق مع ما قالوه أيضا في الآية السابقة ، كما أن الصيغة تؤكد ما استلهمناه منها ؛ وتعبير « وعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم » مقصود به على الأرجح ما تم في الحديبية من صلح ، وعدم وقوع قتال بين المسلمين وأهل مكة .

ولعله يتضمن إشارة إلى أن فتح خيبر قد تيسر أكثر بعد هذا الصلح .

ومع أن من المفسرين من فسر جملة « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » بفتح مكة أو فتح الأقطار التي فتحها المسلمون بعد ، فإن صيغة الآية تلهم أنها في صدد وقائع حاضرة مؤكد تمامها ، وتسوغ الترجيح بأنها تعني ما تم فتحه بسهولة ويسر من قرى اليهود بعد فتح خيبر ، مثل وادي القرى وتيماء وفدك .

ويستفاد من الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم سار بالمسلمين إلى خيبر بعد صلح الحديبية بنحو شهرين ، وأنه كان في خيبر حصون كثيرة وقوية استغرق فتحها نحو شهر ونيف ، وأن اليهود قاوموا مقاومة عنيفة ، وكان بعض الجهد والمشقة على المسلمين في الرحلة ، وأنه لما تم الفتح صارت جميع المزارع والأموال إلى المسلمين غنيمة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أبقى من أراد من اليهود ليتولى رعاية البساتين مقابل نصف الغلة بعد تجريدهم

من السلاح ، وأجلى الخطرين منهم ، وأنه انصرف عن خيبر إلى وادي القرى ، وكان فيها كتلك حصون عدة ، وقاوم اليهود فيها بعض المقاومة ، غير أن أمرهم صار إلى ماصار إليه أمر أهل خيبر ، وقد دب الرعب في يهود فدك والجرباء وتيماء فأرسلوا رسلهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يصالحونه على نصف أملاكهم ، ويعاهدونه على المسالمة والصداقة (١) .

وليس في القرآن إشارة إلى سبب مباشر أو غير مباشر لغزوة خيبر ، كما أنه لم يرد في الروايات ذكر صريح لمثل هذا السبب ؛ وهذا ما جعل بعض المستشرقين يقول إنها لم تكن إلا رغبة من النبي صلى الله عليه وسلم في مكافأة أهل الحديبية وتطييب نفوسهم ، وبرر قوله بما احتوته الآيات من بشرى المغانم لهم .

على أن الروايات ذكرت مبررات عديدة غير مباشرة . منها أن أبا رافع بن أبي الحقيق النضري أحد زعماء اليهود الذين استقروا في خيبر بعد جلاء بني النضير عن المدينة كان يتآمر مع غطفان ومن حولهم من المشركين ضد المسلمين مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم ينتدب إليه من يقتله . ومنها أن حيياً بن أخطب النضري الذي تزعم يهود خيبر ووصف بأنه ملكهم كان على رأس الوفد اليهودي الذي ذهب إلى مكة وحرض قريشاً على غزو المدينة ثم ذهب إلى غطفان وغيرها وحرضها كذلك وكان زحف قريش وأحزابها على المدينة في السنة الخامسة الذي عرف بوقعة الخندق والأحزاب نتيجة لذلك . ومنها أن هذا الزعم هو الذي أغرى يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين حينما زحفت قريش والأحزاب على المدينة حيث يبدو من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما زحف على خيبر بناء على مبررات قوية متساوقة مع تلقينات القرآن التي لم تكن تسمح بالمبادرة إلى قتال إلا المقابلة أو الدفاع أو بسبب الغدر والخيانة والتي

---

(١) خبر وادي القرى وفدك وتيماء والجرباء في فتوح البلدان للبلاذري ص ٤١ ـ ٤٢ وابن سعد ج ٣ ص ١٦١ وابن هشام ج ٣ ص ٣٩١ و ٤٠٨ .

لايمكن أن يماري أحد فيه إنصاف ومنطق سليم في أن النبي صلى الله عليه وسلم يقدم على مناقضتها .

ولقد كانت هذه المبررات قائمة قبل رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بقصد الزيارة وهي الرحلة التي انتهت إلى صلح الحديبية بين النبي وقريش . فيكون القول إن الزحف على خيبر كان لمكافأة الذين رافقوه في هذه الرحلة في غير محله . وكل مايمكن أن يكون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبيتاً في نفسه فكرة الزحف وأنه أخبر بعض أصحابه به وأنه كان يؤجله إلى فرصة أكثر ملاءمة لأنه لم يكن يرى هناك خطراً عاجلاً . فلما أبرم الصلح مع قريش وأمن به الوقوع بين نارين رأى أن الفرصة المنشودة قد سنحت فقام بالغزوة لإتمام خضد شوكة اليهود في الحجاز ، وتصفية الموقف معهم ، وأمن جانبهم نهائيا ؛ ولقد تساهل في معاملة يهود هذه القرى كما جاء في الروايات التي استأنسنا بها ، وهذا يدل على أن الهدف الذي رمى إليه هو خضد شوكتهم ، وأمن جانبهم فحسب ؛ وواضح أن هذا يظل في نطاق الضرورة وإزالة الضرر كما قررناه في مطلع الفصل .

ولقد كان لليهود قرى أخرى أقرب إلى بلاد الشام منها إلى المدينة مثل أزرح ومتنا وبني جنبة وبني عريض وبني غاويا ، فلما سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في السنة التاسعة على ما سوف يرد في مبحث النصارى سارع زعماء هذه القرى إلى إعلان خضوعهم وولائهم للنبي صلى الله عليه وسلم وتعهدوا بالمسالمة والنصح وأداء الجزية فقبل منهم وعاهدهم .

ولقد ظل المزارعون اليهود في خيبر والقرى الأخرى كما ظل نفر من اليهود في المدينة إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلاهم عن الحجاز . وقد روى في صدد ذلك أنه قال إنا صالحنا أهل خيبر على أن نخرجهم متى أردنا وأنهم عدوا على ابنه عبد الله

وألقوه من فوق بيت وفدعوا يديه كما عدوا على أنصاري معه فكان ذلك سبباً مباشراً لإجلائهم . ولقد روت أم المؤمنين عائشة أنه كان من آخر وصايا النبي صلى الله عليه وسلم حين حضر أجله (لا يترك بجزيرة العرب دينان) فكان فيما فعله عمر رضي الله عنه تنفيذ لهذه الوصية الشريفة حال ما وقع المبرر[1]

---

(١) هذه الأخبار في كتاب فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩ ـ ٤١ و ٦٧ و ٧٣ وابن سعد ج ٢ ص ٥٢ ـ ٥٦ وكتاب الخراج لأبي يوسف ٢٩ وكتاب الأموال للامام أبي عبيد ٩٩ وابن هشام ج ٤ ص ٣٤٥ .

المبحث الخامس

الاستثناءات القرآنية بشأن المؤمنين والمعتدلين من اليهود

مدى الاستثناءات القرآنية ودلالتها ـ قلة مستثناة بسبب التزامها وصايا الله وميثاقه ـ حملة القرآن على الأكثر والكثير ودلالتها ـ صور من سورتي البقرة والمائدة لإخلاص فريق من اليهود وعملهم الصالح بصورة عامة ـ صور من سورتي آل عمران والنساء لإيمان فريق منهم بنبوة النبي والتنزيل القرآني وإخلاصهم ـ دلالات هذه الصور ـ العبرة البالغة في تسجيل القرآن للمحسن إحسانه .

إلى جانب ماأوردناه من آيات تتعلق بمواقف اليهود وجحودهم ودسائسهم ومؤامراتهم وعدائهم والتنكيل بهم ، والتي تلهم أنها شاملة لأكثريتهم الساحقة في الحجاز وخاصة في المدينة ، نجد آيات أو فقرات من آيات تضمنت استثناء لبعضهم من تلك المواقف ، وتنويهاً بسلامة مواقفهم واعتدالهم واقتصادهم ، ومنها ماتضمن إشارة إلى إيمانهم وإخلاصهم ؛ مما يدل من جهة على أن فئة من اليهود ـ وفيها فريق من العلماء ـ قد استطاعوا أن يفلتوا من المؤثرات المتنوعة العنصرية والإقتصادية والنفسية والأنانية التي خضع لها اليهود ، فلم يسعهم إلا أن يروا أعلام النبوة واضحة جلية ، فصدقوا وآمنوا بالنبي والتنزيل القرآني ، ولم يشتروا الضلال بالهدى ويبيعوا دينهم وعلمهم بالعرض الدنيوي البخس ، دون مبالاة بما عليه قومهم ، وبما يمكن أن يلقوه منهم من جفاء وسخط ، واضطهاد وتكذيب ؛ وعلى أن فئة أخرى لم تندفع ولم تتورط في العداء والكيد ؛ ومن جهة أخرى على أن الدعوة النبوية قد قوبلت باستجابة حرة لاإكراه فيها من بعض اليهود في العهد المدني ، بل بحسن إقبال قد يؤدي إلى أذى المقبلين كما كان في العهد المكي مما شرحناه في مبحث سابق ؛ وعلى أن مواقف الكيد والدس والجحود والتآمر إنما كانت لأسباب لاتمت إلى الحق والإنصاف

بل إلى هوى الأحبار والربانيين والزعماء ، وأغراضهم ، وتأثرهم بالمؤثرات الدنيوية ، والجبلة الخلقية ، وتأثيرهم في العامة ، وسوقهم وراءهم في الطريق التي ساروا فيها كما كان شأن أكثر أهل مكة زعماء وعامة أيضا ؛ وهذا وذاك يدعم ماقلناه غير مرة من أنه لم تكن هناك أي فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر ولليهودية كدين ، وأن كل ماهناك هو دعوة الناس جميعا إلى الله وإلى مكارم الأخلاق ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، من دون ما إكراه ولا سيطرة ؛ مما اتسق القرآن المكي والقرآن المدني فيه ، وقد أوردنا في المباحث السابقة آيات عدة مكية ومدنية فيها التأييد الوافي لذلك ؛ وإليك الآن الآيات الاستثنائية الواردة :

الصورة الأولى

١ ـ في سورة البقرة الآية التالية :

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ . . . »

٨٣

ومع أن الكلام قد ربط الآباء بالأبناء فإن الفقرة الاستثنائية جاءت بضمير المخاطب القريب ولا تتضمن دلالة على أن الفريق المستثنى قد آمن بالنبي ؛ غير أنها تتضمن على أي حال دلالة على أنه كان في عهد النبي فريق قليل منهم يتقي الله ويخلص لوصاياه ويقف عند حدودها ، وبالتالي لاينحرف عن الحق ولا ينساق مع الهوى .

٢ ـ ومن هذا الباب الآيات التالية في سورة المائدة :

١ ـ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا

وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ . . . ٥٩

٢ — وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . . . ٦٢

٣ — وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ...

٦٦

٤ — تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ... ٨٠

وقد جاءت هذه الآيات في سياق يدل على أنها في حق اليهود(١) ، وعبارات « أكثركم » و « كثيراً منهم » و « كثير منهم » تدل ـ على الأقل ـ على أن هناك فريقاً قليلاً لم يتورط فيما تورطت فيه الكثرة من الدس والكيد وعمل السوء والفساد . وهذا المعنى بارز بروزاً أكثر في جملة « منهم أمة مقتصدة » ، كما هو ظاهر .

٣ ـ وفي سورة آل عمران الآيات التالية :

« لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ ... » ١١٣ ـ ١١٥

وقد جاءت الآيات عقب آيات تضمنت حملة على اليهود ،لأنها ذكرت أوصافهم(٢)؛ ولذلك نرجح أن الاستثناء لفريق منهم ، وروح الآيات تلهم أنهم ممن آمنوا

---

(١) اقرأ آيات المائدة ٦٠ ـ ٦٦ و ٧٨ .
(٢) اقرأ الآيات ١١٠ ـ ١١١

بالنبوة المحمدية ، كما أن أقوال المفسرين والرواة تؤيد ذلك ؛ وعلى كل حال فإن التنويه القوى الذي تضمنته ، والوصف الرائع الذي وصفتهم به ، يسوغ القول أنهم كانوا على درجة عالية من الإخلاص لله ، والاستغراق في عبادته ، والسير في طريق الخير والعمل الصالح ، وبالتالي وقفوا من مواقف قومهم الجحودية والمؤذية موقف المنقبض ، بل المنكر ، وحاولوا جهدهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والإصلاح .

٤ ــ وفي السورة نفسها أيضا الآية التالية :

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ...» ١٩٩

والآية قد جاءت بعد فصل سابق تناول اليهود بحملة شديدة [1] مما يجعل من المحتمل كثيرا أن يكون موضوع الآية فريقا من اليهود ؛ وهي صريحة الدلالة على إيمانه بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآني ؛ ويستلهم من روحها ومما سبقها في السياق أنها بسبيل طمأنة المسلمين : فإذا كان أكثر اليهود قد وقف موقف الجحود والتعجيز والأذى والتآمر ، وكتمان العلم ، فإن هذا منهم منبعث عن الهوى والنية الخبيثة ، لأن من حسنت نيته منهم قد آمن بالحق ، وتمسك به ، ولم يبع دينه وعلمه بالثمن البخس .

٥ ــ ومن هذا الباب آية جاءت في سورة النساء وهي هذه :

« لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ...» ١٦٢

(١) اقرأ الآيات ١٨١ ــ ١٨٨ .

وقد جاءت الآية عقب حملة شديدةوصريحة على اليهود ؛ ولذلك فإن الاستثناء الذي احتوته هو لفريق منهم حتما .ويلفت النظر إلى وصفهاإياهم بالراسخين في العلم ، وصراحتها بأنهم آمنوا بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآني . ولما كانت آيات عدة حملت على الأحبار والربانيين وأولى العلم من اليهود لكتمهم الحق وتدليسهم بالتوراة وحلف الأيمان ، وإلباسهم الحق بالباطل ، وبيعهم دينهم وعلمهم وعهدهم بأعراض الدنيا ، فإن في الآية دليلا واضحا على أن فريقامن علماء اليهود قد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما تورط به سائرهم فينكر أعلام النبوة ، ويكابر في صدق الدعوة النبوية والتنزيل القرآني ، فآمن بهما ، ولم يعبأ بموقف قومه وزملائه .

هذا ؛ ومن الحق أن ننبه في ختام المبحث على ما في هذه الاستثناءات القرآنية من عبرة بالغة ، ومثل رائع لتسجيل الحسنة لصاحبها ، والتنويه بالمحسن لإحسانه ، وذكر الفضل لذويه ، مما يظل مصدر تلقين قرآني جليل الشأن ويدحض حجة المغرضين .

فصل
في النصارى في العهد المدني

تمهيد

في السور المدنية آيات كثيرة في النصارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع ، وفي عيسى عليه السلام وأمه والحواريين ؛ وقد جاء بعضها بأسلوب محبب وثناء جميل ، وفي بعضها تحذير وتنبيه وتنديد ، وفي بعضها جدل ومناظرة ، وحكاية صدّ وكيد ، وفي بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال ، واستنفار إليه ، ومشاهد رحلة بسبيله .

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لقي في العهد المدني نصارى ودعاهم واحتك بهم ، وأن بعضهم أظهر روحاً طيبة وتلقى الدعوة بالإقبال ، وأن بعضهم تردد أو نأى أو جادل وكابر ، وأن بعضهم قد صدر منه ما تجاوز حد الجدل والمكابرة إلى البغي والعدوان .

والآيات في النصارى وعقائدهم ومواقفهم في القرآن المدني أكثر وأصرح منها في القرآن المكي ؛ بل إن هذا القرآن ـ إذا استثنينا آيات سورة مريم والزخرف التي هي تقويرية والتي كانت الإشارة فيها إلى انحراف النصارى في عقيدة المسيح والتنديد به بأسلوب عام وغير عنيف ـ لم يذكر أهل الكتاب المعاصرين بصورة عامة ، ومنهم النصارى ، إلا بالخير ، على ما ذكرناه في فصل أهل الكتاب في العهد المكي .

وهذا الفرق يلهم أن دائرة الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى في العهد المدني كانت أوسع منها في ذلك العهد ، كما يلهم أن المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم واحتك بهم أكثر تنوعاً ، وأن الذين لقيهم في العهد المكي كانوا أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية ، وأكثر استعداداً بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها .

وليس في القرآن ما يمكن أن يستند إليه في بيان كيفية وظروف ذلك الاتصال والاحتكاك . وهناك بيت من الشعر مروي من مرثية لحسان بن ثابت رضي الله عنه رثى بها النبي صلى الله عليه وسلم وهو :

فرحت نصارى يثرب ويهودها ‏ ‏ لما توارى في الضريح الملحد [1]

حيث يفيد هذا إن صح أنه كان في المدينة فريق من النصارى ظل على دينه إلى ما بعد وفاة النبي « ﷺ » . وهناك رواية تذكر أنه كان في المدينة جالية من النصارى تسكن في مكان يقال له سوق النبط [2] .

أما بالنسبة لمن هم من غير المدينة فقد ذكرت الروايات خبر وفود بعض النصارى إلى المدينة من اليمن والحبشة . ومنهم من جادل وتمسك بنصرانيته ومنهم من أذعن وصدق بالقرآن وبالنبي ما يمكن أن يكون نتيجة لانتشار صيت النبي « ﷺ » وأخباره في العهد المدني أكثر منه في العهد المكي ، كما ذكرت خبر إرسال النبي صلى الله عليه وسلم كتباً ورسلاً إلى بعض الملوك والأمراء النصارى وخبر اتصالات كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وسكان مشارف الشام الذين كان أكثرهم أو كثير منهم من نصارى العرب الحضر منهم والبدو وأخبار سرايا جهادية إليهم وأخبار إسلام بعض زعمائهم وقبائلهم . وفي سورة التوبة فصل طويل في ظروف غزوة تبوك التي سميت في القرآن بيوم العسرة والتي كانت ضد أولئك السكان بسبب ما بدا منهم من عدوان ، وفي هذا مصداق التنوع الذي ذكرناه آنفاً .

وسنعرض صور النصارى في هذا العهد على حسب ما يلهم تصنيف الآيات فيهم كما يلي :

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) عزواً إلى ديوان حسان الذي نشره هرشفلد . وننبه على أن ابن هشام أورد مرثية حسان بروي البيت وقافيته وليس فيها هذا البيت .

١ ـ مدى ما ورد في القرآن عن حالتهم والتنديد بهم .

٢ ـ مواقفهم من الدعوة النبوية .

٣ ـ مواقفهم الحجاجية .

٤ ـ الصدام بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

وسيكون كل موضوع من هـــذه المواضيع في مبحث خاص كما فعلنـا في الفصول السابقة .

المبحث الأول

حالة النصارى في العهد النبوى
والتنديد بهم في القرآن

مدى الآيات الواردة وملهماتها بصورة عامة ـ صورة من سورة البقرة عن نزاعهم وخلافاتهم ـ صورة أخرى من سورة من المائدة ـ إنذارهم في سورة المائدة بوجوب تطبيق أحكامهم على التوراة ودلالته ـ صورة من سورة الحديد عن صفاتهم بصورة عامة مع استدراك انحراف كثير منهم ـ مدى دعوة المسلمين في سورة الصف بالتأسي فيالحواريين . التنديد بعقيدتهم في بنوة المسيح في سورة المائدة ومداه . التنديد بعقيدتهم في سورة التوبة ومداه .

الصورة الأولى

إن الآيات الواردة في حالتهم مطلقة من جهة ، وتمزج بين حاضرهم وماضيهم من جهة أخرى ، وفيها بعض الصور الأخلاقية كما فيها إشارة إلى ما قام بينهم من خلاف ونزاع ؛ أما الآيات التنديدية فهيمصبوبة في الدرجة الأولى على عقيدتهم في المسيحوأمه، ومذكرة لما كان من دعوة المسيح الصادقة إلى الله وانحرافهم عنها ،وهي تمزج كذلك بين حاضرهم وماضيهم .

وننبه إلى أمر مهم فيهذا الصدد ؛ وهو أن الآيات الواردة فيحالة النصارى والتنديد بهم مع مافي بعضها من عنف فإنه لا يمكن أن تنعقد أية نسبة بينها وبين ما جاء في حق اليهود ؛ هذا إلى أن هناك آيات تحتوي ثناء محببا عليهم وعلى أخلاقهم ومواقفهم .تلهم صيغتها أن ما احتوته هو الحالة العامة التي كانوا عليها ، في حين أن عكس هذا ينطبق على اليهود ؛ أي أن الآيات التي تضمنت حملات شديدة عليهم ، ووصفت سوء أخلاقهم ومواقفهم وصفا قارعا ، تمثل الحالة العامة التي كانوا عليها ، وكل ما في الأمر أن القرآن استثنى فريقا قليلا من ذلك .

والمبحث يتنـاول موضوعين يتميز بعضهمـا عن بعض تميزاً ما : الأول فيما ورد من الآيات عن حالتهم ، والثاني فيما ورد في التنـديد بهم ؛ وسنورد كلا منهمـا لحدته .

الصّورة الثانية

فأولا ما ورد عن حالتهم ومداه :

١ ـ في سورة البقرة الآية التالية :

« تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . . . »

٢٥٣

ففي هذه الآية وصف لواقع حال أهل الـكتاب من لدن رسالة عيسى عليه السلام خاصة ، وما آل إليه أمرهم من خلاف ونزاع ؛ وهذا الوصف يشمل اليهود والنصارى ؛ ومما لا يكاد يحتمل ترددا أنه وصف لحالة كل من الفريقين في عهد النبي صلى الله عليـه وسلم التي كان يشاهدها الناس ومنهم العرب غير الـكتابيين . ولقد كان يقع في ظروف البعثة النبوية وقبلها بقليل قتال ، وثورات بين النصارى والإسرائيليين في بلاد الشـام نتيجة لما كان من نزاع وعداء بينهم ، ولما كانت فيه البلاد من اضطراب سياسي ، إذ كان يتداول الحـكم فيها الروم والفرس فيتقوى النصارى بالأولين كما يتقوى الإسرائيليون بالآخرين ، وهلم جرا ؛ كما أنه كان كل من اليهود والنصارى مختلفين فيهـا بينهم ، ومنقسمين فرقاً ومذاهب ، وقد كان يصل الأمر بين النصـارى خاصة قبيل البعثة النبوية وفي ظروفها إلى الثورات والاضطهادات الدامية ، مما ذكرته الآثار التاريخية المعتبرة

والمستندة إلى الوثائق القديمة [١] ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه الحالة مما كان له أثر إيجابي في استعلاء الموقف النبوي والدعوة النبوية في الكتابيين وغير الكتابيين على السواء ، كما أن هذه الحالة تفسر بعض حكم الله في البعثة المحمدية التي استهدفت إنهاء النزاع والخلاف بين الكتابيين ، وحلّ مشاكلهم المذهبية والذهنية ، وجمعهم تحت راية القرآن مع غيرهم ؛ مما احتوته آيات عدة منها هذه الآيات :

« يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ . يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... » ١٥ ـ ١٦ المائدة

٢ ـ وفي سورة المائدة الآية التالية :

« وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ... » ١٤

وقد احتوت تقريراً مطلقاً عن انحراف النصارى عن بعض عهود الله ووصاياه ، فأدى بهم الانحراف إلى الشقاق والتنازع ، والعداء والبغضاء ؛ وروح الآية وظروف نزولها لا تدع مجالا للتردد في أن هذا التقرير يتضمن وصف حالتهم حينما كان ينزل القرآن . ولقد جاءت الآيات ١٥ ـ ١٦ التي أثبتناها آنفاً بعد هذه الآية مباشرة متضمنة إيذان أهل الكتاب ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب من الله يهدي إلى الحق وسبيل السلام ، ويخرج من اتبعه من الظلمات إلى النور ؛ فورود الآيتين المذكورتين عقب هذه الآية يؤيد أن التقرير الذي تضمنته يشمل حالة النصارى حينما ينزل القرآن من جهة ، ويؤكد

---

(١) اقرأ كتاب تاريخ التبشير الإسلامي لأرنولد توماس والمجلدين ٣ و ٤ من تاريخ سورية للدبس وتاريخ فتح العرب لمصر لبتلر مثلا .

ما قلناه قبل قليل من حكمة ربانية في البعثة المحمدية ؛ إذ استهدفت دعوة النصارى واليهود إلى الانضواء إلى الحق والنور اللذين جاء بهما النبي ، والخلاص مما هم فيه من خلاف وانحراف .

٣ – وفي سورة المائدة أيضا الآيات التالية :

« وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ... » ٤٦ – ٤٧

ولقد جاءت الآيات استطراداً في سلسلة تضمنت خبر موقف لليهود في التقاضي عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع أنها تنطوي على تقرير عام فإن الأخيرة خاصة تلهم أنها احتوت إنذارا ربانيا للنصارى المعاصرين بالسير وفق الإنجيل في أحكامهم ، وتلميحاً إلى أن بعضهم لايفعل ذلك ، ثم إن الآيتين معاً تحتويان تقريراً تشريعيا لما يجب على المسلمين أن يحترموه إزاء النصارى ، وهو إقرارهم في القضاء على أحكام الإنجيل دون حرج ، على شرط ألا ينحرفوا عنها ؛ وهذا التقرير مطلق بحيث يشمل النصارى الذين كانوا يعاصرون النبي صلى الله عليه وسلم أيضا بطبيعة الحال .

٤ – وفي سورة الحديد الآية التالية :

« ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ... » ٢٧

وقد تضمنت تنويها محببا وشاملا بما جعله الله في قلوب أتباع عيسى عليه السلام من رأفة ورحمة ، وبما كان منهم من جنوح إلى الرهبانية ابتغاء رضوان الله أقرهم الله

عليها ، كما تضمنت استدراكا لذلك التنويه العام وهو عدم رعايتهم لأحكام الرهبانية حق الرعاية ، وانحراف كثير منهم عن جادة الحق والهدى ؛ ومع إطلاق الكلام في الآية فإن روحها تلهم أن ما فيها من وصف كله أو بعضه يشمل حالة النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ وفي سورة الصف الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ... » ١٤

والآية بسبيل دعوة المسلمين إلى الاقتداء بالحواريين في تأييدهم عيسى ونصرهم له ، وقد احتوى مطلع السورة حملة على بعض المسلمين لأنهم يقولون ما لا يفعلون في صدد الجهاد في سبيل الله ونصر نبيه ؛ وبذلك اتسقت المناسبة بين هذه الآية وذلك المطلع ؛ على أن هذه الدعوة من جهة ما ، والقصة التي سيقت بسبيلها ، تنطويان على ثناء الله على الحواريين ، وإيجاب احترام ذكراهم ومواقفهم على المسلمين أيضا . وفي هذا تدعيم للمودة وحسن الصلات بين المسلمين والنصارى في عهد النبي على ما نبهنا إليه في مناسبة قريبة .

وهذا المعنى مندمج في آيات من سلسلة طويلة في آل عمران ذكر فيها الحواريون كما ترى .

« فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ... » ٥٢ ـ ٥٣

وهو مندمج كذلك في آية أخرى في سورة المائدة كما ترى :

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ... » ١١١

الصورة الثالثة

وثانيا : مما ورد في التنديد بهم ومداه :

١ ـ في سورة المائدة هذه الآيات :

« لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... » ١٧

والآية تحتوى تقريراً تنديديا ومطلقا بكفر القائلين بألوهية المسيح ، وطبيعي أن هذا التقرير التنديدي يشمل النصارى المعاصرين للنبي والقائلين بهذه الألوهية ؛ ولقد جاءت هذه الآية عقب الآيات ١٥ ـ ١٦ التي نقلناها قبل قليل ، والتي وجهت إلى أهل الكتاب تهيب بهم إلى اتباع الحق والنور والكتاب المبين الذي جاء به النبي ؛ وهكذا تكون هذه الآية متصلة بهاتين الآيتين ؛ وكأنما تقول للنصارى ـ والنصارى المعاصرون للنبي هم المخاطبون الأولون بطبيعة الحال ـ إن القائلين بألوهية المسيح قد كفروا بالله وإن عليهم أن يرعووا وينضووا إلى ما جاء به النبي من الهدى والنور وما قرره القرآن المنزل عليه من الحق .

٢ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية .

« لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ

ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . . »

٧٢ ـ ٧٦

والتنديد في هذه الآيات أقوى ، كما أن شموله للنصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أصرح ، كما هو واضح من صيغتها ومضمونها ؛ والآية الأخيرة تلهم أنها نزلت معقبة على مشهد حجاج مواجه بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى ، مما سنعود إلى الكلام عنه في مبحث آخر من هذا الفصل .

٣ ـ وفي السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ... »

١١٦ ـ ١١٧

والآيات حكاية حال لمشهد أخروي ؛ غير أن احتواءها سؤالا استنكاريا لعيسى عليه السلام عما يعتقده النصارى بألوهيته وألوهية أمه ، وحكاية تنصله من ذلك ، ينطويان على تنديد بعقائد النصارى يدخل في شموله المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى إفحام وإنذار لهم ورد عليهم أيضا .

٤ ـ وفي سورة التوبة الآيات التالية :

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ...» ٣٠ ـ ٣١

وواضح أن الآيات تنطوي على التنديد بعقيدة بنوة المسيح وألوهيته ؛ وقد احتوت تنديداً فيه صورة من الصور التي كان عليها عامة النصارى ، وذلك في طاعتهم لرهبانهم طاعة عمياء ، واتخاذهم وإياهم أرباباً أيضا ؛ وصيغة الآيات ومضمونها يلهمان أن ما احتوته من تنديد وصورة يشمل النصارى المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

المبحث الثاني

دعوة النصارى ومواقفهم إزاءها

دعوة النصارى في القرآن المدني ـ تنوع مواقفهم من الدعوة وتعليله ـ صورة رائعة لإيمان بعضهم وفيهم القسيسون والرهبان ـ ترجيح كون الصورة لبعض وفودهم ومداها ودلالتها ـ إشارات قليلة أخرى إلى إيمان بعضهم ـ التعليل القرآني لمواقف الذين جحدوا منهم ـ تعليل قلة الآيات المدنية التي تشير إلى إيمانهم .

الصورة الأولى

إن آيات المائدة ١٥ ـ ١٦ التي نقلناها في المبحث السابق قد احتوت دعوة إلى أهل الكتاب ، وبطبيعة الحال قد شملت اليهود والنصارى ؛ ثم جاء بعدها الآية ١٧ التي نقلناها كذلك ؛ قد وصفت الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم بالكفر ، ووجهت إليهم سؤالا استنكاريا ؛ وورود هذه الآية عقب تلك الآيتين يلهم بقوة أن النصارى قد اختصوا نوعاً ما بالدعوة في هذا المقام ؛ ثم جاءت بعدها الآية التالية :

« يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...» ١٩

وفيها عود على ما بدأته الآيتان ١٥ ـ ١٦ بأسلوب آخر ، إذ احتوت تقرير أن رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قد شملت أهل الكتاب الذين منهم النصارى كما هو واضح ؛ وفيها في الوقت نفسه الهدف الذي نبهنا إليه في المبحث السابق وحكمة من حكم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وشمولها لأهل الكتاب ، ليكون لهم فيه بشير ونذير بعد ما مر عليهم فترة انحرفوا فيها عن الأسس التي احتوتها كتبهم وأوغلوا في

الخلاف والشقاق ؛ على أن في سورة النساء آيات فيها دعوة مماثلة ، واختصاص النصارى فيها واضح ، وهي :

« يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا . لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ... » ١٧١ – ١٧٣

إذ تهيب بالنصارى المعاصرين إلى الارعواء والانتهاء عما هم فيه من باطل لا يتسق مع عظمة الله وصفاته الكاملة ، وتقرر أن عيسى عليه السلام والملائكة المقربين لايمكن أن يستنكفوا عن عبادة الله ، وأن ماينسبونه إلى المسيح إنما هو افتراء عليه ؛ وقد تضمنت الآية الأولى دعوتهم بصراحة إلى الإيمان بالله ورسوله ؛ هذا إلى أن هناك آيات عدة وردت في المحاجة معهم سنوردهافي مبحثها الخاص ،وقد احتوت دعوتهم إلى الإيمان بالنبي والتنزيل القرآني ، إلى الآيات التنديدية التي أوردناها في المبحث السابق واحتوت دعوتهم ضمناً وصراحة أيضا .

الصورة الثانية

أما مواقفهم إزاء الدعوة فهي متفاوتة ؛ إذ كان منهم المستجيب المقبل أحسن إقبال، ومنهم المنقبض المتمسك بما هو عليه ، بل المجادل المشاقّ الصادّ عن سبيل الله ، وهو تفاوت طبيعي ، لأن الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم من النصارى أو اتصل بهم في

العهد المدني فئات متنوعة متباينة ، فيهم البدو والحضر ، والنساك والزهاد المتجردون عن أعراض الدنيا الراغبون في الله وحقائقه ، وفيهم الأمراء وأصحاب المركز والجاه والمطامع، ممن يخضعون على الأكثر لمؤثرات الدنيا وأعراضها ، كما أن فيهم عوام سذجا يتبعون رؤساءهم ويطيعونهم طاعة عمياء .

ولقد احتوت آيات من سورة المائدة وصفاً محبباً للنصارى بصورة عامة ، ومشهداً رائعاً واقعيا من مشاهد استجابة فريق منهم إلى الدعوة والإيمان بالنبي والتنزيل القرآني كما ترى فيما يلي :

« لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ . فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ . وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ... » ٨٢ – ٨٦

ولقد تعددت الروايات في المشهد الذي وصفته الآيات ؛ فمنها ماذكر أنه مشهد نجاشي الحبشة ورجال الدين النصارى الأحباش حينما تلا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه سورة مريم في مجلسه إبان الهجرة ؛ ومنها ماذكر أنه مشهد وفد حبشي أرسله النجاشي أو جاء مع المهاجرين العائدين ، ومنها ماذكر أنه مشهد لبعض وفود نصرانية جاءت من الشام أو نجران اليمن .

ومن الصعب الجزم بإحدى هذه الروايات ؛ غير أن الوصف كما قلنا وصف مشهد

واقعي ، وروحه تلهم أنه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والفقرة الأولى من الآية الأولى تلهم أن الآيات نزلت في وقت كان العداء فيه مشتدا بين المسلمين واليهود ، وبالتالي في وقت كان اليهود فيه مايزالون في المدينة على شيء من القوة ؛ وهذا لا يمكن أن يكون إلا قبل أواسط العهد المدني التي تم فيهاإقصاؤهم عن المدينة ، وبالتاليقبلرجوع المهاجرين من الحبشة الذي لم تختلف الروايات في أنه كان بعد صلح الحديبية . والروايات، وروح آيات آل عمران التي احتوت تعقيباً على مجاس المناظرة الذي انعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ووفد نصارى نجران ، بل نصها ، يسوغ الجزم بأن الوفد رجع دون أن يؤمن ؛ وعلى هذا فالوفد الذي كان منه ذلك المشهد إمّا أن يكون حبشياً أرسله النجاشي للقاء النبي صلى الله عايه وسلم والسماع منه بعد أن عرف عنه ماعرف من المهاجرين ، وإمّا أن يكون قد جاء من أطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت الديانة النصرانية هي السائدة ؛ وكلا الاحتمالين ممكن ومعقول ، وإن كنا نرجح الثاني ، ونرجح أن يكون الوافدون ممن يفهمون العربية ، فهذا التأثر الشديد يرجح أن يكون من أسلوب القرآن وروحانيته وصدق لهجته ، مما يدركه العارف بالعربية ويتأثر به أكثر .

وهكذا يمكن أن يقال إن أخبار النبي صلى الله عليه وسلم قد انتشرت إلى خارج الجزيرة ، فأثارت الأفكار ، واسترعت الأسماع ، وجعلت بعض رهبان النصارى وقسيسيهم ، وبتعبير آخر علماءهم الذين يستطيعون الحجاج والجدل ووزن الأقوال ويرغبون في معرفة وقائع الأمور وحقائقها ، والوقوف عليها بأنفسهم ـ يشدّون الرحال إلى المدينة ، كما فعل بعضهم في العهد المكي على ما ذكرناه في حينه ، ليروا هذا النبي ويسمعوا منه ، وليحاجوه ويجادلوه ؛ وإن منهم من أخذ بما رأى وسمع ، ولمس القوة والحق والروحانية ، والتطابق مع جوهر ما جاء به الرسل ، فصدق وآمن ، وكان منه هذا المشهد الرائع .وخطورة هذا المشهد ـ وما كان من أمثال في العهدالمكي مما انطوت إليه الإشارة في عدة آيات مكية وخاصة آيات الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩ عظيمة جدا من جهة سير الدعوة وأثرها كما هو واضح ؛ إذ جاء شهادة عيان قوية صادقة على

ما كان لروحانية القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم والدعوة من أثر نافذ فيمن كان يسمعها بقلبه وعقله ، وكان رائده الحق والهدى من النصارى ، وفي مقدمتهم رؤساء دينهم .

والآية الأخيرة من آيات المائدة تتضمن إنذارا للذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، فمن المحتمل أن تكون الآية مطلقة عامة وبسبيل التنديد بهؤلاء مع ما ظهر من أعلام النبوة وروحانية القرآن وأثرها في رؤساء الدين النصراني ، كما أن من المحتمل أن تكون قد قصدت الذين كفروا وكذبوا من النصارى خاصة ، لهذا القصد نفسه ؛ وقد يكون هذا أوجه بمناسبة موضوع الآيات نفسها .

الصورة الثالثة

وليس في القرآن المدني آيات أخرى فيها مثل الصراحة التي احتوتها آيات المائدة عن إيمان النصارى وتصديقهم ، غير أن ثمة إشارتين في بعض الآيات يحتمل أن تكونا قد عنتا ذلك ؛ منها ما احتوته الفقرة الأخيرة من آية سورة الحديد التي نقلناها في المبحث السابق ، إذ تشير على ما نرجحه إلى الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أتباع عيسى عليه السلام ، وإلى الذين لم يؤمنوا منهم وظلوا فاسقين ، أي منحرفين عن جادة الحق والصواب ؛ لأن أول الآية قد احتوى إشارة إلى الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ؛ ويلاحظ في وصف الفاسقين تعبير « كثير منهم » ؛ ولا ندرى أيعنى هذا أن كثيرا من الذين لقوا النبي ظلوا فاسقين ، أو أنه يعني وصف النصارى عامة ؟ ونميل إلى هذا أكثر ، لأن كل ما يمكن أن يستفاد من الروايات أن النصارى الذين لقيهم النبي في المدينة قليلون جدا ، قد لا يتجاوز عددهم مئات قليلة ؛ وسورة الحديد نزلت بعد الفتح المكي على ما يستفاد من بعض نصوصها ؛ وهذا الظرف قد كان ظرف استنفار المسلمين إلى غزوة تبوك ، وبعبارة أخرى إلى قتال أهل منطقة كثير منهم نصارى ، بسبب ما كان منهم من بغي وعدوان ؛ فليس من المستبعد أن يكون ذلك الوصف قد عني هؤلاء بصورة خاصة .

ومنها ما احتوته آية في سورة البقرة ننقلها مع آية قبلها للاتصال الوثيق بينهما :

« وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ... » ١٢٠ ـ ١٢١

والآيتان وإن جاءتا في سلسلة طويلة في حق اليهود جاء ذكر النصارى فيهما استطراداً على الأرجح كما قلنا في مناسبة سابقة؛ فإن ما حكي عن النصارى في الآية الأولى لا بد أن يكون حكاية لموقف جحودي وحجاجي وقفه بعضهم ، وهذا يجعل الاحتمال واردا بأن تعبير « الذين آتيناهم الكتاب » في الآية الثانية قد عني النصارى كما عني اليهود ؛ وقد احتوت هذه الآية استدراكا لما جاء في الآية الأولى بشأن موقف المكابرين من الفريقين ، وتقريرا بأن منهم من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فالذين فتح الله بصائرهم، وآتاهم فهم الكتاب منهم ، يتلونه حق التلاوة ، ويفهمونه حق الفهم ، فيؤمنون بالنبي والقرآن لما يجدونه من التطابق بين ما جاء به وما عندهم ؛ أما الذين كفروا منهم فهم الذين عميت بصائرهم فلا يتدبرون آياته ، ولا يفهمونها حق الفهم ، وهكذا تكون الآية قد أشارت كما قلنا إلى الذين آمنوا بالنبي من النصارى ، إلى ما فيها من تعليل قوي بليغ لموقف الكافرين به . ولقد احتوت آيات في سورة التوبة تعليلا لموقفهم أقوى وأصرح كما ترى فيها :

« ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . »

٣١ ـ ٣٤

وفي سورة آل عمران آيات تذكر إيمان فريق من أهل الكتاب وهي :

١ — لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ... » ١١٣ ـ ١١٥

٢ — وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ... ١٩٩

والمجموعة الأولى جاءت بعد حملة تنديدية ضد اليهود . بحيث يمكن أن تكون قد أرادت استثناء فريق منهم كانوا متقين صالحين كما يمكن أن تكون قصدت التنويه بفريق من النصارى كانوا كذلك تقريراً لكون موقف أهل الكتاب لم يكن دائماً سلبياً .

أما الآية ١٩٩ فهي عامة يمكن أن تكون عنت فريقاً من اليهود أو فريقاً من النصارى أو الذين آمنوا من كل من الفريقين ممن أخبرت بإسلامهم الآيات الأخرى .

وقلة الآيات المدنية التي تشير إلى إيمان النصارى بالنبي والقرآن ، يمكن أن تعلل بأن الذين لقوا النبي في المدينة كانوا قليلين ، فلم تكرر مشاهد إيمانهم بحيث تذكر في القرآن كثيرا ، ولقد قلنا في مناسبة قريبة إن ما جاء فيهم في القرآن المدني وخاصة في آيات المائدة ٨٢ ـ ٨٥ والحديد ٢٧ من الثناء المحبب ، قد جاء بأسلوب مطلق وتعميمي ، ويكاد يوحي بأنه يشملهم كافة ؛ وقد ينطوي هذا على الإشارة إلى أن أكثر الذين لقوا

النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة قد آمنوا به وصدقوا التنزيل القرآني ؛ كما يحمل على القول إن الحملة عليهم التي وردت في آيات التوبة التي نقلناها آنفاً وفي غيرها مما نقلناه قبل وما سننقله بعد ، قد عنت بعض الوفود التي ظلت على جحودها ومكابرتها ، وعنت كذلك أولئك الذين وقفوا موقف البغي وأمر النبي والمسلمون بقتالهم من سكان مشارف الشام على ما سوف نشرحه في مبحثه الخاص .

على أن روايات السيرة في الكتب القديمة المعتبرة سجلت وقائع إسلام فئات عديدة من النصارى في مناسبات متنوعة . فرأينا عرضها موجزة فيما يلي إكمالًا للصورة القرآنية العامة .

١ ــ إن تلك الروايات(١) متفقة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل كتباً ورسلاً إلى ملوك الفرس والروم والحبشة والقبط وغسان . وكان رسوله إلى قيصر الروم الذي كان وقت إرساله في بلاد الشام دحية الكلبي وإلى كسرى الفرس عبد الله بن حذافة السهمي وإلى نجاشي الحبشة عمرو بن أمية الضمري وإلى المقوقس ملك الإسكندرية ــ وهذا وصف ابن هشام ــ حاطب بن أبي بلتعة . وإلى أبي شمر الغساني وجبلة بن الأيهم الغساني شجاع بن وهب الأسدي . وإلى ملك بصرة الحارث بن عمر .

ومما ذكرته الروايات أن كسرى مزق الكتاب وأرسل إلى عامله في اليمن باذان يأمره بإرسال من يستطلع خبر النبي فبعث هذا برجلين فقال لهما النبي : أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى . فلما رجعا أخبرا باذان بما قال النبي وتحقق باذان من صحة الخبر فأسلم هو والأبناء أي أبناء الفرس في اليمن . وأن المقوقس أخذ كتاب النبي فجعله في حق من عاج وأرسل إلى النبي يخبره أنه أكرم رسوله وبعث إليه بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وكسوة وبغلة لركوبه وأنه يعلم أن نبياً بقي وكان يظن أنه يخرج بالشام ولم يزد على

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٩ ــ ٣٠ وابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨ ــ ٢٨٠ وكتاب الأموال للامام أبي عبيد ص ٢٠ ــ ٢٤ ، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٨٨ ــ ٢٩٤ .

ذلك . وقد تسرى النبي صلى الله عليه وسلم بإحدى الجاريتين وهي مارية أم إبراهيم رضي الله عنها . وأن النجاشي وضع كتاب النبي على عينيه ونزل عن سريره وجلس على الأرض تواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال : لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته . وأن جبلة بن الأيهم ملك غسان أسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله وأهدى له هدية . وأن حاجباً رومياً اسمه مري لأبي شمر الغساني استوضح من الرسول صفة النبي ثم أعلن إيمانه وتصديقه . وأن عامل قيصر الروم على عمان من أرض البلقاء فروة بن عمر الجذامي أسلم وكتب إلى رسول الله بإسلامه وأهدى له هدية . وكل الذين ذكرت إسلامهم من هؤلاء هم نصارى كما هو معلوم .

ونستطرد إلى القول إن بعض المستشرقين ومنهم كاتياني ينكرون خبر رسائل ورسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك الكبار . وقد حاولوا تأييد إنكارهم بما وجدوه في الروايات من اختلاف في النصوص والتواريخ والأيام والأسماء . بزعم أنه ليس في القرآن نص صريح بعموم رسالة النبي وأن في القرآن نصاً صريحاً بأنه أنزل عربياً لينذر أم القرى ومن حولها . وأن النبي لم يكن في ظروف تسمح له بالتفكير في خارج الجزيرة أو تجعله يجرؤ على إرسال رسل ورسائل إلى أكبر ملوك الأرض إذ ذاك .

وفي هذه الأقوال والمزاعم أخطاء ومفارقات فظيعة . فالاختلاف في النصوص والأسماء لا يمكن أن يعد سوغاً لإنكار الخبر . لأن مثل ذلك يمكن أن يقع في سياق كل حادث . والحادث لم يدون إلّا بعد مدة ما . وظل خلالها متداولًا على الألسنة يزيد الرواة في تفصيله وينقصون ويبدلون ويغيرون . ولقد ورد الخبر في أقدم ما وصل إلينا من كتب كتبت في القرن الثاني والثالث وروى مؤلفوها الخبر عن راو فراو إلى أحد أصحاب رسول الله . وفي النصوص تقارب كبير مع اختلاف الرواة مما يمكن أن يكون فيه تأييد للخبر . وفي القرآن المكي والمدني آيات صريحة بعموم الرسالة المحمدية للناس كافة وللعالمين كما أن فيه آيات وجهت فيها الدعوة إلى اليهود والنصارى بصراحة . وما ورد في القرآن

من آيات تأمر بإنذار أم القرى وما حولها أو تذكر أن الله أنزل القرآن عربيا لإنذار أم القرى وما حولها يعلل بسبب كون العرب الحجاز بين أول من خوطبوا بالدعوة وليس من تناقض بين هـذا وبين عموم الرسالة الثابتة بالنصوص القطعية القرآنية . وإذا كان النبي بذل جهوده الأولى في العهد المكي وقسم من العهد المدني في نشر الدعوة وتوطيد سلطانها في الحجاز خاصة والعرب عامة فإن هـذا طبيعي جدا ولا يعقل غير ذلك .

وزمن إرسال الرسل والرسائل المروي يدل على صحة الحادث، حيث كان ذلك بعد صلح الحديبية حيث قامت حالة الهدنة بين المسلمين وأشد أعدائهم قريش وأحزابها وقبل ذلك كان قد تمكنوا من إجلاء اليهود عن المدينة ثم خضدوا بعد ذلك الصلح مباشرة شوكة اليهود في خيبر ووادى القرى . فكان كل هذا من الأسباب الحافزة على توسيع نطاق الدعوة إلى سائر أنحاء الجزيرة وخارجها . فليس والحالة هذه في الحادث ارتجال يجعل خبره منكراً وموضوعاً كما هو واضح . وفى سورة المائدة آية ذات مغزى خاص في هذا الصدد وهي :

« يَـٰأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . . . »[1]

٦٧

وقد جاءت هـذه الآية عقب آيات طلب فيها من أهل الكتاب أن يقيموا

---

(١) إن مفسري الشيعة (انظر تفسير الطوسي مثلا) ورواتهم ومؤلفيهم يؤولون الآية بأنها أمر رباني للنبي بأن يبلغ الناس ما أمر بتبليغه من وصاية علي بن أبي طالب وخلافته من بعده وأن النبي أعلن ذلك في موقف له عند غدير خم في طريق عودته من مكة إلى المدينة بعد فتح مكة أو بعد حجة الوداع . وهذا من غرائب ما كثر من هذا الباب من تفسيراتهم ورواياتهم . والتهافت في هذا ظاهر ولا يوجد بين هذا وبين الآية وسياقها أية مناسبة بعيدة أو قريبة . وقد فندها الإمام ابن تيمية تفنيداً بليغاً (أنظر المنتقى من منهاج السنة ص ٤٢٢ وبعدها) .

التوراة والإنجيل وما أنزل إلى النبي من الله حتى يسعدوا ويفتح الله لهم بركات كل شيء وهي :

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ... » ٦٥ ـ ٦٦

والفصل الأول من سورة المائدة يدل دلالة قوية على أنه نزل بعد صلح الحديبية . ولعل تلك الآية كانت نقطة الانطلاق في هذا المجال . ولقد أرسل النبي رسله وكتبه إلى أمراء العرب وزعمائهم وقبائلهم في الحضر والبدو في جزيرة العرب. فمن المنطقي جدا أن يرسل رسله وكتبه لإبلاغها لمن هم خارج الجزيرة من ملوك وامراء أيضا .

ولقد كانت أحداث منبثقة عن هذا الحادث روتها الروايات في سياق آخر مثل سلب دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر من قبل بعض بني جذام ترتب عليه توجيه سرية لقتالهم بقيادة زيد بن حارثة . ومثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عمر إلى ملك بصرة من قبل عامل مؤتة الغساني عمرو بن شرحيل ترتب عليه توجيه سرية إلى مؤتة للانتقام بقيادة زيد بن حارثة أيضا . والحادثان وقعا في السنة السادسة وبعد حادث إرسال النبي رسله وكتبه . ولم ينكر المستشرقون واحدا من الحادثين . ثم مثل حادث قدوم مارية وأختها من مصر هدية من المقوقس فتحظى النبي مارية وأولدها إبراهيم . والحادث أيضا في نفس السنة . أما القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليجرؤ على إرسال رسله ورسائله لملوك الأرض الكبار فهو هراء بالنسبة إلى صاحب دعوة مؤمن بدعوته أعمق الإيمان ومستغرق فيها أشد الاستغراق ومعتقد بوجوب نشرها في مشارق الأرض ومغاربها وإبلاغها لجميع البشر تنفيذاً لأمر ربه القرآني أقوى الاعتقاد . وقد رأى علماء اليهود الراسخين في العلم قد آمنوا بها ورأى النصارى الذين هم

في الحجاز قد آمنوا بها ورأى وفود النصارى الذين فيهم القسيسون والرهبان قد آمنوا بها وقد فاضت عيونهم بالدموع مما عرفوا فيها من الحق على ما ذكرته الآيات القرآنية العديدة التي أوردنا نصوصها سابقا فضلا عما كان من شهادتهم بأن رسالة النبي حق وصدق وأن القرآن منزل من عند الله ومن فرحهم به على ما ذكرته كذلك الآيات العديدة الأخرى . فليس هناك أي محل لاستغزاب هذا الحادث وإنكاره والمكابرة فيه . وإرسال النبي كتبا ورسلاً إلى ملوك وأمراء العرب في الجزيرة يقيني ،وكان له آثار يقينية . والمستشرقون الذين يكابرون في إرسال النبي كتبا ورسلا إلى الملوك الكبار لا يكابرون في ذلك ، وليس من فرق في نظر صاحب الدعوة المؤمن بها وليس غريبا . بل وإنه لمن المعقول أن يفكر النبي فى جعل رسله وكتبه شاملة لملوك العرب والعجم جميعا. هذا إلى أنه لا يبدو أن هناك أية ضرورة دينية أو سياسية أو قبلية أو حزبية تحمل أحداً في القرن الأول أو القرن الثاني للهجرة على خلق هذا الخبر وروايته وتدوينه .

٢ ــ روى ابن سعد [١] نص كتاب أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأكيدر ملك دومة الجندل يفيد أنه اعتنق الدين الإسلامي . وكان نصرانيا .

٣ ــ وروى المؤلف نفسه [٢] خبر إسلام الأصبغ بن عمرو الكلبي زعيم قبيلة بني كلب في منطقة دومة الجندل وناس كثيرين من قبيلته على يد عبد الرحمن بن عوف . وكانوا نصارى . وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة .

٤ ــ وروى ابن هشام خبر إسلام عدي بن حاتم الطائي ورافع بن أبي رافع الطائي . وكانا نصرانيين [٣] .

٥ ــ وروى ابن سعد خبر إسلام رفاعة الجذامي وكان نصرانيا [٤] .

---

(١) ج ٢ ص ٥٤ (٢) ج ٣ ص ١٣٣

(٣) ج ٤ ص ٢٤٦ ــ ٢٥٤ و٢٩٩ (٤) ج ٣ ص ١٣١

٦ ـ وروى المؤلف نفسه خبر إسلام الجارود من بني القيس الذي كان في جملة وفدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان نصرانيا[(١)] .

٧ ـ وروى المؤلف نفسه خبر وفادة وفود من تغلب وغسان وبهراء وبلي وعذرة ممن كانوا نازلين في مشارف الشام . وكان منهم من يدين بالنصرانية . ولما تم الفتح العربي الإسلامي في زمن الخلفاء الراشدين أقبل النصارى في بلاد الشام والعراق وجزيرة الفرات ومصر وشمال أفريقيـة سواء منهم العرب الصرحاء أم الذين هم من أنسال الموجات العربية القديمة على اعتناق الإسلام فلم يـكد يمضي بضعة أجيال حتى صار دين أكثريتهم الساحقة .

(١) ج ٢ ص ٧٨ ـ ٧٩

المبحث الثالث

مواقف النصارى الحجاجية

المواقف الحجاجية مع النصارى في القرآن ومداها ـ مقايسة بينها وبين مواقف اليهود ـ أهم المواقف الحجاجية مناظرة وفد نجران ـ تعليق وبيان وخلاصة ماذكرته الروايات في صددها ـ ترجيح انعقاد جلسات متعددة لها ـ الفصول الواردة في صددها في سورة آل عمران ـ تعليقات وتحليلات في صدد الصور والمشاهد التي جرت في هذه الجلسات مستلهمة من الفصول القرآنية ـ تعليق على بعض الروايات في صدد حادث المباهلة بالذات ـ دلالة وفادة وفد نجران ـ صور حجاجية محتملة من سورة البقرة وتحليلات للآيات التي تلهمها ـ صورة حجاجية محتملة من سورة النساء ـ صورة حجاجية محتملة من سورة المائدة ـ دس اليهود للنصارى في الموقف الحجاجي الذي تلهمه آيات هذه السورة .

الصورة الأولى

في القرآن المدني بعض الفصول والمقاطع القرآنية التي تدل على أنه كان ينعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض النصارى مجالس مناظرة وحجاج حول الدعوة الإسلامية وأسسها ، والعقيدة النصرانية في السيد المسيح عليه السلام وغلو النصارى فيها ؛ غير أنها قليلة إذا ما قيست بما احتواه هذا القرآن من الفصول الكثيرة الطويلة في مواقف اليهود الحجاجية ، مما يتسق مع ظروف الفريقين في العهد المدني ، من قلة النصارى الذين لقيهم النبي ، وقلة المستقرين منهم في المدينة ، وما كان يتحلى به النصارى بصورة عامة من دماثة وبعد عن العنف واللجاج ، كما تلهمه الآيات القرآنية التي أوردنا بعضها ؛ في حين كان اليهود جالية كبيرة مستقرة ، لها مصالح متنوعة ، ولها كيان قوي متشعب الجذور والتوغل في حياة المجتمع العربي ، ولها طابع خاص وجبلة متوارثة في التفكير والحياة والمعيشة والأخلاق ، على ما فصلناه في فصلهم الخاص استلهاماً من القرآن .

الصُّورَة الثانيَة

وأهم هـذه المواقف أو المجالس ما كان بين النبي صلى الله عليـه وسلم ووفـد من نصارى نجران اليمن ؛ والاسم لم يرد في القرآن صراحة ، ولـكن الروايات التي لا اختلاف في جوهرها مجمعة على ذلك ، وعلى أن الفصل الطويل الذي شغل حيزاً كبيراً من القسم الأول من سورة آل عمران هو في صدد ذلك .

ويستفاد من الروايات أن هذا الوفد كان مؤلفاً من ستين شخصياً ، منهم أربعة عشر من أشرافهم، وثلاثة من كبار رجال دينهم ؛ فاجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في مسجده وعليهم الحبرات ، وجرت بينهم مناظرة كان أهم مواضيعها ولادة عيسى عليه السلام وصلته بالله ورسالته ، وقد جادلوه مستشهدين بما قرره من أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه ، ورد عليهم منددا بتأويلاتهم التي لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدأ التوحيد المطلق الذي قرره القرآن ودعا إليه ؛ ولـكنهم لم يقتنعوا ، وظلوا يدّعون أنهم على الحق ؛ فطلبهم بأمر الله القرآني إلى المباهلة ، أي أن يدعو ويدعوا هم بأن تكون لعنة الله على الـكاذبين ؛ فلم يجيبوا الطلب ووادعوه وانصرفوا(١) .

---

(١) لا يذكر ابن هشام الذي انفرد في تفصيل خبر قدوم هـذا الوفد والمناظرة (ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢١٦) والذي ذكر أن الشطر الأول من سورة آل عمران قد نزل في صددهما تاريخ قدوم هذا الوفد والشطر الثاني من سورة آل عمران هو في صدد وقعة أحد التي كانت في السنة الهجرية الثالثة . وقد يقتضي تقديم الشطر المروي نزوله في صدد الوفد على الشطر الذي نزل في صدد هذه الوقعة أن يكون قدوم هذا الوفد قبل هـذه الوقعة . غير أن حالة العداء الشديد التي كانت بين مكة والمدينة تجعلنا نستبعد قدوم هذا الوفد في هذا الظرف . ومع أن سياق ابن هشام عن هذا الوفد ورد في كتابه قبل سياق وقعة بدر — وهذا غريب — فإنه ذكر قبله بعض أعمال لليهود من جملتها تحريضهم قريشاً وغطفان على غزو المدينـة ونقض بني قريظة للعهد مع المسلمين . وهذا وذاك إنما وقعا في السنة الهجرية الخامسة ! ومهما يـكن من أمر فالذي نميل إليه هو أن قدوم الوفد كان بعد صلح الحديبية أي في أواخر السنة الهجرية السادسة . حيث وقفت حالة الحرب بين مكة والمدينة . والله أعلم. ومما رواه ابن هشام في صدد المناظرة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى المباهلة قالوا له: ياأبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه . فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأيهم فقالوا له ياعبد المسيح ماذا ترى فقال والله يامعشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل . ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم (يعني حقيقة أمر عيسى) . ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم . وإنه الاستئصال =

وليس من السهل بطبيعة الحال الجزم بأن هذا الفصل الطويل القرآني قد نزل قبل المناظرة أو بعدها ، ولكن روح آياته قد تلهم أن المناظرة لم تكن في جلسة واحدة ، وأن بعض أقسام الفصل نزل عقب الجلسة الأولى ، كما أن بعضها نزل عقب الجلسة الأخيرة وقبل انصراف الوفد إلى أهله ؛ ومما لا يحتمل شكا أن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وحججه كانت في نطاق ما احتواه الفصل على كل حال ، ولهذا فإن الفصل قد انطوى على مشاهد جلسات المناظرة وما دار فيها ، وخاصة حجج النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله .

ومما نكاد نجزم به أن جلسات المناظرة كانت حاشدة ، إذ شهدها أعضاء الوفد ، وشهدها فريق كبير من المسلمين أو كبارهم ؛ ولعل بعض اليهود كانوا من شهودها ؛ وفي بعض الآيات ماقد يلهم أنهم حاولوا أن يتدخلوا أو يدسوا ؛ وإليك الآن مقتطفات من الفصل القرآني الذي استلهمنا أنه في صدد هذه المناظرة :

= منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتهم إلا إلف دينكم والإقامة على ماأنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم . فأتوا رسول الله فقالوا ياأبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح (ص ٢١٥ ـ ٢١٦) . ولقد روى الإمام أبو يوسف في كتاب الخراج (ص٤٠) والبلاذري في فتوح البلدان (ص ٧٠ ـ ٧١) وابن سعد في الطبقات (ج ٢ ص ٥٣ ـ ٥٤) نص كتاب كتبه رسول الله لنصارى نجران رتب عليهم فيه (ألف حلة في السنة ومثوى رسل النبي شهراً فدونه وثلاثين درعا وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً عارية إذا كان كيد باليمن . وجعل لهم جوار رسول الله وذمته على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم . لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا واقف من وقفانيته على ما تحت أيديهم من قليل ولا كثير . وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية . ولا يعشرون ولا يحشرون ولا يطأ أرضهم جيش . من سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن أ كل منهم ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر . ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والأقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة وكتب) . وللتوفيق بين النهاية التي انتهت بها رواية ابن هشام وبين هذا الخبر بمكة أن يقال إن نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم مرتين . مرة قبل الفتح المكي فتناظروا معه وانصرفوا . ومرة بعد الفتح . وكان النبي قد قوي دعوة وسلطاناً وسير بعض سراياه إلى اليمن (انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٢٢ـ٢٢٣) فقدموا عليه وطلبوا منه عهد صلح وأمان فأجابهم إلى ماطلبوا . وفي نص كتاب العهد وأسماء الشهود دلائل قاطعة على ذلك .

١ — الٓمٓ . ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ . مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ
ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ .
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ . هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي
ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ . رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ... ١ — ٨

٢ — زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ
ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ
رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ . ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ . ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ .
شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ . فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ

ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ . أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ . . .

١٤ — ٢٤

٣ — إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ . ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ . فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ . قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ . قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ . وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ . يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي

لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ . ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ
ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُن فَيَكُونُ . وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَىٰ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ
لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .
إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ .
وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ
وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ . وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ... ٣٤ ـ ٥٧

٤ — ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . . .

٥٨ — ٦٤

٥ — يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

٦٥ — ٦٨

الصورة الثالثة

فالآية ١٥ من المجموعة الثانية فيها خطاب لمخاطبين قريبين ، ثم يعقبها تقرير عن حقيقة الإسلام ومعناه ، والآية ٢٥ تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم في صدد محاجة الذين يحاجونه في الله والإسلام ، والآية ٢٣ منها تندد بفريق من الكتابيين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى تحكيم كتاب الله فأبوا ، والآيات ٦٠ و٦٤ من المجموعة الرابعة ، وآيات المجموعة الخامسة ، موجهة إلى كتابيين مواجهة وعلى سبيل المجادلة والتحدي ؛ فكل هذا

يلهم بقوة صحة وقوع المناظرة التي أجمعت الروايات على ذكرها .

ومما ذكرته الروايات أن الوفد أراد أن يتخاص بأسلوب جدلي ، فقال للنبي : ألست تقول بأن عيسى روح الله وكلمته ؟ قال : بلى ؛ فقال الوفد : هذا حسبنا . والمجموعة الأولى احتوت ـ على مايتبادر لنا ـ ردا وتفنيداً لما عمدوا إليه من حجة ، وبالتالي تؤيد صحـة الرواية ، فقد احتوت الآية ٧ منها تقرير أن الله هو الذي يصور الناس في الأرحام كيف يشاء ، واعتبرت الآية ٨ سؤالهم مغالطة ، فردت عليهم مفندة ؛ إذ قررت أن هنـاك آيات محـكمات هن أم الـكتاب وفيها جوهر الدعوة وأسسها التي لا تتحمل تأويلا ، وهناك آيات متشابهة للتمثيل والتقريب ، فلا يتمسك بهذه ويتجاهل تلك ، أو يريد أن ينقض تلك بهذه على تأويل خاطىء إلا من في قلبه زيغ ولم يكن رائده الحق وإنمـا يقصد المـكابرة والتمحك ، أمّاالمؤمنون الراسخون في العلم فلا يمكن أن يتورطوا في ذلك ،وإنما قولهم في صدد الآيات المتشابهة : آمنا به كل من عند ربنا ، ولا بد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد شرح ذلك بالآيات والأمثال ، وأورد الآيات القرآنية المحـكمة التي تقرر وحدة الله وحدة لا شائبة فيها بحيث لا يجوز في حقه أبوّة ولا بنوّة ولا تعدد ولا تجزؤ ولا انفصال ، وقال إنه إذا جاء في القرآن أن عيسى كلمة الله ومن روحه فإنما أريد بذلك التقريب والتمثيل والتنويه بالمعجزة الربانية التي تمت بولادته بلا أب ، فلا يصح أن يحاول بهذا نقض تلك الآيات المحـكمة . ومن الجدير بالتنبيه أن المجموعة الرابعة احتوت تمثيلا لخلقة عيسى عليه السلام بآدم ، وفي الآيات المـكية ذكر أن الله نفخ في آدم وفي الإنسان من روحه فصار حيا[1] فيحتمل أن تـكون هذه الآيات قد أوردت في معرض المجادلة ؛ ويبدو أن المناظرين جادلوا في القرآن وأنـكروا نزوله من عند الله وقالوا إنهم لا يتقيدون به ، فجاءت الآيات الأولى من المجموعة الأولى تنوه بكتب الله ثم تقرر أن الله قد أنزل القرآن مثلها ، فليس هو بدعا ، وإن فيه لفرقاناً بين الحق والباطل فيجب أن يؤمن به

(١) اقرأ آيات الحجر ٢٩ والسجدة ٧ ـ ٨ مثلا .

من آمن بكتب الله السابقة ، وإن الذين لا يؤمنون به سيكونون موضع انتقام الله وعذابه .

وعلى هذا فمن السائغ أن يقال إن المجموعة الأولى قد نزلت بعد جلسة ما ، أو بعد الجلسة الأولى ، رداً على ما كان منهم من إنكار للقرآن ، ثم تفنيداً للمغالطة التي عمدوا إليها ؛ كما أن من السائغ أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد رد عليهم في نطاق هذه الحجج ثم نزلت الآيات مرددة أو مؤيدة له ، ولهذا نظائر عدة في القرآن نبهنا إليها في مناسبات سابقة .

ويلمح خلال آيات المجموعة الأولى وملهماتها ـ إذا صح شرحنا وتوجيهنا ـ تناقض للمناظرين ، أو أسلوب من أساليب المناظرة والجدل ، فقد أنكروا القرآن ثم أخذوا يحاجون النبي صلى الله عليه وسلم فيما قرره بشأن عيسى عليه السلام وأنه كلمته أو روحه أو من روحه ؛ ولعلهم قالوا كما يقول المناطقة أو المتناظرون : لنسلم جدلا بالقرآن ، فالقرآن يقول كذا وكذا ، وفي هذا صورة بارزة وطريفة من صور المشهد على ماهو المتبادر .

وفي المجموعة الثانية خطاب موجه إلى مخاطبين حاضرين ، وخطاب آخر موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صدد المحاجين ، وهذا ماجعلنا نستلهم أنها هي أيضاً في صدد المناظرة ، وقد احتوت تدعيماً للنقطة التي جرى الحجاج فيها ، والتي انطوت على الإشارة إليها المجموعة الأولى ، فوحدانية الله أمر محكم لا يتحمل أي كلام ، والله وملائكته وأولو العلم يشهدون على هذا ويشهدون بما اتصف به من القيومية الدائمة بالحق والقسط ، والطاعة والانقياد . والإسلام لله هو الدين الحق الواجب على الناس . وحجاج الكتابيين ولجاجهم في الأمور المحكمة ليس من الدين ، وإنما هو مظهر من مظاهر اختلافهم في التأويل وتجاوزهم فيه حدود العقل إلى البغي والغلو ، ومن لم يطع وينفذ ويرعو عن البغي فعند الله حسابه ، ثم نقل الكلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم : فإذا ظل المناظرون في لجاجهم بعد سطوع الحجة البالغة فليعلن عن نفسه وعمن تابعه ، إسلامهم لله ، وليكتف

بدعوة النــاس كتابيين وأميين إلى مثل ذلك ، وليـكل إلى الله أمر من يتولى ويعرض منهم .

ولقد تـكون بعض آيات المجموعة محل تساؤل عما إذا كانت ذات صلة بالمناظرة ، وذلك بسبب أن ما احتوته مما وصف به اليهود في آيات أخرى ، ونعني الآيات الأربع الأخيرة من المجموعة الثانية أي الآيات (٢١ ـ ٢٤) ، غير أن انسجامها مع السياق من جهة ، وبعض مضامينها وخاصة الآية ٢٣ من جهة أخرى ، جعلانا نميل إلى القول بصلتها بالمناظرة ، وورود الصفات التي فيها حق اليهود لا يمنع ـ فيما يتبادر لنا ـ أن يوصف بها فريق من النصارى وقفوا موقف اللدد والمـكابرة ؛ على أن مما يرد على البال أيضاً أن النبي قد دعا المناظرين إلى تحـكيم كتاب الله وآياته فتدخـل اليهـود ودسوا حتى جعلوهم يأبون .

وقد يكون في الآية الأولى من المجموعة الثانية تأييد لما ذكرته الروايات من أن الوفد جاء وعليه الحبرات الديباجية الموشاة ، وعلى هيئة أثارت دهشة المسلمين ، إذأشارت إلى طبيعة البشر في انهماكهم في حب الدنيا وزينتها مع أن ماعند الله أعظم وأبقى للمؤمنين المستغفرين الصابرين الصادقين القانتين الخ .

وعلى كل حال فإنه يتبادر لنا أن كل آيات المجموعة الثانية أو جلها متصلة بالمناظرة ، وأنها نزلت بعد جلسة مامن جلساتها وقبل انتهائها ، ومما لا ريب فيه أن النبي قد تلاها في الجلسة التالية ، أو أدار حديثه في نطاقها مقررا ومنددا وداعيا إلى تحكيم كتاب الله ثم داعيا إلى الإسلام والانقياد لله .

أما المجموعة الثالثة فهي ـ على ماهو المتبادر الواضح ـ في صدد موضوع المناظرة بالذات ، أو أهم مواضيعها ، وهو خلقة عيسى عليه السلام ورسالته ، وتقرير قرآني لما هو الحق فيه ، وقد احتوى تمهيدات مثل تقرير نذر أم مريم ما في بطنها لخـدمة الله ، وتقبل الله لهـا في خدمته بقبول حسن ، ورعايته لها رعاية عظيمة ، وذلك بسبيل تقرير طهارتها وانقطاعها لله وتأهلها للمعجزة الربانية ، ومن هذه التمهيدات قصة ولادة يحيي عليه السلام

وما فيها من إعجاز ، وذلك بسبيل تقرير أن ذلك لم يقتض أن يكون يحيى إلها أو جزءا من إله .

وقد احتوى الفصل تقرير أمر واقع هو أن خلقة عيسى معجزة ربانية ليس غير ، وتقرير أمر رسالته وحكاية ما كان من دعوته الناس إلى عبادة الله وحده ، وما كان من نسبته ما ظهر على يده من خوارق إلى الله ، وتقرير استجابة الحواريين لدعوته في حياته على وجهها الصحيح المحكي ، وأن الاختلاف فيه وفيها إنما كان بعد توفيه .

ولقد علقنا في فصل الكتابيين من قسم العهد المكي تعليقات كافية في سياق فصل سورة مريم تغنينا عن الزيادة هنا ، وفي هذه المجموعة عود على بدء اقتضته حكمة التنزيل توكيداً وتأييداً ، ويلاحظ بعض الفروق بين ما جاء في فصل سورة مريم وما جاء في هذه المجموعة ، مما يحمل على القول أن هناك من أدوار الحديث على بعض جزئيات من سيرة السيد المسيح وأمه ورسالته وخوارقه وموقف الحواريين منه ، أو سأل عن ذلك ، فاحتوت الآيات ما فيه البيان مما لم يرد في فصل سورة مريم .

وليس من الممكن الجزم بأن آيات هذه المجموعة نزلت قبل المناظرة ، أو بعدها ، أو خلالها ؛ والحالات الثلاث واردة الاحتمال على تفاوت في قوته ؛ ولعل أوجه الاحتمالات أن تكون نزلت بعد جلسة من جلسات المناظرة دار الحديث فيها حول الموضوع مبدئيا ، فتليت في الجلسة التالية كتقرير قرآني رباني فيه ، ونرجح أنها نزلت بعد نزول المجموعتين الأوليين ، إذ يتبادر لنا أنه دار في الجلسة الأولى بحث حول ولادة عيسى عليه السلام ، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآيات المكية فيها ، فجادلوه على ما ذكرناه قبل قليل ، ففند أقوالهم في نطاق ما جاء في المجموعتين ؛ ثم نزلتا بعد الجلسة فتلاهما ، ثم نزلت المجموعة الثالثة بعد هذه أيضا فتلاها في الجلسة التي تلتها .

ونرجح أن المجموعة الرابعة نزلت هي والمجموعة الثالثة في آن واحد ؛ وتلهم أن

المناظرة قد انتهت بها ؛ إذ احتوت تقريراً وتعقيباً وتحدياً ودعوة ختامية ؛ فخلقة عيسى ليست أعظم من خلقة آدم ، وهي مما يعترف به المناظرون ؛ ولم يعد ثمة إمكان للمراء لمن يريد الحق ؛ فإذا أصر المناظرون في لجاجهم بعد هذا فلم يبق ما يقال لهم إلا تحديهم بأن يجتمع الطرفان ومعهم من يعزون من أبنائهم ونسائهم ، فيطلب الجميع من الله أن يجعل لعنته وسخطه وغضبه على الكاذبين منهم وإلا أن يدعو النبي الكتابيين المناظرين إلى كلمة سواء بينهم وبينه ، فيعلنوا معا أنهم لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون به شيئًا ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دونه ؛ فإن لم يعلنوها معه فليعلنها هو باسمه واسم أتباعه ، وليشهدهم على أنهم مسلمون لله وحده لا شريك له ، ولا رب غيره .

ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليهم هذه الآيات القوية النافذة أو خاطبهم بما في نطاقها ، وأنه دعاهم إلى ما أمر بأن يدعون إليه ، وأعلن ما أمر أن يعلنه في المشهد الحافل ؛ ومضمون الآيات وروحها يلهمان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في موقف القوي المطمئن بقوة موقفه وصحة دعواه ، والمستعلي على مناظره بالحجة الدامغة ، والصميمية العميقة ، والتحدي المفحم ، والدعوة التي لا يردها إلا الممتري .

ولقد ورد في صدد آية المباهلة (٦٠) رواية متصلة بالمشهد . مفادها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أصبح دعا علياً وفاطمة و الحسن والحسين رضي الله عنهم وغدا بهم ليباهل القوم . ويتمسك الشيعة كثيراً بهذه الرواية ويسوقونها للتدليل على أن كلمة (نساءنا) لا تعنى زوجات النبي (ﷺ) لأنه لم يدع أحداً من زوجاته وإنما دعا فاطمة فقط . وإن كلمة (أنفسنا) تعني علياً لأن الإنسان لا يدعو نفسه وما دام أن النبي دعا علياً فإن الكلمة تعنيه [١] ! وهذا التفسير عجيب مناقض للمعقول والمنقول بل والنصوص القرآنية . وابن هشام الذي انفرد بتفصيل خبر المناظرة بين النبي ووفد نجران لم يذكر ذلك . بل لم يذكر

---

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطوسي .

أن النبي استعد للمباهلة . وأسلوب الآية لا يقتضي ذلك . وهو أسلوب تحد وإفحام .

وقد ألحقنا المجموعة الخامسة بمجموعات المناظرة بسبب احتوائها لفظي « الإنجيل » و « نصرانيا » إذ رأينا من المحتمل أن يكون موضوع ملة إبراهيم قد أثير في جلسات المناظرة ، وأن المناظرين النصارى ادعوا أن ملتهم وملة إبراهيم سواء ، فنزلت الآيات تردد ذلك وترد عليه ، على أننا لا نتشدد في الاحتمال؛ لأن ذكر النصارى في موضوع ملة إبراهيم قد ورد أيضاً في سلسلة حجاجية مع اليهود خاصة ؛ مما جعلنا نقول إن ذكرهم قد جاء من قبيل الاستطراد .

وعلى كل حال فالمجموعات القرآنية التي نقلناها مع الروايات الواردة في صددها والتي استأنسنا بها ، سمحت لنا باقتباس صورعدة لمشاهد حادث يمكن أن يعد من أعظم أحداث السيرة والدعوة في العهد المدني ، ومن أشدها إثارة للدهشة ، وبعثاً للاهتمام بما كان من وفرة عدد الوفد ، وهيئته ،ومجالس المناظرة الحاشدة التي انعقدت بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم كما هو المتبادر ، مما يدل على أن شأن النبي واسمه ظلا يتجاوزان أفق الحجاز ويلفتان أنظار الملل الأخرى ، ويسترعيان أسماعها ، ويبعثان في نفوس رجالتها رغبة إلى الاستصلاح والاستماع والاستيثاق ؛ وعلى أن دار الهجرة النبوية صارت مما يشد إليه الرحال بقصد العلم والمعرفة والمناظرة والمحاجة .

الصّورة الرابعة

وهناك آيات في سور البقرة والنساء والمائدة من المحتمل كثيرا أن تكون نزلت في صدد مواقف حجاجية مواجهة بين النبي صلى الله عليه وسلم وفريق من النصارى أيضاً :

١ ـ فقد جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ

عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ... » ١١١ — ١١٣

وهي تحكي أقوالا لليهود والنصارى في آن واحد . والآيات من سلسلة طويلة في حق اليهود ، ومن المحتمل أن يكون ذكر النصارى جاء فيها من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن مما لا يحتمل أن يكون اليهود قالوا (كونوا نصارى تهتدوا) ، وأنه لا بد أن يكون هذا القول قد صدر من نصارى في موقف ما ؛ وفي القول رد حجاجي على دعوة موجهة إلى القائلين كما هو واضح ، فيه تبجح وفيه استكبار .

والآية الثالثة جديرة بالتعليق ؛ إذ تحكي حكاية قول كل فريق ورأيه في الآخر ؛ وصدور هذا القول من كل منهما في حق الآخر مما لا يحتمل شكا ؛ فهو متردد على ألسنتهم أبداً :أمس واليوم وغداً ، والراجح أنه صدر من كل فريق في غياب الآخر بسبيل دعواه أنه هو وحده على الحق وأنه لن يدخل الجنة إلا من هو على ملته ! والآية قرينة قوية على صدور القول الأول أيضا فعلا أمام النبي صلى الله عليه وسلم في موقف مواجه . ولا ريب في أنه كان لموقف ورأى كل فريق في الآخر أثر إيجابي فيما كان من استعلاء الموقف النبوي والدعوة النبوية ، في نفوس العرب والكتابيين على السواء ؛ وأن يكون من أسباب تبرم بعض علماء الكتابيين من نصارى ويهود ، وإقدامهم على التفلت من المؤثرات المتنوعة ، واستجابتهم إلى الدعوة النبوية دون مبالاة ببني قومهم وملتهم ؛ لاسيما أن الخلاف بين الكتابيين مما كان موضوع بحث وعجب وسخرية عند العرب على ما ذكرناه في مناسبات سابقة .

٢ ــ وقد جاء في سورة البقرة أيضاً الآيات التالية :

« وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ...» ١٢٠ ـ ١٢١

والآيات تحكي موقف كل من النصارى واليهود من النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهي من سلسلة طويلة في حق اليهود في الوقت نفسه ، مما يجعل من المحتمل كثيراً أن يكون ذكر النصارى فيها قد ورد من قبيل التعميم والاستطراد ، غير أن مما لا يحتمل شكا أنها حكاية واقع حال كل منهما فعلا ؛ ولا بد أن تكون قد تكشفت للنبي صلى الله عليه وسلم بالاحتكاك والمواقف الحجاجية المواجهة ؛ وفي الآية الثانية تدعيم لذلك إذ تأمر النبي بأن يقول لهم إن هدى الله هو الهدى الحق .

٣ ـ وقد جاء في سورة النساء الآيات التالية :

« يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا . لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ...» ١٧١ ـ ١٧٣

والآيات موجهة إلى النصارى كما هو واضح ، وبأسلوب مزج فيه الحجاج والنهي والدعوة والتنديد والإنذار معاً ، والصيغة تلهم أنها تخاطب فريقاً يسمع أو من الممكن أن يسمع مواجهة ، ومما لا يحتمل شكا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلا عليه الآيات في موقف حجاجي مواجه .

٤ ـ وقد جاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ . لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ . كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ . تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ... » ٧٧ ـ ٨٠

وهذه الآيات قد جاءت عقب الآيات (٧٢ ـ ٧٦) التي قررت كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وإنه ثالث ثلاثة ، ونددت بهم ودعتهم إلى التوبة والاستغفار ، وقررت حقيقة ما دعا إليه المسيح صلى الله عليه وسلم وأنه ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، وقرعتهم على عبادتهم ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً من دون الله ، والتي نقلناها في مبحث سابق من الفصل ، والتي يجب أن تعد جزءا من هذه الآيات وما احتوته من موقف حجاجي وتنديدي ، ومضمونها يدل بجزم على أن النصارى هم موضوع الخطاب ؛ ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وجه الآيات إلى فريق نصراني لقيه في موقف مواجه .

ويلفت النظر خاصة إلى الآية ٧٧ التي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بنهي هـذا الفريق عن اتباع أهواء القوم الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً من غيرهم وما زالوا ضالين عن سواء السبيل ؛ إذ هي تسوغ لنا القول بجزم إن المقصود هم اليهود ؛ وقد أكدت هذه الآية التالية لها إذ ذكرت بني إسرائيل بصراحة وما كان من لعنة داود وعيسى لهم بسبب ما ارتكسوا فيه من المنكرات وعدم نهي أحد منهم أحداً عنها ؛ وقد أشارت الآية الأخيرة إلى واقع حالهم الحاضر ، إذ لا يتورعون عن تولى الكافرين المشركين مع ما يدعونه من التوحيد وما ينتسبون إليه من كتاب الله وأنبيائه كحجة منضمة أريد بها التدليل على ارتكاسهم في الضلالة وتضامنهم مع المشركين بقصد

الدس على دعوة الله ، والصد عن سبيلها ، وإضلال الناس عنها . ويبدو أن فريقاً من اليهود حاولوا صد الفريق النصراني عن الإسـلام ، وتثبيته على ما هو عليه من كفر صريح ؛ فـكان هذا النهي وهذا التقريع ، وكانت هذه الإشارة إلى توليهم المشركين ليـكون فيها عبرة الفريق النصراني ، ورادع عن الاستماع إليهم . وفي كل هذا صور من المشهد الحجاجي الذي انطوت عليـه السلسلة كما هو المتبادر ؛ والآية ٧٩ قصدت تقوية العظة وداعي العبرة والروع الموجه للفريق النصراني ؛ فعيسى عليه السلام قد لعن اليهود لمـا ارتـكسوا فيه من المنـكرات ، وداود عليه السلام ــ جده لأمه ــ قد لعنهم من قبله ؛ وفي هـذا ما يجب أن يـكون رادعاً وعبرة للفريق النصراني ، وصارفاً عن الاستماع إلى دسهم ووساوسهم .

وفي هذا أسلوب بديع من الجدل المحـكم والحجة البالغة بالنسبة للموقف الذي طرفه نصارى كما هو واضح أيضا .

المبحث الرابع

الصدام مع النصارى

حالة النصارى في المدينة وأخلاقهم لم تكن تتحمل صداماً ـ مدى النهي القرآني عن اتخاذهم أولياء ـ اختلاف الحالة بالنسبة لنصارى مشارف الشام ـ ماذكرته الروايات من أخبار عدوان قبائل هذه المشارف وسرايا النبي إليها ـ آيات التوبة بقتال الكتابيين وترجيح نزولها بين يدي غزوة تبوك ـ آيات التوبة بالاستنفار إلى غزوة تبوك ـ مدى الآيات ـ تعليقات وتحليلات حولها ـ ماتلهم من سبق بغي سكان المشارف وسبق الصدام الذي روته الروايات ـ خلاصة الروايات عن ظروف وأحداث غزوة تبوك ـ مقاطع من سورة التوبة تحتوي صوراً ومشاهد من حركة الاستعداد للغزوة وتأليفها ـ إشارة إلى ما يتبعها من جيش أسامة ثم جيوش الفتح وصلتها بها ـ مغزى هذه الغزوة ومداها ـ تفنيد لمزاعم بعض المستشرقين فيها .

الصورة الأولى

لم يكن في المدينة جالية ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينها وبين النبي والمسلمين صدام ، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود ، هذا إلى أن الآيات القرآنية المدنية لم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم ، بل وصفتهم بأوصاف محببة إطلاقاً ، مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم في المدينة كانوا دمثي الأخلاق ليني الجانب ، غير جانحين إلى عنف وكيد ؛ وهذا ما جعلنا نرجح في مناسبة سابقة أن موضوع آيات المائدة ٥١ ـ ٥٢ و ٥٧ ـ ٥٨ التي نهى فيها المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، هم اليهود مباشرة ، وأن ذكر النصارى في الآية ٥١ قد جاء استطراديا ومعللا بالتعليل الذي احتوته الآيات ٥٧ ـ ٥٨ ليكون تلقيناً قرآنيا مستمر المدى ؛ وترجيحنا مستلهم مما احتوته الآية ٥٢ من نعي على المنافقين أن يتمسكوا بأوليأهم خشية الدوائر ؛ واليهود هم الذين كان بينهم وبين المنافقين ولاء متصل بما قبل الهجرة ، ومحتج به .

الصُّورة الثانيَة

أما بالنسبة إلى الخارج فالأمر مختلف . حيث كان غالب سكان مشارف الشام نصارى تابعين لنفوذ دولة الروم البيزانسية التي كانت عاصمتها (القسطنطينية) وقد ذكرت الروايات سلسلة من الوقائع التي فيها عدوان أو محاولة عدوان من بعضهم والتي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يقابلهم على ذلك .

من ذلك غزوة خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأسها في أوائل السنة الخامسة للهجرة بما بلغه من تجمع جموع في منطقة دومة الجندل التي كانت تبعد عن المدينة خمس عشرة ليـلة وعن دمشق خمس ليال للدنو من المدينة وعدوانهم على القوافل وقد بلغ المنطقة وبث فيها سراياه . وهرب الناس من وجهه . فعاد دون أن يصطدم مع أحـد[(١)] .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة زيد بن حارثة في السنة السادسة إلى حسمي ؛ لأن جماعة من بني جذام اعتدوا على دحية الكلبي رسول رسول الله إلى قيصر فشلحوه في طريق عودته من الشام . وقد أغار زيد عليهم . فقتل وسبي وغنم منهم[(٢)] .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل ولم تذكر الروايات سبب مباشراً . والراجح أنها لنفس السبب الذي خرج به النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ذكرت الرواية أن النبي عمم عبد الرحمن بيده وقال له (اغز باسم الله وفي سبيل الله من كفر بالله ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً . وقد سار فدعا بني كلب إلى الإسلام فأسلم زعيمهم الأصبغ بن عمرو وأسـلم معه ناس كثير من قومه وتزوج ابنته . وصالح من لم يسلم منهم على الجزية[(٣)] .

ومن ذلك سرية سيرها النبي بقيادة كعب بن عمير إلى ذات أطلاح من أرض

---

(١) ابن سعد . ج ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٤ . (٢) ص ١٠٣ .
(٣) نفس المصدر ص ١٣٢ .

الشام للدعوة . فدعوا من وجدوه فرشقوهم بالنبال وقتلوا معظمهم (١) .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة زيد بن حارثة إلى مؤتة في البلقاء لأن عاملها شرحبيل الغساني قتل الحارث بن عمير رسول رسول الله إلى ملك بصرى . وكانت السرية جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف . وقد اشتبكوا بالجموع التي جمعها شرحبيل من بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام وكان قتال شديد وقتل قائد السرية ثم استلم القيادة جعفر بن أبي طالب فقتل فاستلمها عبد الله بن رواحة فقتل فاستلمها خالد بن الوليد وتمكن من الانسحاب بمن بقي من المسلمين (٢) .

ومن ذلك سرية سيرها بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل لما بلغه من تجمع جموع قضاعة بقصد الدنو من المدينة . فوطيء بلادهم ودوخها وهرب أهلها منه (٣) .

وهكذا يكون الصدام المسلح بين النبي والمسلمين من جهة وسكان مشارف الشام الذين كانت غالبيتهم نصرانية من جهة أخرى قد بدأ منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني واستمر .

وليس في القرآن إشارة صريحة إلى ذلك ؛ غير أن في سورة التوبة آيات تأمر بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، وتذكر أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يصدون عن سبيل الله ، وهي هذه :

« قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَـٰغِرُونَ . وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ

(١) ١٧٣ – ١٧٤ . (٢) ١٧٤ – ١٧٧ . (٣) ١٧٧ – ١٧٨ .

ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ . هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . . . »

٢٩ ـ ٣٤

والآية الأولى تشريعية ، والأخرى تنطوي على حكمة التشريع بالإضافة إلى ما في الأولى من هذه الحكمة . وقد يدخل في الآيات اليهود والنصارى معاً ؛ غير أن الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي على ما يلهمه ترتيبها حيث وضعت بعد الآية التي تحظر على المشركين الدخول إلى المسجد الحرام . ولم يكن قد بقي في الحجاز يهود أقوياء يجب قتالهم . وقد جاء بعدها بقليل آيات تستنفر المسلمين إلى القتال في سبيل الله وتندد بالمتثاقلين عن ذلك، وأجمعت الروايات على أنها في صدد الاستنفار إلى غزوة تبوك التي هي من مشارف الشام والتي كان غالب سكان منطقتها نصارى .

وقد احتوت وصفا يلهم بقوة أنه وصف لها كما ترى فيما يلي :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ...»(١)
٣٨ ـ ٤٢

فهذه الآيات وتلك والحالة هذه تنطوي على إشارات قرآنية إلى الصدام بين النبي والمسلمين من جهة ، والنصارى من جهة أخرى .

الصورة الثالثة

ومع أن كثيراً من المفسرين قد صرفوا الأوصاف الثلاثة المذكورة في الآية الأولى إلى أن كفر الكتابيين برسالة النبي والدين الذي أتى به سبب مطلق ، وقالوا إنه موجب التشريع ، فإن هناك ما يحمل على التوقف في التسليم بذلك ؛ لأنه يقتضي أن يكون المسلمون مأمورين بمقاتلة كل كتابي إطلاقا إذا جحد رسالة النبي ، مع أن الآية قد احتوت حرف التبعيض « من » الذي لا شك في أنه يعترض ذلك القول الإطلاقي ، ويسوغ صرف الأوصاف المذكورة إلى حالات أوسع تناولا ، ويجعل أمر القتال منوطاً بأسباب أخرى ؛ فعدم تحريم ما حرم الله ورسوله ، وعدم الدينونة بدين الحق ، يتسعان لمعان كثيرة أخرى مثل العدوان على القوافل وإخافتها وسلب أموالها ، مما هو مناقض لكل حق ودين ، ومما كان حالة واقعة عند نزول الآيات والاستنفار إلى غزوة تبوك ، ومثل عدم تقيدهم بقيود الحق والعدل في معاملة الناس وفي أموالهم ودمائهم وحرياتهم المتنوعة مما يأمر به دين الله وأنبيائه ، ويزجر عنه خوف الله واليوم الآخر ، ومما يصح أن يكون تعليلا مستمراً لحكمة التشريع التي انطوت في الآية الأولى ؛ وقد

(١) الآية الأخيرة هي التي احتوت وصف الرحلة بأنها بعيدة الشقة غير يسيرة المنال .

يدعم هذا ما ورد في الآيات التي تلت هذه الآية من إرادتهم إطفاء نور الله، وصد كثير من رهبانهم الناس عن سبيل الله، مما يعني وقوفهم في وجه الدعوة وحريتها ونشرها والاستجابة لها، ومما كان في الغالب حالة واقعة، ويصح أن يكون كذلك تعليلا مستمراً لحكمة التشريع أيضاً؛ ومعلوم أن هذا كان من الأسباب التشريعية لقتال المشركين؛ هذا إلى أن قولهم ذاك ينقض المبدأ القرآني المحكم في آية الممتحنة ٨ خاصة وفي البقرة ٢٩ - ٤١ و ١٩٠ - ١٩٤ والنساء ٩٠ - ٩١ وغيرها، من أن الجهاد الإسلامي دفاعي ورد لبغي وعدوان سابقين يشملان الطعن في الدين والفتنة عنه والوقوف في وجه حرية الدعوة إليه وممارسة شعائره؛ فضلاً عن مناقضته كذلك لما هو ثابت من النهي النبوي عن قتال غير المحاربين من الكتابيين كالرهبان والشيوخ والنساء والأطفال؛ إذ ينطوي فيه ألّا يكون عدم إسلام إنسان ما سببا لقتاله؛ وعلى هذا كله فإننا نقرر بشيء من الجزم أن الآيات قد نزلت في قتال الكتابيين الذين يبدو منهم بغي وعدوان، حتى تخضد شوكتهم ويؤمن بغيهم وعدوانهم بالخضوع التام، ودفع الجزية للسلطان الإسلامي؛ وهو ما يتسق مع المبادئ والتقريرات القرآنية بوجه عام. وما دام الأمر كذلك فإن من الممكن القول بجزم أيضا إن غزوة تبوك التي استنفر إليها بالآيات التي أوردناها آنفا والتي نزلت تلك الآيات بين يديها قد كانت غزوة مقابلة على عدوان وبغي سابقين؛ وهذا يؤيد ما ذكرته الروايات بوجه عام من قيام حالة الحرب بين المسلمين وسكان مشارف الشام نتيجة لعدوان وبغي كان هؤلاء السكان بادئين بهما. وهو ما ذكرته الروايات وأوردنا خبره في مطلع المبحث.

ونقول بالمناسبة وبسبب ما ردده بعض المغرضين عن سير وأغراض الجهاد في الإسلام: إن تقرير مبدأ الصلح مع المحاربين الكتابيين[1] على الجزية قد انطوى على تبرير غاية

(١) من السنة النبوية والراشدية الثابتة أن الجزية أخذت من غير الكتابيين أيضا مثل المجوس وعبدة الكواكب وعلى هذا تكون السنة قد فسرت الآية بحيث يفهم منها أن ذكر أهل الكتاب لا يعني اقتصار الجزية عليهم وإنما خصوا بالذكر لأنهم موضوع مباشر حاضر.

الحرب الإسلامية الدفاعية ، وأن نشر الإسلام لم يكن هدفا رئيسيا للقتال أو من أهدافه أو نتائجه ، وإنما هو لخضد شوكة العدو الباغي بشكل من أشكال البغي على ما ذكرناه قبل قليل ؛ ومما لا ريب فيه أن قادة الفتح الإسلامي الأول والخلفاء الراشدين بنوع خاص قد التزموا هذا بكل دقة وإخلاص .

الصورة الرابعة

وغزوة تبوك هذه كانت في السنة الهجرية التاسعة على ما ذكرته الروايات التي لا خلاف في جوهرها ، أي بعد فتح مكة بسنة ، وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم ومن أهمها مدى ومعنى وكثرة عدد وبعد شقة ، إن لم نقل أهمها . ومما ورد عن أسبابها المباشرة أن النبي قد بلغه تجمع جموع كثيرة على حدود الشام تريد غزو الحجاز ردا على حملة مؤتة ، كما ورد أن قبائل العرب في هذه الحدود تجرأت أكثر من ذي قبل على القوافل بعد ما كان من عاقبة حملة مؤتة المحزنة ما كان ؛ فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين ويخرج بهم إلى هذه الحدود إرهابا للعدو ؛ فاستنفر الناس واستعانهم بالمال ، ولم يزل بهم محرضا مرغبا ومنذراً منددا حتى تمكن من جمع جيش عظيم بلغ ثلاثين ألفا ونيفا بين مشاة وركبان ، وحتى تمكن من جمع عدة وافرة من السلاح والخيل والإبل والماشية والطعام والثياب ، بالرغم مما كان من شدة الحر من جهة وعسر الوقت من جهة أخرى ، حتى سمي الجيش بجيش العسرة .

وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه العظيم في شهر رجب فوصل تبوك بعد عشرين يوماً وعسكر فيها ولم يتعدها . وقد أرسل منها سراياه مستطلعة ومنذرة . منها سرية إلى دومة الجندل بقيادة خالد بن الوليد . وقد تمكن من أسر ملكها الأكيدر . وأخذ فدية منه ثم استصحبه معه إلى النبي الذي كان رجع إلى المدينة فأسلم على يده . وكتب له كتاب عهد . وقدم على النبي وهو في تبوك يوحنا بن رؤبة ملك

الأيلة وتعهد بأداء الجزية وأخذ من النبي كتاب عهد . وجاء إلى لقاء النبي يهود بني جنبة وبني عاديا وبني العريض ومدن أذرح والجربا ومقنا فوجدوه قد عاد إلى المدينة فلحقوا به إليها وأعلنوا له خضوعهم وتعهدوا بأداء الجزية وأخذوا منه كتب عهد وأمان(١) .

وهكذا يصح أن يقال إنه كان لهذه الحملة نتائج عظيمة المدى حيث تم بها للدعوة الإسلامية الإحاطة بجميع جزيرة العرب إلى تخوم الشام ودخول كل ذلك تحت راية الإسلام وسلطان النبي وحكمه . وإرهاب سكان مشارف الشام الذين تكررت أنباء تجمعهم وتضامنهم مع الروم وحوادث اعتدائهم . وكانت إلى ذلك تمهيداً للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي وتم فيها ما تم من فتح باهر وسلطان عزيز وأعلام منشورة في ربوع الأرض المختلفة .

الصورة الخامسة

ولقد جاء في سورة التوبة مقاطع عدة حول هذه الغزوة دون ذكر اسمها ، عدا المقطعين اللذين نقلناها سابقا ونوردهما فيما يلي لأن فيهما بعض الصور والمشاهد في صدد تأليف الحملة :

١ — عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ . لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ . لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ(٢) يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ . لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ

(١) تفصيل غزوة تبوك في ابن سعد ج ٣ ص ٢١٨ — ٢٢١ وابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ — ١٩٤
(٢) لسعوا سعياً حثيثاً بينكم بالإفساد والفتنة .

حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ... (١)   ٤٣ ـ ٤٩

٢ — قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ . قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ...   ٥٢ ـ ٥٤

٣ — فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ . وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ . وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ . وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ . رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . . .

٨١ ـ ٨٧

٤ — وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ (٢) مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى

(١) تقرأ مع هذه الآيات الآيات السابقة لها ، والتي نقلناها قبل، وهي الآيات ٣٨ ـ ٤٢ لأنها سلسلة واحدة.
(٢) أي المعتذرون .

ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ . إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ... ٩٠ — ٩٤

٥ — لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ... ١١٧ — ١١٨

٦ — مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . . . ١٢٠

وبعض مضامين المقاطع يلهم بقوة أن بعضها نزل في أثناء الرحلة ، بقصد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ويستلهم منها أن الاستنفار إلى الغزوة كان في موسم الصيف واشتداد الحر ، كما كان في وقت ضيق وشدة ؛ وأن السفرة قد صعبت على فريق من المسلمين المخلصين فضلا عن المنافقين ، وقوبلت بشيء من الفتور والتثاقل حتى

اقتضت الحكمة التشديد في الحث والإنذار ، وقد استجاب المخلصون وفيهم من صعبت عليه السفرة ، باديءَ ذي بدء ، ولم يتخلف من سكان المدينة إلا ثلاثة ؛ أما المنافقون ، لا سيما أغنياؤهم ورؤساؤهم ، فقد اعتذروا للنبي بأعذار كاذبة ، وواهية ، واستأذنوه بالتخلف بعد أن حاولوا تثبيط عزائم الناس بحجة الحر وأخفقوا ، فأذن لهم ؛ ومع العتاب المحبب الذي عوتب به في الآيات على الإذن لهم ، والذي إنما كان بقصد فضح كذبهم ، يبدو من الآيات أنه كان هناك مبررات لهذا الإذن ، إذ أريد منه تفادي دسهم وكيدهم بين المسلمين ، في أثناء الرحلة ، لا سيما وبينهم وبين كثير من المسلمين روابط القربى والمصلحة والألفة ؛ وقد أراد بعضهم أن يساعد بماله دون نفسه فلم يقبل منهم ذلك زيادة في النبذ والإهمال ؛ وقد استنفر النبي صلى الله عليه وسلم البدو المسلمين أيضاً ، فسارع فريق منهم إلى الاعتذار ؛ والاستئذان في التخلف ، كما تخلف آخرون بدون اعتذار ولا استئذان ، مع قدرة هؤلاء وأولئك ؛ وقد كان لبعضهم مع ذلك موقف رائع جدا ، وكانوا فقراء ، فجاءوا إلى النبي يعرضون أنفسهم ، ويطلبون معونته على الرحلة ، فلما قال لهم إنه ليس في إمكانه معونتهم تولوا باكين حزنا على حرمانهم من الاشتراك في الجهاد النبوي ؛ ومشهد المتخلفين الثلاثة رائع حقا هو أيضا ، إذ يستفاد من الآية ١١٨ وما ورد في صددها من روايات أنهم من المخلصين ، وأن تخلفهم كان كسلا ، وأنه لما عادت الحملة قوبلوا من النبي صلى الله عليه وسلم والمجاهدين بالإهمال والمقاطعة حتى قاطعهم نساؤهم ، وظلوا مقاطعين نحو أربعين يوماً لا يكلمهم أحد ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، فلجأوا إلى الله يستغفرون ويعلنون توبتهم فتاب عليهم .

وعلى ضوء الآيات الأخرى يتبادر أن الآية ١٢٠ هي عتاب وحث بالنسبة للمستقبل ، وأن المعقول أن يكون فيها كلمة مقدرة ، لتكون الجملة الأولى هكذا « ما كان لأحد من أهل المدينة ... » وبذلك يزول ما توهمه من تخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب إطلاقاً ، مع تقرير الآيات بصراحة اشتراك جميع المخلصين القادرين من أهل المدينة عدا الثلاثة

ومع ورود حرف التبعيض في الآية ٩٠ التي تحكي اعتذار الأعراب ، وما في ذلك من دلالة على أن منهم من اشترك ولم يتخلف .

وتخلف الأعراب والمنافقين الذي حكته آيات سورة التوبة والحملات الشديدة عليهم بسببه قد يوهم أن العدد المروي لجيش تبوك الذي زحف به النبي صلى الله عليه وسلم على رأسه مبالغ فيه كثيراً . ولقد جاء في سيرة ابن هشام هذه العبارة (إن عبد الله بن أبي كبير المنافقين ضرب عسكره بأسفل عسكر النبي صلى الله عليه وسلم وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين فلما سار رسول الله تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب[1]) فتمسك بها المستشرق كايتاني وأخذ يعظم من شأن وعدد المنافقين ويشكك في عدد الجيش المروي . غير أن هذا وذاك في غير محلهما . فالآيات القرآنية صريحة بأن المتخلفين من الأعراب والمنافقين كانوا من الأغنياء وأولى الطول . وهؤلاء دائما محدودو العدد . وعبارة ابن هشام تحمل الشك الصريح في المدى . وقد روي في الوقت نفسه أن عدد المتخلفين من المنافقين كان بضعة وثمانين رجلاً[2] . وفي سورة التوبة آيات تحكي ما كان من شدة خوف المنافقين واعتذارهم وتزلفهم وأيمانهم ما فيه الدلالة القوية على ما صار إليه شأنهم من ضعف وعددهم من قلة كما ترى فيما يلي :

١ — وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ . . .

٥٦ ـ ٥٧

٢ — يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ . يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي

---

(١) ج ٤ ص١٧٣ . (٢) ص ١٨٩ .

قُلُوبِهِمْ قُلْ اُسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ . وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَـآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَـآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ . . . ٦٢ ـ ٦٦

٣ ـــ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ... ٧٤

وذكر تخلف الثلاثة من المخلصين دليل على أنه لم يتخلف من مسلمي المدينة المخلصين القادرين غيرهم ؛ وإذا لوحظ أن المدينة قد اكتظت بالنازحين من مكة وغيرها بعد الفتح ، بدا احتمال وفرة المشتركين من سكانها وفرة كبيرة ، قويا جداً كما هو المتبادر .

وقد نبهنا إلى أن الأعراب المعتذرين والمتخلفين ليسوا هم جميع الأعراب ، بدليل حرف التبعيض ؛ ونضيف إلى هذا أنه ورد في سلسلة الحملة على هؤلاء آية تثني على المخلصين منهم كما ترى :

«وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ..» ٩٩

مما يصح أن يكون قرينة أخرى على اشتراك هذا الفريق المخلص الذي نرجح أنه كان وافر العدد ، إذا ما ذكرنا أنه اشترك منهم عدد كبير في الفتح المكي ، وأنهم أو أن غالبيتهم العظمى لم تندمج في فتنة الردّة ، بل كانوا في فصائل قمعها على ما ذكرته الروايات : ولقد انطوى في الآية (٩٢) من سورة التوبة مشهد رائع حكى ما كان من

بكاء وحزن الذين لم تتيسر لهم أسباب الاشتراك في الحملة من الأعراب حيث يدل هذا على ما كان من حرص الفريق المخلص من الأعراب على الاشتراك في الحملة وشدة رغبتهم فيه .

وفي سورة التوبة آية متصلة بمشاهد الإعداد للحملة جديرة بالتنويه وهي هذه :

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . . »

٧٩

والآية تتضمن تنديداً بالمنافقين لأنهم كانوا يلمزون المتبرعين من المخلصين بالصدقات . فيقولون عن من يتبرع من القادرين إنه يبتغي الحمد والزهو . وعن من يتبرع من الفقراء الذين كانوا يتبرعون بقليل حسب جهدهم إن الله لغني عن تبرعهم .

والروايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من المسلمين أن يتبرع كل منهم بما يستطيع لغزوة تبوك وحث على ذلك مرة بعد مرة بسبب كثرة ما تحتاج إليه من وسائل ودواب ومؤونة وما كان يحيق في ظرفها من شدة وعسرة ، فاستجابوا وأخذوا يتبرعون كل بما قدر عليه . ومنهم من تبرع بمبالغ كبيرة مثل عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي روي في الأحاديث الصحيحة في صدده روايتان : واحدة تذكر أنه أتى بألف دينار فنثرها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ يقلبها ويقول : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم وواحدة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حث على التبرع لجيش العسرة فقام عثمان فأعلن تبرعه بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها ثم كرر النبي حثه فقام فأعلن تبرعه بمائتي بعير بأحلاسها وأقتابها فبلغ تبرعه ثلاثمائة بعير(١) .

---

(١) روى الحديثين الترمذي . وليس هناك ما يمكن الاستناد إليه للقول : إن الألف دينار هي قيمة الثلاثمائة بعير أم أن عثمان رضي الله عنه تبرع بتلك وهذه معاً .

الصُّورَة السَّادسَة

هذا ؛ ومما تجدر الإشارة إليه أن الروايات قد ذكرت دون خلاف ـ حتى ليكاد يصح أن يقال إن ما ذكرته يقيني ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم جهز قبيل وفاته جيشا بقيادة أسامة رضي الله عنه بقصد تسييره إلى مشارف الشام ، وبتعبير أدق : إلى البلقاء ، وأنه كان في هذا الجيش كثير من كبار الصحابة وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم مات قبل سيره ، فسيره خليفته الأول رغم ما كان يحيط به وبالإسلام من مشاكل وأخطار ، حرصاً على تنفيذ خطة رسول الله ، مما يمكن أن يلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد الانتفاع بما تم له من توطيد هيبة الإسلام في مشارف الشام ، وتمهيد السبيل لحرية الدعوة بإخضاع أمراء تلك المشارف في غزوة تبوك ، فجهز هذا الجيش ليصل إلى أبواب الشام ـ البلقاء ـ ويوطد هذه الهيبة ويمهد هذه السبيل أيضاً ، وانتداب كبار الصحابة في الجيش ذو مغزى عظيم في هذا الصدد كما هو المتبادر . ولقد ذهب هذا الجيش بدون أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمشاغلهما الجديدة العظمى بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عاد ؛ ولم يكد ينتهي أبو بكر رضي الله عنه من إخماد فتنة الردة حتى جهز الجيوش وعهد بقيادتها إلى قواد معروفين ، وسيرها في الوجهة التي سير فيها النبي صلى الله عليه وسلم حملة مؤتة أولا ، ثم سير حملة أسامة ، فكان لها ما كان من الفتوحات الباهرة وتوطيد سلطان الإسلام ونشر رايته في بلاد الشام نتيجة لذلك .

فغزوة تبوك والحالة هذه ـ وإن كانت امتداداً لحالة الحرب التي بدأت منذ السنة الهجرية السادسة ـ لا نعدو الحق إذا قلنا أنها كانت تهدف فوق ذلك ـ وقد حشد لها ذلك الحشد العظيم وتبعها جيش أسامة رضي الله عنه ثم جيوش الفتح ـ إلى أن تكون عنواناً لما بلغه الإسلام في الجزيرة تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم من قوة وسعة وانتشار يراه سكان مشارف الشام فيرهبون ويقفون عند حدهم ، وقارعاً لأسماع

من ورائها بالنبي ودعوته العظمى ؛ بل لعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إنها كانت كما قلنا آنفاً تمهيداً للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم وتم بها ما تم من فتح باهر ، وسلطان عزيز ، وأعلام منشورة في ربوع الأرض ؛ بالرغم مما يحلو لبعض المستشرقين(١) من تقليل شأنها وأغراضها ونتائجها ، ومن زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يخطر بباله أن يمد دعوته إلى أفق خارج جزيرة العرب ، وإنكارهم رسالات النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض ، وقولهم إن الروايات والأخبار والأقوال مما حمل على السيرة النبوية حملا .

فالأوامر القرآنية بتبليغ الرسالة للناس والكتابيين متكررة ، والآية ٦٧ من المائدة خاصة ، وقد نقلناها في مناسبة سابقة ، قوية جدا في حث النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ وقد دان الحجاز كله تقريباً بدوه وحضره بالإسلام ، بل أخذت وفود الأنحاء القاصية من الجزيرة تفد إلى المدينة وتدين به قبيل السفر إلى تبوك ، وسرايا النبي صلى الله عليه وسلم قد تكررت ، وقرعت إحداها أبواب الشام قبل ذلك ، فليس هناك ما لا يتسق مع منطق الحوادث والظروف والتوجيهات القرآنية ويبرر مزاعم المستشرقين .

(١) المستشرق كايتاني في كتابه تاريخ الإسلام .

فصل
في الجهاد ووقائعه

تمهيد

آيات الجهاد مدنية ـ ليس في القرآن المكي إلا نواة ـ تعليل ذلك ـ حدود التشريع الجهادي في القرآن ـ كثرة آيات الجهاد ودلالتها ـ الآيات الجهادية نوعان : دعوة ووقائع ـ أسلوب ومدى كل منها ـ روعة الأسلوب وأثره ـ الوقائع الجهادية وطبيعتها ـ شمول الدعوة للجهاد بالمال ـ الجهاد الإسلامى قام على التطوع ـ الجهاد الإسلامي استهدف الدفاع ورد العدوان وضمانة حرية الدعوة واستجابتها فقط ـ قطعية التزام النبي هذا الهدف في التطبيق ـ مباحث الفصل .

الصورة الأولى

إذا استثنينا آيات سورة الشورى هذه :

« وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ . وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ . وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . . . » ٣٩ ـ ٤٣

لا نجد في القرآن المكي شيئا عن الجهاد والدعوة إليه وواجب الدفاع عن الإسلام والمسلمين بالقوة ؛ على أن هذه الآيات ليست في الحقيقة دعوة ، وإنما هي في معرض وصف أخلاق المسلمين التي منها الانتصار من البغي ، وعدم الحرج عليهم في دفع العدوان بمثله ؛ وعلى هذا فكل ما يمكن أن يقال فيها إنها نواة لمبدأ الجهاد الإسلامي الذي هو دفاع ورد بغي وعدوان فحسب ، جاءت بأسلوب الوصف والحث والتنويه والوعظ ، كما هو شأن أسلوب القرآن المكي في صدد المبادئ الإسلامية .

وبناء على هـذا فإنه يصح أن يقرر أن جميع الآيات القرآنيـة الواردة في الجهاد تشريعاً ودعوة ووقائع هي مدنية ، وهذا طبيعي ؛ فإن المسلمين قبل الهجرة لم يـكونوا من حيث العدد والقوة في الموقف الذي يساعدهم على قتال حتى لدفـع الظلم والأذى ، فقد كانوا في مـكة يتحملون الأذى صابرين محتسبين ، وما فتئت الآيات المكية تحثهم على الصبر والدفع بالتي هي أحسن مع الوعد بالنصر في النهاية ، واضطر كثير منهم إلى الهجرة إتقاء للفتنة عن دينهم ، وفراراً بدمهم ، على ما مر تفصيله في بحوث سابقة . وإذا كان بعض الأقوياء من المسلمين حاولوا أحياناً مقابلة العـدوان والإساءة بمثلهما مما استلهمناه من بعض الآيات في مبحث محنة الأذى والفتنة ، فإنما كان ذلك محاولات شخصية وفردية .

فلما بايع الأوس والخزرج النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، ثم على الدفاع ، وتمت الهجرة النبوية ، تبدل الموقف ، وأصبح النبي صلى الله عليه وسلم في عاصمة مستقلة ومحيط قائم بذاته مستغن عن غيره ، للإسلام فيه صوت قوى ، وشيوع غير ضيق ؛ وحينئذ كانت الخطوة الجدية إلى مقابلة مشركي مكة على ما كان منهم من ظلم وبغي ظلا مستمرين في الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وأذى وفتنة لمن لم يستطع الإفلات من المستضعفين المسلمين على ما ذكرناه كذلك في المبحث المذكور آنفاً .

الصّورة الثانية

وتتمثل هذه الخطوة بثلاثة حدود . الأول في آيات سورة الحج التي تعلن أن الله يدافع عن الذين آمنوا وأن المسلمين الذين يقاتلون هم في موقف المظلوم وأنه أذن لهم بالدفاع والانتصار وأن الله قادر على نصرهم وهذا نصها :

« إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . . »

٣٨ — ٤١

والثاني في آيتين في سورتي البقرة والأنفال متقاربتين نصاً تأمران بقتال المشركين البادئين بالعدوان والظلم إلى أن ينتهوا عن عدوانهم وتصبح حرية الدعوة مضمونة ويكون الدين كله لله ، كما ترى في إحداهما هذه :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ(١) وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . . . » البقرة ١٩٣

والثالث في آيات النساء والتوبة والممتحنة التي تأمر بعدم قتال المسالمين والحياديين والمعاهدين ، وباحترام عهد المعاهدين ما احترموه ، وبقتال الناكثين والغادرين والطاعنين بالدين والذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وتشجع على البر بالمسالمين ، وهي هذه :

١ — إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . . . النساء ٩٠

٢ — إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . . . التوبة — ٤

---

(١) إن بعض المفسرين قال : إن كلمة « فتنة » بمعنى شرك ، وإن الأمر في الآيتين بقتال المشركين إلى ألا يبقى شرك . وفي القرآن نصوص تخالف هذا من الجهة اللغوية ومن الجهة التشريعية ، كما أن في السيرة النبوية ما يخالفه مما سيرد في هذا الفصل بعد .

٣ — كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... التوبة ٧ — ١٣

٤ — قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ... التوبة ٢٩

٥ — لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ... الممتحنة ٨ — ٩

ويلفت النظر إلى أن هذه الآيات مما نزل في مختلف أدوار التنزيل ، أي في أوائل وأواسط وأواخر العهد المدني وأن بعضها متسق مع بعض في الروح والحكم والمدى ، مما يصح أن يقال معه إنها مبادئ أو حدود محكمة .

الصّورة الثالثة

والآيات القرآنية في موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدني ؛ وفي هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية في العهد المدني ، أو أهمها .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم محوطاً من جهة باليهود ، ولهم الحصون والقرى والمزارع والمال والعدة ، والمركز القوى المتغلغل في حياة العرب ؛ وكان من جهة ثانية على عداء شديد مع أهل مكة بقيادة زعمائها الأقوياء ، وكان العرب الآخرون من جهة ثالثة ينظرون إلى هؤلاء وأولئك فيرون أن النبي ما يزال ضعيفاً منعزلاً مع مسلمي الأوس والخزرج ومهاجري مكة القليلين ، فكان منهم من يقف موقف المتربص ، ومنهم من يقف موقف المناوئ ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ليتقرب بإثمه إلى مشركي مكة أو يهود المدينة ، وكل هذا كان يستدعي الحرب والدفاع والتأديب والتنكيل والبعوث والسرايا والغزوات بصورة مستمرة ؛ ويكفيك أن تعلم مثلا أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ خمساً وستين ، قاد النبي صلى الله عليه وسلم منها بنفسه سبعاً وعشرين ، وكل ذلك في نحو عشر سنين ـ لتقدر خطورة الدور الذي كان للجهاد في هذا العهد ، وتفهم حكمة شغل موضوعه ذلك الحيز الكبير من القرآن .

الصّورة الرابعة

والآيات في هذا الموضوع على نوعين : نوع تضمن دعوة عامة إلى الجهاد بالنفس والمال ، وحث عليه وتثبيت وترغيب فيه ، وتنويه بالمستجيبين ؛ وتنديد بالمنكمشين والقاعدين ؛ وقد تضمنت آيات هذا النوع مبادئ عامة في الجهاد وأهدافه والاستعداد له ، جليلة الشأن مستمرة التلقين والمدى والإلهام في كل نزاع بين المبادئ القويمة والفاسدة ، وفي كل صراع بين الحق والباطل ، والضعيف والقوي ، والحرية والاستعباد؛

وتضمنت كذلك صوراً لمواقف المسلمين من الدعوة إلى الجهاد ، وما كان من أزمات حادة في سبيل ذلك ، ونوع ثان أشير فيه إلى وقائع الجهاد النبوي البارزة وما كان فيها ؛ ومن الجدير بالتنبيه أن آيات النوع الثاني قد نزلت بعد الوقائع ، مما يسوغ القول إن الوقائع قد كانت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ورأيه ، وبدون وحي قرآني كما هو شأن أكثر أحداث السيرة النبوية ، وإنها جاءت مؤيدة لكل ما صدر من النبي تقريباً ، وفيها ما يلهم أن ما كان إنما كان بإلهام رباني ، كما أنها لم تكن قصصا عن الوقائع وسيرها ونتائجها ، بل كانت بمثابة تعقيبات عليها قصد بها التشريع أو التنبيه أو التنويه أو التنديد أو الطمأنة أو التسكين أو الوعظ الخ مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها ؛ بل إن هذه النواحي هي البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها ؛ وقد تضمنت مثل النوع الأول مبادئ عامة في الجهاد أيضا ؛ وإنه ليصح أن يقال إن ما جاء في القرآن من الإشارات إلى وقائع لم يقصد به غير هذه النواحي ، ولعل هذا مما يفسر السكوت عن وقائع جهادية مهمة روتها الروايات حتى كانت يقينا مثل غزوات مؤتة واليمن وفتح الطائف ، ويفسر الاكتفاء كذلك بالإشارات الخاطفة الغامضة إلى وقائع مهمة أخرى مثل فتح مكة وخيبر والقرى اليهودية الأخرى ، وما تم في أثناء غزوة تبوك من شؤون .

الصورة الخامسة

وكل من يتمعن في الآيات القرآنية من كلا النوعين يقف حالا على المعجزة القرآنية الخالدة فيما يجده ، أولا : من تلك المبادئ العامة التي تركزت فيها كل مبادئ الحق والعدل والرأفة والتسامح مع القدرة ، وثانيا : من الأسلوب الأخاذ ، والحيوية الرائعة ، والإشراق الباهر وبما يمكن أن يوجبه من الإيمان النافذ المستولي ، والذي من شأنه أن يأخذ بالمرء صاعدا به إلى ما فوق مستوى المادة ، وأن يشعره بقوة الإيمان العميق الفياض الذي تمتلئ به النفس وتسعد فيه ، وهي بسبيل نصرة الحق والحرية والمبادئ السامية ،

مهما أحاط بصاحبها من شظف وحرمان وتعب وبؤس واستهدف له من مخاطر ومصاعب وموارد هلاك وفناء .

وليس من ريب في أن هذا هو ما حصل في نفوس السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وسجل الله رضاءه عنهم ورضاءهم عنه في القرآن ، فجعلهم ـ وهم الفئة القليلة المحوطة بالخصوم الأقوياء بالعدة والعدد والمكر والدسائس والتي في صفوفها أناس ضعفاء أو منافقون ومرضى قلوب ـ ينتصرون في جزيرة العرب أولا ، ثم يخرجون بعد ذلك إلى الدنيا لا يملكون إلا هذا الإيمان ، وما يوحيه من طمأنينة بنيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وما يبثه من قوة زاخرة في النفس ، واستهانة بالموت في سبيل المثل الأعلى الذي تشبعت به قلوبهم ، فيضربون ضرباتهم الجبارة ، ويأتون بالمعجز الخارق ، ويسيطرون على الكون ، فتبقى آثار ذلك كله على مدى الدهر قوية وهاجة النور ، داوية الصوت ساطعة النور .

الصورة السادسة

وفي النوع الأول فرض الجهاد على المسلمين فرضا ، وعبر عن ذلك بأنه كتب عليهم « كتب عليكم القتال » كما استعمل نفس التعبير في فرض الصيام ؛ وبذلك توطد الجهاد في الإسلام كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعو الحاجة إليه وقعوا في الإثم ضمن المبادئ العامة التي وضعت له ، وفي نطاق الحدود التي رسمت له في الآيات القرآنية .

الصورة السابعة

ووقائع الجهاد التي أشير إليها في القرآن قد انحصرت في وقائع كبرى وقعت بين جمهرة من المسلمين وجمهرة من المشركين أو اليهود ؛ منها ما أشير إليه باسمه وهو وقعتان: بدر وحنين ، ومنها ما أشير إليه بدون تسمية وأجمعت الروايات على توضيحها وهو

وقائع أحد والخندق ويهود بني قينقاع والنضير وقريظة وخيبر والحديبية وفتح مكة وتبوك ؛ منها ما بسطت مشاهده بسطاً ما ، ومنها ما أشير إليه إشارات خاطفة على حسب ما اقتضته حكمة التنزيل وأهدافها .

وهذه الوقائع وما تخللها من غزوات وسرايا وبعوث صغيرة وكبيرة لم تكن أهميتها على حسب خطورة سير الحرب فيها وعدد المقاتلين والقتلى والجرحى والأسرى والغنائم ، إذ كان جلها في الحقيقة موضعيا قليل الخطورة من هذه الناحية ؛ وإنما كانت أهميتها من حيث أنها مظهر عملي للصراع الهائل الذي كان بين التوحيد والشرك ، والإيمان بالرسالة النبوية وجحودها ، والحرية والصد والعدوان ، وهو الصراع الذي انتهى بانتصار حرية الدعوة ودخول الناس في دين الله أفواجا .

الصورة الثامنة

ولم تقتصر الدعوة القرآنية إلى الجهاد على الناحية البدنية والحربية ، بل تناولت الناحية المالية أيضا ، فالمال عصب الحرب ، وليس من الميسور الاضطلاع بأعبائها المتنوعة إلا بالمال؛ بل إن الأرواح التي توهب للجهاد وتقدم ضحية فيه أيسر وجودا وأسرع استجابة إليه ؛ وقد كان من هذا مثل رائع حكته إحدى آيات سورة التوبة :

« وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ... » ٩٢

فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتضمن الآيات دعوة إلى الإنفاق في سبيل الله وحضا عليه ؛ ولقد تخلل آيات الجهاد نفسها كثير من مثل تلك الآيات للمناسبة والملازمة التامتين ، وأطلق تعبير الجهاد على الجهاد البدني والمالي معا ، بل قدم الثاني بالذكر في كل موضع ذكر فيه الاثنان تنويهاً بخطورته ؛ ولا تكاد تقرأ مجموعة من الآيات في صدد الجهاد والاستعداد له إلا وجدتها في سياق واحد مع آيات الحث على الإنفاق

في سبيل الله ، بأسلوب قوي نافذ ومستول من شأنه أن يملأ النفس الطيبة الحسنة إيماناً ورضاء وإقداما ، ويجعلها تخرج عن ما لها طائعة مختارة . ولقد تخللت الآيات حملات لاذعة ، ووعيد قاصم بأسلوب قوي رهيب على البخلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، والأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ؛ وقد كادت هذه الحملات أحياناً تكون رعداً وبرقاً ومطراً من نار محرقة وعذاب شديد تقشعر الجلود لسماعها ، كما أن أكثر آيات النفاق والمنافقين الواردة في صدد الجهاد والتي نقلناها سابقا وردت متخللة في أثناء الإشارات إلى الجهاد ؛ فإن جبن المنافقين وقبض أيديهم ، وتهربهم وتثبيطهم ، وتخلفهم واعتذارهم إنما كان بسبب هذه المناسبة ، وقد رأيت ما كانوا هدفا له من حملات لاذعة .

الصورة التاسعة

هذا ؛ ونريد أن ننبه إلى نقطتين :

الأولى : إن الحث على الجهاد بالمال والنفس ، وعذر الذين لا يجدون ماينفقون من الفقراء ؛ والحملة على القادرين إذا ماتهربوا وشحوا ، يسوغ القول إن السلطان الإسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قد وصل إلى درجة تجهيز الحملات ، وتموين المجاهدين بالسلاح والمال والمعدات الأخرى ، وإن الجهاد كان يقوم على التطوع والتبرع بدافع الإيمان والرغبة في التقرب إلى الله وطاعة الرسول ، وكان المجاهدون هم الذين يجهزون أنفسهم بالسلاح والركائب والزاد ؛ وكل مافي الأمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفق من الفيء والغنائم والصدقات ـ الزكاة ـ في هذا السبيل ، ويساعد الفقراء على التجهز بقدر ما كان نصيب بيت المال يتسع له ، على كثرة ما كان يطلب منه من ناحية ، وقلة الوارد من ناحية أخرى .

وهذا يفسر لنا حكمة تقسيم غنائم الحرب على خمسة أقسام ؛ قسم يخصص لبيت المال وينفق منه على الطبقات المحتاجة وفي سبيل الله ، والأقسام أو الأخماس الأربعة توزع على

المجاهدين ، كما تفسر لنا حكمة حصر الفيء ، أي مايدخل في حوزة النبي دون قتال ، في الطبقات المحتاجة وسبيل الله كذلك .

أما النقطة الثانية فهي أن الجهاد لم يستهدف بصورة رئيسية إجبار الناس على الإسلام؛ فمن ناحية التعاليم القرآنية قامت الدعوة على مبدأين (١) الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال فيها بالتي هي أحسن (٢) عدم الإكراه في الدين ، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها .

والآيات التي تضمنت تقرير هذين المبدأين كثيرة جدا ، أوردنا وشرحنا كثيراً منها فيما سبق ، وسنورد جملة منها في مباحث هذا الفصل ؛ ونكتفي بإيراد مايلي هنا :

١ — لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . .

البقرة ٢٥٦

٢ — قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . . .

يونس ١٠٨

٣ — ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ . . .

النحل ١٢٥

وأما من ناحية سير الجهاد ووقائعه فقد كانت ضمن المبادئ القرآنية ؛ فكل سرية أو بعث أو غزوة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كانت ردا على عدوان وانتقاما منه ، أو دفعاً لأذى ، أو تنكيلا بناكث أو غادر ، أو تأديباً لبغاة أشرار ،

أو ثأرا لدم إسلامي أهدر، أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة المهددتين أو المعطلتين بغياً وعدواناً .

ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبي صلى الله عليه وسلم نقض للمبادئ التي قررها القرآن وبلغها النبي بطبيعة الحال، والتي استمرت تترى في الآيات القرآنية في مختلف أدوار السيرة النبوية في عهديها إلى آخرها ؛ ولقد وقع مرة أن حصل سوء تفاهم بين قائد إحدى السرايا وبعض العرب الذين أظهروا الإسلام أو المسالمة ، فظن القائد أنما كان ذلك خدعة فلم يقبل منهم وقتل بعضهم وغنم ماشيتهم ، فغضب النبي أشد الغضب، ولم يلبث أن أوحي بآية قوية رائعة فيها عتاب على عدم قبول ظواهر الناس كما ترى فيها :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... » النساء ٩٤

ولقد كان بعض جماعات من المشركين يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعاهدهم على المسالمة وحسن المعاملة والتعايش السلمي فيجيبهم إلى طلبهم ويعقد معهم عهوداً ومواثيق . فشددت الآيات بالوفاء لهم ماداموا محافظين على عهدهم غير غادرين به ولا مخامرين فيه . ولقد كان بعض جماعات من المشركين يلتزمون الحياد في الحرب التي تنشب بين المسلمين وقومهم فنبه القرآن إلى أنه لا سبيل عليهم مما تضمنته الآيات التي أوردناها آنفاً . ولم يرد في الروايات خبر وثيق بأن النبي صلى الله عليه وسلم رفض طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين ، كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناساً مسالمين وحياديين دون سبب مبرر بدا منهم ، مما هو متسق مع المبادئ والتلقينات القرآنية التي لا شك في أنه أشد المسلمين وأصدقهم تمسكا بها ، والتزاماً لها .

الصّورة العاشرة

وعلى ما تقدم سنصنف الآيات على حسب النوعين اللذين أشرنا إليهما ، وسيكون الفصل والحالة هذه مؤلفا من مبحثين :

الأول : الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس ، ومواقف المسلمين منها .

الثاني : الوقائع الجهادية وسيرها ونتائجها .

المبحث الأول

الدعوة إلى الجهاد ومواقف المسلمين منها

الطريقة في استعراض الآيات ـ آيات سورة الحج . مداها ـ مبادئ وأوامر وصور جهادية من سورة البقرة ـ سلسلة في الحث على الإنفاق في سبيل الله ومبادئه وما فيها من صور ـ مبادئ وصور من سورة النساء ـ من سورة المائدة ـ من سورة الأنفال ـ من سورة براءة ـ من سورة محمد ـ مبادئ فيما يقع من قتال بين المسلمين من سورة الحجرات ـ مبادئ وصور من سورة الحديد في موضوع الإنفاق في سبيل الله ـ مبادئ وصور من سورة الممتحنة ومن سورة الصف .

الصورة الأولى

إن آيات الدعوة إلى الجهاد بالمال والنفس متصلة بسياق واحد على الأكثر ، ولذلك فإننا سنورد الآيات متسلسلة على حسب ترتيب السور المدنية في المصحف ، ونشرح مداها وما تنطوي عليه من مبادئ بدون تفريق ؛ ونريد أن نستثني من هـذا الترتيب آيات سورة الحج ٣٨ ـ ٤١ التي أشرنا إليها قبل قليل ؛ فإن هذه الآيات هي أولى الآيات التي نزلت في مبادئ الجهاد على ما ذهب إليـه الجمهور وما يلهمه مضمونها وصيغتها ، وقـد تضمنت مبـدأ أساسيا من مبادئ الجهاد ، كما أن السورة مما اختلف في مكيته ومدنيته وإن كان المتفق عليه أن الآيات مدنية .

والآيات صريحة الدلالة على اعتبار المسلمين في موقف المظلوم المبغي عليـه ، وتقرير حثهم على الانتصار والدفاع ؛ وهذا هو أحد الحدود الأساسية للجهاد في الإسلام كما أشرنا إلى ذلك في التمهيد ؛ وجميع الآيات الجهادية ظلت في نطاق هذا الحد كما أنه لا ريب في أن النبي صلى الله عليه وسلم التزمه بدقة تامة .

ويلفت النظر في الآيات إلى نقطتين جليلتي الشأن والتلقين المستمر ، أولاهما تعليل

المبدأ وهو حق المبغي عليه بالدفاع ، وأن دفاع الناس عن أنفسهم وحريتهم ونضالهم في سبيل دفع الأذى عنهمهو من السنن القويمة التي لا بد منها في حياة البشر والاجتماع ، وضمانة الحريات الدينية وغير الدينية ؛ وثانيتهما تقرير أن تمكين المسلمين المبغي عليهم في الأرض ، ونصرهم على ظالميهم والمعتدين عليهم ، من شأنهما تيسير إقامة حكمهم الصالح على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ينطوي فيه جماع صفات هذا الحكم وضروراته .

وإليك الآن الآيات الأخرى المتصلة بهذا المبحث متسلسلة كما قلنا على حسب ترتيب سورها :

الصورة الثانية

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ . أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ . . »

١٥٤ — ١٥٧

وقد احتوت إعدادا للمسلمين لما يمكن أن يصابوا به من خسائر وآلام ، وحثهم على الصبر والتحمل وتبشيرهم بالعاقبة ، وطمأنتهم بأن الذين يقتلون في سبيل الله أحياء مكرمون عند الله .

والآيات تلهم أنها نزلت عقب حادث صدام بين فريق من المسلمين وآخر من الكفار ، وأن بعض المسلمين قد استشهد فيه ، وأنه كان لذلك أثر مرير إلى حد ما في نفوس بعضهم أو ذويهم فاقتضت الحكمة نزول الآيات تستهدف ما قررناه

من أهـداف متصلة بمعنى الدعوة للجهاد والإعداد له ، بهذا الأسلوب القوي النافذ إلى أعماق النفس .

(٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَٱقْتُلُوهُمْ[1] حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ . فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ . ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ[2] فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ . وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ . . »

١٩٠ ـ ١٩٥

وقد احتوت أمراً للمسلمين بقتال الذين يقاتلونهم من الكفار ، وباعتبار ما كان من هؤلاء من فتنة المسلمين وأذيتهم واضطرارهم إلى الخروج من وطنهم بدءاً بالعداء يبرر للمسلمين قتالهم ، وقد نهت عن قتالهم عند المسجد الحرام ، أو في الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك ، إذ يصبح من حقهم المقابلة بالمثل ، كذلك احتوت حثا على الإنفاق في سبيل الله، وتحذيراً من البخل الذي يؤدي حتما إلى الخطر والتهلكة بإهمال الاستعداد لمقابلة البغي والعدوان .

وهـذه المجموعة وإن كانت تحمل من حيث سبب نزولها المباشر طابعا محليا لأن المقصود فيها قتال مشركي مكة ، فإنها يصح أن تعتبر ثاني مجموعة احتوت مبادئ عامة

(١) الضمير راجع إلى « الذين يقاتلونكم » .

(٢) القصاص بمعنى الانتقام أو المقابلة بالمثل ، والآية تعني أن للمسلمين أن يقابلوا العدوان بمثله ، وفي الشهر الحرام إذا وقع عليهم في الشهر الحرام .

في الجهاد الإسلامي جليلة الشأن مستمرة التلقين . وما نزل من الآيات بعدها ظل ينزل في نطاقها باستثناء تطور قليل في مبدأ القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام على ماسوف نشرحه بعد قليل . كما لا يمكن أنْ يكون محل شك ومماراة أن النبي التزمه بكل دقة أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى نقطتين مهمتين في الآيات : أولاهما اقتصار أمر القتال على الذين يقاتلون المسلمين وعدم العدوان ، ومعنى هذا أن المسالم والحيادي والذين لا يبدو منهم أي موقف مؤذ لا يصح قتالهم ، كما لا يصح للمسلمين أن يبدأوا أحداً بعداء أو عدوان ؛ وثانيتهما الحث على الإنفاق وعدم التعرض للخطر بالبخل ، وينطوي في هذا احتمال امتناع العدو عن العداء والقتال في حال ما إذا كان المسلمون يقظين مستعدين لكل طارئ ، وتقرير أن القتال ليس أصلا وإنما هو ضرورة يحسن أن تدفع بأيسر الأسباب وهو الاستعداد .

(٣) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٢١٦ — ٢١٨

وهذه المجموعة مثل سابقتها تحمل طابعا محليا من حيث سبب نزولها المباشر ، غير

أنها تتضمن مبادئ عظيمة دائمة الإلهام والتلقين في الجهاد الإسلامي ، فالقتال غير محبب للنفس ولـكنه ضرورة لا مندوحة عنها للدفاع ، ومن أجل هذا كتب على المسلمين ، أي فرض عليهم كركن من أركان الإسلام مع علم الله بكرههم له ؛ والحرية الدينية فوق كل شيء ، والاضطهاد الديني أشد من القتال ، وهو سبب شرعي لإقدام المسلمين على الجهاد ، وكل ما قد يـكون مقدسا من التقاليد هين في سبيل ضمان تلك الحرية وقمع هذا الاضطهاد ؛ والذين يستهينون بحرمة المقدسات فيضطهدون غيرهم . ويحولون بينه وبين حريته الدينية ، ويفتنونه عن دينه في ظل هذه المقدسات ، يقابلون على عدوانهم وبغيهم دون أن يسمح لهم بالاحتماء بهذه المقدسات ، ولقد كان هذا مما بدا من مشركي مكة في الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فلا ضير على المسلمين في مقابلتهم على بغيهم فيهما أيضا .

وهذه الفقرة الأخيرة هي التي عنيناها بالتطور القليل الذي نبهنا إليه في الفقرة السابقة ؛ إذ نهت آيات المجموعة السابقة عن قتال المشركين عند المسجد الحرام وفي الشهر الحرام إلا إذا بدأوهم بذلك ، ومع ذلك فمضمون الآيات يلهم أن المشركين بما كان منهم من بغي وأذى ضد المسلمين في العهد المكي دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام والشهر الحرام ، قد اعتبروا بادئين بذلك .

ومما هو جدير بالتنبيه في صدد هذه المجموعة وسابقتها ، ومجموعة سورة الحج ، أن كلا منهما قد احتوى تعليلا قويا ورائعا لما تضمنته من حث ودعوة وإذن ، شأنها في هـذا شأن كثير من المجموعات القرآنية التي احتوت أمرا ونهيا وتشريعا ، بل ترغيبا وترهيبا .

كذلك ننبه إلى أن المجموعات الثلاث تلهم أنها نزلت بمناسبة اشتباكات بين المشركين والمهاجرين المسلمين ، وأثير حول بعضها ضجة ، مما سوف نعود إليه في مبحث الوقائع .

(٤) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« وَقَـٰتِلُوا۟ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. »

٢٤٤ ـ ٢٤٥

وقد احتوت حثا على القتال والإنفاق في سبيل الله ؛ ولقد أعقبها سلسلة من الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١ فيها قصة ما كان من بني إسرائيل من بعد موسى ، ورغبتهم في قيام ملك يقاتلون تحت لوائه انتصارا مما يقع عليهم من عدوان ، ثم ما كان من تردد أكثرهم وجبنهم ، وثبات فئة قليلة منهم وانتصارها على جالوت وجنوده تحت لواء طالوت[1] ، وانتهت بتبرير الحرب الدفاعية وأنها مانعة لاستشراء البغي والفساد في الأرض ؛ وكل هذا قد يلهم أن الدعوة إلى الجهاد بالنفس والمال كانت تقتضي ضرب الأمثال وإيراد القصص ، ليكون من ذلك حافز للمسلمين عامة والمخلصين خاصة ، وزاجر للمترددين والمقترين ، ويتبادر لنا أنه ينطوي في هذا صورة لموقف بدا من بعض المسلمين إزاء الدعوة إلى الجهاد مما تكررت الإشارة إليه بصراحة أكثر في آيات أخرى .

الصّورة الثالثة

(٥) وفي السـورة نفسها سلسلة رائعة في الحث على الإنفاق في سبيـل الله وهي هـذه :

« مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنـدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَـدَقَةٍ

---

(١) جالوت تعريب جليات ، وطالوت تعريب شاؤول .

يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ
وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا
كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ . وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا
ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ
ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ
مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم
بِئَاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ
وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . يُؤْتِي
ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَـٰبِ . وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ . إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ
وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ
تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْئَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ

يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ...» ٢٦١ ـ ٢٧٤

وفي هذه السلسلة كذلك تلقينات ومبادئ عامة مستمرة المدى ، إلى ما فيها من إلهام لسبب نزولها المباشر الذي ينطوي فيه صور عدة للمسلمين إزاء الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ؛ إذ تدعم ما قلناه من أن الجهاد إنما كان يقوم على التطوع والتبرع ، كما تلهم أنه كان فريق من المسلمين ينفق بالليل والنهار سرا وعلانية استجابة للدعوة وابتغاء لمرضاة الله على حين كان فريق منهم يتثاقل في الاستجابة ، ويرفق ما ينفقه بالمن وسوء الأدب في القول ، وفريق آخر يضن بأجود غلته ولا يتصدق إلا بالرديء منها ؛ وكذلك تلهم أنه كان هناك فريق فرغ نفسه للجهاد في سبيل الله وانقطع عن الضرب في الأرض واكتساب الرزق فمسته الحاجـة والفقر ولـكنه مع ذلك تعفف عن سؤال الناس ؛ أما المبادئ والتلقينات العامة التي احتوتها فهي إيجاب الإنفاق في سبيل الله دون من ولا أذى في القول ولا مراءاة للناس ، والإنفاق من الغلات الجيدة دون الرديئة ، وتفضيل إخفاء الصدقات التي تعطى للفقراء على إعلانها ، وإيجاب القيام بأود الفقراء الذين يتفرغون للخدمة في سبيل الله ويمنعهم ذلك عن التـكسب ولو تعففوا عن السؤال والـكشف عن عوزهم .

والآية ٢٧٢ خاصة تلفت النظر في المبدأ الذي احتوته تلقينا والصورة التي تلهم أنها منطوية فيها واقعيا ؛ فمساعدة الفقراء واجبة لذاتها دون أي اعتبار ، ولا يصح لامرئ أن يمسك يده عنها ولو كان المحتاج على غير رأيه وملته وطريقته أو كان بينه وبينه ضغينة أو شنآن ؛ وهذا مبدأ رائع من حيث المعنى الإنساني المجرد عن أي ملابسة ؛ ويبدو أن بعض المسلمين كانوا يمسكون أيديهم عن مثل هؤلاء فوردت الآية في السلسلة لتـكون مرشدة إلى أفضل الطرق وأكرم الخلال(١) ، ولتقرر أن المسلم إنما يفعل الخير لنفسه

(١) مما ذكره المفسرون والرواة أن الآية نزلت بمناسبة تردد بعض المسلمين في التصدق على الفقراء من ذوي قرباهم من المشركين أو الـكتابيين بقصد إرغامهم على الإسلام .

وابتغاء وجه الله ، والله يعلم نيته ويجزيه عليه .

الصورة الرابعة

(٦) وفي سورة النساء الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعاً . وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً . وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً . فَلْيُقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً . وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفاً ... » ٧١ ـ ٧٦

وفي الآيات صورة لموقف فريق من المسلمين ـ نرجح أنه ليس من المنافقين ـ كان يجنح إلى التثبيط والتثاقل والتربص ، وصورة أخرى أشرنا إليها من قبل وهي صورة المستضعفين من المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة من مكة وظلوا تحت يد ذويهم الأقوياء واضطهادهم ، وكانوا شاعرين بشدّة وطأة الاضطهاد ، ويدعون الله أن يخلصهم ؛ وقد احتوت الآيات حثا المسلمين على النفرة إلى القتال في سبيل الله ثم في سبيل إنقاذ هؤلاء المستضعفين الذين ينتظرون فرج الله ، وتنديدا بالذين يستثقلون الدعوة إلى هذا وذاك ، وتهويناً لأمر المشركين الذين إنما يقاتلون في سبيل الباطل والشيطان على حين

يدعي المسلمون إلى القتال في سبيل الله ، والله قوي عزيز والشيطان ذليل ضعيف ؛ وروح الآيات تلهم أن الاستنفار إنما هو لقتال أعداء محاربين من جهة وصادين عن سبيل الله ومضطهدين للمستضعفين من جهة أخرى ؛ والأرجح أن هؤلاء المستضعفين كانوا يرسلون بأخبارهم إلى النبي وإخوانهم في المدينة ويستغيثون ، فيزيد هذا في اهتمام النبي والمخلصين في اتخاذ الوسائل التي من شأنها إرغام مشركي مكة على الارعواء وعدم الاسترسال في البغي والأذى .

والآيات إلى هذه الأسباب المتصلة بالواقع من عهد السيرة النبوية احتوت مبادئ مستمرة الإلهام والتلقين ؛ سواء في إيجاب الاستجابة إلى دعوة قتال الأعداء دون توان أو تثاقل ، أو في إيجاب العمل على تخليص المضطهدين من المسلمين وإنقاذهم ودفع الأذى والاضطهاد عنهم ؛ وفي الآيات تشجيع نافذ على الإقدام على الجهاد ، من شأنه أن يدفع بالمؤمن إلى تقبل كل تضحية فيه راضياً مطمئناً ، وأن يبعث الطمأنينة في قلبه بنصر الله وتأييده .

(٧) وفي سورة النساء الآيات التالية :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ... » ٧٧ – ٧٨

وقد احتوت إشارة إلى حادث شرحناه في مبحث محنة الأذى في العهد المكي ،

وتنديداً بالذين استثقلوا تعجيل صدور الأمر الرباني بالقتال خائفين من العواقب الدنيوية . وروح الآيات من جهة والسياق الذي سبقها والسياق الذي لحق بها مما يسوغ القول إن الموقف الذي تضمنته موقف فريق من المنافقين أو مرضى القلوب . وفي الآيات على كل حال تلقين مستمر المدى في الحث على الجهاد وعدم التردد في الاستجابة إلى دواعيه وعدم الخشية من الموت والعواقب ما دام في سبيل الله .

(٨) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا . وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً . إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا . سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰناً مُّبِيناً . . . »

٨٨ ـ ٩١

وقد احتوت الآيتان الأوليان إشارة إلى ما كان من انقسام رأى المخلصين في أمر المنافقين والموقف الحاسم الصارم الذي يجب أن يقفوه منهم إذا لم يخلصوا ويتضامنوا معهم قلباً وقالباً وبخاصة في الجهاد الذي عبر عنه بعبارة (حتى يهاجروا في سبيل الله) . أما الآيتان الأخريان فقد احتوتا صوراً لمواقف غير المسلمين من النبي والمسلمين ، إذ تلهمان أنه كان هناك أربع حالات لغير المسلمين إزاء المسلمين : حالة حرب وعداء ، وحالة ميثاق

صلح وسلام ، وحالة رغبة اعتزال فريق منهم حرب المسلمين مع قومهم ووقوفهم موقف الحياد والمسالمة ، وحالة فريق مخادع يريد ألّا يغضب قومه المحاربين ولا المسلمين حتى يأمن الفريقين معاً ؛ وقد احتوتا تقرير مايجب على المسلمين إزاء كل حالة من الحالات ؛ فالحرب للمحارب ، والوفاء للمعاهد،والسلم للمسالم ، وعدم الطمأنينة للمخادع إلا إذا اعتزل القتال وجنح إلى السلم على وجه يدعو إلى الطمأنينة ، وقتاله إذا لم يفعل واعتباره عدوا محاربا ؛ والروعة والحق وبعد المدى في هذا التقرير قوية مشرقة ؛ وفي الآيات مبادئ جليلة محكمة ظلت هي الناظم في العهد النبوي لحركة الجهاد وأهدافه .

(٩) وفي الآية (٩٤) التي نقلناها في التمهيد من سورة النساء مبدأ جليل من مبادئ الجهاد الإسلامي فيه رد مفحم على من يزعم أن هذا الجهاد إنما كان وسيلة للغنائم ؛ وفيه أمر بقبول الظواهر من الناس دون تشدد ، بحيث يقبل السلام والإسلام من كل من يعلنه ، ويكف عنه ؛ وهو من المبادئ المحكمة المستمرة التلقين ؛ وهذا بالإضافة إلى مافيها من صورة واقعية من صور الجهاد ، وتصرف بعض المسلمين فيها تصرفا اقتضت الحكمة التشديد في النهي عنه وحظره ، حتى لا يشوب الجهاد الإسلامي شائبة لا تلائم أهدافه ودواعيه .

(١٠) وفي السورة نفسها هذه الآية :

« لَا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . . . »

٩٥

وقد احتوت تمييزاً للمجاهدين على القاعدين بسبيل الحث على الجهاد ، واحتوت صورة لما كان عليه الأمر عند نزولها ، وهو اعتبار الجهاد فضيلة أو فرض كفاية لا يجب على جميع المسلمين ، والتساهل في قبول أعذار المعتذرين عنه ، ثم كون الجهاد قائماً على التطوع

والترغيب والترهيب ؛ ولما كان هناك آيات كثيرة فيها حملات شديدة على المتخلفين والقاعدين والمثبطين والمتثاقلين والمعتذرين ، وفيها أوامر حاسمة بالقتال والجهاد ، فإنه يصح أن يقال إن هذه الآية من أول ما نزل من آيات الجهاد ، وإن الآيات التي أشرنا إليها قد كانت بمثابة نسخ أو تعديل لها .

(١١) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . . . » ١٠٤

وقد احتوت حثا على الاستمرار في مجاهدة العدو ، بأسلوب قوي التلقين دائم المدى ؛ فإذا كانت الحرب مريرة فهي كذلك على المسلمين كما هي على أعدائهم ،مع الفارق العظيم بالنسبة للمسلمين الذين يقاتلون في سبيل الحق والحرية وإعلاء كلمة الله ، ونفوسهم مطمئنة بحسن العاقبة مهما كانت ؛ والآية تلهم أن فريقًا من المسلمين كان يشعر عند نزولها بمرارة الحرب وآلامها ، فاقتضت الحكمة الإيحاء بها لتكون معالجة نفسية لهذا الشعور .

الصورة الخامسة

(١٢) وفي سورة المائدة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . . . »

٥٤ ـ ٥٦

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات شرحناها في فصل المنافقين ووصف ما كان من استمساكهم بولائهم لليهود خشية الدوائر فيما يزعمون ؛ وهي بمثابة تعقيب على موقف المنافقين ؛ كما احتوت تصويراً قويا لعلاقة الجهاد بالإيمان ، وحثا بليغا عليه ، وتقريراً بأنّ المتأخرين عنه ، الذين يخافون الناس والعواقب ، يوشك أن يكونوا في عداد المرتدّين ؛ ويبدو من خلالها صورتان واقعيتان: أولاهما تضامن المخلصين مع النبي في الجهاد إذ عدّوا حزب الله ، وطلب من عامة المسلمين التأسي بهم ، وتوليهم دون غيرهم ؛ وتلهم ثانيتهما وجود فريق من المسلمين لا يستجيب إلى دعوة الجهاد استجابة حسنة ، محتجا بأعذار لا تتسق مع الإيمان والإسلام الصحيح .

(١٣) وفي سورة الأنفال الآيات التالية :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ . قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ . . . »

٣٦ ـ ٤٠

ولقد نزلت سورة الأنفال عقب انتصار المسلمين في بدر الكبرى ، فتكون هذه الآيات تعقيبا على ذلك الانتصار ؛ وقد انطوى فيها صورة ما لاستعلاء المسلمين وشعورهم بالعزة بعد ذلك الانتصار ، كما احتوت عرض الصلح والتوبة على الكفار ، والانتهاء من موقفهم العدائي والجحودي ؛ ولهذا العرض بعد ذلك الانتصار معناه الرائع القويّ كما هو واضح ، سواء من ناحية الشعور بالعزة أو من ناحية الرغبة في الحلم عند القدرة ،

أو من ناحية الاستفادة من فرصة انكسار الكفار ؛ وقد احتوت الآية (٣٩) تقريراً لحد رئيسي من حدود الجهاد في الإسلام ، وهو قتال الأعداء المحاربين إلى أن تزول قدرتهم على الفتنة والصدّ عن سبيل الله ، أو ينتهوا عن موقفهم العدائي الباغي .

ومع خصوصية نزول الآيات المباشرة فإن ما احتوته من تقريرات مما يدخل في سلك المبادئ الجهادية المستمرة التلقين ، وخاصة هدف الجهاد الذي هو رد البغي ووقفه عند حد تضمن به حرية الدعوة ، والتساهل مع من يجنح إلى الارعواء والانتهاء من موقف العداء والبغي .

الصُّورة السَّادسة

(١٤) وفي سورة الأنفال الآيات التالية أيضا :

« إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ . وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . . . » ٥٥ ـ ٦١

إذ احتوت تعليما لما يجب أن يكون مع الناكثين للعهد ومع من يخشى غدره وخيانته من المعاهدين ؛ فالناكثون يجب أن يحاربوا ، ومن يخشى غدره وخيانته يجب أن يحذر ويقابل بالمثل ، ومع ذلك فإن جنح أولئك أو هؤلاء إلى السلم فيجب أن يجنح إليها معهم أيضا ، ومما يجب على كل حال أن يستعد للعدو بكل وسائل الاستعداد دون ما تهاون أو بخل ، ففي هذا إرهاب للعدو المعروف والعدو الماكر الذي لا تعرف حقيقة أمره قد يغني عن الاشتباك .

وفي كل هذا مبادئ جليلة للجهاد الإسلامي وأهدافه متسقة مع ما نبهنا إليه من أن هذا الجهاد هو دفاع ومقابلة ، وتنكيل بغادر أو ناكث أو خائن ، وإرهاب للعدو ، وأن الأصل فيه أن يكون بقدر ما تدعو الضرورة وحسب .

والآيات في أصلها وسبب نزولها المباشر تتضمن ـ كما هو المستلهم من مضمونها وروحها ـ صوراً لواقع الحال في العهد النبوي المدني فوق ما تتضمنه من مبادئ وتلقينات جليلة مستمرة المدى ، إذ تلهم أنه كان ثمة كفار معاهدون لم يتورعوا عن نقض عهدهم مرة بعد مرة ، معاهدون تخشى خيانتهم ، وكما كان هناك أعداء متكتمون يتربصون الدوائر بالمسلمين زيادة على الأعداء العلنيين ؛ وهكذا تبدو صورة لما كان يحدق بالنبي والدعوة والمسلمين من أخطار ومكايد ، وما كانت الحاجة والحكمة تقضيان به من اتخاذ الوسائل والاستعداد والحذر والإقدام في سبيل دفع تلك الأخطار وإحباط هذه المكايد. ولقد ذكرنا في فصل اليهود أن بعض هذه الصور متصلة بمواقف اليهود في المدينة ، فنكتفي هنا بالإشارة إلى ذلك .

(١٥) وفي سورة الأنفال أيضا الآيات التالية :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . . .

١٥ ـ ١٦

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ... ٤٥ ـ ٤٦

وقد احتوى الأولى تشديداً بعدم التولي والفرار من المعركة حينما يتلاقى المسلمون مع الكفار الأعداء ، إلا إذا كان هذا بسبب تدبير حربي، كما احتوت الأخرى حثا للمسلمين

على الثبات أمام الأعداء وذكر الله ؛ إذ تمتلئ به نفوسهم قوة وطمأنينة ، وأمراً بالطاعة لله ورسوله ، وعدم التنازع لأن فيه الفشل والهزيمة . ومضمون الآيات وروحها يلهمان – على ما يتبادر – أنها نزلت أو نزل بعضها بمناسبة أخطاء أو مواقف خطرة أو غير مستحبة بدت من بعض المسلمين في ظروف الوقعة ، ولكن الله سلم فلم تكن ذات تأثير كبير في المعركة ونتيجتها ، فاقتضت حكمة التنزيل إنزالها لتكون معقبة ومنبهة للمسلمين السامعين من جهة ، وتلقينا مستمر المدى للمسلمين في كل آن ومكان من جهة أخرى .

(١٦) وفي سورة الأنفال أيضاً الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ . ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ .. » ٦٤ – ٦٦

وقد احتوت الآيتان الأولى والثانية أمراً للنبي بحث المسلمين على القتال ، وطمأنة لقلبه بكفاية من معه من المسلمين المخلصين ، وبشرى لهم باستطاعتهم أن يغلبوا عشرة أمثالهم من الكفار لأنهم يستمدون دونهم من إيمانهم واطمئنانهم بحسن العاقبة على كل حال القوة والصبر والإقدام ، أما الآية الثالثة فيبدو أنها نزلت بعد الثانية بمدة ما ، وقد روي أن المسلمين خشوا أن تكون الآية الثانية تفرض عليهم مقابلة عشرة أمثال عددهم وعدم التولي والفرار من أمامهم ، فنزلت بالتخفيف .

والآيات مما نزل عقب وقعة بدر ، مثل معظم آيات السورة ، وقد تلهم أن مااحتوته إنما هو ترديد لما كان من سير وقعة بدر ونتيجتها الباهرة ، إذ ثبت مع النبي المسلمون المخلصون من المهاجرين والأنصار وانسحب المنافقون ، وإذ قابلوا ثلاثة أمثالهم عدداً من كفار قريش ونصروا عليهم .

(١٧) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضاً :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ... » ٧٢

وهي تؤكد واقع الأمر من تبادل الولاء والنصر وإيجابهما بين الأنصار والمهاجرين دون الذين لم يهاجروا من المسلمين ، وتحتوى صورة أخرى من صور واقع الحال ، وهى وجود مسلمين متخلفين في دار الكفر عن الهجرة واللحاق بدار الإسلام في المدينة ، وكان تخلفهم بإرادتهم . وقد احتوت الآية تعليما للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار للموقف الذي يجب أن يقفوه منهم ؛ فليس عليهم أي واجب من ولاء أو تضامن مع المتخلفين في الشؤون العادية ، ما دام تخلفهم قد كان بإرادتهم وارتضوا لأنفسهم الانفراد في دار الكفر ، لأن هذا الواجب إنما هو بين المسلمين الذين جمعت بينهم وحدة الدار والجهاد ، وحفزهم إخلاصهم لدينهم إلى ترك دار الكفر ولو خسروا أموالهم ونأوا عن وطنهم وذوي أرحامهم ، أما إذا وقع على المتخلفين اضطهاد بسبب دينهم ، واستغاثوا بهم ، فعليهم أن يسرعوا إلى نجدتهم إذا لم يكن بينهم وبين المستنصر عليهم ميثاق وعهد ! ومع أن من المحتمل أن يكون هذا التعليم قد استهدف حمل المتخلفين على الإسراع في الهجرة ، فإن مافيه تشديداً على احترام العهود والمواثيق بالغ الروعة ، يدل على ما كان يستهدفه التنزيل القرآني من ذلك الاحترام وترسيخه في نفوس المسلمين ؛ ولا يماري إلا مكابر في أن النبي والمسلمين قد التزموا ذلك بكل دقة . وإطلاق الآية يجعل ما تضمنته من التعليم مستمر التلقين ببالغ روعته وعظيم مداه وهدفه كما هو واضح .

الصورة السابعة

(١٨) في سورة التوبة الآيات التالية .

« بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . فَسِيحُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ. وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ١ – ٥

ومعظم فصول سورة التوبة مما نزل في أواخر العهد المدني ؛ وهذه الآيات تلهم أنها مما نزل بعد الفتح المكي بمدةما ؛ واستثناء المشركين المعاهدين الذين يظلون أوفياء لعهدهم دون ما كيد ولا نقض من البراءة ، والأمر بالوفاء معهم إلى مدتهم ، قرينة حاسمة على أن المقصود من البراءة المشركون المعاهدون الذين لم يفوا بعهودهم ، ونكثوا أو ظهر منهم ختل وتلاعب فيها ؛ كما أنه قرينة حاسمة على أن الآية الأخيرة هي بصدد هؤلاء فحسب ؛ وليس معنى هذا أن مدى الأمر الذي احتوته لا يتناول المشركين المحاربين ، فإن الاستمرار في قتال هؤلاء غرض أصيل لا يحتاج إلى أمر جديد بطبيعة الحال ؛ وهكذا يبدو من خلال الآيات أنه كان بعد الفتح المكي مشركون معاهدون موفون بعهدهم ، ومشركون معاهدون ناكثون فيها ، زيادة على المشركين المحاربين .

والآيات قد احتوت مبادئ بالنسبة للمشركين المعاهدين الموفين والغادرين ؛ فالغادرون يقاتلون باستمرار إلى أن يتوبوا ويرعووا ويسلموا ، والموفون يوفى معهم إلى مدتهم ؛ وحينئذ إما أن يتجدد العهد معهم أو يعودوا إلى الموقف الذي كانوا عليه قبل العهد وهو موقف المحارب المعتدي ؛ ومما لا ريب فيه أن هؤلاء هم على بينة من هذا

الأمر ، وأنهم يعرفون أن الميثاق القائم بينهم وبين المسلمين إنما هو ميثاق هدنة سلم وصلح موقوتة الأجل ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه المبادئ هي التي كانت ناناظماً للموقف بين المسلمين والمعاهدين ، كما أنها غدت تشريعاً مستمر المدى .

ولقد يرد سؤال عما إذا كان مبدأ قتال المشركين المحاربين أو المعاهدين الناكثين منهم إلى أن يسلموا لم يأت ناسخاً أو معدلا للمبادئ والتقريرات القرآنية السابقة من أنه لا إكراه في الدين ، ومن أن غاية الجهاد هي رد بغي المشركين وعدوانهم إلى أن ينتهوا عن موقفهم وتتوطد حرية الدعوة والمسلمين ؟

ومع أن عبارة الآية الرابعة قد تتحمل هذا المدى فإن المتبادر من روح ومضمون الآيات جميعا أنها لم تلغ مبدأ التعاهد ، فضلا عن أنها لم تلغ مبدأ عدم قتال المسالمين والحياديين وغير المحاربين ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فما دامت الحرب مع المشركين قد كانت في أصلها ردا على عدوان ، ومقابلة على بغي وصد وأذى ، وما دام استئنافها مع المعاهدين الناكثين إنما كان بسبب هذا النكث الذي يتضمن معنى العدوان والبغي أيضاً ـ فليس مما يتحمل نقداً أو مماراة أن يكون المسلمون في الخيار بحيث لا يقبلون منهم عهداً ، أو بالأحرى بحيث لا يطمئنون إلى عهد جديد منهم ، ولا يرون ضمانة إلا إسلامهم وانتهاءهم من موقف المحارب المناوئ والخائن المتربص . وفي آيات أخرى قريبة من هذه الآيات سنوردها بعد تدعيم قوي لما نقول .

ولقد قلنا إن الآيات تلهم أنها نزلت بعد الفتح المكي ، استلهاماً من الآية الثالثة التي تلهم أن البراءة أو الأذان قد أذيع يوم الحج الأكبر ، وطبعاً لا يمكن أن يكون هذا إلا إذا كان المسلمون هم أصحاب الأمر في الحج . وقد أيدت الروايات هذا ، وذكرت أن البراءة أذيعت في السنة التاسعة التي تولى فيها إمارة الحج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وفي هذا وتؤيده الآيات صورة من العهد ، إذ يبان منها ما صار إليه الإسلام من قوة ونفوذ بعد الفتح . وفيها إلى ذلك

صورة لقوة وصدق المبادئ القرآنية إذ استمر القرآن يحث على الوفاء من ناحية، ويشجع على التوبة ويعد بالعفو عما سلف من ناحية مع ما صار للمسلمين من قوة بأس، وعزة جانب، وشيوع سلطان وكلمة؛ وفيها أيضاً صورة ثالثة وهي أن المعاهدين الذين ظلوا أوفياء والمعاهدين الناكثين من المشركين هم غير أهل مكة الذين خضعوا لسلطان الإسلام ودانوا به عقب الفتح؛ وقد روت الروايات أسماء قبائل من العرب في منطقة مكة.

وهذا إلى جانب مشركين كانوا ما يزالون محاربين.

ولما كانت الآيات قد نزلت كما قلنا في أواخر العهد المدني أو قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بنحو عام فقد صح أن يقال إن حرمة الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها قد ظلا من المبادئ القرآنية المكررة: وكل ما صار من أمر هو تحليل القتال فيها ضمن الرخصة والضرورة اللتين ذكرتا في آيات البقرة ١٩٤ و ٢١٧ على ما شرحناه في مطلع هذا المبحث.

(١٩) وفي سورة التوبة الآية التالية أيضاً:

« وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ... » ٦

وهي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجارة من يريد أن يأتي إليه ويسمع منه، وبإعادته إلى مأمنه سالماً؛ وقد روي أن بعض المشركين الذين كانوا يودون الوفادة على النبي صلى الله عليه وسلم تخوفوا من البراءة التي أذيعت يوم الحج الأكبر وذكروا ذلك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فنقله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية؛ وليس في الرواية ما لا يتسق مع مدى الآية؛ وهكذا يكون قد انطوى في الآية صورة لما صار إليه أمر المسلمين من قوة وعزة وهيبة، ولما صار ينبثق في نفوس العرب

من رغبة في الوفادة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه بعد أن انهدم الستار الكثيف بينهم وبينه بالفتح المكي.

(٢٠) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ... » ٧ ـ ١٦

وفي هذه الآيات تدعيم لما قررناه قبل قليل ، وتنظيم للوقف الذي وجب على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يقفوه من المشركين المعاهدين ؛ فالذين لا يبدو منهم للعهد إخلاص خالص من كل شائبة كيد وغدر ، هم في الحقيقة أعداء للمسلمين ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم خداعاً ، وهم المعتدون والصادون في الأصل عن

سبيل الله ، ولا يمكن أن يكونوا موضع ثقة واطمئنان إلا إذا تابوا عن شركهم وغدرهم وأسلموا وقامت أخوة الدين بينهم وبين المسلمين . وفي الآيات صور لواقع الحال إذ تلهم أنه كان هناك معاهدون مريبون في تصرفاتهم ، ومعاهدون من منطقة المسجد الحرام لم يبد منهم أمارات نكث صريحة فأوجبت الآيات الوفاء لهم ما داموا موفين بالعهد للمسلمين ، أما إذا نكثوا وعادوا إلى بغيهم وصدهم فقد وجب عدم التواني في قتالهم لا سيما أنهم كانوا أعداء محاربين للمسلمين قبل العهد ، وهم الذين بدا منهم ما بدا من بغي وصد واضطرار النبي إلى الخروج . . .

وجملة (وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة) في الآيات قد تلهم بقوة أنها نزلت قبل الفتح المكي وأن المقصود منها أهل مكة ومن دخل في صلحهم في عهد الحديبية كما تلهم أنهم وإن لم تبد منهم أمارات نكث فإن ذلك مما هو متوقع منهم . هذا في حين أن الآيات الأولى من السورة صريحة بأنها نزلت بعد الفتح المكي . وهكذا نكون أمام مجموعتين من الآيات كل منهما مستقلة عن الأخرى في ظرف النزول ولكنهما تحتويان صوراً متشابهة وتماثلان في المدى والتلقين بحيث يصح أن يقال إنه كان قبل الفتح معاهدون من المشركين مريبون ، ومعاهدون متظاهرون بالوفاء ؛ وإنه كان بعد الفتح أيضا مثل ذلك ؛ وقد جاء التنظيم القرآني واحداً لكلا العهدين ، وهو الوفاء للموفين ، والتنكيل بالناكثين والمريبين ، والحض على قتال الناكثين قوي ، وفيه معالجة روحية امتزجت بشيء من العتاب والإنذار ، وينطوي في هذا صورة من صور موقف المسلمين من الدعوة إلى القتال ، إذ تلهم صيغة الآيات ١٣ ــ ١٦ أن بعض المسلمين كانوا يترددون في الاستجابة إلى داعي الجهاد ويتخوفون عواقبه ، ولعل هذا مما يقوي ما أشرنا إليه من أن أهل مكة هم المقصودون ، وأنه كان يتوقع منهم نكث صريح للعهد القائم بينهم وبين المسلمين. وسنورد بعد هذا آيات تقوي هذا الاستنتاج أيضا .

(٢١) وفي سورة التوبة كذلك الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ... » ٢٣ ـ ٢٤

والمتبادر أن النهي الشديد الوارد في الآيات موجه إلى المهاجرين ، وأن الآيات نزلت قبيل الفتح المكي ؛ ويمكن أن تلهم أنها نزلت في ظروف أخذت تبدو فيها أمارات النكث بصلح الحديبية صريحة من أهل مكة ومن دخل في صلحهم ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتهيأ لغزو مكة ويدعو إليه ؛ وفي هذا تدعيم للاستنتاج الذي استنتجناه في آخر الفقرة السابقة .

والآيات تدلنا من جهة أخرى على أن بعض المسلمين المهاجرين كانوا يقاسون أزمات نفسية في اضطرارهم إلى الوقوف من ذوي قرباهم موقف العداء ، وأن بعضهم كان رغم إخلاصه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستشعار بصلة الرحم برغم ما في ذلك من ضرر للمصلحة العامة ، وأن بعضهم كان يفعل ذلك محافظة على ماله من مصالح مادية في مكة ؛ ولعل هذا مما يفسر لنا سبب شدة الآيات ، ليكون الأمر محسوماً ومأمون الخطر ، لا سيما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على أهبة غزو مكة . وفي الآيات صورة لواقع الحال قبل الفتح ؛ إذ كان لبعض المهاجرين أقارب ذوو رحم قريبة كآباء وإخوان أو ما في مثابتهم من أعمام وأخوال وبني أعمام وبني أخوال ما يزالون كفاراً في مكة مندمجين مع أهلها في موقف العداء من النبي والمسلمين الذين منهم المهاجرون الذين بينهم وبينهم مثل هذه القريبة .

(٢٢) وفي سورة التوبة أيضاً الآية التالية :

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ... » ١١١

وقد احتوت تقرير مبدأ إسلامي جهادي رائع وعام من الناحية الإيمانية ، وهو أنه حينما يؤمن المسلم يكون كأنه باع نفسه وماله لله ، وأن الله يكون اشترى ذلك منه بالجنة ؛ وبمعنى آخر : إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقا إلا إذا أقدم بنفس طيبة على الجهاد بماله ونفسه حينما تدعو مصلحة الإسلام والمسلمين . وقد احتوت الآية طمأنة عظيمة للمسلمين ليقدموا على إجابة داعي الجهاد بكليتهم .

ولقد نزلت الآية في ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة كما يستلهم من سياقها ، وقد يكون في هذه الظروف ما اقتضت الحكمة معها نزولها للتنويه بجيش المؤمنين الجرار الذي اشترك في الحملة وإقدامهم وحسن استجابتهم ، ولهذا صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح .

(٢٣) وفي السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ . مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ . وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... »

١١٩ – ١٢١

وهذه الآيات مثل الآية السابقة نزلت في ظروف غزوة تبوك وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينـة ؛ وقد احتوت عتاباً ما للذين تخلفوا أو حدثتهم أنفسهم بالتخلف عن الحملة من مخلصي المسلمين من سكان المدينة والأعراب ، لما في ذلك من دلالة عدم التضامن والوهن لقوة الإسلام ؛ كما احتوت حثا لعامة المسلمين على تقوى الله والتضامن مع الطبقة الأولى من المؤمنين الصادقين الذين تضامنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحملة وتجهيزها بـكليتهم ؛ وفي هذا وذاك صلة بمشاهد السيرة النبوية الجهادية كما هو واضح ، فوق ما في الآيتين من تلقين مستمر المدى بعدم تخلف المسلمين في أي وقت عن الاستجابة إلى داعي الجهاد ضد أعدائهم ، وبوجوب تضامنهم مع دعاة الجهاد منهم ، وبث الطمأنينة فيهم .

(٢٤) وفي السورة نفسها الآية التالية :

« وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُـونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنـذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُـوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . . . » ١٢٢

وقد احتوت الآية مبدأ من مبادئ الجهاد الإسلامي وصورة لواقع الحال في العهد النبوي ؛ والمبدأ هو أن نطاق النفرة إلى الجهاد ينبغي أن يكون على حسب الضرورة ؛ وأنه ليس من الضروري أن ينفر إليـه جميـع المسلمين بل يكفي أن يشترك فيـه جميع فئاتهم ومناطقهم بفصائل أو فرق بقدر ما تقتضيه تلك الضرورة ؛ أما الصورة فهي بسبيل توكيد أن الجهاد في العهد النبوي كان تطوعيا وليس إلزاميا . ولعـل المبدأ ممـا سوّغ للعلماء أن يقولوا إن الجهاد فرض كفاية ، إذا اشترك فيه فريق سقط عن الباقي ، وإن لم يقم به أحد أثم الـكل ؛ غير أننا نرى أن يزاد إلى هذا وجوب الاشتراك بقدر ما تقتضيه المصلحة والضرورة ، لا مجرد الاشتراك ؛ إذ يكون هذا غير مجز وإذن لا يرتفع الإثم عن القاعدين .

والآية مما نزل عقب الأوبة من غزوة تبوك على ما يلهمه سياقها السابق ولقد روي في صددها أن المسلمين بعد أن سمعوا التقريع القرآني الشديد في حق المتخلفين والمعتذرين القاعدين اعتزموا تجنب ذلك ، وأخذوا يسارعون إلى استجابة الدعوة بغض النظر عما كان لهم من أعذار وأسباب مانعة مشروعة ، فكان في ذلك مشقة كبرى خففتها عنهم الآية . ومضمون الآية مما يلهم صحة الرواية ، ولعل هذا كان منهم حينما استنفر النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزو البلقاء وأخذ يجهز من أجل ذلك جيش أسامة بعد عودته بقليل من تبوك ؛ وهكذا تكون الآية قد احتوت أيضا صورة لرد فعل التقريع القرآني في عامة المسلمين .

(٢٥) وفي السورة نفسها الآية التالية أيضا :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ... » ١٢٣

وقد قيل في صددها إنها نزلت مبكرة ثم نسخت بفقرة « وقاتلوا المشركين كافة » الواردة في الآية ٣٦ من سورة التوبة . ويبدو هذا القول غريباً ؛ ولعل الأمثل أن تكون قد جاءت عقب الآية السابقة لتقرير مبدأ آخر من مبادئ الجهاد الإسلامي من الناحية التنظيمية ، وهو عدم توزيع المسلمين قواهم ، ومقاتلة الأقرب فالأقرب إليهم من الكفار وعدم الهوادة معهم ، أو مقاتلة كل صقع إسلامي من في منطقته منهم ؛ وإن كنا نرجح الأول . والمبادئ القرآنية والنبوية المحكمة التي نوهنا بها قبل تسوغ القول إن المقصود من جملة (الذين يلونكم من الكفار) الأعداء منهم وليس قتال كل كافر حيادياً كان أم معاهداً أم مسالماً أم عاجزاً .

وعلى كل حال فإن الوقائع الجهادية النبوية قد سارت على الأسلوب الأول الذي استلهمنا أن الآية قد أشارت إليه ، إذ كان يقاتل الأقرب فالأقرب من أعداء الإسلام البغاة والمعتدين ، فلا يشتغل بأناس حتى يكون آمناً أو فارغاً من غيرهم ، وهذا

ما كان في غزوتي خيبر وتبوك ، ووقائع بني قينقاع والنضير وبني قريظة ، مما مر تفصيله ، وما كان في غيرهما مما سوف نلم به بعد ، وحكمة هذه الخطة في غنى عن التعليق ، ولعل في هذا ما يقوي استلهامنا من الآية .

الصورة الثامنة

(٢٦) وفي سورة محمد التي تسمى أيضا سورة القتال الآيات التالية :

« ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ . فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ... » ١ — ٧

وقد احتوت الآيات حثا قوي الأسلوب على الجهاد ، والشدة في القتال مع الكفار إذا ما صار اللقاء بينهم في المعركة والإثخان فيهم ؛ وتعبير « وصدوا عن سبيل الله » و « إذا لقيتم » قرينتان حاسمتان على أن الحث ليس على قتال الكفار إطلاقاً ، بل على قتال الذين صدوا عن سبيل الله واضطهدوا الناس ومنعوهم عن الإسلام منهم ، والذين كانت حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين . وقد احتوت تقريراً لمبدأ تشريعي للأسرى كان من دون ريب ناظما لتصرف النبي فيهم ، فضلا عن أنه ناظم تشريعي عام ؛ إذ جعل أمر الأسرى للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن تنتهي المعركة ، فإما أن يسرحهم عفواً ومنا

بدون فداء ، وإما أن يستوفي منهم الفدية ويسرحهم ؛ ومما يلفت النظر أنه ليس في هذا المبدأ استرقاق للأسرى مع أن بعض الروايات ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى استرقاق سبي هوازن ، وأنه استرق سبي بني قريظة وباعه حيث يكون عمل النبي صلى الله عليه وسلم تشريعاً تفسيرياً لما سكتت عنه الآية وهو مصير الذين لا يرى السلطان الإسلامي مصلحة في إطلاق سراحهم بدون فداء ولا يفتدون أنفسهم .

وفقرة « ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض » تلهم أنه كان يحيك في نفوس بعض المسلمين أمنية ، وهي أن يسحق الله الكفار البغاة دون ما حاجة إلى اشتباك المسلمين معهم في حرب يتحملون آلامها وشدائدها ؛ فردت الآية معللة بأن الاشتباك إنما هو اختبار لهم ، وفي هذا على كل حال صورة طريفة لحالة واقعية إزاء الجهاد والدعوة إليه .

(٢٧) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ... ٣١

٢ — فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ... ٣٥

وقد احتوت الأولى تقريراً بأن الحرب مع الكفار هي ابتلاء للمسلمين ليتميز منهم المجاهدون والصابرون عن غيرهم ؛ وهذا التقرير مشابه لما قررته الفقرة التي نوهنا بها آنفاً ، ودال على أن التردد الذي كان يحيك في نفوس بعض المسلمين ظل يبدو أثره ، فاقتضت الحكمة توكيد التعليل للطمأنينة .

وقد احتوت الآية الثانية نهياً للمسلمين عن الضعف والتواني في الجهاد والجنوح إلى السلم إيثاراً للعافية ، وقد يلهم هذا أنه كان يبدو على فريق من المسلمين ـ ولعله الفريق الذي تضمنت الآية الأولى والفقرة التي نبهنا إليها الإشارة إليه ـ توان

في الاستجابة إلى داعي الجهاد ، ورغبة في مسالمة الكفار ، وأسلوب الآيات يدل على أن هذا الفريق ليس من المنافقين ، فاحتوت تحذيراً ونهياً رقيقين ، وحفزاً وتثبيتاً نافذين ، وهما في الوقت نفسه مستمرا التلقين والإلهام في الظروف والمواقف المماثلة .

(٢٨) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

« إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ . إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ . هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ ... » ٣٦ ـ ٣٨

والآيات تستهدف تهوينا للمادة وتنديداً بالبخل والبخلاء ، وتقريراً بأن البخل إنما يضر صاحبه ، وحثا ضمنيا على الإنفاق في سبيل الله ؛ وهي إلى مافيها من تلقين قوي مستمر المدى تتضمن كما يتبادر ما يلهم أنه كان يبدو من فريق من المسلمين شح وقبض يد ، وتردد في الاستجابة السريعة السمحة إلى دعوة الجهاد بالمال ؛ ويبدو أن هذا مما كان متمكنا وكثير الشيوع بحيث اقتضت الحكمة أن تكون الآيات بالأسلوب الإنذاري الشديد الذي جاءت به .

الصورة التاسعة

(٢٩) وفي سورة الحجرات الآيات التالية :

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ

---

(١) فيشدد عليكم في التكليف .

بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا
بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... ٩ ــ ١٠

والآيات ليست في صدد الجهاد الإسلامي ضد الأعداء ، غير أنها احتوت مبدأ جليلا في تنظيم الموقف بين المسلمين في حالة اقتتال فريق مع آخر منهم ، مما يلهم أنها نزلت في ظرف حادثة واقعية من مثل ذلك ، وهذا ما يجعل المناسبة قائمة لإيرادها في هذا المبحث .

ولقد احتوت الآيتان تعليما تام الأركان رائع المدى بشأن ما يقوم من نزاع وقتال بين فريقين مسلمين ، موجهاً إلى فريق ثالث ليس طرفا في النزاع ، وموجبا عليه ألا يقف منه موقف الساكت المتفرج ، بل يسارع إلى فضه وإقامة الصلح والسلام بين المسلمين ، وإحقاق الحق لأهله بدون محاباة ، ونصرة المظلوم المبغي عليه بالسلاح إذا لم يرتدع الظالم ويقف عند الحق والعدل وحدود الله .

ومما روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة نزاع بين عائلتين متصاهرتين انتهى إلى الاقتتال ، وهو ما تلهمه الآيتان ، وفيه صورة متصلة بمشاهد وقائع المسلمين في أثناء السيرة النبوية ، غير أن أسلوبهما المطلق التشريعي يجعل ما احتوتاه مما يتسع لأمور أعظم وأعم ؛ ولقد يكون من ملهمات تطبيقهما احتمال قيام حكومات إسلامية عدة ، ووجوب قيام الأخوة والتضامن والاتحاد بينهما ، وإقامة العلاقات بينها على أساس العدل والحق والأخوة ، فإذا ما نشب خلاف وقتال بين حكومتين منها وجب على سائرها التدخل لحل المشكل على ذلك الأساس ، والتضامن في فرض قبول الحق على المبطل ولو أدى ذلك إلى قتاله . وإذا لاحظنا أن مثل هذا النظام هو أسمى الأماني التي يتوق إلى تحقيقها العالم ويرى أن السلام والحق لا يتوطدان إلا بها ؛ بدا لنا ما فيه من جلالة وروعة وخطورة .

الصورة العاشرة

(٣٠) وفي سورة الحديد الآيات التالية :

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ . . . »

١٠ ـ ١١

ويبدو من خلال الآيات أنها نزلت بعد الفتح المكي ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وسّع دعوته إلى الإنفاق والجهاد حتى يتمكن من التنكيل بأعداء المسلمين وتوطيد السبيل إلى نشر كلمة الله على أوسع ما يكون بعد أن زال العائق المهم وهو مكة ، كما يبدو أيضاً صورة واقعية لفريق من المسلمين لم يستجيبوا استجابة سمحة وكافية للدعوة ، ولم يعطوا إلا القليل محتجين بالزهيد الذي كان ينفقه المسلمون قبل الفتح ؛ فاقتضت الحكمة الإيحاء بها مندّدة معاتبة ، ومبينة للفرق العظيم بين ما قبل الفتح وبعده ، منوهة بفضل الذين استجابوا إلى دعوة الجهاد بالنفس والمال قبله مهما كان نطاق ذلك ، وحافزة لهم اللاحقين . وهكذا تكون الآيات قد احتوت ـ بالإضافة إلى ما احتوته مما ذكرناه ـ مبدأ مستمر التلقين بأفضلية المقدمين في الأزمات واشتداد الأخطار .

(٣١) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ...

١٨ ـ ١٩

٢ — سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ . مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ

إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ . . .

٢١ ـ ٢٤

ويلمح خلال الآيات صورة واقعية لفريق أمسك يده عن الإنفاق ، ودعا غيره إلى ذلك ، كما تلمح صورة واقعية أخرى لحادث استشهاد أو لحادث أليم أصاب بعض المسلمين ، واقتضت الحكمة تسكين ذويه من جهة والحيلولة دون جعل هذا الحادث وسيلة للشح أو الانقباض عن الجهاد بالمال والنفس من جهة أخرى ؛ ولقد تخلل الآيات آية فيها تمثيل للحياة الدنيا بالزرع الذي ينبت بعد المطر ثم لا يلبث أن يجف ويغدو هشيما ، وأنها لا يصح لعاقل أن يغتر بها ويركن إليها بل يسارع إلى ابتغاء رضاء الله وما عنده من الفضل والمغفرة ؛ وفي كل هذا معالجة نفسية لذلك الحادث وآثاره على ما هو المتبادر ؛ وطبيعي أن فيما احتوته الآيات من التنويه بالمتصدقين والشهداء ، والحملة على البخلاء والمحرضين على البخل ، والمختالين المتفاخرين كذباً وغروراً ، هو ـ بالإضافة إلى ما توحي به من أهداف متصلة بمشاهد وظروف السيرة ـ غرض مستمر التلقين والإلهام .

ويلاحظ تشابه موضوع الآيات التي أوردناها في الفقرة السابقة من السورة وهذه الآيات ، مما يمكن أن يلهم أن الصورة التي اقتبسناها لم تكن ضيقة النطاق .

الصورة الحادية عشرة

(٣٢) وفي سورة الممتحنة هذه الآيات :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ . لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . .

١ — ٣

٢ — عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . . .

٧ — ٩

والآيات الأولى احتوت نهيا شديداً عن اتخاذ الأعداء أولياء ومبادلتهم المودة ولو كانوا ذوي أرحام وقربى لما في ذلك من خطر على كيان المسلمين ومصالحهم ، وتذكيراً بما كان من هؤلاء الأعداء من بغيٍ وعدوان وكفر وصد وأذى ؛ ومع أن المروي أن الآيات نزلت بمناسبة أن أحد المسلمين أرسل رسالة إلى زعيم مكي ينذره باستعداد النبي صلى الله عليه وسلم لغزو مكة ، ومع احتمال صحة الرواية ، فإن الآيات تلهم أن العتاب المرير الذي احتوته أوسع شمولا ، وأن موقف الموادّة الذي وقفه بعض المهاجرين نحو أقاربهم من مشركي مكة أكثر من أن يكون حادثاً فرديا ، كما أنها تحتوي دلالة على ما كان يثور في نفوسهم من أزمات لاضطرارهم إلى قتال أولئك الأقارب ؛ والرواية لا تذكر أن المسلم أرسل الرسالة إلى أقاربه ، بل إلى زعيم مشرك ليصطنع لديه يداً يحقق بها لنفسه منفعة شخصية ، في حين أن الآيات تذكر الأرحام والأولاد مما يدعم صحة استلهامنا المذكور . ولقد تكرر النهي بأساليب متنوعة أوردنا بعضها في الفقرة (٢١) مما يدل على تكرر المواقف والأزمات ، ويدعم ما استلهمناه من سعة الشمول

وأن الحادث ليس فرديا ، بحيث اقتضت الحكمة تكرار النهي لمعالجة موقف خطر وخطير في آن واحد ؛ ومع خصوصية المناسبة التي نزلت فيها الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ من المبادئ الجهادية وغير الجهادية ، وهو عدم جواز اتخاذ المسلمين أعداءهم أولياء أو مبادلتهم المودة ، لاسيما الذين بادءوهم بالعداء ، واستمروا يتربصون بهم الدوائر ، ويريدون لهم السوء ولا يألون جهداً في الكيد لهم في كل فرصة وموقف .

والآيات الأخرى احتوت تحديد النهي المشدد في الآيات الأولى ، وحصره فيمن يقاتل المسلمين في الدين ويظاهر عليهم ، وأباحت بل حثت على البر بمن يقف منهم موقف المسالمة ويكف عنهم يد الأذى والكيد ولا يظاهر عليهم أعداءهم ؛ والآية (٧) خاصة تلهم صحة ما ذكرناه مما كان يعتلج في نفوس بعض المهاجرين من أزمات ، وتستهدف ـ فيما هو المتبادر ـ تهدئتها ، إذ تطمئنهم باحتمال انقلاب أولئك الأعداء أصدقاء وتبدل العداء بالمودة ؛ والآية (٨) قد استهدفت حل المشكلة حلا ما زيادة في التوسعة والتهدئة وذلك بإباحة البر والقسط للمسالم الحسن النية وتقوية الحجة على الضارين المؤذين . وهكذا يبدو واضحاً أن الآيات متصلة بمشاهد السيرة النبوية ، ومعالجة الحالات النفسية وغير النفسية التي كانت تبدو في ظروفها . ومع خصوصية الآيات ففيها من دون ريب تلقين مستمر المدى ، ومبدأ محكم جليل من المبادئ التنظيمية للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، يظل خالد الروعة على مر الدهر .

الصورة الثانية عشرة

(٣٣) وفي سورة الصف الآيات التالية :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ . كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ . إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَـٰنٞ مَّرۡصُوصٞ . . .

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ
تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى
ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت
طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ . . .

١٠ — ١٤

فالآيات الأولى تتضمن صورة لموقف بعض المسلمين في عدم تأييدهم قولهم بالفعل في الجهاد ، وعدم استجابتهم للدعوة إليه والتضامن فيه استجابة شافية ، كما أنها تلهم أن هذا الموقف قد أثار أزمة شديدة في نفس النبي والمخلصين ؛ بل إن الإطلاق فيها ليلهم أن هذا الموقف لم يكن حادثا فرديا بل كان مما يتكرر حدوثه ، الأمر الذي يلهم ما تكرر من الآيات المنددة حينا والحاثة حيناً ، مما أوردناه في بعض فقرات هذا المبحث .

والآيات الأخرى احتوت عودا على بدء في الحث على الجهاد بأسلوب آخر فيه قوة وفيه بشرى وليس فيه ذلك العتاب المرير ، وفيه كذلك تمثيل بموقف الحواريين من عيسى عليه السلام ، حفزاً لهم المسلمين ودعوة للتأسي بهم ، وقد يبدو أن ما انطوى في الآيات الأولى من صورة قد كانت شديدة الأثر بحيث اقتضت الحكمة العودة إلى الموضوع بهذا الأسلوب في السورة نفسها .

والآية (١٣) وإن تكن تعد بالنصر والفتح ، مما اتخذه بعض المغرضين وسيلة إلى

القول بأن الغنيمة كانت هدفاً من أهداف الجهاد النبوي والإسلامي ، فإن مما يجدر التنبيه إليه أن هذا الوعد لم يكن هو الرئيسي في الآيات ، وإنما جاء تالياً ؛ على أن النصر والفتح لا يعنيان الغنائم أو الغنائم فحسب كما هو واضح فوق أن هذا مما يتسق مع طبائع الأمور وحقائق الأشياء ، وليس فيه ما يتحمل غمزاً ولا نقداً ما دام داعي الجهاد هو رد البغي والدفاع ، وتوطيد حرية الدعوة والدين .

المبحث الثاني

في الوقائع الجهادية

طريقة استعراض الآيات والصور ــ صور من سورة البقرة للاشتباكات الجهادية الأولى بين المشركين والمهاجرين ــ صورة قرآنية لوقعة بدر وظروفها ونتائجها ــ خلاصة الروايات عنها ــ تعليقات متنوعة ــ صورة قرآنية لوقعة أحد وظروفها ونتائجها ــ خلاصة الروايات عنها ــ تعليقات متنوعة ــ تعليق على ترتيب سورتي الحشر والأحزاب ــ صورة قرآنية لوقعة الخندق وأثرها ونتائجها ــ خلاصة الروايات عنها ــ تعليقات متنوعة ــ صورة قرآنية لوقعة الحديبية وظروفها ونتائجها ــ خلاصة الروايات عنها ــ تعليقات متنوعة ــ صور قرآنية لأحداث متصلة بصلح الحديبية ــ الإشارات القرآنية الغامضة في القرآن إلى فتح مكة ــ خلاصة الروايات عنه ــ تعليقات متنوعة ــ صورة قرآنية ليوم حنين ــ خلاصة الروايات عنــه ــ مدى حظر دخول المسجد الحرام على المشركين الوارد في القرآن وصلته بإسلام أهل الطائف ــ صورة قرآنية لسلاح الشعر في الجهاد .

الصورة الأولى

سنستعرض في هذا المبحث الفصول القرآنية التي تنطوي ــ على حسب ما تبادر لنا وذكره الرواة المفسرون ــ على وقائع جهادية . سواء منها المهم والثانوي ، على حسب ترتيب وقوع هذه الوقائع الذي تواترت الروايات عنه وأيدته روايات ترتيب النزول أيضاً . وقد رأينا أن نكمل الصور القرآنية لكل وقعة ذكرت في القرآن بإسهاب أو اقتضاب أو إشارة ، بالروايات الواردة عنها في كتب السيرة والتفسير ، مع إبداء ما يعن من ملاحظات في صدد ذلك .

الصورة الثانية

(١) في سورة الحج هذه الآية :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . . . »

وهي تلهم أن المسلمين كانوا يقاتلون فأذن الله لهم بالدفاع ووعدهم بالنصر . وأكثر الرواة على أن هذه الآية مع الآية التي قبلها والآيتين اللتين بعدها أول ما نزل في العهد المدني في صدد الجهاد . فيكون فيها أولى إشارة إلى واقعة جهادية في وقت مبكر من هذا العهد ؛ لأن جملة (يقاتلون) لا يمكن أن تحمل إلا على ذلك فيما هو المتبادر .

(٢) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ . وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ...»

١٥٤ ـ ١٥٦

وهي تلهم أن بعض المسلمين استشهدوا في سبيل الله فهدفت إلى تسلية ذويهم وإيذان المسلمين بأنهم سوف يتعرضون لمختلف أنواع البلاء في سبيل الله . والمتبادر أن هذا الاستشهاد قد كان نتيجة عدوان أو اشتباك مع العدو . وسورة البقرة من أوائل ما نزل من القرآن في العهد المدني . فيكون في الآيات كذلك إشارة أولية إلى واقعة جهادية في وقت مبكر من العهد المدني كذلك .

(٣) وفي سورة البقرة هذه الآيات :

« وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ . ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ

عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ . . . »
١٩٠ – ١٩٤

والآيات تأمر المسلمين بقتال من يقاتلهم في حدود معينة .وهي ذات صلة بهذا المبحث من حيث أنها تفيد أنه كان هناك من يقاتل المسلمين منذ وقت مبكر من العهد المدني .

(٤) وفي نفس السورة هذه الآيات :

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . . »

٢١٧ – ٢١٨

والآيات تلهم أن اشتباكاً وقع في الشهر الحرام بين فريق من المسلمين وفريق من المشركين فأثار المشركون ضجة حول ذلك وزعموا أنه خرق لتقليد الأشهر الحرم المقدس. ويبدو أن الضجة أثرت في بعض للمسلمين وجعلتهم يتساءلون هذه الأسئلة التي رددتها الآيات . وقد ردت الآيات على الضجة رداً مفحما فيه تبرير لما وقع وثناء وتنويه عن المجاهدين المسلمين .

ولقد روى رواة السيرة[1] خبر بضع حوادث جهادية في شكل سرايا سيرها النبي صلى الله عليه وسلم في بحر الشهور السبعة عشر التي أعقبت الهجرة وسبقت وقعة بدر المشهورة . منها واحدة بقيادة حمزة عم النبي . وثانية بقيادة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عم النبي . وثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص . ورابعة بقيادة عبد الله بن جحش

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٤٣ – ٤٩ وابن هشام ج ١ ص ٢٢٣ – ٢٤٣ .

رضي الله عنهم وذلك بالإضافة إلى غزوتين خرج النبي صلى الله عليه وسلم على رأسهما واحدة إلى الأبواء وثانية إلى الأبواء. وهذه الغزوات والسرايا كانت تخرج على ماذكرته الروايات لاعتراض قوافل قريش. وكانت هذه القوافل تنجو فلم يقع قتال بين المسلمين وقريش باستثناء سرية عبد الله بن جحش حيث وقع بينها وبين المشركين اشتباك في مكان يعرف ببطن نخلة. وكانت في الشهر السابع عشر للهجرة. وقد قتل المسلمون واحداً من المشركين وأسروا اثنين وغنموا القافلة. وجميع المجاهدين في هذه الغزوات والسرايا كانوا من المهاجرين. وآيات البقرة ٢١٧ ـ ٢١٨ نزلت في صدد هذا الاشتباك الذي اشتبه في وقوعه في شهر رجب الحرم. وآية البقرة (٢١٨) تؤيد ما روي من أن المجاهدين في هذه السرايا والغزوات كانوا من المهاجرين فقط كما هو المتبادر من نصها. وقد عللت الروايات أن عهد الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم كان للدفاع والحماية في دارهم وكان الثأر بين المهاجرين والمشركين فقط لسابق ما سلف منهم ضدهم فلم يندب النبي صلى الله عليه وسلم لها إلا المهاجرين. وهو تعليل وجيه.

وواضح من الروايات أن هذه الغزوات والسرايا كانت حركات هجومية من المهاجرين ضد قريش. هذا في حين أننا نقرأ جملة (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) في آية الحج (٣٩) وجملة (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) في آية البقرة (١٩٠) وجملة (وما يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) في آية البقرة (٢١٧) وجملة (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء) في آية البقرة (١٥٤). وكل هذا يفيد أن المشركين كانوا يقاتلون المسلمين وأن من المسلمين من استشهد في القتال. فنحن نسجل هذا لأن نصوص الآيات تفيده وإن لم نطلع في الروايات على ما يوضحه.

الصورة الثالثة

(٥) وسورة الأنفال ـ التي يجيء ترتيبها في النزول بعد سورة البقرة ـ احتوت فصولا أجمع المفسرون والرواة على أنها في صدد وقعة بدر الكبرى، واسم هذه الوقعة قد

ورد في الآية التالية من سورة آل عمران ـ التي يجيء ترتيب نزولها بعد الأنفال ـ على سبيل التذكير بنصر الله فيها، والتسلية عما كان من آلام وقعة أحد على المسلمين :

١ — وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ...

١٢٣

أما فصول سورة الأنفال فهي هذه :

١ — يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ...

١ ـ ٤

٢ — كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ . لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ . إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ

ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ
ٱلنَّارِ . . .   ٥ ـ ١٤

٣ — فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ
وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ
كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ . إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...

١٧ ـ ١٩

٤ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ .
وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ
ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ
قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ
وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ...   ٢٠ ـ ٢٨

٥ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا
ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ . لِيَمِيزَ
ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي

جَهَنَّمَ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ . قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن
يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ . وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ
كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
مَوْلَـٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ . وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ
خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ . إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ
مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ يُرِيكَهُمُ
ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَٰكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ
ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً
وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ...

٣٦ ـ ٤٤

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ
وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ
نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ
ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . . »

٤٥ ـ ٤٩

٧ — مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...

٦٧ ـ ٧٢

وهذه الفصول قد نزلت بعد الوقعة ، والمتبادر المستلهم من أسلوبها ومضامينها أنها نزلت بقصد تنبيه المسلمين إلى ما كان من تأييد الله لهم وعدم إمكان انتصارهم لولا ذلك وإيجاب الرضاء عليهم بقسمة الغنائم ، أو بتعبير أدق بفرز الخمس منها ، وإطاعة الله ورسوله وعدم التنازع والشقاق ، والتذكير بموقف المنافقين ، وتأييد ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في الأسرى ، مع العتاب عليه لأنه خلاف الأولى ؛ ومع ذلك فإن من الممكن أن تقتبس منها صورة كاملة إلى حد ما لأسباب الوقعة وسيرها ونتائجها ، نرسمها كما يلي :

١ — إن الله قد ألهم نبيه الخروج إلى العدو فندب المسلمين إلى ذلك ، ممنيا إياهم بأن تكون لهم الغلبة على الطائفة غير ذات القوة التي أجمع المفسرون والرواة على أنها قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام .

٢ ـ لقد لبى الدعوة المهاجرون والأنصار معا .

٣ ـ لم يتحقق الأمل بلقاء القافلة ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام الحملة المستعدة للحرب والتي جاءت لإنقاذ القافلة بناء على استصراخ قائدها ، والمجهزة بالعدة والعدد ، والتي تفوقهم كثيرا في هذا وذاك .

٤ ـ لقد كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم وقد خرج ملهما إلى العدو أن يناجز الحملة ، فكان هذا موضع أخذ ورد ؛ وقدجادل بعض المسلمين النبي في هذا الرأي معتبرين أنفسهم كأنما يساقون إل الموت من جراء لقاء عدو أكثر عددا وأقوى عدة ؛ غير أنه لم يكن للجدل محل لأن الحرب أصبحت واجبا لا محيص عنه بعد أن علم كل فريق بالآخر.

٥ ـ إن كلا من الفريقين نزل في منطقة واحدة على غير ميعاد ، إذ كان المسلمون في طرف الوادي الأدنى والمشركون في طرفه الأبعد ، حتى أصبح تجنب الحرب غير ممكن بحال .

٦ ـ إن المشركين قبل أن يلقوا المسلمين كانوا يستشعرون القوة والبطر ، وقد أنفقوا لتجهيز الحملة طائل الأموال ، وذهبوا قبل السفر إلى آلهتهم واستفتحوها ، أي طلبوا منها النصر والفتح على النبي وصحبه .

٧ ـ إن المسلمين والمشركين معا قد قدر كل منهم خصمه أقل عددا مما هو ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى المشركين في منامه كذلك أقل مما هم ، فكان هذا من أسباب إقدام كل من الفريقين على المناجزة .

٨ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما احتدمت المعركة أخذ يستغيث الله فألهم أنه ممده بألف من الملائكة بقصد البشرى والتثبيت .

٩ ـ لقد كان في ظروف المعركة بعض مظاهر تأييدية للمسلمين طمأنتهم بأن الله معهم ؛ فقد كانوا تعبين قلقين فلم يقدروا أن يناموا مع شدة حاجتهم إلى النوم ، فألقى الله في قلوبهم الطمأنينة وغشاهم النعاس فناموا واستراحوا ؛ وكانت حاجتهم ماسة إلى المطر فأمطروا وقضوا بذلك حاجاتهم .

١٠ – إنه كان ثمة خلاف ونزاع بين المسلمين في صدد قسمة غنائم الوقعة ، وإنه بدا من بعضهم شيء من التردد في قبول وتنفيذ واستماع أقوال ومقترحات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هذا أوشك أن يجر إلى الفتنة .

١١ – إن النبي صلى الله عليه وسلم أوعز بعدم الإثخان الشديد في العدو وأسر من يمكن أسره دون قتله منهم ، وإنه رأى بعد المعركة أن يطلق سراح الأسرى مقابل الفدية على أن يأخذ منهم عهداً بعدم خيانته أو حربه أو الكيد له مرة أخرى ، وإن الآيات بحق الأسرى قد نزلت قبل إطلاق سراحهم معاتبة على هذا الرأي الذي هو خلاف الأولى ، ومجيزة له مع ذلك ، وآمرة النبي بوعظ الأسرى وترغيبهم وإنذارهم . وطبيعي أنه نفذ أمر الله ووحيه .

الصّورة الرابعة

والروايات (١) المعتبرة تتسق إجمالا مع الصورة التي أمكن اقتباسها من الآيات مع بعض تفصيل نلخصه كما يلي :

علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قافلة تجارية لقريش آتية من الشام ، وليس معها حامية كافية ؛ فندب المسلمين للخروج لعل الله يهبها لهم ؛ فخرجوا خليطاً من المهاجرين والأنصار ؛ وفي الطريق عرفوا أن القافلة نجت ، وأن حملة قوية آتية من مكة ، فاقترح بعضهم العودة وعدم الاشتباك لأنهم إنما خرجوا للقافلة ، غير أن فريقاً آخر من المسلمين أبدوا استعدادهم للاشتباك ؛ وبعد التشاور تم الرأي على ذلك ؛ ومما ذكرته الروايات أن النبي لم يعزم على الدخول في المعركة إلا بعد أن أعلن زعماء الأنصار رضاهم واستعدادهم للدخول فيها ، إذ طلب أن يشير عليه الناس حتى فهم الأنصار أنه يعنيهم ، فقال له زعماؤهم : امض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت البحر بنا لخضناه . وذلك لأنه لم ير له حقا عليهم في الحرب خارج المدينة ، لأنهم إنما وعدوه

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٥٠ – ٦٩ وابن هشام ج ٢ ص ٢٤٣ – ٤٢١ .

بالحماية والدفاع عنه في دارهم ، وقد اطمأن بعض المشركين بنجاة القافلة فاقترحوا العودة ، فأبى بعض صناديدهم إلا البقاء على ماء بدر يشربون ويطربون ، ابتهاجاً من جهة وإظهاراً لقوتهم من جهة أخرى ؛ وقد اشتبك المسلمون مع المشركين وكانوا يبلغون ثلاثة أمثالهم ، فثبت الله المسلمين وشملتهم عنايته وروحانيته ، واستغرقوا حتى رأوا الملائكة تقاتل معهم ، وأخذوا يتحدثون بذلك ، وصبروا واستماتوا حتى تم لهم النصر ، وقتل في المعركة نحو سبعين من المشركين فيهم عدد غير يسير من الصناديد الذين قادوا حملة المشاقة والمعارضة في مكة ، كما أسر نحو هذا العدد : فيهم عم النبي العباس وبعض أقاربه ، وقد نصب للنبي عريش لمشاهدة سير المعركة ، فكان يضرع فيه إلى الله ليؤتيه النصر بشدة واهتياج ، هاتفاً لربه بقوله : « اللهم إذا غلبت هذه الفئة فلن تعبد في هذه الأرض » ؛ وقد اختلف المسلمون بعد المعركة في شأن توزيع الغنائم ، فمنهم من رأى أن توزع على الذين حاربوا ، ومنهم من رأى أن توزع على من حضر المعركة حارب أو لم يحارب ، كما كان اختلاف بشأن أسلاب القتلى ونسبة التوزيع بين الركبان والمشاة ـ ومما ذكرته الروايات أيضاً أن زعماء مكة تخوفوا من بني كنانة أن يأتوهم من خلفهم إذا هم خرجوا ، فتمثل إبليس لهم بصورة زعيم بني كنانة وقال لهم إني جار لكم فلا تخشوا من قومي بأساً ؛ وأن النبي شاور أصحابه في شأن الأسرى فمنهم من ارتأى قتلهم لإرهاب أهل مكة ـ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هؤلاء ـ ومنهم من جنح إلى الرفق وأخذ الفداء ـ وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من هؤلاء ـ فأخذ النبي برأيه ؛ ثم نزل القرآن بالعتاب حتى بدا الخوف على النبي وصاحبه وبكوا لما كان منهم من خلاف الأولى الذي في علم الله المغيب عنهم .

وإذا كان ثمة شيء من التعليق على الروايات التي قلنا أنها تتسق إجمالا مع الآيات فهو أن الصورة القرآنية أقوى وضوحاً وحيوية من الروايات ؛ وأن الآيات تلهم أن الخلاف في صدد الغنائم إنما كان على فرز الخمس أكثر منه على طريقة التوزيع ومقداره ،

لأن الكلام فيها مصبوب على ذلك ، وأكثر ما جاء في صدد نصر الله وتأييده قد استهدف تشريع الخمس ، وإيجاب قبوله والرضاء به .

ويلمح من الفصول ومن الآيات ٥٥ ـ ٦٣ التي نقلناها في مبحث التنكيل باليهود والآيات ٦٥ ـ ٦٩ التي نقلناها في مبحث الدعوة إلى الجهاد ، ما كان للانتصار من أثر في استعلاء الإسلام ، وشعور المسلمين بالعزة والقوة والتأييد الرباني الذي غلبت به فئة قليلة فئة كبيرة ، والرغبة في اعتبار الفرصة سانحة لدعوة الكفار الذين كانت الضربة عليهم قاصمة إلى الانتهاء من موقفهم الجحودي والعدائي ، وللتنكيل بالناكثين والخائنين ، وهم يهود بني قينقاع ، على ما ذكرناه في مبحث التنكيل .

الصورة الخامسة

ونريد أن ننبه إلى بعض نقاط تلهمها الآيات والروايات التي تتسق معها ؛ فا ي يتبادر لنا أن تردد بعض المسلمين في الاشتباك مع القرشيين ، ورغبة النبي صلى الله عليه وسلم في الاستماع إلى رأي الأنصار في ذلك ـ ينطوي على ما كان مقدراً للنضال بين مشركي مكة والمسلمين في المدينة ـ وخاصة أهلها الذين لم يكن قد قام بينهم وبين أهل مكة عداء صريح ـ أن ينتهي إليه من مظهر عنيف بهذا الاشتباك أخذت تبدو آثاره الخطيرة فيما كان من اشتداد أحقاد المكيين وتحفزهم للانتقام لدمهم وهيبتهم ، وفيما كان بعد ذلك من غزوهم المدينة أولا وثانياً بحشود عظيمة أزعجت المسلمين أيما إزعاج وأوشكت أن تكون كارثة على الإسلام ،

ومما لا نرتاب فيه من الناحية الثانية أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه المخلصين وخاصة كبار المهاجرين منهم قد رأوا في احتمال انتصارهم على المكيين فوائد عظيمة بعيدة المدى ، سواء فيما يكون من إزعاجهم بتهديد طريق تجارتهم وهي من دعائم كيانهم القوية ؛ أو فيما يكون لهزيمتهم من أثر عظيم من ناحية إضعاف هيبة مكة ونفوذها على العرب ، ومن ناحية تعالى قوة الإسلام ، وانفساح المجال لانتشار الدعوة الإسلامية

بالتبعية ، فكان هذا مما جعلهم يقدمون ، لا سيما أن وعد الله قد تكرر لهم بلسان القرآن بالنصر والتأييد ، وكانوا يؤمنون أعمق الإيمان بتحقيق الله وعده لهم ، ولعل في الآيات ٧ ـ ٨ و ١٣ ـ ١٦ ما يقوي هذا التقرير .

ولقد أحدث اشتراك أهل المدينة في المعركة تطوراً عظيماً وحاسما في موقف كل من المدينتين الكبيرتين تجاه الأخرى ، وكان بدءا لعهد عداء صريح وقوي بين الأوس والخزرج من ناحية ، والمكيين من ناحية أخرى لم يكن له سابقة ؛ وهو ماحسب هؤلاء حسابه وعواقبه حينما أزمعوا اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم وعدم تمكينه من الإفلات من أيديهم والهجرة إلى يثرب على مانبهنا إليه في مناسبة سابقة ؛ كما أنه أحدث تطوراً بارزاً في التضامن القوي الدموي ـ بعد الديني ـ بين المهاجرين والأنصار ؛ وهو مااستهدفت الآية (٧٢) تقريره على ماهو المتبادر ، بحيث اعتبرت الولاء بينهم أمراً راهناً وموطداً دون المؤمنين الذين لم يهاجروا .

وكذلك كان تشريع خمس الغنائم ذا خطورة عظيمة ، من ناحية أنه أول تشريع قرآني مالي رسمي غير الزكاة توطد به بيت المال في الإسلام ؛ وتيسر به تحقيق مادعا إليه القرآن من مساعدة الطبقات المحتاجة والإنفاق في سبيل مصالح المسلمين العامة بأسلوب رسمي غير قائم على التبرع ولا ريب في أن توطيد بيت المال في العهد المدني ، وتعيين حق ثابت له يتسلمه وينفق منه أمر عظيم المدى .

الصورة السادسة

ولأجل الترتيب التاريخي في ذكر الوقائع الجهادية نذكر بما مر في فصل اليهود مما استدللنا عليه من بعض آيات سورة الأنفال وغيرها من ظروف ونتائج وقعة بني قينقاع ، ومن أنها قد وقعت بعد مدة قليلة من وقعة بدر ، وكان لهذه الوقعة أثر ما في ظروف وقوعها أيضا .

الصورة السابعة

(٦) وسورة آل عمران التي يجيء ترتيبها في النزول بعد سورة الأنفال احتوت فصولا عدة أشير فيها إلى حوادث وقعة حربية بين المسلمين والمشركين دارت فيها الدائرة إلى حد ما على الأولين ؛ وهذه الوقعة لم يرد اسمها في القرآن ، ولكن الروايات أجمعت على أنها وقعة أحد ، حتى ليعدهذا يقينا . وأحد : جبل مشرف على المدينة ؛ وقد كان المشركون أهل مكة قد جاؤوا ينتقمون لهزيمتهم ودمهم وكرامتهم فى وقعة بدر .

وإليك أولا الفصول القرآنية :

١ — وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ . بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ . لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ... ١٢١ ـ ١٢٨

٢ — قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ . هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ . أَمْ

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ . وَلَقَدْ
كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ .وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ . وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟
لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ . وَمَا كَانَ
قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ . فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ
فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ . بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ . سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ . وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ
ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ
أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ
وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل
لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ

ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ . فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ . إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ . وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ...

١٣٧ — ١٦١

٣ — لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ

ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ... ١٦٤ ـ ١٧٩

الصورة الثامنة

ويصدق ماقلناه في صدد فصول سورة الأنفال على هذه الفصول من حيث أنها نزلت بعد انتهاء المعركة ؛ وقد استهدفت في الدرجة الأولى طمأنة المسلمين وتسليتهم عما حل بهم من أثرها ، وعتابا على ما كان من بعضهم في ظروفها ، وتقريع المنافقين على مواقفهم فيها ، والتنويه بالمخلصين لما بدا منهم من حسن الاستجابة ، وتوجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم في مداراة المسلمين الخ . . . ومع ذلك فإن من الممكن أن

يقتبس منها كذلك صورة كاملة إلى حد ما لسير المعركة ونتائجها نرسمها كما يلي :

١ ـ إن المعركة وقعت قرب المدينة ، إذ غدا النبي صلى الله عليه وسلم من أهله لاختيار مكان صالح للقتال ؛ وقد كانت في طرف الجبل الثاني ، إذ أن المسلمين حينما انهزموا أخذوا يصعدون حتى يبلغوا الذروة لينحدروا منها إلى المدينة ·

٢ ـ إن المهاجرين والأنصار قد اشتركوا في المعركة .

٣ ـ إن فريقا من المنافقين أيضا قد خرج مع من خرج من المؤمنين ، كما أن فريقا آخر ظل قاعداً ولم يخرج وحاول تثبيط من يتصل به من المسلمين .

٤ ـ لقد دار جدل ووقع خلاف على الخطة التي يجب السير عليها . وكان زعماء المنافقين في جانب الذين رأوا غير ماتم تنفيذه برأي النبي وموافقة أكثر المسلمين ، أو بالأحرى ذوي الرأي منهم .

٥ ـ إن فريقاً من المسلمين كانوا تحمسوا للقاء العدو حينما علموا بقدومه ، وأخذوا يتحدون الموت ، ويبدون استعدادهم للقائه .

٦ ـ إن المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين انسحبوا قبل نشوب المعركة بحجة أنهم لا يعتقدون بنشوبها .

٧ ـ إن فريقين من المخلصين ـ والمقصود على الراجح بطنان أو طائفتان من بطنين ـ داخلهم شيء من الوهن وكادوا ينسحبون ولكن الله ثبتهم .

٨ ـ لما دارت المعركة كان النصر في بدئها للمسلمين ، إذ أخذوا يثخنون في أعدائهم ويرون مايحبون من النصر والغلبة ، وكادوا يكسبون المعركة ؛ وقد كان فريق من المسلمين قد أمروا أن يكونوا في موقف خاص فلما رأوا النصر يكاد يتم للمسلمين اقترح بعضهم ترك المكان واللحاق بالمسلمين لمشاركتهم في الغنائم خشية أن تؤخذ من دونهم ، وألا ينالوا من النبي حقهم فيها ؛ وخالف ذلك البعض الآخر مفضلين التمسك بطاعة النبي فيما أمر ورضاء الله حتى انشقوا وتنازعوا ، ثم فارق الذين اقترحوا ترك المكان مكانهم

فاختل التدبير الحربي ، ولم يلبث أن تغير الموقف وانقلبت الحرب على المسلمين بسبب ذلك ، ودب الذعر فيهم وانهزموا صاعدين في الجبل لا يلوون على شيء .

٩ ـ إنه شاع أثناء المعركة ـ أو بالأحرى في أثناء بلبلة الهزيمة ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل فكانت الشائعة سببا في اشتداد الذعر والهزيمة .

١٠ ـ إن النبي صلى الله عليه وسلم ظل ثابتا في الميدان يدعو الناس إليه ؛ وقد استجاب له فريق من المخلصين وأمكن بذلك تغطية الموقف وتلافي الهزيمة التامة .

١١ ـ لقد استشهد من المسلمين فريق وأصيب بجراح فريق .

١٢ ـ إنه كان للمنافقين بعد المعركة موقف كيد شديد استهدفوا به فيما استهدفوا إثارة غيظ المسلمين على النبي صلى الله عليه وسلم والذين تضامنوا معه من المخلصين ، وتحقق شيء مما استهدفوه إذ اندمج بعض هؤلاء معهم في العتب واللوم والقول بأنه ليس لنا من الأمر من شيء ولو أخذ برأينا لما وقع علينا ماوقع وقتلنا في الميدان ؛ وقد حاول بعض المنافقين تثبيط بني قومهم في بدء الأمر ؛ ثم أخذوا يهتفون قائلين إن إخوانهم لو أطاعوهم ماقتلوا حيث قتلوا .

١٣ ـ لقد داخل المسلمين شيء كثير من الحزن والجزع والألم على ماوقع لهم ، وعلى من استشهد منهم ، حتى لقد اندمج بعضهم في تهويش المنافقين ودسهم ، وكاد بعضهم يستجيب إلى دعوة دعا إليها الكافرون كما يستلهم من الآية ١٤٩ وإن لم تعين ماهية الدعوة ؛ وأكثر الفصول تدور على هذا المظهر ، بل إنه ليصح أن يقال إنها نزلت في صدده لتسلي المسلمين ، وتبث فيهم الطمأنينة والسكينة ، وتبشرهم وتعظهم وتقرر أن ما كان إنما كان بأيديهم فقد نصرهم الله وأراهم مايحبون ، ولكنهم فشلوا وتنازعوا وعصوا فابتلاهم بما بُلوا به ليعتبروا وليتعظوا ، وإن ماوقع عليهم هو نصف ما أصابوا به عدوهم ؛ ولتنوه بالثابتين المخلصين ، ولتندد بالمنافقين وتفضحهم ، وتبشر المسلمين بحسن العاقبة ، وخسران الكفار في النهاية مهما ظهر عكس ذلك الخ . . والآية ١٥٨

تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قابل هذه الأزمات النفسية بصدر رحب ، وجأش رابط ، وأن هذا أدّى إلى تخفيف هذه الأزمات شيئاً ما .

١٤ ـ إنه نمى للنبي أن المشركين يهمون بالكرة عليهم ثانية فندب الناس فاستجاب إليه المخلصون بالرغم مما أصابهم من آلام وتعب وجراح ، وإن بعض الناس حاولوا تخويفهم الأعداء فجاءت محاولتهم بعكس ماأرادوا إذ ازدادوا إيماناً واعتماداً على الله وساروا مع النبي صلى الله عليه وسلم أو لبثوا ينتظرون كرة العدو ، ولكنه لم يفعل فعادوا دون أن يمسهم سوء .

الصّورة التاسِعَة

والروايات[1] متسقة إجمالا كذلك مع الآيات إلا بعض تفصيل نلخصه فيما يلي : حينما بلغ النبي خبر عزم المكيين على غزو المدينة استشار المسلمين المخلصين وغير المخلصين ـ المنافقين ـ في الموقف ، فأشار الأكثر بالتحصن في المدينة ، والاستعداد لقتال العدو إذا هاجمهم في عقر بيوتهم ، فإما أن يحجم فيرتد وإما أن يفعل والنصر لصاحب الدار على ماتعودوا ؛ وقد جنح النبي إلى هذا الرأى في بادئ الأمر ؛ غير أن فريقا من المسلمين ـ وتذكر الروايات أنه من الشباب الذين لم يشتركوا في بدر وسمعوا من أخبارها ما ألهب حماستهم لنيل نصر مماثل ينالون به ثناء الله ورضاءه ، والفخر والاستعلاء ـ أخذوا يتحمسون ويبدون استعدادهم للموت ، واستعظامهم وقوف المسلمين هذا الموقف الدفاعي البحت الذي يكشف عن خوف ووهن ،ويلحون بالخروج ومقابلة العدو خارج الجدران، إلىأن مال النبي إلىذلك ، فدخل بيته ولبس عدة قتاله وندب الناس إلى الخروج وفي وجهه شيء من الاستكراه ؛ وقد ندم الملحون على إلحاحهم وأعادوا الأمر إلى النبي فآذنهم أنه لا يصح لنبي لبس عدة حربه أن يخلعها قبل أن يقاتل ، وأكد نداءه للخروج ، فخرجوا في نحو ألف ، وكان عدد الغزاة نحو ثلاثة آلاف ؛ وقد أعلن عبد الله بن أبي أنه قرر

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٧٨ ـ ٩٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣ ـ ١٦٠ .

الانسحاب فانسحب معه نحو الثلث ؛ وقد أثر هذا ببطنين من بطون الخزرج حتى هما أن ينسحبا ثم عادا وثبتا ؛ وقد أمر النبي فريق الرماة باحتلال مكان عال من وراء الميدان ، ورشق العدو بالنبل وحماية ظهر إخوانهم ، وشدد عليهم بعدم مزايلة مكانهم في أي حال ، ثم دارت رحى القتال فوقع الرعب في قلوب المشركين ، ولاحت أمارات الهزيمة عليهم ؛ ورأى الرماة ذلك فوسوس الشيطان لهم بالنزول للغنيمة ، والخوف من احتجازها دونهم ففعلوا ؛ ولما رأى قائد فرسان المشركين خلو مكان الرماة اغتنم الفرصة فدار بخيله من وراء المسلمين وفاجأهم فاضطربوا وذعروا ثم انهزموا لا يلوون على شيء ونال النبي عدة جروح وسقط في حفرة وظن الناس أنه قتل فازداد المسلمون ذعرا وبلبلة وذهب عدد غير يسير من المسلمين شهداء ، وقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في الميدان وحوله بعض المخلصين ، وأرسل يهتف بالمنهزمين ليطمئنوا ويعودوا ، وأخذ بعض الثابتين والعائدين يستميتون في الدفاع عنه ، وألقى الله الأمن في قلوبهم والخوف في قلوب أعدائهم الذين اكتفوا بما كان وقفلوا راجعين دون التحام آخر ، هاتفين : إن هذا اليوم بيوم بدر ، متواعدين بالهتاف المتبادل على موعد آخر . ومما روي أن المكيين ندموا على ترك المسلمين وقد أثخنوا فيهم ، وهموا بالكرة ، ودرى بذلك النبي فندب الناس إلى الخروج ثانية ، فاستجاب المخلصون مع ماهم فيه من جراح وبلاء ومع مانقل إليهم من قبل بعض القادمين المتواطئين مع العدو من أخبار التجمع ؛ وقد وصل المسلمون إلى مكان يقال له حمراء الأسد فلم يجدوا عدوّاً لأن المكيين لم ينفذوا عزيمتهم وظلوا في طريقهم إلى مكة ؛ ومما روي أن بعض المنافقين طلبوا من عبد الله بن أبيّ زعيمهم أن يتصل بأبي سفيان ويأخذ للمدينة منها أمانا ، وأن الذين تذمروا التذمر الذي حكته الآية ١٥٤ كانوا من المنافقين فقط ؛ ولقد عاتب النبي النبالة على مزايلتهم مكانهم وقال لهم : بل ظننتم أننا نستأثر بالغنائم فلا نقسم لكم فيها .

الصورة العاشرة

وإذا كان لنا تعليق على الروايات فهو أن الصورة القرآنية أقوى حيوية ووضوحاً منها ، وأن الآيات ١٥٤ ـ ١٦١ تلهم أن الذين حكي تذمرهم في الآية ١٥٤ ليسوا منافقين أو على الأقل ليسوا منافقين فقط ، وأن بعض المسلمين من الطبقة الثانية قد اشتركوا في هذا التذمر متأثرين بشدة الضربة النازلة ؛ وأن هذا التذمر من فريق قليل يلهم أن الخروج إلى مقابلة العدو لم يكن من رأي أقلية وبتأثير حماسة الشبان ، والذي نرجحه إن لم نقل نجزم به أن النبي استشار مختلف الزعماء من الأنصار والمهاجرين والمنافقين، وأن الخروج قد تم بموافقة أكثر المخلصين من الأنصار والمهاجرين ولا يمنع هذا أن يكون فريق من الشبان بل وغير الشبان قد تحمسوا وتحدوا الموت حينما دروا بقدوم المكيين لغزو المدينة ، لا سيما أن نصر بدر وتأييدات الله التي شهدوها ما تزال ماثلة لأعينهم ومالئة لقلوبهم وأسماعهم ، فكان هذا مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يعتزم الخروج ، وليس من الممتنع أن يكون بعض الزعماء من الطبقة الثانية قد ارتأوا مع المنافقين البقاء وراء الجدران فلم ير النبي أن يأخذ برأيهم؛ فكان هذا مما غاظهم وغاظ المنافقين خاصة فجعل بعضهم لا ينضم إلى الحملة وبعضهم ينسحب منها ، ثم جعلهم يثيرون وساوس المسلمين الذين آلمتهم عواقب المعركة شديد الألم .

وأسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة والمسكنة والواعظة رائع قوي ، من شأنه أن يكون معالجة شافية لكل الحالات التي نشأت من ظروف الوقعة وسيرها ونتائجها ، كما أنه يدل على شدة ما كان من وقع النتائج على مختلف فئات المسلمين أيضا . وفي استنكار ما كان من هزيمة أو زيادة فوضى بسبب شائعة قتل النبي ، مدى باهر جدا في بث القوة والعزيمة والإقدام في نفوس المسلمين ، وفي تلقينهم أن واجب الاستمرار في الدفاع عن الإسلام ونشره ورفع شأنه واجب عام لا يجوز أن يقعدهم عنه أو يجعلهم يقصرون فيه أي حادث حتى قتل النبي صلى الله عليه وسلم أو موته فهما أمران طبيعيان ومنتظران ،

لأن النبي ليس إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل .

وفكرة غزو المكيين للمدينة تدل على أن المسلمين كانوا ما يزالون في حالة ضعف وقلة ، وعلى أن هذا مما كان يعرفه المكيون حق المعرفة ، فضلا عن دلالتها على تفوق مكة على المدينة في القوة والبأس بصورة عامة . وإذا صحت رواية أن عدد الغزاة كان ثلاثة آلاف ظهر هذا الضعف واضحاً أكثر ، كما أن تفكير بعض الزعماء بعدم الخروج للقاء الغزاة ، والدفاع من وراء الجدر والبيوت يؤيد هذا على ماهو المتبادر .

وموقف المنافقين في ظرف الوقعة تمرداً وتخلفاً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غير مايليق ، يدل على أنهم كانوا أقوياء إلى حد ما ، وكانوا مستشعرين بقوتهم كما كان المسلمون مستشعرين بذلك أيضاً . والآيات ١٥٤ ـ ١٦١ على ترجيح أن المتذمرين مزيج من مخلصين ومنافقين تلهم أن الحكمة اقتضت مسايرة الموقف ومداراة المنافقين ، ولا ريب في أنه ينطوي في هذا ما يدعم ما قررناه آنفا .

الصورة الحادية عشرة

(٧) وفي ترتيب النزول تأتي سورة الأحزاب بعد آل عمران ، وفيها إشارات إلى وقعة الخندق ، مشاهدها ونتائجها . غير أن المجمع عليه أن وقعة بني النضير التي أشير إليها في سورة الحشر قد وقعت قبل وقعة الخندق ووقعة بني قريظة التي كانت عقبها ، في حين أن هذه السورة تتأخر في ترتيب النزول المروي كثيراً عن الأحزاب ؛ وعلى هذا فإما أن يكون مطالع سورة الأحزاب وبعض فصولها قد نزل بعد سورة آل عمران فجعل ترتيبها بعدها من أجل ذلك ، وإما ألا يكون ترتيبها المروي صحيحاً ؛ ولما كان التنكيل ببني قريظة الذي أشير إليه في سورة الأحزاب شديدا ، ويلهم أنه كان كذلك لأسباب منها عدم اتعاظ اليهود بما كان من عاقبة جماعتهم الأولى ؛ ولما كان هذا التنكيل قد وقع متأخراً ، وكان المجمع عليه أن إجلاء بني النضير قد وقع قبله ، وأن اليهود ذهبوا بعده إلى

مكة ليعقدوا حلفاً مع زعمائها ضد النبي والمسلمين ، وظاهروا جيوش الأحزاب حينما زحفت على المدينة بقضها وقضيضها ـ فإن من المعقول أن تكون آيات الحشر التي أشارت إلى وقعة بني النضير قد نزلت قبل سورة الأحزاب ، أو على الأقل قبل آيات وقعتي الخندق وبني قريظة .

ولقد بسطنا أسباب وقعة بني النضير وظروفها ونتائجها في فصل اليهود فلا نعود إليها ثانية ، ونكتفي بالإشارة إليها ليتم التسلسل في حلقات الوقائع الجهادية القرآنية على حسب وقوعها .

الصورة الثانية عشرة

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا . وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ

كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً . لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً . وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَـٰناً وَتَسْلِيماً . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً . لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً . وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً . وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً . . .

٩ — ٢٧

وليس في الآيات ذكر للخندق الذي أجمعت الروايات على أن النبي والمسلمين قد حفروه حول المدينة ، والذي سميت الوقعة به أيضاً . وقد سميت كذلك بوقعة الأحزاب بسبب ذكر القرآن هذه الكلمة ، ولأن الغزاة مجموعة قبائل متحالفة متحزبة ؛ والآيات بسبيل ذكر ما كان من حالة الجزع التي استولت على عامة المسلمين ، ومواقف الدس والتثبيط التي بدت من المنافقين ، والخيانة التي كانت من اليهود ، والتنويه بموقف النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين ، والتنبيه على ما كان من تثبيت الله ونصره ورد الغزاة بغيظهم خائبين ، وتمكين المسلمين من اليهود الخائنين لهم بسبيل سرد مشاهد الوقعة ؛ ومع ذلك فإن من الممكن اقتباس صورة لهذه المشاهد كما يلي :

١ – إن المشركين قد تجمعوا بجموع كثيرة ، مؤلفة من مختلف القبائل المتحالفة وزحفوا على المدينة حتى أحدقوا بها من فوقها ومن أسفل منها .

٢ – إن اليهود في المدينة قد ظاهروا الغزاة على المسلمين .

٣ – إن جمهور المسلمين قد كربوا كرباً عظيماً حتى زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر وزلزلوا زلزالا شديداً من الجزع والخوف ، حتى لقد داخل بعضهم الريب في تأييد الله ونصره .

٤ – إن المؤمنين المخلصين قد سلموا أمرهم لله وازدادوا إيماناً به واعتماداً عليه ، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصبروا وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولم يبدلوا موقفهم من الإيمان بالنصر والتأييد ، والتضامن مع النبي والالتفاف حوله .

٥ – إن المنافقين ومرضى القلوب أظهروا جزعاً شديداً ، واستغلوا الفرصة لإطالة ألسنتهم بالدس والتثبيط وسوء الأدب ، فقالوا إن الله ورسوله لم يعداهم إلا غروراً ، وهتف بعضهم بأهل المدينة ليرجعوا إلى بيوتهم بحجة أنها مكشوفة للعدو مع كذب ذلك ، وكان قصدهم الفرار في حين أنهم عاهدوا الله ورسوله على عدم الفرار ، وأخذوا يترقبون الحالة ، ويتوقعون الشر بالمسلمين ، حتى أنهم لم يصدقوا حينما قيل لهم إن الغزاة قد ارتدوا عن المدينة خائبين .

٦ – إن إهابة المنافقين بأهل المدينة للرجوع إلى بيوتهم وعدم البقاء في المقام الذي اتخذوه تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عسكر بالمسلمين بعيداً بعداً ما عن البيوت .

٧ – إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أظهر في هذه الوقعة ما أظهره في غيرها من رباطة الجأش وقوة الأعصاب والنشاط مما كان العامل الأكبر في العاقبة المحمودة التي تمثلت في ارتداد الغزوة دون أن ينالوا خيرا ، ومما كان أسوة للمؤمنين المخلصين ، وباعث طمأنينة لعامة المسلمين .

٨ - إن الله قد أرسل عاصفة من الريح أزعجت الغزاة أشد إزعاج ، وأوقع في قلوبهم الرعب فيئسوا من نيل وطرهم ، وارتدوا خائبين ، ولم يقع اشتباك بينهم وبين المسلمين .

الصورة الثالثة عشرة

وفي الروايات[1] المروية عن هذه الوقعة بعض تفصيل نلخصه كما يلي :

كان زحف الأحزاب نتيجة لتحريض وفد يهودي لزعماء مكة وقبائل غطفان وقيس وغيلان ، وتحالفهم معهم ، وكان عدد الغزاة نحو عشرة آلاف ، وكان زحفهم في السنة الهجرية الخامسة . ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بخبر استعداد الأحزاب للغزو تشاور مع المسلمين ، فاتفق الرأي على المرابطة حول المدينة وعدم الابتعاد عنها كما كان في وقعة أحد ، وتقرر بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه حفر خندق حول القسم المكشوف من المدينة ، وتم حفره قبل وصول الغزاة ، وعسكر المسلمون من ورائه ، وكان عددهم ثلاثة آلاف ؛ وقد كان الخندق حائلا دون التشابك ؛ وظل الغزاة عشرين يوماً يحاصرون المدينة ، ولم يقع إلا حوادث قتال وبراز فردية ، وإلا تراشق بالنبال حينا بعد آخر ، ولم يصب إلا أفراد من الطرفين ؛ ثم أتى شخص من غطفان اسمه نعيم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه مسلم يكتم إيمانه واستأمره فيما يقوم به من خدمة ، فأمره بالتخذيل والتثبيط ، فسعى بين اليهود وقريش حتى أوجد الشك والفتور في كل فريق نحو الآخر ، ففترت العزيمة عن المناجزة والاستمرار ، وثارت في هذه الأثناء زوبعة شديدة أزعجت الغزاة أيما إزعاج فاشتد فيهم السأم والفتور ، ولم يلبث أبو سفيان قائد قريش أن أعلن أنه مرتحل فتبعه الناس وارتحلوا .

والروايات غير متناقضة مع الآيات إجمالا ، والمتبادر أن ما جرى في وقعة أحد هو

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ - ١١٦ وابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٥٤ .

الذي حمل النبي والمسلمين على البقاء قرب المدينة ، ويبدو أن الحملة على المنافقين عقب وقعة أحد جعلتهم يعتذرون ويعاهدون النبي صلى الله عليه وسلم على التضامن معه ومع المسلمين في موقف آخر ، فخرجوا وعسكروا معهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتفلتوا من تحيزتهم وخبثهم ، ومع أن من المحتمل جداً أن يكون لتحريض الوفد اليهودي أثر في حركة الأحزاب فالذي يتبادر لنا أن المكيين اعتقدوا أن ضربة أحد أثرت في المسلمين تأثيراً كبيراً ، ورأوا أن في الإمكان استئصال شأفة النبي وحركته بزحف كبير يتضامنون فيه مع أحزابهم ومع من بقي من اليهود في المدينة ، فأقدموا على تدبير الأمر حتى جاء على هذا الشكل الرهيب .

ووصف الآيات ما كان من اضطراب المسلمين الشديد يدل على أن اعتقاد المكيين بتحقيق هدفهم المذكور لم يكن واهيا ؛ لا سيما أن المسلمين كانوا ما يزالون قليلين وضعفاء ، وقوة أعدائهم المحيطين بهم تفوقهم كثيراً ، وبينهم مخامرون ، وبين ظهرانيهم خائنون . ولعل الحملة الشديدة اللاذعة التي حملتها الآيات على المنافقين ، وما كان من عدم الهوادة في التنكيل ببني قريظة ، متصلان بهذا الموقف العصيب الذي واجهه المسلمون وواجهته الحركة الإسلامية ؛ ولذلك نرى من الحق أن يعتبر ارتداد الأحزاب عن المدينة نصراً ربانيا عظيما ، بل من أعظم ما تم للنبي ودعوته من نصر وتوفيق ؛ ومما لا نرتاب فيه أنه كان ذا أثر كبير فيما تم من تعالى الإسلام ، وانتشار قوته ودعوته فيما بعد ، وأنه كان لهذا الارتداد أثر سلبي وإيجابي في آن واحد ؛ إذ جعل العرب المتربصين والأعداء والمنافقين في المدينة يرون في هذه النتيجة دلالة النصر الرباني والقوة المعنوية العظيمة ؛ فيقف الأعداء عند حدهم ، ويكف المنافقون عن موقفهم أو علوائهم ، ويبدل المتربصون موقفهم من التربص إلى الإقبال . ومن حقائق وقائع السيرة النبوية أن الدعوة الإسلامية والقوة الإسلامية قد أخذتا بعد هذه الوقعة وبعد التنكيل ببني قريظة ، وخضد شوكة اليهود في المدينة نهائياً بالازدياد ، وأن قوة المنافقين قد أخذت بالضعف والتضاؤل ،

وأن المشركين لم يفكروا في متابعة عدوانهم وزحفهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى في نفسه القوة وفي الميدان مجالا في السنة التالية من هذه الوقعة على اعتزام زيارة الكعبة ، وأن المشركين قد رأوا فيه هذه القوة ، فجنحوا إلى مسالمته وعقدوا معه صلح الحديبية على ما سوف نذكره بعد ؛ وكل هذا مما يدعم ما قلناه من أثر هذا النصر العظيم السلبي والإيجابي .

ولقد بسطنا الكلام على وقعة بني قريظة وتنكيلهم في فصل اليهود ، وهي الوقعة التي أشير إليها في آيات الأحزاب ٢٥ ـ ٢٧ ، والتي تأتي في حلقة الوقائع الجهادية القرآنية بعد وقعة الخندق ، فنكتفي بالإشارة إلى ذلك .

الصورة الرابعة عشرة

٨ ـ وفي سورة الفتح آيات احتوت إشارات إلى حدث عظيم من أحداث العهد المدني يسلكه كتاب السيرة في سلك الأحداث الجهادية بسبب ما كان فيه من مشاهد تمت إلى هذه الأحداث ، وهو صلح الحديبية .

وهذه هي آيات سورة الفتح :

١ — إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً . لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطاً مُّسْتَقِيماً . وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً . هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰناً مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً . لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً . وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ... ١ ـ ٦

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا. سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا. وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا . . .

١٠ — ١٣

٣ — لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا. وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ...

١٨ — ٢٠

٤ — وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا. لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ

اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً . . . ٢٤ ــ ٢٨

وسورة الفتح أو معظم آياتها على الأقل نزل بعـد الصلح ، كما هو شأن الفصول القرآنية في الوقائع الجهادية ، واستهدفت على ما تلهم مضامينها وأسلوبها التسكين والتنوية ، والتنديد والتذكير برحمة الله وعنايته بالمسلمين ، تعقيبا على ما كان من توتر بين المسلمين بسبب نتائجها ؛ ومن الممكن اقتباس الصورة الآتية عنها :

الصّورة الخامسة عشرة

١ ــ إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه دخل مع المسلمين المسجد الحرام آمنين ، وأدوا الزيارة ، وتحللوا من الإحرام بحلق الشعر أو تقصيره على حسب تقاليد الزيارة والحج ؛ فاعتبرها إلهاما من الله ، وأعلن المسلمين عزمه على الخروج إلى الزيارة ، وندب المسلمين من أهل المدينة والأعراب للخروج معه .

٢ ــ وقد استجاب كثيرون إلى الدعوة ، وتخلف فريق من الأعراب عنها ظنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيلقى مقاومة وحربا وأنه لا قبل له بأهل مكة وقد لا يرجع هو ومن معه إلى أهلهم أبداً .

٣ ــ ولما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قرب مكة (بطن مكة) تصدى له المكيون ، وأنذروه بالتوقف ، وصدوه عن الزيارة ، وصدوا الهدي الذي ساقه المسلمون ليقربوه إلى الله عن الوصول إلى المكان الذي تقرب فيه الأضاحي .

٤ ــ ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من المكيين اعتزم هو أيضا أن يقف موقفاً قويا ، فدعا من معه من المسلمين إلى مبايعته على الثبات والتضامن ، فأقبلوا على البيعة تحت شجرة كان يأوي إلى ظلها ، وبدت أمارات ما في قلوبهم من الإيمان والعزيمة على نصرة النبي على وجوههم .

٥ ـ ولقد كانت جولة حربية ما ظفر فيها المسلمون ، ثم شاءت حكمة الله أن يكف أيدي الفريقين بعضهما عن بعض .

٦ ـ وقد تمسك المكيون ببعض الأمور التي رأوها من مقتضيات الكرامة والحمية ، فقابل النبي ذلك ـ بإلهام الله ـ بالتساهل والسكينة لما رآه في الموقف من الفتح العظيم .

٧ ـ إن روح الآيات وبعض نصوصها تلهم أن بعض المسلمين قد استعظموا ما كان من تساهل النبي مع الكفار ورضائه بعدم الزيارة التي ألهمها في منامه فورا ؛ إذ احتوت كما أشرنا طمأنة وتسكينا ؛ فكررت وصف ما تم بالفتح العظيم والفتح المبين والفتح القريب ، وكررت ذكر ما كان من إنزال الله السكينة على رسوله والمؤمنين للفوز بهذا الفتح ، وأكدت أن الله مصدق الرؤيا التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المسلمين سيدخلون المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، وأنه أعلم منهم بما يكون ، وأن الذي كان إنما كان بأمره وتدبيره وحكمته ، ولصالح المسلمين العاجل والآجل ، وأنه قد كبت به المنافقين والمشركين الذين ظنوا بالله ظن السوء ، وأن المؤمنين المصدّقين بالله ورسوله سيكون لهم من عفو الله ونعيمه ما فيه الفوز العظيم .

٨ ـ وسين الاستقبال فيما كان متوقعا من اعتذار المتخلفين يدل على أن هذه الآيات ـ أو بالأحرى جل آيات السورة إن لم يكن كلها ـ قد نزلت عقب الوقعة ، وفي طريق العودة إلى المدينة ، بقصد الطمأنه والتسكين ، كما هو المتبادر . وهو ما ذكرته الروايات .

الصورة السادسة عشرة

ولقد احتوت الروايات[1] بعض تفصيل نلخصه فيما يلي :

إن خروج النبي والمسلمين إلى هذه الزيارة كان في أواخر السنة السادسة من الهجرة

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩ ـ ١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ ـ ٣٧٧ .

وفي أشهر حجها ، وإن عدد الذين خرجوا كان نحو ألف وأربعمائة ، وإن النبي حينما وصل إلى مكان اسمه «ذو الحليفة» أحرم وأمر المسلمين بالإحرام ، وأشعر الهدي وقلده[1] وقد كانت أخبار سيره وصلت إلى مكة ، فهاج زعماؤها وتعاهدوا على منعه على أي حال؛ وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستشار أصحابه فأشاروا بالمضي فيما ألهم الله ، فإذا صدتهم قريش قاتلوهم ؛ وتقدم الركب حتى إذا وصل الحديبية ـ وهي قرية أو بئر على نحو مرحلة من مكة ـ بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستلهم من هذا وجوب التوقف وقال : والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة فيها تعظيم حرمات الله وفيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها ؛ وجاءه رئيس بني خزاعة وكان مناصحاً للنبي مع قومه ، فأخبره أن قريشاً وأحلافهم قد اعتزموا صده على كل حال ، فأرسله يخبرهم أنه إنما جاء للزيارة ولم يجيء للقتال ، وأنه يدعوهم إلى التهادن والسماح له بالزيارة ، والتخلية بينه وبين العرب ، فإن هلك كفوا مؤونته ، وإن أظهره الله كانوا في الخيار ، وينذرهم إذا هم أمعنوا في العناد وإرادة البغي بالقتال حتى تنفرد سالفته[2] ولينفذن الله أمره ؛ فذهب الرجل وأبلغ الرسالة ، وكان زعيم ثقفي حاضراً ، فنصحهم بقبول ما يقترحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وتكرر النصح من زعماء آخرين تحققوا أن النبي إنما جاء زائراً ومعه هديه ، ورأوا في صده وقتاله بغياً ، وخاصة في الأشهر الحرم ومنطقة المسجد الحرام ؛ وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم من جانبه عثمان بن عفان رضي الله عنه ليخبر الناس برغبته عن القتال، ورغبته في الزيارة وحسب ؛ فأبطأ في العودة وشاع أن قريشا حبسته أو قتلته ؛ فدعا المسلمين إلى البيعة على الثبات والاستماتة إذا ما أصرت قريش على موقفها الباغي ، وتمت البيعة تحت شجرة ، وسميت بيعة الشجرة ، ولم يلبث عثمان أن رجع ؛ ورأت قريش أن ترسل سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وسلم للتفاوض على عقد هدنة ، مزوداً بشروط عسيرة ، مثل تأجيل الزيارة إلى العام القابل ، وإعادة من يأتي النبي صلى الله

---

(١) أشعره : جرحه وأسال دمه . وقلده : وضع في عنقه القلادة ، وهذا وذاك تعظيم لقربان الله .

(٢) حتى يقتل .

عليه وسلم مسلما من مكة على رغم أهله ، وعدم إعادة من يلتحق بمكة من المسلمين مرتدا. وقبل النبي صلى الله عليه وسلم الشروط بعد مفاوضات وجذب ودفع ، واتفق على أن تكون مدة الهدنة عشر سنين ؛ وكتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش ، وحينئذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذبح الهدي وحلق الشعر أو تقصيره والتحلل من الإحرام ، ثم نادى بالعودة . وقد روي فيما روي أن بعض فرسان قريش حاولوا أخذ المسلمين على غرة قبل التراضي على الهدنة ، فدرى النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل من كمن في طريقهم ، وأمكن أسر بعضهم ثم منّ عليهم وأطلقهم . كذلك روي أن أبا جندل ابن سهيل بن عمرو ـ وكان مسلماً وكان أبوه يعذبه ليفتنه ويمنعه عن الهجرة ـ جاء فاراً يرسف بأغلاله حينما درى أن النبي والمسلمين في الحديبية ، وكان التراضي قد تم على الشروط ، فاحترم النبي صلى الله عليه وسلم عهده ، وردّ أبا جندل إلى أبيه حينما أصر هذا على استرداده . ولقد ثقلت شروط الهدنة على فريق من المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وصعب عليهم خاصة الرجوع بدون زيارة ، حتى إن منهم من كاد يزيغ ، لأن رؤيا النبي حق ، وقد دعوا إلى الخروج بإلهامها الذي اعتبره النبي إلهاماً من الله ، وراجعوه وحاوروه ، ومنهم من تباطأ في تنفيذ أمره في نحر الهدي والتحلل من الإحرام ؛ ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه إنما يسير بإلهام الله ، وثبت قلوبهم حتى عاودتهم الطمأنينة ؛ ولم تلبث أن نزلت سورة الفتح مؤيدة لما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسكنة لنفوس المسلمين ؛ ومما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ما كان منه من تألم وتحمس سار إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يجبه ، ثم كلمه فلم يجبه ، فقال لنفسه : ثكلت أم عمر ! نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلا يجيبك ؛ ثم تقدم أمام الناس وخشي أن ينزل فيه قرآن ، وأنه مالبث أن سمع منادياً يدعوه ، فقال في نفسه : لقد وقع ماخشيت ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال له : لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ سورة الفتح . وكذلك مما روي أن بعض المسلمين قال : ماهذا بفتح ، فبلغ ذلك النبي صلى

الله عليه وسلم ، فقال : بئس الكلام هذا ، بل إنه أعظم الفتوح ، رضي المشركون أن أن يدفعوكم بالراح ، ويسألوكم القضية[1] ، ويرغبوا إليكم بالأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا .

وليس في هذا الملخص مالا يتسق مع الآيات كما هو المتبادر . ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق ، بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده أو بالأحرى من أعظمها : فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم . وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة ؛ ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر . وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون ، بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي صلى الله عليه وسلم فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه ؛ إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة ، وإذ صار العرب يفدون على النبي صلى الله عليه وسلم من أنحاء قاصية ، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام ، وإذ فرغ باله فأرسل رسله إلى ملوك الأرض في مختلف أطراف الجزيرة وخارجها يحملون كتبه المبشرة بالإسلام والداعية إليه .

(١) التقاضي والتفاوض بدلا من الصد والبغي السابقين .

وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها . وكان في ذلك النهاية الحاسمة إذ جاء نصر الله وفتحه ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

وهذا التطور في حالة مكة والمكيين من القوة والهجوم والتفوق والإيغال في البغي والرغبة في الاستئصال تجاه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين والمدينة ، إلى شيء من الضعف ، وجنوح إلى المسالمة معه ، والاعتراف به نداً ـ لافت للنظر من دون ريب ؛ ومما يخطر على البال أنه قد طرأ طارئ ما مادي أو معنوي ، سياسي أو حربي ، أو شقاق فيما بينهم لسبب من الأسباب أوهن من تضامنهم وصلابتهم فكان هذا الموقف الذي عاد منه على الإسلام فتح عظيم كان له تلك الآثار الخطيرة المتنوعة . ولقد روي أن أحد بني بكر الذين دخلوا في عهد مكة حينما عقد صلح الحديبية وخير أعراب مكة في الالتحاق بعهد أحد الفريقين اعتدى على أحد بني خزاعة الذين دخلوا في عهد المسلمين فقتله ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اعتبر هذا نقضاً للصلح ، وأن قريشاً أوفدت أبا سفيان إلى المدينة لتوثيق عقد الصلح القائم فأبى النبي صلى الله عليه وسلم عليه ذلك ؛ فهذه الرواية إذا صحت ـ ونحن نميل إلى صحتها لأن غزو مكة الذي وقع بعد سنتين من الصلح من جانب النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون وقع إلا بسبب نقض من الجانب الآخر ـ تدعم ماقررناه من أسباب تبدل حال مكة والمكيين المحتملة كما هو ظاهر .

على أن هذا لا يعني فيما يتبادر لنا أن يكون لارتداد الأحزاب عن المدينة ـ ذلك الارتداد الخاسر الذي زلزل ثقتهم في قدرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولخضد شوكة يهود المدينة نهائيا ، ولضآلة شأن منافقيها ، ولازدياد إقبال الناس على الإسلام وتعاليه بعد هذا وذاك ـ آثار إيجابية في هذا التطور أيضا .

الصّورة السّابعة عشرة

هذا ؛ ولقد جاء في سورتي الممتحنة والمائدة بعض آيات لها صلة بصلح الحديبية رأينا إيرادها والتعليق عليها لأن فيها بعض مشاهد من السيرة متصلة بهذا الحادث العظيم . وإليك أولا آية الممتحنة :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . »

١٠

والآية تلهم مع الاستئناس بالروايات المتسقة إجمالا معها أن بعض المؤمنات اللاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصلح اغتنمن فرصته فهاجرن خلسة ، وأن ذويهن جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصلح ، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهن ، وتأمر بالتعويض على أزواجهن ؛ ولقد تعددت الأقوال في حقيقة نص وثيقة الصلح ، ومنها أنه كان مطلقا وبصيغة التذكير ، فرأى المكيون أنه شامل للرجال والنساء معا فجاءوا يطالبون بالإعادة ، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يشمل النساء فنزلت الآية حاسمة للأمر ؛ وهذا هو المعقول ، لأنه لو كان هناك مفهوم صريح لكان للأمر حكم أو موقف آخر ، إذ يكون فى عدم الإعادة نقض للعهد ، وهذا غير ممكن الصدور من النبي صلى الله عليه وسلم وغير متسق مع المبادئ القرآنية ؛ بل لقد حض القرآن على احترام عقد الحديبية بالذات في آيات المائدة التي سنوردها بعد ؛ وآيات سورة التوبة ١ ــ ١٦ التي منها مانزل قبل فتح مكة ومنها ما نزل بعد قد شددت على الوفاء بالعهد ما دام المعاهدون أوفياء له ،

كما أن منها ما يلهم أن النقض إنما وقع من الجانب الآخر فكان ما كان من اعتزام النبي غزو مكة ؛ هـذا من جهة ؛ ومن جهـة أخرى إن المشركين ما كانوا يقبلون ذلك ، ولو كان لاعتبروا الهدنة منقوضة ، وحملوا تبعة النقض على النبي ، والمعروف أن نقض الهدنة كان من الجانب الآخر ، وأن النبي هو الذي اعتبرها منقوضة من جانبهم ؛ ولعل حـكم الآية بالتعويض على أزواج المسلمات المهاجرات مما اقتضته الحـكمة لإرضاء معاهد يرى له شبهة من الحق ، وللتدليل على حسن النية في احترام الصلح من جانب النبي أيضا؛ ولم يرد في الروايات أن أزواج المهاجرات وذويهن قد رفضوا هذا الحل ؛ ولعل من السائغ أن يقال بالإضافة إلى ما قلناه أن التطور الذي نبهنا عليه في حالة مكة والمـكيين قد جعل المـكيين لا يتشددون في أمر ليس فيه مخالفة لنص صريح أيضا .

ومما يلفت النظر أن الآية جعلت الحقوق متبادلة بين المسلمين والمشركين في مطالبة الأزواج المسلمين تعويضا عن نسائهم الـلاتي تخلفن عنهم ولو كن كوافر ، وفي مطالبـة الأزواج المشركين تعويضا عن نسائهم اللاتي أسلمن والتحقن بالمسلمين ؛ ففي هذا صور عما صار بين المسلمين والمشركين من ظروف عهـدية وسلمية مستمرة ومحترمة من الطرفين .

أما آيات المائدة فهي هذه :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . . »

١ — ٢

وقد روى المفسرون في صدد الآية الثانية أن زعيما من بني بكر جاء مستطلعا فلقي النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه، ثم قفل لاستثارة قومه، وصادف خارج المدينة مواشي فنهبها، وأنه خرج بعد مدة ما مع بعض قومه إلى الحج وكانت طريقهم قريبة من المدينة، فأراد بعض المسلمين أن يثأروا منهم فنزلت الآية بالنهي؛ كذلك رووا أن بعض المسلمين ظلوا ناقمين على المكيين صدهم إياهم عن زيارة الكعبة حينما خرجوا إليها، وكانوا يهمون باغتنام ما يسنح لهم من الفرص لإلحاق الأذى بهم، ومن جملة ذلك صد الحجاج عن مكة.

ومهما يكن من أمر الروايات فإن مضمون الآية الثانية يلهم حدوث بعض تصرفات أو همّ ببعض تصرفات من جانب بعض المسلمين فيها إخلال بحرمة الحج وتقاليده، ومنع للحجاج بقصد إلحاق الضرر بأناس بينهم وبينهم عداء أو بغضاء، حتى إن الآية عدت ذلك تعاونا على الإثم والعدوان، وأنذرت الذين يتضامنون فيه بعقاب الله الشديد؛ وجملة « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » تلهم أن الحجاج الذين نهى المسلمون عن التعرض لهم مسلمون أيضا، وفي ذلك نقض للرواية التي أوردها المفسرون؛ وهذا يسوغ القول إن بعض المسلمين عطلوا آخرين منهم عن الحج بقصد إلحاق الأذى بأهل مكة الذين كان الحج والحجاج من أعظم مواردهم ودعامات حياتهم الاقتصادية.

ولما كانت سورة المائدة تأتي في ترتيب النزول بعد سورة الفتح، ولما كان الراجح أن هذا الترتيب بسبب مطلع السورة في الدرجة الأولى، لأن في السورة مجموعات يرجح أنها نزلت قبل سورة الفتح ـ فإن من غير المستبعد أن تكون كلمة « العقود » الواردة في الآية الأولى قد عنت عقد صلح الحديبية، إذ اعتبرت تعرض المسلمين لصد الحجاج عن الحج وإخلال حرمة الأشهر الحرم وتقاليد الحج الأخرى نقضاً له، لأن فيه أذى بالمعاهدين فوق ما فيه من إخلال بحرمات وتقاليد مقدسة أقرها القرآن من حيث المبدأ؛ وكأن الآية أرادت أن تقول إن سفك دم الصيد في الأشهر الحرم هو محرم فكيف بغيره؟ وكيف بنقض العقود؟

نقول هذا مع علمنا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة « العقود » قد عنت ما دخل المسلمون فيه من عهود مع الله في احترام حرماته وتعظيم شعائره باعتناقهم الإسلام ديناً ؛ وقد رأينا في هـذا القول شيئاً من التكلف يظهر حينما ننعم النظر في الآيتين معاً وهما مرتبطتان موضوعا ونزولا أيضاً ؛ على أننا لو سلمنا بما قالوه فالآية الثانية على الأقل صريحة الدلالة على همّ بعض المسلمين بالتعاون على الإخلال بتلك الحرمات والشعائر اندفاعا بفكرة إلحاق الأذى بمن يحقدون عليهم ويضمرون لهم العداء ، وهم أهل مكة على الأغلب ، لأن الحجاج إنما يؤمون البيت الذي فيها ؛ وفي هذا صورة من صور العهد المدني تدل على تأصل العداء ، وعلى ما حفز هذا العداء المسلمين إليه من الوقوف هذا الموقف الذي اقتضت الحكمة النهي عنه بهذا الأسلوب الزجري الشديد توطيداً لحرمات الله وشعائره ، وللحرية الدينية مهما كان الباعث والحافز ؛ وفي هذا من الروعة وبعد المدى ما هو ظاهر ؛ وقد كان من دون ريب ناظماً لتصرفات المسلمين في العهد النبوي ، كما أنه مستمر التلقين والإيحاء فيما بعده من عهود .

الصورة الثامنة عشرة

٩ ــ وللتسلسل التاريخي نذكر أن من الأحداث الجهادية المهمة التي ورد ذكرها في القرآن فتح خيبر وغيرها من القرى اليهودية ، إذ احتوت آيات من سورة الفتح إشارات إلى ذلك ، وقد وقع هذا بعد صلح الحديبية بمدة قصيرة . ولقد بسطنا الكلام عن هذه الوقعة وظروفها ونتائجها في فصل اليهود ، فنكتفي بالإشارة إليها .

الصورة التاسعة عشرة

١٠ ــ ويذكر رواة السيرة زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون للكعبة في السنة السابعة في سلسلة الوقائع الجهادية من حيث أنها كانت على ما هو المتبادر نتيجة لصلح الحديبية ووفاقا له . ويذكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في هذه السنة على على رأس أصحابه الذين كانوا معه في الرحلة الأولى من الأحياء مع بعض مسلمين انضموا

إليه . وأنه ساق ستين بدنة (إبلاً) وأن قريشاً أخلت مكة لهم وخرجت إلى رؤوس الجبال وأن المسلمين دخلوا مكة وهم متوشحون بالسيوف . وأن بعض المشركين اصطفوا عند دار الندوة لينظروا إليهم فاضطبع النبي بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال : (رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة) ثم استلم الركن وأخذ يطوف حول الكعبة مهرولاً وأصحابه وراءه يهرولون مثله . ثم طافوا كذلك بين الصفا والمروة . ثم نحروا هديهم . ودخل النبي إلى الكعبة فلبث فيها وقتاً ثم خرج وأمر المؤذن فأذن للظهر على ظهرها ثم صلى بالناس عندها . ومما يروى أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان يمسك بزمام ناقة النبي حينما دخل مكة فأخذ ينشد مرتجزاً :

خلوا بني الكفار عن سبيله　　خلوا فكل الخير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويله　　كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله　　ويذهل الخليل عن خليله
يارب إني مؤمن بقيله

فهتف عمر بن الخطاب : أيهن يا ابن رواحة . فقال النبي : إني أسمع يا عمر ثم قال لابن رواحة بل قل (لا إله إلاّ الله وحده . نصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده) فقالها فرددها المسلمون معه . وأقام النبي والمسلمون في مكة ثلاثة أيام ثم جاءه سُهيل بن عمرو . وحويطب بن عبد العزى فقالا له لقد انقضى أجلك فاخرج عنا . فأمر منادياً فنادى (لا يمسين بها أحد من المسلمين) ثم خرج حتى نزل سرف فبات فيها حتى تنام الناس ثم أدلج عائدا إلى المدينة[1] .

وظاهر أن هذه الزيارة كانت مظهراً آخر من مظاهر ما وصل إليه شأن النبي من قوة وعزة أمام قريش وأمام سائر العرب .

---

(١) انظر ابن هشام ج٣ ص٤٢٤ — ٤٢٧ وابن سعد ج٣ ص١٦٧ — ١٦٩ .

الصورة العشرون

١١ ـ والمناسبة سانحة للتساؤل عن أمر متصل بالسيرة النبوية وهو ما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون قبل الهجرة والمسلمون بعد الهجرة كانوا يؤدون طقوس الحج . فقد أوجب القرآن هذه الطقوس على المسلمين فى آيات نزلت على ما هو المتبادر قبل الرحلة النبوية . وكانت هذه الرحلة تنفيذاً لها . ومن الآيات في هذا الصدد آيات سورة البقرة هذه :

١ — إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ[1] فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ... ١٥٨

٢ — وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ... ١٩٦ ـ ١٩٧

وآيات سورة آل عمران هذه :

« قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوَّلَ

---

(١) العمرة هي زيارة الكعبة والطواف حولها ، ويصح أن يؤديها المسلم لوحدها في غير وقت الحج . وهذا ما فعله النبي والمسلمون في رحلتهم التي هي موضوع البحث . والعمرة في هذه الحالة ليست هي الحج المفروض على المسلم . فالحج المفروض على المسلم هو الوقوف في عرفة يوم التاسع من ذي الحجة والطواف حول الكعبة قبل هذا اليوم وبعده في أوقات الحج المعينة .

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ... » ٩٥ ـ ٩٧

وجواباً عن السؤال نقول إنه بالنسبة إلى العهد المكي ليس في القرآن ولا في الروايات ما يثبت ذلك أو ينفيه بصراحة .

ولقد قال بعض المفسرين في سياق تفسير آية (فصل لربك وانحر) في سورة الكوثر المكية إن النحر هو نحر الأضحية عقب الطواف حول الكعبة . فإذا صح هذا ففيه إشارة إلى أن النبي وأصحابه كانوا يقومون ببعض مناسك الحج وهم في مكة . وفي سورة الحج آيات فيها بيانات وتعليمات في مناسك الحج وتقرير بأنه من تقاليد ملة إبراهيم عليه السلام كما ترى في هذه الآيات منها :

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ . وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَارَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ . ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ. حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ... » ٢٦ ـ ٣٣

وسورة الحج من المختلف في مكيتها ومدنيتها ، ونحن نرجح أن معظمها مكي ومن

جملة ذلك هذه الآيات . بحيث يمكن القول إن صح ترجيحنا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يؤدون مناسك الحج في الحدود التي رسمها الله لهم قبل الهجرة . حتى لو لم يصح ترجيحنا فإننا نميل إلى ترجيح كونهم كانوا يقومون بكثير من المناسك مع تجنب مظاهر الشرك والوثنية . ولاسيا أن مكة في موسم الحج تكون آمنة مزدحمة بالوافدين . وهي فرصة لا يعقل أن النبي يفوتها بالإضافة إلى عبادة الله بأداء هذه المناسك له خاصة . ولقد كان بعض الزعماء الذين يرون دعوة النبي هدى لا يتابعونه ولا يشجعونه خوفاً من أنها قد تذهب بتقاليد الحج وامتيازات أهل مكة في ظلها على ما حكته عنهم آية سورة القصص هذه :

« وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ... » ٥٧

ولقد طمنتهم الآية . ولا بد من أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يفوته ما في مشاركته مع أصحابه في مناسك الحج من معنى التطمين أيضاً بالإضافة إلى ما فيها من عبادة الله ومن فرصة الدعوة إلى سبيله .

أما بالنسبة إلى ما بعد الهجرة وقبل الرحلة النبوية فإن آيات سورتي البقرة وآل عمران تسوغ القول إن من المسلمين من كان يتيسر له الذهاب إلى مكة فيذهب فيحج في وقت الحج أو يعتمر بدون حج في غير وقت الحج . وفي سورة البقرة آيات فيها حكاية لنوعين من دعاء الناس بعد قضاء مناسك الحج ، أحدهما دعاء المؤمنين بالله واليوم الآخر أي المسلمين ، وثانيهما دعاء غير المؤمنين على الأرجح، وفيها تأييد آخر لذلك وهي هذه :

« فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ . وَمِنْهُم مَّن

يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ... ٢٠٠ ـ ٢٠٢

وفي آية من الآيات الأولى من سورة المائدة التي يرجح أنها نزلت عقب صلح الحديبية نهي للمسلمين عن صد آمين البيت الحرام نكاية بأعدائهم أهل مكة . وعبارة الآية تسوغ بقوة القول إن هؤلاء كانوا مسلمين . وهذا يعني أن من المسلمين من كان يذهب إلى الحج إذا وجد الفرصة سانحة ميسرة كما ترى فيها :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ...» ٢

الصّورة الواحدة والعشرون

١٢ ـ وبعد صلح الحديبية بسنتين تم الفتح المكي . وعلى خطورة هذا الفتح وجلالة شأنه فإنه لم يرد عنه في القرآن إلا إشارات خاطفة وغامضة أوضحتها الروايات إيضاحاً ما . ففي سورة التوبة هذه الآيات :

« كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ . ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَٰتِلُونَ

قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ... » ٨ ــ ١٦

ومضمونها يلهم أنها نزلت قبيل فتح مكة وفي صدد الحث والاستنفار إلى غزوها كما يلهم أن ذلك قد كان بسبب نكث بدا من جانب أهل مكة المعاهدين .

وفي السورة نفسها هذه الآيات :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ... » ٢٣ ــ ٢٤

ومضمونها يلهم أنها نزلت كذلك قبيل الفتح حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم والقربى والمصلحة المادية التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكة .

وفي سورة الممتحنة هذه الآيات :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ

ٱلسَّبِيلِ . إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ . لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ...» ١ – ٣

وقد أجمع المفسرون ورواة السيرة على أنها نزلت قبيل فتح مكة وفي مناسبة إرسال أحد المسلمين رسالة إلى قريش يخبرهم بها بعزم النبي صلى الله عليه وسلم على غزوهم حماية لأهله وعشيرته في مكة . وقد احتوت حثاً وتحريضاً ونهياً عن موالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وتنبيهاً على أن الأرحام والأولاد لن تغني عن المسلمين شيئا مما ينطوي فيه التحريض والإعداد .

أما ملخص ما ذكرته الروايات عن هذا الفتح[1] فهو أنه قد تم في الثلث الأخير من شهر رمضان من السنة الهجرية الثامنة ، وأن السبب المباشر له نقض قبيلة بني بكر التي كانت داخلة في عهد قريش وقتل أحد أفرادها شخصا من بني خزاعة التي كانت داخلة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وتشجيع بعض القرشيين البكريين في موقفهم ، وقد ذهب الخزاعيون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما وقع عليهم من بغي واستنصروه ؛ وقد شعر أبو سفيان بخطورة الحادث فسارع إلى المدينة للاعتذار منه ، وتوثيق العهد القائم بين المسلمين المكيين ؛ ولقد أخفق أبو سفيان في مهمته ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يستفز المسلمين ، وتم له حشد عظيم بلغ عدده عشرة آلاف من مهاجرين وأنصار وأعراب ، وسار به نحو مكة ؛ ودرى المكيون فاستنفروا حلفاءهم ولكن معظم هؤلاء الحلفاء وخاصة هوازن وثقيف ، تأخر في مسيره ، ولم ينضم إلى القرشيين إلا بنو بكر من الأعراب وأحابيش مكة، وهم الغرباء النازلون في ضواحي مكة والمختلطون من شتى القبائل والأجناس ؛ وقد رأى القرشيون أن لا طاقة لهم بالمقاومة ، فاستسلموا للنبي صلى الله عليه وسلم وحكمه ، ولم يقع إلا اشتباك جزئي في ناحية من أنحاء

---

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٨١ – ١٩٨ وابن هشام ج ٤ ص ٣ – ٦٤

مكة ، ومع فريق من الجيش دخل منها وفقا لخطة سير الجيش ، وأسفر عنه بعض القتلى ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أمراً بالكف عن القتال حالما بلغه الخبر . وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم عقب دخول مكة فأعلن العفو عن أهلها ؛ وقد طهّر ساحة الكعبة وداخلها من الأصنام ، وأقبل الناس على مبايعته على الإسلام حتى عم وظهر فيها دين الله وكلمته ، ثم ولى فتى من أحد بيوتات مكة غير البارزة واليا عليها وقفل راجعا . ومما جاء في خطبته :

« لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمَي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب . يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، يا معشر قريش ، ماترون أني فاعل بكم ؟ فأجابوا: خيراً ؛ أخ كريم وابن أخ كريم ! فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين . ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد من بعدي ، وإنما حلت لي ساعة من نهار هي ساعتي هذه » .

ومما روي أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أبا سفيان إليه وهو معسكر على مرحلة من مكة يتهيأ للدخول مع جيشه فأسلم على يديه ، وكرمه النبي فآذن أن من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ، كما أنه آذن أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن ،ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

كذلك مما روي أن الأنصار أخذوا يتساءلون عما إذا كان النبي وقد نصره الله على قريش ، ويسر له فتح مكة ، يعود ثانية إلى المدينة أو يبقى في مكة ويتخذها مقره ؟ فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فجمع زعماءهم وقال لهم : « معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم » .

الصّورة الثانية والعشرُون

ونص سورة النصر الرائع يغني عن التعليق على ما كان من آثار الفتح الباهرة، إذ انهدم السد الذي كان بين الإسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم ـ بعد انهدامه ـ على النبي صلى الله عليه وسلم من كل صوب، حتى ليقال إن النبي لم يمت حتى دانت الجزيرة إجمالا للإسلام، وكان في ذلك تحقيق البشرى القرآنية بإظهار الإسلام على الدين كله التي احتوتها آية سورة الفتح هذه (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ٢٧) ولم يمض على نزولها إلا سنتان . ولقد كان من آثار الفتح العظيم، تلك الغزوة الكبرى التي سار النبي صلى الله عليه وسلم على رأسها إلى تبوك بنحو ثلاثين ألفاً، والتي تكشفت عن رؤيته إمكانا لدفع الإسلام إلى الآفاق البعيدة وتوطيد حرية الدعوة إليه على ماذكرناه في فصل النصارى .

وغزو النبي صلى الله عليه وسلم لمكة بعشرة آلاف مقاتل هو في ذاته دليل على ما وصل إليه أمر الإسلام والمسلمين من قوة وتعال وشيوع، كما أن نزول المكيين على حكم النبي صلى الله عليه وسلم دون محاولة دفاعية دليل على ما امتلأت نفوسهم به من هيبة المسلمين والرهبة منهم، هذا إلى مانبهنا إليه قبل قليل من احتمال طروء مابدل حالهم من قوة إلى ضعف، ومن تضامن إلى تخاذل، ومن صلابة إلى جنوح للمسالمة والمسايرة . وقدوم أبي سفيان لتوثيق العهد إذا صح ـ وهو مالا نستبعده بعد ما ارتضت قريش الاعتراف بالنبي نداً وعقد صلح معه ـ دليل على هذا وذاك . ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم، قد أدرك الموقف فاستغله أحسن استغلال .

الصّورة الثالثة والعشرُون

(١٣) وفي سورة التوبة آيات تشير إلى يوم حنين، وهو أحد وقائع الجهاد النبوي . ومن الجدير بالذكر أنها الوقعة الوحيدة التي ذكر اسمها في الآيات الواردة عنها . وقد جعلنا الكلام عنها عقب الكلام على فتح مكة لأنها وقعت عقب الفتح . وهذه الآيات أولا :

«لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...» ٢٥ ـ ٢٧

والآيات وردت في معرض تذكير المسلمين بتأييد الله لهم ، وحثهم على الاعتماد عليه ، والاستجابة للنبي في دعوته إلى الجهاد . والصورة التي يمكن اقتباسها منها هي هذه :

١ ـ إن عدد المسلمين في هذا اليوم الجهادي كان كثيراً حتى أنهم ازدهوا به .

٢ ـ إن المسلمين مع ذلك اضطربوا حين اشتباكهم بالعدو ولم تغن عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم يلبثوا أن انهزموا .

٣ ـ إن الله ثبت النبي صلى الله عليه وسلم والمخلصين من المؤمنين في الميدان وأيدهم بروحه ونصره ، فلم يلبث الموقف أن انقلب إلى مصلحة المسلمين وتمت الهزيمة على الكفار .

٤ ـ إن فريقا من المحاربين قد ترشح لعفو الله وتوبته أو قد نالهما فعلا فاندمج في الإسلام والمسلمين .

أما ما جاء في الروايات(١) عن هذه الوقعة فيمكن تلخيصه كما يلي :

بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة أن قبائل هوازن قد احتشدت بوادي حنين ، فاعتزم أن يسير إليها ، فسار بجمع كبير يتراوح على حسب الروايات بين عشرة وستة عشر ألفاً فيهم كثير من قريش الذين أسلموا ؛ وكان عدد المحتشدين من هوازن أربعة آلاف ؛ ولما اشتبك الفريقان بدا من المسلمين شيء من الاستهتار بالعدو لقلته وكثرتهم ، غير أن نبالة هوازن المهرة رشقوهم بمدرار من السهام فلم يلبثوا أن اضطربوا

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٨ وابن هشام ج ٤ ص ٦٥ ـ ١٢١

واختل توازنهم وولى أكثرهم الأدبار خلا النبي صلى الله عليه وسلم وبضع مئات من المخلصين ، وقد أخذ منادي النبي يهتف بالناس ويدعوهم إليه ، فلم يلبث المسلمون أن عادوا إلى رشدهم وكروا ثانية فانهزم مقاتلو هوازن تاركين نساءهم وذراريهم ومواشيهم غنيمة للمسلمين ؛ ثم أرسلوا وفداً يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إسلامهم ويطلب رد سبيهم وماشيتهم ، فاستشار النبي المسلمين من جهة ، وخير رجال هوازن بين السبي والماشية من جهة ؛ وقد تم الأمر على رد السبي وتوزيع الماشية ، ودينونة هوازن بالإسلام . وقد وزع النبي أكثر الماشية على المسلمين المستجدين من زعماء مكة والقبائل قبل أن يعود ، تألفاً لقلوبهم . وقد ذكرت الروايات فيما ذكرت موقفا رائعا بين النبي والأنصار في صدد هذا التوزيع ؛ فقد وجد بعض هؤلاء في أنفسهم حينما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم قد وزع الغنائم على المستجدين ولم يعط الأنصار منها شيئا ، وبلغ ذلك النبي فجمعهم وخطبهم قائلا : يا معشر الأنصار ! ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في أنفسكم ! ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ فقالوا : بل الله ورسوله أمن وأفضل . فقال لهم : أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ؛ يا معشر الأنصار ! أوجدتم في نفوسكم بلعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم لإسلامكم ؟ ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم وهتفوا قائلين : رضينا برسول الله قسما وحظا .

والمتبادر أن سير النبي صلى الله عليه وسلم إلى هوازن إنما كان بسبب احتشادها في وادي حنين في طريقها إلى مكة انتصارا لها على المسلمين ؛ وبكلمة أخرى : إن موقف العداء المباشر قد بدأ منها فضلا عن موقفها العدائي السابق للمسلمين فيما كان من

تضامنها مع قريش في حملة الأحزاب . ومن روح الآيات وفحوى الروايات يبدو أنه كان لهذه القبائل حيز عظيم من حيث القوة والعدد ، وطبيعي أن يكون لانتصار المسلمين عليهم ، ودينونتهم بالإسلام بعد ذلك أثر في ازدياد قوة الإسلام وشيوعه وتعاليه في منطقة مكة .

الصورة الرابعة والعشرون

(٣) وفي روايات السيرة حادث مهم متصل بالحركات الجهادية وهو فتح مدينة الطائف وإسلام أهلها الذين كانت غالبيتهم العظمى من ثقيف . وعلى خطورة هذا الحادث لم تقتض حكمة التنزيل أن يشار إليه في القرآن . وقد رأينا أن نلم به حتى تتم سلسلة الوقائع الجهادية .

وملخص ما جاء في الروايات[1] أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن انتهى من حرب هوازن في يوم حنين زحف على الطائف وحاصرها لأن أهلها كانوا حلفاء قريش. وسارعوا إلى نصرتهم مثل هوازن حينما جاء النبي لغزو مكة . ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق فقفلوا راجعين وتحصنوا وراء أسوار مدينتهم . ومنهم من حارب المسلمين مع هوازن يوم حنين وقتل بعضهم فيه . وقد حاصرها النبي نحو عشرين يوماً . وجرى تراشق بالنبال وقتل من المسلمين جماعة . ثم رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يفك الحصار ويعود إلى المدينة .

ولقد كانت رحلة تبوك الكبرى بعد ذلك بقليل مما يسوغ القول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير خطراً من ترك الطائف إلى فرصة أخرى ، ورأى العودة والتعجيل برحلة تبوك ففعل ذلك ، لاسيما أن الطائف وسكانها قد غدوا شبه منعزلين في وسط

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ – ٢٠٢ وج ٢ ص ٧٦ – ٧٨ وابن هشام ج ٤ ص ٧٩ – ٨٠ و ١٢٢ – ١٣٥ و ١٩٤ – ٢٠٠

دان أكثره بالإسلام بدينونة مكة وهوازن والقبائل الأخرى المحيطة بمكة بالإسلام ، وكان بين بعض الذين لم يدينوا به وبين النبي صلى الله عليه وسلم مواثيق صلح وسلام على ما ألهمته آيات سورة التوبة الأولى .

ولقد جاء في سورة التوبة الآية التالية :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ... » ٢٨

والآية في صدد تحديد علاقة المشركين التقليدية بالمسجد الحرام ومنطقته المحرمة في ظل الإسلام ، لأنها نزلت بعد فتح مكة كما يلهمه مضمونها ؛ وقد احتوت دلالة على توطد سلطان الإسلام وشموله في مكة ، وماصار إليه من قوة وعزة جانب ، غير أنها إلى هذا انطوت على معنى من معاني إعلان المقاطعة وسد الأبواب في وجه من بقي على شركه بعد الفتح ؛ ولعل أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى بهذا ، لأنهم أهم من بقي على شركه من سكان الحجاز . ولقد ذكرت الروايات أنهم بعد بضعة أشهر من فك الحصار عنهم أخذوا يفكرون في طريقة التفاهم مع النبي ، وجاء منهم من فاوضه فعلا ، ثم انتهى الأمر إلى دينونتهم بالإسلام على يد وفد منهم جاء إلى المدينة مبايعا النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وهذا مما قد يدعم ما قلناه من أنهم كانوا هم المقصودين بالدرجة الأولى من المقاطعة التي انطوت في الآية ؛ فلعلهم أسرعوا إلى الاتصال بالنبي حينما أعلن تحريم دخول المشركين للمسجد الحرام ومنطقة مكة يوم الحج الأكبر الذي أعلنت فيه البراءة من المشركين المعاهدين الذين بدا منهم الخلل أو النكث على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ، أو حينما سمعوا العزم على إعلان ذلك ، لأنهم رأوا فيه ضربة قاضية عليهم ماديا ومعنويا فلم يروا مناصا من المسارعة إلى الخروج من المأزق الحرج ؛ وطبيعي أن ترجيحنا أن أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى من المقاطعة لا يعني ألّا يكون قد قصد بها سائر من بقي على شركه .

وواضح أنه لا يرد أي معنى من معاني مصادرة الحرية الدينية في هذه المقاطعة والحظر ، لأن البيت الحرام قد أصبح طاهرا من مظاهر الشرك ، وأصبحت تقاليد الحج مثل ذلك ، وصار تحت السلطان الإسلامي ؛ وليس من المعقول أن يسمح للمشركين بممارسة تقاليد الوثنية فيه ، عدا ماله من الحق الطبيعي في سد بابه على أعدائه السياسيين والدينيين .

الصّورة الخامسة والعشرون

وفي صيف السنة التاسعة استنفر النبي المسلمين إلى غزوة تبوك التي بسطنا ظروفها ونتائجها في فصل النصارى ، والتي نزلت فصول عدة من سورة التوبة في صددها ؛ فنكتفي بهذه الإشارة إليها هنا لإتمام التسلسل التاريخي للوقائع الجهادية التي ذكرت في القرآن .

هذا ؛ ونريد أن نشير إلى آية مدنية في سورة الشعراء لما ينطوي فيها من صورة جهادية طريفة ؛ وهي الآية الأخيرة منها :

« إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ... » ٢٢٧

وقد جاءت بعد آيات مكية فيها حملة لاذعة على الشعراء ، وهي هذه :

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ . وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ... » ٢٢٢ ـ ٢٢٦

وطابع الآية المدني لا يتحمل شكا ؛ فالمسلمون إنما استطاعوا أن ينتصروا لأنفسهم في العهد المدني ، وحكمة وضعها من السورة المكية واضحة ، والاستثناء هو للشعراء المسلمين كما يبدو واضحا كذلك حينما يقرأ ما قبل الآية .

أما الصورة التي تنطوي فيها فهي أن شعراء المسلمين المخلصين كانوا ينتصرون

للمسلمين بشعرهم ممن كان يبدؤهم بالظلم والبغي ، أي أن شعراء الكفار كانوا يحاربون النبي والمسلمين بسلاح الشعر ، وكان شعراء المسلمين يقابلونهم بالمثل ، وهـذا ممـا أيدته الروايات المتواترة ، ومما هو طبيعي ؛ لأن الشعر كان جزءاً مهما من حياة المجتمع العربي وسلاحاً من أسلحته في ذلك العهد .

ويلفت النظر خاصة إلى روعة اتساق استعمال شعراء المسلمين لهذا السلاح مع المبدأ الجهادي العام وهو الدفاع والمقابلة .

فصـــل
في التشريع القرآني وصلته بالسيرة النبوية
تمهيد

صلة التشريع القرآني بالسيرة النبوية ومشاهدها ــ مدنية التشريع ومداها. تعليل مدنية التشريع . مباحث هذا الفصل .

الصورة الأولى

للتشريع القرآني صلة قوية بالسيرة النبوية لا تحتاج إلى بيان مسهب ؛ فإن جل الآيات والفصول التشريعيــة إن لم نقل كلهـا قد نزلت إجابة عن أسئلة واستفتاءات ، أو بمناسبة حوادث ووقائع وظروف متصلة بالسيرة النبوية ومواقف وتصرفات المسلمين وغير المسلمين في أثنائها ؛ فكانت من جهة حلا لمشا كل وشئون ومسائل واقعيــة ، ومن جهــة تشريعا مستمر الحكم والتلقين والمــدى ، وبعبـارة أخرى : إن التشريع القرآني يشتمل على صور من السيرة النبوية والعهـد النبوي ، والمجتمع الإسلامي فيه .

وفي التشريع القرآني بعض التطورات ؛ نعني أن هنـاك أحـكاما أو أوامر ونواهي أبـكر من أحـكام وأوامر ونواهٍ ، وأن من المتأخر ما جاء ناسخاً أو معدِّلا للمتقــدم على حسب ما اقتضتــه الحــكمة من مراعاة الظروف أو التطابق معهـا سلبا وإيجابا ، وتخفيفا وتشديدا ، وضيقا وسعة ؛ وينطوي في هذا كذلك صور مثل تلك كما هو المتبادر .

الصورة الثانية

وإذا استثنينا الإيمان بالله وملائـكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وركني الصلاة والزكاة ، استطعنا أن نقول : إن التشريع القرآني مدني ؛ مع التنبيه إلى نقطة هامة وهي

أننا لا نقصد بالتشريع المبادئ المتنوعة التعبدية وغير التعبدية التي تضمنتها الدعوة القرآنية، وإنما نقصد ما فيه من قواعد وحدود للشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعائلية، بل الواجبات التعبدية أحيانا؛ ذلك لأن جل المبادئ الإيمانية والتعبدية والأخلاقية والاجتماعية، بل الاقتصادية والسياسية التي يصح أن يقال: إن التشريع القرآني بالمفهوم الذي نبهنا إليه، وباستثناءات قليلة قد تناولها ـ قد وردت في القرآن المكي، خلافا لما يتوهم بعض المسلمين، ويحلو للمستشرقين والمغرضين أن يكرروه بسبيل غمز النبي صلى الله عليه وسلم بالتبدل من نبي إلى سلطان.

وهكذا يصح أن يقال: إن التشريع القرآني المدني صورة تطوّرية إلى حد ما للمبادئ القرآنية المكية في شكل قواعد وحدود. وفي هذا أيضاً دليل آخر على صلة التشريع بالسيرة النبوية كما هو واضح.

الصّورة الثالثة

وطبيعة كل من العهدين المكي والمدني توضح علة مدنية التشريع ومكية المبادئ العامة؛ فالعهد المكي هو عهد دعوة كما كان عهد قلة وضعف ومحنة للمسلمين، والمقتضى لهذا هو عرض المبادئ المتنوعة للدعوة عرضاً قويا، وهو ما امتاز به الأسلوب المكي على ما ذكرناه في مناسبة سابقة؛ كما أن حالة المسلمين لم تكن لتستدعي تشريعاً وتقعيداً لأن مثل هذا إنما يكون في حالة الاستقرار وقيام بنيان رسمي، في حين صار العهد المدني عهد طمأنينة واستقرار وكثرة مؤلفة من مختلف الفئات، وقد توطد فيه للإسلام كيان سياسي واجتماعي، هذا إلى أنه لم يكن ثمة محل لتكرار ما جاء في القرآن المكي من المبادئ ـ لأن القرآن كل لا يتجزأ من حيث شموله ووجوب الإيمان والأخذ به ـ إلا بالقدر الذي اقتضته حكمة التنزيل.

ومن الجدير بالتنبيه أن مالا يوجد في القرآن المكي من شئون اختص بها العهد المدني كالجهاد، قد جاء عنه الكلام في القرآن المدني بأسلوب قوي رائع من

جهـــة ومحتويا مبادئ عامة فيـه من جهـة أخرى ؛ كما يتضح من إنعام النظر في آياته التي استعرضناها في الفصل السابق . وبهذا تتسق حكمة التنزيل وأسلوبه اتساقا بديعاً .

الصّورة الرابعة

والفصول التشريعية في القرآن المدني كثيرة ومتنوعة ، منها ما يتصل بالجهاد ، ومنها ما يتصل بالموقف الذي يجب أن يوقف من المنافقين وغير المسلمين في مختلف الحالات ، ومنها ما يتعلق بالواجبات التعبـدية ، ومنهـا ما يتصل بالشئون السياسيـة والاجتماعية والاقتصادية والعائلية والقضائية .

ولقد استعرضنا الآيات الواردة في الجهاد والمنافقين والـكتابيين في الفصول الخاصة بهم ، ونبهنا إلى ما فيهـا من مبـادئ وتشريعات ، ولهـذا فإننـا لا نعود إلى الـكلام عنها في هـذا الفصل إلا بالقـدر الذي تمس الحاجة إليـه ممـا يتصل بالشئون الأخرى تدعيما أو توضيحا .

وعلى هذا فإن مباحث هذا الفصل هي ما يلي :

١ ـ التشريع التعبدي .

٢ ـ التشريع السياسي .

٣ ـ التشريع الاجتماعي .

٤ ـ التشريع الاقتصادي .

٥ ـ التشريع العائلي والآداب السلوكية البيتية .

وسيكون الـكلام غير مسهب في هـذه المبـاحث ، لأن المقصـد الرئيسي من الفصل هو استعراض صور السيرة النبوية من هـذه النـاحيـة فحسب ، ولنـا كتاب مفصـل في تعاليم القرآن يصدر بعد هـذا إن شاء الله ، ضمنـاه بحوثاً مستفيضة في هـذه الشئون [١] .

---

(١) هذا الـكتاب صدر في القاهرة بالتزام دار إحياء الـكتب العربية سنة ١٣٧٦ ـ ١٩٥٦ بعنوان « الدستور القرآني في شؤون الحياة » .

هـذا ؛ ونريد أن ننبه إلى أمر في صدد هـذا الفصل ؛ فإن كثيرا من الآيات التي استعرضناها قد أوردت في فصول سابقة ، وقد نبهنا في تلك الفصول إلى الصور التي انطوت عليها ، غير أننا لم نر هذا مغنيا عن هذا الفصل ، حيث أردنا أن نرسم فيه صورة متسلسلة للتشريع القرآني وتطوره بصورة خاصة ، ودون غيره من ملابسات ، مما رأينا فائدة كبيرة له لإتمام الصورة القرآنية للسيرة النبوية الشريفة .

المبحث الأول

التشريع التعبـــدي

تبكير فرض الصلاة وممارستها – ليس في القرآن تحديد لكيفيات وأوقات وإنما كان هذا بتشريع نبوي – آيات التطهر للصلاة ومداها – ترجيح ممارسة الوضوء مبكرا بتشريع نبوي – تطهير الثياب – آيات صلاة الخوف ومداها – قصر الصلاة في السفر مطلقا تشريع نبوي – آيات صلاة الجمعة ومداها وما فيها من صور – إقامة الجمعة قبلها بتشريع نبوي – الأذان تشريع نبوي – بدء القبلة تشريع نبوي – آيات الصوم وتبكير فرضه – تعليق على القول بالناسخ والمنسوخ فيها – بعض الصور والمناسبات التشريعية – الحج وترجيح مدنية تشريعه في القرآن – الآيات الواردة في الحج ومناسكه – إقرار مناسك الحج السابقة ومداه وحكمته – صور وتطورات تلهمها الآيات في صدد الحج – ممارسة المسلمين الحج في العهد المكي – وفي العهد المدني .

الصورة الأولى

الصـلاة ومتعلقاتها:

إذا استثنينا صلاتي الجمعة والخوف ، والطهارة والقبلة المتصلتين بالصلاة : فإننا لا نجد في القرآن المدني تشريعاً للصلاة . والمتبادر أن هذا كذلك لأن الصلاة قد مورست منذ بدء النبوّة بدليل الآيات التي جاءت عقب الآيات الخمس الأولى من سورة العلق أولى آيات القرآن نزولاً على ما عليه الجمهور وهي :

« أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْداً إِذَا صَلَّىٰٓ ... » ٩ – ١٠

حيث تفيد أن شخصاً طاغية حاول منع النبي صلى الله عليه وسلم من صلاته التي أخذ يصليها منذ بدء نبوته . ثم أصبحت واقعية مستمرة . وقد ذكرت بهذا المدى في آيات مكية عديدة مبكرة في النزول كما ترى في هذه الآيات مثلا :

١ — قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ... الأعلى ١٤ – ١٥

٢ — وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... طه ١٣٢

٣ — أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ... الإسراء ٧٨

وفي مطلع سورة البقرة ـ وهو أول آيات العهد المدني أو من أولها ـ تنويه بالمسلمين الذين يقيمون الصلاة ، مما يدل على ما قلناه من أنها عملية قائمة مستمرة :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ... » ٣

هذا مع التنبيه إلى أنه لم يرد في القرآن مكيه ومدنيه تحديد لكيفية الصلاة وعدد ركعاتها وأوقاتها ، وكل ما ذكر فيه حالات القيام والركوع والسجود . وقد حاول بعض المفسرين أن يستخرجوا أوقاتها من بعض الآيات مثل آية الإسراء التي نقلناها آنفاً ، ولكنهم على كل حال لم يقولوا إن القرآن احتواها بصراحة وضبط .

فالصلاة والحالة هذه قد فرضت أوقاتاً وكيفيات بالعمل والتعليم النبوي ، ومع أن هناك روايات تذكر أن أوقاتها الخمسة قد فرضت ليلة الإسراء ، أي حول منتصف العهد المكي على ما يرجح وقت هذا الحادث ، فإنه ليس مما يحتمل شكا أن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا يمارسون الصلاة الإسلامية منذ فجر البعثة ؛ وكل ما يمكن أن يحتمل أن تكون السنة النبوية قد ثبّتت لها أوقاتاً وعدداً وكيفيات بعد هذا الفجر ، ولا نستبعد إن لم نقل نرجح أن يكون هذا قد جرى على مراحل وليس دفعة واحدة .

وهدف تعدد الصلاة الإسلامية هو ـ فوق أنه واجب المؤمن بعبادة الله وأدائه بعض حقه من الشكر على آلائه ـ موالاة إيقاظ ضمير المسلم بذكر الله وتهذيب نفسه وتنقية روحه ومنعه من مقارفة ما نهى الله عنه من الآثام والمنكرات . وفي القرآن آيات تتضمن هذا ، منها هذه الآية :

« اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ... » العنكبوت ٤٥

وعلى حاجة الإنسان الدائمة إلى ذلك ؛ فإننا لا نشك في أنه كان عظيم الأثر في تهذيب وتنقية المجتمع الإسلامي الناشئ الذي كان جل أفراده يدينون بالشرك ويرتكسون في أعمال وعادات وطقوس جاهلية .

الصورة الثانية

أما التطهر للصلاة فقد ورد تشريعه في موضعين من القرآن المدني كما ترى فيما يلي :

١ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا (١) صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا . . .

النساء ٤٣

٢ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ... المائدة ٦

والآية الثانية أوضح من الناحية التشريعية كما هو ظاهر . وقد روى المفسرون

---

(١) أصل المعنى : اقصدوا أو اختاروا بقعة طاهرة من الأرض فامسحوا بغبارها وجوهكم وأيديكم ، ثم صارت كلمة التيمم التي هي بمعنى القصد والتوجه اصطلاحاً إسلاميا .

والرواة أن التيمم قد رخص به في طريق العودة من إحدى الغزوات حيث أدرك المسلمين وقت صلاة ولم يتيسر لهم ماء للوضوء ؛ وفي هذا صورة واقعية من صور السيرة ، وواضح أنه أريد بالرخصة تلقين أهمية الاستعداد للصلاة في أوقاتها بالتطهر ولو بما يقوم مقامه رمزيا .

ومع أن هناك روايات ذكرت أن النبي والمسلمين كانوا يتطهرون بالماء من الحدث الأصغر الناقض للوضوء ومن الحدث الأكبر وهو الجنابة قبل الدخول في الصلاة منذ العهد المكي ، فإن روح الآيات ومضمونها يلهمان أن هذا التطهر لم يكن مرعيا رعاية تامة ، فاقتضت الحكمة التنبيه والتشريع مرة بعد أخرى . والذي نرجحه أن هذا الإهمال أو عدم الرعاية إنما كان يقع من المستجدّين في الإسلام وخاصة من الأعراب .

على أن التشريع في آية المائدة لا يحتوي تفصيل الكيفيات الذي تكفلت به السنن المروية على اختلاف فيها ؛ وقد يكون هذا محل بحث ؛ فإن آية المائدة مما نزل متأخراً ، وعلى كل حال بعد آية النساء ، والتطهر للصلاة مما كان قديما ؛ فاكتفاء القرآن بما حددته آية المائدة ، وما في الروايات في السنن من خلاف ، ثم ما هناك من اجتهاد فقهي بأن الأركان الأربعة المذكورة في الآية مجزية ـ قد يدل على أن هذا هو الأصل الذي كان جاريا منذ البدء ، وأن السنن المروية لم تكن مستمرة دون انقطاع وتبديل ، وأن الاهتمام قد ظل منصباً على الأركان الأربعة . وفي الفقرة الأخيرة من آية المائدة قرينة على هذا فيما يبدو لنا .

الصّورة الثالثة

وتطهير الثياب ركن من أركان الدخول في الصلاة كما هو معلوم ؛ ولم يرد فيه تشريع مدني ، ولقد ورد في مطلع سورة المدّثر آية هي من أبكر ما نزل : وثيابك فطهرْ « ٤ » مما يسوّغ القول بأن هـذا التطهير كان مثل التطهر من الحدثين منذ فجر البعثة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد علمه للمسلمين وجروا عليه ، أما كيفياته وحدوده

فقد تكفلت السنة ببيانها على اختلاف في الروايات · مما يسوّغ القول إنه كان يتساهل في ذلك بعض التساهل أيضاً ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما قرّرته الفقرة الأخيرة من آية المائدة من حكمة تشريعية سامية ، وإن أسلوبها ومضمونها ليلهمان أن من هدفهما إثارة الحافز في نفوس المسلمين إلى التطهر والنظافة في الدرجة الأولى ؛ وإذا لوحظ أن المجتمع الإسلامي الناشئ قد كان فيه جماعات كبيرة من البدو قلما يعنون بنظافة وطهارة ، وأنه كان يسكن منطقة شحيحة الماء تضطر ساكنيها إلى الاقتصاد بالماء وعدم التطهر والنظافة كما يجب ، بدت لنا الحكمة السامية الخاصة مضافة إلى الحكمة السامية الخالدة .

الصّورة الرابعة

وآية النساء تحتوي فوق تشريع التطهر للصلاة كمبدأ ، تشريع عدم المرور من المسجد إلا على طهارة ما لم يكن هناك ضرورة ملزمة على ما أوله المفسرون لجملة « إلا عابري سبيل » وقد رجحنا في مناسبة سابقة أن هذا قد كان لأن حجرات النبي صلى الله عليه وسلم متصلة بمسجده الشريف . وفي هذا على كل حال صورة واقعية . أما النهي عن الصلاة في حالة السكر وما فيه من صورة واقعية فسيأتي الكلام عنه بعد .

الصّورة الخامسة

وقد جاء في صدد صلاة الخوف الآيات التالية :

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا . وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا . . . »

النساء ١٠١ ـ ١٠٣

وفي الكيفية المذكورة لا يذكر الركوع ولا قعود التشهد ولا ماهية القصر من الصلاة ، مما تكفلت ببيانه السنة ، وفي هذه الرخصة صورة واقعية ، إذ تدل على أن المسلمين كانوا يرون حرجاً في اضطرارهم إلى الوقوف أمام العدو في ظروف الحرب أو الخوف ، وعدم تمكنهم من أداء الصلاة ، كما أن فيها تنبيهاً إلى خطر أداء الصلاة في أوقاتها مهما كان الأمر ، فحلت المشكلة على الوجه المذكور .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحل إنما كان في حال الخوف ، في حين أن هناك سنة بقصر الصلاة في حالة السفر مطلقاً ، مما يسوغ القول أن هذه الرخصة تشريع نبوي ، وواضح أنه لا يتعارض مع تلك الرخصة لأنه ليس في الآية حصر ، وهذه واحدة من كثير من أمثالها جرت بتشريع نبوي ، منها مامر كالصلاة والتطهر لها وكيفياتهما ، ومنها ما ستأتي الإشارة إليه ؛ وفي هذا صورة من صور السيرة النبوية والتشريع في أثنائها .

الصورة السادسة

وقد جاء في صدد صلاة الجمعة الآيات التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْاْ

تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ...» ٩ — ١١

وروح الآيات وأسلوبها يدلان على أن هـذه الصلاة لم تشرع حين نزول الآيات، وإنما كانت أقدم من ذلك، وأن الآيات إنما نزلت للتنبيه على خطورتها وإيجاب الاهتمام لها، بسبب ما كان يبدو من المسلمين أو بعضهم من تقصير في ذلك ناشئ عن الانهماك في التجارة واللهو، إذ احتوت أمراً تشريعيا بوجوب ترك البيع واللهو والمسارعة إلى صلاة الجمعة حينما يؤذن لها.

ولقد ذكرت الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقام صلاة الجمعة في حي بني عوف حينما قدم مهاجراً من مكة، وكان هذا طبعا قبل نزول الآيات، مما يستأنس به على صحة الاستفهام، ويؤيد أن النبي والمسلمين كانوا يجتمعون لصلاة الجمعة في مكة منـذ عهد قد يكون مبكراً، ومما يسلك في سلك التشريع النبوي أيضا؛ كما ذكرت الروايات أن الأنصار كانوا « يجمّعون » أي يقيمون الجمعة بعد إسلامهم وقبل الهجرة، مما يسوغ القول بأنهم قد تلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ويدعم ما قلناه آنفا.

وعلى هذا فالآيات ـ وهي تنبه على خطورة صلاة الجمعة ـ تنطوي على صور متنوعة، منها اشتغال بعض المسلمين بالبيع عن هـذه الصلاة، ومنها انفضاض بعضهم من المسجد والصلاة قائمة أو والنبي قائم لها حينما تعرض لهم عارضة من تجارة أو لهو، ومنها الاهتمام لتجميع المسلمين يوم الجمعة للصلاة، وما في هذا من قصد اجتماعي جليل فيه تعليم وتأديب ومصلحة عامّـة، سواء بالنسبة للمجتمع الإسلامي النـاشئ الحاضر أو للمجتمع الإسلامي بصورة عامّة ودائمة.

الصُّورة السَّابعة

وليس في القرآن تشريع للأذان أيضـا، وكل ما فيـه إشارة إلى أن المسلمين كانوا ينـادون للصلاة، كما جاء في آيات سورة الجمعـة وكما جاء في إحـدى آيات سورة المـائدة هـذه :

« وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ... » ٥٨

وقد ذكرت الروايات أن الأذان للصلاةبالكيفية الجارية قد ابتدأ في المدينة ؛ وهذا معقول ، لأنه متصل بطبيعة العهد المدني دون المكي ، حيث لم يكن المسلمون في هذا كثرة وأحراراً يمكنهم أن ينادوا للصلاة جهرة وجماعة في حين كان هذا ممكنا وضروريا في العهد المدني ؛ وعلى كل فإن حال تشريع الأذان هو تشريع نبوي كما هو واضح .

الصورة الثامنة

والقبلة ركن من أركان الدخول في الصلاة كما لا يخفى ، وقد بسطنا الكلام عما تقلب عليه أمرها بما فيه الكفاية في فصل اليهود فنكتفي بهذه الإشارة ، مع التنبيه إلى أن استقبال المسجد الحرام (الكعبة) قبل المسجد الأقصى ثم التحول إلى هذا إنما كانا تشريعا نبويا ، وأن التحول عن هذا إلى الأول هو وحده التشريع القرآني ، مع ملاحظة ما قلناه في المناسبة السابقة من احتمال أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتحول بإلهام رباني قبل نزول آيات القبلة ونزول هذه الآيات بعد ذلك مثبتة مشرعة .

الصورة التاسعة

الصوم :

هناك روايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صام عاشوراء وحض على صيامه قبل نزول آيات فرض صيام رمضان ، وأن صيام هذا اليوم متصل بتقليد جاهلي يوم تجديد ستار الكعبة على ما ذكرناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته قبل البعثة » وعلى كل حال فإن صيام شهر رمضان لم يفرض إلا في العهد المدني بالآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ (١) فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ... » البقرة ١٨٣ — ١٨٧

واستئناساً بأن سورة البقرة أولى سور العهد المدني يمكن أن يقال إن صيام رمضان قد فرض في السنين الأولى من هذا العهد ؛ والروايات تذكر أنه كان بعد تحويل القبلة إلى الكعبة بشهر ، أي في الثلث الثالث من السنة الهجرية الثانية .

ولقد قال بعض العلماء والمفسرين بوجود ناسخ ومنسوخ في آيات الصوم ، إذ استدلوا من الآية الثانية على أن الصيام فرض في أول الأمر بصورة عامة ، وبدون تحديد شهر كامل ، مع تخيير المسلمين القادرين عليه بين الصيام والفداء عنه بإطعام مسكين

---

(١) أي من كان مقيما وحاضرا أيام الشهر .

عن كل يوم ، ثم أكدت الفريضة بالآية الثالثة إذ جعلت كامل شهر رمضان ، وحتم صيامه على غير المريض والمسافر ، ونسخ التخيير بين الصوم والفداء بالنسبة للقادرين ؛ فإذا صح هذا كان الفرض الأول هو الخطوة الأولى التي اقتضت الحكمة أن تكون لعدم الإحراج ، حتى إذا تعود المسلمون الصيام كانت الخطوة الثانية . وفي هذا مظهر من مظاهر التطور يمكن أن يكون قد سار معقوة رسوخ الدين في عامة المسلمين ورغبتهم في التطوع لله بالصيام . على أن أمر النسخ ليس مسلماً به عند علماء آخرين قالوا إن جملة « شهر رمضان » هي بدل من الأيام المعدودات ، وإن الآيات الثلاث الأولى قد نزلت دفعة واحدة . والحق أن صيغة هذه الآيات ومضامينها تتحمل صحة القولين وإن كانت صحة القول الثاني أوجه وأقوى بقرينة جملة (فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) حيث يفيد هذا أن الأيام كانت محددة بأعيانها . وهذا إنما ينطبق على شهر أو بعض شهر بعينه . وإذا أردنا أن نقيس فرض الصيام على تشريعات تعبدية أخرى كالصلاة وكتحريم الخمر ساغ ترجيح القول الأول ، لأننا نرى في هذا وتلك تدرجا اقتضته الحكمة ، ويمكن أن يكون فرض صيام رمضان سار على مقتضى هذه الحكمة .

والآية الأخيرة تدل على أن المسلمين وقعوا في شيء من الحرج أو الإثم في صدد قرب نسائهم في ليالي الصوم ، وقد ذكرت الروايات أنهم كانوا يرون وجوب الامتناع عن الأكل والنكاح إذا ناموا بعد العشاء ثم استيقظوا قبل الفجر ، وأن بعضهم قد فعل ذلك فأهمه الأمر فلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعتذرفنزل الوحي بالآية . وطبيعي أن تكون الآية قد نزلت متأخرة عن الآيات الثلاث الأولى . ومضمونها يؤيد ذلك . وقد وضعت في مكانها للتناسب الموضوعي وإتمام السياق . وفي هذا صورة من التأليف القرآني . وبعض العلماء يقولون إنها ناسخة لأمر كان يعتبره المسلمون واجباً . وأسلوب الآية ومضمونها يؤيدان ذلك حيث وصف فيها عمل المسلمين خيانة للنفس ثم قرر فيها

أن الله قد عفا وخفف عنهم . والمتبادر أن ذلك كان بأمر النبي وبإلهام رباني . ثم اقتضت الحكمة التخفيف .

الصورة العاشرة

الحج :

إن سورة الحج احتوت فصلا طويلا في مناسك الحج . سوف نورده بعد . وهذه السورة من المختلف في مكيتها ومدنيتها . وقد رجحنا مكية أغلبية آياتها لدلالات عديدة ظهرت لنا وتظهر عند التمعن في آيات السورة . غير أن الفصل المذكور يحتمل أن يكون مدنيا كما يحتمل أن يكون مكياً . غير أن احتمال مدنيته أقوى لأنه يبدأ بآية فيها تنديد بالكفار الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام . فإذا صح هذا فيمكن أن يقال إن الآيات التي فرضت الحج وذكرت مناسكه مدنية وبالتالي إن تشريع الحج هو تشريع مدني ؛ أما القرآن المكي فلم يحتو إلا إشارات إلى الحرم وأمنه وبيت الله المحرم وبركاته وعلاقة إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم به ... الخ .

وإليك أولاً الآيات الواردة في الحج وتشريعه :

١ — إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ . . .

البقرة ١٥٨

٢ — يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ...

البقرة ١٨٩

٣ — وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن

رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ(١) فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ . ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ . وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . . .

البقرة ١٩٦ ـ ٢٠٣

٤ — إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ .

---

(١) اعتمر بمعنى زار . والاعتمار في الاصطلاح الفقهي هو الزيارة في غير موسم الحج أو بغير نية الحج . فالحاج حينما يحرم إما أن ينوي العمرة فقط ، أو ينوي قرن العمرة والحج معا ، فإذا نوى العمرة فإنه حينما يصل إلى مكة يطوف بالكعبة زائرا ثم يتحلل من إحرامه ، وحينما يأتي وقت الذهاب إلى عرفات يحرم بنية الحج ؛ أما إذا نوى القران فإنه يظل محرما إلى أن ينزل من عرفات فيزور الكعبة حين دخوله مكة ويظل محرما إلى أن يقف في عرفات وينزل منها فيذهب إلى مكة ويطوف بالكعبة ثم يتحلل من إحرامه ؛ وكذلك إذا دخل زائر إلى منطقة الحرم في غير موسم الحج فعليه أن يحرم بنية العمرة ، وحينما يدخل إلى مكة يزور الكعبة ويطوف بها ثم يتحلل من إحرامه .

فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ . . .

آل عمران ٩٦ ـ ٩٧

٥ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . .

المائدة ١ ـ ٢

٦ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ . أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ...

المائدة ٩٤ ـ ٩٧

٧ — إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ

لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ . وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَارَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ . ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ . حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ . ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَارَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ...

الحج ٢٥ ـ ٣٧

الصورة الحادية عشرة

وجل المناسك والطقوس التي أشارت إليها الآيات وشرعتها ـ إن لم نقل كلها ـ قد أقر على ما كان عليه قبل البعثة بعد تهذيبه من المناظر القبيحة وتجريده من شوائب الشرك

والوثنية ؛ ممـا يسوغ القول بأنها كانت من التقاليد المقدسة الراسخة في الناس ، كما أنها كانت تنطوي على فوائد متصلة بما توخته الدعوة فيما توخته من مثل جمع القاصين والدانين على اختلاف أجناسهم وأهوائهم في مظهر متحد في وقت ما وشكل ما ؛ وتبدو لنا حكمة أخرى في هذا الإقرار وهي تأنيس الناس الذين كانت تلك التقاليد راسخة فيهم رسوخاً شديداً للدعوة الإسلامية وقد أخـذ أفقها يتسع بعد الهجرة وترشح ليشمل جميع العرب على اختلاف منازلهم فضلا عن غيرهم .

وفي الآيات صور واقعيـة وخطوات تطورية متصـلة بالسيرة النبوية ننبـه عليهـا فيما يلي :

(١) يفهم من آية البقرة (١٥٨) أن المسلمين قد تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة جرياً على تقليد الجاهلية فأقر هذا الطواف وأعلن أنه من شعائر الله .

(٢) ويفهم من آية البقرة (١٨٩) أن العرب كانوا يتحرجون من التظلل بالسقوف وبالتبعية من دخول البيوت من أبوابها المظللة أثناء أشهر الحج فظلوا على هذا إلى أن أبطلته الآية .

(٣) ويفهم من آية البقرة (١٩٨) أن المسلمين تحرجوا من الاشتغال بالتجارة في أثناء أشهر الحج ـ وقد كان العرب يقيمون الأسواق التجارية في هذه الأثناء ـ وظنوا أن من الواجب أن يكرسوا جميع الوقت للعبادة وعدم مزج شيء من عمل الدنيا معها ، لاسيما أن الآية ١٩٧ قـد نبهت على وجوب اجتناب الجـدال والفسوق والرفث في أشهر الحج ، فأباحت الآية لهم ذلك .

(٤) ويفهم من آية البقرة (١٩٩) أن بعض طبقات من العرب أو من الزعماء كانوا يأنفون من الوقوف في موقف عامة الناس أثناء بعض المناسك ، وأن هذه العادة ظلت جارية وقتا ما بعد البعثة ، فأبطلت بها للتسوية بين الناس في هذا الموقف التعبدي الذي يتجه الناس جميعهم فيه إلى الله وحده دون تجبر أو استكبار .

(٥) ويفهم من آيات البقرة ١٩٦ ـ ٢٠٢ أنها توخت فيما توخته أن تستبدل

بمـا كان من عادة الحجاج في منى من عقـد مجـالس المفـاخرة ، مجالس ذكر الله وعبادته وتـكبيره .

(٦) ويفهم من آيات المائدة ١ ـ ٢ أن أحـداً حاول أن يلحق الأذى بأهل مكة فيمنع عنها الحجاج ، فحظرت ذلك بشدة وأيدت بقوة وجوب احترام حرمة الحج والأشهر الحرم وتقاليدها ومناسكها .

(٧) ويفهم من آيات المائدة ٩٤ ـ ٩٧ أن العرب كانوا يحرمون صيد البر والبحر معا في أشهر الحج المحرمة ، فأباحت صيد البحر للتخفيف عن الناس وخاصـة عن القوافل وتيسير الطعام لهم ، كما أنها جعلت حالة التحريم مقصورة على وقت الإحرام الذي حددته السنة النبوية بلبس الثياب غير المخيطة حين دخول المسلم منطقة الحرم إلى أن يقضي عمرته أو حجه بعد أن كانت شاملة لأشهر الحج كلها .

٨ ـ ويفهم من آيات سورة الحج أن العرب كانوا يتحرجون من أكل لحوم قرابينهم ، ومنهم من كان يمنعها عن الناس ويعتبرها محرمة لله ، فأباحت لأصحابها الأكل منها وإطعام غيرهم وخاصة الفقراء والمعوزين منها .

هذا ؛ ويلفت النظر خاصة إلى ما في إقرار جُلّ تقاليد الحج بعد تهذيبها من شوائب الشرك والوثنية من معان متصلة بالمجتمع الإسلامي الذي كان إذ ذاك هو المجتمع العربي بوجه عام ، فالعرب على مختلف منازلهم ونحلهم وثقافتهم كانوا متحدين في هـذه التقاليد تقديساً وممـارسة ، وكان لهم في ظروفها منافع عظيمة متنوعة وكانت راسخة فيهم رسوخاً شديدا من المتعذر التغلب عليه ، وكان أهل مكة وهم أئمـة العرب متخوفين من انتشار الدعوة الإسـلامية ظنا منهم أنها ستلغي هـذه التقاليد ويفقدون بذلك مركزهم الممتاز ومنافعهم الـكبيرة ، وهذه التقاليد في أصلها مما هو متصل بملة إبراهيم التي دعا إليها القرآن، وكان العرب يعرفون هذه الصلة ويبنون تقاليدهم عليها ؛ ولقد استهدف القرآن فيما استهدف توسيع أفق العرب وإخراجهم من نطاق القبَليـة الضيقة إلى كيان الأمة الموحدة ؛ فكل هذا مما يفسر حكمة ذلك الإقرار ، ويوضح المعاني التي أشرنا إليها كما هو المتبادر .

المبحث الثاني

التشريع السياسي

مدى التشريع السياسي ومتناوله ـ الآيات الواردة في توطيد مركز أولي الأمر وما يجب لهم وعليهم ومداها ودلالاتها ـ الآيات الواردة في توطيد العدل وحياطته ومداها ودلالاتها ـ الآيات الواردة في العقوبات والحدود ومداها ودلالاتها ـ تعليق على تطور عقوبة الزنا وتشريع حد السكر والتطور التشريعي في حظر الخمر ـ توطيد بيت المال ـ الزكاة ومدى ودلالة التبكير في فرضها ـ تطور الأسلوب القرآني فيها ـ صلة الزكاة ببيت المال ـ غنائم الحرب ـ تشريع الخمس من غنائم الحرب الفعلية ومغزاه ـ تشريع النبي ومداه ـ تعليق على الفرق الملحوظ بين مستحقي غنائم الحرب والزكاة ـ بعض الصور في صدد التشريعات المالية .

الصورة الأولى

نقصد بهذا ما يتصل بتوطيد كيان الدولة في الإسلام وواجباتها وصلاحيتها . والتشريع في هذا مدني، وكل ما كان من أمر بالنسبة للقرآن المكي أن خطوطه مما تضمنته آيات مكية كآيات الشورى ٣٧ ـ ٤٣ التي تنوه بالمسلمين الذين يجعلون أمرهم شورى بينهم ، وينتصرون من ظالميهم ، وآيات الإسراء ٣١ـ ٣٥ التي تنهى عن القتل وتجعل لولي الدم حقاً يؤخذ له ، وتأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ؛ وكآيات النحل ٩٠ ـ ٩٢ التي تأمر بالعدل والإحسان وتنهى عن نقض العهود ، وكآية الأنعام ٥٢ التي تأمر بالعدل بالقول دون أي محاباة وبالوفاء بالعهد ، وكالمحاورة المحكية في سورة النمل عن ملكة سبأ وما يحتمل أن يكون قد انطوى فيها من تلقين القدوة ، وكآيات ص عن داود عليه السلام وخطاب الله له في بيان ما يجب على الخليفة مراعاته وما يحتمل أن يكون انطوى فيها من تعليم وتلقين كذلك .

وننبه إلى نقطة مهمة، فمع قولنا إن التشريع السياسي مدني فإن القرآن المدني لم يحتو هو أيضا إلا القليل من التفصيل والتحديد ، وأكثر ما جاء في صدد هذا الموضوع قد

جاء مطلقاً وعاما كخطوط ومبادئ ؛ مما يمكن أن يكون قصد به ترك التفاصيل والجزئيات للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه في المسلمين ، يسيرون منه على حسب الظروف والإمكانيات في نطاق تلك الخطوط والمبادئ ، وهذا من معجزات الشريعة الإسلامية التي رشحتها للخلود .

والتشريع القرآني السياسي يتناول عدا الأمور المتصلة بالجهاد ، وصلات المسلمين بغير المسلمين في مختلف حالاتهم ـ مما ألممنا به في فصوله الخاصة ولا نرى العودة إليه هنا ـ الأمور الآتية :

١ ـ ماله صلة بتوطيد مركز أولي الأمر وما يجب لهم وعليهم .

٢ ـ ماله صلة بتوطيد العدل .

٣ ـ ماله صلة بالعقوبات والحدود .

٤ ـ ماله صلة بتأسيس بيت المال .

الصّورة الثانية

ففي الأمر الأول نزلت آيات عدة نورد منها ما يلي :

١ ــ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ... آل عمران ١٥٩

٢ ــ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ... النساء ٥٩

٣ ــ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلاً ... النساء ٨٣

٤ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . .

الأنفال ٢٤ ـ ٢٥

٥ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ...

الأنفال ٢٧

٦ — وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ...

الأنفال ٤٦

٧ — لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ...

التوبة ١٢٨

٨ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ . . .

الممتحنة ١٢

فهذه الآيات رمت كما هو المتبادر :

١ ـ إلى توطيد السلطان الإسلامي في شخص النبي صلى الله عليه وسلم أولا وإلى توطيد إطاعة أولي الأمر ثانيا .

٢ ـ إلى جعل القرآن والسنة النبوية هما الناموس العام الذي يجب أن يهتدي ويستلهم منه في حل المشاكل وتصريف الأمور وخاصة عند اختلاف الآراء .

٣ ـ إلى تلقين جعل المصلحة العامة وحياة المجتمع العامة ضابطاً عاما في تأييد المسلمين للسلطان والاستجابة إلى ما يدعو إليه وإطاعته فيه .

٤ – إلى إيجاب رد الأمور من قبل العامة إلى أولياء الأمور وأهل الحل والعقد القادرين على تمحيصها والأخذ بما هو الأصلح منها .

٥ – إلى تقرير صفات ولي الأمر في الإسلام من لين الجانب وخفض الجناح ، والرأفة بالمسلمين ، والاستغراق في مصلحتهم وخيرهم ، وعدم أمرهم بغير المعروف ، وعدم دعوتهم إلى ما فيه المعصية .

٦ – إلى إيجاب إشارة أهل الحل والعقد على ولي أمر المسلمين .

٧ – إلى إيجاب الإخلاص والأمانة والطاعة على المسلمين لأولياء أمورهم في حالة تحقق الصفات المذكورة فيهم .

٨ – إلى إيجاب التضامن والاتحاد فيما بينهم في ذلك أيضا .

ويمكن أن يلخص هذا بأن التشريع السياسي قد رمى إلى جعل المجتمع الإسلامي من الوجهة السياسية كياناً محكما يجب فيه على أولياء الأمور والرعية أن يتضامنوا ويتبادلوا الحقوق والواجبات والتشاور ؛ ويهدفوا جميعا إلى خير هذا الكيان ، دون أن يكون لأولياء الأمر حق إلا مقابل واجب وصفات ، ودون أن يكون للرعية حق إلا مقابل واجب وصفات أيضاً .

ومن إنعام النظر في نصوص الآيات والاطلاع على تفسيرها ومناسبات نزولها – وهو مما ألممنا به بعض الإلمام في الفصول السابقة التي استعرضنا فيها أكثر هذه الآيات – (١) يبدو أولا أنها قد نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعني أن التشريع السياسي القرآني إنما جرى على مراحل على اختلاف ظروف العهد المدني الذي نزلت فيه آياته ؛ وثانيا أن هذه الآيات قد نزلت في مناسبات وظروف معينة ، وهذا يعني أنها انطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدني ؛ فرمت إلى معالجة الموقف على الوجه الذي اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

الصورة الثالثة

وفي الأمر الثاني نزلت كذلك آيات عدة نورد منها ما يلي :

---

(١) جل هذه الآيات نقل وشرح في فصلي الجهاد والمنافقين .

١ — إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا. يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ... النساء ٥٨ ـ ٦١

٢ — إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا. وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا. يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ... النساء ١٠٥ ـ ١٠٨

٣ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ... النساء ١١٢

٤ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ...

النساء ١٣٥

٥ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ... المائدة ٨

٦ — سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ... المائدة ٤٢

٧ — وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ . وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... النور ٤٧ ـ ٥١

وفي سورتي البقرة والمائدة آيات في صدد الدين والعقود والشهادات والوصية، وقد استهدفت فيما استهدفته حياطة الحق والعدل والأمانة، مما يصح أن يسلك في سلك الآيات السابقة كما ترى فيها .

١ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً تُدِيرُونَهَا

بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ
كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ
بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَٰدَةَ
وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ... ٢٨٢ – ٢٨٣

٢ — يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ
الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي
الْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ
إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ اللَّهِ إِنَّآ
إِذًا لَّمِنَ الْأَثِمِينَ . فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا
مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا
وَمَا اعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ الظَّٰلِمِينَ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ
وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ . . . ١٠٦ – ١٠٨

وتوطيد فكرة العدل والحق بين الناس بصورة مطلقة وشاملة وعدم المحاباة والتساهل مع المبطلين ، وعدم الضعف في ذلك بسبب ظروف القربى أو البغضاء ـ بارزة المرمى في الآيات كما ترى مثل ذلك في فكرة إيجاب تضامن المسلمين في تحقيق هذه الغاية ، ومساعدة القضاء الإسلامي على القيام بها على الوجه الأوفى ، وبجملة واحدة : قد رمت إلى جعل العدل والحق والأمانة بين الحاكم والرعية ، ثم بين الرعية فيما بينهم ، مسألة تضامنية من جهة وفوق كل اعتبار من جهة أخرى .

والآيات كما هو واضح قد نزلت في مختلف أدوار التنزيل كما نزلت في مناسبات وظروف خاصة ، وانطوت على صور ومواقف ومشاهد من صور العهد المدني في مختلف

أدواره ، مما نبهنا على أكثره في فصول سابقة ؛ وقد رمت إلى معالجة الموقف الحاضر على الوجه الذي اقتضته الحكمة ، ثم كانت إلى ذلك تشريعا مستمر التلقين والمدى .

الصّورة الرابعة

وفي الأمر الثالث نزلت آيات عدة أيضاً نوردها فيما يلي :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ...

البقرة ١٧٨ ــ ١٧٩

٢ — وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّـٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ...

النساء ١٥ ــ ١٦

٣ — وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَـٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَـٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...

النساء ٢٥

٤ — وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . . .

النساء ٩٢

٥ — إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

المائدة ٣٣ ـ ٣٤

٦ — وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

المائدة ٣٨ ـ ٣٩

٧ — ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

النور ٢

٨ — وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . . .

النور ٤ ـ ٥

٩ — وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ . وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ . وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ . . .

النور ٦ ـ ٩

١٠ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ... النور ١٩

١١ — لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا . مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ... الأحزاب ٦٠ ـ ٦١

وقد حددت الآيات ـ كما هو واضح ـ عقوبات الجرائم الرئيسية كالقتل والزنا والسرقة وقذف الأعراض ، والإفساد في الأرض ، وإخلال الأمن ، وإثارة الاضطراب في المجتمع بإشاعات السوء والأذى والإرجاف مما له صلة بدماء الناس وأعراضهم وأموالهم وأمنهم وحرياتهم ؛ وهي أهم ما يهم المجتمع كما لا يخفى .

والآيات مما يمت إلى مختلف أدوار التنزيل ، وهذا يعني أن هذه التشريعات قد تمت على مراحل، حسبما اقتضته الظروف والأحوال ؛ ولذلك نزل جلها أو كلها في مناسبات ووقائع معينة ، وهذا يعني أنها انطوت على صور متنوعة من العهد المدني وطبقات المجتمع الإسلامي فيه أيضا ، مما هو متصل بالسيرة النبوية ومشاهدها .

وآية البقرة (١٧٨) نصت على القصاص في القتل ، وحددت قتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، وقد يفهم منها أن الحر لا يقتل بالعبد ولا الذكر بالأنثى ؛ غير أن هناك تعديلا ثابتا لذلك في السنة النبوية مستلهما على ما يتبادر من المبدأ العام الذي احتوته الآية (١٧٩) وهو القصاص مطلقا . ولقد ذكرت الروايات أن الآيات نزلت في

قبيلتين كان بينهما دماء قبل الإسلام ، وكانت إحداهما أقوى من الأخرى ، فأقسمت القوية على الاقتصاص من عدوتها قصاصا مضاعفا ومهيناً ، فلما أسلمت جاءتا إلى النبي صلى الله عليه وسلم للاحتكام ، فنزلت الآيات في حل المشكل القائم على الوجه الحكيم الذي جاءت به . وفي هذا وذاك صور واقعية للتشريع وتطوره . وآيات قتل الخطأ انطوت على صورة لما كان الأمر عليه في العهد النبوي المدني ، إذ كان هناك مسلمون من فريق أو قبائل غير مسلمة ، منها من كان عدوا محاربا ومنها من كان معاهداً ؛ فاحتوت أحكاماً لكل من الحالتين بالإضافة إلى حالة قتل مسلم لمسلم آخر أهله مسلمون ، فكانت علاجا للحالة القائمة وتشريعا مستمر المدى في الوقت نفسه .

وآيات النساء ١٣ ـ ١٦ لا تنص على حد للزنا ، وكل ما أوجبته على المرأة الحبس في البيوت ، وعلى الرجل أذى ، أي ضربا غير محدد ؛ ثم جاءت آيات النور ٢ ـ ١٠ فعينت حد الزنا ، وأضافت إلى جريمته جريمة القذف ، وعينت حداً للقاذف ، كما حلت مشكلة تهمة الزوج لزوجته إذا لم تكن مستندة إلى شهود ؛ وفي هذا من الصور التطورية ماهو ظاهر ، وقد اقتضته ظروف وتطور الحالة الاجتماعية في العهد المدني على ماهو المتبادر ؛ ومما لا يحتمل شكا أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع وحادثات ، إذ جاءت علاجا للحالة التي نزلت بمناسبتها ووفق ظروفها ، ثم صارت تشريعا مستمر المدى

وقد نصت آية النساء (٢٥) على أن عقوبة الزنا على الأمة المتزوجة هي نصف عقوبة الزنا على الحرة ، وهي خمسون جلدة . وهذا يمت فيما يتبادر لنا إلى ما كان في عصر النبي وبيئته من ارتكاس الإماء في البغاء وتعرضهن له أكثر من الحرائر ، مما تلهمه الآية نفسها على ما شرحناه في كتابنا « عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته » .

وآيات الأحزاب ٦٠ ـ ٦١ والنور ١٩ تتضمن صوراً لما كان من المنافقين ومرضى القلوب من مواقف مؤذية ومثيرة للقلق والاضطراب في المجتمع الإسلامي اقتضت الحكمة أن يشرع لها عقوبات زاجرة صارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى .

وآيات المائدة ٣٣ ـ ٣٤ أيضا تتضمن صورة لما كان من عيث بعض الناس في أمن

الأرض ومحاربة دعوة الله ورسوله ، فاقتضت الحكمة أن يشرع لمثل هذا عقوبات زاجرة تطبق على الذين يقبض عليهم قبل التوبة والارعواء ، وصارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمرى المدى ؛ وقد طبقت في العهد النبوي على بدو أظهروا إسلامهم ثم ارتدوا ونهبوا مواشي بيت المال وقتلوا رعاتها .

وآية حد السرقة جاءت بعد هذه الآيات بقليل ، مما يلهم أنها نزلت بسبب تساؤل عن حد السرقة العادية ، أو بسبب حادث سرقة عادية اقتضت الحكمة تشريعا خاصا لها يعالج به الموقف ويكون تشريعا مستمر المدى أيضا .

ولقد اكتفت الآيات المكية بتقبيح الزنا والنهي عنه ، وفعلت مثل ذلك بالنسبة للقتل والفساد في الأرض ، ولم تذكر السرقة ألبتة ، فجاءت الآيات المعينة لتشرع القصاص في القتل ، والحد في الزنا والسرقة والقذف ، ولتضع أحكاما في القتل الخطأ على حسب حالة القاتل والمقتول وصلاته بالكيان الإسلامي، وعقوبات زاجرة للمفسدين والمرجفين، والمثيرين لقلق المجتمع وأمنه ، والمتعرضين لأعراض الناس وأموالهم ، وفي هذا كله صورة تطورية للعهدين مستمدة من طبيعتهما . وهناك سنن نبوية عديدة أتمت التشريعات القرآنية .

الصورة الخامسة

ونريد أن نستطرد إلى الحد الإسلامي على شارب الخمر لنقول إن هذا الحد ليس قرآنيا وإنما هو سنة نبوية وراشدية على اختلاف في الروايات عن كيفية إقامة الحد ومداه، إذ روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بجلد الشارب أربعين جلدة مرة وثمانين مرة ، وبضربه بالنعال والأيدى مرة ، ونهى عن لعنه مرة ؛ وكل ما في القرآن هو نهي حاسم عن الخمر في أواخر العهد المدني . وبعد تدرج فيه انطوى على صور من العهدين المكي والمدني من جهة ، وعلى ما كان للخمر والسكر من شيوع ورسوخ فيهما ومنذ قبل البعثة من جهة أخرى ، فالوعد بمتعة خمر الجنة ومجالسها ورائحتها ولونها ومزاجها وطعمها ولذتها قد

تكرر ، وهذا يلهم ما قلناه من شيوعها ورسوخها في بيئة النبي التي خوطبت بالقرآن لأول مرة . ولقد احتوى وصف خمر الجنة نفيا لوجود ما تستكرهه النفس فى خمر الدنيا وما يسبب للشارب من الصداع[1] ، وهذا يمكن أن يكون نواة أولى لتقرير كراهة الخمر وإعلان تحريمها ؛ وفي أوائل العهد المدني سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر فأوحي إليه بالآية التالية :

« يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ... » البقرة ٢١٩

وليس في الجواب منع أو تحريم كما هو ظاهر ، ولكنه قوي في تقرير إثمه يصح أن يعد خطوة مهمة إلى النهاية المحتومة ، ثم كان أن صلى بعض المسلمين وهم سكارى فخلطوا في الركعات وفي قراءة القرآن ، وراجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ على ما روى ـ النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله أن ينزل حكما في الخمر ، فنزلت الآية التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ... » النساء ٤٣

ثم نزلت آيات المائدة التالية بعد مدة ما :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ... » ٩٠ ـ ٩٢

وقد احتوت نهيا حاسما وقويا عن الخمر ، ووصفتها بالرجس ، وسلكتها في سلك

---

(١) اقرأ آيات الصافات ٤٧ والواقعة ١٩ .

الشرك ؛ والآية الثانية تلهم أن الآيات نزلت بمناسبة وقوع شقاق ونزاع بين بعض المسلمين بسبب الخمر والميسر ، مماهو مألوف الحدوث في حالة السكر وتعاطي الخمر والميسر، وأن الحادث كان خطير الأثر والنتيجة استثار حنق الناس وأسفهم ، فكانت مناسبة ملائمة للخطوة النهائية إلى حظر الخمر لتعالج الحالة القائمة ولتكون تشريعا مستمر المدى أيضا . وذكر الأنصاب والأزلام في الآية الأولى قد يلهم أن هذه الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي إذ كانت الأنصاب قائمة والعادات الجاهلية الوثنيةفي اللهو والاستخارة جارية .

ولقد جاء بعد هذه الآيات آية تنطوي على ما هو المتبادر منها على صورة لأثر النهي الحاسم في بعض المسلمين وهي هذه :

« لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ... » ٩٣

فالظاهر أن الذين كانوا يتعاطون الخمر من المسلمين هلعوا من أسلوب الآيات وسلكها الخمر في سلك عبادة الأنصاب ووصفها بالرجس ، فنزلت الآية لتسكن من هلعهم بالنسبة لما كان منهم قبل نزولها إذا اتقوا بعدها غضب الله وعذابه ، وصدقوا بما نزل ، وأحسنوا الأعمال .

الصورة السادسة

أما الأمر الرابع فمن متناوله الزكاة أولا ؛ ومعلوم أن هذا الركن الإسلامي ليس مدني التشريع في أصله إذ كان هو والصلاة من مواضيع الدعوة الإسلامية منذ فجر العهد المدني، صراحة حينا وكناية حينا كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . . .

الذاريات ١٦ ــ ١٩

٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ... فاطر ٢٩

٣ — هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ... النمل ٢ ـ ٣

٤ — وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . . .

الإسراء ٢٦

٥ — قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ... المؤمنون ١ ـ ٤

٦ — وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ . . .

المعارج ٢٤ ـ ٢٥

٧ — وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ . . .

الروم ٣٩

ومما يلفت النظر خاصة تعابير « حقه » و « حق للسائل والمحروم » و « حق معلوم » في الآيات ، إذ يمكن أن تلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حدد مقادير معينة على أموال القادرين من المسلمين في العهد المكي زكاة عن أموالهم المتنوعة ؛ ومما يتبادر أنه بالإضافة إلى أن الزكاة ومقاصدها هدف أساسي من أهداف الدعوة الإسلامية ، فإن التبكير في الدعوة إليها ، والتنويه الذي احتواه القرآن بالمؤمنين الذين كانوا ينفقون أموالهم سراً وعلانية ، ويؤدون الزكاة ، ويعرفون أن في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم ـ يدل على أن ظروف الدعوة كانت تدعو إلى فرض شيء من المال على الغني المسلم للفقير المسلم في ذلك الحين الذي كان الفقراء فيه أكثر عدداً من جهة ، ومعرضين للأذى والمطاردة أكثر من غيرهم من جهة أخرى ؛ ولعل مشروع الدعوة الإسلامية نفسه كان

في حاجة إلى نفقات لا بد منها كان النبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاها من أغنياء المسلمين كزكاة واجبة الأداء عن أموالهم ؛ مما اقتضت الحكمة أن يبكر في فرض الزكاة والحث على أدائها والتنويه بمؤديها .

كذلك مما يلفت النظر ما في الآيات المكية من قوة التعبير التي تدل على أن إعطاء الغني زكاة ماله في الإسلام لم تكن الدعوة إليه حتى في أوائل العهد المكي على أنه صدقة تطوعية ، بل على أنه حق محتوم واجب الأداء للطبقات المحتاجة والمصلحة الإسلامية العامة ؛ هذا فضلا عما احتواه من حث على الإنفاق ومساعدة المحتاجين مما يمكن أن يكون قصد به التبرع التطوعى بالإضافة إلى الحق الواجب .

ومن السائغ أن يقال إن تشريع الزكاة في العهد المكي هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية إذ أن جل هذه التشريعات إنما كان في العهد المدني على ما أشرنا إلى ذلك قبل . والتعليل الذي يتبادر لهذا أن الزكاة إنما فرضت على المسلمين ليؤدوها بطيب أنفسهم وبدافع إيمانهم كالصلاة ؛ فلم تكن قلة المسلمين وضعفهم في العهد المكي مانعين لهذا التشريع منذ البدء ؛ فضلا عن مساس الحاجة إلى ذلك منذ ذلك الوقت .

ومع هذا كله فلعل من الحق أن يقال إن الأمر بالزكاة والإنفاق وإيتاء حق ذوي الحق في أموال الأغنياء ظل في العهد المكي دعوة وتشويقا وترغيباً وترهيباً كما يدل على ذلك أسلوب الآيات التي نقلنا أمثلة عنها ، في حين أن الآيات المدنية قد جاءت أو جاء كثير منها بأسلوب الأمر والإيجاب كما ترى في الأمثلة التالية :

١ — وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ... البقرة ١١٠

٢ — وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . . الأحزاب ٣٣

٣ — ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .

المجادلة ١٣

٤ — وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . . .

المزمل (١) ٢٠

٥ — وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ...

البينة ٥

وفي حين أنها دخلت في العهد المدني في طور رسمي ، وأصبحت في جملة ما يدخل جبايته في صلاحية السلطان الإسلامي الذي كان يتمثل في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وجعلت من حق بيت المال الرسمي ، وموردا من موارده ، وأوجب عليه صرفها في مصارف معينة ، وعبر عن الزكاة ومصارفها بتعبير « فريضة من الله » كما يستفاد من الآية التالية :

« إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ...» (٢)

التوبة ٦٠

وتعبير « الصدقات » في الآية هو كناية عن الزكاة كما هو المجمع عليه ؛ ويلفت النظر خاصة إلى جملة « والعاملين عليها » إذ تعني الموظفين الرسميين الذين كان يعينهم النبي صلى الله عليه وسلم لجباية الزكاة ، مما يدل دلالة حاسمة على رسمية هذا المورد المالي .

(١) هذه الآية مدنية وكان موضعها في السور المكية المناسبة .

(٢) الرقاب كناية عن تحرير الرقاب ، والغارمون هم الذين يحملون الغرامات ، أي الدية ولا يطيقون أداءها وحدهم ، والمدينون : المعسرون .

وآية التوبة هذه قد تكون متأخرة في النزول ، غير أن أسلوبها من جهة وسياق ورودها التنديدي بالمنافقين الذين كانوا يطمعون بحصة من الزكاة على غير استحقاق من جهة أخرى [(١)] يدلان على أن الأمر كان جارياً قبل نزولها على ما ذكرته بتشريع نبوي جاءت مؤيدة له .

والصورة التطورية في أمر الزكاة ورسمية جبايتها وصرفها واضحة بالنسبة للعهدين ؛ ولا ريب في أنهـا مستمدة من طبيعة العهـدين نفسيهما . وليس في القرآن تعيين لمقادير الزكاة ، وقد تكفلت بذلك السنة النبوية ، شأن كثير من الحدود والقواعد على ما نبهنا إليه في المناسبات السابقة .

وهناك نقطـة جـديرة بالبحث في صـدد صلة الزكاة ببيت المال ؛ إذ جرى التعامل على أن تكون زكاة الزروع والأشجار والمواشي فقطهي التي يجبيها بيت المال الرسمي، وإذ تواترت الروايات بأن النبي صلى الله عليـه وسلم إنمـا كان يرسل عمال الصـدقـة ليأخـذوا حصـة بيت المـال من هـذه الأعيـان ويوزعوها على الفقراء بتفويض منـه أو يرسلوها إلى خازن المـال ؛ ونقول: إن الآية لا تحتوي تخصيصا ، كما أن شمول الزكاة للأموال جميعهـا لا يحتمل شكا ؛ ولقـد ذكرت روايات معتبرة [(٢)] أن النبي صلى الله عليـه وسلم قبض أكثر من مرة زكاة مال عمه العباس الذي كان تاجراً ولم يكن ماله زرعاً وماشية ، كما أن الخليفتين عمر وعثمان رضي الله عنهما كانا يحاسبان أصحاب المرتبات من المسلمين على زكاة أموالهم حين تأدية هذه المرتبات السنوية ، ويحجزان المستحق عليهم لبيت المـال منها ؛ هذا إلى ما هناك من أقوال منسوبة إلى كبار الصحابة بوجوب تأدية زكاة جميع أنواع الأموال إلى بيت المال، الأمر الذي نرجح أنه كان جاريا بصورة عامة ؛ ويستفاد من الروايات المعتبرة أنه كان لما قام من فتن سياسية أدت إلى نشوء الدولة

---

(١) أو آيات التوبة ٥٨ ـ ٥٩

(٢) في كتاب الأموال للامام القاسم بن سلام وهو من أقدم الكتب وأهمها ، أقوال وأحاديث وروايات عدة في هذا الموضوع .

الأموية أثر في إهمال استيفاء بيت المال زكاة النقد والعروض الأخرى ، أوفي حمل بعض المسلمين على عدم تأديتها إليه ، ثم سرى هذا إلى الجمهور ، وتساهلت الدولة في الأمر ؛ لتفادي الفتنة من جهة ؛ ولأن النقد والعروض الأخرى ليس مما يمكن الاطلاع عليه وأمرهما موكول إلى أصحابهما من جهة أخرى .

الصّورة السّابعة

ومن متناول الأمر الرابع غنائم الحرب ثانيا . وهذه الغنائم نوعان : نوع يشترك في اغتنامه المسلمون في حرب فعلية ، وآخر لا تقع في سبيله حرب فعلية ؛ والنوع الثاني يسمى « فيئاً » إذ تتضمن الكلمة معنى الهبة . وقد عبر عنها بجملة (ما أفاء الله) .

وقد قررت آية الأنفال (٤١) الخمس من النوع الأول كنصيب لبيت المال الرسمي كما ترى :

« وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ... »

ونصت الآية على مستحق هذا الخمس ، وتواترت الروايات حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الخمس ، ويتولى إنفاقه في مصارفه ، ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال الرسمي .

وقررت آية الحشر (٧) جميع النوع الثاني كنصيب لبيت المال كما ترى :

« مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ... »

ومستحقو الفيء هم مستحقوا خمس الغنائم أنفسهم ؛ وقد تواترت الروايات كذلك

حتى صار يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبض الفيء ويتولى إنفاقه على مصارفه ؛ ومن أجل هذا قلنا إنه نصيب بيت المال أيضا .

وبين مستحقي الزكاة ومستحقي الفيء والغنائم بعض الفرق ، إذ دخل في عداد الأولين المؤلفة قلوبهم ، والعاملون عليها وتحرير الرقاب ، والغارمون ؛ وفي هذا الفرق صور واقعية للعهد المدني على ما يتبادر لنا ، إذ يمكن أن يلهم أنه كان من المسلمين فئة تمس الحاجة إلى تأليف قلوبها بالمال ، وفئة أخرى تمس الحاجة إلى مساعدتها على حمل مغارمها الناشئة عن طبيعة المجتمع ؛ كما كان هناك أرقاء مسلمون يجب شراؤهم وتحريرهم ، فاقتضت الحكمة النص على مساعدتهم ؛ ويلفت النظر خاصة إلى النص على مساعدتهم من مال الزكاة الذي هو دائم المورد دون الغنائم الحربية ، وفي هذا ما يلهم خطورة مساعدة هذه الفئات في العهد النبوي ، وما علمه الله من خطورة مساعدتها دائما أيضا ، إذ أن في الآية معالجة للموقف الحاضر ، وتشريعا مستمر المدى بطبيعة الحال .

أما الفقراء والمحتاجون فقد نص على مساعدتهم من النوعين مما يبدو حكيما وطبيعيا ، لأنهم جزء من كل مجتمع في كل وقت ، ولا بد من مساعدتهم ومن تولي السلطان الإسلامي أمر هذه المساعدة حتى لا يكونوا تحت رحمة الصدقات التطوعية والمتصدقين وأذاهم . ومما لا ريب فيه أن هذا كان هو الواقع ؛ وقد أشارت آيات البقرة (٢٦٢ ـ ٢٦٤) التي نقلناها في فصل الجهاد إلى ذلك .

أما (ذي القربى) الذي ذكر في آيات الغنائم والفيء فهناك أقوال وروايات متعددة ومختلفة فيه . حيث يذكر بعضها أنه يعني أقارب النبي صلى الله عليه وسلم وحيث يذكر بعضها أنه يعني صاحب الخدمة والنفع للإسلام وأهله[1] . ولقد نزلت هذه الآيات وأكثر أقارب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في صف المشركين . وخرجوا معهم إلى حرب النبي والمسلمين في يوم بدر . ومن جملتهم العباس عم النبي وعقيل بن أبي طالب ونوفل

---

(١) انظر تفسير الطبري والبغوي للآيات ، والرأي الثاني مما اختاره وصوبه الطبري .

ابن الحارث بن عبد المطلب، وولدان لشقيق للعباس لم يذكر الرواة اسميهما . وكان العباس وعقيل ونوفل من جملة الأسرى . فطرف نزول الآيات يجعل المعنى الأول غير وارد ويجعل المعنى الثاني هو الوارد الأوجه . وفي آية في سورة التوبة قرينة على ذلك حيث جاء فيها :

« وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَايُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ... »

وهناك روايات معتبرة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يختص أقاربه بنصيب خاص من الغنائم والفيء وكان ينفق مايدخل إلى بيت المال من ذلك على المحتاجين ومصالح المسلمين وسبيل الله . وأن هذا ما كان يفعله الخلفاء الراشدون بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم . وكان أقارب رسول الله في زمنهم ينالون من بيت المال مخصصات أسوة بسائر المسلمين . والمعنى الأول وجه ونفذ في ظرف خاص في زمن الدولة العباسية فقط .

هذا ؛ ولقد نبهنا في فصل الجهاد على أن آيات الخمس والفيء قد نزلت بالأمر الحاسم الذي تضمنته في صدد نصيب بيت المال بمناسبة ما بدا من بعض المسلمين من اعتراض على ذلك أو تذمر منه ؛ وفي هذا صورة واقعية حدثت في سياق توطيد بيت المال الرسمي كما هو واضح تتمثل في عدم رضاء بعض المسلمين عن احتجاز قسم من مال أو تخصيص مال ظنوه من حقهم ليقبضه النبي صلى الله عليه وسلم ويتولى إنفاقه ، ومما لا ريب فيه أن هذا الموقف إنما كان من طبقة المسلمين الثانية ، كما أنه مما يمت إلى طبيعة البشر بوجه عام .

وفي سورة المجادلة آيتان فيهما صورة مماثلة لذلك وهما هاتان :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ءَأَشْفَقْتُمْ

أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ . . »

١٢ ـ ١٣

حيث يستفاد من الآيتين أن حكمة الله اقتضت فرض رسم على الميسورين من المسلمين الذين يرغبون في الاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم اجتماعاً شخصياً وخاصاً لاستفتائه في بعض الشئون الخاصة فكبر ذلك على بعضهم واعترضوا عليه قائلين إنما يدفعونه من الزكاة كاف فاقتضت حكمة الله رفعه .

والمتبادر أن ذلك يمت إلى قصد تنمية موارد بيت المال حتى يمكن أن يسد الحاجة. وأن العدول عن الرسم متصل بطبيعة الحياة والمجتمع . وهو ظاهر الحكمة . والمتبادر كذلك أن الآية الأولى نزلت لحدتها ثم نزلت الثانية بعد مدة ما فوضعت بعدها للتناسب الموضوعي والتشريعي . وفي هذا صورة من التنزيل والتأليف القرآني ومن الناسخ والمنسوخ من الأحكام القرآنية وأسباب ذلك .

وواضح من الآيات الواردة في ما لهصلة ببيت المال أن توطيد ذلك قد تم على مراحل واقتضى أن يكون الأسلوب القرآني في توطيده شديداً حازما إلى حد ما لما في ذلك من أثر عظيم في تدعيم بنيان الدولة التي أخذت تنشأ في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكفالة مصالح المسلمين العامة التي أخذت تتسع وتزداد تشعباً .

المبحث الثالث

في التشريع الاجتماعى

متناول هذا التشريع ـ الفرق الأسلوبي بين الآيات المكية والمدنية فيه ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وملهمات الآيات فيه ـ توطيد الأخوة الإسلامية والكيان الإسلامي بالنسبة للخارج وملهمات الآيات فيه ـ توطيد الأمن والصلح في داخل الكيان الإسلامي وملهمات الآيات فيه ـ وقاية المجتمع الإسلامي من أسباب الفتنة والأحقاد وملهمات الآيات فيها ـ بحث في الرق والتشريع فيه ـ الآيات القرآنية في صدد ذلك وملهماتها .

الصورة الأولى

نقصد بهذا التشريع ما له علاقة بما يجب على المسلمين في كل ما يتصل بالمصالح العامة المشتركة بين الجماعات الإسلامية من تضامن وتعاون على البر والخير ، ودفع الشر والضرر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبناء مجتمع إسلامي يقوم على تولى المسلمين بعضهم بعضا ، لا خصام بين أفراده وهيئاته مهما اختلفوا أجناسا وأرومات ، ولا نزاع ولا انتقاص ، ولا تمايز ولا تنابز ولا سخرية ، تربط بعضهم ببعض رابطة الأخوة الإسلامية الشاملة التي تحل محل العصبية العائلية والقبلية والعنصرية الضيقة .

ومن الحق أن نقول إنه يوجد في القرآن المكي آيات كثيرة احتوت مبادئ وسننا اجتماعية جليلة جاء أكثرها في مساق الأمثال والتذكير ، والحملة على البغي والظلم والفساد والزعماء الماكرين وتبعاتهم الاجتماعية وتقرير ما أحله الله وما حرمه من أعمال الناس الاجتماعية ، والحض على التضامن في الدعوة إلى الرحمة والصبر والحق كما ترى في الآيات التالية :

١ — ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ . . .
الأنعام ١٣١

٢ — وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا
وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ... الأنعام ١٢٣

٣ — وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ... الأنعام ١٥٣

٤ — قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ ... الأعراف ٣٣

٥ — فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .
وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ... هود ١١٢ ـ ١١٣

٦ — فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ
فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ
وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ . . .

هود ١١٦ ـ ١١٧

٧ — إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... الرعد ١١

٨ — أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ... الرعد ١٧

٩ — إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ...

النحل ٩٠ ـ ٩٢

١٠ — وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ..

النحل ١١٢

١١ — وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيراً ...   الإسراء ١٦

١٢ — ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ...   الروم ٤١

١٣ — ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ...

البلد ١٧

١٤ — وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ . . .   العصر

غير أن الآيات المدنية قد اتجهت للقصد مباشرة في صدد الكيان الإسلامي الاجتماعي ، وواجبات الجماعة الإسلامية ، وتوثيق الأخوة بين المسلمين ؛ وهي أكثر وضوحا وأشد لصوقا بالموضوع ، وأحمل لطابع التشريع الاجتماعي من الآيات المكية .

الصورة الثانية

ونستعرض فيما يلي الآيات المدنية مصنفة على حسب مرماها الاجتماعي .

فأولا ما يتصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضامن في البر والخير والتقوى :

١ — وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ... آل عمران ١٠٤

٢ — كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . . آل عمران ١١٠

٣ — لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ...

النساء ١١٤

٤ — وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ... المائدة ٢

٥ — وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . . .

التوبة ٧١

٦ — ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . .

التوبة ١١٢

٧ — ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ... الحج ٤١

٨ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . . .

المجادلة ٩

وأسلوب آية آل عمران ١٠٤ قوي حاسم في إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير على الجماعات الإسلامية ، وفي إيجاب أخذ طائفة منهم ذلك على عاتقها بصورة دائمة بحيث يصح أن يعتبر تشريعاً ؛ ويدعم هذا ما قاله بعض العلماء من أن هذه الآية قد فرضت على المسلمين واجبا إذا لم تقم به طائفة منهم أثموا جميعهم ؛ ومثل هذا يصح أن يقال في آية المائدة (٢) في أمرها ونهيها . على أن الآيات الأخرى قوية التلقين أيضا في إيجاب هذا على المسلمين لما فيه من تمكين لهم في الأرض ، وفي تعليل اصطفاء الله لهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

والآيات من سور نزلت في مختلف أدوار التنزيل المدني ؛ وهذا يعني أن هذا الواجب العظيم قد وطد بالتكرار لخطورة شأنه ؛ ولقد نزلت كل آية أو مجموعة منها في مناسبة كما يلهم سياقها ومضمونها وأسلوب الخطاب فيها ؛ ويدل هذا على أنها قد انطوت على صور واقعية كانت وسيلة لتوطيد هذا الواجب ، مما نبهنا إلى أكثره في الفصول السابقة التي أوردنا فيها كثيرا منها ؛ بحيث عولجت بها الحالات التي اقتضت الحكمة نزول الآيات بمناسباتها ، ثم كانت تشريعا وتلقيناً وإيجاباً مستمر المدى ؛ وصلة هذا بالسيرة النبوية وأحداثها واضحة ، ويمت إلى التشريع القرآني وتطوره وظروفه على ما نبهنا إليه في تمهيد الفصل .

الصورة الثالثة

وثانيا : — ما يتصل بالحث على الأخوة الإسلامية وتبادل الولاء بين المسلمين دون غيرهم :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . . .

آل عمران ١١٨

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا . . . النساء ١٤٤

٣ — إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ . وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ...

المائدة ٥٥ ـ ٥٧

٤ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . . .

الأنفال ٧٢

٥ — وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . . . الأنفال ٧٣

٦ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ...

التوبة ٢٣

٧ — وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . . .

التوبة ٧١

٨ — لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . . . المجادلة ٢٢

٩ — يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . . . الممتحنة ١

١٠ — لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . . .

الممتحنة ٨ ـ ٩

والآيات قوية حاسمة في الصدد الذي نزلت فيه ، وهو توثيق الأخوة والولاء بين المسلمين ، وبناء المجتمع الإسلامي على هذا الأساس بدلا من أساس العصبية الضيقة الذي كان يقوم عليه المجتمع العربي ، وعدم الإخلال بالتضامن الإسلامي بتولى أعداء الإسلام والمسلمين بأي شكل .

والآيات من سور عدة نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وبمناسبة أحداث واقعية ؛ وهذا يعني أن هذا الأمر الخطير قد توطد أو استهدف توطيده بالتكرار ، وفي كل

مناسبة سانحة ، كما يعني أن الآيات انطوت على صور ومشاهد من صور ومشاهد السيرة في العهد المدني مما نبهنا إليه وشرحناه في الفصول السابقة ، وخاصة فصول اليهود والمنافقين والجهاد التي أوردنا فيها جل الآيات إن لم يكن كلها . وقوة الآيات وحسمها وتكرارها مع وحدة الموضوع والهدف ، أدلة على ما كان من رسوخ للعصبية الضيقة في المجتمع العربي أولا ، وعلى ما كان من تغلغل اليهود – لأن كثيراً من الآيات في في شأنهم – في حياة هذا المجتمع ثانيا، وعلى ما كان يعتلج في نفوس المسلمين من أزمات إزاء ذوي أرحامهم وبني قومهم من الكفار الذين انقلبت الصلات بينهم من عصبية الولاء القوية الراسخة إلى العداء والقطيعة ثالثا ؛ وفي هذا بوجه عام صورة للعهد النبوي كما هو واضح ؛ وقد جاءت الآيات لتعالج الموقف وتحسمه بهذا الأسلوب الشديد ، دفعا للخطر عن الكيان الإسلامي الناشئ ، وتوطيداً للأخوة الجديدة التي تقوم على أساس جديد ؛ ولتكون في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمري المدى أيضا .

الصورة الرابعة

وثالثا ما يتصل بالحث على الاتحاد والصلح بين المسلمين وعدم التنازع والتفرقة :

١ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا . . .

آل عمران ١٠٢ – ١٣٠

٢ — وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . . آل عمران ١٠٥

٣ — وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ . . . الأنفال ٤٦

٤ — وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . . .

الحجرات ٩ ـ ١٠

والآيات ـ وإن كانت مما يمت إلى هدف آيات الموضوع السابق شيئا ما ـ بينها شيء من الفرق من حيث استهدفت هذه توثيق الإخاء والتضامن والوحدة بين المسلمين من الداخل ، في حين استهدفت تلك تكوين جبهة إسلامية تجاه الخارج .

وهذه الآيات كتلك نزلت في مختلف أدوار التنزيل ، وفي مناسبات معينة انطوت فيها صور ومشاهد للعهد النبوي ، وقد ألممنا بها في الفصول السابقة التي أوردنا فيها هذه الآيات ؛ وقد جاءت لتعالج الموقف بأسلوبها القوي الحكيم ، ولتوطد بنيان الكيان الإسلامي الجديد وتوثق الإخاء والوحدة بين أفراده ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمرى المدى أيضا .

ورابعاً ما يتصل بتنقية المجتمع الإسلامى من عوامل الأحقاد والضغائن وأسباب الفتنة .

١ — وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . . . النساء ١١٢

٢ — وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ . . . الأنفال ٢٥

٣ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . . .

النور ١٩

٤ ـ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ...

الأحزاب ٥٨

٥ ـ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ...

الأحزاب ٦٠ ـ ٦١

٦ ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ . فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . .

الحجرات ٦ ـ ٨

٧ ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ...

الحجرات ١١ ـ ١٣

والآيات مما نزل في مختلف أدوار التنزيل ، ومضامينها وسياقها يلهمان أنها نزلت في مناسبات معينة ، لمعالجة مشاكل وأحداث متصلة بمشاهد السيرة وأحوال المجتمع الإسلامي فيها .

فآية النساء نزلت في مناسبة حادث سرقة الدرع واتهام السارق غيره بالسرقة وتآمر أهل السارق لتبرئة قريبهم وتضليل النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وآية الأنفال نزلت في ظروف وقعة بدر وما كان فيها من نزاع كاد يؤدى إلى فتنة ، وآية النور نزلت في مناسبة حديث الإفك ، وآيات الأحزاب نزلت بسبب مواقف المنافقين الخبيثة على ما شرحناه في أمكنة سابقة ، وروح آيات الحجرات ٦ ـ ٨ تلهم أنها نزلت في مناسبة هياج أحدثته بعض الأنباء الكاذبة ، وأن من المسلمين من كان يهيج لأقل شيء ويطلب من النبي صلى الله عليه وسلم تصرفا غير حكيم ؛ وآيات الحجرات ١١ ـ ١٣ أيضا نزلت على ما شرحناه في مكان سابق بسبب تصرفات بعض المسلمين إزاء بعضهم بما فيه إثارة غيظهم وأذى نفوسهم . وهكذا تكون الآيات قد نزلت لمعالجة هذه المشاكل والأحداث بما فيه توطيد حسن الألفة والانسجام بين المسلمين ، والقضاء على عوامل الفتنة والحقد والضغينة بينهم ولتكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى في الوقت ذاته .

الصُّورة الخامسة

والرق من مظاهر المجتمع ، وهذا يجعل المناسبة تتحمل البحث في التشريع القرآني في صدده .

ونبادر إلى القول بأنه لم يرد في الآيات المكية شيء يحتمل معنى التشريع في هذا الصدد ، وكل ما ورد فيها هو إشارات إلى الرق باعتباره نظاما قائما ومألوفا أولا ، ودعوة إلى عتق الأرقاء واعتبار ذلك من أحسن القربات إلى الله ثانيا ؛ كما ترى في الآيات التالية :

١ — ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ... النحل ٧٥

٢ — ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ . . .

الروم ٢٨

٣ — وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ... المعارج ٢٩ — ٣٠

٤ — فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ... البلد ١١ — ١٤

أما الآيات المدنية فقد ورد فيها تشريعات عديدة في صدده من معاملة وعتق وتحرير. والقرآن لا يذكر بصراحة جواز استرقاق الأسرى ، والأسرى هم مادة الرقيق في الدرجة الأولى في العصور القديمة عند العرب وغيرهم . وكل ما جاء فيهم هذه الآيات في سورة الأنفال :

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ٦٧ — ٦٩

وقد نبهت على ما ينبغي على النبي أن يسير عليه من سياسة مع العدو فلا يحرص على أخذ أسرى منه بدلا من القتل حتى يقوى وتكون هيبته موطدة في الأرض . ثم هذه الآية في سورة محمد :

« فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ

فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ...» ٤

وقد نبهت هي الأخرى على ما ينبغي على المسلمين أن يفعلوه مع العدو عند لقائه حيث يجب عليهم أن يوغلوا فيه قتلاً حتى يستنفدوا قوته ويخضدوا شوكته ثم يأسروا من بقي حيًّا منه . ويكون لهم الخيار بعد أن تنتهي أسباب الحرب في إطلاق سراح الأسرى بفداء أو بمن من دون فداء .

وسورة الأنفال نزلت قبل سورة محمد . وليس بين آيات السورتين مع ذلك تعارض بل بينها توافق حيث نبهت الأولى على عدم أخذ الأسرى ما دام المسلمون لم يثخنوا في الأرض أي لم يوطدوا هيبتهم وقوتهم . وأمرت الثانية بأخذ أسرى بعد الإثخان . على أن آية سورة محمد قررت كما يبدو القاعدة الدائمة وهي إباحة أخذ الأسرى بعد الإثخان . وفي هذا مغزى عظيم في صدد هدف الجهاد الإسلامي وهو عدم الإبادة وقصد إرهاب العدو وإرغامه وتوطيد هيبة الإسلام وكلمته وسلطانه وحسب بحيث إذا أمكن ذلك بدون إبادة العدو صار من الواجب وقف القتل وعدم الإبادة .

ويبدو من خلال ذلك صورة تطورية لحالة المسلمين وقوتهم حيث صاروا أقوى وأشد هيبة وسلطاناً في ظروف نزول سورة محمد الذي يخمن أنه في أواخر النصف الأول من العهد المدني استلهاماً من ترتيب نزولها فاقتضت الحكمة تقرير تلك القاعدة الدائمة .

والقاعدة تذكر طريقة التصرف بالأسرى على وجهين :

وهما (١) إطلاق سراحهم بعد أن تنتهي الحرب وأسبابها بدون فداء وهو الذي عبر عنه بالمنّ و (٢) إطلاق سراحهم بالفداء . وقد تركت الخيار كما هو المتبادر للسلطان الإسلامي يستلهم فيه مصلحة الإسلام والمسلمين وظروفهم .

وليس في القاعدة مبدأ استرقاق الأسرى على كل حال . وإن كان هذا ظل مسكوتاً

عنه . ولقد تواترت الروايات المعتبرة بأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعــده كانوا يسترقون أسرى الـكفار حيث يبدو أن ذلك تشريع نبوي لحالة ثالثة وهي حالة عدم رؤية السلطان الإسلامي مصلحة في إطلاق سراح الأسرى بدون من وعدم دفع الأسرى فدية عن أنفسهم .

ومع التسليم بوجوب الأخذ بالتشريع النبوي الثابت فيما سكت عنه القرآن أو لم يوضحه بصراحة وقطعية فإن آية سورة محمد تظل تحتوي مبدأ إطلاق الأسرى وتظل توجب إطلاقهم على كل حال إذا دفعوا فدية . وفي هذا نواة إلغاء استرقاق أسرى الحرب كما هو المتبادر .

ولقد قال المفسرون إن جملة (حتى تضع الحرب أوزارها) تعني حتى يعتنق العدو الإسلام وتزول أسباب قتاله وأسره . وهـذا القول يتحمل التوقف استلهاماً من صيغـة الآية من جهة ولأن الحرب من جهة أخرى بين المسلمين والـكفار قد تنتهي بصلح وميثاق. والعدو إذا أسلم لم يعـد محلا للاسترقاق إلا في حالة واحدة وهي حالة أسره قبل إسلامه وعدم إطلاقه بدون فداء وعدم أدائه فدية . وتقرير السلطان استرقاقه قبل إسلامه والتصرف فيه بيعاً وهبة وتوزيعاً وإسلامه بعد ذلك . وعلى كل حال فليس هناك إلزام قرآني ولا نبوي باسترقاق الأسرى كما هو واضح .

وآية سورة محمد تلهم أن الأسر إنما يتم ويوقع على العدو المحارب . هذا في حين أن الروايات المعتبرة تذكر أن النبي صلى الله عليـه وسلم والخلفاء الراشدين من بعـده كانوا يأسرون نساء العدو وأطفاله ويسترقونهم وهو ما كان يسمى سبياً . وهذه الحالة مما سكت عنها القرآن فصارت تشريعاً نبوياً وسار عليها المسلمون بعد النبي .

وفي كل ما تقدم صور من صور الجهاد والسياسة الإسلامية فيه في العهد المـدني من السيرة النبوية .

والمناسبة تتحمل توضيحاً هاماً . فغير المسلم الذي يصح قتاله وأسره وسبي نسائه وأولاده واسترقاقهم هو العدو المحارب للمسلمين . ولما كان ليس كل غـير مسلم عدواً

محارباً . ولما كان القرآن أوجب على المسلمين مسالمة المسالمين الحياديين الموادين من غير المسلمين والبر بهم مما يتضمن إقراراً بوجود طوائف منهم بهذه الصفة على مامر شرحه في فصل الجهاد فإن ماجرى عليه في العصور المتأخرة من جلب وخطف وشراء رجال ونساء وأطفال غير مسلمين من السود وغير السود وبيعهم واعتبارهم أرقاء واستفراش النساء منهم على هذا الاعتبار في حين يكون غير أعداء محاربين للإسلام والمسلمين ليس من النظام الإسلامي الشرعي ؛ لأن الرقيق في هذا النظام هو من كان رقيقاً قبل الإسلام ومن تولد منهم في حالة استمرار رقهم ومن استرق في الإسلام استرقاقاً شرعياً من أعداء المسلمين المحاربين على الوجه الذي مر شرحه ومن تولد منهم في حالة استمرار رقهم .

وإليك الآن الآيات المدنية التي احتوت تشريعات متنوعة في معاملة الرقيق وعتقه وتحريره :

٢ — وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ ... البقرة ١٧٧

٢ — وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا . . .

النساء ٣٦

٣ — وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... النساء ٩٢

٤ — لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ

ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ... المائدة ٨٩

٥ — إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ ... التوبة ٦٠

٦ — وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... النور ٣٢ ـ ٣٣

٧ — وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ... المجادلة ٣

والآيات استهدفت كما هو واضح منها تلقين إحسان معاملة الرقيق والارتفاع بالنظر إليه والاهتمام بتحريره والتشجيع عليه بمختلف الوسائل . وفي مقدمة ذلك تخصيص جزء من الزكاة لهذا الأمر مما هو ذو مغزى عظيم من حيث أن الدولة هي التي تتولى جباية الزكاة وتشرف على إنفاقها . ولقد كان من العادة أن يتقدم بعض الأرقاء لمالكيهم فيشتروا أنفسهم منهم بمال يدفعونه على أقساط مما كان يسمى (المكاتبة) فشجعت آية النور هذه الطريقة وحضت المسلمين على مساعدة المكاتبين على دفع هذه الأقساط وتحررهم .

والمتبادر أن الآيات نزلت في مناسبات . وإنها انطوت على صور مما كان جارياً في العهد النبوي ، من مثل كثرة الأرقاء المسلمين ، ومن عدم معاملتهم معاملة حسنة ، وحرمانهم حقوقهم ومتعهم الطبيعية ؛ فنزلت الآيات لمعالجة الموقف الذي اقتضاه نزولها ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً وتلقيناً مستمري المدى أيضاً .

المبحث الرابع

في التشريع الاقتصادي

يتناول هذا المبحث ـ أسلوب ومدى الآيات المكية والمدنية في موضوعه ـ الوصية وملهمات الآيات الواردة فيها ـ الإرث وملهمات آياته ـ عناية القرآن باليتامى وأموالهم ومدى الآيات الواردة في ذلك ـ تشريع سن الرشد وما تلهمه الآية الواردة فيه ـ التشريع بشأن تصرف السفهاء ـ النهي عن الربا وما في الآيات الواردة في ذلك من ملهمات ـ تنظيم العقود والديون وصيانة الحقوق وما في الآيات الواردة في ذلك من ملهمات .

الصورة الأولى

يتناول الكلام في هذا المبحث مسائل الوصايا والإرث والبيع والشراء والربا والديون والعقود والرهن والشهادات والشهود ... أما ماله صلة بموارد الدولة والزكاة ومصارفها وتوطيد التعامل الاقتصادي الحقوقي بين الناس فقد تكلمنا عنه في التشريع السياسي فلا نعود إليه هنا بطبيعة الحال .

وننبه إلى أن القرآن المكي احتوى آيات عدة فيها مبادئ متصلة بهذه الأمور من قريب أو بعيد جاءت بأسلوبه الخاص من الوعظ والحض والتنويه والتنديد كما تراه في الآيات التالية :

١ ـ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ... الإسراء ٢٦

٢ ـ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ... الإسراء ٢٩

٣ ـ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . . . الإسراء ٣٥

٣ ــ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ...

الأنعام ١٥٢

هذا في حين أن القرآن المدني احتوى آيات أكثر عدداً وتنوعاً وسعة من جهة ، وطابع التشريع عليها أشد بروزاً من جهة أخرى ، مما هو متصل كذلك بطبيعة العهدين .

وسنستعرض الآيات ونشرح مداها على حسب المواضيع كما فعلنا في المباحث السابقة :

الصورة الثانية

فأولا : الوصية .

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ . فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... » ١٨٠ ــ ١٨٢

والآيات مما نزل مبكرا كما يستلهم من مضمونها ؛ إذ تأمر بالوصية للوالدين مع أن آيات المواريث خصصت لهم أنصبة في ميراث أبنائهم . ويستلهم من الآيات أن الأنصبة في الميراث للوالدين والأقربين لم تكن صريحة ومحددة ؛ ولما كانت آيات المواريث قد احتوت كما قلنا تحديدا للأنصبة فقد ساغ أن يقال والحالة هذه إن هذه الآيات جاءت كخطوة أولى في سبيل تقرير أمر التركات ؛ كذلك يمكن أن يستلهم من الآيات أن الوصية كانت من الأمور المألوفة ، ولكنها كانت عرضة للتحريف والتبديل ، وكانت

تنطوي أحياناً على قصد الإضرار والحيف بأناس دون آخرين ، إذ أنذرت المحرفين ، وحضت على إصلاح البين حتى لا يكون العداء أو الجفاء سبباً من أسباب الحيف والإجحاف في الوصية .

(٢) وجاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ . فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ... ١٠٦ ـ ١٠٨

وقد روي أن الآيات نزلت بمناسبة تلاعب بعض الناس بتركة مسلم مات غريباً . على أنها احتوت كما هو واضح من نصها توكيدا بإيجاب الوصية والإشهاد عليها . وجاءت بأسلوب عام ليكون فيها تلقين وتشريع وتنظيم مستمر المدى .

وقد روي في صدد بيان جملة (تحبسونهما من بعد الصلاة) أن النبي « ﷺ » كان يعقد مجالسه العامة بعد صلاة العصر لأنه الوقت الأنسب من حيث الفراغ وحالة الجو فأمرته الآية بحجز الشهود إلى ما بعد صلاة العصر لأداء شهادتهم أمام الناس . وفي هذا صورة من صور القضاء النبوي ومجالسه .

ولقد روي حديث نبوي صحيح جاء فيه (لا وصية لوارث) حيث يحتمل أن يكون بعض الناس أرادوا أن يختصوا بعض ورثتهم بأكثر مما خصصهم به القرآن عن طريق الوصية فوضع الحديث الشريف حداً للتلاعب بأنصبة الإرث التي خصصها القرآن لكل

مستحق . بوسيلة الوصية . وينطوي في هذا صورة من صور المجتمع وطبيعة الحياة .

(٣) وقد تكرر في آيات المواريث ذكر الوصية كما ترى فيها :

١ — ... مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ...		النساء ١١
٢ — ... « « « يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ...		« ١٢
٣ — ... « « « تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ...		« «
٤ — ... « « « يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ...		« «

وهذا يدل على أن الوصية مما كان مألوفاً ، وظل الأمر كذلك بعد تعيين أنصبة الوارثين في التركات أيضاً ، كما أن تكرار التأكيد بوجوب تنفيذ الوصية يلهم أن الوارثين كانوا يجنحون أحياناً إلى إهمال تنفيذ الوصية على وجهها ، فاقتضت الحكمة هذا التكرار لمعالجة الموقف وإحقاق الحق لأهله ، وليكون الأمر تشريعاً مستمر المدى أيضاً . والآيات لا تحدّد الوصية بحد بحيث أنها توجب تنفيذ الوصية قبل توزيع الميراث مع سداد الدين ؛ ومما هو ثابت أن الشرع الإسلامي قد حدد الوصية بثلث التركة التي تبقى بعد الدين على الأكثر ؛ وهو تشريع نبوي .

الصورة الثالثة

وثانيا : الإرث .

جاء في سورة النساء في صدد الإرث الآيات التالية :

١ — لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً . وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ... ٧ — ٨

٢ — يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا

ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً(١) أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ . تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَٰلِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ... النساء ١١ ـ ١٤

٣ — وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْئَلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ... النساء ٣٢ ـ ٣٣

٤ — وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ... ١٢٧

---

(١) الميت الذي ليس له أولاد ولا أبوان يرثونه يسمى ميت الكلالة .

٥ — يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ
أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا
ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً[1] فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ... ١٧٦

والآيات ١١ ـ ١٢ و ١٣٧ و ١٧٦ تشريع واف في الصدد الذي نزلت فيه يتمم بعضه بعضا ، كما أن السنة النبوية قد أكملت ما يبدو من فراغ فيه كأنصبة الأجداد والعصبات الأخرى .

والآيات ٧ ـ ٨ و ١٣٧ تلهم مع الاستئناس بالروايات أن نصيب المرأة في الميراث لم يكن مسلما به ، سواء من حيث الأصل أو المقدار ؛ كما أن الآية ١٣٧ تلهم أن إرث اليتامى كان عرضة للأكل ؛ والآيات جميعها تلهم أن أنصبة الإرث كانت تتموج على حسب الوارثين قوة وضعفا وذكورة وأنوثة وكبراً وصغرا ودرجة قرابة[2] ؛ فاقتضت الحكمة نزولها لمعالجة الموقف بتعيين حق كل مستحق وتأكيد إيجاب السير على ذلك ، وإنهاء عهد فوضى الإرث والتحكم فيه وفقا لتقاليد العصبية الجاهلية الأولى ، ولتكون في الوقت نفسه أساسا قويما تشريعيا مستمر المدى ؛ وفقرة إرث الكلالة فى الآية ١٢ وآية الكلالة الثانية (١٧٦) تلهمان أن هذا الإرث كان كذلك من المشاكل التي تحتاج إلى حل وتركيز ؛ وقد جاءت فقرة الآية (١٢) بسبيل حل مشكلة الإخوة لأمهات متعددة ، ثم جاءت الآية ١٧٦ بسبيل حل مشكلة الإخوة الأشقاء؛ والظاهر أن المشكلة الأولى كانت هي الأكثر غموضا وتعقيدا ، أوهي التي عرضت مناسبتها أولا ، ثم كان بعد ذلك بمدة ما سؤال واستفتاء بشأن المشكلة الثانية لمناسبة عرضت أيضا . وفي هذا صورة من صور التشريع والعهد وظروفهما .

---

(١) المقصود هنا الإخوة الأشقاء .

(٢) مما روي أن امرأة شكت للنبي أن زوجها توفي عنها وعن ثلاثة أيتام ، وأن عمهم أبى عليهم إرثهم قائلا : إنه هو الذي يتحمل المغارم وحده ، وإن التركة من نصيبه وحده والحالة هذه .

ولقد اختلفت الأقوال في مدى فقرة « والذين عقدت أيمانكم » في الآية (٣٣) فقيل : إنها عنت الزوجات ، وقيل إنها عنت الأبناء بالتبني الذين كان لهم حق الإرث ، لأن التبني كان بمثابة عقد ؛ وقيل إنها عنت الحلفاء أو العتقاء ، كما قيل إنها عنت المهاجرين والأنصار الذين آخى النبي بينهم ، وكان من مفهوم المؤاخاة أن يرث بعضهم بعضا ؛ وروح الآية مع الآية التي قبلها تلهم أنهما نزلتا أبكر من آيات المواريث ، واحتوتا تمهيدا لإيجاب احترام كل مستحق في الإرث لحق كل مستحق آخر ، وعدم بغي بعضهم على بعض ؛ ثم نزلت آيات المواريث محددة معينة وحاكمة . ولا يمنع هذا أن يكون قبل نزولها تعامل متعارف عليه أو أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه في شأن أو أكثر من تلك الشئون المذكورة في الآية (٣٣) ؛ وهكذا تكون آيات المواريث قد نسخت كل ما خالفها ، كما نسخت الوصية للوالدين ؛ وبعض ما قلناه يصح أن يقال بالنسبة للآيات ٧ ـ ٨ من حيث أنها تمهيد لتوطيد حقوق كل مستحق في الإرث .

وفي هذا وذاك صور تطورية للتشريع القرآني كما هو واضح .

ونلفت النظر إلى الآيتين ١٣ و ١٤ من سورة النساء اللتين تعد أولاهما الطائعين لله ورسوله والواقفين عند حدوده بالخلود في الجنات . وتنذر العاصين المعتدين على حدود الله بالخلود في النار . فالمتبادر أن ذلك بالإضافة إلى ما فيه من حكمة سامية وتلقين متسق مع أهداف القرآن بصورة عامة يمكن أن يكون بسبب ما كان من بعض الناس من هضم حقوق الضعفاء والنساء والأيتام في الإرث والتلاعب فيها مما يكون فيه صورة وتوكيد لحالات واقعة .

الصورة الرابعة

وثالثا : أموال اليتامى .

وهذا الموضوع من المواضيع التي نالت عناية قرآنية كبيرة ؛ في القرآن المكي

آيات عدة فيه ، وقد نقلنا جملة منها سابقا ، وأسلوبها أسلوب وعظ وتحذير ؛ وقد احتوى القرآن المدني آيات عدة فيه كذلك ، غير أن طابع التشريع عليها أكثر بروزاً ؛ وهذه العناية تدل ـ فوق اعتبار حماية الضعيف أساساً من أسس الدعوة الإسلامية ـ على أن اليتامى كانوا عرضة للاضطهاد والبغي ، وأن أموالهم كانت عرضة للنهب والتلاعب ؛ ولعل من أول الآيات المدنية في هذا الأمر آية سورة البقرة هذه :

« ... وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... » ٢٢٠

إذ تلهم أن بعض المسلمين في العهد المدني تحرجوا من خلط أموال اليتامى بأموالهم بسبب ما كان من تشديد في القرآن المكي ، فنزلت الآية تبيح هذا على أساس الإصلاح ونية الخير الذي هو مقصود الأوامر القرآنية ، ولتكون تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ثم نزلت آيات عدة في سورة النساء في صدد توكيد حق اليتيم وصيانة ماله كما ترى فيها :

١ — وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا . وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ... ٢ ـ ٣

٢ — وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ... ٦

٣ — إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ... ١٠

٤ ـ الآية ١٢٧ التي نقلناها في الفقرة السابقة .

وتحريج الآيات وتحذيرها قويان استهدفا دون ريب حماية اليتامى وحقوقهم وأموالهم مما كان تتعرض له من تلاعب وبغي على ما ذكرناه من قبل . ولقد روي أن أوصياء اليتيمات الغنيات كانوا يمنعون تزويجهن بالغريب خشية مطالبته بمالهن ، وكانوا يتزوجونهن ولو لم يكن جميلات للاستيلاء على مالهن ، فيتعرضن بذلك للأذى في أنفسهن وفي أموالهن ، وأن الأوصياء كانوا يسرعون في تبديد أموال اليتيم قبل أن يبلغ ، أو يبدلونها بأموالهم الرديئة ؛ فنزلت الآيات ٢ و ٦ و ١٣٧ لتعالج الموقف بما فيه الحق والصيانة ، ولتكون تلقينا مستمر المدى ؛ وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان عليه الأمر كما أنها نزلت لمناسبته أيضا .

ويلفت النظر خاصة إلى مافي الآية (٦) من أسلوب تشريعي في تعيين سن الرشد ، إذ لم تكتف ببلوغ اليتيم سن النكاح بل شرطت التثبيت من رشده العقلي والتصرفي أيضا ؛ ولعل الأمر كان جاريا على الاكتفاء بالبلوغ لسن النكاح والقدرة الجنسية ، ولعل مشكلة ما قد قامت واستفتي النبي صلى الله عليه وسلم فيها فنزلت الآية تحتوي تعديلا أو علاجا شافيا ، وتكون في الوقت نفسه تشريعا مستمر المدى .

الصُّورة الخامسة

ورابعا : وقاية المال من تبديد السفهاء :

جاء في سورة النساء الآية التالية :

« وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ... » ٥

وكلمة « السفهاء » تعني ضعفاء العقل ، وهذا يحتمل أن يكون بالنسبة لكبار السن وصغارهم . وقد جاءت آية تعيين سن الرشد للأيتام عقب هذه الآية ، مما قد يلهم أن يكون النهي فيها منصبا على تسليم الأموال للأولاد بعد بلوغهم سن الرشد ؛ ومهما يكن من أمر فالآية قد احتوت حكما مستقلا بالنسبة للسفهاء ، إذ تحظر تسليمهم أموالا أو أموالهم تفاديا من تبذيرها بسبب ضعف عقولهم أو عدم رشدهم ، وإذ توجب في الوقت نفسه الإنفاق عليهم وتطييب نفوسهم . والمرجح أن الآية نزلت لمناسبة معينة فكانت معالجة حكيمة للموقف وتشريعا مستمر المدى أيضاً .

الصورة السادسة

وخامسا : النهي عن الربا :

يصح أن يقال: إن إحدى الآيات المكية قد احتوت ما يلهم أن يكون نواة لكراهة الربا كما ترى فيها :

« وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ . . . » الروم ٣٩

أما الآيات المدنية فقد احتوت نهيا صريحا عنه وحملة شديدة على المتعاملين به كما ترى فيما يلي :

١ — ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ . يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ... البقرة ٢٧٥ ـ ٢٧٦

٢ — يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ . وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ... البقرة ٢٧٨ ـ ٢٨٠

٣ — يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ . وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ... آل عمران ١٣٠ ـ ١٣٢

والآيات صريحة الدلالة على أن بعض المسلمين كانوا يتعاطون الربا ويأكلونه أضعافاً مضاعفة ، وأنه كان عند العرب عملا تجاريا حلالا كالبيع ، فظل هذا المفهوم مستقراً بعد الإسلام في أذهان المسلمين الذين تعودوه . وقد تلهم آية البقرة (٢٨٠) خاصة أن المرابين كانوا يستغلون إعسار المدينين فيضاعفون رباهم ، وأنه كان لذلك عواقب شديدة الضرر في هؤلاء ؛ ولا يبعد أن يكون بعضهم قد شكا أمره للنبي صلى الله عليه وسلم فكان هذا سببا لنزول الآيات لمعالجة المواقف بهذا الأسلوب القوي المتناسب مع شدة ضرره ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعاً قوياً مستمر المدى في المجتمع الإسلامي يحول دون هذا الضرر وتلك العواقب .

ولقد احتوت آية البقرة ٢٧٩ حلا للمشكلة التي وقعت نتيجة للحملة على الربا وشدة النهي عنه ، إذ أمرت أصحاب الأموال المرابين بأسلوب قوي شديد بإسقاط الربا عن مدينيهم ، واستيفاء رءوس أموالهم فحسب ، وحثتهم على إمهال المعسرين والتصدق عليهم بإسقاط ديونهم جملة . وفي هذا مشهد من مشاهد السيرة النبوية ، وتلقين جليل مستمر المدى .

ومما يروى أن آيات البقرة في الربا من أواخر ما نزل من القرآن ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن بعدها إسقاط ربا عمه العباس رضي الله عنه في حجة الوداع ، مما يستأنس به على صحة تأخر الآيات ؛ والذي نرجحه أن الربا كان جارياً في مكة وفي المدينة السواء

بسبب ما كان في مكة من حركة تجارية ، وبسبب وجود اليهود الذين كان الربا من أعمالهم الرئيسية في المدينة ، وأن الزراعة فيها هي العمل الرئيسي للأوس والخزرج ، والزراع يحتاجون دائماً إلى الاستسلاف . وقد كان اليهود يتعاطون الربا كما جاء ذلك في معرض التنديد بهم في آية النساء ١٦٠ على ماشرحناه في فصلهم الخاص .

وبناء على رواية كون آيات البقرة من أواخر مانزل من القرآن وهي رواية وثيقة السند تكون آيات آل عمران ١٣٠ ـ ١٣٢ هي التي نزلت أولا كخطوة تشريعية أولى لمنع الضرر الفادح الذي يحل بالمدين من تحميله الربا أضعافاً مضاعفة . ويظهر أن بعض المسلمين الذين كانوا يشتغلون بالربا لم يتعظوا بها أو ظلوا يتعاملون بالربا . وكان السلطان الإسلامي قد بلغ ذروته في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت آيات البقرة لتكون حاسمة في هذا الموضوع الخطير بالنسبة للحالة القائمة ثم بالنسبة للمستقبل الدائم .

وفي هذا صور من صور التطور التشريعي وحياة المجتمع .

الصورة السابعة

وسادساً تنظيم العقود والديون والحقوق المتصلة بها .

إن أهم ماورد في هذا الباب آيتان في سورة البقرة أوردناهما في مبحث التشريع السياسي ، وهما الآيتان ٢٨٢ ـ ٢٨٣ . ولقد احتوتا قواعد وأحكاما وتلقينات قويمة ورائعة في صدد حياطة حقوق المسلمين بين بعضهم وبعض ، وتنظيم العقود والديون وتسجيلها وتسجيل أعمال التجارة عامة بقدر مايتسع له الإمكان ، تفاديا من الخطأ والنزاع ، وكذلك في صدد إيجاب الشهادة على الشهود وعدم كتمانهم شهادتهم ، وإيجاب الأمانة على الكتاب ، وفي صدد حماية هؤلاء وأولئك من الأذى والضرر بسبب عملهم .

وقد يمكن أن تلهم الآيات أن هذه الأمور لم تكن تراعى رعاية وافية ، وأنه كان يحدث بسبب ذلك خلاف ونزاع ، وأن مناسبة شديدة الأثر كانت سببا لنزول الآيات لمعالجة الموقف معالجة حكيمة قويمة ، ولتكون تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ونذكر بهذه المناسبة ما احتوته آيات المواريث في سورة النساء من توكيد متوال لضرورة تسديد ديون المورثين قبل توزيع التركات على الورثة ، مما يمكن أن يكون له صلة بالحالة التي كانت حين نزولها ؛ إذ أرادت تلقين المسلمين وجوب احترام بعضهم حقوق بعض ، ووفاء ديون الميت من ماله ، لأن هذا المال ، مماقد يكون تكوّن من هذه الديون أو بعضها ، وهي من حق صاحبها وليست حق الميت وورثته ، وفي هذا تلقين جليل الشأن مستمر المدى في هذا الصدد ، ومعالجة لما كان عليه الأمر من شذوذ لا يتفق مع الحق .

ونذكر كذلك ما احتوته آية البقرة ١٨٨ التي نقلناها في مبحث التشريع السياسي لأن لها صلة بهذا المبحث أيضا ، إذ تنهى المسلمين عن أكل أموال بعضهم بالباطل والتحايل لدى الحكام لتحقيق أطماعهم فيها . ومن هذا القبيل آية سورة النساء هذه :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ... ٢٩

فالمرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة وقائع بدا فيها من بعض المسلمين بعض تصرفات مغايرة للحق بالنسبة لأموال غيرهم وحقوقهم ، واستهدفت التنديد بذلك وحظره بهذا الأسلوب لمعالجة الموقف الحاضر ؛ وصارت في الوقت نفسه تشريعا وتلقينا مستمر المدى .

المبحث الخامس

في التشريع العائلي

متناول هذا المبحث ـ مدى الآيات المكية في موضوعه ـ الزواج وآيات النساء وملهماتها ـ التشريع في صدد التزاوج بين المسلمين وغيرهم ومداه وما في آياته من ملهمات ـ زواج الزناة ـ الحث على التزاوج وما في آياته من ملهمات ـ تشريعات وتلقينات في الحياة الزوجية من سورة البقرة والنساء والمجادلة وما في الآيات من ملهمات ـ تشريعات وتلقينات في الطلاق من سور البقرة والأحزاب والطلاق وما في الآيات من ملهمات ـ التشريع في الترمل وما في آياته من ملهمات ـ تشريعات وتلقينات في الآداب البيتية ومافي الآيات من ملهمات .

الصورة الأولى

يتناول هذا المبحث مسائل الزواج والطلاق ومركز المرأة من الرجل في العائلة والمجتمع والتصرف الشخصي ، وواجباتهما وآدابهما المتقابلة ، كما يتناول قواعد السلوك في دخول الناس بعضهم على بعض وزيارة بعضهم لبعض أيضاً .

وآيات هذا الموضوع مدنية في الأعم الأغلب ؛ وكل ما ورد في القرآن المكي مما يمت إليه ، وآيات وعد فيها الذكر والأنثى على السواء بالأجر وحسن الجزاء ، أو ذكر فيها ما كان من نعمة الله في جعله المودة والرحمة بين الزوجين ، أو ذكر فيها واجب الولد نحو والديه كما ترى فيما يلي :

١ ـ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ... النحل ٧٢

٢ ـ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... النحل ٩٧

٣ — وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا . . .

الإسراء ٢٣ ـ ٢٤

٤ — وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . . .

الروم ٢١

في حين أن الآيات المدنية قد تناولت الشؤون التي تناولها هذا المبحث بعناية وسعة وبأسلوب مطبوع بطابع التشريع ؛ والفرق في الأسلوبين متصل بطبيعة العهدين بالنسبة للمسلمين وظروفهم على مانبهنا إليه في تمهيد هذا الفصل .

والكلام في متناول هذا المبحث سيكون مصنفاً على حسب المواضيع كما فعلنا في المباحث السابقة :

الصورة الثانية

فأولا : الزواج

(١) جاء في سورة البقرة الآية التالية :

« وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . . . » ٢٢١

وقد حظرت على المسلمين التزوج بالمشركات وعلى المسلمات التزوج بالمشركين ؛ مما يلهم أن هذا مما كان جاريا قبل نزولها فنزلت لتمنع استمرار الجاري ولتكون تشريعا

مستمر المـدى أيضـا ؛ ويستلهم من فقرة في سورة الممتحنة وهي « ولا تمسكوا بعصم الـكوافر » ـ إذ تنهى المسلمين عن الاحتفاظ بزوجاتهم الـكافرات في عصمتهم ـ أن النهي في آية البقرة انصب على إنشاء المصاهرة بين المسلمين والمشركين ، وأنها نزلت مبكرة ، أو قبل نزول آية الممتحنة على الأقل ، وهي التي نزلت بعد صلح الحديبية على ما شرحناه في مناسبة سابقة ، بدليل أن المسلمين المتزوجين بزوجات كافرات من قبل ظلوا محتفظين بعصمهن إلى أن نهت آية المجادلة عن ذلك . وآية البقرة جاءت بعد قليل من آيات فرض القتال ٢١٦ ـ ٢١٨ التي نقلناها سابقا ؛ وإنه لمن السائغ أن يقال إن العـداء الذي تحول إلى حالة حرب بين المهـاجرين ومشركى مكة حين وقع الاشتبـاك الحربى الأول ، قد اقتضى النهي عن صلات المصاهرة بين أولئك وهؤلاء ، وإن هذا النهي قد كان بمناسبة جنوح من بعض المسلمين المهاجرين إلى الاستمرار فيها ، إذ كانت وشائج القربى تربطهم بالمشركين في مكة ، وفي هذا ماهو واضح من صور مما كان جاريا ومن المناسبات التشريعية في هذا الصدد ؛ ولعل آية البقرة بناء على هذا أولى الآيات المدنية التي نزلت في صدد النـكاح .

(٢) وجاء في سورة النساء الآيات التالية :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا(١) . وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا . » ٣ ـ ٤

والفقرة الأولى من الآية الأولى بسبيل ما ذكرنا روايته من قبل ، مما كان الأوصياء يفعلونه من ممانعة تزويج اليتيمات الغنيات للغريب والتزوج بهن ، وما كن يتعرضن له بسبب ذلك من أذى ، إذ نبهت على وجوب العدول عن ذلك في حالة غلبة احتمال عدم

---

(١) ذلك أضمن لعدم الجور .

العـــدل ، ثم استطردت فأشارت إلى مافي النساء من بديلات يستطيع الرجل أن ينـكح ما طاب له منهن واحدة واثنتين وثلاثا وأربعا . وقد تلهم روح الآيتين أن ما احتوتاه من التنبيه إلى أن هذا العدد هو في حالة إمكان العـدل بحيث يكتفى بواحدة أو بما يملك الرجل من إماء إذا غلب ظن الجور ، وإلى وجوب أداء المهر للزوجات كاملا وعـدم التصرف بشيء منه إلا إذا طابت الزوجة به نفسا، وقد جاء هذا التنبيه استطرادا.

ومع أن عبارة (مثنى وثلاث ورباع) قد هدفت إلى التنبيه على ما للرجال من مجال في النساء الأخرى يمتنعون به عن التزوج باليتيمات الذي قد يؤدي إلى ظلمهن؛ فإنها اعتبرت تشريعا في صـدد عـدم جواز جمع الرجل في عصمتـه أكثر من أربع زوجات في وقت واحد .

ولقد روي أن الرجال كانوا يجمعون في عصمهم زوجات بدون تحديد ؛ ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جمع في عصمته في وقت واحد تسعا ؛ فلما نزلت الآيتان طلق الذين زاد عدد زوجاتهم على الأربع الزوائد ، ونزل في أمر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم تشريع خاص في آيات في سورة الأحزاب يتفق روحا مع التحديد على ماشرحناه في مبحث حياة النبي الزوجية ؛ وهكذا يكون هذا التشريع قد عدل حالة جارية من قبل البعثة إلى ما بعد الهجرة بمدة غير قصيرة - أي إلى السنة الهجرية السابعة أو بعدها ، إذ نزل تشريع زوجات النبي في ظرف نزول هذا التشريع - تعديلا حكيما استهدف توطيد الحق والعدل والهناء العائلي بالنسبة للحاضر والمستقبل ، وفي هذا صورة من صور السير التشريعي كما هو واضح ؛ والذي نرجحه أن الآيتين قد نزلتا بمنـاسبة وقعـة أو مشكلة ما رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صدد اليتيمات أو في صدد تعدد الزوجات أو مهورهن أو في كل ذلك .

ولم تحدد الآية الإماء كما لم تشترط لهن مهرا ، لأنهن ملك يمين صاحبهن ؛ وهذا ما كان جاريا من قبل كما تلهمه آيات مكية ومدنية، منها آيات سورة المؤمنين المـكية هذه :

« وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . . . »

٥ — ٧

وآيات سورة الأحزاب المدنية هذه :

« لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِن بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَامَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا . . . »

٥٢

وقد أقر الأمر على ما كان .

(٢) وفي سورة النساء أيضا الآيات التالية :

« وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَاقَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا . حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَاقَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّامَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ

بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...»

٢٢ – ٢٥

وقد احتوت الآيات تشريعاً وافياً في محرمات النكاح ، ومتمما لما احتوته الآيات من تشريعات في الزواج ؛ ومن أهم ما احتوته شرطها نية إنشاء كيان عائلي في الزواج والإحصان فيه لا السفاح به .

وقد أباحت التزوج بالإماء لمن لا يقدر على الحرائر ماليا ولا يطيق الصبر ، على شرط أن يكون ذلك بإذن مالكيهن وبمقابل مهر وبموجب عقد ، وأن يكون في التزوج بهن قصد الإحصان العائلي لا السفاح ولا المخادنة وحسب ، وواضح أن هذا هو غير ما أبيح لمالك الإماء من التسري بهن من دون مهر وعقد وتحديد عدد إقراراً لما كان الأمر عليه من قبل على ما شرحناه سابقاً . وعلى ما أكدته جملة (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) في الآية (٢٣) . ولعل هذا كان تشريعاً جديداً . إذ يستلهم من الآية أن التزوج بالإماء لم يكن سائغاً لغلبة ارتكاسهن في البغاء والسفاح . ولعل حكمة جعل حد الزنا عليهن نصف ما على الحرائر هي هذه . والآية (٢٥) صريحة الدلالة على أن هذا التشريع بسبيل تيسير الزواج وتخفيف كلفته على الذين لا يطيقون التزوج بالحرائر ماليّاً . والمتبادر من ذلك أن التزوج بالإماء كان خفيف الكلفة . وأن التشريع جاء لمعالجة حالة قائمة ثم لمعالجة الحالات المماثلة دائماً . ويستلهم من محتويات الآيات أنه كان هناك بعض الشذوذ في الأنكحة كنكاح الرجل زوجة أبيه المتوفي ، وجمعه في عصمته أختين ، وتحريمه على نفسه أرملة أو مطلقة ابنه بالتبني ، ونية المسافحة والمخادنة في الزواج بالحرائر والإماء أكثر من نية الإحصان والكيان العائلي الخ ... كما لا يستبعد أن يكون هناك شذوذ آخر ، أو ألا يكون هناك تقيد وثيق في أمر الأنكحة المحرمة الأخرى ،

فنزلت الآيات لمعالجة الأمر وإقراره في النطاق الحكيم الذي يجب أن يكون فيه بالنسبة للحالة الحاضرة وللأجيال المقبلة معاً . ونرجح أن تكون الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة من مثل هذه المشاكل نقلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستفتي في شأنها .

وليس من الممكن الجزم بالوقت الذي نزلت فيه الآيات ؛ ولكن النص على تحريم حلائل الأبناء من الأصلاب فقط ، قد يدل على أن ما كان جاريا من تحريم حلائل الأبناء بالتبني قد ألغي قبل نزولها ؛ ولما كان هذا الإلغاء قد تم بتزوج النبي صلى الله عليه وسلم بمطلقة متبناه في أواسط العهد المدني على ماشرحناه في مبحث حياة النبي صلى الله عليه وسلم الزوجية ، فمن السائغ أن يقال إن ما أشرنا إليه من شذوذ في الأنكحة ومحرماتها قد ظل جاريا إلى أواسط هذا العهد ، إذ اقتضت حكمة التنزيل تنزيل الآيات في تنظيم وتحديد الأمر في هذا الظرف .

الصورة الثالثة

(٤) وجاء في سورة المائدة الآيات التالية :

« ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ . . . » ٥

وقد أباحت للمسلمين التزوج بالكتابيات . وقد فسر بعضهم « المحصنات » بالحرائر ، وبعضهم بالعفيفات ؛ ولعل الفقرة الثانية من الآية تدعم القول الثاني ، إذ شرط في التزوج بالكتابيات نية الإحصان لا السفاح والتخادن ؛ ولقد يدل هذا أيضا على ما كان من غلبة ارتكاس الكتابيات في هذا العهد في البغاء ، وقد كن من حيث الواقع يهوديات

كما لايخفى ، فكأنما نبهت الآية — وهي تبيح التزوج بهن — إلى وجوب حسن الاختيار، وعدم التزوج بمن لاتكون مشهورة الصيانة والعفاف ؛ وهكذا تكون الآية قد عالجت حالة قائمة ، واحتوت تلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه .

وقد أوضحت الآية أو قيدت آية البقرة (٢٢١) التي نقلناها قبل قليل ، إذ كان حكم آية البقرة مقصوراً على المشركين أوغير الكتابيين، ومن المحتمل أن يكون المسلمون بعدها كفوا عن المصاهرة مع غير المسلمين عموماً إلى أن نزلت آية المائدة التي احتوت تعديلا لهذا المفهوم ؛ والمرجح أن الآية نزلت في سلسلتها بعد صلح الحديبية ، لأن مطلع السورة قداحتوى إشارة ما إلى هذا الصلح على مانبهنا إليه في مبحث الوقائع الجهادية ؛ ولعلها نزلت بعد خضد شوكة اليهود في خيبر والقرى الأخرى الذي وقع بعد قليل من هذا الصلح على ماذكرناه سابقا أيضا ، وإذا صح هذا كانت الإباحة بعد خضد تلك الشوكة، وعدم بقاء حظر التزوج بالكتابيات ، ولتدعيم ما ظل القرآن يشير إليه من وحدة المصدر والأسس بين المسلمين والكتابيين في المصاهرة والمؤاكلة ؛ وفي هذا صورة من صور السير التشريعي والحكمة السياسية التشريعية لمعالجة الموقف الحاضر ، ولتوطيد خطة مستمرة تقوم على المدى والأسس والظروف التي تلهم الآية وظرف نزولها .

وواضح أن الآية إنما أباحت التزوج بالكتابيات دون تزويج الكتابيين ، وهكذا تظل المسلمة محظورة على غير المسلم ؛ وحكمة ذلك غير خفية ، فالرجل قوام الأسرة وإليه ينسب النسل ، فليس في تزوجه بكتابية محظور من وجهة النظر الإسلامية ، بل إنه مفيد من وجهة نظر الدعوة الإسلامية ، وعكس هذا وذاك تزويج المسلمات بغير المسلمين .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أن المسلمين يعترفون بكتب وأنبياء أهل الكتاب ويحترمونهم . فوجود الكتابية عند المسلم لن يعرضها لسماع انتقاص وازدراء لما تقدسه

من كتب وأنبياء . وهذا غير متوافر للمسلمة عند الكتابي لأنه لا يعترف بالقرآن والنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج بصفية الخيبرية عقب فتح خيبر ، ومع أن الروايات ذكرت أنها أسلمت فليس يستطاع الجزم بأن إسلامها كان قبل الزواج أو بعده ، وبالتالي لا يستطاع الجزم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوجها ممارسة لإباحة آية المائدة أولا ، ومما يقف في سبيل الجزم أن الروايات ذكرت أن النبي دخل بها في طريق عودته من خيبر ، في حين يرجح أن تكون الآية مع سلسلتها السابقة قد نزلت بعد مدة ما من فتح خيبر .

ولم نطلع على خبر يذكر أن المسلمين قد مارسوا هذه الإباحة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أي أن يكونوا تزوجوا بكتابيات بقين على دينهن . ومن المحتمل أن يكونوا فعلوا . لأن المعروف أنه كان بقي بعض اليهود . والنصارى في المدينة وبعض اليهود في خيبر والقرى اليهودية الأخرى دون ما حول ولا طول . والآية وإن كانت جاءت بأسلوب تشريعي عام فإن ضمير الجمع المخاطب فيها وسبقها بآية بدأت بجملة (يسألونك ماذا أحل لهم) قد يفيدان أن بعض المسلمين سألوا عن هذا الأمر أيضاً . ولا بد من أن يكون ذلك بسبب رغبة أو حاجة . وهذا قد يجعل ذلك الاحتمال قوياً .

الصّورة الرابعة

(٥) وجاء في سورة النور الآية التالية :

« ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ... » ٣

وقد تعددت الأقوال في مدى الآية ، إذ قيل إنها للتنديد والتشنيع ، وإن التحريم منصب على الزنا نفسه ؛ كما قيل إنها بسبيل تحريم الزانية ؛ وقد روي أن بعض المسلمين استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في نكاح بغي يشتهيها أو يحبها فنزلت الآية جواباً .

ومهما يكن من أمر فالآية تنطوي على كل حال على كراهيـة التزوج بالزانية وتزويج الزاني ، وخاصة إذا ما ثبتت عليهما جريمة الزنا وأقيم عليهما الحد ؛ لأن الآية جاءت بعد تعيين الحد وإيجاب إقامته ، والاتصال في المفهوم بينها وبين ما سبقها واضح الوثاقة ؛ وسواء أصحت الرواية أو لم تصح ـ لأن هذا الاتصال يدعم كون الآية تتمة لما قبلها ـ فمن المحتمل أن يكون التزوج بالزانية أو تزويج الزاني مما لم يكن عليه غبار في نظر البعض في ذلك العهد ، وكان مما يمارس ، فنزلت الآية بالتحريم ، أو على الأقل بالتشنيع ليكون فيها زجر للزناة وتهديد لمقاطعتهم ؛ وهكذا تكون الآية قد تضمنت علاجاً حكيماً للحالة الحاضرة متسمرّاً مداه الحكيم بعدها .

(٦) وجاء في السورة نفسها الآيات التالية :

« وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... »

٣٢ — ٣٣

والآية الأولى تحث المسلمين على تزويج الذين لا أزواج ولا زوجات لهم ، وعلى تزويج رقيقهم رجالا ونساء ، وهذا الحث يتسق مع قواعد العمران وطبيعة الإنسان ، وينطوي فيه مقصد جليل من هذه الوجهة ، كما فيه تدعيم لما استهدفه القرآن في آيات النساء من توطيد الحياة العائلية في الإسلام .. ويبدو أن الفقر كان كثيراً ما يمنع التزاوج ، فنبهت الآية إلى وجوب التساهل في الأمر حتى لا يتعطل ذلك المقصد

الجليل ، وفي هـذا معالجة لحالة قائمة ، وتلقين مستمر المدى لقاعدة اجتماعية جليلة في الوقت نفسه .

أما الآية الثانية فإنها تحث من ناحية الذين لا يقدرون ماليا على النكاح على العفة ، وهي من أسس المكارم الأخلاقية الإسلامية ؛ ومن ناحية على عدم إكراه الفتيات على البغاء في سبيل أعراض الدنيا ؛ ولقد روي في صدد النقطة الأخيرة أن زعيم المنافقين كان يجبر بعض إمائه على البغاء والتكسب به لحسابه ، وأن هذه العادة مما كان جاريا قبل البعثة . ولسنا مطمئنين إلى هذا لما فيه من مسبة اجتماعية كبرى لا يعقل أن يقدم عليها زعيم ، ولأن في الآية وفيما قبلها ما يجعل هذا القول غير وارد ، فالآية الأولى تحث على تزويج غير المتزوجين أحرارا وأرقاء ، رجالا ونساء ؛ فالمعقول أن تكون الفقرة الأخيرة من الآية الثانية بمعنى نهي المسلمين عن عدم تزويج فتياتهم إذا ما تيسر لهن الزواج تفادياً من الإنفاق أو تغاليا في المهور ؛ لأنه قد يكون في ذلك دفع لهن إلى البغاء .

ولقد روى أن عبداً طلب من مالكه المسلم أن يسمح له بشراء نفسه بثمن يدفعه مقسطا ـ وهذا معنى الكتاب أو المكاتبة ـ فأبى ، فاشتكى للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرت الآية بذلك . وورود الأمر بالمكاتبة في آيتين تشريعيتين فى الزواج ، مما يلهم أن يكون العبد قد رغب في التزوج أيضا فرغب في المكاتبة ليتحرر وليتزوج كما يشاء ، فلما أبى مالكه عليه ذلك رفع أمره لله والنبي .

وظاهر من هذا كله أن الآيتين قد احتوتا صوراً واقعية ، ونزلتا في مناسبات لتحل ما كان من مشاكل حلا قويما متسقا مع الحق والعدل وطبيعة الإنسان واجتماعه ، ولتكون في الوقت نفسه تشريعا مستمر الحكم والتلقين .

الصُّورة الخامسة

وثانيا : في الحياة الزوجية :

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

« وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . . . »

٢٢٢ — ٢٢٧

وهي توجب اعتزال النساء في المحيض ، وتأمر بتقوى الله فيهن ، وتحل مشكلة الإيلاء بالمعاشرة أو الطلاق . وقد روى أنّ أهل المدينة كانوا ينحون نحو اليهود في عزل نسائهم وعدم الاكتفاء بعدم قربهنّ جنسيا حيث يعتبر اليهود نساءهم الحائضات نجسات فلا يخالطونهن ولا يمسونهن ولا يؤاكلونهن إلى أن يطهرن . فسأل بعض المسلمين عن ذلك فنزلت الآيتان الأوليان .

وكان من عادة الأزواج في الجاهلية إذا كرهوا زوجاتهم أو غضبوا منهن لأمر ما أن يحلفوا بعدم قربهنّ فتصبح الزوجة معلقة لا هي زوجة ولا مطلقة ، مما عرف بالإيلاء وهو الحلف ، فشكا بعض النساء أمرهنّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآيات الأربع الأخيرة ؛ وليس في الروايات ما لا يتسق مع الآيات ، وكل ما يمكن أن يكون

هو أن السلسلة قد نزلت وحدة بناء على شكاوي واستفتاءات سابقة . وعلى كل حال فالآيات قد انطوت على صور واقعية لما كان عليه الأمر في الجاهلية ثم استمر إلى ما بعد الهجرة النبوية بمدة ما ونزلت لمناسباتها جواباً على استفتاءات وشكاوي لحل المشاكل ومعالجة الحالة حلا وعلاجا قويمين حكيمين مستهدفين لتوطيد الحق والبر والإصلاح ومنع الأذى ، ولتكون تشريعاً وتلقيناً مستمر المدى أيضا .

وقد أكملت السنة هذا التشريع فأوجبت اعتبار الزوجة التي لا يرجع زوجها عن يمينه قبل انتهاء المدة طالقة منه طلقة بائنة وبذلك تسترد حريتها ولا تظل مقيدة معلقة .

ويظهر من بعض الآيات أن بعض الأزواج قد احتجوا باليمين وتقيدهم بها ، فأجابت عن هذا الاحتجاج بما فيه الحكمة الجليلة ، وهو أن المهم هو المقصد المبيت في النفس وليس الكلام الذي يمكن أن يكون قد صدر بسائق الغضب والتسرع أو الهوى ؛ فإذا كان القصد الفراق وجب أن يكون الفراق ، وإلا فلا يجوز أن تكون اليمين وسيلة للأذى والضرر ومانعة عن البر والتقوى والإصلاح ، وفي هذا صورة من السير التشريعي والمساجلة فيه للإقناع وإقامة الحجة .

الصّورة السّادسة

(٢) وجاء في سورة النساء الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً . وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَـٰناً وَإِثْماً مُّبِيناً . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً ... » ١٩ ــ ٢١

والآيات قوية التلقين في صدد حسن معاشرة الزوجات وعدم إزعاجهن لابتزاز أموالهن بدون حق ، والتنويه برابطة الزوجية ووجوب رعايتها رعاية تامة من جانب الرجل . ومضمونها وأسلوبها يلهمان أن بعض الزوجات كن يلقين عنتا من أزواجهن في الحياة الزوجية ، لابتزاز أموالهن . كما أن الآية الثانية تلهم أن بعض الأزواج بعد أن قيدتهم الآية بأربع نساء كانوا حينما يريدون أن يتزوجوا بزوجة جديدة يعمدون إلى تطليق إحدى القديمات ، وأنهم كانوا بسبيل ذلك يعمدون إلى مساومة زوجاتهم لاسترداد بعض ما دفعوه من المهور لهن ، وفي هذا وذاك صور لما كان عليه الحال إلى وقت متأخر من العهد المدني ، وقد استهدفت الآيات توطيد الحق والعدل والهناء العائلي ، وتلقين الصبر وسعة الصدر نحو الزوجات ، فكانت علاجا قويا وحكيما للحالات والتصرفات الشاذة ، وتشريعا جليلا مستمر المدى والتلقين أيضا .

(٣) وقد جاء في السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ... » ٣٤ ـ ٣٥

وقد استهدفت الآيات توطيد الانسجام في الحياة العائلية ، وبيان مركز كل من الرجل والمرأة فيها ، وقررت قوامة الرجل معللة إياها بما وهبه الله للرجال من مزايا وبما أخذوه على عاتقهم من مسئولية النفقة ، كما قررت على المرأة وجوب الطاعة للرجل والأمانة والصيانة ، وحثت على توسيط وسطاء الخير في الحالات التي يخشى فيها تفاقم الشقاق توطيداً للهناء والانسجام العائلي . والراجح أن التأديب

والتوسيط هما من أجل تلافي النشوز والشقاق والطلاق ، إبقاء على الرابطة الزوجية . ومن الراجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلة زوجية رفع أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكانت حلا حكيما للمشكلة ، وتلقينا مستمر المدى أيضا . كذلك من الراجح أن قوامة الرجل على المرأة وحق تأديبه لها مما كان جاريا ومعترفا به قبل نزولها ، كما يستلهم من أسلوب أول الآيات التقريري ، فأقرت الآيات للرجل بعض ما كان جاريا وعللته وجعلت حق تأديبه لزوجته مقيدا بقيود وحدود ؛ وهكذا ينطوي في الآيات كما هو المتبادر صور مما كان عليه الحال ، ومشاهد من مشاهد الحياة الزوجية في العهد المدني .

ولقد ظلت الأحكام القرآنية التي تجعل المرأة متساوية مع الرجل في مختلف التكاليف الدنيوية والدينية ونتائجها الدنيوية والأخروية . والتي تجعلها كذلك صاحبة أهلية تامة في قبض مهرها واستيفاء إرثها والتصرف فيما يدخل في يدها من مال وحقها في الاحتفاظ به بدون رقابة الرجل ومراقبته وإذنه محكمة بحيث يتأيد بهذا كون القوامة الممنوحة للزوج هي في نطاق الحياة الزوجية وحسب فضلا عن أن الآية الثانية تحتوي قرينة حاسمة على ذلك .

(٤) وجاء في السورة نفسها كذلك الآيات التالية :

« وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً . وَلَن تَسْتَطِيعُوآ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً . وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً . . . »

١٢٨ ـ ١٣٠

وقد استهدفت الآيات أيضا توطيد الحياة الزوجية ووجوب رعايتها إلى أبعد حد ممكن ، بحيث لا يكون الفراق إلا في الحالة التي لا مندوحة عنها .

وقد يلهم مضمونها أنها في صدد مشكلة متصلة بالمعاشرة الزوجية وتعدد الزوجات ، ومن الراجح أنها نزلت بمناسبة معينة رفع أمرها إلى النبي ، وتكررت أمثالها مما هو طبيعي الوقوع في الحياة الزوجية ، وخاصة في حالات التعدد ، فكانت حلا حكيما وقويما للمشاكل القائمة ، وتلقينا مستمر المدى في الوقت نفسه أيضا . وإذا لوحظ أن آية النساء (٣) قد نبهت على وجوب الاقتصار على واحدة في حالة غلبة عدم العدل ، وأن هذه الآيات قررت تعذر هذا العدل ، وأن تعدد الزوجات مما كان مألوفا في ذلك العهد والبيئة ـ أمكن أن يلمح في هذه الآيات وفي الآية المشار إليها معا تلقين بالكف عن التعدد أو الاقتصاد فيه ، وبالتالى قصد لتعديل ما أبيح للرجال من عدد محدد كانت إباحته نفسها تعديلا لما كان مألوفا من عدم التحديد . وفي خلال ذلك تنطوي صورة من صور السير التشريعي كما هو المتبادر .

الصورة السابعة

(٥) وجاء في سورة المجادلة الآيات التالية :

« قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ . ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... » ١ ـ ٤

وقد احتوت الآيات كما هو واضح منها حكاية موقف جدال بين النبي صلى الله عليه

وسلم وإحدى زوجات المسلمين في صدد شكواها من زوج ظاهرها ، وفي هذا صورة لما كان الأمر جاريا عليه في ظروف الحياة الزوجية ومشاكلها ، وما كان يرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم منها فتنزل الآيات بمناسباته . والمظاهرة تعني قول الرجل لزوجته: أنت على كظهر أمي ! فيحرم عليه قربها ، وتصبح معلقة لا زوجة ولا مطلقة ، وقد كان الأزواج يعمدون إلى هذا إذا ما أرادوا أن يضاروا زوجاتهم أو يبتزوا أموالهن ، أو في حالة غضب وغيظ منهن لأمر ما . ومضمون الآيات يلهم أن المرأة لم تجد في النبي صلى الله عليه وسلم في بادئ الأمر أذناً سامعة ومسارعة إلى إقرار حقها في الشكوى ، ولعله اكتفى بالنصح والوعظ لها ولزوجها ، ولم يكن في ذلك تشريع واف وإلزامي ، فهتفت شاكية إلى الله ، فنزلت الآيات تقر حقها في الشكوى ، وتندد بالمظاهرة والمظاهرين وتسفههم ، وتحل المشكلة حلا إلزاميا .

ولقد جاء في سورة الأحزاب فقرة فيها تسفيه للظهار والمظاهرة دون أن تحتوي حلا ، وهي هذه :

« وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱلَّـٰٓئِي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ...» ٤

فلم تكن حاسمة ، فلما كانت مشكله الزوجة المجادلة المشتكية إلى الله جاءت آيات المجادلة حاسمة ؛ والكفارة تدل على أن الظهار كان أشد أثرا في التحريم من الإيلاء العادى في المجتمع ، فاقتضت الحكمة التشديد فيها لتسويغ إبطاله على ما هو المتبادر . وفي كل ما تقدم صور لسير التشريع القرآني كما هو واضح :

هذا ؛ وموقف الزوجة المجادلة عن حقها المشتكية إلى الله موقف قوي رائع ؛ قد يدل على أن الإسلام والسيرة النبوية قد أوجدا في المرأة شيئا من الطمأنينة بالإنصاف ، وجرأة على الدفاع عن حقها ، وحافزاً إلى المطالبة بإبطال ما كن يتعرضن له من الأذى والحيف بسبب من عادات وتقاليد جاهلية . وفي هذا مافيه من مشهد تطوري في المجتمع الإسلامي الناشئ كما هو واضح .

الصورة الثامنة

وثالثاً : في الطلاق وعواقبه .

(١) في سورة البقرة الآيات التالية :

« لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ

وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . .» .

٢٢٦ ـ ٢٣٣

ويبرز في الآيات قصد حماية الزوجة وحقها في مختلف الحالات ، كما يبرز قصد حماية الكيان الزوجي أو العائلي من الهدم بسبب الحقد والتعنت ، أو الرعونة والطيش ، بروزاً قويا جليل المدى .

ومن المرجح أن الآيات قد نزلت بمناسبة مشكلات حدثت وتكررت وشكاوى رفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم طلبا للحل والإنصاف ؛ ويلهم مضمونها ومقاصدها البارزة أن المرأة كانت إلى حين نزولها عرضة للضرر والإزعاج والأذى والابتزاز في ظروف الطلاق والمعاشرة الزوجية ، من زوجها أحياناً ومن أهلها أحياناً وبسبب عادات جاهلية أحياناً ، وأن الشكاوى المرفوعة كانت من جانب الزوجات على الأغلب ، وإن كان هذا لا يمنع أنها كانت أحياناً من جانب الأزواج ، وهكذا تكون الآيات قد انطوت على صور لما كان الأمر جاريا عليه من قبل البعثة إلى حين نزولها ومعالجة حكيمة للحالة الحاضرة استهدفت توطيد الحق وحماية الكيان العائلي ، وإنصاف المرأة ، وتشريعا مستمرا في هذه الشؤون الخطيرة .

(٢) وفي السورة نفسها الآيات التالية :

١ — لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ . وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . . .

٢٣٦ ـ ٢٣٧

٢ ـ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ . كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ... ٢٤١ ـ ٢٤٢

وقد احتوت تشريعات أخرى في صدد الطلاق متممة لما سبقها ، ويبرز فيها كتلك قصد حماية الزوجة ورعاية حقها . والآيات متصلة السياق بالسلسلة السابقة ؛ وقد تخللتها آيات تتعلق بحالة الترمل سنوردها بعد . وروح الآيات ومضمونها يلهمان أن مااحتوته من أحكام هو جديد لم يكن مألوفاً أو جاريا من قبل ، بحيث يسوغ أن يقال إن حق المرأة في الحالات المذكورة فيها لم يكن معترفا به ، أو كان رهناً بالظروف ، مع أن هذه الحالات مما يتكرر وقوعه في الحياة الزوجية ؛ فاقتضت الحكمة إكمال التشريع بهذه الأحكام ؛ ولا يبعد إن لم نقل نرجح أن مشكلات حدثت وشكاوى رفعت إلى النبي حول هذه الشؤون ، فجاءت السلسلة محتوية لحل ما كان من مشكلات والإجابة على مارفع من شكاوى فيها أيضا ، عليها في الوقت نفسه طابع التشريع المستمر المدى .

الصورة التاسعة

(٣) وجاء في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .. »

٤٩

وقد احتوت حكما متمما لما جاء في سلسلة آيات البقرة السابقة . ويبدو أن بعض المسلمين ظنوا أن العدة لابد منها في كل حال ، أو أن بعضهم استفتى النبي صلى الله عليه وسلم في الحالة التي ذكرتها الآية ، أو حصلت مشكلة ما في صددها ، أو أن هذا هو

ما كان جارياً قبل نزولها ؛ فنزلت مشرعة للأمر بما هو متسق مع المنطق ، إذ أن العدة إنما شرعت لاستبراء الرحم ، ومتصل بقصد حماية المرأة ؛ إذ أن اعتدادها بسبب هذه الحالة مما يضر بمصلحتها . وفي الآية من بعد صورة لسير التشريع القرآني كما هو ظاهر .

(٤) وجاء في سورة الطلاق الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا . وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا . ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا . أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ . لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا . . . »

وقد احتوت الآيات تشريعات متممة للطلاق وظروفه ، يبرز فيها كتلك قصد حماية المرأة وصيانة حقوقها بروزاً قويا كذلك ، بل إن هذا القصد بارز هنا بروزاً أكثر ؛ بدليل ماتكرر خلال الآيات من الأمر بتقوى الله والإنذار به ، وما في الآيات من تكرار لبعض الأحكام السابقة ؛ وهذا يلهم أن بعض المسلمين اقترفوا بعض المخالفات لروح أو نصوص الآيات السابقة متأثرين بعوامل متنوعة ، فحدثت بسبب ذلك مشكلات ، ورفعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شكاوى ، فنزلت الآيات لإيضاح ماقد ظل غامضامن أحكام بعض الحالات ؛ وللتنبيه إلى وجوب التزام أوامر الله وتقواه في هذه الشؤون الخطيرة ؛ وقد جاء الأمر مطبوعاً بطابع التشريع العام ليكون تشريعا حكيما مستمر المدى . والآيات كما هو واضح تحتوي مشهدا من مشاهد المجتمع الإسلامي في العهد المدني ، وصورة من صور التشريع القرآني أيضا .

الصّورة العاشرة

ورابعا : في الترمل :

(١) جاء في سورة البقرة الآيات التالية :

١ ـ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ...

٢٣٤ ـ ٢٣٥

٢ ـ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ

غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ... ٢٤٠

والآيات كما قلنا جاءت في سلسلة آيات البقرة ، وقد قال المفسرون والرواة : إن عدة المترملة الحدادية كانت قبل نزولها حولا كاملا ، لاتخرج فيه من بيتها ولا تتزين ولاتتطيب ولا تتعرض لنكاح أو خطبة نكاح ، وإن الآية (٢٤٠) نزلت قبل الآيتين (٢٣٤ – ٢٣٥) تقر هذه العادة مع إعطاء المرأة حرية الخروج قبل تمام الحول والتصرف بنفسها بما ليس فيه منكر ، وإلزام ورثة الزوج بنفقتها ، ثم نزلت الآيتان لتقرير القاعدة الدائمة ، وقالوا بناء على ذلك : إن الآيتين قد نسختا الآية (٢٤٠) وإن كان في ترتيبها تقديم للناسخ وتأخير للمنسوخ .

والآية (٢٤٠) تلهم فعلا أن عدة حداد الأرملة كانت حولا كاملا ، وأنها قد أقرتها بشكل ما ، وأن الآية (٢٣٤) قد حددت هذه العدة بأربعة أشهر وعشر ليال ، وأن في هذا شيئا من النسخ التشريعي للعادة القديمة . غير أن في الآية (٢٤٠) شيئا من الموضوع المستقل أيضا بحيث لايقال إنها نسخت جملة ؛ لأنها تقرر حق الأرملة في السكنى والنفقة طيلة السنة إذا رأت أن تبقى في بيت الزوجية هذه المدة وتمنحها حق الخروج من بيت الزوجية قبل انتهاء هذه المدة . وعلى كل حال ففي الآيات صور لما كان عليه الأمر في العهد النبوي إلى حين نزولها ، كما فيها صورة لسير التشريع القرآني أيضا . وقصد الرعاية لحق المرأة وحمايتها في الآيات الثلاث بارز شأن الآيات التي نقلناها جميعا ، مما يدعم ما استدللنا عليه من هذا الأسلوب من سوء حالة المرأة ومعاملتها . والمرجح أنه حدثت مشا كل في هذا الصدد ورفعت شكاوى للنبي ، وربما تضمنت هذه الشكاوى التماس التخفيف من وطأة العادات الجاهلية وقد كرم الله المسلمين بالإسلام ، فنزلت الآيات لتحل المشكلة وتعالج الموقف بما يقتضيه الحق والرحمة بالمرأة ، ولتكون تشريعا مستمر المدى في الوقت نفسه .

ولقد نصت آيات سورتي البقرة والطلاق التي نقلناها في موضوع الطلاق على

أن عدة براءة الرحم للحائضات ثلاث حيضات ، ولغير الحائضات ثلاثة أشهر ؛ فتكون عدة الأرملة المذكورة في الآية (٢٣٤) والحالة هذه ليست عدة براءة رحم ، وإنما هي عدة حداد تدخل فيها عدة براءة الرحم ، ويكون القرآن والحالة هذه قد أقر فكرة حداد المرأة على زوجها التي كانت قبل نزول التشريع ، بعد أن أدخل عليها التخفيف والتنظيم ، كما أقر أشياء كثيرة بعد تخفيفها أو تهذيبها أو تنظيمها مما مرت بنا صور عدة منه .

وآية سورة الطلاق (٤) قد جعلت عدة المطلقة الحامل وضع حملها دون نظر إلى عدد الحيضات وعدد الأشهر ؛ لأن الأصل في العدة كما قلنا براءة الرحم ؛ ولقد رويت سنة نبوية بأن هذا أيضاً هو عدة الأرملة ، بحيث لو وضعت الأرملة الحامل عقب وفاة زوجها وقبل مرور الأشهر الأربعة والليالي العشر اعتبرت عدتها منقضية ؛ فإذا صحت السنة المذكورة كان فيها تعديل استهدف التخفيف عن المرأة وصورة من صور التشريع النبوي في شكل تخفيف أو توضيح للتشريع القرآني .

الصورة الحادية عشرة

وخامساً : في الآداب البيتية .

(١) جاء في سورة النور الآيات التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ . فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ . لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ . قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَـٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ . وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَـٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَـٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

مَاظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَايُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . . . » ٢٧ ـ ٣١

وقد احتوت تشريعات تأديبية للمسلمين في إيجاب الاستئذان والإذن قبل دخولهم بيوت غيرهم ، وغض الرجال والنساء أبصارهم عن بعضهم بعضا تفاديا من الفتنة ، واحتشام المرأة في اللباس بحيث لا تظهر من زينتها على غير محارمها إلا ما لا إمكان لإخفائه ، تفاديا من الفتنة أيضا . وروح الآيتين الأخيرتين ، ثم وحدة الآيات والسياق ، تلهم أن التأديب في الآيتين هو في صدد دخول غير المحارم إلى البيوت بعد الاستئذان والإذن ، وإن كان محتمل الشمول لداخل البيوت وخارجها ، والأمر الوارد بالتوبة في الفقرة الأخيرة من الآية الأخيرة قد يلهم أنه وقع شذوذ أو تصرف غير مستحب في سياق دخول بعض الناس على بعض رفع أمره إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن المقصد التأدبي والتنظيمي في الآيات يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد بعد ماتم نشوء المجتمع الإسلامي ، فنزلت الآيات تنظم ذلك هذا التنظيم القويم الحكيم ، وتؤدب المسلمين بهذا الأدب الرفيع ؛ لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تلقينا مستمر المدى أيضا ؛ والآيات ٣٢ ـ ٣٣ التي نقلناها قبل قليل والتي تأمر بتزويج الأيامى والصالحين من الأحرار والعبيد رجالا ونساء ، وتحث على العفة ـ قد تكون قرينة قوية للمناسبة التي ذكرناها لنزول الآيات .

(٢) وجاء في السورة نفسها الآيات التالية أيضا :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ

يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم
مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟
كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ . وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ
أَن يَضَعْنَ(١) ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ . لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ...» ٥٨ ـ ٦١

والآيات كسابقاتها بسبيل التعليم والتأديب ، كما تناولت أمورا أخرى ؛ وقد تلهم أن النساء اللاتي لا يرجون نكاحا قد اشتكين من التشديد في التخمر الذي أوصت به الآيات السابقة ، وأن بعض المسلمين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبتها عما هو جار من دخول الخدم المماليك والأطفال على مخادع الزوج والزوجة في كل وقت دون استئذان وإذن ، أو تمنوا أن ينزل الله تعليما بذلك ، وأن بعضهم تحرج من الاجتماع على الطعام مع العمي والعرج والمرضى ، أو بصورة مختلطة ، أو تمنى كذلك أن ينزل الله تعليما بالأمر ،

---

(١) بمعنى يخلعن ثيابهن أي يتخففن ولا يتشددن بالتخمر .

كما أن المقصد التأديبي والتنظيمي في الآيات كما في تلك ، يلهم أن الأمر لم يكن جاريا على ما احتوته ، وأن حكمة التنزيل اقتضت تحقيق هذا المقصد ، فنزلت الآيات تتمة لما نزل سابقا وبعده بمدة ما .

وفي هذا تنطوي صورة لسير التشريع القرآني كما هو واضح .

(٣) وجاء في سورة الأحزاب الآية التالية :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . . . »

٥٩

وقد ذكر المفسرون والرواة أن النساء الحرائر والإماء كن يتزيين بزي واحد ، فيتعرض الحرائر لأذى الفساق كالإماء ، فنزلت الآية بجعل زي خاص للمسلمات الحرائر حتى يميز الناس بينهن وبين الإماء وينجون من الأذى . وعلى كل حال ففي الآية حل لتفادي تعرض نساء المسلمين للأذى ، مما فيه صورة لما كان يحدث في العهد المدني اتخذت وسيلة لمعالجة الحالة الحاضرة ، وليكون تشريعا وتلقينا مستمرى المدى في الوقت نفسه أيضا .